

محمد الكريم الخليلي

عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

بَقِيَّةُ النَّبُوَّةِ - وَخَاتِمُ الْخَلَائِفَةِ

دار المعرفة للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

عبد الكريم الخطيب

عَلَىٰ بْنِ أَبِي طَالِبٍ

بَقِيَّةُ النَّبُوءَةِ - وَخَاتِمُ الْخَلَافَةِ

”يَا عَلِيُّ.. لَا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ
وَلَا يُبْغِضُكَ إِلَّا مُتَافِقٌ“
«حديث شريف»



الطبعة الثانية

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

دار المعرفة

للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين السراج المنير
والرحمة المهداة للعالمين : وعلى آله وصحبه وسلم

إلى المغفور له

على عبد الرزاق (باشا)

بكاء . . . ودعاء

كم مرة همتُ أن أقدم إليك كتاباً من كتبي ، التي صنعتها على عينك ،
وقطفتها من جنى ثمرك ، فكان يحبسني الحياء ، ويردني الخجل ؛ أن أسمى
إليك ، وأن ألقاك ، ببعض ما صنعت يداك ، فلا يكون أحد عندئذ أولى مني
بقول المتنبي ، في كافور :

جَوْعَانُ يَأْكُلُ مِنْ زَادِي وَيَمْسِكُنِي

كما يقالَ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَقْصُودُ

وفي بعض الأحيان . . كنت أذكرك ، في سماحتك . ونبلك ، وحياتك
من استحياء أصحاب العثرات والزلات ، فأشجع على أن أحلّي باسمك صدر
كتاب ، فإذا بي أتملك ، وقد كَرَبَكَ الْكَرْبُ ، وعلاك الْبَهْرُ ، لهذا الذي
تراه ثناءً وتحسبه إطراءً ، وما هو في - الواقع - ثناء ولا إطراء . ولكنك تأبي
أبدأ على نفسك إلا هذا التواضع ، الذي طُبعتَ عليه ، وعشت فيه !

وهكذا ، يفرّق الموت بيننا ، دون أن أخطو هذه الخطوة إليك !

ثم ها أنت ذا في عالم العلوى ، النورى .. عالم المفقرة والرضوان ..

فهل تغفر لي أن أقدم إليك كتاب « علي بن أبي طالب » ؟ وهل ترضى

منى اليومَ ما لم أكن أراك ترضى به منى بالأمس ؟

أحسب ذلك !

واغفر لي إذن أن أرفع إليك في عليائك هذا الكتاب ، الذي فرغتُ
منه غداة ذهبتُ لعيادتك في مرض موتك ، وكنتُ أريد أن أفضيَ إليك
بمضمون مافيه ، لولا أن سكرة الموت كانت قد اشتملت عليك واحوتك !
ومن تدبير الله — سبحانه — في هذا الكتاب ؛ أنه كان عزاء لي
فيك ، من قبل أن تجيء ساعة العزاء !

فقد أخذت في كتابة سيرة الإمام ، وأنا في شئون مختلفة من الأسى
والحزن ، لمصاب الإسلام والمسلمين ، في تلك الفتنة العمياء ، التي ذهبت
بالمعقول ، وأوردت كثيراً من الناس موارد الضلال والهلاك !
ثم الإمام عليّ — كرم الله وجهه — ومالقي من أصحابه ، وأعدائه ،
من ضروب الكيد ، والخذلان ، حتى يُغلب على أمره ، وتسقط راية الحق
من يده !

لقد بكيتُه ، وبكيتُه ، وحزنتُ له ، وحزنت !
فلما كان المصاب فيك ، اتصل البكاء بالبكاء ، والحزن بالحزن . . وكان
من رحمة الله بي أن مصابي فيك لم يُجدّ لي بكاء ، ولم يحدث لي حزناً !!
ويا سبحان الله !

حتى الاسم الذي بكيتُه وحزنتُ له بالأمر في صحبة الإمام عليّ ، هو الاسم
الذي أبكيتُه ، وأحزن له اليوم ، يوم الفجعة فيك !
وهكذا ، كنتُ أبداً ، حياً ، وميتاً .. لا يَخْلُصُ منك إلى أصحابك ،
وأحبائك مايسوء أو يحزن ، حتى في مقام السوء والحزن !

وبعد :

فإنك يا عليّ لأشبه الناس بعلي بن أبي طالب .

شجاعة في الحق ، وجرأة على مصادمة الأحداث ، وثبات في ميدان
المعركة تحت راية الحق . . ولو فر الأنصار ؛ وخلا منهم الميدان^(١) !
وصف ضراو الصدائي علياً فقال :

« كان فينا كأحدنا ، غير أننا لانكاد نبتدئه ، لعظمته وهيبته » .

ولا يجد الخاطون لك ، والمتصلون بك ، وصفاً أصدق من هذا الوصف ،
الكاشف عن حقيقة الحال ، فيما كان بينهم وبينك ، من مُدانة منك ، وتوقير
خاشع منهم !

رحمك الله — أبا محمد — وأوسع لك في منازل الصديقين والأبرار ،
ونفع الناس بما خلفت وراءك من علم مُصنّف ، وأدب عالٍ ، وخلق كريم ، إنه
سميع مجيب .

عبد الكريم الخطيب

(١) تذكر هنا معركة كتابه : « الإسلام وأصول الحكم » وأمره معروف

مشهور .

الرَّسُولُ وَصَحَابَتُهُ

- عن أبي موسى الأشعري، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« النجوم أمانةٌ للسماء . . فإذا ذهبَت النجوم ، أتى السماء ما توعده . .
وأنا أمانةٌ لأصحابي . . فإذا ذهبتُ أتَى أصحابي ما يوعدون . .
وأصحابي أمانةٌ لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون » .
« رواه أحمد ومسلم »

* * *

- عن عبد الله بن عمر ، رضی الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :
« إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم . . أيُّ أقوامٍ أنتم ؟ »
قال عبد الرحمن بن عوف : نكون كما أمرنا الله عز وجل ! .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تنافسون ، ثم تحاسدون ، ثم
تدأبرون ، ثم تنطلقون إلى مساكن المهاجرين ، فتحملوا بعضهم على رقاب بعض !
« رواه مسلم »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الكتابة في سيرة الخلفاء الراشدين ، مورد عذب . تزام عليه الوردون من رواة الأخبار ، وكتاب السير ، وأصحاب القصص والملاحم .. على اختلاف نزعاتهم وأهوائهم ، في كل عصر من عصور الإسلام ، وفي كل أفق من آفاقه ! ذلك أن الأربعة الراشدين : أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي - رضي الله عنهم - كانوا من الإسلام أشبه بالأركان التي تقوم عليها البنية ، وبُشِدَ عليها بنيانها ! بما كان لهم من سابقة في هذا الدين ، وجهاد في سبيله ، ومؤازرة لرسول الله ، ورسوخ في تمثل أحكام الشريعة ومقرراتها ، بحيث يرى الرائي فيهم ؛ التطبيق العملي الواضح للإسلام - شريعة وعقيدة - كما يختبر المختبر منهم ؛ مغارس النبوة ، وبواكير ثمارها ، فيما أخذهم النبي الكريم به ، وفيما نشأهم عليه ، من الهدى السماوى ، والأدب النبوى ، فكانوا الوجه الذى تتمثل على قسّماته معالم هذا الوصف الكريم الذى وصف الله - سبحانه وتعالى - به هذه الأمة ، فى قوله سبحانه : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » !

فإذا توارد العلماء والفقهاء على دراسة القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، للتعرف على أحكام الشريعة ، واستجلاء أسرارها ، وكان هذا الفيض الزاخر ، من كتب الفقه ، والتفسير والحديث ، والأصول ، والكلام ، بل واللغة ، والنحو ، والبلاغة ، وغيرها من المعارف التى قصد إليها أول ما قصد لخدمة الدين ، والوقوف على ما يمكن الوقوف عليه من أسرار - نقول : إذا

كان ذلك كذلك فإن من تمام هذه الدراسة ، ومن الوفاء لحقها أن تكون صورة الخلفاء الراشدين بخاصة ، وصور صحابة الرسول بعامة آخذة مكانها إلى جانب هذه المباحث ، معنيا بها تلك العناية التي تبذل في علوم الشريعة ، وما يتصل بها . . .
وقد كان !

فمنذ لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وتبعه خلفاؤه وأصحابه إلى رضوان الله ، وأفواه المسلمين رطبة نديّة ، بسيرة الرسول العطرة ، وبسيرة أصحابه وخلفائه ، يعيش المسلمون أوقات تلك الفترة التي لا تسكاد تبلغ نصف قرن - لحظة لحظة ، وساعة ساعة ، ينسّمون منها أرواح الهدى ، ويتزودون منها بالزاد العتيد من التقوى ! .

وعن هذا الإحساس ، وذلك الشعور كان هذا الفيض المتصل ، الذي لا يفيض ، من فنون البحث والدراسة ، لسيرة الرسول الكريم وخلفائه ، وصحابته ، ولكل من كان له في الإسلام قدم صدق ، أو كان له من الإسلام بعض مافي الإسلام من نور وهدى .

* * *

إن تاريخ العظماء ليس مجرد حياة وموت ، وأحداث وقعت فيما بين الحياة والموت ، فضبطتها صحف التاريخ ، وختم عليها الزمن بخاتمه ، وإنما تاريخ حياتهم ميراث كريم ، تتوارثه الإنسانية كلها ، وتفتدى بما فيه من عظات وعبر ، وتقطف من مجانيه ما تطول يدها ، وتبلغ همتها ، من تدوة صالحة ومثل كريم ! .

ومن أجل هذا كانت حياة الداهيين من العظماء ، في معرض النظر والدرس . وفي مجال الخوض والتحصيل ، لكل إنسان ، ولكل جماعة ، ولكل أمة ! لاستخلاص ما يمكن استخلاصه من عظات وعبر ! .

والخلفاء الراشدون الأربعة في مكان الصدارة من قمة العظمة الإنسانية ، في مختلف صور العظمة ، وفي أرفع منازلها ، وأسمى مراتبها . . . إذ كانت عظمتهم موصولة بأسباب العظمة النبوية ، سالكة مسالكها ، في مدارج السمو الروحي ، والاطمئنان القلبي ، الذي تسكن به نزعات الهوى ، وتطيش معه رميات الشيطان ووساوسه .

ثم إن حياة الخلفاء الراشدين الأربعة ؛ وجوه مشرقة بارزة للشرعية الإسلامية . . . إذ كانوا في أقوالهم وأفعالهم ، وفي سياستهم لدولة الإسلامية ، وضبط شئون المجتمع الإسلامي ، وتدبير أموره — كانوا ترُجُماناً صادقاً لرسالة الإسلام في الحياة ، وتفسيراً عملياً لمنهج ، في إقامة مجتمع الإنسانية ، على أحسن وأنتم صورة يمكن أن تقع في الحياة البشرية .

فتاريخ عهد الراشدين ، هو — كما قلنا — التطبيق العملي الرسالة الإسلامية . ودراسة هذا التاريخ ، هو من فقه هذا الدين ، والتعرف على حقائقه .

وإنه إن يكمل لفقيه فقهه ، أو مفسر تفسيره ، أو محدث ما حدث به ، إلا إذا التقى بصحابة رسول الله — وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة الراشدون — ووقف على أقوالهم وأفعالهم ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وإلا فقد فاتته علم كثير ، وغاب عنه الدليل الذي يقيمه على سواء السبيل ، ويرفع لعينيهِ مفارقات الهدى ، كما غامت عليه وجوه الرأي ، وأفادت من بين يديه زمام الطريق — إلى الحق والخير .

ومن هنا كان هذا الذي تحدثت إليك به ، من توارد الواردين على دراسة تاريخ هؤلاء الأعلام ، وعرض سيرهم في مختلف المعارض ، جنباً إلى جنب مع الدراسات الواردة على الشريعة الإسلامية ، وما يدور في فلكها ، من علوم ، وفنون !

بل وأكثر من هذا .

فإنه في المصور التي توقف فيها العقل الإسلامى ، عن النظر الدارس في الشريعة — بعد أن سُدَّ باب الاجتهاد — لم يتوقف هذا العقل عن معاودة النظر في سيرة الخلفاء الراشدين ، وإخوانهم من صحابة رسول الله . . إذ كانوا هم المعالم الواضحة في متاهات الحياة التي أظلت المجتمع الإسلامى ، وكانت سيرتهم هى الشعاع الهادى ، الذى يلوح بين غياهب الجهل والعمى ، فى ذلك الليل الأسود الطويل !

فإذا نحن أخذنا بحظنا من النظر فى سيرة الخلفاء الراشدين — دارسين وكتابين — فإنه لن يعدل بنا عن هذا الطريق ، أو يصرفنا عن تلك الغاية ، أن كان غيرنا قد سبقنا ، وأنه ماترك الأول الآخر شيئاً ، كما يقولون ! وكلا . . فإن الخير كثير ، وما يمكن أن يقال أكثر مما قيل ، فهذا المورد المذهب — وإن تراحم عليه الوردون — يفيض عن عين ثرة لاتفيض !

ولكننا مع هذا ، لانقول كما قال أبو العلاء :

وإني وإن كنت الأخير زمانه

لأتِ بِعالم تستطعم الأوائِل

فالسابقون السابقون . . أولئك هم أولو الفضل والإحسان . . على

آثارهم تقتدى ، وبهداهم نهتدى ، ومن وراء نظرهم ننظر !

ومع هذا ، فإننا نطمح فى أن نأتى بجديد ، إن لم يكن فى صميمه ، ففى بعض شِياته وملاححه . . إذ كنا ننظر إلى أحداث هذه الفترة من أفق بعيد ، بحكم الزمن الذى يفصل بينها وبين تلك الأحداث ، كما أننا نراها بمعارف العصر الذى نعيش فيه ، ونقيسها بمقاييسه ، التى لاشك فى أنها تختلف كثيراً أو قليلاً عن معارف ومقاييس العصر الذى ولدت أو دونت فيه .

ولكن ما لهذا كان هذا الحديث ، وتلك المقدمة . . . فذلك أمر مفروغ منه ، فما قال أحد من المسلمين — بخاصة — إن الكتابة في سيرة الصحابة والراشدين مما يُعْتَذَرُ له ، أو يتخوف منه . . . بل إن العكس هو الصحيح ، وهو أن مراجعة سيرة هؤلاء الصحابة — بحثاً وتمحيصاً ، أو قراءة واستماعاً — أمر مندوب إليه ، يرجى الثواب منه ، ويبتغى الرضوان به !

ولكن الذى نحاذره ، ونريد أن نبسط له العذر ، هو الحديث في تلك الأحداث التى وقعت بين يدي خلافة « على » كرم الله وجهه ، وفي أثنائها !
فغير منكور أن الأحداث التى وقعت في تلك الفترة معقدة أشد التعقيد ، عسيرة أشق العسر ، لِمَا يكتنفها من ضباب ، وما يلقها من ظلام ، يعنى على السالك سبل الرؤية فيها ، ويحجب عنه منافذ النظر إلى حيث يرى مواقع قدميه !

فالمصادر التى روت أحداث هذه الفترة ، تكاد تكون جميعها نسقاً واحداً ، حتى أركانها تستعمل أخبارها من وثائق محققة ، لا تقبل رداً !!

والذين سجلوا هذه الأحداث يكادون يتفقون جميعاً في تصويرها على وجه واحد ، وإن كان لبعضهم شيء فيها ، فهو في أسلوب عرضها ، إطناباً أو إيجازاً ، وجمعاً بين المرويات أو اقتصاراً على بعض منها .

وهذا أمر يدعو إلى العجب ، فما رأينا أحداً من أصحاب المؤلفات التى تعتبر مرجعاً لهذه الفترة — توقف عند خبر ، أو شك فيه ، أو حمله على غير ظاهره ، ومن فعل ذلك ، ففي قِلَّةٍ ونُدرة ، وفي حذر وإشفاق .

فهل هي وثائق محررة ، تلك التى رجع إليها أولئك المؤلفون وأخذوا عنها ؟ الواقع يشهد أنها ليست كذلك ، بل هي — كما سنرى — مقولات تُروى من أفواه الجماهير ، وتلتقط من كل مصدر ، أيا كان ، دون نظر إليه ، ودون

اعتبار لتعديله أو تجريجه ، حتى أن أكثر هذه الأخبار يسند إلى غير شخصية معروفة ، ويضاف إلى جواهر غفيرة لا يعرف لها وجه ، فيصدّر الخبر بقولهم : ذكروا ، وزعموا ، وقالوا ، ورؤوا . . . دون أن تنكشف شخصية أحد من الذاكرين ، أو الزاعمين ، أو القائلين ، أو الراوين . . . فما تأويل هذا ؟

والذى يمكن أن نقول به ، لتعليل هذه الظاهرة ، هو أن هذه المرويات تتناول قضية من أعقد القضايا التى واجهت المجتمع الإسلامى الأول ، وتمس جماعة من صفوة المسلمين ، وفيهم جِلة الصحابة ، وأصحاب السابقة فى الإسلام ، الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، مبشراً بإيام برضوان الله ، وبجنات النعيم .

ومن هنا كان هذا التهميت ، وهذا التوقف فى التعليق على تلك المرويات ، وأخذها بالتجريح أو التعديل . . . فكان أخذها على علّاتها ، وإجراؤها على ما حدث الناس به — أقرب السلامة ، وأدى إلى العافية ، لمن يريد لنفسه السلامة ويطلب لها العافية ، من أن يفاضل بين صحابين ، فيكذب هذا ، ويبرىء ذاك ! إن راوى الخبر ينقل ما سمع أو قرأ ، وفى يقينه أنه ليس عليه فى ذلك تبعة ، إن كان فيما ينقله وبرويه ، إدانة لبرىء أو تبرئة لمذنب . . . إذ ناقل الكفر ليس بكافر !

ذلك أن هذه المرويات ، إن أراد أحد أن يجعل لها وجهاً مقبولاً فى حق صحابى ، كان هذا الوجه نفسه حكماً قاسياً على صحابى آخر . . .

خذ لذلك مثلاً ما كان بين على ، وبين عائشة وطلحة والزبير ، فى تلك الأمور التى انتهت بموقعه « الجمل » والتى ذهبت بآلاف من خيار المسلمين ! فأبى مسلم تطاوعه نفسه ، أو يرضى له دينه ، أن يدين صحابياً ، فى موقف وقفه من تلك الأحداث التى جرت ؟

إنها الكبيرة على نفس المسلم أن يحمل تبعة هذه الأحكام التي يصدرها في هذا الموقف ، وأنه إذا جمجم صدره بشيء من هذا ، لم يجد اللسان الذي ينطق به ، أو القلم الذي يخطه .

ولو أن هذه الرويات كانت على قدر مقبول من الصحة والسلامة ، لكان ممكناً أن يقيم المرء لنفسه رأياً فيما حدث ، وأن يمسك به ، فلا يذيعه ، إن تأثم أو تخرج ، أو يحدث الناس به إن لم يستشعر إثمًا ولا حرجاً ! فكيف وهي مرويات اختلط فيها الحق بالباطل ، والصدق بالكذب ، والواقع بالخيال ؟ .

وإذن فالذي صنعه رواتها وجامعو أشقاتها ، من الاكتفاء بجمعها ونقلها على ما وجدوا الناس يحدثون به منها — هذا الصنيع هو أعدل موقف وأسلمه حيالها . فهم في جمعهم لهذه الأخبار — على ما بينها من التناقض والتدافع — قد حفظوها من الضياع ، ثم هم بهذا الجمع قد ضبطوا صورتها من أن تتبدل وتزداد مع الزمن تشويهاً واضطراباً ، بما يدخل عليها من إضافات ومرويات ، يولدها الخلاف المذهبي ، والسياسي ، ويلونها الخيال القصصي والخرافي . وحسبهم أنهم احتملوا تبعة جمعها وحفظها وإذاعتها في الناس على ما بها ! ولا عليهم إذاهم تركوا لمن بعدهم أن يحمل عنهم تبعة التعديل والتجريح لتلك الأخبار . . . وشيء من هذا أو قريب منه ، كان ذلك الموقف الذي وقفه رواة الحديث ومدونوه ، فإنهم تلقوا عشرات الألوف من أحاديث الرسول ، أخذوها أول الأمر كما هي ، وقبلوها على ما بها . . . ثم أخذوها بعد ذلك بالنظر والبحث ، في سلسلة رواتها ، وفي تعديلهم أو تجريحهم ، ثم انتهى بهم الأمر إلى ترك الكثير مما لم يصح ، وأخذ القليل مما قد صحّ لديهم ، أو غلبت صحته .

ومع هذا فإن أعداداً غير قليلة من هذه الأحاديث المدونة ، لم يسلم لهم بها ، ولم تقع موقع الاطمئنان في مجال التشريع واستنباط الأحكام ، ولكمهم آثروا تدوينها ، إذ ربما ينكشف منها على الأيام ما لم ينكشف بعد . ذلك ، ومع أصحاب الحديث ميزان قائم ، ودليل هادٍ ، يقيمون عليه ما كانوا يتلقون من أحاديث ، وهو كتاب الله الذي لا يقبل معه حديث يصادم نصاً من نصوصه ، أو يخرج على حكم من أحكامه .

* * *

هذا أول ما يعترض الطريق ، أمام من يريد أن ينظر في أحداث هذه الفتنة ، التي ابتلى بها المسلمون في تلك الفترة ، وهو فراغ يد الباحث من وثائق محررة ، تضبط أحداثها ، كما وقعت ، أو قريباً مما وقعت .

وأمر كهذا ، من شأنه أن يُخرج ضمير من ينصب نفسه للحكومة في هذه الأحداث ، ويخرج عدالته ، إن هو أعطى حكماً قاطعاً فيها .

ثم هناك من وراء هذه العقبة عقبة أخرى ، أشرنا إليها من قبل ، وهي أن هذه الأحداث تقناول أشخاصاً لهم من نفوسنا كل إعزاز وإكبار ، ولهم من قلوبنا المكان المكين من الحب والولاء ، لما كان لهم في هذا الدين من مواقف خالدة ، آثروا فيها دين الله على أنفسهم وأموالهم وأهليهم ، فعزّ بهم دين الله ، وعلت كلمة الحق ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

وإن هؤلاء الذين نجلّهم ونحبّهم ، ونتمثل للثل الأعلى فيهم ، والقُدوة الصالحة منهم ، قد اختلفوا فيما بينهم اختلافاً حاداً ، حتى لقد بلغ الحال بهم إلى لقاء بعضهم بعضاً ، تحت رايات الحرب ، يضرب الأخ أخاه ، ويقتل الصديق صديقه ، وكان من حصاد هذا الصراع ذهاب أرواح كريمة ، بأيدي كريمة ، كان جهادها كله لله ، وفي سبيل الله ! .

وينظر الناظر إلى هؤلاء الأربعة المختلفين المتقاتلين ، فيرى كلا منهم قد ركب طريقاً غير طريق صاحبه ! .

فمع من يكون الحق ؟ وفي أى جبهة يكون المسلم لو شهد هذه الأحداث ، إذا هو أراد أن ينصر الحق ، ويكون مع الحقين ؟ .

لا شك أن الحق وجه واحد ، فهو مع هذا الجانب أو ذاك ، وغير ممكن بحال أن يكون مع كلا الفريقين في وقت معاً ! .

قليل جداً من صحابة رسول الله اختلط عليهم الأمر في هذه الفتنة ، فأغمدوا سيوفهم ، وأغلقوا عليهم أبواب دورهم ، فلم يشهدوا مشاهدتها ، ولم يكونوا مع هذه الفئة أو تلك ، وكان عذرهم عند أنفسهم ، ولمن جاء يدعوهم إلى هذا الفريق أو ذاك - أنهم في ظلمة فتنة ، لا يعرفون أين وجه الحق ، فيتجهون إليه ! .

يقول عبد الله بن عمر في هذا : « جاء أمر فيه السيف ولا أعرفه ! » . ويقول المغيرة بن شعبه : « أريد أن أضع سيفي ، وأنام في بيتي ، حتى تنجلي هذه الظلمة ، ويطلع قمرها ، فتسرى مبصرين ، تنفق آثار المهتدين ، وتبقى سبيل الخائرين ! » . ويقول سعد بن أبي وقاص : « أى بنى ! أفى الفتنة تدعوني أن أكون رأساً ؟ لا والله ، حتى أعطى سيفاً إن ضربت به مسلماً نبأ عنه ، وإن ضربت كافراً قتله » . . . هذا موقف قلة قليلة من الصحابة ، وذلك رأيهم .

أما البقية الباقية من أصحاب رسول الله - عدا هذا النفر القليل - فقد انحاز كل منهم إلى أى الطائفتين رآها أحقّ بنصره وأولى بمساندته ، وحتى هؤلاء النفر الذين اعتزلوا هذه الأحداث في أول أمرها ؛ لم يستطيعوا أن يلتزموا هذا الموقف التزاماً كاملاً إلى آخر المدى ، فشارك فيها بعضهم بلسانه ، وشارك بعضهم الآخر بلسانه ويده معاً ، حين التحمت الأحداث ، وتتابعت الفتن ! ونحن ، وإن كان الله قد عافانا من الابتلاء بهذه الحنة ، فلم نكن ممن قدر له أن يشهدا ، أو يشترك فيها - فإننا نمتحنون بالنظر في مخلفاتها ، وفي مراجعة

أحداثها ، ووزن مواقف الرجال في كل حدث منها ، إذ كان ذلك أمراً لا بد منه ، ولا محيص عنه ، إن أردنا أن نصل حاضرنا بماضيها ، ونتلقى عن سلفنا مواقع العبرة والعظة ، فيما كان لهم من قول أو فعل ! فما كان لمسلم أن يتجنب مطالعة هذه الأحداث ، وتقليب وجوه النظر فيها ، وارتداد مواطن الخير منها . وما كان لمسلم ، وهو يطالع هذه الأحداث ، ويقلب وجوهها أن يعزل شعوره عن الرضا أو السخط ، والحمد أو الذم ، فيما يَرْضَى أو يسخط ، ويحمد أو يذم من مواقف الرجال ، في هذه الحن القاسية ، وتلك الفتن الشنعاء .

فنحن إذن مَبْتَلُونَ ببعض ما ابتلى به أسلافنا ، الذي شهدوا هذه الحنة وخاضوا غمارها ، أو شاركوا في أحداثها من قريب أو بعيد .. لا يقطعنا الزمن وإن بُد ، ولا تصرفنا الأحداث ، وإن ذهبت ، عن أن نأخذ بنصيبتنا من هذه الحنة ، وأن نحمل بعض ما حمل أسلافنا من خيرها وشرها ، وأن نذوق بعض ما ذاقوا من حلوها ومرها ! .

* * *

على أنه مما يخفف من قسوة هذا الامتحان الذي مُتَحَنُّه ، بالخوض في أحداث هذه الفترة ، وبالتقليب في رماد هذه الفتنة — أن الأشخاص الذين شهدوا هذه الحنة وابتلوا بها ، قد أخلوا أيديهم من هذه الدنيا ، وانقطعت الصلة بينهم وبين أهلها ، لا ينفعهم رِضَى من رضى ، ولا يسوءهم سَخَط من سَخَط ! . والأحداث التي جرت على الإسلام والمسلمين في تلك الفترة قد مضت إلى غايتها ، لا يمكن استرجاعها ، أو تحويل مجراها عن الطريق الذي أخذته . فإذا رحمنا مظلوماً أو نقمنا على ظالم ، فما لهذا كبير غناء ، ولا جزيل عائدة لمن نرحمه ، أو نقم عليه ! .

أمر واحد هو الذي نُعْطَاه — كأحياء — من مراجعة هذه الأحداث ، ومعاودة النظر إليها .. هو استخلاص العبرة والعظة ، واستجلاء بعض مافي

النفس البشرية من خبايا . حين تتعرض لما تمتحن به من خير ، وشر ،
وحين يتصادم فيها الحق والباطل ، والرشد والغى ، والمهدى والضلال ،
والعقل والهوى !!

ففي هذه المجال تبرز العبر ، وتستعلن العظات ، حيث تتحلى مواطن القوة
والضعف في الإنسان ، وحيث ينتهى حصاد هذا الصراع كله إلى نهاية واحدة
لا تتخلف أبداً ، هي أن ما يقوم على الحق والعدل باق لا يزول ، وأن ما يُبنى
على الباطل فإلى ضياع وبوار ، وإن امتد واستطال ! .

* * *

وأمر آخر نراه داعية من دواعي التخفيف ، ودفع بعض الحرج ، الذى
نجدد ونحن مقبلون على مواجهة هذه الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام ، وهو
أن الذين شاركوا في هذه الأحداث من صحابة الرسول ووجوه المسلمين — هم
أبناء هذه الحياة .. فيهم مافى الطبائع البشرية من نزعات الخير والشر ، وفيهم
مافى الناس من إحسان وإساءة ، وما كان لهم أن ينسلخوا عن هذه الطبيعة ،
وإن بلغوا ما بلغوا من الكمال والصفاء ، فذلك الكمال وهذا الصفاء
مقدوران بالطبيعة البشرية ، محكومان بحكمها ، ومقيدان بقيودها !!

وفى القرآن الكريم مواقف تكشف عن الكثير من خبايا النفس البشرية
وما يضطرب فيها من نزعات ، وما يطلع عليها من وساوس ؛ حين تواجه فتنة
نازلة ، أو محنة قاسية ، وحين بهتزميزانها ، وهى فى هذا العلو الشاهق ،
الذى تسكاد تدانى به الملأ الأعلى ، وتترف بأجنحتها فى سماواته .

فأخوة يوسف ، وهم فى حجر الفبوة .. يأتمرون بأخ لهم ، ويدبرون له
مادبروا من كيد عظيم !!

ويوسف النبيّ أو المرشح للنبوّة — تكاد تغلبه طبيعة الإنسان في الجانب الضعيف منها ، أمام الإغراء المالح ، الذي يعرض له ، في مفاتن امرأة فاتنة ، مدلهة به ، والهة في حبه : « لولا أن رأى برهان ربه » ! .

وداود — عليه السلام — وفي يده ملك عريض . وبين يديه منات من الجوارى الحسان ، يمدّ بصره ، إلى مالا يملك ، فتكون منه زلة ، ويكون من الله مغفرة ورضوان : « فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزاقى وحسن مأب » ثم هذا آدم — أبو البشر — يقيمه الله في جنته ، بقمقم بما شاء من خيراتها التي لا تعد ، ويدعو الملائكة إلى السجود بين يديه ، إحساناً إليه ، وتكريماً له — تنزع نفسه إلى شجرة ، ويطعم منها . . . وهي لم تكن أطيب ما في الجنة ، ومع هذا قد هفت به نفسه إلى أن يخرج عن أمر ربه ، ويحىء إلى تلك الشجرة ، ويمد يده إلى ثمرها ، ويطعم منه !

إننا في أرض البشر . . . والصحابة رضوان الله عليهم — عاشوا على هذه الأرض ، فلم يكن بعيداً عنهم إن تغبّر أقدامهم بترابها ، ولم يكن هذا بالذي ينزل بهم عن منازلهم العالية ، أو ينال من أقدارهم العظيمة .

وإنّ أحداً لم يأخذ على الله عهداً أن يقيمه أبداً على الطريق الذي يتججه به إلى الجنة . ويفتح له أبوابها . وذلك أمر قدره الله وقضاه ! وكل ميسر لما خلق له .

ومع هذا فلسنا موكلين بحساب الناس ، حساباً أخروبياً ، فنقول هذا من أهل الجنة ، وهذا من أهل النار — فذلك حساب أمره إلى الله وحده ، يعذب من يشاء ، ويففر لمن يشاء ! .

وقد صار هؤلاء القاتلون والمقتولون — في هذه الفتنة — صاروا إلى

ما وراء هذه الحياة الدنيا ، ولم يبق إلّا ما خالقوا من آثار وأعمال : هي التي تخضع لفطرنا فيها ، وحكمنا عليها ، وقبولنا لما نقبل ، وردنا لما نردّ منها .

* * *

إنّا لفظلم أنفسنا ظلماً عظيماً ، إذا نحن جلسنا مجلس القضاء للفصل بين المتنازعين في هذه الأحداث ، التي دارت بالمسلمين دورة عاصفة ، أتت على كثير من الأنفس الكريمة العزيزة ، علينا ، وعلى الإسلام .

فالأحداث — كما قلنا — كانت بحيث أذهلت كثيراً ممن كانوا يراى ومسمع منها ، فلم يعرفوا أين يكون موقفهم منها . فكيف بنا نحن ، وقد فصل الزمن بحجاز كثيف بيننا وبين هذه الأحداث ؟ ثم كيف بنا وقد جاءتنا أنباء هذه الأحداث مختلطة مضطربة ، لا يُرجع فيها إلى مدونات محققة ، محررة من الكذب والتلفيق ؟ .

والذين شاركوا في هذه الأحداث — كما قلنا أيضاً — أبعد من أن نتناول إلى مقامهم الذي رفهم الإسلام إليه ، فنزيل أحدهم عن هذا المقام ، أو نزرّحه عنه ! !

ولإنها لجراءة على الحق ، وتناول على أقدار الرجال ، أن يتقحّم متقحّم هذا البحر العظيم ، فيخوضه بقدميه ، أو يسبر غوره بيديه !
عن التّوّزى قال ^(١) :

« لما انقضى يوم الجمل ، خرج علىّ بن أبي طالب — كرم الله وجهه — في ليلة ذلك اليوم ، ومعه قنبر ^(٢) ، في يده مشعلة من نار ، يتصفح القتلى ، حتى

(١) الكامل للمبرد جزء أول / ١٣٦ .

(٢) قنبر : مولى على بن أبي طالب .

وقف على طلحة بن عبيد الله ، فلما وقف عليه قال : « أعزّز عليّ أبا محمد أن أراك معفراً تحت نجوم السماء ، وفي بطون الأودية ! ! شفيتُ نفسي ، وقتلت ممشري ! إلى الله أشكو عَجْرِي وَبُجْرِي ^(١) » .

وبعد موقعة الجمل هذه . . دخل موسى بن طلحة على عليّ — رضى الله عنه — فقال له عليّ : « إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم : وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ » .

وأمسى عليّ بالبصرة في ذلك اليوم الذي أتاه فيه موسى بن طلحة ، فقال له ابن السكواء ^(٢) : أمسيتَ بالبصرة يا أمير المؤمنين ؟ فقال : كان عندي ابنُ أخي ! قال : ومن هو ؟ قال : موسى بن طلحة ! قال ابن السكواء : لقد شَقِينَا إِنْ كَانَ ابْنُ أَخِيكَ ! فقال عليّ ويحك ! إن الله قد أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم ، فقد غفرتُ لكم » .

فإذا كان هذا هو رأى أصحاب القضية في إخوانهم الذين نازعهم فيها ، وقتلهم عليها ، فكيف نبيح نحن لأنفسنا أن ندخل خصوماً فيها ، بحساب غير هذا الحساب ، وبتقدير غير هذا التقدير ؟

إن ذلك — إن فعلناه — لم يكن إلا سهاماً طائشة ، إن أصابت أحداً فلن تصيب غير رُماتها !

ونعوذ بالله ، من أن نقتل أنفسنا بأيدينا ، وأن نبوء بالإثم ، من حيث نبغى المثوبة والرضوان !

إننا لا نريد بهذا الحديث الذي نخوض غماره ، ونتحمل الكثير من المشقة والعناء بالمجازفة فيه — لا نريد إلا أن نتحمل صورة من البطولة الفذة ، والإيمان

(١) عَجْرِي وَبُجْرِي : سرى وجهرى ، أى أمرى كله .

(٢) أصبح رأساً من رؤوس الخوارج فيما بعد .

الراسخ الوثيق ، الذى لا تزعزعه الحن ، ولا تنال منه الأحداث ، وإلا أن نجلى هذا الحدث الفريد فى إثبات الحق على الهوى ، والآخرة على الدنيا ، وما عند الله على ما عند الناس ، مما لم تشهده الحياة إلا فى رساله وأنبيائه ، وما يمتحنون به من ضر وأذى ، فى سبيل ما يحملون إلى الناس من خير وهدى ، لا يلوهم شيء عن طريقهم ، ولا يعدل بهم وعد أو وعيد عن غاياتهم ، ولو وقفت الدنيا كلها فى وجههم !

والوجه الواضح الذى تتمثل فيه هذه المعانى واضحة مشرقة ، هو الإمام على كرم الله وجهه ، وهو الذى من أجله ، ومن أجل تلك المعانى التى عاش لها ، وقُتل من أجلها كان هذا الحديث ، وتلك الدراسة لهذه الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام !

وعلى — كرم الله وجهه — هو بقية النبوة ، وخاتم خلافة النبوة ، وحياته كلها معركة متصلة فى سبيل الله ، وإثبات سبيل لإعزاز دين الله ، وإعلاء راية الإسلام التى حملها رسول الله ، والتفت حولها المهاجرون والأنصار ، فكانوا جند الله ، وكتيبة الإسلام ، قد تلقوا الصدمة الأولى ، فى سبيل الدعوة واحتملوا تبعات الجهاد فى سبيل الله ، صابرين مصابرين ، حتى جاء نصر الله ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

أما على ، فقد كان صدره درعاً واقية لدعوة الإسلام ، من أول يوم الإسلام ، إلى أن تداعت حصون الشرك ، وذهبت معالمه . . . !

وكان سيفه شهاباً راصداً ، يرمى أعداء الإسلام بالمهلكات ، ويشيع فى جموعهم الخزي والخذلان ، ويلبس أبطالمهم وصناديدهم المذلة والهوان . . . حتى ليكون سيفه علماً يسمى « ذا الفقار » وحتى ليكون صاحب السيف مثلاً يحدث الناس به فى مواقف البطولات الخارقة ، فيقال : « فتى ولا كملى » .

وكان قلبه مورداً صافياً ، ومشرعاً عذياً سمحاً ، لما ضُمت عليه شريعة الإسلام ، من نور وهدى ، وما حملت من علم وحكمة ! حتى ليقال إن الرسول الكريم قال فيه : « أنا مدينة العلم ، وعلى بابها » .

وكان لسانه ترجماناً صادقاً ، وبلاغاً مبيناً ، وبياناً محكمًا ، وقضاءً فيصلاً ، لكل حدث مغلق ، وفي كل شبهة مظنة ، وعند كل قضية معصلة . ! حتى سيكون في هذا مثلاً مضروباً ، فقيل فيه : « قضية ولا أمان حسن لها » وحتى يقول الرسول فيه : « على مع الحق ، والحق مع على » .

ثم من بعد كله أو قبل هذا كله ، زهده ، وتقواه ، وعبادته . . . وهو في كل وحدة من هؤلاء ، الذروة العالية التي لا تنال ، والسائق المجلى الذي لا يدرك .

فإذا اجتمع له مع ذلك قرابة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيكون ابن عم النبي ، ثم ربيبه الذي ينزل منزلة الابن في بيته ، ثم يكون زوج ابنته ، فاطمة الزهراء ، ثم يصبح أباً للسبطين الكريمين : الحسن والحسين - يقول : إذا اجتمع لعمى كل ذلك أو بعض ذلك ، إلى ما عنده من صفات جسمية وروحية ، وعقلية ، فإن ميزانه في لرحال يرحح أثقل الناس ميزاناً ، وأعظمهم قدراً !

ومع ذلك فإننا نرى الإمام — رضى الله عنه — قد فاته أكثر ما كان يؤمل له ويرجى ، في هذه الحياة !

فقد كانت الخلافة أقرب إليه بعد رسول الله من أى صحابي آخر . . .

فما تمت البيعة لأبى بكر ، توقف قليلاً ، وأمسك يده عن البيعة له بالخلافة ، حتى إذا رأى القبائل تتنادى بالردة والخروج عن طاعة الخليفة الجديد ، بادر فسد هذه الثمرة ، وأعطى الخليفة كل ولاته وبصحه !

وكانت سيرة أبى بكر رضى الله عنه شهادة بليغة بأن المسلمين قد اختاروا

فأحسنوا الاختيار ، ورأى عليّ — رضى الله عنه — أنه لو كان مكان
أبي بكر فلربما فاته شيء كثير مما صنعه أبو بكر ، وفات المسلمين خير كثير لم يكن
يحيى ، على يد غير يد أبي بكر !!

ولهذا فقد رضى عليّ كل الرضا باختيار أبي بكر عمرَ للخلافة من بعده !
ثم لما جعل عمر الخلافة في واحد من ستة ، رشحهم لهذا الأمر ، كان عليّ
هو المرشح الأول عند نفسه ، وعند الغالبية العظمى من المسلمين . . .
ولكن الخلافة صارت إلى عثمان رضى الله عنه . . .

هذه واحدة !

وأخرى . . .

الخلافة التي تمت له بعد مقتل عثمان !
لم تحبىء إليه هذه الخلافة إلا محملة بتبعات ثقال ، محوطة بفتنة دونها فتنة
الردة التي واجهها أبو بكر !
لقد واجه أبو بكر في حروب الردة أقواماً خرجوا على الإسلام ، فعرف
طريقه إليهم ، وأمره فيهم .

وواجه عليّ جماعات مُسلمة خارجة على الخلافة . وفي هذه الجماعات عدّة
من صحابة رسول الله ، ومن الصفوة المختارة عنده ، بل وفيهم زوجه ،
أم المؤمنين ، عائشة . . الحبيبة ابنة الحبيب !

فكيف يلقاهم عليّ ؟ وعلى أى وجه يحاربهم ، وبأى سيف يقاتلهم ؟
إن سيفه ليكاد يخذله في ميدان هو سيده ، والفارس المجلى فيه ! ولا تنسلّ
عن اللرايات التي تجرّعها عليّ وهو يلقى أصحاب الجمل بسيفه . . إن كل قطرة
أرابت من دم هناك كان تنرف أمثالها قطرات من كيانه كله . . من قلبه ،
وروحه ، ونفسه !

وثالثة !

في الخلاف الذي كان بين علي ومعاوية !

لقد كان علي في الحرب التي وقعت بينه وبين معاوية حرباً على نفسه !
يحارب انحرافات النفوس في أتباعه ، ولا يقبل إلا من آثر دينه على دياره ،
وإلا من قاتل للحق ، قبل أن يتقاتل للنصر !

وهكذا رجعت كفة معاوية ، ومكنت له الدنيا من الخلافة ، ولم تكثف
بهذا بل جعلتها في عقبه وأهله ، على حين كان نصيب عقب علي وأهله القتل
والتشريد !

لهذا كانت سيرة علي — كرم الله وجهه — ملحمة واقعية ، بمعجز الخيال
عن شمولها والإحاطة بها . . . فيها مادة خصبة طيبة ، لغذاء العقل ، والقلب ،
ولإرضاء حاجات الوجدان والشعور . . . من الإيمان ، والعلم ، والحكمة ،
والأدب ، والسياسة ، والحرب ، والسلام !

ولهذا أيضاً . . . كانت تلك الدراسة التي نُقِّبَ بها صفحات من سيرته ،
وفي حسابنا أن في هذا وقاء يفرضه علينا الدين ، وتقضى به المروءة ، من
الانتصار للعبادىء الكريمة ، التي قاتل عليها ، وقتل في سبيلها .

والذى رجوه ونحن في هذا الموقف ، ألا نميل مع هوى ، وألا ننحرف
إلى غير ما انعقدت عليه بيتك ، وما انطوى عليه ضميرنا ، من الولاء لصحابة
الرسول جميعاً ، وإنزالهم من قلوبنا منزلة الإعراز والإكبار .

فإن تكن زلة ، أو عثرة ، فنبراً إلى الله منها ، واستغفره لها . . . إنه أهل
التقوى وأهل المغفرة » !

القاهرة : { حمادى الأولى ١٣٨٦ هـ
سبتمبر ١٩٦٦ م }

مدخل إلى البحث

ربما كان الأوفق أن نَسْتَأْنِي قليلا ، قبل أن نلتقي وجهاً لوجه ، بسيرة الإمام .. وذلك لتلقى نظرة على مسرح الأحداث ، التي عرضت له في حياته ، ولنرود وجوه تلك الأحداث ، التي تشكلت منها القضايا ، التي قاتل من أجلها وقتل في سبيلها !

وقبيل مقتل الخليفة عثمان ، وقبل البيعة لعلّي بالخلافة ؛ لم تكن للإمام « علي » قضية ، يشترك معه الناس فيها ، ويجتمع له الأنصار حولها ، وبقاتل هو ومن معه عليها .

فلقد كانت حياة « علي » كرم الله وجهه ، قبل هذه الأحداث ، نَسَقًا واحداً ، متصلاً بحياة الإسلام والمسلمين جميعاً ، لا يُعرف له في المسلمين من يفازعه أمراً ، أو يكشف له وجه عداوة . ولكنه منذ شغب الشاغبون على عثمان ، وكثير من الناس يتلفئون إلى علي ، سواء من كان منهم من شيعة عثمان ، كبنى أمية ، أو كان من الناقين على عثمان ، والناشرين في وجهه .. إذ ما كان لحدث ضخم كهذا الحدث يدور في محيط المسلمين ، ثم لانتجبه الأنظار فيه إلى صحابة رسول الله ، وخاصة « علي » ابن أبي طالب ، المرشح الأول للخلافة ، بعد عثمان !

ولا نشك في أن مكان علي من الخلافة بعد عثمان هو الذي جعل له في أمر عثمان شأنًا غير شأن بقية الصحابة ، ممن شاهدوا الأحداث ، أو شاركوا فيها ! ذلك أن عليا — وهو بهذا المكان من الخلافة ، وتلك المنزلة من نفوس المسلمين — لم يستطع أن يعتزل الناس ، خلال تلك الفتنة ، فكان كلما أغلق

عليه بابه ، وجد من بطرقه في إلحاح ، ومن يقتحم عليه عزله ، مستصرخا ، أو مسترشداً ، أو عاتبا ، أو لائما .. بل إن عثمان - رضى الله عنه - كان أكثر من حَلَّ علياً على أن يتصدى لهذه الأحداث ، وبلغها في كل وجه تطلع منه ! وكان بنو أمية ، والطامعون في الخلافة بعد عثمان ، يرصدون حركات « على » وكلماته رصد المتوجس ، وينظرون إليها نظر المتهم . وكأنهم يقولون بلسان الحال : كيف تدفع عن عثمان وأنت ترقب الفرصة فيه ، وترجو الخلافة من بعده ؟ وإذا لم يقل أحد ذلك تصرحاً ، فقد لمح به كثيرون ، حتى لم يجد على بداً من أن يلجأ إلى عرلة بعيدة عن المدينة . . ومع هذا فقد كثرت فيه الأقاويل بأنه خذَل « عثمان » وخلق بين الناس وبينه ، وأن عزله تلك كانت إغراء بعثمان ، وإطعام في الفيل منه ، أكثر منها دعوة إلى الناس باعتزال الفتنة ، والكف عن الخليفة ! !

وعلى أىِّ فإن البيعة لعلّ بالخلافة بعد مقتل عثمان ، جعلت لأولئك المرجفين بعلّ ، والمتهمسين بالاثهام له ، مقالا يقولونه ، وسنداً ظاهراً لما يُلقون من تهمة ، وما يُعدّون من خلاف ومنازعة !

يقول ابن سيرين : « ما علمتُ أن علياً اتهم بدم عثمان ، حتى يوبع ، فلما يوبع اتهمه الناس » ^(١) ! !

* * *

وإذن فنحن أمام حدث ، انعقدت على سمانه سُحب كثيفة ، تعنى على الناظر فيه ، التثبت من مواقع قدميه ، والتعرف على الوجه الذى يسلكه ، ليلبغ غاية ، أو يحقق مقصداً !

ولهذا ، فقد رأينا أن نقف تلك الوقفة ، قبل أن نواجه هذه الأحداث ،
وندخل في غمارها !

فمن خارج دائرة الأحداث ، يمكن أن يلتقي بتلك الوجوه التي كان لها
دور في مجريات الأمور ، قبل أن يشتمل عليها ليل هذه الفتنة ، وينمقد
عليها دخانها .

وهذه الرؤية من شأنها أن تجعل صحتنا لأصحاب هذه الوجوه - إذا نحن
التقينا بهم على مسرح الأحداث - صحةً مأنوسة بما عرف عنهم من خير
أو شر ، قبل أن تنموج بهم أمواج الفتنة ، وتتدافع بهم تياراتها . . . وذلك
من شأنه أن يجعلنا نتمسك بهم على وجه مقارب لما هم عليه ، ولما ينظر
من كلٍّ منهم ، حين يُمتحن في دينه ، ومروءته ، وخلقه ! .

ونحن نعرف ما في هذه الخطوة من مواطن الضعف ، وما في الأخذ بها
من مخاطرة ومجازفة ، في إقامة موازين الرجال ، وفي الحكم لهم أو عليهم .

فالأحداث هي التي تكشف عن معادن الرجال ، وتمتحن بها عناصر
القوة والضعف فيهم ، فكيف بنا ونحن نعزل رجالاً عن أحداث ، عاشوا
فيها ، وشغلوا بها ، ثم نحكم عليهم بما كنا نعرف من أمرهم ، قبل ذلك
الابتلاء وهذا الامتحان ؟ .

وهل نقدّم تمحيص إلا عن محنة ، وبعد ابتلاء ؟ والله سبحانه وتعالى
يقول : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم ، والصابرين » .
أخباركم^(١) .

ولكننا - مع هذا - نرى أن تلك الخطوة - على ما بها وما فيها - هي البديل

لكل خطة ، يُراد بها تصوّر هذا الصراع المتلاحم ، الذى كان يدور بين الأطراف المتنازعة ، فى ضباب هذه الفتنة ، وفى دخان تلك العاشية ، التى غشيت المسلمين ، وأوقعت المداوة والبغضاء بينهم ، ودفعت بهم إلى مواطن القتال ، فأراقوا دماءهم ، وقتلوا أنفسهم

وإننا إذ نأخذ بهذه الخطة نضع فى تقديرنا أمرين :

الأمر الأول : ما أشرنا إليه من قبل ، من تعدد لرؤية الكاشفة لما كان يدور من صراع ، فى أثناء تلك الفتنة ، وللتيارات المختلفة التى كانت تحركها ..

فما لا شك فيه أن التاريخ لم يصبط صور هذه الأحداث ضبطاً محكماً ، ولم يحىء بها على الوجه الذى ظهرت به ، وجرت عليه ، بل لقد كانت ميداناً فسيحاً ، ومجالاً حصياً ، لما يلقى إليها من زعّات وأهواء ، فاختلط فيها الحق بالباطل ، والواقع بما لم يقع !

وإذن ، فالأطمئنان إلى تلك المرويات من كتب السير ، والتاريخ ، والقصص والأدب وغيرها - فيما صُورت به وقائع تلك الفترة - هذا الاطمئنان إلى تلك المرويات ، والتعويل عليها وحدها ، فيه ظلم للحقيقة التى نعتقد أنها مطمورة فى أكداس هذه المرويات ، المتضاربة ، المتناقضة .

والأمر الثانى : أننا نؤمن بأن الناس هم الناس ، وأن خيارهم ، هم خيارهم فى الرخاء والشدة ، وأن شرارهم ، هم شرارهم فى السراء وفى الضراء .. وفى ذلك يقول الرسول الكريم : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام » .

وإذا كان للأحداث أن تغير شيئاً من ذاتية الإنسان ، أو تكشف عن قرارة ما فى كيانه من عناصر الخير أو الشر - فإن فيما ابتلى به المسلمون الذين

شاركوا في أحداث تلك الفترة ، في صراعهم مع الباطلين ، وقاتلهم المشركين - ما كان كافياً لتحريض مافي النفوس ، وابتلاء مافي القلوب . . . !

واقداً أعطى المسلمون الأولون ، أو الداخلون في الإسلام - أعطوا هذا الدين ما سمحت به نفوسهم ، وما وسعته قلوبهم ، كلٌّ حسب استعداده للخير ، وتقبله للهدى !

فليس كل المسلمين على درجة واحدة في الاستجابة لله ولرسوله ، وفي الأخذ بهدى الله وسنة رسوله ! بل وليس كل من كانت لهم صحبة لرسول الله على سواء ، في وثاقة الإيمان ، وقوة اليقين ! فلقد كان فيهم المنافقون الذين كادوا لله ولرسوله ، وهم يحسبون في المسلمين ، يلقون الرسول ، ويلقون المسلمين بالمودة .. « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » .. « ويخلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم » .. « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » .. وهكذا فضحهم القرآن ، وكشف للرسول وللمؤمنين المستور من أمرهم ، والخبى من حالهم !

* * *

وإذ صح لنا هذا ، فإننا سنعرض في هذه الوقفة ، صورة مصغرة للشخصيات التي كان لها دور في أحداث تلك الفترة ، أو الفتنة ، التي عصفت بالمسلمين ، وأوقدت نار الحرب بينهم ، وذهبت بآلاف النفوس من رجالهم ! وهذه الصور - على صغرها - تكشف عن الملامح البارزة لتلك الشخصيات ، وتوحي بالدور الذي من شأنها أن تقوم به ، في كل موقف ، وفي كل حدث ! إن لم يكن ذلك على وجه محدد دقيق ، فهو على وجه مقارب ، أو مشا كل ! .

وقد أشرنا من قبل إلى تلك المصادر التي ضبطت تاريخ تلك الفترة ،

وأحدثها وأشخاصها ، وقلنا : إن هذه المصادر كانت ميداناً فسيحاً ، ومجالاً
خصباً لما كان يُبلى إليها من نزعات وأهواء ، فاختلط فيها الحق بالباطل ،
والواقع بما لم يقع ! .

فالصور التي سراها هنا تلك الشخصيات إنما هي مستقاة من تلك
الموارد ، بما تحمل من صفو وكدر ، وما تضم من حق وباطل ! وهذا
ما لا حيلة لنا فيه ، إذ لا نملك أن نغير أو نبذل فيما سطره التاريخ ، ومضت
عليه أجيال الحياة ، دون أن تنفضه ، أو تكشف عن الزيف منه ! وإن يكن
لنا من شيء هنا فهو الموازنة والمقابلة بين تلك المرويّات ، وهذه الأخبار ،
للتناقضة المتضاربة ، وترجيح بعضها على بعض .. في شيء من القصد ، والحدّ !

* * *

وإذن فلا بد من نظرة في تلك المصادر ، في سابقها ولاحقها ، وفي أصحابها
ورواة أخبارها ، فذلك مما يعين على النظر فيما ينقل منها ، وفي مدى
الاطمئنان إليها ، والأخذ بمرويّاتها .

هناك إذن نظرتان :

نظرة ، في مصادر القضية ، أى في الكتب التي كانت عمدة الأخبار ،
ومصدر الحديث عن الأحداث التي وقعت في تلك الفترة .
ونظرة في رجال القضية ، أى في أولئك الذين كان لهم دور بارز في تحريك
أحداثها ، وتلوين صورها .

مصادر القضية

مصادر هذه القضية كثيرة متنوعة ، بعيدة غاية البعد ، فيما بين أولها وآخرها ، وأعلها وأدناها . .

وحسبك أن تنظر فترى أن القرآن الكريم ، والحديث النبوي ، من جهة ، ثم القصص الشعبي ، والخيال الشعبي من جهة أخرى - كلها مصادر ، يلتقى عندها رواة الأحداث لهذه القضية ، ومصورو وجوهاها ! وانظر كيف يكون الحال في صورة يكون القرآن الكريم والحديث النبوي بعض سماتها ، ثم يكون القصص الشعبي والخيال الشعبي لونا جاربا فيها ، ودما مسفوحا عليها !

ندع هذا الآن ، وننظر في لحظة خاطفة إلى أهم تلك المصادر ، التي اعتمدنا عليها في عرض هذه القضية ، وفي تصوير أحداثها .

أولاً - القرآن الكريم

والقرآن الكريم إذ اعتمد عليه كمصدر هذا ، فإما كان ذلك عن مقولات المفسرين في أسباب نزول الآية أو لآيات . !

فالقرآن الكريم ، إذ كانت تشرل آياته مفرقة ، تناول أحداثاً بعيها ، كانت نحري في محيط الدعوة الإسلامية ، فعرضها ، وكشف عن جوابها ، وأبان عن مواقع العبرة والعظة فيها ، دون أن يلتفت كثيراً إلى الشخص الذي كان موضوع الحدث ، وسبب الواقعة !

قليل جداً أولئك الذين ذكروهم القرآن بأسمائهم في معرض الأحداث ، ومثلهم في القلة أولئك الذين أشار إليهم إشارة ، دون أن يصرح بأسمائهم .

ومن الأمثلة على الفريق الأول ، ما جاء عن أبي لهب ، واسماته في سورة سميت باسمه^(١) ، وكذلك ما جاء عن زيد بن حارثة ، الذي كان متبني للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء القرآن بإبطال التبني ، وحل زوجات هؤلاء المتبنين ، لأبائهم ، توكيداً لإبطال هذه البتوة ، وعزلها عن بتوة النسب المعروفة^(٢)

ومن الأمثلة على الفريق الآخر ، ما جاء في القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن صاحبه أبي بكر ، وما كان بينهما في العار ، وهما في طريقهما إلى دار الهجرة : « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) « تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب » .

(٢) يقول الله تعالى مخاطباً نبيه : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ،

لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً »

ثاني اثنين إذ هما في الفار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . . . فصاحب
الرسول هو أبو بكر بلا شك ، وبلا خلاف !

ومادة التاريخ التي تؤخذ من القرآن هنا ، هي حق مطلق ، لا منازعة فيه ،
ولا امتراء معه !

أما ما يُروى من أخبار في أسباب نزول الآيات ، وما يقال في أنها
نزلت في فلان أو فلان ، فإن هذه الأخبار محمولة على روايتها ، ولكل ذي نظر
أن ينظر فيها .

هذه الروايات من أسباب النزول ، قد كان لها دور في تصوير أحداث
تلك الفترة التي تؤرخ لها ، وكانت عنصرا واثما من العناصر التي صورت بها
الشخصيات التي كان لها دور في تلك الأحداث ، فيقال إن هذه الآية نزلت
في فلان ، الذي كان من شأنه كذا ، وكذا ، وكان من أعماله كيت وكيت !
وهنا يفتح باب فسيح للقول في هذا أو ذاك ، من الذين عاصروا عهد النبوة ، في
مقام الحمد والذم على السواء !

والذي يريد أن ينبه إليه من أمرها هو ألا تكون من المسلمات التي يحكم
بها حكما قاطعا على من أضيفوا إليها ، وإما ينبغي أن يكون شأنها شأن غيرها
من الأخبار ، التي دارت في محيط الشخص أو الأشخاص الذين تفاولهم تاريخ
تلك الفترة !

يُروى عن أحمد بن حنبل أنه كان يقول : ثلاثة لا أصل لها : التفسير ،
والملاحم ، والمغازي^(١) ، وهو يريد بهذا أن مادة التفسير إنما هي نظر شخصي
المفسر ، ينظر في كتاب الله ببصره أو بصيرته ، ثم يقول بما استطاع أن يرى
من كلمات الله وما انكشف له من أسرارها .

أما الملاحم والغازي ، فإنها — إذ لم تكن عن وثائق مدونة في حينها ، بأيدي أهل الثقة والخبرة — فقد غلب عليها الهوى الشخصي ، وأصبح أمرها إلى مشاعر الناس ، وإلى ما يغذى تلك المشاعر ويرصدها .

ثانياً — الأحاديث النبوية

وما قلناه عن مقولات المفسرين في أسباب النزول ، نقوله في الأحاديث التي تضاف إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وما فيها من ذكر أشخاص بأعيانهم ووصفهم بصفات مدح أو ذم . . . إذ ينبغي أن تلتقى هذه الأحاديث التي تراحم في هذه الفترة — بشيء غير قليل من الحيطة والحذر ، وأن نذكر أن الفرق المتنازعة حينذاك قد كان من أسلحتها القوية في الصراع الدائر بينها ، ما كان يمدّها به الأنصار والأعوان من أحاديث تحرّفة أو متّقولة على رسول الله !

وقد أصبحت هذه الأحاديث مادة قوية واضحة في بناء الأحداث ، وفي تصوير الشخصيات ، وفي تعديلها وتبريحها ، وقد أكثر الناس من التقول على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في هذا الباب . وكأنهم تأولوا لهذا ، حين رأوا أن ما يتقولونه في هذا الباب . لا يدخل منه شيء على الشريعة الإسلامية ، ولهذا لم يتخرجوا في أن يتقولوا على رسول الله ، وأن يستكثروا من هذا التقول ، ثم يبلغ بهم الأمر إلى أن ينسوا أنهم يتحدثون عن لسان لا ينطق عن الهوى ، فتجىء منهم المتناقضات ، ومالا يقبله العقل ، ولا يصدقه الواقع المحسوس !!

ثالثاً : كتب المغازى والتاريخ والسير

كتب المغازى والتاريخ والسير ، التي رسمت معالم تلك الفترة ، اعتمدت اعتماداً كبيراً على مرويات المفسرين للقرآن ، والمحدثين عن رسول الله ، بل كان ذلك ، هو عمدتها في هذا المجال ، تدور حوله ، وتبنى عليه !

ولهذا ، فإن هذه الكتب - على كثرتها - يمكن أن تحسب كتاباً واحداً ، إذ كان عمدتها - كما قلنا - مرويات المفسرين والمحدثين !

والخلاف بينها ، في أن بعضها يأخذ بجميع المرويات ، على حين أن بعضها الآخر يقبل قليلاً ويرفض كثيراً ، وعكس هذا في نوع ثالث منها . يأخذ كثيراً ويعدل عن قليل .

ومنشأ هذا الإقلال أو الإكثار هو ما يقع في نفس المؤرخ من هذه المرويات ، ومدى ثقته بها ، وتعويله عليها .. على أن هناك فريقاً من المؤرخين غلبت عليهم نزعة خاصة ، مذهبية أو عقائدية ، أو سياسية ، فتخيروا من تلك المرويات ما وافق نزعاتهم ، ثم جعلوها نسقاً واحداً ، تؤلف منه الصورة التي يرضون عنها !

وطبيعى أننا إذ نعرض لهذه المؤلفات باعتبارها مصادر للقضية التي تؤرخ لها لانلم بها إلا إلاماً ، فإن دراستها دراسة موضوعية تحليلية ليس موضوع بحثنا ، وإنما هي لفظة مجملة إلى تلك المصادر ، نعرف بها وجوها التي نصحبها عليها ، كأنصحب أناساً في سفر .. في قطار أو باخرة ، نرى وجوههم ، ونعرف سماتهم ، دون أن نتعرف على ما يشتمل عليه كياناتهم من علم أو خلق .. على أنه إذا كان هذا هو شأننا مع تلك المصادر في أول الطريق ، فإننا إذ نلتقي بها لقاء متصلاً في مراحل البحث ، سنعرف الكثير عنها ، والوزن الصحيح لكل منها .

وهذه بطاقة تعريف بأهم تلك المصادر ، حسب ترتيبها الزمني :

١ - تاريخ محمد ابن اسحق

المتوفى سنة ١٥١ هـ

يعدّ ابن إسحاق من السابقين الأولين ، من المؤرخين الإسلاميين ، وقد تتلمذ عليه كثيرون ، وأفادوا من علمه ، وماوعت ذاكرته ، وخط قلمه ، من أخبار وأحداث .

والذى بقى لنا من آثار ابن اسحق هو ما رواه عنه تلاميذه ، أو نقوه من كتبه ، أما كتبه فقد فقدت فيما فقد من تراثنا المجيد ! .

وابن هشام صاحب « السيرة » اعتمد في أكثر أخباره على ما نقله أو رواه عن أستاذه ابن اسحق ، حتى ليكاد يكون كتاب السيرة من إملاء ابن إسحق ، لم يُحدث فيه ابن هشام جديداً ، إلا شيئاً من التهذيب والتبويب ، وإلا إضافات قليلة مما وقع له عن غير طريق ابن اسحق ! . وقد اعتمد ابن إسحق في مروياته التاريخية على كثير مما سمع أو قرأ من الإسرائيليات ، التى كانت معتمد القصص والإخباريين ، فيما يُروى من أخبار السابقين ! .

أما أحداث ما بعد الإسلام ، فيما يتصل بالسيرة النبوية ومغازى الرسول ، وعصر الخلفاء الراشدين ، وفتوح المسلمين ، فقد اعتمد فيه على ما عند الناس من أخبار ، تناقلوها شفهاً ، أو توارثوها في مدونات متناثرة ، كالرسائل والخطب ، والعهود وغيرها ! مضافاً هذا إلى مرويات المفسرين والمحدثين . وكان ابن إسحق قد نصّب نفسه لهذا الميدان ، ميدان السير والأخبار ، فاجتمع له من ذلك شئ كثير ، تلقاه من كل مصدر ، وحدث به كل من اجتمع إلى مجلسه ، حتى لقد شُهر بذلك ، فكان مقصد العلماء والطلاب ، ويقال إن أبا يوسف ، صاحب أبى حنيفة ، كان ممن يحضر مجلسه ، ويستمع له .

روى ابن خلكان أن أبا يوسف كان يحفظ المغازى وأيام العرب ،
وأنه تخلف مرة عن مجلس أبي حنيفة لاشتغاله بالاستماع إلى ابن إسحق ،
فلما جاء ، قال له أبو حنيفة — معرّضاً بكذب الإخباريين — يا أبا يوسف :
من كان صاحب راية جالوت ؟ فقال له أبو يوسف : إنك إمام ، وإن
لم تمسك عن هذا سألتك والله على رموس الملائ : أيهما كان أولاً ، وقعة بدر
أم وقعة أحد ^(١) ؟ » .

يريد أبو يوسف أن يقول : إن حفظ الأخبار ، ودراسة التاريخ ،
مما لا يستغنى عنه رجل الفقه ، في استنباط الأحكام ، والاستدلال عليها من
طبيعة الأحداث ، وملابسات زمانها ومكانها ! .

وعلى أيّ ، فإن ابن إسحق كان من المصادر الأولى للتاريخ الإسلامى
إلى منتصف القرن الثانى ، وأنه غلب عليه طبع القاصّ الذى يوسع من
رقعة الأحداث ، ويستكثر من وجوه العرض لها ، حتى تعجّب ، وتروق ! .

* * *

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جزء ٢ ص ٤٥٢ .

٢ - مغازى الرسول

لواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ

هو أبو عبد الله ، محمد بن عمر الواقدي .

ولد سنة ١٣٠ هـ بالمدينة المنورة .

وتوفى سنة ٢٠٧ هـ ببغداد ، وقد سمع عن مالك بن أنس ، والثوري ،

ومعمر بن راشد بن أبي ذؤيب ، وغيرهم .

وهو أستاذ محمد بن سعد ، صاحب « الطبقات الكبرى » وكان ابن سعد يسمى

« كاتب الواقدي » وإن كان بعضهم قد جعل التلميذ أكثر ثقة من أستاذه !

وكتابه « المغازى » في غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد

أفاد منه ابن هشام في سيرته ، واعتمد عليه كثيراً فيما روى من سيرة الرسول

وغزواته ، وقد أخذ عنه محمد بن إسحق^(١) ، وكان يقول : « والله لولا أنه

عندى ثقة ، ما حدثت عنه » .

وقال الإمام إبراهيم بن الحزني : من قال إن مسائل مالك وابن

أبي ذؤيب تؤخذ من أوثق من الواقدي فلا تصدقه .

وقال ياقوت ، صاحب معجم الأدباء : « وهو مع ذلك ضعفه طائفة من

المحدثين ، كابن معين ، وأبي حاتم ، والنسائي ، وأبي عدي ، وابن راهويه ،

والدارقطني .

أما في أخبار الناس ، والسبر والفقہ وسائر الفنون فهو ثقة بإجماع » .

(١) يروى هذا الخبر ياقوت الحموي في معجم الأدباء ٢٧٨/١٨ ، والمعروف

أن ابن إسحق توفي سنة ١٥١ على حين كان مولد الواقدي سنة ١٣٠ ، فإذا صح

هذا كان معناه . أن ابن إسحق التقى بالواقدي وهو في أول مدارج الشباب ، في

الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة وأنه سمع منه بعض ما وقع عليه من أخبار ، وبأن

له منها أنه صادق فيما يقول ، فشهد له تلك الشهادة ، شهادة أستاذ لتلميذه يتوسم

فيه الخير .

٣ - تاريخ السيرة

لابن هشام

المتوفى سنة ٢٣٠ هـ

هو صاحب الكتاب المعروف بالسيرة .

وقد اعتمد فيه على ما روى عن أستاذه ابن اسحق ، ولم يخرج على تلك الروايات إلا في أحوال قليلة ، وفي أمور جزئية ، ربما يكون الزمن قد كشف منها ما لم يكن قد انكشف لابن اسحق في مجال استماعه ، أو اطلاعه ! .

ولكتاب السيرة مكانته واحترامه ، كمصدر من مصادر السيرة النبوية ، بل إنه ليكاد يكون المصدر الأول المعول عليه في تلك السيرة الطيبة ، فقد أخذ عنه كل من جاء بعده ، وعول عليه كل من تصدى للكتابة في العصر النبوي .

والذي أكسب ابن هشام وكتابه تلك المنزلة أنه لم يكن شيعة لأحد ، شأنه في هذا شأن ابن اسحق ، أستاذه .

وهو يروي الأخبار عن ابن اسحق ، الذي يرويها متصلة السند عن أصحابها . . فإذا كان فيها شيء فهو في أولئك الرواة . ومن جنتهم كانت آفتها .

٤ - الطبقات الكبرى

لابن سعد

المتوفى سنة ٢٣٠ هـ

هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري .

ولد سنة ١٦٨ هـ بالبصرة ، وتوفي سنة ٢٣٠ هـ أى في السنة التي توفي فيها ابن هشام صاحب كتاب السيرة ، وهو تلميذ « الواقدي » صاحب كتاب « المغازي » وكان يسمى كاتب الواقدي .

وكتابه « الطبقات » موسوعة تضم أخبار الصحابة والتابعين . حسب الترتيب الزمني في محبتهم لرسول الله . فبدأ بالمهاجرين البدرين ثم بالأنصار البدرين ، ثم بمن سبق إلى الإسلام . ولم يشهد بدرأ وهكذا . وهو عند العلماء من أهل الثقة والعدالة .

يقول فيه الخطيب البغدادي : « محمد بن سعد » ، عندنا من أهل العدالة ، وحديثه يدل على صدقه ، فإنه كان يتحرى في كثير من رواياته .

وقال عنه ابن خلكان : « كان صدوقاً ثقة » .

وقال عنه ابن حجر : « أحد الحفاظ الكبار ، الثقات ، المتحرين » .

وقد ضعفه بعضهم ، لأنه كان تلميذاً للواقدي الذي كان متشيعاً لآل البيت ،

وكان قاضياً للخلفاء العباسيين .

هـ - الإمامة والسياسة

لابن قتيبة الدينوري

المتوفى سنة ٢٧٦هـ

اهتم ابن قتيبة في كتابه « الإمامة والسياسة » اهتماماً خاصاً بالفتنة التي كانت في أخريات خلافة عثمان ، ثم ماتلاها في خلافة عليّ ، وما وقع من حروب ، كوقعة الجمل ، وصفين ، والنهروان ، وغيرها .

وهو ينقل عن كثير ممن سبقوه كابن اسحق ، وابن سعد ، وغيرها .

وقد أورد معظم أخباره غير مسندة ، بخلاف ذلك السنن الذي كان متبعاً عند رواية السير والأخبار ، ممن سبقوه ، أو عاصروه . إذ غلب عليهم المنهج الذي كانوا يتبعونه في رواية الأحاديث النبوية ، وكان كثير منهم محدثاً ، قبل أن يكون مؤرخاً .

واكتفى ابن قتيبة بأن يصدر أخباره بنسبتها تلك النسبة المجهلة العامة .. فيقول : ذكروا ، أو قالوا ، أو حدثوا ، أو رووا .

ولعله لم يكن ذلك من ابن قتيبة عن رغبة في الاختصار ، بقدر ما هو شعور بأن هذه الأخبار التي تروى أحداث هذه الفترة ، ليست على الصحة والسلامة التي يُطمأن إليها . ويوثق بها .. وإذن فليس ثمة داعية لربطها هذا الربط المحكم ، وشدها ذلك الشد الوثيق بسلسلة موصولة الحلقات بأهل الثقة من الصحابة والتابعين وغيرهم ، وإنه لأقرب إلى طبيعتها والأشبه بحالها أن ترسل هكذا إرسالا ، لا تُحمل على أحد ، ولا تضاف إلى أحد ، وبهذا يمكن أن يسوّى حسابها ، وتقدر قيمتها ، في ذاتها ولذاتها ، دون نظر إلى شيء آخر وراء ما يحمل جوهرها من صدق أو كذب ! .

٦ - تاريخ الأمم والملوك

للطبري

المتوفى سنة ٣١٠ هـ

هو أبو جعفر ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب . . الطبري

ولد سنة ٢٢٤ . وتوفى ببغداد سنة ٣١٠

وكتابه المعروف بتاريخ الطبري ، أو (تاريخ الأمم والملوك) من أهم مصادر التاريخ الإسلامي ، لانتساع موارده ، وصفائها .

وقد اعتمد عليه ابن خلدون في تاريخه المعروف ، وشهد لصاحبه بالثقة والعدل .

يقول ابن خلدون بعد أن نقل في تاريخه واقعة الجمل : « هذا أمر الجمل ، ملخصاً من كتاب أبي جعفر الطبري ، اعتمدها للوثوق به . »

ويقول تعليقاً على حادثة أخرى نقلها من تاريخ الطبري : « أوردتها ملخصة عيونها ومُجاجتها من كتاب محمد بن جرير الطبري ، وهو تاريخه الكبير ، فإنه أوثق ما رأينا في ذلك ، وأبعد عن المطاعن والشبهة . . في كبار الأمة ، وخيارهم ، وعدولهم ، من الصحابة والتابعين . »

وحسبك بهذا شهادة على قدر هذا الكتاب وخطره ، ولا ينبئك مثل خبير ، فابن خلدون صاحب فلسفة التاريخ ، وناقد المؤرخين . قبل أن يكون مؤرخاً ، وناقلاً عن أصحاب الأخبار . ومع هذا ، فإن الطبري كان في كتابه هذا متلفئاً من سبقه ، وناقلاً مما رواه المؤرخون قبله !

فلقد قبل الطبري كل معارف عصره ، من غث وسمين ، وأخذ بكل المرويات وما تحمل من شبه وظنون دون أن يرفض شيئاً ، أو يتوقف عند

شيء . وخاصة ما يتصل بما قبل الإسلام ، إذ كان متعمده في ذلك على ما عند اليهود والنصارى ، الذين كان يسميهم أهل العلم .

وهذا وإن بدا عيباً واضحاً يُزرى بقدر من يتصدى لكتابة التاريخ ، فإننا نجد فيه لأسلافنا عذراً يسع هذا العيب ، وينفطى ذلك النقص ، وهو أنهم كانوا حربصين على ملأ هذا الفراغ الكبير ، الذى اقتطعه الزمن من حياة الأمة العربية ، دون أن تضبط أحداثه أو يسجل تاريخه . فلم يكن أمامهم - والأمر كذلك - إلا أخذ كل ما يقع لأيديهم من هذا التراث الضائع أو المشرف على الضياع !

أما ما بعد الإسلام ، فقد اعتمد فيه الطبرى على مرويات المفسرين والمحدثين ، وقد كان هو إماماً في التفسير والحديث . .

وقد اتهم الطبرى بأنه لم يكن محايداً في رواية الأخبار ، وأنه كان ذا هوى مع الشيعة ، يحدث بالأخبار التى تنتصر لرأيهم ، وتفهم خصومهم ! وهذا ما يفتر العدواة التى كان يبديها الحفابلة له . . يقول ياقوت الحموى رواية عن أبى بكر بن خالويه : « ولقد ظلمته الحفابلة ، وكانت تمنع ولا تترك أحداً يسمع عليه . » ^(١) والحفابلة كانوا على عداوة للخلفاء العباسيين ، ولن يحسن القول فيهم ، وذلك بعد محنة الإمام أحمد بن حنبل شيخ المذهب ، في فتنة القول بخلق القرآن .

ومع هذا ، فقد ظل تاريخ « الطبرى » عمدة كتب التاريخ الإسلامى ، يتوارد عليه العلماء والمؤرخون ، قديماً وحديثاً . .

يقول ابن حزم عن واقعة الجمل وصفين : « وحديثهما قد اعتنى به ثقات أهل التاريخ كأبى جعفر بن جرير ، وغيره » ^(٢) .

(١) معجم الأدباء جزء ٨ ص ٤٣ .

(٢) جوامع السيرة لابن حزم ص ٣٥٥ .

رجال القضية

هى صورة مجلّة - كما قلنا - تلك التى رأينا أن نعرضها هنا ، لأولئك
الذين كان لهم دور فى تلك القضية التى سنلتقى بها عما قليل !
وهذه الصورة المجلّة - على صغرها - سنراها على أوسع مدى ، حين
تثيرها الأحداث ، وتحركها المواقف !
وقد رأينا ألا نعرض هنا صورتى عثمان وعلى - رضى الله عنهما - فإن
الموقف موقفهما ، والأحداث تدور من حولها ، ثم إن القضية - أولاً وأخيراً -
هى قضيتهما .

١ - مروان بن الحكم

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ،
أبوه الحكم بن أبي العاص ، عم عثمان بن عفان ، رضى الله عنه .
أسلم الحكم عام الفتح لإسلام الطلقاء ، وكان طريد رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، ولعيته .

قال « البلاذرى » : « إن الحكم بن أبي العاص كان جاراً لرسول الله
صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية ، وكان أشد جيرانه له أذى فى الإسلام .
« وكان قدومه إلى المدينة بعد فتح مكة ، وكان مغموصاً عليه فى دينه ^(١)
فكان يمرّ خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغمز به ، ويحكى به - مستهزئاً -
ويخلج بأنفه وفمه ، وإذا صلى قام خلفه فأشار بأصابعه ، فبقى على تخليجه ،
وأصابته خبيلة .

« واطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم ، وهو فى حجر
نسائه ، فعرفه ، وخرج إليه بعنزة - أى حربة صغيرة - وقال : « من عذيرى
من هذا الوزعة اللعين ؟ » ثم قال : « لا يساكننى ، ولا ولده » فغرتهم جميعاً
إلى الطائف (فى موضع يقال له بطن وج) .

فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلم عثمان أباً بكر فيهم ، وسأله
ردّهم ، فأبى عليه ذلك ، وقال : « ما كنت لأوى طرداء رسول الله » إنهم لما
استخلف عمر ، كلمه فيهم ، فقال مثل قول أبى بكر ، فلما استخلف عثمان أدخلهم
المدينة وقال : « كنت كلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، وسأله ردّهم
فوعدنى أن يأذن لهم ، فقبض قبل ذلك » . فأنكر عليه المسلمون إدخالهم المدينة ،
ثم ولى الحكم صدقات قضاة (حتى باليمن) فبلغت ثلاثمائة ألف درهم ، فوهبها

(١) أى مطعوناً عليه ، ومتهما فى دينه .

له ، حين أتاه ^(١) .

ومات الحكم في خلافة عثمان ، فصلّى عليه ، وضرب على قبره فسطاطاً ^(٢) .
وكان للحكم واحد وعشرون ولداً ، وثمان بنات .

وقد ولد مروان لسنتين خلقتا من المحرة ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن ثمان سنين .

وكان كاتباً لعثمان رضى الله عنه إلى أن قتل .

ويكاد يُجمع المؤرخون على أن مروان هو الذى كان من وراء الأحداث التى أنارت الناس على عثمان ، ولولاه لما كان بين عثمان وبين الشاغبين عليه هذا الخلاف ، الذى أخذ يتسع شيئاً شيئاً ، حتى قُتل الخليفة بأيدى الثائرين عليه .

وما زال مروان في متلاطم الأحداث والفتن حتى أصبح الخليفة الرابع ،

من خلفاء بنى أمية ، بعد معاوية ، وابنه يزيد ، ومعاوية بن يزيد .

يقول ابن سعد في طبقاته :

« فلم يزل مروان مع ابن عمه عثمان بن عفان ، وكان كاتباً له ، وأمر له

عثمان بأموال ، وكان عثمان يتأول في ذلك صلة قرابة ، وكان الناس ينقمون على عثمان ، تقرّبه مروان وطاعته له ، ويرون كثيراً مما ينسب إلى عثمان لم يأمر به ، وأن ذلك عن رأى مروان ، دون عثمان ، فكان الناس شنعوا بعثمان لما كان يصنع بمروان ويقرّبه » .

ويروى صاحب الأغاني : أن ابن الزبير لما خلع يزيد ، وهو في المدينة ،

أمر من كان بالمدينة من بنى أمية أن يخرجوا منها ، فجاء مروان إلى عبد الله ابن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن : إن هؤلاء القوم ركبونا بما ترى ، فضمّ عيالنا ، فقال : لست من أمركم وأمر هؤلاء في شيء . فقام مروان وهو يقول : قَبِّحَ اللهُ هذا أمراً ، وهذا ديناً ^(٣) .

(١) في المعارف لابن قتيبة أنها مائة ألف درهم .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ج ٥ ص ٢٧ .

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٢٤ .

٢ - عبد الله بن سعد بن أبي السرح

أبو سعد بن أبي السرح من المنافقين .

أسلم عبد الله قبل الفتح ، وهاجر إلى المدينة ، وكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتدَّ مشركاً ، وعاد إلى مكة يحدث قريشاً الكذب عن رسول الله ، ويقول : إني كنت أصرف محمداً حيث أريد . . . كان يُبلى على : « عزيز حكيم » فأقول : « أو عليم حكيم » فيقول : نعم ، كلُّ صواب !

وفيه أنزل قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ » ، ومن قال سأُنزل مثلاً ما أنزل الله . . . ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ، والملائكة باسطة أيديهم ، أخرجوا أنفُسَكُمُ اليومَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بما كنتم تقولون على الله غيرَ الحقِّ ، وكنتم عن آيَاتِهِ تستكبرون »^(١) .

فلما كان يومُ الفتح أهدر الرسول دمه - فيمن أهدر من المشركين والمنافقين - ولو وُجد متعلقاً بأستار الكعبة . . . وقد قال صلوات الله وسلامه عليه يوم الفتح : « من أغلق بابهُ فهو آمن ، ومن جَنَحَ إلى الكعبة وألقى السلاح فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، غير عدوِّ الله ، عبد الله ابن أبي السرح . . . »

وقد شفع له عثمان - رضى الله عنه - إذ هو أخوه من الرضاعة ، فانطلق به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليه فأعرض عنه ، ثم انصرف من قِبَل وجهه فسلم عليه ، فصرف عنه وجهه . . . ثلاث مرات . . . ثم قال

لعثمان : نعم ١ ١ . فلما انصرف عثمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « ما صمّت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه ^(١) » فقالوا : هلاً أو مات إليفا ؟ فقال : « إن النبي لا ينبئ أن تكون له خائنة أعين » .

ثم حين ولي عثمان الخلافة ولاء مصر ، سنة خمس وعشرين ، وعزل عنها عمرو بن العاص . . ثم لما فتح ابن أبي السرح أفريقية أعطاه عثمان خمس غنائم الغزوة الأولى ، وبقى أميراً على مصر حتى سنة أربع وثلاثين ، حيث ثار ابن أبي حذيفة في مصر ، فمضى بن أبي السرح إلى عسقلان ، وأقام بها حتى قتل عثمان ^(٢) .

ولا بد من وقفة عند هذا الوصف الذي وصف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبي السرح بأنه « عدو الله » ثم إماحة الرسول دمه ولو وجد متعلقاً بأستار الكعبة ، لا نذاً بالبيت الحرام .

إن ذلك حكم قاطع من رسول الله صلى الله عليه وسلم — الذي لا ينطق عن الهوى — بأن ابن أبي السرح لن يكون في المؤمنين أبداً ، ولوليس لباس المسلمين ، وتزيا بزى الإسلام . . إنه « عدو الله » .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل فيه شفاعته عثمان رضى الله عنه ، واستبقى حياته ، فإن ذلك لا ينسحب على المصير الذي هو صائر إليه .

وسنرى أن ابن أبي السرح كان من بواعث الثورة على عثمان ، وأن أهل مصر كانوا في مقدمة الأمصار التي خلعت طاعة الخليفة ، عثمان رضى الله عنه .

(١) وليس على أحد حرج في أن يضرب عنقه بين يدي النبي ، إذ كان قد أهدر دمه .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري جزء ٥ ص ٤٩ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد جزء ١ ص ٦٨ ، والغازي للواقدي ص ٢٣٢ .

٣ - الوليد بن عقبة

أبوه عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو !

كان عمرو عبداً لأمية بن عبد شمس ، ثم تبتّاه .

وأم الوليد أروى بنت كُريز ، وهي أم عثمان بن عفان رضي الله عنه ،
كان قد تزوجها عفان بعد عقبة بن أبي معيط ، وبعد أن ولدت له الوليد ،
وخالدا ، وعمارة ، وأم كلثوم . فهؤلاء أخوة عثمان لأمه .

وكان عقبة بن أبي معيط جاراً لرسول الله بمكة ، وكان يكثر مجالسته ،
ويحسن معاشرته . ثم تحول بعد هذا ، فكان أشدّ الفاس على رسول الله ،
وأكثرهم أذى له .

قبل أن عقبة اتخذ يوماً ضيافة ، فدعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل ، فقالت قريش :
صَبَاً عقبة !

وكان لعقبة خليل^(١) غائب ، بالشام ، فلما عاد سأل امرأته فيما سأل :
ما فعل محمد مما كان عليه ؟

قالت : أشد ما كان أمراً !

قال : ما فعل خليلي عقبة ؟

قالت : صَبَاً !

فبات ليلة سوء .. فلما أصبح أتاه عقبة ، فحياه ، فلم يرد عليه ! فقال :
مالك لا ترد ؟

(١) قيل إنه أمية بن خلف .

قال : لا أرد عليك تحيتك ، وقد صبوت ؟

قال : أو قد فملتها قریش ؟ فما يبرىء صدورهم إذن ؟

قال : تأنيه في مجلس ، فتبزيق في وجهه ، ونشتمه بأقبح ما تعلم من الشتم ، ففعل ! فلم يزد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن مسح وجهه ، ثم التفت إليه فقال : « إن وجدتك خارجاً من مكة أضرب عنقك صبراً ! »

ومن يومها أصبح عقبة من أعداء النبي ، حتى إنه كان يأتي بالفَرث فيطرحه على باب رسول الله !

وفي عقبة نزل قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَمَـْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ، يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ، يَا وَيْلَتَا ، لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا »^(١) .

فلما كان يوم بدر ، كان عقبة بن أبي معيط في الأسرى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله صبراً . فقال : أتقتلني من بين هؤلاء ؟ قال : نعم ، بكفرك ، ولجورك ، وعنتوك على الله ورسوله . ثم أمر علياً بضرب عنقه^(٢) .

وفي الأغاني : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمر بقتل عقبة ، قال : يا محمد ، أأنا خاصة من دون قریش ؟ قال : نعم . قال : فمن للصبيّة من بعدى ؟ قال : النار . . . فلذلك سُمّيَ بمو أبي معيط صبيّة النار^(٣) .

هذا عن عقبة ابن أبي معيط .

(١) سورة الفرقان : ٣٠ — ٣٢ .

(٢) الطبقات لابن سعد جزء ١ ص ١٨٦ ، السيرة لابن هشام جزء ص ٣٨٥

(٣) الأغاني جزء ١ ص ١٧

أما ابنه « الوليد » فهو من الطلقاء ، أسلم يوم فتح مكة ، وقد بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مصدقاً إلى بني المصطلق ، فماد وأخبر عنهم أنهم ارتدوا ، ومنعوا الصدقة ، فبعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، فوجدهم على الإسلام ، لم يغيروا شيئاً ، وفي هذه الحادثة نزل قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

وفي خلافة عثمان — رضى الله عنه — ولأه إمارة الكوفة بعد أن عزل عنها سعد بن أبي وقاص ، وكان سعد هو الذى كتوف الكوفة بأمر عمر ، وهو الذى فتح العراق ، ثم هو قبل كل هذا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين اختارهم عمر للخلافة من بعده .

وسنرى أن الوليد سار فى الكوفة سيرة أنكرها عليه المسلمون الذين عاشوا فى إمارة سعد ، وكان ذلك من الأسباب البارزة فى الثورة على عثمان .. رضى الله عنه .

٤ - معاوية بن أبي سفيان

أبوه ، أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس .

وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

تزوجت هند الفاكه بن المغيرة الحزومي ، فقتل عنها ، ثم تزوجت حفص ابن المغيرة ، فمات عنها ، فتزوجها أبو سفيان .

وقيل إن الفاكه بن المغيرة ، اتهمها بالزنا ، فبانت منه . . كما يروى ذلك صاحب العقد الفريد . . و يروى ابن أبي الحديد ، في شرح بهج البلاغة أنها كانت تُذكر بفجور وعهر .

وفي الأغاني^(١) أن للمسافر بن عمرو بن أمية عشق هنداً ، فأتهم بها ، فحملت منه ، فلما بان حملها أو كاد خرج مسافر إلى النعمان بن المنذر يستعينه على أمره ، فتزوجها أبو سفيان بعده .

وقال الزمخشري في « ربيع الأبرار » :

« وكان معاوية يُعزى إلى أربعة : إلى مسافر بن أبي عمرو ، وإلى عمارة ابن الوليد ، وإلى العباس بن عبد المطلب ، وإلى الصباح ، وهو مُغَنٍّ لعمارة ابن الوليد .

« قال : وكان أبو سفيان دميماً قصيراً ، وكان الصباح عسيفاً لأبي سفيان ، شاباً ، فدعته هند إليها فغشها . »

وقد كانت هذه المقولات شائعة في هند قبل فتح مكة ، وكانت أخبارها تدور على الألسنة ، حتى لقد أمسك بها حسان بن ثابت ، فذكرها في شعره ، وجعلها سبباً يرمى بها في صدور المشركين يومذاك ، وعلى رأسهم أبو سفيان . يقول حسان :

لَمَنِ الصَّبِيُّ بِجَانِبِ الْبَطْحَاءِ فِي الثَّرْبِ مُلْقَى غَيْرَ ذِي مَهْدٍ
بَجَلَتْ بِهِ بِيضَاءُ آتَةٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ صَلَوةُ الْخَدِّ
تَسْمَى إِلَى الصَّيَاحِ^(٢) مَعُولَةً يَاهُنْدُ إِنَّكَ صَلَوةُ الْخَرْدِ

(١) الأغاني . . جزء ٩ ص ٥ .

(٢) الصباح كان يخدم في بيت أبي سفيان .

غلبت على شَبِّهِ الغلام وقد بان السواد لحالك جَعْدٍ
وقال في هند أيضاً :

لمن سواقط صبيان مَفْبَذَةٍ بانت تَفَحَّصُ في بطحاء أجيادٍ
بانت تَمَخَّصُ ، ما كانت قوابلها إلا الوحوش ، وإلا جِنَّةُ الوادي
فيهم صبي له أم لها نسب في ذروة من ذرى الأحساب أبادٍ
تقول وهناً وقد جَدَّ الخاض لها ياليتني كنت أرعى الشَّوْلَ للغادى
قد غادروه لحر الوجه مغمفرا وخالها وأبوها سيدا النادى

وهند هي التي قادت حملة النساء المشركات اللاتي صحن أزواجهن في غزوة
أحد ، للتحرّض على النار بقتلى بدر . . فلما أصيب المسلمون ، واستشهد حمزة
أقبلت هند ومن معها نمثل بالشهداء ، وتقطع آذانهم ، ثم بقرت بطن حمزة ،
وأكلت من كبده !

أما أبوسفیان فقد كان على رأس المشركين في وقعتي بدر وأحد ، ثم في
وقعة الخندق ، وفي كل أمر كانت تجتمع له قريش لتقف في وجه رسول الله !
وأسلم أبوسفیان عام الفتح ، والنبي والمسلمون على مشارف مكة .

وذلك أنه لما قرب النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون من مكة في طريقهم
إلى فتحها ، ركب العباس بن عبد المطلب بغلة النبي ، وخرج يطلب أحداً إلى
قريش ، ليأتوا إلى النبي ويستأمنوه ، فأدرك ثلاثة من قريش ، فيهم أبوسفیان ،
خرجوا يتجسسون ، فقال العباس لأبي سفيان : والله إن ظفر بك ليضربنَّ
عنقك . . ثم أردفه خلفه ، وأخذه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستأمن
له ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك
أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ »

فقال : بأبي أنت وأمي ! ما أحلك ، وأكرمك ، وأوصلك . . والله لقد
خلفت أن لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى عنى شيئاً بعد !

قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟

قال : بأبي أنت وأمي . . ما أحلك ، وأكرمك ، وأوصلك . . أما هذه
فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً !

فقال العباس : ويحك ! ! أسلم قبل أن تضرب عنقك ، فشهد وأسلم ! «
وهو إسلام — كما ترى — على شيء من الخوف ، وشيء من الشك ، وشيء من
الحسد أن يكون محمداً رسولاً ، وأن تكون له الكلمة في قريش ، وفي
العرب جميعاً !

ولهذا فقد كان إسلام أبي سفيان صفقة تجارية ، حمى بها نفسه من القتل ،
وضمن لنفسه مكاناً جديداً في المجتمع الجديد !

إن أبا سفيان وأمثاله ممن كانوا أصحاب رياسة وسيادة في قريش ، لم تطب
نفوسهم أن يستجيبوا لحمد ، وأن يكونوا من وراء كلمته . . يسمعون له
وبطيمون ، فيما يدعوهم إليه !

وكان أبو سفيان لا يرى « محمداً » إلا من هذه الجهة التي ينازعه فيها
الزعامة ، وينزعها من يديه ، ولا يرى أن الأمر أمر نبوة ، لا يعنىها إلا هداية
الناس ، وإلآقيادهم إلى سبل الخير والرشاد ، وإلا إقامة موازين الحق والعدل
بينهم . . وأنها — وهذه سيلها — بعيدة عن الجاه والسلطان ، وعن التسلط
والقهر ، وعن التطلول على الناس بالمنة والقوة !

ولكن هكذا كانت نظرة أبي سفيان إلى النبي ، وإلى رسالة النبي !

شهد أبو سفيان جيوش المسلمين وهي تتدفق تدفق السيل ، في طريقها إلى

مكة ، وكان العباس بن عبد المطلب معه ، وهو يرقب هذا المشهد . . فكانت كلما مرت قبيلة سأل عنها ، وأظهر استخفافه بها ، حتى إذا أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار ، عليهم الحديد ، لا يظهر منهم إلا الحدق . . قال : مَنْ هؤلاء ؟ قال العباس : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ! قال : ما لأحدٍ بهؤلاء قَبْل ولا طاقة . . لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً ! فقال العباس : يا أبا سفيان . . إنها النبوة ! قال : فنعم إذن !

ولقد أصبح أبو سفيان في المسلمين ، والكنه ظل مع ذلك يَنْصُ بالإسلام الذي أنزله عن مقامه ، وقدم عليه أمثال بلال ، وعمار ، وسلمان الفارسي ! وجعله إنساناً من عامة الناس ، وفي الصفوف المتأخرة في المجتمع الجديد .

وكانت الأيام والأحداث نهيج في أبي سفيان ما كان الإسلام يعمل على اقتلاعه من نفسه ، وتشير في صدره حِكْمَةً ، كلما أوشكت جراحاته أن تندمل ! فحيثما تحرك في الحياة الجديدة ، وحيثما التفت إلى نفسه بين الناس ، لم يجد تلك الشخصية المرموقة التي كان يراها الناس منه ، ولم ير فيه إلا شبحاً لاتأخذ العين منه إلا ما بسوء وبغيظ .

فأين أبو سفيان الذي عرفته قريش صاحب عيبرها ونفيرها ؟ لقد أنزله الإسلام عن هذا المقام ، ونزع بيده عنه هذا الرداء نزعاً ، ليكون واحداً في آحاد الناس !

روى ابن عساكر ، أن أبا بكر — رضى الله عنه — لقي أبا سفيان مرة ، فأغلظ له القول ، وأبوقحافة بسمع ، فقال : يا أبا بكر . . أتقول هذا لأبي سفيان ؟ فقال : يا أبا بكر . . إن الإسلام رفع بيوتاً ووضع بيوتاً ، وكان بيتي فيما رفع ، وبيت أبي سفيان فيما وضع ^(١) .

وروى أن عمر — رضى الله عنه — اجتاز في سبيلك مكة ، وأمر الناس أن يقيموا أفنييتهم ، ثم اجتاز بعد ذلك بفناء أبي سفيان ، فرأى الفرساء على ما رآه أولاً ، فعلاً أبا سفيان بالدرة بين أذنيه . فسمعت هند بذلك فقالت : أبصر به ! أما والله لرب يوم لو ضربته لأشترت بك بطن مكة ! ! فقال عمر صدقت ، ولكن الله رفع بالإسلام أقواماً ، ووضع به آخرين .

إن الجرح الفائر الذى أصاب أبا سفيان في زعامته ورياسته منذ جاء الإسلام وأجاء إلى الدخول فيه — هذا الجرح لم يندمل أبداً ، وإن كل شيء حول أبي سفيان كان يحث هذا الجرح أبداً ، فينقر قيقاً وصدبداً . . . كان ذلك في حياة رسول الله ، ولكنه كان يتحامل على نفسه ، ويوطئها على الصبر على ما تكبره ، خوف أن يفضحه الإسلام ، والقرآن ينزل بما يفضح المنافقين ! فلما ولى الخلافة أبوبكر ، ثم عمر ، كان يترصد المواقف ، ويتحين الفرص . . . لعل وعسى !

روى ابن الأثير عن عبد الله بن الزبير قال : كنت مع أبي باليرموك^(١) ، وأنا صبي لأقاتل ، فلما اقتتل الناس ، نظرت إلى ناس على تل لا يقاتلون ، فركبت وذهبت إليهم ، وإذا أبو سفيان بن حرب ، ومشيجة من قريش ، من مهاجرة الفتح ، فرأوني حدنا ، فلم يتقوا .

قال : جعلوا والله إذا مالت المسلمون وركبتهم الروم يقولون : إيه بنى الأصفر^(٢) ، فإذا مالت الروم وركبهم المسلمون قالوا : « ويح بنى الأصفر » فلما هزم الله الروم أخبرني أبي ، فضحك ، فقال : قاتلهم الله ، أبوا إلا ضغنا ،

(١) موقعة يلاذ الشام كانت بين المسلمين والروم في خلافة عمر .

(٢) إيه : كلمة إعجاب ، وبنو الأصفر : الروم .

لنحن خير لهم من الروم»^(١) .

وفي رواية الأغاني :

« فكانت الروم إذا هزمت للمسلمين ، قال أبو سفيان : إيه بني الأصفر ،
فإذا كشفهم المسلمون ، قال أبو سفيان :

وبنو الأصفر الكرام ملو ك الروم لم يبق منهم مذكور
فلما فتح الله على المسلمين ، وحدثت أبي أخذ بيدي يطوف على أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول حدثهم ، فأحدثهم ، فيمجبون من
نفاقه ا»^(٢) .

فلما ولي عثمان الخلافة ، تنقّس أبو سفيان الصعداء ، ومدّ بصره إلى
ما ينظره هو وقومه بنو أمية من نصيبهم ؛ في هذه الخلافة التي صارت إليهم .
فعثمان رضى الله عنه ، هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية . .

لقد تحركت في أبي سفيان شخصيته التي كان يعيش بها في الجاهلية ، والتي
أضواها الإسلام وأخفاها . . فجاء يسعى إلى عثمان ، وجمع من بني أمية عنده ،
فيقول : يا بني أمية ! إن الخلافة صارت في تيم وعدى حتى طمعت فيها ، وقد
صارت إليكم فتلقفوها بينكم ، تلقف الصبي الكرة ، فوالله ما من جنة ولا نار !
فصاح به عثمان : « قم عني .. فعل الله بك وفعل ا »^(٣) .

وفي ابن أبي الحديد : أن أبا سفيان مرّ بقبر حمزة ، وضربه برجله ، وقال :
يا أبا عمار ! إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس ، صار في يد غلماننا
اليوم يتلاعبون به ! «^(٤) !

(١) الكامل لابن الأثير ٢ ص ١٥٩ .

(٢) الأغاني ج ٦ ص ٣٥٤ .

(٣) الأغاني جزء ٦ ص ٣٥٤ .

(٤) الأغاني جزء ٦ ص ٣٥٥ .

إن يكن في هذه الأخبار مبالغة أو تزيد ، فإن طبيعة الأمور تقضى بأن
تقع على نحو من هذا !

فأبو سفيان إذ تأخر في الإسلام ، تأخرت مكاتبه في المجتمع الإسلامي ،
ولو أنه كان من السابقين إلى الإسلام لتغير تاريخ حياته ، ولربما كان أحد
الخطباء الراشدين ! فإنه حينئذ كان سيعطى الإسلام كل ما في كيانه من قُوى ،
وكل ما كان يملك من حول وسلطان ، ولدخل في الإسلام دخول المطمئن ،
ولشارك في بنيائه وإقامة دعائمه !

ولسكن هكذا أراد الله لأبي سفيان ! « فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره
للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً كأنما يَصُقَّد في السماء . »
قد دخل في الإسلام مكرهاً ، وعاش في المجتمع الإسلامي مُخْرَجاً . . يرى أنه في
عزلة عن الدين الجديد والدولة الجديدة ، التي كان من ألد أعدائها ، وأشد
خصومها !

* * *

في هذا الجو الذي كان منعقداً على بيت أبي سفيان في الجاهلية والإسلام
عاش بنو أمية ، يدورون في فلك زعيمهم ، ويأخذون عنه ويصدرون عن رأيه
في موقفهم من رسول الله ، ومن الدين الذي جاء به ، ومن المجتمع الذي
اجتمع عليه !

ولاشك أن ليس بنو أمية على سواء في متابعتهم لأبي سفيان ، وفي أخذهم
للوقف الذي وقفه من رسول الله ، ومن دعوته . . فقد خرج بعضهم عن
سلطان هذه العصبية ، وفرّ بدبته ونفسه إلى الله ، كما خرج كثير من المسلمين
السابقين عن سلطان الآباء والأمهات .

فهذا عثمان بن عفان — رضى الله عنه — وهو أموي ، قد كان

في السابقين إلى الإسلام ، والمهاجرين الأولين ، وأقرب القربين إلى رسول الله ، حتى لقد زوجه ابنتيه ، وقال لو كانت لنا ثالثة لزوجناها لعثمان !

ومع هذا فإن بنى أمية في مجموعهم كانوا جبهة مناظرة ومنافسة لبنى هاشم في الجاهلية ، فلما أكرم الله بنى هاشم ، فاختار نبيه منهم انقلبت هذه المنافسة إلى حسد وعداوة ، ثم إلى حرب وقتال ؛ إلى أن رجحت كفة الإسلام ، وكتب الله لنبيه النصر ، فدخل بنو أمية فيما دخل فيه الناس !

* * *

ومعاوية ، هو ابن أبي سفيان ! والمرشح لرياسة بنى أمية من بعده ، ولم يجيء الإسلام ، فيغيّر من أوضاع الناس !

وهو من وراء أبيه ، يرصد خطواته ، ويحمل معه ما يحمل من مشاعر وعواطف ، قبل الإسلام ، وبعد الإسلام !

يُروى أن معاوية حين رأى أباه قد غلب على أمره ، وأنه يوشك أن يدخل في الإسلام — قال مخاطبه :

يا صخرُ لا تُسَلِّمَنَّ فتفضحنا بعد الدين بيدر أصبحوا مِرْقًا
خالي ، وعمي ، وعم الأم ثألهم وحفظل الخير ، قد أهدى لنا الأرقا
لا تركنَّ إلى أمر تقلدنا — والراقصات — به في مكة الخرقًا
قلوت أهونُ من قول العداة لنا

حاد ابن حربٍ عن العزى إذا قرقا^(١)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرى هذا من أبي سفيان ، ومن ابنه معاوية ، فيدعوهما إلى الإسلام في رفق ولطف ، ويفسح لهما الطريق إليه ،

بما يسوق إليهما من ألوان الكرامة والتكريم ، ليستلّ مافي نفسيهما من مرارة وحسرة ، وحقد وحسد . . . ففى يوم الفتح ينادى منادى رسول الله : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . . . ثم فى يوم حنين ، يعطيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعاقم ويختصهما بالمعطاء الجزيل ! فيذهب كل من أبى سفيان ومعاوية عمائة من الإبل ، ثم يتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم معاوية كاتباً من كتاب لوحى !

وفى إلحاق معاوية بكتاب الوحى يروى مسلم فى صحيحه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليه ابن عباس يدعوه ليلكتب له فوجده يأكل ، فأعاد النبي إليه يطلبه فوجده يأكل ، إلى ثلاث مرات ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا أشبع الله بطنه »^(١)

ولما استخلف أبو بكر ، وبعث الجيوش لفتح الشام كان يزيد بن أبى سفيان أحد الأمراء الأربعة على جيوش المسلمين ، وكان معاوية تحت لواء أخيه ، فلما مات يزيد بالطاعون سنة ثمانى عشرة استعمل أخاه معاوية مكانه ، على دمشق وجندها ، فأقره الخليفة على ذلك .

ولما استخلف عثمان جمع له الشام ، فكان معاوية صاحب السلطان الذى لا يكاد يرجع إلى الخليفة فى شيء !

فلما قتل عثمان ، وبايع الناس لعلى بالخلافة ، أبى معاوية أن يبايع مطالباً بالثأر بدم عثمان ، واعتصم بالشام وأهله ، بقازع علياً ، وبُعدُ العدة لحربه ، ثم يلقاه محارباً فى معركة صفين .

وسنرى تفصيل ذلك ، فيما سيجىء من هذا الحديث بعد .

هـ - عمرو بن العاص

أبوه العاص بن وائل ، بن هاشم ، بن سهم ، بن مُصيص ، بن كعب
ابن لؤى . . . والعاص هذا كان من المستهزئين ، وقد نزل فيه قوله تعالى :
« إن شئت لك هو الأبر » .

وأمه النابتة ، بنت حرملة العنزي ، سبيت من بني جيلان بن عتيك ،
وبيعت بمكاذ ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم انتقلت إلى عبد الله
ابن جُدعان ، ومنه إلى العاص ، فولدت له عمرًا .

أسلم عمرو سنة ثمان من الهجرة ، مع خالد بن الوليد . . . قبل الفتح بسنة
أشهر ، وكانت قريش قد بعثت به - قبل إسلامه - إلى النجاشي ، وراء
مهاجري المسلمين ، ليفرى بهم النجاشي ، ويوغر صدره عليهم ، حتى يخرجهم
من جواره . ولكنه لم يبل شيئًا !

وعمره ، هو الذي فتح مصر في خلافة عمر ، فولاه الإمرة عليها ، وظل
واليًا ما بقي من خلافة عمر ، ثم أربع سنين من خلافة عثمان ، حيث عزله ،
وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي السرح !

وكان عمرو ممن شاركوا في التأليب على عثمان ، في دهاء وحرص . فلما
كان الخلاف بين عليٍّ ومعاوية عمل معاوية على ضمه إليه ، ليتقوى به على عليٍّ ،
وجعل له مصر طُغمة ، إن هو انتصر في هذا الصراع !

ومنذ تم الاتفاق بينه وبين معاوية ، أصبح قوة عاملة في جبهة معاوية ،
يعمل برأيه وبسيفه معًا ، فشهد حرب صفين ، وبرز لعل في القتال ، فكاد
يأخذه سيف ابن أبي طالب لولا أن انكشفت سوائه ، فأعطاه عليٌّ ظهره !
ثم لما اشتد القتال ، وأطلت الهزيمة على جيش معاوية أشار برقع المصاحف ،
وعن هذا التدبير فسد أمر عليٍّ ، ووقع الخلاف في جيشه ، وانتهى الأمر
بالتحكيم ، وكان هو الحكم الذي واجهه أبا موسى الأشعري على ماسنرى .

٦- أم المؤمن عائشة

ابنة أوى بكر الصديق ، رضى الله عنه .

وَزَوْجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ولدت في السنة الرابعة من البعثة .

تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد وفاة زوجته الأولى ، خديجة ،
- رضى الله عنها - وذلك قبل الهجرة بسنتين ، وبثى بها فى شوال ، بعد
ثمانية عشر شهرا من هجرته إلى المدينة ، وقبل غزوة بدر الكبرى .

وقبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حجرتها ، وفي حجرها ،
وهي في الثامنة عشرة من عمرها .

وكانت حياتها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثمانى سنوات وخمسة أشهر .

ولمكائنها ومكانة أيها من رسول الله ، فقد أحبتها الصحابة - رضوان الله عليهم - وآثروها بالمودة والاحترام . . . نعم كان ذلك لها عند المسلمين جميعاً .

وكان يبيتها - بعد وفاة الرسول - مثابة للصحابية ، ومقصداً للمسلمين المقيمين في مديفة الرسول والوافدين عليها ، يلتئمون عندها آثار الرسول ، وأخباره ، مما لم يعلمها إلا أقرب المقربين إليه .

فلما كانت الأحداث التي وقعت في خلافة عثمان لم تر بداً من أن تعلن رأيها ، وتسمع صوتها ، فلما قتل عثمان ، ويوبع علي بالخلافة وأباهما عليه طلحة والزبير ، كانت هي على رأس تلك الجبهة . التي نازعت عليا ، وانهت الأمر بالقتال ، في معركة الجمل المعروفة .

٧ - طلحة بن عبيد الله

هو طلحة بن عبيد الله ، بن عثمان ، بن عمرو ، بن كعب ، بن سعد ، ابن تيم ، بن مرة ، بن كعب . . يلتقى نسباً بالنبي صلى الله عليه وسلم عند مرة . ويكنى أبا محمد .

ويقال له طلحة الخير ، وطلحة الفياض ، وطلحة الطلحات ا وليس هو الذى عناء الشاعر بقوله :

رحم الله أعظما دفنوها بسجستان ، طلحة الطلحات
فذلك رجل من خزاعة ^(١)

وطلحة من المهاجرين الأولين ، ومن العشرة الذين وُعدوا بالجنة ، وأحد الستة الذين اختارهم عمر - رضى الله عنه - ليكون منهم الخليفة من بعده ! ولم يحضر طلحة مجلس الشورى ، إذ كان غائبا .

وهو أحد أبطال الحرب فى الإسلام ، وقد ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، ووقاه يومذاك من ضربة قصد بها إليه ، فشلت يده ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَوْجَبَ طَلْحَةُ » أى وجبت له الجنة .

وآخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن أبى وقاص .

قال ابن قتيبة ، « وكان شديدا عثمان » ^(٢)

وسنرى أنه أيام حصار عثمان ، قد استولى على بيت مال ، حتى انتزعه منه على ، ووزع ما فيه على المسلمين .

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٠٠

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ١٠٠

وكان طلحة هو والزيبر على رأس الجيش الذى حارب علياً يوم « الجمل » .
وحين التحم القتال نظر إليه مروان بن الحكم - وكان فى هذا الجيش يقاتل
علياً - فرمى طلحة بسهم أصابه فى ساقه ، وقال : « لا أطلب ثأرى بعد
اليوم ! » .. إذ كان مروان يرى أن طلحة أغرى الناس بثمان ، وفتح لهم الطريق
إلى قتله . ولم يشهد طلحة حرب الجمل ، إذ مات بعد أن نزف دمه من هذا
السهم الذى أصابه .

قال ابن حجر - فى الإصابة - : « لا يشك العلماء النقات فى أن مروان
قتل طلحة يومئذ ، وكان فى حزنه » .

٨ - النـ بـير ابن العوام

أبوه العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى .. يلتقى نسبه
بالنبي صلى الله عليه وسلم فى الجذع الرابع « قصى » .

وعمته خديجة بنت خويلد ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم .

أسلم فى سن مبكرة اختلفت الرواة فيها ، بين ثمانى سنين ، وست عشرة
سنة ، ومعنى هذا أنه دخل الإسلام فى صباه ، لصلته برسول الله صلى الله عليه
وسلم ، إذ كان له فى بيت الرسول داعية الاتصال ، بعمته خديجة ، رضى الله عنها .
وكما كان الزيبر من السابقين إلى الإسلام ، كان من السابقين الأولين
إلى الهجرة .. والزيبر فارس من فرسان الإسلام الممدودين ، وقد ثبت مع النبي
فى أخرج المواقف ، وكان من النفر القليل الذين ثبتوا مع النبي يوم أحد ..
وهو من العشرة المبشرين بالجنة . روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ندب الناس يوم الخندق ، فانتدب الزيبر ، ثم ندبهم فانتدب الزيبر ،
فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لكل نبي حوارى ، وحوارى الزيبر »

وقد نازع الزبير علياً في الخلافة ، بعد أن بايع ، وبايع الناس لعلي ، وكانت حجته أنه بايع مكرها !

وكان هو وطلحة بن عبيد الله على رأس الجيش الذي قاده السيدة عائشة لقتال علي في موقعة الجمل .

وقُتل الزبير بعد أن شهد أول مواقف الجمل ، فاما راجعه علي ، وذكر له أموراً ، كانت الأحداث قد حجبتها عنه ، اعتزل الحرب ، وقفل راجعاً إلى المدينة ، وفيما هو في بعض منازل الطريق لقيه ابن « جرموز » بوادي السباع ، فقتله غيلة وغدرا ، ثم جاء بسيفه إلى علي كرم الله وجهه ، فقال : والله ما كان ابن صفية جباناً ولا لثيماً ، ولكن الحين ، ومصارع السوء . ثم أخذ السيف وهزمه قائلاً : « سيف طالبا جلي الكرب عن وجه رسول الله ! »

ويقبل ابن جرموز على علي قائلاً : الجائزة يا أمير المؤمنين ! « فيجيبه أمير المؤمنين : « أما إني سمعت رسول الله يقول : « قاتل ابن صفية في النار! »^(١) »

ولا تذكر الأخبار أن علياً قتل ابن جرموز ، قاتل الزبير ، الأمر الذي ما كان علي يدعه بحال أبداً ، لو أيقن أن ابن جرموز هو الذي فعل هذه الفعلة الشنعاء . إذ يكون ابن جرموز - والأمر كذلك - قتل أسيراً مسلماً في غير حرب !

والموقف هنا لا يحتمل غير أمرين :

إما أن يكون هذا الخبر لم يقع على تلك الصورة ، وأن ابن جرموز لم يكن هو القاتل ، وإنما جاء بالخبر الذي ظن أنه يسر علياً ، وجاء بالسيف دليلاً على صحة هذا الخبر !

(١) الطبري جزء ٥ ص ١٠٥ ، أسد الغابة جزء ٢ ص ١٩٩ .

(م ٥ - علي بن أبي طالب)

ولما أن ابن جرمور هو القاتل ، ولكنه لم يجرى إلى عليّ ، ولم يلقه ،
ولكنه بعث إلى عليّ عن بخره الخبر ، وبطاع عليّ وقعه في نفسه ، فلما علم
ما عند عليّ له ، فرّ من وجهه .

وهذا ما رجحه ، فإن ابن جرمور - كما تحدث الأخبار - لم يظهر له وجه
حتى كانت فتنة الخوارج ، فكان رأساً من رؤوسها ، وقد لقي مصرعه على يد
عليّ في موقعة النهروان ، التي أوقع فيها ما فرقة الأولى من الخوارج .
وسيكون لنا نظر أوسع في هذه الحادثة ، حين نعرض لموقعة الجمل ،
ومقتل الزبير ، رضي الله .

٩ - سعد بن أبي وقاص

أبوه مالك بن أهيب ، من عبد مناف ، ابن زهرة ، من كلاب ، من كعب
ابن لؤي . . وأمه حنّة بنت سفيان بن أمية ، من عبد شمس .

وهو أحد العشرة الذين بُشّروا بالجنة ، وأحد أصحاب الشورى الستة ،
وكان أرمى الناس سهماً ، وكان أحد الذين ثبتوا مع النبي يوم أحد ، والنبي
صلى الله عليه وسلم يقول له : « ارم ، فذاك أي وأمي » . . ودعا له النبي
صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم أجب دعوته ، وسدد رميته » . فكان إذا
رمى لا تخيب رميته ، وإذا دعا لا ترد دعوته .

وهو آخر العشرة موتاً ، مات سنة خمس وخمسين .

وقد اعتزل سعد الفتنة منذ يومها الأول ، ولما قُتل عثمان كان أحد الذين
تخلّفوا عن بيعة عليّ .

وقد كشف سعد لعليّ بن أبي طالب عن توقّفه في البيعة له ، فقال :
« والله يا أمير المؤمنين ، لا ريب في أنك أحقّ الناس بالخلافة ، وأنتك أمين
على الدّين والدنيا ، غير أنه سينازعك على هذا أناس ، فلو رغبت في بيعتي
لك ، أعطني سيفاً له اسان ، يقول لي : خذ هذا ودع هذا !! »

فقال له عليّ - كرم الله وجهه - أترى أحداً خالف القرآن في القول
والعمل^(١) ؟ لقد بايعني المهاجرون والأنصار على أن أعمل فيهم بكتاب الله ،
وسنة نبيه ، فإن رغبت بايعت ، وإلا جلست في دارك . فإني لست مكرهك
على شيء . ! » .

وظل سعد وفياً لهذا الرأي الذي رآه لنفسه ، فلم يشارك في شيء من تلك
الأحداث التي ماج فيها المسلمون ، حتى لقد سخط عليه ابنه هذا الموقف السلبي ،
فلم يرض لأبيه الصحابي ، المعروف له قدره في الإسلام ، وعند المسلمين ، أن يعتزل
الحياة ، وما يجري فيها ، وأن يقضي في أمور المسلمين وهو ساكن لا يريم ،
فكان ردّ سعد : « أي بني . . أفي الفتنة تدعوني أن أكون رأساً ؟ لا والله ،
حتى أعطى سيفاً إن ضربت به مسلماً نبأ عنه ، وإن ضربت كافراً قتله !! »
وهذا موقف أشبه بموقف ابن عمر الذي وصفه عليّ - كرم الله وجهه -
بقوله فيمن اعتزلوا الفتنة : « خذلوا الحق ، ولم ينصروا الباطل ! » .

وكان عليّ يرى أن على المؤمن أن يأخذ مكانه من الأحداث ، وأن
يتحرّى جانب الحق ، فيكون معه .. أما أن يقف بمعزل عن الفتن وهي تموج

(١) يقصد نفسه ، وأهله ، وعماله على الأمصار .

بالناس ، فذلك مما يقوى جبهة الباطل ، ويقتل من أنصار المدافعين عن الحق .
وفي موقف سعد هذا ، يرى عليّ ، أن سعداً يتعامل بتلك التعللات ، وأنه
إنما خذل علياً لشيء في نفسه عليه . . !

ففي حديث لعليّ عن الذين تخلفوا عن بيعته يقول عن سعد : وأما سعد
لخسود ^(١) .

وفي موقف آخر يذكر فيه أصحاب الشورى الذين اختاروا عثمان عليه..
يقول : « قصنى رجل منهم لضغنه » يقصد سعداً ^(٢) .

والذى نود أن نبه إليه هنا ، هو أن هذه الأقوال التى تنسب إلى عليّ ،
ليست بمعيدة عن الظن والشك ، وخاصة إذا عرفنا أن سعداً كان قد اعتزل
العتقة من أيام عثمان . . فلم يكن معه أو عليه . . يقول سعد فى موقفه وموقف
غيره من عثمان : « ولو شئنا دفعنا عنه ، ولكن عثمان غير وتمير ، وأحسن
وأساء ، فإن كنا أحسننا فقد أحسننا ، وإن كنا أساءنا فاستغفر الله » ^(٣) .

وكتب سعد إلى عمرو بن العاص ، وقد سأله فى أمر عثمان : إنك تسألنى
مَنْ قَتَلَ عثمان ؟ وإني أخبرك أنه قتل بسيف سَلْتِه عائشة ، وصقله طلحة ،
وسمّه ابن أبي طالب ، وسكت الربير ، وأشار بيده ، ولو شئنا دفعنا عنه ! ^(٤) .

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٥٤ .

(٢) نهج البلاغة جزء ١ ص ١٧ .

(٣) الإمامة جزء ١ ص ٥٠ .

(٤) الإمامة جزء ١ ص ٤٨ .

١٠ - عبد الله بن مسعود

هو أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن مسعود ، بن غافل ، بن حبيب ، الهذلي .
كان أبوه حليف بني زهرة :

أما هو فكان من السابقين إلى الإسلام ، وقد أجهز بالقرآن في مكة ،
ولم يكن أحد من المسلمين قد أجهز به قبله ، فصرته قريش حتى أدمته .
وقد خدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يُلبسه نعليه ، وكان
يُعرف في الصحابة : بصاحب السواد والسواك .

هاجر المهاجرين جميعاً ، إلى الحبشة ، وإلى المدينة ، وشهد بدرًا وما بعدها .
ولما بعثه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى الكوفة ، كتب إلى
أهل الكوفة :

« إلى قد بعثت عمار بن ياسر أميراً ، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً .
وهما من النجباء ، ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد آثرتمكم بعبد الله
على نفسي ! » .

فكان يعلم أهل الكوفة القرآن ، ويفقههم في الدين .

فلما كانت خلافة عثمان ، وتولى الوليد بن عقبة إمارة الكوفة ، وقع بينه
وبين ابن مسعود خلاف ، وصل إلى عثمان ، ثم انتهى بأن استدعى عثمان ابن
مسعود إلى المدينة .

وملخص الواقعة ، أن الوليد حين قدم أميراً على الكوفة كان بيت المال
في يد عبد الله بن مسعود ، فاستقرضه الوليد مالا ، فأقرضه ، ثم اقتضاه وقاء
ما اقترض ، فلم يسمع له ، ثم شدّد عليه في الطلب ، فكتب الوليد إلى عثمان ،

فكتب عثمان إلى ابن مسعود : « إنما أنت خازن لنا ، فلا تعرض للولايد فيما أخذ من المال ! »

فطرح ابن مسعود مفاتيح بيت المال ، وقال : « كنت أظن أني خازن للمسلمين ، فأما إذ كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك !! »

وفي رواية : أن ابن مسعود خرج إلى مسجد الكوفة وقال : يا أهل الكوفة . . فقدت من بيت مالكم الليلة مائة ألف ، لم يأتني بها كتاب أمير المؤمنين ، ولم يكتب لي بها راحة ! »

فكتب الوليد بذلك إلى عثمان ، فبرعه من بيت المال . .

وروى البلاذري : أن عبد الله بن مسعود حين ألقى مفاتيح بيت المال إلى الوليد بن عقبة ، قال : « من غير غير الله ما به ، ومن بذل أسخط الله عليه ، وما أرى صاحبكم إلا قد غير وبدل . . أبعزل مثل سعد بن أبي وقاص ، ويأتى الوليد ؟ » .

فكتب لوليد إلى عثمان في ابن مسعود يقول : « إنه يعيبك ، وبطن عليك » فكتب عثمان إلى الوليد بإشخاصه إلى المدينة ، فاجتمع الناس فقالوا : أقيم ، ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه ! « فأبى عليهم ذلك ، وقال : « إن له على حق الطاعة ، ولا أحب أن أكون أول من فتح باب الفتن » .

وحين التقى عبد الله بن مسعود بعثمان كان بينهما من الأمور ، ما سنعرض

له في حينه !

١١ - عمار بن ياسر

هو أبو اليقظان ، عمار بن ياسر بن عامر . . . مولى بنى مخزوم .

كان هو وأبوه ، وأمه وأخوه ، من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وقد احتملوا الصدمة الأولى ، وعُذِّبوا عذاباً أليماً ، بأيدي السفهاء من مشركي قريش . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمرّ على آل ياسر بالأبطح ، وهم يذّبون في رمضاء مكة ، فيقول : « صبراً آل ياسر . . . موعدكم الجنة » . وسمية أم عمار أول شهيدة في الإسلام ، طعنها أبو جهل بحربة ، فماتت ، وقتل بعدها زوجها ياسر .

أمّا عمار فإنه حين اشتد عليه البلاء أعطى المشركين ما أرادوا بلسانه ، مكّرها ، وظل الإسلام ملء كيانه . . .

وأخبر النبي أن عماراً كفر ، فقال صلى الله عليه وسلم : كلا ، إن عماراً ملئ إيماناً من قرّنه إلى قدمه ، وأخلط الإيمان بلحمه ودمه .

وفي عمار نزل قول الله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلّا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا . . . » ^(١) .

ثم هاجر عمار إلى المدينة ، وشهد بدرًا وما بعدها من غزوات الرسول . ولما بنى الرسول مسجده ، شارك في بنيائه ، وكان يحمل حمل رجلين ، فلما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثقلوه قال : قتلوني ، يحملون عليّ مالا يحملون ! فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفذ فروته بيده ، ويقول : « وَيَحْ بن سمية ، ليسوا بالذي يقتلونك ، إنما تقتلك الفتنة الباغية !

وارتجز على ابن أبي طالب والناس يعملون في بناء المسجد :
لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعداً
ومن يرى عن البناء حائداً

لجعل عمار يردد هذا الزجل وهو يعمل ، فظن رجل من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم أن عماراً يُعرض به ، فقال : « قد سمعتُ ما تقول منذ
اليوم يا ابن سمية ! والله إلى لأراي سأعرض هذه العصا لأنفك ! » .
وسمع النبي مقالة الرجل ، فغضب ، ثم قال : « ما لهم ولعمار ؟ يدعوهم
إلى الجنة ، ويدعوه إلى النار ، إن عماراً جليدة ما بين عيني وأنتي !! » .
وقد وقع بين عمار بن ياسر وعثمان رضي الله عنهما ما كان سبباً في وقوع
الفتنة بينهما ، وذلك في مهابة الفتنة التي وقعت قبيل مقتل عثمان . .
وسنعرض لهذا في حينه .

وكان عمار من الذين وقفوا إلى جانب عليّ كرم الله وجهه ، وقد شهد
معه حرب الجمل ، وصفتين ، حيث قتل في هذه الواقعة .
وفي صفين قاتل قتالاً عتيقاً ، وكان لا يأخذ في ناحية ولا وادٍ إلا تبعه
أصحاب النبي ، كآله عَمَ لهم . . وكان يرتجز وهو يقاتل :
اليوم ألقى الأحنه عمداً وحزبه
ولما قتل اختصم في قتله اثنان ، فقال عمرو بن العاص : « إن يختصمان
إلا في النار ، والله لو ددت أرى من قبل هذا اليوم بعشرين سنة ! » .

وقد أثار مقتل عمار فتنة في جيش معاوية ، وتحدث الناس بحديث
رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمار ، وقوله فيه : « إنما تقتلك الفتنة الباغية » ..

فهذا شاهد حيّ على أن معاوية ومن معه هم الفئة الباغية . . ولكن سرعان
ما ألفت ألسنة الضلال على هذا الحديث شُبهةً مضللة خادعة ، فقال قائل القوم :
إننا لم نقتله ، وإنما قتله أولئك الذين أخرجوه إلى الحرب معهم ! ! .

١٢ - أبو موسى الأشعري

هو عبد الله بن قيس ، بن سليم ، بن حضار ، ينتهي نسبه إلى يَفرُبَ
ابن قحطان .

جاء إلى مكة ، لخالف سميد بن العاص بن أمية ، وعرض نفسه على
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، راغباً في الإسلام . . فأسلم بمكة .

واختلف في هجرته إلى الحبشة . . والقول أنه عاد إلى قومه ، ووافقت
عودته إلى المدينة رجوعَ جعفر بن أبي طالب وأصحابه من الحبشة في سفينتين ،
فجاء أبو موسى وأصحابه مع جعفر وأصحابه ، ووافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
بمخير ، فقسم رسول الله لهم في فيثها ، ولم يقسم لأحد غيرهم ، ممن لم يشهد
فتحها من المسلمين .

ولاه عمر بن الخطاب البصرة .

ولما ولي عثمان الخلافة أقره على البصرة أربع سنين ، ثم عزله ، وولى
مكانه ابن خاله ، عبد الله بن عامر بن كريز ، بن ربيعة ، بن حبيب ،
ابن عبد شمس ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وكتب إلى أبي موسى :
« إني لم أعزلك عن عجز أو خيانة ، وإني لأحفظ فيك استعمال رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، وعمر ، إياك ، وإني لأعرف فضلك ، وإنك

من المهاجرين الأولين ، واسكني أردت أن أصل قرابة عبد الله بن عامر ، وقد أمرته أن يعطيك ثلاثين ألف درهم^(١) .

وحين نارت الكوفة على الوليد بن عتبة ، وثى عثمان مكانه سعيد ابن العاص ، ثم عزه ، إذ لم يكن أهل رصى عند أهل الكوفة ، وولى أبو موسى الأشعري ، وما زال والياً على الكوفة حتى سقتل عثمان والبيعة لعلّ ، فأقره على عليها .

ولما كان ما بين عتي وأصحاب الجمل ، بحث على عمار بن ياسر ، ومحمد ابن أبي بكر إلى أهل الكوفة يستقرم . وأقبل وحوه أهل الكوفة على أبي موسى يسألوه الرأي ، وكان مما يلقاهم به قوله : « أما سبيل الآخرة فني أن ترموا بيوتكم ، وأما سبيل الدنيا ، فالخروج مع من أناكم ! » .

ثم جمع أبو موسى أهل الكوفة نخطهم ، قائلاً : أيها الناس ، إن أصحاب رسول الله الذين صحموه في المواطن ، أعم بالله ورسوله ممن يصحبه ، وإن لكم عتي حقاً أؤديه إليكم . . إن هذه الفتنة ، النائم فيها خير اليقظان ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير الساعي ، والساعي خير من الراكب ، فأغمدوا سيوفكم حتى تنجلي هذه الفتنة ! » .

فقام عمار بن ياسر فقال : « أيها الناس ، إن أبا موسى ينهاكم عن الشخصوص إلى هاتين الجماعتين^(٢) ، ولعمري ما صدق فيما قال ، وما رضى الله من عباده عما ذكر ، قال الله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداها على الأخرى ، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله .

(١) الطبقات لابن سعد : الجزء الرابع ص ١٠٥ ، والجزء الخامس ص ٤٥

(٢) يقصد علياً وأصحاب الجمل .

فإن فآت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا ، إن الله يحبّ المقسطين » وقال :
« وقالوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » . فلم يرض من
عباده بما ذكر أبو موسى ، من أن يجلسوا في بيوتهم ، ويحلّوا بين الناس ،
فيسفك بعضهم دماء بعض !! فسيروا معنا إلى هاتين ، واسمعوا حججهم ،
واظروا من أزلّى بالنصرة فاتبعوه ، فإن أصلح الله أمرهم رجعت مآجورين ،
وقد قضيت حق الله ، وإن بغى بعضهم على بعض ، نظرتم الفتنة الباغية ،
فقاتلتموها حتى تفيء إلى أمر الله ، كما أمركم الله ، وافترض عليكم^(١) .
وكان أبو موسى الأشعري هو الذي اختاره أصحاب عليّ ليكون حَكَمًا
مع عمرو بن العاص ، وكان من أمر الحكمين ما سنرى بعد قليل .

١٣ - عبد الله بن عمر بن الخطاب

كان من أهل السبق إلى الإسلام . . أسلم بمكة ، وهاجر مع أبيه إلى
المدينة . . فيه من أبيه عمر تقواه وحوفه من الله ، وتبعه لهدى النبي ،
واقصداته به .

ولم يكن فيه من عمر مصادمته للأحداث ، وتمرسه بالمواقف ، وإنما كان
من أولئك الذين يؤثرون الانطواء على ذواتهم ، والنظر إلى أنفسهم في الملمات ،
والحرجات !

ولمكانته في المسلمين لتقواه وورعه ، اختاره عمر في أصحاب الشورى ، على
أن يشاركهم في الرأي لا في الخلافة . . لاضنًا بها عليه ، ولكن ضنًا به
عليها ، أن تخرجه من العزلة النفسية ، والحياة الروحية التي كان يعيش فيها .

عن أبي مليكة عن عائشة أنها كانت تقول : « ما كان أحدٌ يتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم في منارله ، كما كان يتبعه ابن عمر » .

وكان ابن عمر أمّك شبابٍ قرّيش لنفسه عن الدنيا .

وقد اعتزل الفتنة في أيام عثمان ، ثم مازال على موقفه هذا من الأحداث التي تلاحقت بعد ذلك ، إلى أن لحق ربه .

عن زيد بن أسلم : أن ابن عمر كان في زمان الفتنة ، لا يأتي أميراً إلا صلى حلقه ، وأدى إليه زكاة ماله « (١) » .

ويروى عنه أنه كان يقول : جاء أمر فيه السيف ، ولا أعرفه ! « (٢) » .

وكان يقول : « كففت يدي فلم أدم ، والمقاتل على الحق أفضل ! » . . . وهذا يعني أنه كان يرى لنفسه أن يعتزل الفتنة ، وأن يخرج منها لاهية ، وإن فاتته في ذلك فضل المقاتلين على الحق ، لأنه لا يدري - على وجه اليقين - على من يضع سيفه حين يقاتل ! وهذا الموقف قد صورته الإمام علي - كرم الله وجهه - أروع تصوير حين قال في الذين اعتزلوا الفتنة ، ولم يأخذوا لهم مكاناً مع أحد الفريقين . . يقول : « خذلوا الحق ، ولم ينصروا الباطل » « (٣) » .

وكان ابن عمر في المتخلفين عن بيعة علي في الخلافة . . وقد بعث علي إليهم من يدعوهم إليه ، فكانوا على موقفهم ، وقد أعطى علي - كرم الله وجهه - كل واحد منهم الوصف الذي يراه أهلاً له في هذا الموقف . . فكان مما وصف به ابن عمر قوله : « أما ابن عمر فضعيف ! » « (٤) » .

(١) الطبقات . لابن سعد جزء ٤ ص ١٤٣ .

(٢) الإمامة والسياسة . جزء ١ ص ٥٦ .

(٣) نهج البلاغة جزء ٢ ص ٩٦ .

(٤) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٥٤ .

١٤ - محمد بن طلحة

هو ابن طلحة بن عبيد الله . . وكان يسمى السجّاد ، لعبادته وفضله .
وقد شهد مع أبيه موقعة الجمل ، وكان متسكراً للخروج في هذه الفتنة ،
ولكنه لم يرد أن يخرج عن طاعة أبيه .

قالوا : « وقاتل محمد بن طلحة يوم الجمل قتالا شديداً ، فلما لحِمَ الأمر ،
وعقر الجمل ، وقتل كل من أخذ بخطام الجمل ، وعائشة عليه ، فقال لها :
ما ترين يا أمة ؟ قالت أرى أن تكون خير بني آدم ^(١) ! فلم يزل كافاً حتى انكشف
الموقف ، وكانت الهزيمة ، وكان في القتلى !

واختلف فيمن قتله ، وقيل إن قاتله حمل عليه بالرمح ، فقال محمد :
أذكرُك « حَمَّ » فطمعته فقتله !

وقال الذي قتله :

وأشعث قــــوأم بآيات ربّه قائل الأذى- فيما ترى العين- مسلمُ
هتكتُ له بالرمح جيب قميصه نحرٌ صريعاً لليدين وللنم
يذكرني حَمَّ ^(٢) والرمح شارعٌ فهلا تلاحمَ قبل التقدم
على غير شيء غير أن ليس تابعاً علياً ومن لا يتبع الحق يقدم
قالوا . فسار على من ليلته في القتلى ، معه النيران ، فر بمحمد بن طلحة
قتيلاً ، فرد رأسه إلى الحسن بن علي ، ثم قال : السجّاد ورب السكمبة قتيلا كما

(١) تريد أن يقاتل ، ولا يتحول عن القتال !

(٢) يريد قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » . الآية

٢٣ من سورة الشورى (حم عسق) .

ترى . . أبوه صرعه هذا المصرع ، لولا أبوه ، وبتره به ما خرج هذا المخرج
لورعه وفضله ! فقال له الحسن : ما كان أغناك عن هذا ؟ فقال على : ما لي ولك
يا حسن ؟ وذا أبوك قد كان مات قبل هذا اليوم بمشرين سنة ! ^(١) .

وبعد :

فقد طالت بنا الطريق ، وجوزت المدى الذى كنا نقدره لها ، في
هذا المقام .

ولهذا ، فإننا قد أمكننا عن المسير ، وعدلنا عن التعريف بكثير من
المصادر ، وبكثير من الشخصيات التى لها دور في تلك القضية التى نعالجها !

فالذى عرفنا ، إشارة دالة على ما لم نعرف ، والوجوه التى لم نلتق بها في
تلك الرحلة سوف نلقاها في محال أوسع وأرحب !

وقد آن لنا أن نلتق بالإمام على ، لدى هو غاية هذا البحث ، وموضوع
تلك القضية !!

وحياة على ، شطران متمايزان : حياته في عهد النبي ، وحياته بعد النبي .
ولكل من الحياتين ظروف وملابسات ، غيرت مجرى الحياة كلها من
حواله ، على حين ظل الإمام - كرم الله وجهه - على المسهج الذى أقامه الرسول
عليه ، من أول الطريق إلى نهايته . . لم ينحرف ، أو يتوقف !
ولهذا ، فإننا سنجعل لكل شطر دراسة خاصة ، ذات أبواب وفصول .

• • •

المبحث الأول

حياةُ عليّ
في صحبة الرسول

الباب الأول

من الجاهلية إلى الإسلام

في بيت النبي :

لم يذكر المؤرخون - على وجه التحديد - السنة التي ضُمَّ فيها « علي » إلى جناح النبي ، وسكن فيها إلى بيت النبوة .

ولكن المقطوع به ، أن ذلك كان بعد أن تزوج النبي بالسيدة خديجة ، وانتقل من دار عمه أبي طالب . إلى بيت الزوجية الجديد !

فقد كان الرسول - قبل أن يتزوج - يعيش مع عمه أبي طالب ، ومع امرأة عمه « فاطمة » ، ومع أولاد عمه .. من بنين وبنيات .

وكان يجد في هذه الأسرة رعاية الوالد ، وحنان الأم ، وأنس الأخوة .. فأنساه ذلك مرارة اليتيم ، ووحشته ، وعزله .

والحق أن عمه أبا طالب ، وامرأة عمه « فاطمة » كانا له أكثر من أبوين ! يؤثرانه على أبنائهما ، بالمودة والرعاية ، وبفيضان عليه من عطفهما ، وبرهما ، بما لم يظفر به ابن من أبويه .. وذلك غير مستغرب ، ولامستبعد ، من أي إنسان يرى « محمداً » ، ويتصل به ، ويعيش معه .. فليس بمنكر إذن ما يروى من الأخبار ، التي تحدث عن تعلق أبي طالب وزوجه « بمحمد » ، وإيثارهما إياه على أبنائهما .. إذ فضلاً عن عاطفة القرابة التي تجمع بين محمد وعمه وامرأة عمه ، وفضلاً عن ثوب اليتيم الذي لبسه « محمد » في بطن أمه ، وما يثير هذا اليتيم من مشاعر الرحمة والحنو - فإن ما اشتمل عليه « محمد » من شائئ ، وما جَعله الله به (م ٦ - علي بن أبي طالب)

من سجايا ، لمو شىء عظيم رائع ، تتملأه الميون خاشعة ، وتقف إزاءه العقول
مقدرة مفكرة ، لاتدرى لهذا الجلال سرأ ، ولا تعرف لتلك الوضاعة ، وهذا
البهاء نابولاً ، إلا أنه شىء واقع محسوس ، لاشك فيه ، ولا امتراء !

فمحمد ، قبل النبوة ، هو محمد النبي . . فى كمال أدبه ، وعظمة حلقه ، وسماحة
نفسه ، ولين جانيه ، وعفة لسانه ، وبده !

فلا عجب أن يكون « محمد » فى بيت عمه ، فى هذا المكان المسكين الذى
كان له من عمه وامرأة عمه ، وأبناء عمه .

وقد رأى « محمد » حين استقل من بيت عمه إلى بيته الجديد ، أن يحمل
عن عمه شيئاً من مثونة عياله . . فقد كان أطالب كثير العيال ، قليل المال . .
فجاء محمد إلى عمه العباس ، مدعوه إلى أن يشاركه فى هذا الأمر ، وأن
يحمل معه عن أبى طالب مثونة بعض عياله ، وقد أجابه عمه العباس إلى
هذا ، فأقبل على أبى طالب ، بعرض عليه أن يأذن لهما فى أن يتكفل كل
واحد منهما بأحد أبنائه . . فأجابهما إلى ذلك قائلاً : خذا من شئنا ، ودعنا
لى عقيل . . فأخذ كل منهما بيد ولد من أولاد أبى طالب !

ترى . . أكانت عيلة أبى طالب هى وحدها التى حملت « محمدًا » على
أن يسعى هذا السعى ويدتر هذا التدبير ؟

الآ بضح لنا أن نأخذى الاعتبار هنا أن « محمدًا » حين ترك بيت عمه
إلى بيته الجديد قد دخلته وحشة ، لم يذهب بها ما وجد من سكن وأنس ،
نما كانت تقيضه عليه السيدة خديجة رضى الله عنها ، من حبها وبرها
وحنانها . . ؟

إن قلب « محمد » سيظل يحقق أبداً محب هذا البيت ، الذى ضمّه صبيًا ،
وكفله يافعًا ، ووسعه شابًا ، حتى بلغ مبلغ الرجال !

ولم يكن مما يقبلاه الأدب النبوى ، أو ترضى عنه حكمة النبوة وكياستها ، أن تنتقل السيدة خديجة إلى بيت أبى طالب ، وأن تطلق بيتها فى وجه هذه السعادة الغامرة التى كانت ترقبها من تلقاء « محمد » وسكفنه إلى بيتها . . . فذلك إن يكن فيه تطيب لفسحه وزوج عمه وأبناء عمه ، فإن فيه جرأاً لكبرياء سيدة ، تقطعت دون الوصول إلى رضاها أعناق أشراف قريش وساداتها ، لتقبل أباً منهم زوجاً ، ولها عليهم حكمها الذى تحكم !! وإن فيه لحرماناً لها من هذا الخير المقبل عليها ، والذى تريد أن يملأ عليها وجودها كله .

وأياً كان الأمر ، فإن « محمداً » سعى هذا السعى إلى عمه ، فخرج من بيت أبى طالب وفى يده « على » .. أصغر أبناء عمه ، يرعاه ، ويكفل تنشئته . وإذا صدقت الروايات التى تقول إن علياً أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، كان معنى هذا أن النبى ضمّه إليه وهو فى العام الأول من عمره ^(١) . وإذا صحت الرواية التى تقول إنه أسلم وهو ابن اثنى عشرة سنة كان معنى ذلك أنه ضمّ إلى بيت النبى وهو ابن ثلاث سنين !

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، فإن المقطوع به أن علياً ولد بعد زواج النبى من السيدة خديجة ، وأنه لم يعيش فى بيت أبيه إلا ربّما درج فى مدارج العفولة ، ولم يبلغ حد الصبا !

ولا ندرى أكان « محمد » عقد العزم على أن يختار علياً ، ويضمّه إليه من بين إخوته ، فأثر ألا يكون ذلك على وجه قد يثير فى إخوته ما يثير من حسد له ، وعقب على محمد ، أو اتهام للأبوين فى إظهار بعض الأبناء على بعض - فجاء إلى أبى طالب بصحبة العباس ، يصنع مثل صنيعه ، حتى يقع الأمر على هذا الوجه ، ويجيء على هذا الأسلوب ، الذى لاتعقبه ضغينة ، أو معقبة ، أو اتهام !

(١) ذلك أن النبى ضم علياً إليه بعد زواجه بقليل ، وقد كان فى الخامسة والعشرين من عمره ، وبعث على تمام الأربعين .

إنه إن يكن ذلك عن تدبير من محمد ، فأخبر به ، أن يكون . فهو من بعض أدب النبوة ، ولحظة من لحاتها المشرقة ، في الأدب والتربية .

وعلى أى فقد اختار الله لعلّ وقدّر له أن ينال هذا الشرف العظيم ، وأن يُرَبِّي في حجر النبوة ، وأن يشهد مطالع الرسالة الإسلامية من يومها الأول ، وأن يتلقى من فم النبي مفتتح الرسالة ومحتتمها ، وما بين مفتتحها ومختتمها ، مما نزل به الوحي ، من آيات الله .

وهكذا قدّر لعلّ أن يولد وطيب النبوة بمطر الأجواء من حوله ، وأنوارها تفيض عليه من كل أفق ، وتطلع عليه من كل صوب . . . حتى إذا تحولت مطالع النبوة إلى أفقها الجديد في دار الهجرة ، تحول على معها إلى هذا الأفق . . . ثم لم يزل يدور في فلكها ، حتى غربت شمس النبوة ، ولحق النبي بجوار ربه !

يقول الإمام علىّ متحدّثاً بتلك النعمة التي أنعم الله عليه بها ، وما كان لها من أثر في بناء حياته الروحية والعقلية ، وما أمدّه الله بسببها من أمداد الرضا والرضوان - يقول :

« وقد علّمت موصى من رسول الله صلى الله عليه وآله ، بالقرابة القريبة ، والمنزلة الخِصِيصة ، وضَعَنِي في حجره وأنا وليد ، بضمي إلى صدره ، ويكنّفتني إلى فراشه ، ويُمسِنِي جسده ، ويُسْتَنِي عَرَفَه ، وكان يَمْضَغ الشيء ثم يُلْقِمْنِيه . . . ولقد كُنْتُ أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه . . . يرفع لي كل يوم من أخلاقه عَمَّا ، ويأمرني بالافتداء به ، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء ، فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله - صلى الله عليه وآله ، وخديجة ، وأنا ثالثهما . . . أرى نور الوحي والرسالة ، وأشم ريح النبوة . » (١)

والحق أن علياً كان أوفر الناس حفظاً ، وأطولهم صحبة لرسول الله ، ففقد
ولده علياً ، وهو بين يدي محمد، قبل النبوة وبعدها. لم يفترق عنه ، في سلم أو حرب ،
وفي حِلٍّ أو سفر ، بل كان بين يدي النبي ، وتحت سمعه وبصره ، إلى أن لحق
الرسول بالرفيق الأعلى ، وهو على صدر علي ، حيث سكب آخر أنفاسه
في الحياة !

يقول علي : « ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإن رأسه لعلى
صدرى ، ولقد سألت نفسه في كفى . فأمرتها على وجهى ، ولقد ولّيتُ غسله
صلى الله عليه وعلى آله ، والملائكة أعوانى ، فضجت الدار والأفنية . . ملاً
يهبط ، وملاً يعرج ، وما فارقت سمعى هنيئة منهم ، يصلون عليه ، حتى واربفاه
ضريحه . » (١)

وإذا أنت ذهبت تستعرض جميع الذين كانوا في كنف النبي ، من زوج وولد ،
لم تجد أحداً منهم قد كان له من طول صحبة النبي ، ومن مخالطته ، ما كان لعلى . .
فلقد صحب عليّ النبي صحبة متصلة أكثر من ثلاثين عاماً ، وتلك مدة لم يظفر
بها أحد من المسلمين جميعاً .

فإذا اجتمع إلى طول الصحبة قرابة قريبة ، وإلف متصل ، ومخالطة في
حلو الحياة ومرها ، ثم صادف ذلك كله أذناً واعية ، وقلباً ذا كراً ، وعقلاً حافظاً .
كان ما ينسب إلى « علي » من علم ، وحكمة ، ونفاذ بصيرة ، وشفافية روح ،
وكان ما ضبطه التاريخ من خطبه ورسائله . كان ذلك كله قليلاً إلى ما بُرجى
منه ، ويؤمل فيه ، وإن استكثره المستكثرون ، وشك فيه الشاكون !

ولتأمل أن يقول : إن هذه الخطبة ليست لعلى ، أو أن تلك الرسالة لا تجرى
على أسلوبه المعروف ، أولاً يستدعيها الحال التي كانت تحيط به ..

لقاتل أن يقول في هذا ماشاء ، ولكن لا استكثاراً ، ولا استبعاداً أن
يؤتى أحد كل هذا العلم . . بل إن هذا الذي جُمع من خطب الإمام ،
ورسائله ، وحكمه هو قليل من كثير ضاع ولم يحفظ !

وماذا يقال في نبتة من درّحة هاشم . . في مغارس النبوة ، وفي معرض
غيثها ، ومطلع أضوائها ، ومهاب أسامها ؟ إلهامى الشجرة الطيبة المباركة ،
أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، لا تجف
أغصانها ، ولا ينفد ثمرها .

والذي نريد أن نقوله هنا ، هو أن القَدَر الذي فتح لعلّ الباب الذي دخل
منه إلى بيت « محمد » ثم وصل بين علي وبينه هذه الصلة الوثيقة ، قبل الرسالة
وبعدها ، ثم جعل من عليّ صهراً لرسول الله في ابنته التي امتد بها نسل النبي ،
دون غيرها من أبناء النبي وبناته - هذا القَدَر قد فتح للناس طرقاً كثيرة إلى
عليّ - رضى الله عنه - فأحبه بعضهم وأفرط في حبه ، حتى لقد جاوز بهذا
الحبّ حدود العقل والحكمة ، وخرج به على مفاهيم الإسلام ومقرراته . . .
على حين أبغضه بعضهم ، وأسرف على نفسه في هذا البغض ، فكاد له ، وحاربه
حيّاً ، وميتاً ! ، يقول الإمام عليّ كرم الله وجهه : « هلك فيّ اثنان :
مُحِبٌّ مفرط . ومبغض مفرط ! »

وهذا الحبّ المفرط ، وذلك البغض اللثيم ، غير مستبعد من الناس في عليّ ،
وفي غير عليّ ، ممن كانت تربطهم بالنبي روابط الولاء ، والحبّ والإيثار . .
إذ كان المؤمنون على حبّ النبي والولاء له ، ولمن آزره ، ونصره ، ونافع عن
رسالته . . وكان المنافقون ومن في قلوبهم مرض ، على بغضة وعداوة لرسول
الله ، وآله ، وصحبه ، والمؤمنين جميعاً ، كلٌّ على مقدار بلائه في الإسلام ، وحظه
من رضى الرسول وحبه !

يقول على كرم الله وجهه : « لو ضربتُ خيشوم المؤمن بسيفي هذا ، على أن يُبغضني ما أبغضني ، ولو صبيت الدنيا بِجَمَانِها ^(١) على المنافق على أن يحبني ، ما أحبني ، وذلك أنه قُضِيَ فأنقضى على لسان النبي الأُمي ، صلى الله عليه وآله ، أنه قال : « يا علي . . لا يُبغضك مؤمن ، ولا يحبك منافق » ^(٢) .

وأمر آخر من أمر هذا القَدَر ، الذي أضاف علياً إلى « محمد » وضمه إلى جناحه . . ذلك أن علياً حلّى من هذه الصحبة اللازمة بصفتين ، انفرد بهما وحده ، لا يكاد يفارعه أحد فيهما ، وهما : الضرب بالسيف في سبيل الله ، والفقّه الحق لدين الله ، ولـكتاب الله .

فقد كان على بطل الإسلام دون منازع . . لا يعرف المسلمون سيفاً كسيف على ، في إطاحته لرموس أئمة الكفر ، وطواغيت الضلال ، من سادة قريش وقادتها !!

وكان على فقيه الإسلام ، وعالم الإسلام ، وحكيم الإسلام ، غير مدفوع عن هذا أو منازع فيه !

وهذه المرويات من آثاره تشهد بأنه كان البحر الذي لا يُسْبَر غوره ، وأن مقاطع أحكامه ، وفواصل قوله ، وجوامع حكمه ، قد مسّتها نفحة من نفحات النبوة فخالطت النفوس ، ومازجت القلوب ، وسكنت إلى العقول ، حتى لقد علّق الناس منها بهذا القدر الكبير ، لأول وقعها في الآذان ، قبل أن تحويها الأوراق وتضمها الصحف !!

ولا ندرى ماذا كان يكون بين أئمتنا من علم الإمام وقمّه ، وأدبه ،

(١) أي بكل ما فيها من عظيم وحقير .

(٢) نهج البلاغة . جزء ٢ ص ٩٣ .

وحكته ، لو أن الأحداث الجسام التي عَرَضَتْ له - قبل الخلافة وبعدها -
أفسحت له شيئاً من الجِيام من الحروب المتصلة ، والفتن المتسعة ؟

ولو أن إنساناً غير علي بن أبي طالب ، امتحن بما امتحن به ، من شدائد
وأهوال ، لتبدلت مشاعره ، وعُطِلَت مَآسِكَاتُه ، ولما وجد العقل الذي يفكر
ويقدّر ، ولا اللسان الذي ينطق ويُبَيِّن !

ولكنها النفس الكبيرة العميقة ، تمر بها الأحداث المزلزلة ، والكوارث
المُكْرِبَة ، كما تمر الأعاصير العاتية بالجبال الشامخة ، فتتطامن عندها ، وتتخاضع
بين يديها ، وتتكسر متداعية تحت قدميها !

وندع هذا ،

فما حديثنا هنا عن « الإمام » وما ضُمت عليه شخصيته ، من آيات
العظمة ، وروائعها ، فذلك له موضعه ، في الفصول التالية ، من هذا البحث .

ولكن هذا الحديث - علي وَجَارَتِه - هو إشارة من بعيد . إلى شخصية
الإمام ، بصورة مجملّة ، إلى وجه من وجوه تلك الشخصية العظيمة الكريمة ،
نأنس بها في طريقنا إليه ، وننزود بها قبل لقائنا به !

* * *

اسمه ، وكُنْيَتُه :

« علي »

هو الاسم الذي عُرف به الإمام - كرم الله وجهه - منذ ولد . . . ليس له
اسم غيره ، في جاهلية أو إسلام ! به ولد ، وعاش ، ومات .

ولله في هذا حكمة ، نرى آثارها ، ونشهد آياتها ، فيما أراد لهذا العبد من
عباده ، من كرامة وتكريم .

لقد جاء الإسلام ، فولدَ الناسَ ميلاداً جديداً . . !

دخل عليهم من كل مدخل ، يصلهم بالحياة ، أو يصل الحياة بهم !
دخل على قلوبهم . . فجلى عنها ظلام الشرك والضلال ، وسكب فيها ماطر
الإيمان والهدى .

ودخل على عقولهم ... فكشف عنها غمَّاتها ، وسفاهتها ، وسلك بها
مسالك الحق ، ووصلها سبل الخير والرشاد .

ودخل على مشاعرهم وعواطفهم ، فألأن حواشيها ، وهذب جوانبها ،
واقطع أشواكها ، وأطلع منها زهراً طيباً ، وثمرأً جَنِيًّا مباركاً .

وقبل هذا كله ، دخل الإسلام على من دخلوا فيه ، واستجابوا له ، فنزع
عنهم سمات الجاهلية ، وشيئاتها . . ففتر أسماءهم التي ولدوا بها ، مما لم يكن
يتفق ومبادئ الدين الجديد ، وما يحمل إلى الناس من رحمة ، وهدى ، وخلع
عليهم أسماء غيرها ، ذات دلالات طيبة ، تكسو صاحبها بهاء وحسناً ، وبهذا
يُجسِّل ظاهره وباطنه جميعاً .

وقد ثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه غير اسم « عاصية » وقال :
« أنت جميلة » أو سمى حرباً : سَلَمًا ، وسمى المضطجع : النبعث . وهكذا كان يفعل
صلى الله عليه وسلم في الأسماء والكُنى ، للأشخاص والأماكن ، والأشياء . .
ينزع عنها كل اسم كريه ، ينتسب إلى عقيدة فاسدة ، أو يضاف إلى خلق مفكر ،
ثم يخلع عليها أسماء كريمة ، تنتسب إلى الفضل والخير والإحسان . ولما كان الله
- سبحانه - أراد لعلَّ أن يولد في الإسلام ، قبل الإسلام ، وأن يربى في حجر
النبوة ، قبل النبوة ، فكان ذلك حجازاً له عن الجاهلية وأباطيلها . . فلما جاء
الإسلام استقبله بالفطرة السليمة ، والاسم السليم !

ولا يكاد التاريخ الإسلامى يذكر أحداً وُلد فى الجاهلية ، ثم دخل فى الإسلام فكان دخوله على تلك الصفة التى دخل بها على الإسلام .

قالدين دخلوا فى الإسلام من مواليد الجاهلية ، لهم حياتان : حياة فى الجاهلية ، وحياة الإسلام . . . ولكل من الحياتين وجه غير وجه الأخرى ، تلك ضلال وعمى ، وهذه نور وهدى .

أما على - كرم الله وجهه - فكانت حياته فى جاهلية والإسلام على سواء . . لم يغير منه الإسلام شيئاً ، فى ظاهر أو باطن . . إذ ولد مسلماً قبل الإسلام . . . !!

* * *

فهل لنا أن نضيف هذا التوفيق فى اختيار اسم على ، إلى تلك الموافقات المسمدة ، التى كان لها أثرها القوى الملحوظ ، فى حياة الإمام ، وفى ظهور شخصيته على هذا النحو الذى عرفته الحياة له ، وشهده الناس منه ؟

وهل لنا ، إذ ننظر فى حياة الرسول الكريم ، وفى هذا التوفيق الربانى ، الذى عدل بأهله أن يختاروا له اسماً من تلك الأسماء المحببة إلى الجاهلية ، الجارية على ألسنتها ، مثل قتال ، وفراس ، وعبد بنوثة ، وعبداللات ، وعبد العزى ، ومحوها ، ثم ألقى على ألسنتهم اسم « محمد » الذى لا يكاد يُعرف فى الأسماء اسم غيره ، أدل على صاحبه ، وعلى محتوى ذاتيته ، وما له فى الناس وفى الحياة من آثار .

وليس اسم « محمد » من الأسماء التى كان الجاهليون يسمون به أبناءهم ، على ما فيه من لطف وحسن ، فى المبنى والمعنى ، حتى لتكاد الجاهلية كلها تخلو ممن يحمل اسم محمد !

وقد ذكر المؤرخون بضعة أشخاص سُموا بمحمد ، بين يدى البعثة النبوية ،

وبعد أن ولد « محمد » ، ولعل تسمية النبي بهذا الاسم ، كانت أشبه بإرهاص للعرب ، أن يتخففوا من الجاهلية ، وأن يستشرفوا مطالع الدعوة السماوية التي آذنت شمسها أن تطلع فيهم !

نقول : هل لنا إذ ننظر إلى هذا التوفيق الرباني في اختيار اسم « النبي » وتوافق هذا الاسم مع الرسالة السماوية التي أعده الله لها ، والتي يمكن أن يكون هذا الاسم عنواناً لها - هل لنا أن نقول إن اختيار هذا الاسم « لعل » كان نفحة من نفحات النبوة ، ولحمة من لحاتها ، حين نظر محمدٌ إلى وجه هذا الوليد وقع في نفسه أنه في الأغلب من عباد الله ، وأنه جدير بأن يكون في المقام الأعلى في الإسلام ؟

فاسم « علي » لم يكن مما تدسَّى به العرب في جاهليتها ، ولم يحفظ التاريخ الجاهلي من تسمي به قبل صاحبه ، علي بن أبي طالب ! . . إنه كان كاسم « محمد » في لطفه وحسنه ، وفي غفلة الجاهلية وضلالها عن تداوله ، والتنادى به !

فلعل « محمداً » هو الذي اختار لابن عمه الوليد هذا الاسم ، وأشار على عمه وزوج عمه أن يسموا وليدهم به !

واسم « علي » يلتقي مع اسم « محمد » لقاء إخاء ومعاقة - وهما معاً يضبطان السمات البارزة التي تركها الإسلام في الأمة العربية ، حين تحولت من الجاهلية إلى الإسلام .

فلقد كسب العرب بدخولهم في الإسلام ما جعلهم أهلاً لأن يُحمَدُوا ويُحمَدُوا ، وأن يكونوا من المحمودين الحامدين . . الحمدون في الناس لما خلع عليهم الإسلام من نعم ، وما أفاض عليهم من خير وهدى ، والحامدين لله على أن فضّل عليهم بفضله : إذ بعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم

ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لى ضلال مبين . »
 كذلك كسب العرب بدحولهم فى الإسلام علواً فى الدنيا والآخرة ،
 فكانوا حملة رسالة الهدى إلى الناس ، بلسانهم العربى الذى نزلت به كلمات الله !
 ولهذا التوافق بين هذين الاسمين الكريمين : محمد وعلى ، ولقائهما معاً قبل
 أن تتداولهما العرب ، وتعامل بهما - نظر بعض القلاة من شيعة على فى هذا
 وعدوه شهادة على فضل على .. ولم يكتفوا بهذا ، بل جعلوا هذا التوافق أمراً
 سماوياً ، فوضعوا لذلك حديثاً نسبوه إلى النبى . . « خلقت أنا وعلى من نور ،
 وكنا على يمين العرش قبل أن يُخلق آدم بألفى عام ، ثم خلق الله آدم فانتقلنا فى
 أصلاب الرجال ، ثم جعلنا فى صلب عبد المطلب ، ثم شقَّ أسماءنا من اسمه ، فالله
 محمود ، وأنا محمد ، والله الأعلى ، وعلى ، على ! ! » .

قال الشوكانى : فى تعليقه على هذا الحديث « وهو موضوع ، وضعه
 جعفر بن أحمد بن على بن بيان . . وكان رافضياً وضاعاً »^(١) .

وأيا كان ، فإن اسم « على » حين يظهر فى حياة الجاهلية ، وحين يدخل
 فى مجال الحياة النبوية ، ويضاف إلى النبى « محمد » - لا ينظر فيهما ناظر من
 تلك الجهة إلا ووجد بينهما قرابة قريبة ، ودلالة دالة ، على أنهما من معدن
 متخير ، ممسوس بالطف الله ، مخوف برحماته .

هذا ويحدث المؤرخون ، أن أبا طالب كان غائباً حين ولد له هذا الغلام ،
 وأن أمه سمته « أسداً » . . فلما رجع لم يرض له اسم « أسد » وسماه علياً !

وقيل : بل إن أمه سمته « حيدرة » - وهو من أسماء الأسد . . وليس هذا
 بعيد ، إذ كانت أمه فاطمة ، من بنى أسد ، فأوحى إليها اسم جدها أن تسمى

(١) الفوائد المجموعة فى الأحاديث للوضوعة ، للشوكانى ص ٣٤٢ .

ابنًا من أبائها أسداً ، أو اسماً من أسماء الأسد . . يقول ابن السيد البطليوسى
فى كتابه « الاقتضاب » فى التعليق على هذين البيتين اللذين ارتجزهما الإمام على
فى يوم خيبر ، ، وهو يُلَقِّى اليهودى « مَرَحَبًا » :

أنا الذى سَمَتْنى أُمِّى حَيْدَرَةً

أضرب بالسيف رقاب الكفَرَةِ

كَلَيْث غَابِ غَلِيظَ الْقَصْرِ

أَكِيلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَةِ^(١)

يقول البطليوسى : « أراد سَمَتْنى أُمِّى « أسداً » فلم يمكنه ، لأجل القافية

فذكر حيدرته ! ! »

وقد ناقش صاحب اللسان هذا رأى فقال : « وهذا العذر لا يتم ، إلا إذا

كان الرجز أكثر من هذه الأبيات ، ولم يكن أيضاً ابتداء بقوله : أنا الذى
سَمَتْنى أُمِّى حيدرته ! » .

ونقول : أهذا قول يقال فى الإمام ، وفى امتلاكه ناصية البيان ؟ أمحكمه

القافية حتى لتلجته إلى أن يغير اسمه ؟ وهل كان يضيق بأية قافية فى ابتداء

أو فى غير ابتداء ؟ إن ذلك أبعد شئ يقع فى ظن أو وهم !

ويروى صاحب اللسان فى مادة « حيدر » أن مَرَحَبًا اليهودى خرج يوم

خيبر وهو يرتجز :

إنا أناس ولدتنا عُبْرَةٌ

لنا سنا الوشى وَرِيْطٌ حَبْرَةٌ

أبناء حرب ليس فيها غُدْرَةٌ

(١) القصرة : الرقبة ، والسندرة : ضرب من الكيل ، غراف ، جراف ، ويراد

به هنا القتل الكثير السريع .

ثم يقول :

« فإن يكن هذا القول لمرحب كان لمدول الإمام عن ذكر « أسد » إلى ذكر حيدره ، مندوحة . . إذ جاء على قافية مرحب ا » .

وهذا قول مردود ، مما رُدَّ به سابقه !

وهل يُعقل أن تستقيم ليهودى قافية عربية ، ثم يعجز عن ذلك أفصح فصحاء العرب ، وأبينهم بياناً ، بعد رسول الله ، عن أن يقيم لنفسه قافية ؟ وإذن ، فإنه إذا صحت نسبة هذا الرجز إلى عليّ ، كان من المقطوع به أن أمه قد سمته « حيدره » ولم تسمه أسداً . . أو أن اسم « حيدره » لم يكن اسماً لعليّ ، وإنما كان من الأسماء التي تغنى بها الأم لوليدها ، وهي تهدهده بين ذراعيها وعلى صدرها ، وهذا هو الأرجح عندنا ، وفي إضافة هذه التسمية إلى الأم ، ما يؤيد هذا الرأي ^(١) .

أما كنية « علي » فهي أبو الحسن . وكان له أكثر من كنية . . فقد كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبا الریحانتين » كما يروى ذلك عن جابر ابن عبد الله - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب : « سلام عليك يا أبا الریحانتين ، فمن قليل يذهب ركنك ، والله خليفتي عليك » فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عليّ : هذا أحد الركبتين الذي قال صلى الله عليه وسلم ، فلما ماتت فاطمة ، قال : هذا الركن الآخر ، الذي قال صلى الله عليه وسلم « والريحانتان هما ، الحسن والحسين . وكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً « أبا تراب » وكانت تلك الكنية أحب الكنى إلى علي كرم الله وجهه .

(١) إذ كانت تسمية الأبناء إلى آبائهم ، ثم لم يكن من حرج على الأم أن تدل ولدها بما نشاء من أسماء وألقاب .

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء بيت فاطمة فلم يجد علياً فى البيت ، فقال : أين ابن عمك ؟ فقالت كان بينى وبينه شئ ففاضبنى ، فخرج ، ولم يَقلْ عندى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لإنسان : « انظر أين هو ؟ » فجاء فقال : يا رسول الله هو فى المسجد راقداً ، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه ، فأصابه تراب ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسحه عنه ويقول : قم أبا التراب ، قم أبا التراب ^(١) .

أبوه وأمه :

وأبوه هو أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، عم النبي ، وكافله بعد جده عبد المطلب . . وقد كان أبو طالب درعاً حصينة للنبي ، فلم تنل قريش منه منالاً ، إلا بعد وفاة عمه أبي طالب .

وأمه هي فاطمة بنت أسد بن هاشم . . وهى أول هاشمية ولدت هاشمياً ، وقد أسلمت ، وتوفيت بالمدينة ، وتولى النبي دفنها ، وأشمرها قيصه ، واضطجع فى قبرها . . وقال صلى الله عليه وسلم فيها : إنها كانت أحسن خلق الله صنيعاً إلى بعد أبي طالب . . وبكى ، وقال : جزاك الله من أم خيراً ، فلقد كنت خيرَ أم . .

يقول صاحب « الرياض النضرة » : وكانت ربت النبي صلى الله عليه وسلم ، وولدت لأبى طالب ، طالباً ، وعقيلاً ، وجعفرأ ، وعلياً ، وأم هانىء واسمها فاخنة ، وجُمَانَة !

قالوا : وكان على أصغر ولد أبي طالب . . كان أصغر من جعفر بعشر سنين ، وكان جعفر أصغر من عقيل بعشر سنين ، وكان عقيل أصغر من طالب بعشر سنين !!

أوليته في الإسلام:

اختلف رواية الأخبار فيمن كان أول المسلمين استجابة لرسول الله ،
والدخول معه في دين الله !

لا شك أن خديجة رضى الله عنها كانت أول من صدق الرسول واستجاب
لادعوته ! إذ كانت إليها شكاة النبي ، مما كان يُلم به من الوحي لأول عهده
بالانصال به ، وكانت من قبل هذا تستشعر أن محمداً إنسان مؤهل لأن يبلغ
أسمى منازل الشرف والكمال ، لما اشتمل عليه من عظيم الأخلاق وحيد
السجايا .

فلا نزاع إذن في أن السيدة خديجة هي أول الناس إسلاماً ، إذ كانت
ترى مطالع النبوة قبل أن تظهر شمسه في الأفق ، وتستشرف لها قبل أن
تأذن السماء بها .

أما من أول المسلمين من الرجال ، فهو موضع الخلاف بين العلماء ، وأصحاب
السير ، كما أنه مثار جدل بين من ينشيمون لعلی ، وبين من يشغبون عليه !

وأولية الإسلام ، والسبق إليه ، مَيزة لها حساب في ميزان الرجال ، وفي
تقديم بعضهم على بعض ، في منازل المجتمع الجديد الذي أقامه الإسلام .

فحين يتساوى الرجال إيماناً ، وعدلاً ، وجهاداً ، وبذلاً ، ونصحاً لله
ورسوله - يكون أسبقهم إلى الإسلام أولاهم بالتقدم في ركب المسلمين ، وفي
الدنو من الإمامة والخلافة !

فبهذا السبق احتج أبو بكر على الأنصار يوم السقيفة ، حين أرادوا
الخلافة ، وتشاوروا فيمن يخلف رسول الله منهم . . فكان من حجج
أبي بكر التي حاجتهم بها : صُبِّقُ المهاجرين إلى الإسلام . . هذا السبق الذي

به قدّم الله المهاجرين على الأنصار في كل موضع يجتمعان فيه ، في القرآن . . .
فقال أبو بكر : « أسلفنا قبلكم ، وقدّمنا في القرآن عليكم ، فقال تعالى :
« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » .

على أن أمر السبق إلى الإسلام ، ليس هو وحده الذي يُنزل المسلمين منازلهم
من الإسلام ، فقد سبق ناس وتأخروا ، وتأخر أناس وتقدموا . . . وإنما هو
البلاء والامتحان فيما بعد الإسلام ، مِنْ صِدْقٍ وعمل ، أو نكوصٍ وفقنة !

فهذا عبد الله بن جحش الأسدي ، كان من السابقين إلى الإسلام ، ومن
المهاجرين الأولين إلى الحبشة . . . قد فُتن هناك في دينه ، فمات على غير
الإسلام !

وهذا عمر بن الخطاب - رضى الله - لم يكن من النفر الأولين الذين سبقوا
إلى الإسلام ، بل كان من أشد الناس على الإسلام والمسلمين ، في مطلع
الإسلام ، ثم دخل في دين الله ، فكان ركناً قوياً من أركان هذا الدين ،
وبدأ قوية عاملة في إقامة بنائه ، وترسيخ قواعده !

هذا ، ولم يُنظر إلى سبق عليّ إلى الإسلام إلا حين أثبت مسألة الخلافة . .
وهل كان أحقّ بها من أبي بكر ، الذي كان السبق إلى الإسلام حجةً من
حججه على الأنصار ؟

فعليّ وأبو بكر - رضى الله عنهما - صفوان في الجهاد في سبيل الله ، وفي
البذل والفداء لإعزاز كلمة الله ، ينزلان من قلب رسول الله ، ومن رضاه ،
منزلة قريبة مدانية !

فإذا خلا مكان رسول الله ، وتقدم أبو بكر ليكون خليفته ، أو تقدم
عليّ ليكون خليفته ، كان كل واحد منهما أهلاً لهذا المقام ، وأحقّ به !

وقلّ مثل هذا في عمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير وسعد بن أبي وقاص ،

وعبد الرحمن بن عوف ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وغيرهم من العشرة الذين
بشّروا بالجنة في حياة الرسول !

ولكن الأمر لم يأخذ سبيل المفاضلة وللوازنة : إلا بين أبي بكر وعليّ بن
أبي طالب ! حيث كان هذا أول موقف يقفه المسلمون بعد رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، ليختاروا الرجل الأول فيهم .

وطبيعي أن نزول الأنصار عن موقفهم من الخلافة ، وعدولهم عن رأيهم
فيها - لم يكن إلا مجرد تسليم منهم بتقديم المهاجرين عليهم ، وقيامهم بأمر
الخلافة دوسهم . . ولم يكن في هذا التسليم اعتراف ضمني منهم بخلافة أبي بكر
أو غيره من المهاجرين ، وإعنا ذلك أمر مرده إلى المهاجرين وحدهم ، يختارون
من بينهم من يرونه أهلاً للخلافة . .

ولهذا ، فإنه بعد أن سلم الأنصار المهاجرين بهذا الحق ، أشار أبو بكر على
أصحاب السقيفة أن يختاروا أي الرجلين : عمر بن الخطاب ، أو أبا عبيدة بن
الجراح . . ! ولكن هذين الصحابييين رأيا أن يقدم أبا بكر عليهما ، وأن يمدّا
يديهما إليه لمبايعته ، فلما بايعاه بايعه الأنصار ، ومن كان حاضراً من
للمهاجرين . !

وإذا كان يوم السقيفة ، قد انتهى باختيار أبي بكر ، وبمبايعة المسلمين له
بالخلافة ، وإذا كانت الخلافة قد انتهت بعد هذا إلى من انتهت إليهم ، بعد
أبي بكر ، فجاء عمر بعهد من أبي بكر ، ثم جاء عثمان عن اختيار من أهل
الشورى الذين اختارهم عمر ، وجاء عليّ بعد مقتل عثمان ، وبويع له بالخلافة
فإن مسألة المفاضلة وللوازنة بين الخلفاء الراشدين لم يكن لها ثمة داعية ، ولم
يكن أحد ينظر إليها ، وخاصة بين عليّ وأبي بكر . . فقد رضى عليّ عن
أبي بكر كل الرضا ، ورضى أبو بكر عن عليّ كل الرضا . . وكذلك كان

الأمر بين عليّ وعمر ، ثم بينه وبين عثمان . . . رضى الله عنهم أجمعين . !
ولكن ما حدث في خلافة عليّ ، من فرقة واختلاف بين جماعة المسلمين ،
جعل القضية تعود ليومها الأول ، وفي صورة أعنف وأشد !

ذلك أنه ما كاد يبائع عليّ بالخلافة حتى قام من صحابة رسول الله ، ومن
أهل الشورى ، من يابهاها عليه ، ويفارعه فيها ، ويقاتله من أجلها ، ويريد على
أن يردّ أمر المسلمين إليهم في الخلافة ، ليعتاروا من يرؤونه لها . . .

وتدور المعارك ، وتعدد ميادين القتال ، وتقوم إلى جانب السيف في كل
معركة ، السفة تقول ، وحجج تقام ، وأحاديث تُروى . . . وعليّ - رضى الله
عنه - هو غرض المقاتلين بسيوفهم ، والقائلين بالسنتهم . . . وعليّ وشيعة عليّ
يلقّون السيف بالسيف ، واللسان باللسان ، والحجة بالحجة !

وهنا تبرز أولية عليّ في الإسلام ، فتكون مقولة من مقولات عليّ
وشيعة في أهليته لخلافة رسول الله ، وأحقّيته بتلك الخلافة . . . هذا إلى قرابة
قريبة من رسول الله ، ورحم مائة منه ، تجعله أولى الناس به وبميراثه منه :
« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله . »

فإذا كان هؤلاء الذين نازعوا علياً أن يكون الخليفة على المسلمين بعد عثمان ،
يستكثرون عليه الأمر ، ويريدون أن يؤخروه عن تلك المنزلة - إذا كان هذا
هو رأى هؤلاء المنازعين له - فإن علياً عند نفسه ، وعند شيعة - هو أولى
الناس بالخلافة ، لا بعد عثمان ، بل قبل أبي بكر ، وقبل أى صحابى يقدم نفسه
للخلافة ! !

وأسبغية عليّ إلى الإسلام ليست هى كل ما هنالك من أسباب خلافته
لرسول الله ، بعد وفاته ، صلى الله عليه وسلم ، وإنما هى جزئية من جزئيات
القضية - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - ومع هذا ، فإن المنازعين لعليّ لم يسلموا له

بها ، وكان بينهم وبين القائلين بها ، أخذٌ وردٌ ، طال أمدّه ، ولم تنقطع
موارده !

وقد عرض الجاحظ في رسالة « العثمانية » حجج القائلين بأسبقية عليّ
وتقدمه على أبي بكر في الإسلام ، ودفع خصومهم ، فثار معركة حامية ،
أجرى فيها قتله ، فصال وجال ، وضرب وجوه الحجج بعضها ببعض ، حتى
أرهمها جميعاً ، وتركها صرعى ، خادمة الأنفاس !^(١)

وفي طبقات ابن سعد أخبار كثيرة ، تتحدث عن أولية عليّ في الإسلام . .
فعن زيد بن أرقم قال : « أول من أسلم على يد رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، عليّ » .

وعن أبي بصير ، عن مجاهد ، قال : « أول من صلى ، عليّ ، وهو ابن عشر
سنتين » . وعن الحسن بن زيد ، بن الحسن ، بن عليّ ، بن أبي طالب ، أنه حين دعاه
النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، كان ابن تسع سنين » . وعن ابن عباس ،
قال : « أول من أسلم من الناس بعد خديجة ، عليّ » وعن محمد بن عمر ،
قال : « وأصحابنا يجمعون أن أول أهل القبلة ، الذي استجاب لرسول الله صلى
الله عليه وسلم ، خديجة بنت خويلد ، ثم اختلف عندنا في ثلاثة نفر ، أيهم أسلم
أولاً : في أبي بكر ، وعليّ ، وزيد بن حارثة ، وما يجد إسلام عليّ صحيحاً ،
إلا وهو ابن إحدى عشرة سنة »^(٢) .

وأكثر الذين ينازعون في أسبقية عليّ في الإسلام ، لا يعتدّون بالسبق
الزمني ، وإنما نراهم قد يسلّمون به ، ولكنهم لا يرون إسلام عليّ إسلاماً يعتدّ

(١) انظر رسالة العثمانية للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) الطبقات الكبرى ، لابن سعد ، جزء ٢ ص ٢١ .

به في تلك السن المبكرة ، إذ لم يكن عن نظر وتدبر ، فقد أسلم على حين كان صبيًا لم يبلغ مبلغ الإدراك والتمييز !

والذي نقوله هنا هو ما قلناه من قبل ، وهو أن عليًا ولد مسلمًا ، على الفطرة ، إذ كان مرباه منذ طفولته في بيت الرسول ، الذي عصمه الله ، وعصم من كان في بيته من شرك الجاهلية وضلالها !

فإذا كان للأسبقية في الإسلام ، في هذا الدور التمهيدى للدعوة ، فضل يتقدم به بعض الناس على بعض ، في منازل الإسلام - فعلى - لاشك - أول المسلمين ، بعد خديجة رضى الله عنها . .

* * *

ليلة خالدة . .

لم يذكر المؤرخون أن عليًا كان في العذبيين من المسلمين ، الذين أخذتهم قريش بالبأساء والضراء . . ولعل ذلك كان لمكانة أبيه أبي طالب في قريش ، من جهة ، ولصغر سنه من جهة أخرى . . وإن كان ذلك لم يُعْفِه من الأذى الذي أصاب بنى هاشم جميعًا ، حين اعتزلتهم قريش ، وأجأتهم إلى الخروج من ديارهم ، والانعزال في شِعب أبي طالب ، طوال مدة المقاطعة .

وفوق هذا ، فقد احتمل على - رضى الله عنه - آلامًا نفسية قاسية ، خلال هذا الصراع العنيف المتصل ، بين النبي وقومه .

فهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما كاد يواجه قومه . برسالته التي أمره الله بتبليغها للناس ، حتى سلقوه بالسفهِ حداد ، وحتى رموه بالضرب والأذى ، في صور متعددة ، وضروب مختلفة . . وهو صابر محتسب ، إلى أن يقضى الله بينه وبين قومه !

واقعد كان على ، يرى هذا ثم يرى الآلام النفسية التي يعالجها الرسول ،
ويبيت عليها . . إذ يرى قومه على مدرج الهاوية ، وهم في صَمَم عن هذا النذير ،
الذي يهتف بهم : أن اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد . . فلا يجد لهذا الصوت من
سميع أو مجيب ، إلا من نفر قليل ، لا بعد شيئا إلى هذه الأُم المتساقطة في
الهاوية ، تساقط الفراش على النار . . ثم لا يجد إلا حَسْرَةً وأسى ، يبيت فيهما ،
وبصبح عليهما ، إشفاقاً على قومه ، وأسفاً على هذا الخير ألا يصيبوا منه شيئاً .
وحتى ليحىء وحى السماء ، منبهاً النبي إلى أن يخفف من هذا الألم الذي
يعيش فيه ، ويكاد يقضى عليه : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات »^(١)
« ولا تحزن عليهم ، ولأنك في ضيق مما يمكرون »^(٢) .

والذي لاشك فيه أن علياً قد أخذ نصيبه من تلك الآلام النفسية التي كان
يعانيها الرسول قبل الهجرة ، كما أخذ نصيبه منها كل من كان في بيت النبي
من زوج وولد !



وإذا كان التاريخ لم يسجل لعلّ حدثاً بارزاً في الدعوة الإسلامية ، بمكة ،
قبل الهجرة ، فإن الأيام قد احتفظت له بأروع موقف في خاتمة هذا الدور ،
من حياة تلك الدعوة !

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، ثم
بالهجرة إلى المدينة ، بعد أن تمت بيعة العقبة بين رسول الله والأنصار . . ولم
يبق في مكة إلا من حبسه ضعفه أو مرضه . . وأمسك رسول الله صلى الله عليه
وسلم أبا بكر وعلياً عن أن يهاجرا ، حتى يأذن لهما .

(١) سورة فاطر : ٨

(٢) سورة النحل : ١٢٧

وأذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة ، فأذن أبو بكر بما أمره الله ، وأعلمه أنه صاحبه في تلك الهجرة ! فهاجر الرسول ، وفي صحبته صاحبه الصديق أبو بكر .

أما عليّ ، فقد أراد الرسول لأمر آخر !

كانت قريش قد أجمعت أمرها على أن تبين رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأن تضربه بيد واحدة ، تشترك فيها جميع بطونها وأفخاذها ، حتى يتفرق دمه في قريش كلها ، فلا يكون لبني هاشم سبيل إلى الطلب بدمه ، والثأر له ، وإلا كان عليهم أن يحاربوا قريشاً كلها !

وجرت الأحداث إلى غايتها . فقريش تعدّ العدة ، ونحکم المؤامرة ، وتوقت لها .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، يستعدان للهجرة ، ويتدارسان أسلوب تنفيذها ، ويرسمان خط سيرها ، وساعة بدئها .

ويلتقي التدييران : تدير قريش ، وتدير الرسول ، التقاء جيش في ميدان القتال . !

ويسفر وجه الصبح ، وقد انجلى غبار المعركة عن قريش ، تجرر أذيال الهزيمة ، وتقلب يد الحسرة والغدامة . إذ خاب سعيها ، وبطل تديرها ، ونجا رسول الله ، مما كانت تريد به من سوء !

لقد دعا رسول الله عليّاً ليلة الهجرة ، وطلب إليه أن يبيت في المكان الذي اعتاد الرسول أن يبيت فيه ، وأن يتغطى بالبرد الحصري ، الذي كان النبي يتغطى به ، حتى إذا نظر ناظر من قريش إلى الدار ، رأى وكأنّ النبي نائم في مكانه ! مُغطّى بالبرد الذي كان يتغطى به !

وقد كان . . . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مهاجراً ، في تلك الليلة وأخذ الله - سبحانه - على أعين القوم ، فلم يروه !

فلما أصبح القوم ، نظروا ، فرأوا علياً ، ورأوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلت من أيديهم ، وفاتهم ما كانوا قد دبروا له من سوء !
وبقى عليّ في مكة أياماً ، يؤذى فيها الودائع التي كانت عند رسول الله للناس ، إذ كان صلى الله عليه وسلم موضع ثقة الناس جميعاً ، من آمن به ، أو كفر ، على السواء !

عن عبد الله بن أبي رافع ، عن عليّ ، قال : « لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، في الهجرة ، أمرني أن أقيم بعده ، حتى أؤدى ودائع كانت عنده للناس ، ولذا كان يسمى الأمين . فأقمت ثلاثاً ، فكنت أظهر ، ما تغيب يوماً واحداً ، ثم خرجت ، فجعلت أتبع طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قدمت بنى عمرو بن عوف ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقيم ، فنزلت على كلثوم بن الهدم ، وهناك منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم » ^(١) .

وفي سيرة ابن هشام : « وأقام عليّ بن أبي طالب - عليه السلام - بمكة ثلاث ليال ، وأيامها ، حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الودائع التي كانت عنده للناس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ليس أحد عنده شيء يخشى عليه ، إلا وضعه عنده ، لِمَا يعلم من صدقه ، وأمانته . صلى الله عليه وسلم » ^(٢) .

(١) الطبقات : جزء ٢ ص ٢٢ .

(٢) السيرة لابن هشام : جزء ٢ ص ٧٩ .

خاطرة ! :

وهذا الذي كان من عليّ في ليلة الهجرة ، إذا نظر إليه في مجرى الأحداث التي عرضت للإمام عليّ في حياته بعد تلك الليلة ، فإنه يرفع لعيني الناظر ، أمارات واضحة ، وإشارات دالة ، على أن هذا التدبير الذي كان في تلك الليلة ، لم يكن أسراً عارضاً ، بالإضافة إلى عليّ ، بل هو عن حكمة لها آثارها ومعقباتها ! فلما أن نسأل :

أكان لإلباس الرسول صلى الله عليه وسلم شخصيته لعليّ ، تلك الليلة ، ما يوحى بأن هناك جامعة تجمع بين الرسول وبين عليّ ، أكثر من جامعة القرابة القريبة التي بينهما ؟ وهل لنا أن نستشف من ذلك ، أنه إذا غاب شخص الرسول كان عليّاً هو الشخصية المهيأة لأن تحلّفه ، وتمثل شخصه ، وتقوم مقامه ؟

وأحسب أن أحداً قبلنا لم ينظر إلى هذا الحدث نظرتنا هذه إليه ، ولم يقف عنده وقفنا تلك ، حتى شيعة عليّ ، والمبالغين في التشيع له ! فإننا نراهم لا يلتفتون كثيراً إلى هذه الواقعة ، ولا يقيمون منها شاهداً يشهد لعليّ أنه أولى الناس برسول الله والقيام معه ، على حين نراهم يتعلقون بكل شيء يرفع عليّاً إلى تلك المنزلة !! وأحسب كذلك أننا لم نتعسف كثيراً ، حين نظرنا إلى عليّ ، وهو في بُرد الرسول ، وفي منوى منامه الذي اعتاد أن ينام فيه — فقلنا هذا خَلَفُ رسول الله ، والقائم مقامه !

ثم نحن إذا نظرنا إلى عليّ وهو يواجه قريشاً ، بعد أن فعل فعلته بها ، وبعد أن صفعها تلك الصفعة المذلّة المهينة ، ثم تصفحنا هذه الوجوه المنكّرة ، وتلك الأعين المخذّقة ، وهي ترمي عليّاً بنظراتها الحارّة المتوعدة ، إذ خدعها عن « محمد » ، ومكر بها ، حتى أفلت « محمد » من بين يديها — ألا يذكرنا هذا

المشهد ، بما كان من قريش لعلّ ، وإرهاقها له ، وتجنّبها عليه ، بعد أن دخلت في الإسلام . . . حيث لم يَرَ منها إلا حقيقاً عليه ، وكيداً له ، وأزوراراً عنه ؟ !
وإن لك أن تقول : إن الفرق كبير بين قريش الملحدة الكافرة ، المعادية للرسول ، ولمن يجتمع إلى الرسول ، وبين قريش المسلمة ، المستجيبة لرسول الله ، والمجاهدة في سبيل الله !

ولسكن . . . لنا نحن أيضاً أن نقول : إنه إذا كان الإسلام قد ذهب بسخائم النفوس ، وضمد جراحات القلوب ، فإنه قد بقي في كثير من النفوس بعض هذه السخائم . مُنْدَسَة خامدة ، إذ حركتها الأحداث تحركت ، وبقي في بعض القلوب ندوب ، هي ساكنة ما سكنت الأحداث ، فإذا طاف بها طائف من المواقف المتأزمة بَعَثَتْ ، وألقت بما فيها من قبيح وصيد !
إن هذا الذي كان من على ليلة الهجرة ، في تحديبه لقريش ، هذا التحدي السافر ، وفي استخفافه بها ، وقيامه بيها ثلاثة أيام ، يغدو وبروح — إن ذلك لاتنساه قريش لعلّ أبداً ، ولولا أنها وجدت في قتله يومئذ إثارة فتنة ، تمزق وحدتها ، وتشقت شملها ، دون أن يكون في ذلك ما يبلغ بها غايتها في « محمد » — لولا ذلك لقتلته ، وشقت ما بصدرها منه ، ولكنها تركته ، وانتظرت الأيام ، لتسوى حساسها معه !
وأمر آخر !

هاجر الرسول إلى المدينة ، وترك وراءه في مكة ، قلوباً مضطعنة عليه ، مغيظة منه ، متحرقة إلى ضرره وأذاه . . . واستقبل في مهاجرة الجديد وجوهاً فياضة بالبشر ، وقلوباً عاسرة بالخير والحب .
وهاهو ذا على يَخْلُف الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — في هذا المجتمع المضطرب ، ومع هذه الجماعة الحائرة البغضة . . . يعيش معها أياماً ثم يلحق بالرسول في مهاجرة الجديد !

ثم مضى الرسول إلى ربه ، ولحق بالرفيق الأهل ، وانتقل من دار إلى دار خير منها . . أشبه بانتقاله مهاجراً من مكة إلى المدينة . . وترك علياً وراءه يصطدم بالأحداث ، وبكابد الشدائد ، حتى يلحق بالرسول في الرفيق الأهل ، كما لحق به في مهاجره من قبل !

ألا يبدو لنا من هذه اللواقط ، ما نستشف منه أن لعلّ شأننا في رسالة الرسول ، ودورنا في دعوة الإسلام ، ليس لأحد غيره من صحابة الرسول ؟
وبعد — فهذه خطرات ، لا نحسبها على تلك القضية ، ولا ندخل بها فيها ، ولا نضيفها إلى حساب عليّ رضي الله عنه ، ولا نأخذ بها فيما نأخذ به من صرويات التاريخ عنه .

إنها ليست حقائق يمكن أن تقبض منها اليد على شيء ، ولكنها خفقات قلب ، تهيج الذكريات ، لموقف من تلك المواقف الخالدة ، فيخشم جلالها ، وينتشي بروعتها !

الباب الثاني

في موكب الدعوة

الفصل الأول

في دار الهجرة :

أفلت عليّ من قريش ، وصدق ما وعده رسول الله ، فلم يخلص إليه من القوم أذى ، وأسرع الخطا للحاق برسول الله في دار هجرته ، ليصل حياته بحياة الرسول ، ولينضوي تحت جناحه الذي أظله منذ صباه ، والذي لم يبت ليلة بعيدا عنه ، منذ آوى إليه ! اللهم إلاتك الليالي ذوات العدد ، التي خرج فيها الرسول من مكة إلى الطائف يدعو أهل ثقيف إلى الاسلام .

ويتحدث الرواة أن علياً لحق بالرسول وهو بمنزله الذي نزل به بقاء ، قبل أن يدخل المدينة^(١) .

فاذا صح ذلك ، فإن علياً يكون قد دخل المدينة في موكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضع قدميه على أثر أقدام الرسول ، في طريقه إلى المنزل الذي نزل منها ، واتخذ فيه مسجده ، وركز فيه الراية التي اجتمع إليها المسلمون ، وانطلقت منها دعوة الإسلام .

على أن الذي كان ينتظر علياً في مدينة الرسول شيء أعظم من هذا ، وأكبر درجات وأكبر تفضيلاً . . . شيء اختص به عليّ وحده ، لم يشاركه

فيه أحد من المسلمين ، الذين أحد كل منهم محظه من الإسلام ، وعمكاته من رسول الله !

ففي المدينة كان أول عمل عمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن آخى بين المهاجرين والأنصار ، أخوة خاصة ، غير تلك الأخوة العامة التي جعلها الإسلام بين المسلمين جميعاً . . هي إخوة تجمع بين اثنين ، جمعاً موثقاً ، يشارك فيه الأخ أخاه ، في أمره كله ، في سرائه وصرائه ، وفي حلو عيشه ومروءه ، وفي لين حياته وخشوتها .

وفي هذه المؤاخاة عرف رسول الله كل أخ بأخيه ، وجمعه إليه ، ووصله به ، وتولى بنفسه اختيار المتآخين ، يجمع المرء على من هو أشكل به ، وأقرب إلى طبيعته ، وما اشتمل عليه من صفات ، ليتم التوافق ، ويشعر القآخى أطيب الثمرات .

فمن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي عن أبيه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، آخى بين المهاجرين بعضهم ببعض ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، فلم تكن مؤاخاة إلا قبل بدر . . آخى بينهم على الحق والمواعاة ، فأخى رسول الله بينه وبين علي بن أبي طالب ^(١) .

وعنه أيضاً : أن النبي صلى الله عليه وسلم حين آخى بين أصحابه وضع يده على منكب علي ، ثم قال : « أنت أخي ، ترثني وأرثك ، فلما نزلت آية الميراث قطعت ذاك » ^(٢) .

وهذه الأخوة للنبي ، التي جعلها الرسول لعلّ وحده ، واختصه بها ، تدعونا إلى أن نتحقق منها أولاً ونستوثق من الأخبار التي تحدثت بها ، وذلك قبل

(١) الطبقات جزء ٣ ص ٢٢ .

(٢) الطبقات جزء ٣ ص ٢٢ .

أن ننظر في دلالاتها ، وما في هذه الدلالات من شواهد الفضل والإحسان ، لمن اختصه النبي بأخوته ، لاعن محابة ، وإعنا عن أمر من أمر الله ، وفضل من فضله ، الذي « يؤتية من بشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

روى ابن هشام قال : « وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا - ونعموذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل - « تأخؤا في الله... أخوين . أخوين ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب ، فقال : « هذا أخى » . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين وإمام النبيين ورسول رب العالمين ، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد - وعلى بن أبي طالب رضي الله عنه ، أخوين » ^(١) .

وعن محمد بن عمر ، وعبد الله بن جعفر ، وعن محمد بن صالح ، قالوا : « آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين علي بن أبي طالب وسهل بن حنيف » وسهل بن حنيف أنصاري . . فهي أخوة بين مهاجري ، وأنصاري ، فقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين أولاً ، ثم آخى بينهم وبين الأنصار ثانياً ، فكان لكل مهاجر أخوان : أخ من المهاجرين ، وأخ من الأنصار .

وإذن فهذا الخبر الذي يحدث عن تلك المؤاخاة التي كانت بين علي ، وسهل بن حنيف ، هي في المؤاخاة التي جعلها الرسول بين المهاجرين والأنصار ، بعد تلك الأخوة التي أقامها بين المهاجرين فيما بينهم .

وقد تحدث علي - كرم الله وجهه - في مواقف كثيرة من أخوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك في مقام المواجهة لمن كانوا يفازعونه الأمر ، حين

آت إليه الخلافة ، أو يدفعونه عن الخلافة ، حين كان يطالب نفسه بها .

ولاشك أن هذه المقولات التي رواها رواة التاريخ عن عليّ ، إلى تلك الأخبار التي رواها أصحاب الحديث عنه ، وهي جميعها يدعم بعضها بعضاً - تجعلنا نطمئن إلى هذه الواقعة ، ونقبلها فيما نقبل من أخبار عليّ كرم الله وجهه !

وإذا صح ذلك عندنا .. فما مدلوله ؟ وهل لنا أن نجد فيه شيئاً يضاف إلى ما لعلّ من فضل في خاصة نفسه ، وفيما أعطى الله ورسوله من جهاد وتضحية وإشمار ؟

والجواب بلا تردد : أنه نعم !

وقد أمسك عليّ نفسه - فيما روى عنه - بهذا الفضل العظيم ، والشرف الكبير ، اللذين كانا له من هذا النسب الكريم ، وتلك الأخوة التي تجمع بينه وبين رسول الله ، في رحاب الله ، وفي دين الله ، وعلى طريق الدعوة إلى الله ! ولو سكت عليّ عن التحدث بهذا الفضل ، ومباهاة الناس بتلك الأخوة وإفقاتهم إليها - لما سكت الناس ، إذ كانت دلالتها أظهر من أن تخفى على أحد ، وكان ما تنطوي عليه من نفحات النبوة أقوى من أن يحول بينها وبين أن تُشمّ في أعطاف عليّ ، ما يعرض للأنوف من علل ، وما يصيب القلوب من مرض !

على أننا لا نرى بداً من أن نجلى عن هذه الأخوة . ما يكون قد زاحما ، أو غطى عليها من قرابة عليّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فهذه القرابة القربية من شأنها أن تكون على سبيل التجوز - أخوة تجمع ابن العم إلى ابن عمه ، كما تجمع الأخ إلى أخيه !

ومحمد - صلى الله عليه وسلم - وعليّ - رضي الله عنه - ابنا عمّ ، نسباً وقرابة . قد كان مرباهما إلى أبي طالب ، العمّ البار الرحيم ، الذي قام من « محمد » مقام

الأب ، عطقاً ، وحفواً ، بل إنه - كما عرفنا - قد آثر « محمداً » على أبنائه ، واختصه بالقدر الأكبر من حبه وبره ! حتى لقد كان - والأمر كذلك - لابنه « علي » أشبه بالممّ ، إذ استأثر « محمد » بأبوته ، واستأثر « محمد » كذلك بعليّ دونه ، في رعايته ، وتثنيته ، والفر في أمره كلّ ، قريبه وبعيده !

فهذه القرابة التي جمعت بين « محمد » و « عليّ » على هذا الوجه ، من شأنها أن تجعل من ابني العم « أخوين » نسباً وقرابة ، دون أن يكون لفارق السنّ بينهما حساب ، في تقرير هذه الأخوة ، وإجرائها إلى غايتها . . فقد كان بين عليّ وبين بعض إخوته من أبيه وأمه ، أكثر مما بينه وبين ابن عمه « محمد » ، من فارق السنّ !

وعند أكثر الذين تلقوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعليّ : « أنت أخي ، ترثني وأرثك » قد وقع في نفوسهم أن هذه الأخوة أخوة قرابة ونسب ، إن لم تكن على سبيل الحقيقة ، فهي على مجاز ، مقارب للحقيقة ، مؤيد لها !

والأمر في تقديرنا على غير هذا ! وإن لنا أن ننسى هذه القرابة النسبية التي بين محمد وعليّ ، وأن نفصلها عن هذا النسب الجديد ، الذي جمع به الرسول بينه وبين عليّ ، فجعله له أخاً ، إذ كان لهذه الأخوة مقومات أخرى ، غير مقومات النسب والقرابة ! فقد ظلت هذه الأخوة قائمة بعد أن نسخت آيات الميراث ما كان يترتب عليها من ميراث الأخ من أخيه ، وهي كذلك تظل باقية إذا لم يكن من ورائها قرابة ونسب !

وعلى هذا ، فإنه إذا جاز لنا أن نحسب لهذه القرابة حسابها في هذه الأخوة التي جمع فيها النبي - صلوات الله وسلامه عليه - بينه وبين عليّ ، فإن هذا الحساب لا يستقيم أبداً ، ولا يكون له معتبر بحال ، إلا إذا نظر ناظر فرأى بين ابني العم مشكلة ومقاربة ، في الصفات النفسية والروحية ، وفي كل ما يحتاج إليه (م ٨ - علي بن أبي طالب)

الدعوة الجديدة ، من قوى في الرجل الذي يحمل رسالتها ، وفي الرجال الذين يشدون من أزرها ، وبسندون ظهره ، في الحفاظ عليها ، وفي إبلاغها للناس ، وفتح الطرق لها إليهم ، وإزاحة المعوقات التي تحول بينهم وبينها !

فإذا اجتمع إلى تلك الصفات النفسية والروحية ، التي تدنى إنساناً من الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قرارة مدانية - كان ذلك مما يدعم تلك الميزة التي يمتاز بها من رسول الله ، ويثبتها ، ويزيدها قرباً إلى قرب ، وقوة إلى قوة !

فلقد كانت قرارة رسول الله صلى الله عليه وسلم لبني هاشم قوة له ، في وجه أعدائه الذين أنكروا عليه دعوته فيهم ، وواقامه بينهم . . . ذلك وبني هاشم كانوا على ما كانت عليه قريش ، من الإنكار لدعوته ، والجانبية لرسالته . . . ولكنهم انتصروا له حمية ، ودفعوا عنه قرارة ، ولم ينتصروا الدين الذي يدعو إليه ، ولم يدافعوا عن الرسالة التي يحملها إليهم ! وإن كثيراً منهم قد دخل معه في دين الله استجابة لعاطفة القرابة تلك ، من غير نظر إلى هذا الدين ، وما يحمل إلى الناس من خير ، وهدى ، ورحمة !

يُروى لأبي طالب هذان البيتان ، من شعر ، كان يقوله في وجه قريش ، حين كانت تتربص بالنبي ، وتطلب الفرصة للقضاء عليه - يقول :

كذبتم ، وبيت الله ، نُخْلِى محمداً

ولما نطاعنُ دونه ونناضل

ونُسلمه حتى نُصرِّع حوله

ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وسواء صح هذا الشعر ، أو لم يصح ، في نسبه لأبي طالب ، فإنه شيء من

بعض عاطفته ، وعاطفة بنى هاشم ، نحو محمد ، فيما كان بين قريش وبينه .
وفى شئب أبى طالب الذى انحاز إليه بنو هاشم ، وفيهم من هو أعدى
أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عمه أبو لهب - فى هذا الشعب تبرز
الحكمة فى اختيار رسل الله من أواسط أقوامهم ، ومن الجهة القوية السليمة
فيهم ، ليكون منهم العضد القوية ، واليد الدافعة ، لسفاهة السفهاء ، وبغى
الباغين ، بمن تحدثهم أنفسهم بالعدوان على من اختارهم الله لرسالاته ،
واصطفاهم لهداية عباده .

وقد ذكر القرآن الكريم ما كان من قوم شعيب ، وما سؤلت لهم
أنفسهم فيه ، من العدوان عليه والبطش به ، لولا أنهم كانوا يحسبون حساباً لأهله
وذوى قرابته ، الذين يرون الاعتداء عليه اعتداء عليهم ، وامتهاناً لكراماتهم ،
واستباحة لحامهم . . يقول القرآن الكريم فى هذا : « قالوا شعيب ، ما نفقه كثيراً
مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرَجَجْنَاكَ ، وما أنت علينا
بعزيز ! قال يا قوم : أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم
ظهرياً ؟ . . » ^(١)

وموسى عليه السلام - حين أرسله الله - سبحانه - رسولاً إلى فرعون ، وجد
فى نفسه رهبة لهذا الموقف ، وضمناً عن احتمال ، فطلب إلى ربه أن يكون
إلى جانبه من يعينه ، ويشد أزره ، ولم يتخير لذلك إنساناً بعيداً عنه ، وإن كان
ذا جنان ثبت ، ولسان طلق ، بل تخير أخاه هارون ، ليقف معه هذا الموقف ،
وليعطيه كل ما عنده : لله ورسوله ، ثم لقرابته ، ولحمة نسبه ! كل جانب منهما
يشد الآخر ويرفده ، إذا ضعف جانب ، أمسك به الجانب الآخر !

وفي هذا يقول القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام : « قال رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي . هرون أخى . اشدد به أزرى ، وأثركه في أمري »^(١) ويقول أيضاً : « قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ، وأخي هرون هو أفصح مني لساناً ، فازيله معي ردءاً يصدقني ، إني أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لك سلطاناً »^(٢).

وقد ظلت هذه الأخوة عاملة بين محمد وعلى ، تعطى آثارها في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي كل موقف يحتاج فيه الرسول - صوات الله وسلامه عليه - إلى أن يلقاه بنفسه أو بمن يراه بمنزلة نفسه !

ونذكر هنا حدثين بارزين ، كان على النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوم لهما بشخصه ، أو يندب لهما من هو أشبه بشخصه .

* * *

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أميراً على الحج ، يقيم المسلمين حجهم ، وما كاد أبو بكر - رضى الله عنه - يوافي الموسم ، حتى نزلت سورة « براءة » وفيها بلاغ للناس ، وإنذار للمشركين ، بألا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا !

والرسول - صوات الله وسلامه عليه - مطالب أن يبلغ هذا للناس ، ولمن لهم فيه شأن ، استئثلاً لقوله تعالى : « يأتيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته »^(٣).

(١) سورة طه : ٢٦ - ٣٢ .

(٢) سورة القصص ٣٣ - ٣٥ .

(٣) سورة المائدة : ٦٧ .

وكيف للرسول أن يشهد موسم الحج ؟

لقد بعث أبا بكر أميراً على الناس ، وهذا شرف عظيم قد ألبسه الرسول صاحب هجرته ، ورفيقه في الغار ، أبا بكر ، رضى الله عنه ، فلو حضر النبي موسم الحج ، لنزع عن أبي بكر هذا الثوب الكريم الذى ألبسه إياه ، وفي هذا ما فيه من فتح أبواب كثيرة لمقولات المنافقين ، وتخرصات من في قلوبهم مرض ! رأبو بكر أكرم عند الله ، وعند رسوله ، وعند المؤمنين ، من أن يصبح هدفاً للسهام المسمومة ، من أفواه أهل النفاق والسوء !

ومن جهة أخرى ، فإن أبا بكر - مع ماله من مكانة عند الله وعند رسوله - لا يبلغ عن رسول الله ، ما من شأن الرسول أن يبلغه بنفسه !

ولهذا ، فقد ندب رسول الله صلى - الله عليه وسلم - عليّ ابن أبي طالب لهذا الأمر ، ومعه سورة « براءة » يقرؤها في أهل الموسم ، ويمعلنهم بما جاء فيها من أحكام !

حدث ابن هشام فقال : « بعث رسول - الله صلى الله عليه وسلم - أبا بكر ، أميراً على الحج من سنة تسع ، ليقيم للناس حجّهم .. والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم ، فخرج أبو بكر - رضى الله عنه - ومن معه من المسلمين ، ونزلت « براءة » في نقض ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين ، من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم : ألا يُصدّ عن البيت أحدٌ جاء ، ولا يُخاف أحدٌ في الشهر الحرام .. وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس ، من أهل الشرك ، وكانت مع ذلك عهود بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قبائل من العرب ، خصائص .. إلى آجال مسماة .

« قال ابن إسحاق ، وحدثني حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيفة عن أبي جعفر ، محمد بن علي - رضوان الله عليه - أنه قال : لما نزلت براءة على

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان بعث أبا بكر - رضى الله عنه - ليقوم للناس الحج ، قيل له : يا رسول الله ، لو بعثت بها لأبى بكر ! فقال : « لا يؤدى عى إلا رجل من أهل بيتى » ثم دعا على بن أبى طالب - رضوان الله عليه - فقال له : « اخرج بهذه القطعة من صدر براءة ، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يخرج بعد العمام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . . . ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدته » فخرج على بن أبى طالب - رضوان الله عليه - على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم « العصابة » حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، فلما رآه أبو بكر بالطريق قال : أمير ، أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم مضى ، فأقام أبو بكر للناس الحج . . . حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فأذن فى الناس بالذى أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . » ^(١)

هذه واحدة ! .

وأخرى ! .

فى غزوة تبوك . . . دعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى الخروج معه إلى تلك الغزوة ، وقد أعلن أصحابه بها ، وكان فى كل غزوة لا يصريح لهم إلا بأنهم سيغزون ، دون أن يذكر لهم الجهة التى يغزونها .

أما هذه الغزوة ، فقد رأى أن يؤذنههم بها ، ليأخذوا لها عدتها ، من زاد وعناء ، لبعد الشقة ، وما عند الأعداء من قوة ومنفعة ! .

وكانت تلك السنة 'مُحَلَّة' مجدية ، والناس فى شدة وعناء .

ولهذا دعا الرسول - صلوات الله عليه - أصحابه إلى البذل في سبيل الله ،
وقد بذل المسلمون جهدهم .

ومع هذا ، فإن الجيش في حاجة إلى كل ما عند المسلمين من قوة ، ظاهرة
أو خفية - كثيرة أو قليلة - وهم في وجه قوة ، لم يعرفوا ما عندها من عدد
الحرب وأسايب القتال ! .

وموقف كهذا لا يُستغنى فيه عن عليّ بن أبي طالب ، الذي يعدّه المسلمون
جيشاً وحده ، وجبهة قوية قاهرة في وجه الأعداء . . !

ومع هذا ، فقد تخلف ابن أبي طالب عن هذا الجيش ! .

تخلف بأمرٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم !

ولكن لا خوفاً عليه ، ولا ضئاً به ، فإخاف الرسول عليه ، ولا ضنّ
به في أشد المواطن ، وأكثرها تعرضاً للموت . . لأن الموت في سبيل الله هو
غاية المؤمنين ، ولا يَضُنُّ به رسول الله على مَنْ أَحَبَّ ! .

ولقد أرجف المنافقون بعليّ ، وقالوا فيه أقوالاً شنيعة . . قالوا : إن
رسول الله استثقل صحبته ، وكره أن يكون رفيق سفره ! .

وفزع عليّ لهذه المرجفات ، وجاء إلى النبي يسأله في هذا التخلف ، وفيما
يقول المنافقون فيه .

وعندئذ لم يكن بدّ من أن يصرّح النبي بما كان يُخفيه ، وكشف عن
السّر من وراء تخلف عليّ . . وكان في ذلك ما أثلج صدر عليّ ، وكبت
قلوب المنافقين ، وأخرس المتخربين .

وهكذا يصدق قول الفائل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُوِيَتْ ، أتاح لها لسانَ حُسود

روى ابن سعد في طبقاته . . قال « أخبرنا رُوح بن عبّادة قال : أخبرنا

عنون ، عن ميمون ، عن البراء بن عازب ، وزيد بن أرقم ، قالا : لما كان عند غزوة جيبش العسرة ، وهى تبوك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلّ ابن أبي طالب : « إنه لا بد من أن أقيم أو تقيم ، نفلقه ، فلما فصل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غازيا ، قال ناس : ما خلف عليّا إلا لشيء كرهه ، فبلغ ذلك عليّا ، فأتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انتهى إليه ، فقال له : ما جاء بك يا علي ؟ قال : لا ، يا رسول الله ، إلا أنى سمعت ناساً يزعمون أنك إنما خلفتني لشيء كرهته منى ، فتضاحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « يا علي . . . أما ترضى أن تكون منى كهارون من موسى ، غير أنك لست بنبي ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : فإنه لكذلك » (١) .

وروى ابن هشام فقال : وخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن أبي طالب — رضوان الله عليه — وراعه على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف المنافقون ، وقالوا : ما خلقه إلا استنفالاً له وتخففاً منه ، فلما قال ذلك المنافقون أخذ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه سلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو نازل بالجرف ، فقال : يا نبي الله : زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استنقلتني وتخففت منى ؟ قال : كذبوا ، ولكنى خلقتك لما تركت ورائي ، فاخلقني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي ؟ فرجع علي إلى المدينة ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سفره .

قال ابن اسحق : وحدثني محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة عن إبراهيم

ابن سعد بن أبي وقاص عن أبيه سعد ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعليّ تلك المقالة^(١) .

* * *

وعند هاتين الواقعتين يقف بعض الغلاة طويلاً ، يستحلبون منهما دلالات كثيرة ، لا يزالون يمحضونها حالاً بعد حال ، ليقيموا منهما الشواهد التي تمثل لهم الإمام عليّ كرم الله وجهه إنساناً جاوز حدود الإنسانية ، بما لم يبلغه نبيّ أو رسول !

هذا ، على حين أن طوائف أخرى من الخوارج وغيرهم لا ترى لهذه الرويات - إن صحت - أية دلالة على خصيصة اختصّ بها عليّ دون من معه من صحابة رسول الله ، فما هي إلا أمور عارضة ، صادفت عليّاً ، كما صادفت كثير من أمور الرسول بعض صحابته !

وهذا وذاك محمول على غير محل العدل والإنصاف .

من الجائز التسليم بأن هذه الرويات غير صحيحة ، وعندئذ تضاف إلى تلك الرويات الكثيرة ، التي دُفع بعدم صحتها في نسبتها إلى الرسول .

وبذلك يريح المرء نظره منها ، وبصرف وجهه عنها ، فلا يكون لأولها على أو أعدائه متعلق بها . أما أن تكون هذه الرويات مقبولة على أية درجة من درجات القبول ، ثم لا يكون لها حساب في فضل من تُضاف إليه ، فذلك ما لا يجوز التسليم به بحال !

إن فيها شيئاً ، وشيئاً غير قليل من المحامد والمآثر ، لمن تردّ عليه ، وتوجه له ، ولكن شيئاً من ذلك لا يخرج بمن تلبسه عن حدود البشرية بحال أبداً ،

(١) السيرة لابن هشام جزء ٣ ص ٣٣٢ .

وغاية ما يمكن أن يكون له ، هو أنه في منازل الأخيار المصطفين من عباد الله !

ولو ذهبنا ننظر إلى هذا الفضل السوف لا ين أى طالب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في هذين الموقفين ، رأينا أنه إنما سيق إليه عن قصد من رسول الله ، امتثل فيه أمراً سماوياً تلقاه من ربه ، ليكون على هو المختار لهذين الموقفين ، لمزية فيه ، لا توجد في غيره من صحابة رسول الله !

ففي بَعْثِهِ بِسُورَةِ بَرَاءَةِ إِلَى أَهْلِ الْمَوْسِمِ ، وَتَذْذُوعِهِ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ عَهْدٍ - هذا الأمر كان يمكن أن يقوم أى صحابى من أصحاب رسول الله ، بل إن أبابكر أمير الموسم كان أحق به وأولى ، لولا مَنَحُظٌ خاص ، لا يتم هذا الأمر إلا به ، ولا يصلح له من الناس إلا من كان على وصف خاص ، مهياً له !

والملاحظ هو في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤدى عني إلا رجل من أهل بيتي » فإن ذلك يعنى أن المهود والمواثيق التي يعقدها الرسول صلى الله عليه وسلم ، هي بما يحسب في ذِمَّةِ الشَّحْصِ ، بتولأها المرء بنفسه ، أو من هو بمنزلة نفسه ، ولهذا كان انتداب أحدٍ من أهل بيت الرسول أمراً لازماً في هذا الأمر ، إذا لم يكن الرسول نفسه هو الذى يقوم به !

وذلك أن هذه المهود كانت بين الرسول وبين بعض القبائل التي لم تكن قد دخلت في الإسلام .

وقد تحيّر النبی لذلك خيراً أهل بيته ، ليؤدى عنه ما كان عليه أن يؤديه هو بنفسه .

وقد يسأل سائل : لماذا كان هذا الموقف بالذات هو الذى يقوم فيه

النبي بنفسه وشخصه أو من هو كنفه ، وكشخصه . وقد كان الرسول يبعث بأصحابه ، مبشرين ومنذرين ، ومبلغين رسالته ، إلى القبائل . فلم هذا الموقف بالذات ، لا يرضى فيه النبي إلا أن يكون مبعوثه واحداً من أهله ؟ .

والجواب ، هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد عقد مع أقوام عهوداً ومواثيق . وهو ضامن في شخصه لتلك العهود وهذه المواثيق ، لا باعتبار أنه نبي ، بل على أنه عربي في مواجهة عرب . إذ لم يكن المشركون يتعاملون مع النبي باعتبار أنه نبي . وإنما على أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . . . ولو كانوا يعترفون بنبوته لآمنوا به ، ولما كان بينه وبينهم خلاف . . . وهذا ما حدث يوم الحديبية ، حين عُقد الصلح بين قريش وبين النبي . . . إذ ما كان على كرم الله وجهه يكتب باسم الله الرحمن الرحيم في صدر الكتاب ، حتى قال ممثل قريش^(١) . . . لا أعرف هذا ، ولكن اكتب « باسمك اللهم » . . . ثم ما كاد يكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، حتى قال ممثل قريش : لا ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، ولو شهدت أنك رسول الله لم أقا تلك ! »

وإذن . فهذه العقود التي بين النبي وبين مشركي قريش ، كانت عقوداً شخصية ، في ذمته هو أولاً ، وقبل كل شيء . وعلى هذا ، فإن من تعاقدوا مع النبي من المشركين ، لا يرضون أن يحلهم من هذه العقود إلا من كان طرفاً معهم في عقدها ، أو من يقوم مقامه من خاصة أهله . . . فإذا جاء أبو بكر أو غيره من صحابة رسول الله ، يعلن قبيلة أو جماعة أو فرداً من المشركين ، بحل العقد الذي عقده الرسول ، فإنما يكون ذلك باعتبار أنه واحد في الجماعة الإسلامية ، التي تؤمن برسالة محمد ، وتدين له بالولاء والطاعة . . . والمشركون

(١) هو سهيل ابن عمرو .

لا يعترفون بهذا ، إذ لم يتعاقدوا مع محمد بصفته تلك ، التي يجتمع عليها المسلمون حوله .

ولهذا كان قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — في هذا الموقف : « لا يؤذى عني إلا رجلٌ من أهل بيتي » إنما هو وضع للأمر في موضعه الصحيح ، الذي لا يقبل غيره في هذا الموقف ! .

وانظر : ماذا يكون الحال لو بعث النبي شخص ليس من خاصة قرابته ، فأبرم باسمه عقداً ، ثم ارتد هذا الشخص عن الإسلام ، وأصبح في جماعة للشركين ، وهذا أمر ليس بعيد الوقوع ، إذ ارتد بعض المسلمين في عهد النبي ، كعبد الله بن أبي السرح ، الذي كان يكتب الوحي مع من يكتبون للنبي — فمن يحمل تبعه هذا العمل ؟ إن لهذا التعاقد باسم النبي أن يحمل نفسه من كل التزام . . لأنه تعاقد بصفة قد زالت عنه بارتداده . .

والأمر يقع على غير هذا تماماً ، لو أن شخص التعاقد باسم النبي كان من أهله خاصة ، ثم ارتد مشركاً . . إنه في تلك الحال ضامن الوفاء بما تعاقد عليه ، باعتبار عصبية محمد ، وليس لمحمد ولا لعصبية محمد أن تحمل نفسها من هذا العقد .

هذا ، وبلاحظ أننا في هذا التقدير إنما ننظر إلى أمرين :

أولهما : الطرف الآخر ، من طرفي العقد ، وهو طرف المشركين ، الذين لا يعترفون بالإسلام ، ولا يقرّون الرابطة التي تجمع المسلمين بعضهم ببعض ، ثم تضيفهم جميعاً إلى رسول الله .

وثانيهما : الأمة العربية ، وما كانت تخضع له يومذاك من أحكام العصبية والتزاماتها . . ولعلنا نستحضر هنا موقف بني هاشم جميعاً ، مسلمهم ومشركهم

في المقاطعة التي فرضتها قريش عليهم ، كسلاح من الأسلحة التي تحارب بها محمداً ، ودعوة محمد !

وفي تخلف عليّ ، في غزوة تبوك ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم له : « إمتا أن أبقى أو تبقّى » بيان صريح بأن عليّاً — كرم الله وجهه — في منزلة عند النبي لا يقوم بها أحد غيره . . وإذا لم يكن ذلك في جميع الأحوال ، فهو في الحال التي تتصل بشخص النبي ، وبخاصة نفسه .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم لعليّ : « أَفَلَا تَرْضَى يَا عَلِيّ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي » — في هذا ما يشير إلى أن ما بين النبي وعليّ أكثر من القرابة ، وأن أحدهما مكمل للآخر ، ولو كانت هناك نبوة بعد النبي لكان عليّ هو صاحبها !

* * *

وإذا نحن قد فتحنا هذا الباب ، وأغرينا أنفسنا بالتحديق في هذه الآفاق البعيدة عن مواقع النظر ، والرؤية الكاشفة ، فإننا لا نرى أن نفلق هذا الباب ، ونزّد الطرف عنه ، إلا بعد أن ننظر في زواج عليّ — كرم الله وجهه — من فاطمة الزهراء رضي الله عنها . . وهي صغرى بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فماذا في هذا الزواج من ابنة رسول الله ، من فضل يختص به عليّ وحده دون غيره ، ممن تزوجوا من بناته ، صلوات الله وسلامه عليه ؟

إن الصهر إلى رسول الله شرف عظيم . وفضل سابغ . .

وقد تزوج عثمان رضي الله عنه بابنتي رسول الله (رقية وأم كلثوم)

فاكتسى بذلك هذا اللقب الكريم . . « ذا النورين » .

ومع هذا ، فإن في زواج عليّ من فاطمة شيئاً أكثر من هذا الذي ظفر به عثمان !

فأولاد فاطمة - رضى الله عنها - اختصت من بين أخواتها بهذه الدرجة الرفيعة التي رفعها الله إليها فجعلها ، في مقام مريم ابنة عمران ، حيث وصفهما الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهما خير نساء العالمين . .

وثانياً : أن فاطمة - وحدها - من دون أبناء النبي وبذاته - هي التي كان منها سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الحسن والحسين) ومنهما كان نسل رسول الله !

وإذا نظرنا إلى هذا الأمر ، مع ضمنية ما سبق من مواقف في هذا المقام - نجد أن ذلك الموقف متنسق مع ما سبقه ، جار على الغاية المنجحة له ، والبالغة بآبى طالب ، ما أراد الله له من كرامة وتكريم !

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون له بنين وبنات ، ثم يختارهم الله جميعاً إلى جواره في حياة الرسول ، عدداً فاطمة رضى الله عنها ، ثم لا يقف الأمر عند هذا ، بل يكون من حكمة الله ألا يُعقَّبَ أحد من أبناء الرسول وبناته ولداً ، ومن كان له ولد من بناته ، مات هذا الولد صغيراً . . وهكذا يصبح الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لا يرى له ولداً غير فاطمة ، ولا نسل متصلاً إلا ما كان من فاطمة ، وعليّ !

في كل أمرٍ كان يعنى الرسول ، في شخصه ، وفي خاصة نفسه ، كان عليّ هو الذي يُندب لهذا الأمر ، ليحل محل الرسول فيه ، وليأخذ المكان الذي تركه وراءه !

مبيت عليّ في بُرد الرسول ، وعليّ فراشه ، ليلة الهجرة ، وقراءته ما نزل

من سورة براءة على أهل الموسم، من المسلمين والمشركين، وخلافته الرسول على آل البيت في غزوة تبوك !

أفيجوز لنا أن نذكر مع هذا خلافة عليّ الرسول ، في أن يكون منه النسل ، وأن يكون ولد عليّ وفاطمة نسلًا مباركًا للرسول ولعليّ معًا ؟

نذكر هذا ، ونحن نقرا قول الله تعالى : « ما كان محمدٌ أباً أحدٍ من رجالكم ، ولكن رسولَ الله وخاتمَ النبيين » . فأولاد عليّ ليسوا أبناء الرسول على الحقيقة ، فما كان أبناء الرجل على الحقيقة إلا من كانوا من صلبه ! وإذا كان أبناء الأبناء في حكم الأبناء ، فإن أبناء البنات ليسوا على هذه الشاكلة . . هذا هو واقع الحياة ، وما جرى عليه العرف ، حتى ليقول الشاعر :

بنونا بنو أبناءنا ، وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعد
ومع هذا فإنه ليس بمفكر أن نسمي أبناء فاطمة وعليّ أبناء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم في حكم الأبناء ، ففاطمة بنت الرسول ، وعليّ ابن عم ، أشبه بالابن ! !

وأكثر من هذا ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يدعو الحسن والحسين ابنيه ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه في الحسن - رضي الله عنه - « إن ابني هذا سيد ، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »

وبعد ، فما دلالة هذه الأمور وما مقطع الرأي فيها ؟

وتقول : إنها ليست بالتي تسوّى بين الرسول ، وعليّ ، ولا بالتي تجعل عليّ سبباً إلى ما هو من أمر الرسالة التي اختص بها النبي وجده . . فهذا مقام ليس لأحد أن يشارك النبي فيه .

« محمد رسول الله . »

هذا الوصف ، بكل ما يحمل من معاني الحلال والمظنة ، هو لمحمد وحده ،
ليس لأحد من صحابته أو ذوي قرابته نصيب منه ، إلا ما يشع من ومضات
جلاله ، وما يفوح من شذى أرواحه !

فإذا قيل إن عليًا أخو النبي ، وزوج ابنته فاطمة ، سيدة نساء العالمين ،
وأبو السبطين ، ربحانتي شباب الجفة ، الحسن والحسين .. ثم إذا قيل إن عليًا هو
الشخص القائم مقام الرسول في كل موقف يُلتمس فيه شخص الرسول ، لا رسالة
الرسول — إذا قيل ذلك في « علي » فإنه لا يعطى أكثر من دلالة واحدة ،
هي أن عليًا أقرب الناس إلى الرسول ، وأصدقهم به وأولاهم ، فيما يمس ذاته ،
ويتصل بشخصه !

وهذا المعنى هو الذي نريد أن نستصحه معنا ، في كل موقف يقفه علي في
مواجهة الحياة ، وفي تحديات الأحداث !

الفصل الثاني

في معارك الإسلام

قتلى قريش :

الإبثار ، والتضحية ، والفداء ، والاستشهاد في سبيل الله ، هي أبرز المعاني التي غرسها الإسلام في قلوب أتباعه ، وتعهدها الرسول الكريم بحكمته ، ونفخ فيها من روحه ، حتى لقد جاء الرجل من هذا الفرس الكريم ، معادلاً عشرة رجال ، في ميدان البأس والقوة !

وليس هذا التقدير عن حدّس وتخمين ، أو عن فراسة ونظر ، ولكنه عن خبر صادق « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » .

يقول الله تعالى : « يا أيها النبي حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، بَأْنَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ »^(١)

فهذا وَزَنُ الرجال الذين صَدَقُوا الله ، وصدقوا رسوله ، فكان الموت في سبيل الله أمنية يتمنونها ، إذا فات أحدهم ظن بنفسه الظنون ، ووقع في قلبه أنه غير أهل لهذا المقام الكريم .

ثم لما كثر عدد الداخلين في الإسلام - وذلك في عهد الرسول أيضاً - ممن

(١) سورة الأنفال: ٦٥ .

أسلموا بإسلام الناس ، ودخولهم في دين الله أفواجاً - خفّ وزن المسلمين في مجموعهم ، وإن لم يخف وزن الذين سبقوا إلى الإسلام ، فهم هم ، كما وزنهم الحق جلّ وعلا ، وعلى ما شهدهم الإسلام عليه . وفي هذا يقول الله تعالى :
« الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً » .

فهذا الضعف وارد على الجماعة الأولى ، حين اختلط حسابها بحساب هؤلاء الداخلين في الإسلام ، بلا تقدير أو نظر ، « فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين ، بإذن الله ، والله مع الصابرين ^(١) »

* * *

وقد كان « عليّ » كرم الله وجهه فارس الجماعة الإسلامية الأولى ، وإن حسابها فيها ليس حساب عشرة رجال ، وإنما حساب عشرات وعشرات أكا كان ذلك أو قريب منه شأن عدد من أبطال هذه الجماعة . . إذ لم يكن أصحاب رسول الله على درجة واحدة من البطولة الفروسية ، وإن كانت منازلهم متقاربة في وثاقة الإيمان ، وتوطين النفس على البلاء والاستشهاد في سبيل الله !
فحسان بن ثابت - رضي الله عنه - لم يكن من المحاربين المعدادين في ميادين الحرب والنضال ! ومثله غير واحد من صحابة الرسول اکأبي بكر ، وعثمان ، رضي الله عنهما .

والصحف التي سجلت غزوات الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - تشهد أن عليّ بن أبي طالب كان جيشاً عاملاً في كل ملتحم ، بين المسلمين والمشرّكين .

وهذه حقيقة تظاهرت على صدقها الأخبار المتواترة ، نثراً وشعراً ، كما سجلها القصص الشعبي الشائع على الألسنة ، والمتلقّى من جيل إلى جيل !

ولهذا ، فإننا لانقف كثيراً عند الحديث عن بطوالة علي وشجاعته ، وبلائته
في ضرب جبهة المشركين ، وكسر شوكتهم !
وحسبنا أن نشير هنا إلى بعض تلك المواطن ! فالقليل منها يدل على
الكثير ، والحاضر يشهد للغائب !
في معركة بدر :

ففي معركة بدر ، وهي أول صدام مادي بين الإسلام والشرك ، وأول
اختبار عملي لقوة المسلمين والمشركين - في هذه المعركة قُتل من المشركين - من
كفار قريش - تسعة وأربعون ، وقيل خمسون ^(١) .

وفي السيرة ، لابن هشام ، أن قتل بدر من المشركين كانوا سبعين قتيلًا ،
وكذلك كان عدد أسراهم سبعين أيضًا .

وهذا مانشير إليه الآية الكريمة ، التي نزلت في غزوة أحد ، والتي
يخاطب الله سبحانه بها المسلمين : « أَوَلَمْ نَأْصَابِكُمْ مِصْرِبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ
أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وعِدَّة من قتل من المسلمين يوم بدر سبعون شهيداً . . ولم يستأسر منهم
أحد ^(٢) .

وبكاد يجمع المؤرخون على أن قتل علي في هذا العدد اثنان وعشرون
قتيلًا . . قتلهم أو شارك في قتلهم !

ولا تختلف الروايات كثيراً في هذا العدد ، ولا في أسماء المقتولين المضافين
إلى علي . . وإذا كان لنا أن نشك في هذا العدد ، وأن ننزل به إلى النصف

(١) الغازي للواقدي . غزوة بدر / ٨٥

(٢) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٢٩٨ .

أو الربع ، فإنه يبقى بعد ذلك ما يقيم لنا وجهها للقول بأن علياً كان بطل هذه المعركة وفارسها .

وحين تنفرس في وجوه القتلى الذين أضيفوا إلى عليّ كرم الله وجهه ، نرى أنهم كانوا وجوه قريش ، وأهل العزة والقوة فيها ، كما أنهم كانوا رؤساء في الكفر ، والمحادة لله ورسوله ، وأنه قلّ أن يكون بيت من بيوت قريش لم يفلّه سيف عليّ في تلك المعركة .

فمن بنى عبد شمس بن عبد مناف :

● حنظلة بن أبي سفيان بن حرب (ويقال : اشترك في قتله حمزة وعليّ ، وزيد بن حارثة)^(١) .

● العاص بن سعيد .

● عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس ، قتله عليّ صبراً بأمر من النبي ، ويقال قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح .

● عتبة بن ربيعة (اشترك في قتله عبيدة بن الحارث بن المطلب ، وحمزة وعليّ) .

● الوليد بن عتبة بن ربيعة (أخو هند ، زوج أبي سفيان ، وأم معاوية .)

● عامر بن عبد الله ، الأنماري (حليف بني عبد شمس) .

ومن بنى نوفل بن عبد مناف :

● طعيمة بن عدى ، (ويقال إن حمزة هو الذي قتله)

(١) في رسالة لعلّ بن أبي طالب إلى معاوية يقول : أنه قتل أخاه وخاله وجده . . فأخوه هو حنظلة هذا ، وجده هو عتبة ، وخاله هو الوليد بن عتبة .

ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصي :

• زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد (يقال إنه قد اشترك في قتله على وحزة وثابت بن الجزع)

• نوفل بن خويلد بن أسد : وكان من شياطين قريش ، وهو الذي قرن أبا بكر ، وطلحة بن عبيد الله ، حين أسلما ، في جبل ، ولذلك كانا يسميان القرينين)

ومن بنى عبد الدار بن قصي :

* الفضل بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار ، قتله على صبرا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* زيد بن مليص ، مولى عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار^(١) .

ومن بنى تيم بن مرة :

* عمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم^(٢)

ومن بنى مخزوم بن يقظة بن مرة :

* حرملة بن عمرو بن أبي عتبة (حليف لهم) . . يقول الواقدي لا خلاف في هذا ، ولكن ابن هشام يقول إن قاتله هو خارجة بن زيد ، من الخزرج .

* مسعود بن أبي أمية بن المغيرة .

* قيس بن الوليد بن المغيرة .

(١) تلك رواية صاحب الغازي ، أما ابن هشام فيذكر أن قاتله هو بلال بن رباح .

(٢) ويقال إن صهيبا هو الذي قتله ، ويقال بل إن قاتله هو عبد الرحمن ابن عوف .

* أبو قيس بن الفاكه بن المنيرة . ويقال إن عمار بن ياسر هو الذي قتله .

* عبد الله بن المذر بن أبي رقاعة بن عائذ .

* حاجب بن السائب بن عويمر بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن

محزوم .

ومن بنى سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى :

* العاص بن منبه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم .

* أبو العاص بن قيس بن عدى بن سعيد بن سهم ، ويقال إن قاتله

النعمان بن مالك ، ويقال أبو دجانه .

ومن بنى جُمَح بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لؤى :

* أوس بن معمر بن لوزان ، ويقال قتله الحصين بن الحارث بن المطلب .

ومن بنى عامر بن لؤى :

* معاوية بن عامر (حليف لهم من عبد القيس) ويقال قتله عكاشة

ابن محصن .

* * *

فأنت ترى كيف كان ابن أبي طالب سيفاً بشاراً ، يضرب في رقاب أئمة الكفر ، في قریش ، وأن قريشاً قبل أن تدخل الإسلام كانت تذكر في حزنها على قتلها ، ووجه كل قاتل ، وترصد له يوماً للثأر والانتقام ، ولقد شفا كثير منهم نفسه فيمن أصيب من المسلمين يوم «أحد» ، حتى لقد بلغ الأمر بهند بنت عتبة أن تغرى وحشياً - قاتل حمزة - بأن يكون همّه في هذا اليوم أن يرمى حمزة بحربته ، حتى إذا سقط أسد الله في ميدان المعركة ، أقبلت هند على حمزة ، فبقرت بطنه ، وتناولت كبده فلاكتها . . ولم تكن وحدها هي التي فعلت

هذا ، بل دعت كل النسوة اللاتي جنن مع المشركين ، فعثن في جنث الشهداء كما تعيث الضباع في الفريسة .

يُروى أن جبير بن مطعم ، قال لوحشى ، قاتل حمزة يوم أحد : إن قتلت محمداً فأنت حرّ ، وإن قتلت علياً فأنت حرّ ، وإن قتلت حمزة فأنت حرّ ! فقال وحشى : أما محمد فسيمفعه أصحابه ، وأما على فرجل حذر كثير الالتفات في الحرب ، والكنى سأقتل حمزة ، ففعله ، وزرقه بالحربة فقتله ^(١) يقول ابن هشام : رواية عن ابن سحاق :

«ووقفت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحدّعن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وانفهم خدماً ^(٢) وقلائد ، وأعطت هند خدماً وقلائدها وقرطها ، وحشياً . ثم جعلت تقول :

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سُر
ما كان عن عُقبة لى من صبر
ولا أخى ، وعمه ، وبكرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى
شفيت « وحشى » غليل صدرى
فشكرُ وحشى على غمرى
حتى ترم أعظمى فى قبرى

(١) من رسالة تغص العنابية لأبي جعفر الإسكافى — من مجموعة رسائل الجاحظ

للسندوبى ص ٥٩ .

(٢) الخدم : الخلاخيل .

وقد أجابتها هند بنت أئانة بن عباد بن المطالب :

خَزِيتِ فِي بَدْرٍ وَبَعْدَ بَدْرٍ يَا بِنْتَ وَقَاعِ عَظِيمِ الْكَفْرِ
صَبَحَكَ اللَّهُ غَدَاةَ الْفَجْرِ مِلْمًا شَمِيمًا الطَّوَالِ الزَّهْرِ
بِكُلِّ قِطَاعٍ حَامٍ يَفْرَى حِمَاةَ لَيْثِي وَعَلَى صَفَرِي
وَنَذْرَكَ السَّوَاءَ فَشَرُّ نَذْرٍ

ولم يكن النساء وحدهن هن اللاتي بلغ بهن التفه ، وليج بهن الضلال إلى هذه الصغار الذي لم تعرفه العرب . بل لقد كان في الرجال من أسف هذا الإسفاف ، وأعماء الحقده عن أن يرى عاقبة ما يفعل !

فهذا أبو سفيان . . يمرّ بالقتلى ، ومتفرس في وجوه الشهداء ، فيرى حمزة ابن عبد المطالب ، وقد فعلت به هند — امرأته — ما فعلت ، فلا يفكر هذا ، ولا يستبشعه ، بل يضرب بزج الرمح في شدة حمزة ويقول : ذق عُقُقِي^(١) . فيراه الحليس بن زبأن أخو بني الحارث بن عبد مناة (وكان يومئذ سيد الأحابيش — وهم الذين استعانت بهم قريش من القبائل التي حول مكة من غير قريش — فلا يملك الرجل أن يصرخ بأعلى صوته ويقول : يا بني كنانة ، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ماترون ! » فقال أبو سفيان في استخزاء : أكرمها عني !

ولا شك أن قريشا لم تشف ما بها ، على الرغم مما أصابت من المسلمين في غزوة أحد ، وعلى ما فعلت بحمزة ، وما خلفت في المسلمين من حزن وأسى على هذا البطل العظيم !

(١) يرى حمزة بالعقوق ، لأنه خرج على قومه وانحاز إلى أهل المدينة مع النبي

فلقد ظلت قريش تبكي قتلاها في بدر وفي أحد زمناً طويلاً ، حتى دخل الإسلام مكة ، وحجز الإسلام بين قريش وبين جاهليتها ، وشركها ، ولم يكن لأحد أن يجهز بالحزن والحسرة على من وقع من المشركين في معارك الإسلام ، فاطوت الصدور على ما فيها من مرارة وحقد ونقمة ، إلا من شرح صدره للإسلام ، فشرى نفسه وأهله وولده ، ابتغاء مرضاة الله ! .

روى ابن هشام أن هند بنت عتبة التي فعلت بحمزة هي وصاحباتها ما فعلت ، ولم تجد في هذا عزاء لما أصيبت به في أهلها يوم بدر ، فلقد كانت تفظر إلى آخرين غير حمزة ، وتمنى نفسها بأن تراهم صرعى ، تمثل بهم ، وتأكل من أكبادهم — يروى لها ابن هشام هذه الأبيات ترددها وهي منصرفة من أحد :

رجعتُ وفي نفسي بلابلُ جثة وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي
مِنْ أصحاب بدر ، من قريش وغيرهم بنى هاشم منهم ومن أهل يثرب
ولكنني قد نلت شيئاً ولم أكن كما كنت أرجو في مسيري ومركبي^(١)
وسواء أكانت هند هي التي قالت هذا الشعر ، أم تحلّه أحد لها ، فإنه المقول بلسان الحال ، والمعبر عن واقع الأمر .. !

وهل كان حقدُها على عليّ ، وتمنيها لمصرعه دون ما كانت تحقد على حمزة وتمنى له ؟ .

لقد قتل عليّ يوم بدر أخاها الوليد وابنها حنظلة ، ويقال إنه قتل أو شارك مع حمزة في قتل أبيها عتبة !
ثم لقد كان لعليّ في يوم أحد ما كان له في يوم بدر . من الإطاحة بروس أئمة الكفر من قريش ! .

ويذكر المؤرخون أن قتلى المشركين في أحد كانوا اثنين وعشرين قتيلاً .
ومن قتلى عليّ في هذا اليوم ، طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان
ابن عبد الدار ، صاحب لواء المشركين في تلك المعركة . . .

وقد سُجِّلَ هذا الحدث في شعر للحجاج بن علاط السلمي ، يمدح عليّ
ابن أبي طالب ، وما كان له من بلاء في هذا اليوم العصيب ! يقول السلمي :
لله أي مذبَّب عن حرمة أعني ابن فاطمة ^(١) المعمم المخولا
سبقت يدك له بمأجل طعنة تركت طليحة للجبين مجذلاً
وشددت شدة باسل فكشفتهم بالحزن إذ يهرون أخولاً أخولاً ^(٢)

ومن قتلى عليّ في هذا اليوم أيضاً : عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث
ابن أسد ، وأبو الحكم بن الأخنس بن شريق ، حليف بني زهرة بن كلاب .
هذا ، عدا من اشترك عليّ في قتله ، أو اختلّف فيمن قتله ، أهو عليّ أم
شخص آخر .

فغير منكور إذن تلك اليد الضاربة ، وهذا السيف البقار ، اللذين كانا
لعليّ في معارك الإسلام .

وغير منكور أيضاً هذه التّرات التي كانت للمشركين عند عليّ ، والتي لم
يُخْلُ منها بيت من بيوت قريش .

وفي مقام المناظرة والجدل ، حاول بعض المنابذين لشيعة عليّ أن يهزّونوا
من بطولة عليّ وبلائه في معارك الإسلام ، وأن يسقطوا ذلك من حساب
التفاضل في منازل الإسلام !

(١) ابن فاطمة هو علي بن أم طالب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم .

(٢) أخول أخول : شرحها ابن هشام : متفرقين مشتتين .

وفي رسالة العثمانية « للجاحظ » يعرض الجاحظ على لسان « العثمانية »^(١) رأيهم فيما ينسب إلى عليّ من فضل في معارك الإسلام ، والفتك بصناديد قريش . يقول الجاحظ :

« والحجة العظمى للقائلين بتفضيل عليّ ، قتله الأقران ، وخوضه الحروب . وليس له في ذلك كبيرُ فضيلة ، لأن كثرة القتل والمشى بالسيف إلى الأقران ، لو كان من أشد الحن وأعظم الفضائل ، وكان دليلاً على الرياسة والتقدم - لوجب أن يكون الزبير ، وأبي دجانة ومحمد بن مسلمة ، وابن عفراء ، والبراء ابن مالك ، من الفضل ما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً ، ولم يحضر الحرب يوم بدر ، ولا خالط الصفوف ، وإنما كان معتزلاً عنهم في العريش ومعه أبو بكر !

ثم يقول : « وأنت ترى الرجل الشجاع ، قد يقتل الأقران ، ويحفظ الأبطال ، وفوقه من العسكر من لا يقتل ولا يبارز ، وهو الرئيس ، أو ذو الرأي والمستشار في الحرب ، لأن الرؤساء من الاكتراث ، والاهتمام وشغل البال والعناية والتفقد ما ليس لغيرهم ، ولأن الرئيس هو الخصوص بالمطالبة ، وعليه مدار الأمور ، وبه يستبصر المقاتل ويستفصر ، وباسمه ينهزم العدو .

ويقول : عليّ أن مشى الشجاع إلى الأقران ليس على مانوهم من لا يعلم باطن الأمر ، لأن معه في حال مشيه إلى الأقران أموراً أخرى ، لا يبصرها الناس ، وإنما يقضون على ظاهر ما يرون من إقدام وشجاعة ، فربما كان سبب ذلك الهوج ، وربما كان الفرار والحدأة ، وربما كان الإحراج والحمية ، وربما كان لمحبة النفج^(٢) والأحدوة ، وربما كان طباعاً كطبائع القاسي ، والرحيم ، والسخي ، والبخيل !!

(١) وهم المتشيعون لعثمان ، في مواجهة المتشيعين لعلي .

(٢) النفج : الافتخار .

ثم يقول أيضاً :

« ووجه آخر : إن علياً لو كان كما يزعم شيعته ، ما كان له بقتل الأقران كبير فضل ، ولا عظيم طاعة ، لأنه قد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له : « ستقاتل بعدى الفاكثين ، والقاسطين ، والمارقين » . . فإذا كان قد وعده بالبقاء بعده فقد وثق بالسلامة من الأقران ، وعلم أنه منصور عليهم وقائهم ، فعلى هذا يكون جهاد طلحة والزبير أعظم طاعة منه . . »^(١)

وأنت ترى أن الجاحظ هنا يقيم من قوة بلاغته ، وسطوة بيانه حجة وسلطاناً ، لأمر لأمسك له ، ولا سند . . وأن منطق المغالطة هو الذي قام عليه هذا البناء الشامخ !

ولا ترى ردّاً على « الجاحظ » أبغ ممانّة به عليه أبو جعفر الإسكافي في تفنيده للحجج التي أوردها الجاحظ في رسالته العنانية .

يقول أبو جعفر :

« وكيف يقول الجاحظ : لافضيلة لمباشرة الحروب ، ولقاء الأقران ، وقتل أبطال الشرك ؟ وهل قامت عند الإسلام إلا على ذلك ؟ وهل ثبت الدين واستقر إلا بذلك ؟ أنراه لم يسمع قول الله تعالى : « إن الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » والحبة من الله تعالى هي إرادة الثواب ، فكل من كان أشد ثبوتاً في هذا الصف ، وأعظم قتالاً كان أحبّ إلى الله ، ومعنى الأفضل الأكثر نواباً ، فعلى - عليه السلام - إذا هو أحبّ المسلمين إلى الله . لأنه أثبتهم قدماً في الصف المرصوص ، لم يفرّ قط ، بإجماع الأمة ، ولا بازره قرن إلا قتله . . فموقف الناس في الجهاد على أحوال ، وبعضهم في ذلك أفضل من بعض ، فمن دلف إلى الأقران واستقبل السيوف والأسنة ، كان أثقل على اكتاف الأعداء ، لشدة نكابته فيهم ، ممن وقف في المعركة وأعان

ولم يُقدِّم . . . وكذلك من وقف في المعركة وأعان ولم يُقدِّم ، إلا أنه بحيث تناله السهام والنبل - أعظم غناء وأفضل ممن وقف بحيث لا يناله ذلك .

ثم يقول :

« وأنت إذا تأملت أمر العرب وقريش ، ونظرت السَّيرَ ، وقرأت الأخبار ، عرفت أنها كانت تطالب محمداً صلى الله عليه وسلم ، وتقصد قصده ، وتروم قتله ، فإن أعجزها وفاتها ؛ طلبت علياً وأرادت قتله ، لأنه كان أشبههم بالرسول حالاً ، وأقربهم منه قرىً ، وأشدهم عنه دفعاً ، وأنهم متى قصدوا علياً فقتلوه أضعفوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وكسروا شوكته ، إذ كان أعلى من ينصره في البأس والقوة ، والشجاعة ، والنجدة والإقدام والبسالة !

ويقول أيضاً :

« ولما قلنا من مقاربة علي في هذا الباب لحال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومناسبته إياه ، ما وجدناه في السَّير والأخبار ، من إشفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذره عليه ، ودعائه له بالحفظ والسلامة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ، وقد برز علي إلى عمرو بن ود ، ورفع يديه إلى السماء بحضرة من أصحابه : « اللهم إنك أخذت مني حمزة يوم أحد ، وعبيدة يوم بدر ، فاحفظ اليوم علياً . . رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين » .

وقد حاول الجاحظ في رسالة العثمانية أن يهون من شأن عمرو بن ود ، فيقول : « ثم قصد الناصرون لعلي والقائلون بتفضيله ، إلى ^(١) الأقران الذين قتلهم ، فأطروهم ، وغلوا فيهم ، وليسوا هناك إلا فئهم عمرو بن ود ، ذكروا أنه أشجع من عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث ، وبسطام بن قيس . . وقد

(١) الجار والمجرور متعلقان بالفعل قصد .

سمعنا بأحاديث الفجار وما كان بين قريش ودوس ، وحلف الفضول ،
فما سمعنا لعمر بن ود ذكرأ في ذلك .

وقد تولى أبو جعفر الإسكافي تنفيذ هذا الرأي بقوله : « أمر عمرو بن
ود أشهر وأكثر من أن يُحتجَّ له ، فليتلح كتيب المغازي والسير ، ولينظر
مارثته به شعراء قريش لما قتل . . فن ذلك قول سافع بن عبد مناف بن زهرة
ابن حذافة بن جمح ، يبكي عمر بن ود :

عمر بن عبد كان أول فارس	جَزَعُ الْمَزَارِ ^(١) وكان فارس مثيل
سمعُ الخلائق ماجد ذو مرة	يبغى القتال بشكّة لم ينكل
واقدم علمتم حين ولّوا عنكم	أن ابن عبد منهم لم يعجل
سأل النزال هناك فارسُ غالب	بجنوب سَلَعٍ ليقته لم ينزل
فاذهب عليّ ما ظفرت بمثلها	نحرأ ولو لا قيت مثل المتصل ^(٢)

وقال هُبيرة بن أبي وهب المخزومي يعتذر عن فراره من علي بن أبي طالب
وتركه عمرأ يوم الخندق :

لعمرك ما ولّيت ظهري محمداً	وأصحابه جُبناً ولا خيفة القتل
ولكنني قلبت أمري فلم أجِدْ	لسيفي غناء إن وقفت ، ولا نبلى
فلا تَبْمدَنُ يا عمر حياً وهالِكاً	قد مُتْ محمود الثنا ماجد الفعل
كفتك عليّ لن ترى مثل موقفٍ	وقفتَ على شِلْوِ المَقْدَم كالفعل
فما ظفرت كفاك يوماً بمثلها	أمنت بها ماعشت من زلة الفعل

وقال هُبيرة أيضاً :

(١) قطع الخندق عرضاً
(٢) الأمر للتأني في الشدة .

لقد علمت علياً لوئ بن غالب لفارسها عمرو إذا ناب نائب
وفارسها عمرو إذا ما يسوفه علي ، وإن الموت لاشك طالب
عشيّة يدعو علي وإنه لفارسها إذ حام عنه الكتائب
وقال حسان بن ثابت .

لقد شقيت بنو جحج بن عمرو ومخزوم وتيم ما تقيل
فتى من نسل عامر أزيحي تطاوله الأسنة والنصول
دعاء الفارس المقدام لما تكشفت المقائب والخيول
أبو حسن ، فقمه حساماً جرّازاً لا أذل ولا نكول
فصادره مكتباً مساحباً^(١) على عفراء . . . لا بعد القتيل

* * *

فهذه شهادة قاطعة بما كان لعمر بن ود من مكانة في ميادين القتال ،
حتى يقال إنه كان يعدل بألف فارس !

ولو لم يسجل الشعر هذا الوصف لعمر بن ود لكان اقتحامه ، الخندق
مع نفر القليل من أصحابه ، ومواجهته لجيش المسلمين — لكان في ذلك
البرهان القاطع على أنه الفارس الذي لا يقوم له من الأبطال أحد . . .

يقول أبو جعفر : « وآثاره — يعني عمراً — يوم الفجار مشهورة ، تنطق بها
كتب الأيام والوقائع ، ولـكنه لم يذكر مع الفرسان الثلاثة : عتيبة ، وبسطام
وعامر ، لأنهم كانوا أصحاب غارات ونهب ، وأهل بادية .. وقريش أهل مدينة
وساكنو مدّر وحجر ، لا يرون الغارات ، ولا يهبطون غيرهم من العرب ، وهم
مقتصرون على المقام ببلدتهم وحماية حرّمتهم .

فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء^(١) .

في غزوة الخندق :

ففي هذه الغزوة جمعت قريش أحلافها ، وأجابت بهم على المدينة ، بعد أن تحالفت مع اليهود على أن يكونوا حرباً على النبي ومن معه ، حين ينشب القتال .

وقد رأى النبي أن المسلمين قد أحيط بهم ، فقريش وأحلافها في مواجهة المسلمين ، ويهود وكيدها وراء ظهورهم . . وفي هذا يقول القرآن الكريم : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . . هنالك أبتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً » .

فكان من تدبير النبي أن يحفر خندقاً حول المدينة ، ليكون أشبه بحصن يواجه منه المسلمون قريشاً ، وهم يأمّن من أن ييقتهم اليهود من وراء ظهورهم .

وحين أقبلت « قريش » بجموعها وبأحلافها وجدت الخندق بينها وبين المدينة والمسلمين ، فمكثت حوله ، وأخذت تفكر وتقدر ، ولم يكن بين الفريقين قتال ، إلا أن فوارس من قريش تيمموا مكاناً ضيقاً فاقتحموه بخيلهم ، وهؤلاء الفوارس هم : عمرو بن عبدود ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة ابن أبي وهب المخزوميان ، وضرار بن الخطاب بن مرداس . . .

ودعا عمرو بن ود إلى المبارزة ، فتهيب الناس لقاءه ، ولم يخف أحد إليه ، فقام على ابن أبي طالب يريد منازلته فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : اجلس ، ثم

صالح عمرو وجمال ، وهو يدعو إلى من يبارزه ، والناس على موقفهم منه ، وعلى يهم ، والرسول يقول له اجلس .. ضنا به ، وخوفا عليه ، من لقاء عمرو ، وقام له على آخر مرة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : اجلس .. إنه عمرو ! فقال وأنا على ! فأدناه الرسول وقبّله وعمّه بعمامة ، وخرج معه خطوات كالمدح له ، الفلق لحاله ، المنتظر لما يكون منه ، ثم لم يزل النبي رافعا يديه إلى السماء مستقبلا لها بوجهه ، والمسلمون صموت حوله ، حتى ثارت الغبرة ، وسموا التكبير من تحتها ، فعلموا أن عليا قتل عمرا : فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر المسلمون تكبيرة سمعها من وراء الخندق من المشركين .. ولذلك قال حذيفة بن اليمان : « لو قسمت فضيلة علي بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين أجمعهم لوسعتهم » . وقال ابن عباس في قوله تعالى : « وكفى الله المؤمنين القتال » قال : « بعلي بن أبي طالب »^(١) هذا ، ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى عليا وقد أسرع نحو عمرو بن ود : قال .. « الآن برز الإسلام كله ، للشرك كله ! »

والحق أن مكان علي بن أبي طالب في معارك الإسلام ، ومكانته في الأبطال ، أكبر من أن تختفي وراء دخان التعصب والجدل ، وأن تُعتى عليها مقولات القائلين في مواقف الخصومة والملاحاة ..

ولو أن بطولة علي كانت موضع شك ، أو كان انفراده بها موضع منازعة لما سار الحديث عنها مسير المثل . فكان مما قيل فيه وفي سيفه : « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فارس إلا علي » .

* * *

وما لهذا كان حديثنا عن بطولة علي وشجاعته ، وشدة بأسه ، وإنما

(١) رسائل الجاحظ ص ٦٠

ساقنا إلى هذا الحديث ، ما أردنا تقريره ؛ من أن عليًا كان أكثر المسلمين
شدة على مشركي قريش ، وأكثرم تنكيلًا بهم ، وإفجاعًا لهم في الأبناء
والآباء . والأعمام ، والأخوال ! .

والذي نريده من هذا هو أن نذكر تلك الترات ، وهذه الإحن ، التي
وقعت في القلوب وغمرت النفوس ، في المعارك التي وقعت بين المسلمين ومشركي
قريش ، وما وقع فيها من صرعى . . . وأن نذكر أن تلك الإحن ، وهذه
الترات ، قد صادفت من قريش قلبًا خاليًا من الإيمان بالله ، فتمكن الحزن منها ،
واستمرت الحسرة فيها ، على حين أن ما أصاب المسلمين في أنفسهم ، وفي
أهليهم لم يكن ليجد له مقامًا في نفوس آمنت بالله ، وآثرت الموت على الحياة ،
وطلبت الشهادة وتمجيلها في سبيل الله .

هذه الإحن وتلك الترات ، التي وقعت في نفوس قريش المشركة .
قد ظلت حية فيها بعد أن دخلت في الإسلام هذا الدخول العام ، الذي كان
عن قهر أكثر منه عن نظر واقتناع !

وسنرى آثار ذلك وشواهد ، حين يمتحن المسلمون بقلك الفتن التي أطلت
برءوسها بعد وفاة النبي ، وحين تقف قريش في وجه بني هاشم وحين تذودهم
عن الخلافة . ثم نعالهم بسيوفها ، فنقتل شبيبها وشبانها ، وصبيانها ، ونشرّد
بعضائهم وحرائرهم ، وكأنها إنما تثار بهذا لقتلاها في بدر وأحد ، وحسبنا أن
تذكر هنا مصرع الحسين وآل بيته في كربلاء ، ثم مصرع آل البيت في موقعة
الطف ، وما تلا ذلك من وقائع ! .

المبحث الثاني
حياة علي
في صحبته من بعد الرسول

الباب الأول

مع أبي بكر وعمر

الذراع الخفيف :

كانت وفاة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - حدثاً مهولاً مذهلاً ، دارت به رؤس الملا الذين عاشوا في صحبته ، وفزعت له أفئدتهم ، وانفطرت منه قلوبهم !

لقد كان صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على يقين من أن رسول الله مدعوٌ يوماً إلى ما يُدعى إليه الناس ، وأنه ميت ، كما أنهم ميقون . ! فهذه حقيقة مقررة .. والرسول يبلغها في آيات القرآن الكريم ، التي كانت تنزل عليه : « إنك ميت وإنهم ميتون » . . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ » . . « كل نفس ذائقة الموت » !

يعرف صحابة رسول الله والمسلمون أن رسول الله الذي يعيش معهم ، سيفارق هذه الحياة يوماً ، حين يحىء أجله . . ولكن أحداً منهم لم يكن يتربص هذا اليوم ، ولا ينظر إليه ، ولا إلى ما بعده ! إذ كان حبهم للرسول ، وتعلقهم به ، وإفناء وجودهم فيه ، لا يجعل لهذا الخطر الأسود سيلاً إلى حياتهم القائمة في ظل النبي .. تلك الحياة التي نعموا بها ، واطمأنوا إليها !

وحسبنا أن نذكر هنا ، أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد ذهل في هذا اليوم عن كل هذه الحقائق التي أعلنها القرآن ، فأنكر على القائلين

قولهم : إن النبي قد مات ! وجاء إليهم صائلاً بسيفه ، وهو يقول : « كذبتُم !
والله ما مات . . وإنما ذهب كما ذهب موسى إلى ربه . . . »

حسبنا هذا ، لنعلم مدى الصدمة التي أصابت المسلمين ، في هذا اليوم الذي
علموا فيه أن نبيهم قد أدخل مكانه من هذه الدنيا !

وندع النظر فيما أصاب المسلمين من كمد ، وما وقع في نفوسهم من حسرة
والم ، يوم وفاة النبي ، وننظر فيما نزل بهم من حيرة وقلق ، وهم يواجهون
الحياة ، بغير هذا النور ، الذي كان يكشف لهم الطريق ، ويهديهم سواء
السبيل !

فالمسلمون في محبة الرسول ، كانوا في اختبار دائم ، وتمحيص متصل . .
يتعهدهم رسول الله ، واحداً ، واحداً ، ويتقدم حالاً حالاً . . فلا يلزم
بأحدهم شبهة إلا كشفها ، ولا تنزل به غاشية إلا جلاها ، ولا تحيك في صدر
أىٍّ منهم تزغة ، أو يطرقه وسواس ، إلا كان عند الرسول دواؤه وشفاءؤه .
وأكثر من هذا . .

فقد كان الرسول - بما أراه الله - يرى من أصحابه مالا يروون ، فيدخل
عليهم في أنفسهم ، وفي مسرى مشاعرهم ، ومسارب تفكيرهم ، فيعمر قلوبهم
بالإيمان ، ونفوسهم بالسكينة . . لأنهم - وهم مع النبي - في ضمان من يطب
لهم ، ويكشف المستور من عليهم !

أرأيت إلى من يسبح في الماء وفي صحبته قارب النجاة ، وبين يديه من يخف
لنجدته ، إذا عرض له عارض من ضعف أو وهن ؟ إنه - والحال كذلك -
يسبح وملء جوانحه طمأنينة أنه لن يفرق ، ولن يبتلعه اليم . . وهو بهذا
الشعور يقطع المسافات الطويلة بخنان ثابت ، وقلب مطمئن ، ونفس ساكنة ،
وقد يبلغ الغاية دون أن يحتاج إلى من يساعد أو يعين !

ثم أرايت لو أن هذا السباح الماهر قد التفت على حين غفلة ، فلم يجد إلا نفسه
والماء ، وليس نعمة من يجيب إذا دعا ، أو ينفذ إذا فغر البحر فاه لا ابتلاعه ! ؟
إنه لاشك سيضطرب ، بل وينزعج ! وربما ذهب نفسه شعاعاً ، فهلك خوفاً
وفزعاً ، قبل أن يهلك ضعفاً وعجزاً .

حقاً . . إن المسلمين ، إذ ذهب عنهم رسول الله ، فقد ترك في أيديهم
كتاب الله ، وسنة رسول الله . . ولكن ذلك هو زاد المسلمين الذين لم
يصحبوا الرسول ، ولم بعاشوه ، ولم يستظلوا بظله الظليل . . أما الذين كانت
لهم مع الرسول صحبة ومعايشة ، ولهم إليه سَكَنٌ أو نظر ، فإن الأمر مختلف !
إذ كان لهم إلى هذا الزاد الموروث ، زاد آخر ، كانوا يطعمون منه ، ويعيشون
عليه ، بما كان يسرى إليهم من عرف الرسول ، وشذى أنفاسه الطاهرة !

وشتان بين أن يتعرف المرء على أدواء نفسه ، وعلل روحه ، وأدران قلبه ،
وأن يسوق إليها ما في كتاب الله من دواء ، وما في سنة الرسول من هدى
ونور ، وبين أن يتولى ذلك عنه رسول من عند الله ، قد جعل الله إلى يديه
طبّ الأرواح ، وشفاء النفوس والقلوب !

هذا في محيط الصحابة ، وفي خاصة أنفسهم !

أما في المجتمع الإسلامي ، فإن الأمر كان أعظم أترا ، وأشدّ خطراً !
لقد انقطع بموت الرسول ، النور الذي كان يصل الأرض بالسماء ، والذي
كان يكشف ما يحيك في صدور المنافقين ، وما يتفاجى به أهل المكر والسوء !
فيفضح أمرهم ، وينبه المسلمين إلى مواقع الخطر ، ومواطن السوء !

وهذا الكشف السماوي في حياة النبي ؛ قد جعل كثيراً من الناس
يُصلحون من أنفسهم ، ويميتون فيها وساوس الشر ، ومطالع السوء ، فيقبلون
على الإسلام بقلوب سليمة ، ونيات مخلصه ، كما أنه قد دحل كثيراً من أهل الضلال

والنفاق على أن يعيشوا في حذر وإشفاق من أن يفضح الله أمرهم ، ويرى الرسول والمؤمنين ما يبيتون وما يدبرون !

«يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ . . . قُلِ اسْتَهِزُّوْا ، إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ^(١)» .

وإذ قد ارتفع هذا بوقاة الرسول ، فقد خَلَّى بين الناس وبين أنفسهم وما فيها: من إيمان لم يتلبس بنفاق ، أو نفاق قد تلبس بإيمان ، أو نفاق خالص ، لم يخالطه شيء من إيمان .

وهكذا أَلْقَتِ النفوس بما فيها من خير وشر ، وجرى الناس على سجاياهم وما يحملون للإسلام من حب أو بغض ، ومن إخلاص أو مداهنة ، وبدأت الجماعة الإسلامية تأخذ من هذا وذاك ، وأخذ المسلمون يطعمون من حلوى الحياة ومررها ، حتى كانت تلك الفتن التي اضطرب لها المجتمع الإسلامي كله !

* * *

ودع أمر الخلاف في الخلافة بعد وفاة الرسول ، فإنه ما كادت الفتنة تطل برأسها ، حتى عاجلها المسلمون بإيمان وحكمة ، فقصوا عليها في مهدها ! ولا تذكر الرَّدَّةَ والخطر الذي كان يتهدد الإسلام والمسلمين منها ، فإنها - على ما كانت تخطو عليه من بلاء عظيم ، وخطر جسيم - أهون هواناً وأضعف ضعفاً مما ابتلى به المسلمون بعد ذلك ، مما سنعرض له بعد قليل !

فالرَّدَّةُ كانت انحرافاً سافراً عن الجماعة الإسلامية ، ولم تكن في صميمها حرباً على الدين ولا خروجاً عليه ، ولهذا رأى بعض الصحابة ومنهم عمر ، أن يُقْبَلَ منهم الإسلام ، مع التجاوز عن أخذ الزكاة بيد السلطان ، وتركها ذمةً يحتملها الإنسان في ضميره ، كما يحتمل الصوم والصلاة !

وأباً كان الأمر ، فقد صح عزم أبي بكر والجماعة الإسلامية على ردِّ تلك الجماعة الشاردة عن طريقها ، وضمَّها إلى الجماعة . . . وقد كان ، فسكنت

الماصفة بعد هبوبها ، وجرت سفينة الجماعة الإسلامية بعدها في ربح رُخاء .
ولكن الخطر الذي ظل كامناً يعمل في كيان المجتمع الإسلامي ، هو
فقدان هذا الميزان الحساس ، الذي كانت تنضبط على كفتيه حسنات المرء وسيئاته ،
والذي كان يعرف به الإنسان نفسه ، وأين مكانه في المحسنين أو المسيئين . .
لقد ذهب ذلك ب وفاة الرسول ، وترك الناس لأنفسهم ، وما انتفعوا به من
صحبة الرسول وهديه .

إنها - على أية حال - تجربة جديدة للمجتمع الذي صحب الرسول وعاش معه . .
ثم أصبح وقد صحب الحياة وحيداً ، في غير صحبة الرسول !

فالمسلمون الذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان ، ونصّحو الله ورسوله ، لم تعد معهم
تلك المرأة الصافية ، التي كانوا يروّون فيها وجوههم على صورة واضحة محققة . .
فزايهم من أجل هذا ، ذلك الاطمئنان العميق الذي كانوا يعيشون فيه ،
إذ كانوا بمعنى من يراهم ، ويكشف الضرّ عنهم ، ويدفع السوء إن ألمّ بهم .

فهذا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قد دخل عليه - بعد وفاة الرسول -
قلق ملاً نفسه ، من أن يكون على غير الجادة ، أو أن يكون عرض له عارض .
أو اندس إليه داء يفتال إيمانه ، وهو لا يدري ! فكان يمضي إلى حذيفة بن
اليمان ، ويقول له : يا حذيفة .. أنت كنت صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وكنت تعرف المنافقين وتمهدهم ، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فانظر ما في من اللفاق ، فعرفني به ! ! فيقول له حذيفة : والله يا أمير المؤمنين
لا أعلم فيك نفاقاً ؛ فيسكى حذيفة ، ويسكى عمر ، ولا يزالان يكيان حتى
يفشى عليهما . «

وكذلك كان شأن كثير من صحابة رسول الله . . كانوا على خشية دائمة ،

وقلق متصل ، من أن يكون أحدهم قد مال ميزانه ، وتغير حاله ، دون أن يعلم من أمر نفسه شيئاً !

أما المنافقون ومن في قلوبهم مرض ، فقد أمِنوا الرقيب الراصد ، الذي كان يكشف عن خائفة الأعين وما تخفى الصدور ، لجعلوا يغدون ويروحون بين المسلمين ، يتربصون بهم الدوائر ، ويتحينون فيهم الفرص ، ويبيتون لهم الشر والعدوان .

ومع امتداد الزمن ، ومع الدنيا العريضة التي أقبلت على المسلمين ، انفسح للناس مجال التنافس على المال والجاه والسلطان ، ودخلوا في تجربة قاسية ، وفي صراع عنيف ، مع تلك الفتن التي فتحت عليهم أبوابها ، وأطلت من ورائها الأطماع والشهوات ، في صور وأشكال ، من الإغراء الصارخ ، والتحدى الملح العنيف ، الذي لا يدفع إلا بقلوب رشح فيها للإيمان ، وبنفوس حلت عزماً أشبه بعزم الرسل والأنبياء .

وكانت معركة . !

وكان كراً وفرّاً . !

كانت معركة بين المقبلين على الدنيا ، المستجيبين لها ، المتطلعين إلى ما ألفت به إليهم من مال وسلطان ، وبين أولئك الذين ارتفعوا بأنفسهم عن هذا الأفق المحدود ، وأبوا أن ينزلوا عن تلك الآفاق الرحبية العالية ، التي أطلعهم الرسول عليها ، فأشرفوا منها على عالم الحق والخير والنور !

في خلافة أبي بكر - رضى الله عنه - لم تكن هذه المعركة قد وضحت معالمها ، واستبان وجه كل فريق فيها ، إذ لم تكن الحياة الجديدة التي سيلتقي بها المسلمون قد ألفت إليهم كل ما عندها . . وكان المسلمون في شغل بالمعارك الدائرة في جبهات متعددة . . في الجزيرة العربية مع المرتدين ، وفي العراق مع الفرس ، وفي الشام مع الروم !

أما في خلافة عمر ، فقد كان المسلمون فرغوا أو أوشكوا أن يفرغوا من هذا كله ، ووقع لأيديهم ما كانت تفيض به العراق والشام ومصر من أموال كثيرة ، وخيرات وفيرة ، لاعهد للعرب بها .. وهنا تحولت بالفساد الأحوال ، واختلطت عليهم الأمور ، شأن كل جديد يطلع عليهم ، ويفزو قلوبهم وعقولهم !

وقد لمع عمر هذه الهزة التي وقعت في المجتمع الاسلامي ، ورأى يظهر الغيب ما يستقبل المسلمين منها من بلايا ومحن .. فعالج من هذا الأمر ما وسعته قوته ، وحكمته ، وشدته على نفسه وأهله ، وقد آتى في هذا الباب بما تمجز عنه الجيوش الكثيفة ، في ميادين القتال !

وأتى لرجل غير عمر بن الخطاب يستطيع أن يصدّ يديه أبواب هذه الفتن المتدافعة تدافع السيل ، من كل وجه ، وفي كل اتجاه ! ؟

لقد وقف عمر وقوف الجبل الشامخ في وجه العواصف العاتية ، فأخذ بحلّاقم الفتن ، وأمسك برقاب المفتونين ، فما كاد يفلت منه أحد ، على كثرة المتحفزين للخروج من هذا الحصار العنيف !

فلما أخلى عمر مكانه من هذه الدنيا ، وجاء عثمان - رضى الله عنهما - كان كثير من المسلمين قد لابسوا الحياة الجديدة ، وملثوا أيديهم منها ، وتربصوا بعمر ، وانتظروا أيامه الباقية ، فكان على عثمان - رضى الله عنه - أن يلقي هذه الشاعر المكظومة المزججة ، وأن يجرد لها حملة من أمثال عمر ابن الخطاب - إن كان في الناس من يشبه عمر بن الخطاب - وما نحسب أن هذا كان يمكن أن يصدّ هذا الزحف ، أو يوقف ذلك التيار ، الذي إن لم يجد منفذاً ينفذ منه ؛ حطّم كل سدّ يقف في وجهه ، وجرفه معه ! إنه طور من أطوار الحياة ، وحركة من حركات الزمن ، ما كان لقوة بشرية أن تقف لها

أو تعمّق سيرها ، أو تحوّل طريقها « سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ اسْطِغْثًا بِهَا »^(١) .

يقول ابن قتيبة ، في كتابه « الإمامة والسياسة » :
« وكان عمر رجلاً شديداً ، قد ضيق على قريش أنفاسها ، فلم ينكأ أحد معه من الدنيا شيئاً ، إعظاماً له وإجلالاً ، وتأسياً به واقتداءً !

« فلما وليهم عثمان ، ولي رجل لين !
« قال الحسن البصري : « شهدت عثمان ، وهو يخطب ، وأنا يومئذ راهقت الحلم ، فما رأيت قط ذكرًا ، ولا أنثى ، أصبح وجهها ، ولا أحسن نُضْرَةٍ منه . . . فسمعتة يقول :

« أيها الناس اغدوا على أعطياتكم » . . . فيأخذونها واقية .
« أيها الناس اغدوا على كسوتكم . . . » فيغدون ، فيُجاء بالحلل ، فتقسم بينهم . . . حتى والله سمعت أذناني : « يامعشر المسلمين ، اغدوا على السَّعْنِ والعسل » فيغدون ، فيقسم بينهم السمن والعسل !
« ثم يقول - أي عثمان : « يامعشر المسلمين .. اغدوا على الطيب ! » فيغدون ، فيقسم بينهم الطيب ، والمسك ، والعنبر ، وغيره ! !

« والعُدَّان - والله منفيّ ، والأعطيات دَارَةٌ ، والخير كثير .. وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنًا . . . مَنْ لَقِيَ فِي أَى الْبِلَادِ فَمِنْ أَخَوِهِ ، وَالْيَفْسُ ، وَنَاصِرُهُ . فلم يزل المال متوافراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها وريقاً ، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار ، وبيع البعير بألف ، والنخلة الواحدة بألف ! !
« ثم أنكر الناس على عثمان أشياء .. أشراً وبَطَرًا .

(١) سورة الفتح ٢٣ .

(٢) من كلام الحسن البصري .

« قال ابن عمر : لقد عيّبت عليه - أي على عثمان - أشياء ، لوفعلها عمر
ما عيّبت عليه ! ! »^(١) .

لقد تغير الناس ، بعد أن ذاقوا طعوم هذه الحياة الجديدة ، وبعد
أن أسرف بعضهم على نفسه إسرافاً شديداً ، فجمل يقضم ويخضم ، حتى
أصيب بالكِفْظَةِ والقُخمة ، فكان يفكر بيطنه أكثر مما يفكر بعقله ،
وكان حسابه لجسده أكثر من حسابه لروحه وقلبه !

وطلع على عثمان - رضى الله عنه - من هذه الحال ، التي لبست المسلمين ، ما لم
يكن يحتسب ، فهبت عليه من كل أفق ريح الفتنة ، وانبعث له من بين تلك
الجماعات من يمدّ إليه يده بالسيف ، فيريق دمه الطهور على كتاب الله ، وهو
يرتل آياته ، في مصحفه الذي ضمه إلى صدره !

وجاء على - كرم الله وجهه - بعد عثمان ، فاستقبل هذه الفتنة ، وقد شبَّ
ضرامها ، واندلع لهيبها ، واجتمع الناس عليها : بين مذهول لا يدري ماذا يعمل ؟
أو مقهور مستغيث ، يرى أنه أعجز من أن يُغنى في هذا الموقف أيّ غفاء ! وبين
مستخيفٍ مستهتر ، أو متربص متحفز .. ينتهر الفرصة ، ويتربص السانحة . !!
وقليل أولئك الذين واجهوا الموقف ، وألقوا بأنفسهم في هذا البحر
اللاجئ ، لينقذوا السفينة الموشكة على الفرق !

وها هو ذا على - كرم الله وجهه - يضع يده على تلك السفينة المضطربة
المهائج ، ويعمل جاهداً على أن يدفع بها بعيداً عن متلاطم الأمواج ، وأن
يسلك بها مسالك الأمن والسلامة !

وأرانا قد طوبنا الأحداث طيًّا ، واختصرنا الطريق اختصاراً مُسرِّفاً ،
إلى خلافة على بن أبي طالب .

وفي الأحداث التي طويناها ، وفي الطريق الذي اختصرناه ، أشياء كثيرة
لاغنى لنا عنها ، في التعرف على موقف الإمام ، في معالجة الفتنة ، وفي لقاء
الأحداث والأهوال التي ، قدّر له أن يلقاها من اليوم الأول لخلافته !
وإذن فلا بأس من تفصيل ما أجملنا ، وبسط ما طويئنا .

* * *

ابن أبي طالب بعد النبي :

لحق النبي بالرفيق الأعلى ، بعد أن بلغ رسالة ربه ، تاركاً المسلمين يقيمون
مجتمعهم على الوجه الذي يرضون ، وبين أيديهم كتاب الله ، وسنة رسوله ،
وما كان لهم فيه من أسوة حسنة .

والذي لاشك فيه أنه صلى الله عليه وسلم لم يوص لأحد بالخلافة من بعده
ولم يعين شخص الخليفة الذي يقوم في الناس مقامه ، بل جعل ذلك شأنًا من
شئون المسلمين ، يتولونه هم بأنفسهم ، ويُنفذونه بمشيئتهم ، على الوجه الذي
يرون أنه أقوم لهم ، وأقرب إلى صلاح دينهم ودنياهم جميعاً !

ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى الخلافة ، أو شخص
الخليفة ، أمراً من أمر الدين ، وشأنًا من شئون الرسالة ، لما تركه من غير بيان
واضح ، وقول صريح ، يقع من المسلمين جميعاً موقع اليقين ، فلا يختلفون فيه ،
ولا يتأولون له . . شأنهم في ذلك كشأنهم مع مقررات الرسالة الإسلامية
وأحكامها !

وهذا الذي كان من ترك الرسول لبيان الخلافة والخليفة ، هو ما تقضى به
طبيعة الأشياء ، وتجعله أمراً لازماً ، لا يقوم مقامه شيء آخر !

فلو أن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أوصى بالخلافة ، ورسم

نظام الحكم الذى تقوم عليه ؛ لأغنت المجتمع الإسلامى ، ولألزم المسلمين موقفاً واحداً فى الحياة ، لا يتحولون عنه أبداً !

وكيف ؟ والحياة متطورة ، والمجتمعات الإنسانية خاضعة لهذا التطور ، مستجيبة له ، متفاعلة معه . . . وإلا فهو الجمود والفناء !

فكان من الحكمة أن خَلَّى الرسول بين الناس وبين الحياة ، يختارون لأنفسهم النظام السياسى أو الاجتماعى ، الذى يناسب ظروفهم ، وأحوالهم ، شأنهم فى هذا شأن مايتخيرون من ألوان الطعام ، وأشكال الأزياء ، وصور المنازل ، وتخطيط المدن ، وغير ذلك مما يعالجون من شئون الحياة ، فى كل زمان ومكان !

ثم لو سلمنا أنه كان من الممكن فرض الخلافة شرعاً ، وتحديد صورتها - أفكان من الممكن التحكم فى اختيار شخص الخليفة ، وتعيين صفته ، والدلالة عليه بذاته ؟ وهب أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أوصى بالخلافة من بعده لأحد صحابته ، وتلقى المسلمون هذا الأمر بالطاعة والإذعان ، فلم يقع بينهم خلاف فى شأن هذا الخليفة - فمن الذى يختار الخليفة الذى يخلف هذا الذى اختاره النبى ؟ وهل يتلقى المسلمون هذا الاختيار بالرضا والتسليم كما تلقوه من النبى ؟

لقد اختار أبو بكر عمر من بعده ، والعهد بالنبوة قريب ، فما سلم الناس له بهذا من أول الأمر ، بل راجعوه واعتبوا عليه ، حتى قام فيهم وخطبهم ، بما أَرْضَى وأقنع ! ثم كان من سيرة عمر وسياسته الحازمة العادلة ، ما أكّد هذا الرضا ، ووثق هذا الاقتناع .

وقد كان من الممكن أن يسمى الرسول عدة أشخاص للخلافة من بعده .. فلان ، ثم فلان ، ثم فلان .. ولكن ذلك يوقع الناس فى فتنة ، إذ كان معنى هذا أن الخليفة الثانى لا يموت مادام الأول حياً ، وأن الثالث لا يموت إلا بعد

موت الثانى وهكذا .. إذ أن الأمر لا يقع هنا إلا على الوجه الذى رسمه الرسول
وبيّنه ، لأنه إنما ينطق بما يوحى إليه : « وما ينطق عن الهوى »

ثم ماذا بعد ذلك ؟

كيف يمكن اختيار سلسلة من الخلفاء لثلاث أو أوف السنين المقبلة ؟ وأين
هم هؤلاء الذين يختارون ، وهم لا يزالون فى أطواء الزمن البعيد ؟
أذلك مما نحتمله الحياة ، ويطمئن إليه الناس ؟

إنه أمر خارج عن سنن الطبيعة البشرية ، مصادم لما يجرى عليه الوجود
الإنسانى !

وإذن فلا جدوى من أن يعين الرسول - صلوات الله وسلامه عليه -
شخص الخليفة الأول ، ثم الثانى والثالث من صحابته .. فإن الأمر صائر بعد
هذا إلى الموقف الذى تركهم فيه الرسول من غير أن يختار لهم .. فهم - إن
عاجلاً أو آجلاً - مطالبون بأن يختاروا الرجل الذى يقيمونه عليهم ، ويدينون
له بالطاعة والولاء !

هذا ، ويرى ابن حزم ، غير هذا رأى الذى رأيناه ، فى ترك النبى صلى
الله عليه وسلم ، أمر الخلافة من بعده ، لاختيار المسلمين ، وتقديرهم .

يقول ابن حزم : « وكان فى تلك المَرَضَةِ - أى مرض الرسول الذى توفى
فيه - قال لعائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها : لقد هممتُ أن أبعثُ إلى أبيك
فأكتبَ كتاباً ، وأعهد عهداً ، لثلاثمئة مَئَمَنَةٍ ، أو يقول قائل ١١ ويأبى الله
والمؤمنون إلا أبا بكر ١١ »

ثم يعلق ابن حزم على هذا بقوله :

« فلم يكن - والله أعلم - الكتابُ الذى أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن
يكتبه ، فلا يُضَلُّ بعده ، إلا فى استخلاف أبى بكر .

« وقد ظهر مغيبة ذلك ، وكاد الناس يهلكون في الاختلاف فيمن يلي أمر المسلمين ، وفي الذي يلي من بعد من قام بعده ، وإلى زمن عليّ ، والأمر كذلك فيمن بعد عليّ !

ثم يقول : « وبالجملة ، فالكتاب كان رافعاً لهذا النزاع ، ولولم يكن فيه إلا الاستراحة من سفك الدماء ، في أمر عثمان ومن بعده ! فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى ، فقد هلكت في هذا طوائف ، وتماذى ضلالهم إلى اليوم^(١) . ونعجب أشدّ العجب إذ يجيء من ابن حزم هذا الرأي ، وكيف ساغ لعقله الكبير ، ورأيه الحصيف أن يقبل هذا التصور الذي تصوّره ، في شأن الكتاب الذي يقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم قدّم بكتابته ؟

أفيتصور - بحال - أن الرسول صلى الله عليه وسلم يكتب للمسلمين كتاباً يبين لهم فيه أسماء وأشخاص الخلفاء من بعده ، جيلاً بعد جيل ؟ ثم أيتصور أن يكتب الرسول كتاباً لا يضل المسلمون بعده أبداً ؟ وهل عصم كتاب الله كثيراً من المسلمين من الفتنة والضلال ؟ إننا نشك كثيراً في الخبر الذي يروي قصة هذا الكتاب !! إن كتاب الله ، وسنة رسول الله - علي ما فيهما من هدى ونور - ليس فيهما سلطان قاهر يمسك بمن يستحبّ العمى عن الهدى ، وإلا لما ضلّ ضال ، ولا زاغ زائع !! .

الامتحان الأول :

وإذن فقد كان مالا بدّ أن يكون !

فواجه المسلمون أول امتحان لهم ، بعد أن أخلى الرسول مكانه فيهم ، فكان عليهم أن يختاروا لأنفسهم أميراً يضبط أمورهم ، ويسوس حياتهم ، فذلك أمر تفرضه الحياة ، ويفتضيه نظام الاجتماع ، قبل أن تجيء به شريعة

(١) جوامع السيرة ، لابن حزم ص ٢٧٤ .

السماء .. فإن جاءت شىء من هذا ، فإنما تجىء لا للدعوة إليه ، وإنما لتجلية وجهه ، واكشف ما قد يتلبس به من شر ، وبغى وعدوان !

فالطعام والشراب أمران لازمان للحياة ، لا تقوم الحياة في الأحياء إلا بهما ، ولهذا لم تدعُ الشرائع السماوية الناس إلى أن يأكلوا ويشربوا ، وإنما دعاهم إلى أن يأكلوا حلالاً ، وأن يشربوا طيباً ، وألا يسرفوا ، أو يقتروا .. وفي هذا يقول الله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . » وليس الأمر هنا بالأكل والشرب ، دعوة إليهما ، وإنما الدعوة إلى ترك الإسراف فيما يأكل الناس وفيما يشربون !

وليس يندو أمرُ الخلافة أو غيرها من أنظمة الحكم - في نظرنا - أن يكون كالطعام والشراب ، بالنسبة لمجتمع الإنسان ، لا يستقيم وجود الناس إلا به ، ولا تنظم حياتهم إلا عليه .

وفي اليوم الذي توفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن يدفن ، اجتمع المسلمون ليقيموا عليهم أميراً ، يقود ركبهم المتحرك في الحياة .. إنهم لم يطبقوا الحياة ليوم أو بعض يوم ، من غير أن يكون لهم أمير ، هو منهم بمنزلة الرأس من الجسد !

وفي سقيفة بني ساعدة ، اجتمع الأنصار ، لينظروا في هذا الأمر ، وليروا رأيهم فيمن يختارونه ، ليكون على رأس المسلمين ، بعد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، الذي دعاه ربه إليه ، واختار له ما عنده .. إذ قدّر الأنصار أن الإسلام قد آوى إليهم ، وأن رسول الله قد أذن له الله بالهجرة إلى ديارهم ، ليعتخذها موطناً له ، ومطعماً لرسالته ! فهم إذن أولى الناس بهذا الفضل الذي ساقه الله إليهم . وأحق الناس بأن يخلقوا رسول الله على الناس من بعده .

أما المهاجرون ، فلا نحسب أنهم كانوا ينظرون في هذا الأمر قبل أن

يفرغوا من شأن الرسول ، واسكن الأنصار في سقيفة بني ساعدة لقتلهم إلى ما لهم من حق ، يزيد الأنصار أن يذهبوا به . . فكان أن أسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ، إلى هذا الاجتماع ، واستمعوا إلى ما يقول الأنصار ، وأسمعوا الأنصار رأيهم فيما قالوا ، وكان بين الفريقين أخذ ورد ، ومجادلة ومصاولة ، حتى لقد كاد يقع الشرّ بينهما ، واسكن الله لطف بالمسلمين ، فقاموا جميعاً إلى السلم والمافية ، وانتهى الاجتماع بالبيعة لأبي بكر بالخلافة ، وقد سلم الأنصار له - عدا سعد بن عباد - كما بايعه المهاجرون ، عدا بني هاشم ، ونفر قليل معهم من قريش !

وإنه لابد من وقفة هنا ، عند هذا الاجتماع الذي دعا إليه الأنصار في لهفة وعجل ، حيث ينظر كثير من الناس إلى اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة غداة وفاة الرسول ، نظرة حيرة ، وعجب ، ودهش . . إذ كيف يفرغ المسلمون لأنفسهم ، وكيف يسوغ لهم نظر في أى شأن من شئونهم ، والنبي - صلوات الله وسلامه عليه - لا يزال مسجى في فراش الموت ، لم يقض بعد ما يجب له من حق الميت على الحي ؟ فكيف والميت هو رسول الله ، الذي تعلقت به حياة كل مسلم ، وانتظم بيده شمل المسلمين ؟

الأمر لا يعدو أحد فرضين : فإما أن يكون ما يحمل المسلمون للنبي من مشاعر الحب والولاء ، شيئاً على غير تلك الصفة التي يدعو إليها الدين ، حيث لا يكمل إيمان المؤمن حتى يكون حبه لله ورسوله فوق كل حب ، وفوق كل من يحب وما يحب . !

وإما أن تكون أخبار يوم السقيفة لم تقع على تلك الصورة ، التي نقلها التاريخ ، فلم يجتمع الأنصار غداة وفاة النبي . . بل كان اجتماعهم بعد أن مضى على ذلك الحدث أيام وأيام !

والقول بأن في حبّ المسلمين - وخاصة الأنصار - للنبي ، شيئاً من الفتور ، أو الضعف ، هو عدوان صارخ على الحق ، وتحدّ جريء للواقع ، وتطاول سفيه على المثل العليا ، في أشرف منازلها ، وأكرم مواقعها . !

فهذا القول مردود ، يدفعه الواقع المائل ، وتدحضه الشواهد الناطقة ! لا يحتاج الأمر في ذلك إلى شرح وبيان ، إذ كان أوضح من كل شرح ، وأجلى من كل بيان !

وكذلك الشأن في يوم السقيفة - فقد تظاهرت الأخبار ، وتواتت الأدلة على أنه وقع قبل أن يفرغ الناس من أمر النبي ، وقبل أن يدفن ! فما تأويل هذا ؟

أو حقاً كان من الأنصار والمهاجرين ما كان في هذا اليوم من حديث عن الخلافة ، ومن تنافس عليها ، وتنازع فيها . . والنبي حيث هو ، لا يشغل به وبشئون منواه إلى قبره ، إلا أهله الأدنون ، وإلا أزواجه ، ومن كان في خاصة خدمته ، ممن هو أشبه بأهله ! ؟

ونعم .. كان ذلك !

ولكن .. لاعتن تقصير في حقّ النبي ، ولا عن استخفاف بالنازلة التي نزلت بالمسلمين من هذا الحدث العظيم ، وذلك الخطب الجسيم ! بل إن هذا الذي كان من المسلمين في سقيفة بني ساعدة ، لدليل على أن وقع هذا المصائب على المسلمين كان فوق أن تحتمله النفوس ، وأكبر من أن تستمك معه العزائم ! فلقد زلزل المسلمون بهذه النازلة زلزالاً عظيماً . وأشرف بهم المصائب على خطر داهم ، يهدد هذا البنيان الذي أقامه الرسول ، ويكاد يفقره لا ابتلاع هذا التراث العظيم ، الذي قضى الرسول حياته كلها في السهر عليه ، والجهاد من أجله . . !

فإذا أصيب المسلمون في رسول الله ، وإذا رزوا في افتقاد شخصه من

بينهم ، فإن المصاب لمعظم ؛ وإن الرزء ليشدد إذا هم ضيعوا ما أودع الرسول في أيديهم من أمانات . وما ترك فيهم من خير . وخلف لهم من تراث !
وإذا فلم تسكن هذه الالهفة ، وهذا البدار ؛ إلا حرصاً على الرسالة النبوية .
وإلا تضميداً لهذا الجرح الفائر الذي أصيبت به الرسالة .. بموت صاحبها !
وأمر آخر .

وهو هذا الشعور الذي كان يعيش في كيان المسلمين والنبي مازال في بيته ،
وبين أهله ، لم يغيب شخصه عنهم ، ولم يفارقهم الفراق البعيد بعد .. فإنه وإن
بكن - صلوات الله وسلامه عليه - قد مات ، فإنه موته إلى تلك الساعة لم يقع
في شعور المسلمين موقع اليقين ، وإن قبَلتْه عقولهم ، ضائقة به ، كارهة له .
هذا الشعور ، قد أمل على المسلمين أن يجتمعوا على عجل ، وأن يبادروا
الأمر وشخص الرسول في أعينهم ، ليحملوا الراية بين يديه ، وليشهدوه ما يرى
منهم من قيامهم بأمره ، الذي دُعا إليه ، وندبهم لنصرته ، والجهاد في سبيله .
وعن هذا الشعور كان سبقُ الأنصار إلى هذا الاجتماع ، إذ كانوا هم الذين
تلقوا رسالة السماء من النبي ، وجعلوا مفارسها في ديارهم ، فحموها بسيوفهم ،
وقدوها بأموالهم وأنفسهم . !

وإنه لعزيز عليهم - والأمر كذلك - أن تعرض هذه المفارس لعارض
يعرض لها ، أو آفة تحل بها بعد الرسول ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وأن
تسقط راية الإسلام ، ثم لا ترى الأعين من يقوم لها ، ويجمع المسلمين عليها .
وعلى هذا الشعور ، التقى المهاجرون مع الأنصار ، وحملوا الراية من يد
الرسول قبل أن يغيب عنهم شخصه ! !
على والخلافة :

لم يشهد على - كرم الله وجهه - مجتمع السقيفة ، الذي كان بين الأنصار
والمهاجرين ، والذي انتهى باختيار أبي بكر - رضى الله عنه - خليفة على

لمسلمين ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إذ كان مشغولاً بأمر الرسول ، هو وجماعة من بنى هاشم ، تولّوا غسله وتكفينه ، وإنزاله في قبره .
ولو شهد على اجتماع السقيفة لكان له فيه مقال ، ولربما أخذت الأمور في هذا اليوم اتجاهاً آخر غير اتجاهاها الذي سارت فيه !
ومن يدري ؟

فلعله لو أن عليّ وبنى هاشم شهدوا هذا الاجتماع لوقع بينهم وبين المهاجرين نزاع ، فيمن هو أحق بهذا الأمر بعد النبي !
ولو وقع نزاع أو توقف في هذه اللحظة الحرجة الحاسمة للأسلم الأنصار بما سموا به المهاجرين ، حين رأوهم جبهة واحدة ، وكلمة واحدة !
وهكذا أراد الله للمسلمين أن يلتقوا على كلمة سواء بعد وفاة الرسول ، وأن يلقوا المنافقين والمرتدين جبهة واحدة ، فسُدَّتْ بذلك تلك الثغرة ، التي لولم تحسم في وقتها لكانت صدعاً مرزقاً للإسلام ، هيهات أن ينتظم بعدها شمل المسلمين .

لقد كان من لطف الله بالإسلام والمسلمين أن ظفر أبو بكر والمهاجرون بتسليم الأنصار لهم بالخلافة عن رسول الله ، وبهذا انحصر الخلاف - إن يكن ثمة خلاف - بين المهاجرين .. وهذا الخلاف ، مهما يبلغ من الخطر ، أهون مما لو كان بين المهاجرين والأنصار .

لقد استقبل المهاجرون - الذين لم يشهدوا مجتمع السقيفة - بيعة أبي بكر بالرضا ، إذ انفتح للناس بتلك البيعة ، الطريق إلى الخلاص من الحيرة التي كانت قد غشيتهم ، والقلق الذي كان قد استبد بهم ، منذ علموا أن الرسول قد ترك مكانه بينهم .. واستبان لهم في هذا التدبير وجه الحياة الجديدة ، التي سوف يصحبونها ، والتي كانت ملفقة في ضباب كثيف من الحيرة والقلق والاضطراب ! يوم أن أخلى الرسول مكانه فيهم ، فجاءة وعلى غير توقع وانتظار !

إنه لم يكن عند الناس يوم وفاة الرسول ، فضلة من عقل ، أو سعة من وقت ، ليفكروا أو يقدروا .. ففى كل عقل ، وفى كل قلب ، ماشغله ، واستبد به ، من وساوس وهموم . فها هم إلا أن رأوا أبا بكر - رضى الله عنه - يطلع عليهم فى هذه الحيرة المهلكة ، بأنه الأمير الذى ارتضاه الأنصار ووجوه المسلمين ، خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى رأوا فيه الأمل الذى يمسك بهم من هذا الضياع ، الذى استشعروه ، وأشرفوا عليه !

ونظر على بن أبى طالب ، ومعه بنوهاشم ، إلى ميراثهم من النبى ، وإلى أنهم أحق الناس بالخلافة - إن كان ثمة خلافة - محتجين بما احتج به أبو بكر والمهاجرون على الأنصار ، بأنهم أهل رسول الله ، وأولى الناس به !
فإذ قد سلم الأنصار بهذه الحجة ، كانت القرابة من رسول الله ، كلما قربت واتصلت ، هى الفيصل الذى يرجع إليه ، فى اختيار من يخلف الرسول على المسلمين !

بقول ابن قتيبة :

« إن بنى هاشم ، اجتمعت عند بيعة الأنصار ، إلى على بن أبى طالب ، ومعهم الزبير بن العوام ، رضى الله عنه ، وكانت أمه صفية بنت عبد المطلب ، وإنما كان يمدّ نفسه من بنى هاشم ، وكان على كرم وجهه يقول : مازال الزبير منا ، حتى نشأ بنوه ، فصرفوه عنا !

واجتمعت بنو أمية إلى عثمان ، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد (بن أبى وقاص) وعبد الرحمن بن عوف ، فكانوا فى المسجد الشريف مجتمعين . . . فلما أقبل عليهم أبو بكر وأبو عبيدة ، وقد بايع الناس أبا بكر ، قال لهم عمر : ما لى أراكم مجتمعين حاكماً شتى ؟ قوموا فبايعوا أبا بكر ، فقد بايعه الأنصار ! فقام عثمان بن عفان ومن معه من بنى أمية ، فبايعوه ، وقام سعد ، وعبد الرحمن ابن عوف ، ومن معها من بنى زهرة ، فبايعوه .

وأما عليّ ، والعباس ، ومن معهما من بنى هاشم ، فانصرفوا ، ومعهم الزبير بن العوام . . .^(١) »

ثم يقول ابن قتيبة :

« إن علياً - كرم الله وجهه - أتى به إلى أبي بكر ، وهو يقول : « أنا عبد الله ، وأخو رسوله » . فقيل له : بايع أبا بكر ، فقال : أنا أحق بهذا الأمر منكم ، ولا أبايعكم ، وأنتم أولى بالبيعة لي !! أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً ؟ . . . ثم قال : « الله الله ، يامعشر المهاجرين ، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب ، عن داره وقعر بيته ، إلى دوركم وقعور بيوتكم ، لا تدفعوا أهله ، عن مقامه في الناس وحقه . . فوالله يامعشر المهاجرين لنحن أحق الناس به ، لأننا أهل البيت ، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ، مادام فينا القارىء لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسوله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية . . والله إنه لقيتنا^(٢) ، فلا تتبعوا الهوى ، فتضلوا عن سبيل الله ، فتزدادوا عن الحق بُعداً .

» فقال سعد بن بشير (الأنصارى) : لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار

منك يا عليّ قبل بيعتها لأبي بكر ، ما اختلف عليك اثنان . !

« وخرج عليّ - كرم الله وجهه - يحمل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على دابة ليلا ، في مجالس الأنصار ، تسألهم النصرة ، فكانوا يقولون : يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ، ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به !! فيقول عليّ - كرم الله وجهه - :

(١) الإمامة والسياسة جزء أول ص ١٠

(٢) في رواية « إنه لقيتنا » .

« أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا أدفنه ، وأخرج أنازع الناس سلطانه ؟ فقالت فاطمة : « ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطلابهم ! »^(١)

ويقول ابن أبي الحديد :

« وكان على لا يشك أن الأمر له ، وأنه لا ينافعه فيه أحد من الناس ، ولهذا قال له عمه (العباس) : امدد يدك بأبيك ، فيقال : عم رسول الله ، بايع ابن عم رسول الله ، فلا يختلف عليك اثنان ! فقال ياعم : وهل يطمع فيها طامع غيري ؟ قال : ستعلم ! فقال : إني لأحب هذا الأمر من وراء رِثاج^(٢) ، وأحب أن أصحربه .. فسكت عنه ! » .

وروى ابن سعد في طبقاته ، عن جيش أسامة ، فقال : « فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة .. فيهم أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص .. فتكلم قوم ، فقالوا : يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ؟ فغضب رسول الله ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « ما قاله بلغتنى عنكم في تأميري أسامة .. ثم نزل ، فدخل بيته ، وذلك يوم السبت ، وتوفي يوم الاثنين »^(٣)

وهذا يعني أن وجوه الصحابة كانوا في جيش أسامة ، وأن علياً - وقد أمسكه الرسول إلى جانبه في مرضه هذا - كان الخليفة بلا منازع من المهاجرين ، لو حدث برسول الله ما كان يُنظر حدوثه ! ولكن حين اشتد المرض على

(١) الإمامة والسياسة جزء أول ص ١٢ .

(٢) أى خفية ، والرثاج الباب المغلق .

(٣) الطبقات لابن سعد ، جزء ٢ ص ١٣٧ .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - توقف جيش أسامة خارج المدينة ينتظر ما سيكون ! فكان من أمر يوم السقيفة ما كان !
وأيا كان الأمر ، فقد بايع عليّ أبو بكر ، وقامت نفسه إلى شيء من الرضا
أول الأمر ، ثم إلى الرضا كل الرضا بعد أن سار أبو بكر في خلافته تلك السيرة
الراشدة ، وقام في المسلمين هذا المقام الحمود ، متأسيًا برسول الله ، متبعًا هديه ،
مقتفياً أثره ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا !

الامتحان الثاني :

وبتعرض الإمام عليّ لامتحان آخر .. بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .
فهذا أبو بكر رضي الله عنه قد بوع له بالخلافة من عليّ ، ومن بني هاشم
جميعاً .. ! ولأل بيت النبي ، ولبي هاشم رأى فيما ترك رسول الله ، ثم في سهم
ذوى القربى من غنائم المسلمين ، وذلك كما يقول الله تعالى : « واعلموا أنما
غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ
السَّبِيلِ » !

ومنطق الآية الكريمة يفيد أن هذا الخمس يقسم إلى خمسة أقسام : قسم لله
ولرسوله ، وقسم لذي القربى ، وقسم لليتامى ، وقسم للمساكين ، وقسم
لابن السبيل .

وقد روى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الخمس كان في عهد
الرسول - صلى الله عليه وسلم - خمسة أسهم : لله وللرسول سهم ، ولذي القربى
سهم ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ^(١) .

وروى عن ابن عباس ، غير هذا .. قال : كانت الغنيمة تقسم على خمسة
أخماس ، فأربعة منها لمن قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم على أربعة : فربع لله

والرسول ولدى القربى ، يعنى قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فما كان لله والرسول فيها فهو لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يأخذ النبي من الخمس شيئاً .. والربع الثانى لليتامى ، والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن السبيل ، وهو الضيف الفقير الذى ينزل بالمسلمين «^(١)» .

فلما ولى أبو بكر الخلافة ، جعل هذا الخمس فى ثلاثه : اليتامى ، والمساكين وابن السبيل . . وأما ما كان لله والرسول ولدى القربى ، فقد أسقطه بموت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد جرى عمر على هذا وكذلك عثمان ، وعلى ! وقد جرت مراجعات بين بنى هاشم وبين أبى بكر وعمر ، فى حظهم من هذا الخمس المفروض لهم فى خمس غنائم !

رُوى عن ابن عباس ، قال : كان عمر يعطينا من الخمس نحواً مما كان يُرى لنا^(٢) ، فرغبنا عن ذلك ، وقلنا : « حق ذوى القربى خمس الخمس ! » فقال عمر : إنما جعل الله الخمس لأصناف سماها ، فأسعدهم بها أكثرهم عدداً ، وأشدهم فاقة « قال ابن عباس : فأخذ منا ناس ، وتركه ناس ! »^(٣) .

وزُوى عن ابن عباس أيضاً ، قال : « عرض علينا عمر بن الخطاب أن تزوج من الخمس أيّمتنا^(٤) ، ونقضى منه عن مفرمنا ، فأبيننا إلا أن يسلم لنا ، وأبى ذلك علينا ! »^(٥) .

وقد كان الإمام على رضى الله عنه ، يرى أن خمس الخمس حق ذوى

(١) الأموال لأبى عبيدة ص ٣٢٥ .

(٢) أى على حسب ما كان يرى ويقدر ، حسب اجتهاده وتقديره .

(٣) الأموال لأبى عبيدة ص ٣٣٥ .

(٤) الأيتام : الأرملة ، غير المتزوج ، والمفرم : المدين .

(٥) الخراج : لأبى يوسف ص ٢٠ .

القربى ، ولكنه حين ولى الخلافة سار سيرة الخلفاء الثلاثة من قبله ، وكره أن يخالفهم ا .

وهكذا انتهى الموقف بين بنى هاشم ، وبين أبى بكر ، فى دعوى استحقاقهم لسهم أو سهمين فى خمس الغنائم ا

أما فاطمة رضى الله عنها . فقد كان لها إلى جانب هذا قضية أخرى . . هى ميراثها مما ترك النبي صلى الله عليه وسلم . . فعلى ابنته ، ولها ما للأبناء فيما ترك الآباء .

ولكن أبى بكر - رضى الله عنه - يبقاها بحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بقول فيه : « إنا لأنورث .. ما تركناه صدقة » .

وعن عائشة - رضى الله عنها - أن فاطمة بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ورضى عنها ، أرسلت إلى أبى بكر ، تسأله ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما أفاء الله على رسوله ، وفاطمة حينئذ تطلب صدقة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، التى بالدينة ، وفدك . وما بقى من خمس خيبر ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لأنورث .. ما تركناه صدقة » إنما يأكل آل محمد فى هذا المال ، وإنى والله لا أغير شيئاً من صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن حالها التى كانت عليها فى عهد رسول الله ؛ ولأعلن فيها بما عمل رسول الله . . فأبى أبو بكر أن يدفع إليها شيئاً .. فوجدت فاطمة على أبى بكر ، فهجرتة ، ولم تكلمه حتى توفيت .

وحدث ابن سعد فى طبقاته . . قال :

« جاءت فاطمة إلى أبى بكر تطلب ميراثها ، وجاء العباس بن عبد المطلب يطلب ميراثه ، وجاء معهما على بن أبى طالب ، فقال أبو بكر : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأنورث .. ما تركناه صدقة » وما كان النبي يعول

فعلى ، فقال على : « وورث سليمان داود ! »^(١) وقال زكريا : « يرثني ويرث من آل يعقوب »^(٢) قال أبو بكر : هو هذا ، والله .. تعلم مثل ما أعلم ! فقال على : هذا كتاب الله ينطق !! فسكتوا ، وانصرفوا^(٣) .

ولا تريد أن نذهب بهذه القضية إلى أكثر من هذا ، بل نسكت كما سكتوا ، ونصرف عنها كما انصرفوا .

على أن الذي لا شك فيه عندنا أن أبا بكر — رضى الله عنه — لم ينفع فاطمة — رضى الله عنها — ميراثها إلا لهذا الحديث الذي سمعه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذي سمعه معه كثير من الصحابة ، ومنهم على ، الذي يقول له أبو بكر : « هو هذا .. والله . تعلم مثل ما أعلم ! » .

فهذا الحديث لم يكن عند أبي بكر وحده ، ولكنه كان عنده ، وعند غيره من الصحابة ! .

وأما احتجاج على على أبي بكر بما في قوله تعالى : « وورث سليمان داود » وقوله سبحانه على لسان زكريا في طلبه الولد : « يرثني ويرث من آل يعقوب » فإن فيه متأولاً في الشيء الموروث : أهو ميراث مادي لما يترك النبي ، من مال ومتاع ؟ أم هو ميراث في الخصائص العقلية والنفسية ، والجسدية ؟ وإيا كان الأمر فإن هذا الموقف قد ترك في نفوس بني هاشم مرارة ، وألقى في رُوعهم أنهم في معرض إعنات وإرهاق ، لموقفهم من الخلافة ، وتوقفهم في البيعة لأبي بكر !!

(١) سورة النمل : ١٦ .

(٢) سورة مريم : ٢ .

(٣) انظر نهاية الأرب جزء ١٨ : ص ٣٩٧

وقد عملت ظروف كثيرة على الإمساك بهذا الشعور ، وتقويته ، في
كيان بنى هاشم .. من أوليائهم ، وأعدائهم جميعاً .

فأما أوليائهم ، فقد قوّوا جبهتهم ، ووسعوا من دائرة السخط والألم .
وأما أعدائهم ، ممن كانوا يتفكرون عليهم النبوة التي أطلعها الله
فيهم ، وتخيبرها منهم ، فإنهم أظهروا لهم مواصلة الشامت ، وعزاء الحاسد !
والحق أن بنى هاشم — وقد خذلوا في ميراثهم الروحي من النبي أولاً ،
فصرفت عنهم الخلافة ، ثم خذلوا في ميراثهم المادى منه ثانياً ، فلم يأخذوا
بما ترك النبي شيئاً — قد اهتز مكانهم في قريش بخاصة ، وفي العرب بعامه ،
ووقع لإحساس كثير من الناس أن ما كان ينتظر بنى هاشم في ظل النبوة ،
من مقام في قريش وفي العرب ، فوق مقامهم الذي كان لهم في الجاهلية — ليس
كما حسبوا وقدّروا ، وأن النبوة لم تكسبهم شيئاً ، بل إن عليهم أن يحتملوا
عداوة قريش وكيدها بعد النبي ، كما حملوا عداوتها وكيدها في عهد النبي !
فهذا هو الميراث الذي سمحت لهم الأيام به ، ولقدى ذهب الإمام على بأوفر
نصيب منه ! .

وامتحان ثالث :

وتحضر أبا بكر — رضى عنه — الوفاة ، بعد سنتين وقليل ، من خلافته ،
فيرى ألا يدع المسلمين من بعده ، يواجهون خلافاً وفرقة في اختيار من يخلفه
عليهم ، خاصة وقد استعلن النفاق ، وكثرت وساوس المنافقين وأهل سوء ،
فأراد أن يسدّ المنافذ على هؤلاء المتربصين بالمسلمين الدوائر !

وكان أن وقع في نفس أبي بكر أن يختار عمر ، ليكون الخليفة من
بعده ، فجعل يحدث بذلك من يأنس عنده الرأي والنصح ، فكان أكثر

ما يسمع في عمر ، أنه خير كله ؛ لولا شدة فيه ، فيرضى أبو بكر بهذا ، ويطمئن إلى اختيار عمر ، ويرى أن هذه الشدة في عمر ليست عن استعمال وقهر وظلم ، وإنما هي شدة في الحق ، قائمة بالعدل ، موزعة بالقسطاس ، حظه منها وحظ أهله أوفر الحظوظ وأعظمها !

خطب عمر في الناس أول خلافته : فقال .

« بلغني أن الناس هابوا شدتي ، وخافوا غلظتي ، وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا . ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف إذا صارت الأمور إليه ؟ .

« ومن قال ذلك ، فقد صدق ! فقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبده وخادمه ، وكان ممن لا يبلغ صفته ، من اللين والرحمة ، وقد سماه الله بذلك ، ووهب له اسمين من أسمائه : رءوف رحيم .. فكنت سيفاً مسلواً . حتى بغمدني . أو يدعني فأمضي . حتى قبض رسول الله وهو عني راض ، والحمد لله ، وأنا أسعد بذلك .

« ثم ولي أبو بكر أمر المسلمين ، فكان ممن لا ينكرون دَعَتَهُ ، وكرمه وليته ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتي بليته ، فأكون سيفاً مسلواً ، حتى بغمدني ، أو يدعني فأمضي ، فلم أزل معه كذلك حتى قبض ، وهو عني راض . وأنا أسعد بذلك .

« ثم إنني وليت أمركم أيها الناس . واعلموا أن هذه الشدة قد أضعفت ! ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتمرد على المسلمين ، فأما أهل السلامة والدين والفضل . فأنا ألين لهم من بعضهم على بعض ! » .

هذه هي شدة عمر ، وقد عرفها أبو بكر ، وخبرها على هذا النحو ، الذي

يعيش فيه عمر مع شدة غلظته .. شدة في الحق ، وغلظة على أهل البنى
والتمدى !

وإذن فعلى بركة الله !
وأعلن أبو بكر في الناس ، أنه اختار لهم ، فهل هم راضون باختياره ؟ :
ونعم . . . لقد سموا له الأمر . وأعطوه حق الاختيار لهم ، فما عرفوا في
أبي بكر إلا الخير ، فيما قال أو عمل ! !

خطب أبو بكر في الناس ، حين شق عليه المرض ، فقال : « أيها
الناس . . . لقد حضرنى من قضاء الله ما ترون . . . وإنه لا بد لكم من رجل ،
يلي أمركم . وبصلى بكم ، ويقاتل عدوكم . . . فإن شئتم اجتماعكم . فأنتمتم ،
نم وليتم عليكم من أردنتم ، وإن شئتم اجتمعتم لكم رأيي ، والله الذي
لا إله إلا هو لا آلوكم في نفسى خيراً . . . فقالوا يا خيفة رسول الله . . . أنت
خيرنا وأعلمنا ! قال : سأجتهد رأيي ، وأختار لكم خيراً ، إن شاء الله . .
ثم أرسل إلى عمر بن الخطاب . فقال : يا عمر . أحببك محباً ، وأبغضك مبغض ،
وقديماً يحب الشر ، ويبغض الخير » فقال عمر : لا حاجة لى بها ، فقال أبو بكر :
ولكن بها إليك حاجة . . . والله ما حبوتك بها .

« ثم قال له : خذ هذا الكتاب ، وأخرج به إلى الناس ، وأخبرهم أنه
عهدي ، وسلمهم عن سمعهم وطاعتهم . . . فخرج عمر بالكتاب ، وأعلمهم .
فقالوا : سمعاً وطاعة ! ..

« فقال له رجل : ما في الكتاب يا أبا حفص ؟ .
قال : لا أدري . . . ولكنى أول من سمع وأطاع !
قال : لكنى والله أدري ما فيه . . . أمرته عام أول . فأمرك هذا
العام ! ! ^(١) »

لقد كان أبو بكر يخشى أمثال هذا اللسان السليط ، الذي إن حضر يوماً
كيوم السقيفة ، أوقد نار الفتنة ، وأثار عواصف الفرقة . . فجنب المسلمين
بهذا التدبير أن يتعرضوا لتجربة كتجربة هذا اليوم ، التي كانت فلتة ، وفي
الله المسلمين ما كان يترصدهم من شر ، يومئذ !

وباع الناس لعمر ، بعد أن قضى أبو بكر نحبه ، ولقى ربه . . وأعطى على
وبنو هاشم أيديهم أبا بكر ، وبابعوه ، كما بايعه الناس ، على السمع والطاعة .
وببيعة عمر ازداد بُعد بني هاشم عن الخلافة ، وقويت جبهة الحاسدين
لهم ، والناقمين عليهم ، وكان على يحمل تبعه هذا الموقف كلها ، ويرى أن
قريشاً تعمل في إصرار وعزم على مساءته ، ومساءة بني هاشم معه ! .

وهنا تتحرك أطماع بني أمية ، ويدخل عليهم شعور بأن الزمن معهم ،
وأن بني هاشم لن يكون لهم في دولة الإسلام أكثر مما كان لهم في الجاهلية !
وإذن فالتنافس بينهم وبين بني هاشم مازال قائماً ، على ما كان عليه الأمر
بينهم قبل الإسلام !

ولكن عمر - رضى الله عنه - كان قوة القاهرة ، ويداً باطشة ، وحرباً قائمة
في وجه الجاهلية ، ومخلفاتها ، وآثارها . . فلم يدع ابني أمية أن يتقدموا خطوة
عن مكانهم الذي وضعهم فيه الإسلام ، بعد أن سمعوا إليه سعيًا بطيئًا ، وبعد
أن دخلوا فيه آخر الناس ! .

ولم ينس عمر قرابة بني هاشم لرسول الله ، وما لهذه القرابة من حرمة
ورعاية ، فجعل هذه القرابة مدخلاً إلى السبق في كل حال ، وفي كل مقام !
لحين فرض عمر للناس أعطياتهم في بيت مال المسلمين ، جعل للقرابة
(م ١٢ - على بن أبي طالب)

من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مدخلا إلى التقدم والفضل ، وفي رجعتان موازين آل بيت رسول الله على من عداهم من الناس ، دون أن يكون في ذلك جور على أحد ، أو انتقاص من فضل أحد .

فالناس — في عهد عمر ، وفي سياسته — على منازلهم في الإسلام .
فآل بيت رسول الله في المقام الأول ، إِمَاماً لهم برسول الله من هذه الرحمة الماسة به .

وقد أكد عمر هذا بما فرض للمسلمين في بيت المال . . .

بدأ بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ففرض لكل منهن اثني عشر ألفاً ، وفرض للعباس — عم النبي — اثني عشر ألفاً . . وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف . فقال : يا أبت . . لم زدته ؟ على ألفاً ؟ قال : إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله من أيك ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله منك ! وفرض لكل من الحسن والحسين خمسة آلاف ، وألحقهما بأبيهما ، لمكاتبتهما من رسول الله ، وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ، ألفين .

هذا من حيث التفاوت المادي ، الذي ينظر به الناس إلى الناس . . ولكن نظرة عمر امتدت إلى أبعد من هذا ، فإنه حين أجذب الناس في عام الرمادة ، وحُبس المطر عن جزيرة العرب ، استسقى عمر بالعباس عم النبي . . التماساً للبركة ، بهذه القرابة من رسول الله . . وقد صدقت فراسة عمر ، وصح ما وقع في نفسه ، فاستجاب الله للمسلمين ، وغاثهم الغيث !

ثم حين طعن عمر ، ووقع اختياره لأهل الشورى في اختيار الخليفة من بعده ، أوصى أصحاب الشورى أن يحضروهم فيها الحسن بن علي ، وعبد الله بن عباس ، على ألا يكون لهما رأى في الخلافة ، ولا نصيب منها . . ولكن

ليكون محضرم مجلبة للبركة والخير ، كما يقول عمر ، مخاطباً أصحاب الشورى :
« فإنّ لما قرابة ، وأرجو أن يكون لكم بركة في حضورهما ! »

وهكذا احتفظ عمر لبني هاشم - مدة خلافته ، وإلى اللحظة الأخيرة من حياته - بمسكاتهم التي ينبغي أن تكون لهم في المسلمين ، بما لهم على الناس من فضل ، بقرابتهم من رسول الله ، وإضافتهم إليه !

وبهذه اليقظة ، والقوة والصرامة ، استطاع عمر أن يمسك الناس على منازلهم في الإسلام ، وأن يجعل لبني هاشم حساباً يمشون به في الناس ، وسلطاناً يمره الناس لم .. إذ كانوا أقرب الناس نسباً إلى الإسلام ، وأولاهم به .. منهم كان النبي ، وفي بيوتهم كان بيته ، وكان مطلع رسالته .. فكل مجد للإسلام هو بمجدهم ، وكل إعلاء لكلمة الإسلام هو لإعلاء لهم !

وإذن فقد رضى على وبنو هاشم عن عمر ، وحدوا له سيرته تلك التي دفعت عن الإسلام عداوة الجاهلية وعدوانها .. وكاد على وبنو هاشم ينسوّن أمر الخلافة ، وما لهم من نظر إليها ، ومطمع فيها !

فإنه لم يكد عمر يعضى في خلافته ، ويشهد الناس آيات من روائع عدله ، وحزمه ، وحسن تديره ، واستقامة سياسته ، حتى تفتتح لحبة القلوب المفاقة ، وحتى يكون على بن أبي طالب أشد الناس حباً لعمر ، وتسليماً له بمكانه من الخلافة ، واستحقاقه لها .

الامتحان العسر :

عشر سنوات وبضعة أشهر قضاها عمر خليفة على المسلمين ، لم يستشعر أحد طولها ، ولم يتمجل أحد أيامها ، بل مرّت كأنها أيام معدودات ، نعم المسلمون خلائها بالأمن ، وذاقوا أنفائها حلاوة العدل ، ورأوا فيها سلطان الحق الذي وسع الأقوياء والضعفاء جميعاً !

ولسكن ، وعلى حين غفلة ، يُطمئن عمر بيد أئيمة غادرة . . . ويقع المسلمون في هَرَجٍ ومَزَجٍ ، وبطلع عليهم يوم يذكركم ببعض ما كانوا فيه يوم وفاة النبي !
وتحضر عمرَ الوفاة ، فبرى أن ينصح المسلمين ، وأن يقدم لهم ما عنده من رأى ، في اختيار الخليفة من بعده !

وعمر صاحب أوليات ، يحى بها ، غير مسبوق إليها ، تكون لمن بعده مثلاً يُحتذى ، وسابقة يُنظر إليها ، ويفتخ بها ، حين تبدر دواعيها ، وتجذ أسبابها !

ولاشك أن عمر لم يستحدث أمر التفكير في الخليفة الذي يخلفه ، عندما طعن ، وإنما فكر في هذا الأمر كثيراً قبل هذا . . . فلما وقع هذا الحدث ، أجده عزمًا قاطعًا ، وأحدث له رأياً عاجلاً . . . فكان أن اختار ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بمن توفى الرسول وهو عنهم راض ، ليكون الخليفة و خدأ منهم ، يختارونه هم ، اختيار مشورة ومناصحة !

وهؤلاء الستة هم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف . . . وكان طلحة غائباً .

ثم تحدث عمر إلى من حضره من المهاجرين ، فقال : « يامعشر المهاجرين الأولين . . . إني نظرت في الناس ، فلم أجده شقاقاً ولا نفاقاً ، فإن يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم . . . تشاوروا ثلاثة أيام ، فإن جاءكم طلحة إلى ذلك ، وإلا فاعزمُ عليكم بالله ألا تفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحداً ، فإن أشرتم بها إلى طلحة ، فهو لها أهل . . . وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة الأيام التي تشاورون فيها ، فإنه رجل من الموالى لا ينافركم . . . واحضروا معكم شيوخ الأنصار ، وليس لهم من أمركم شيء ، ويحضر معكم الحسن بن علي ،

وعبد الله بن عباس ، فإن لمّا قرأه ، وأرجو لكم البركة في حضورهما ، وليس
لهما من أمركم شيء ، ويحضر ابني عبد الله مستشاراً ، وليس له من الأمر شيء !
قالوا يا أمير المؤمنين إن فيه للخلافة موضعاً ، فاستخلفه ، فإننا راضون به ! قال
حَسْبُ آل الخطاب تحمّل رجل منهم الخلافة ! ليس له من الأمر شيء ! ثم
قال : يا عبد الله . . إياك أن تتلبّس بها ! !

ثم قال : « إن استقام أمر خمسة منكم وخالف واحد فاضربوا عنقه ! . .
وإن استقام أربعة واختلف اثنان فاضربوا أعناقهما ، وإن استقام ثلاثة واختلف
ثلاثة فاحتكموا إلى ابني عبد الله ، فلائى الثلاثة قضى فاطليفة منهم وفيهم ، فإن أبى
الثلاثة ذلك فاضربوا أعناقهم . . فقالوا : قل فينا يا أمير المؤمنين مقالة ، نستدل
فيها برأيك ونقتدى به . فقال : والله ما يمنعني من أن أستخلفك يا سعد إلا شدتك
وغلظتلك مع أنك رجل حرب ! وما يمنعني منك يا عبد الرحمن إلا أنك فرعون هذه
الامة ^(١) ! وما يمنعني منك يا زبير إلا أنك مؤمن الرضا كافر الغضب ، وما يمنعني
من طلحة إلا نخوته وكبره ، ولو وإبها وضع خاتمه في إصبع امرأته ! وما يمنعني
منك يا عثمان إلا عصبيتك وحبك قومك وأهلك ، وما يمنعني منك يا علي
إلا حرصك عليها ، وإنك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبين
والصراط المستقيم ! » ^(٢)

في مجلس الشورى :

ثم بعد موت عمر اجتمع القوم ، جمعهم المقداد بن الأسود ، في بيت عائشة
بأذنهما ، وجاء عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، فجلسا بالباب ، فحصبهما

(١) نظر عمر إلى عبد الرحمن بن عوف في غناه العريض ، وثروته الواسعة ،
فقد كان أكثر المسلمين مالا .

(٢) الإمامة السياسية جزء ١ ص ٢٣ ،

سعد بن أبي وقاص ، وأقامهما ، وقال : « أتريدان أن تقولوا : حضرنا وكفاني
أهل الشورى ؟ »

ثم تشاوروا ثلاثة أيام ، فلم يُبرموا فتيلًا ، فلما كان في اليوم الثالث قال لم
عبد الرحمن بن عوف : أتدرون أيّ يوم هذا ؟ هذا يوم عزم عليكم صاحبكم
الآ تفترقوا فيه حتى تستخلفوا أحداًكم ! قالوا : أجل . قال : فإني عارض
عليكم !

قالوا : وما تعرض ؟
قال : أن تولوني أمركم ، وأهب لكم نصيبي فيها ، واختار لكم
من أنفسكم !

قالوا : قد أعطيناك الذي سألت !
فلما سلم القوم ، قال لم عبد الرحمن : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم .
فجعل الزبير أمره إلى عليّ .
وجعل طلحة أمره إلى عثمان .

وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن بن عوف .
« وخرج عبد الرحمن يتلقى الناس في أنقاب المدينة ، مُتَلْتِمًا ، لا يعرفه
أحد .. فترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعاف الناس ورعاعهم
إلا سألهم واستشارهم .

أما أهل الرأي ، فاتاهم مستشيراً ، وتلقى غيرهم سائلاً .. يقول : مَنْ ترى
الخليفة بعد عمر ؟ فلم يلق أحداً يستشيرهُ أو يسأله إلا ويقول عثمان !

ثم جمع أصحاب الشورى ، فأخذ على كل واحد منهم العهد والميثاق : لئن
بايعتك لتقيمن كتاب الله ، وسنة رسوله ، وسنة صاحبك من قبلك ، فأعطاه
كل واحد منهم العهد والميثاق على ذلك !

فلما تم له ذلك ، أخذ بيد عثمان ، فقال له : عليك عهد الله وميثاقه لئن

بابعتك لتقيمَنَّ كتابَ الله وسنةَ رسوله ، وسنةَ صاحبك ، وشرطَ عمر
ألا تجمل أحداً من بني أمية على رقاب الناس ؟

فقال عثمان : نعم !

ثم أخذ بيد عليّ ، فقال له : أبايعك على شرط ألا تجمل أحداً من بني هاشم
على رقاب الناس ؟

فقال عليّ : مالك ولهذا إذا قطعتهما في عنقي ؟ فإن عليّ الاجتهاد لأمة محمد ،
حيث علمتُ القوة والأمانة استعنتُ بها ، كان في بني هاشم أو غيرهم !

قال عبد الرحمن : لا والله حتى تعطيني هذا الشرط !

قال عليّ : والله لا أعطيكم أبداً .

فتركه !

وخرج عبد الرحمن بن عوف إلى المسجد ، فجمع الناس ، ثم حمد الله وأثنى
عليه ، ثم قال : إني نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان . . فلا تجمل
بإعليّ سبيلاً إلى نفسك ، فإنه السيف لا غير ، ثم أخذ بيد عثمان ، فبايعه وبايع
«الناس جميعاً .»

ولابد من وقفة هنا ، عند هذا الاختيار ، وما وقع في نفوس الناس منه ،
منذ أعلفوا به .

فانتقال الخلافة من شخص إلى شخص ، ومن بيت إلى بيت ، من شأنه
أن يحدث في مشاعر الناس ، وفي أفكارهم ، شيئاً جديداً ، يتولد من نظرتهم
إلى هذا الشخص ، وتقديرهم له ، وصلتهم النفسية ، أو النسبية به وبأهله !

لقد حدث شيء من هذا ، في خلافة أبي بكر ، فرضى بخلافته أناس ،
وسخط أناس .. وحدث شيء كهذا أو أكثر منه في خلافة عمر ، فاطمان إليه

قوم ، وخافه قوم . . ولكن سرعان ما قام الساطعون إلى الرضا ، وسكن الخائفون إلى الطمانينة والأمن . . إذ كان عهد الناس قريباً بالنبوة ، وأمرهم لم يزل قائماً لحساب الدين وفي ظله . أكثر من قيامه لحساب العصبية ، وفي ظلها ! أما في خلافة عثمان ، فإن الأمر مختلف ! .

فأولاً : كان الزمن قد تراخى قليلاً بعهد النبوة ، فانطلقت النفوس على طبيعتها ، وتحركت فيها النزوات السكامنة ، والأطماع المكبوتة ، التي كان الدين قد اعتقلها زمنًا ، ووقف لها بالمرصاد !

وثانيًا : كان اختيار الخليفة لأول أبن بكر من بيت تيم ، واختيار الخليفة الثاني عمر من بيت عدى ، وكلا البيتين لم يكونا من البيوت المتنافسة على زعامة قريش . كان هذا الاختيار توفيقاً من الله ، سواء في اختيار الشخصين ، أو في اختيار بيتيهما من بين بيوت قريش ، إذ كان ذلك إشارة دالة على زوال حكم العصبية ، وإخماد جذوتها في صدر الأمة العربية ، وأنه لا حساب لها في المجتمع الإسلامي .

وثالثًا : حين وقع الاختيار على عثمان - رضى الله عنه - خليفة للمسلمين ، وهو من بني أمية ، تحركت العصبية التي كانت قائمة في الجاهلية بين بني أمية وبني هاشم ، ووقع في نفس بني أمية أن الزمن قد عاد لينصفهم من بني هاشم ، وليأحقهم بهم ، بعد أن قطعهم عن بني هاشم ، وأبأسهم من ينافستهم أن كان النبي منهم ، وكانت دعوة الإسلام محسوبة عليهم ، وكانت الدولة الجديدة منسوبة إليهم !

وهذا أبو سفيان زعيم البيت الأموي ، الذي أنزله الإسلام وأنزل بيته وأهله ، عما كان لهم في الجاهلية من مكان السيادة والزعامة في قريش - بشهد الخلافة تجيء إليهم في شخص عثمان بن عفان ، أحد رجال بني أمية ، فتتحرك

في نفسه من جديد نوازع تلك السيادة التي كان خليقاً بها أن تضمّر وتموت .
إنه الآن يستشعر ريح حياة جديدة تهبّ على بني أمية ، ويمد يده إلى أمل
بازغ في هذه الخلافة الجديدة ، يعمد إليه ، وإلى أهله ، ماسلهم الإسلام من
عزة ومجد !

رابعاً : كان عثمان - رضى الله عنه - على ما طبعه الله عليه ، من رقة العاطفة ،
ولين الجانب ، ودماثة الخلق - سخيّ اليد ، سمح النفس ، قريب الرضا ، بعيد
الغضب ، يألف الناس ويألفونه .. وكان فيه إلى جانب هذا كله ، حياءٌ حتى ،
بذلك عليه أمره أن يلتقى أحداً بما يسوؤه ، أو يخرج به ، أو يخزيه !

وكان لتلك الصفات الطيبة التي اشتمل عليها عثمان - رضى الله عنه -
أثرين بارزين في سياسته ، أثناء الخلافة ، وفي مجرى الأحداث التي وقعت في
خلافته ، وانتهت بقتله شهيداً بين يدي كتاب الله !

ويتجلى أحد هذين الأثرين في بني أمية ، ويتجلى الأثر الآخر في
الناس عامة .

قأولا : في بني أمية :

طمع بنو أمية في رقة عثمان ولين جانبه ، وفي سخائه ورحمته بأهله خاصة ،
وبالناس عامة ، فدخلوا عليه من كل باب ، وأحاطوا به من كل جانب ،
وجاءوا إليه بكل سبب ، وقعدوا له بكل سبيل .. فكان منهم كاتبه ، مروان
ابن الحكم بن العاص ، ابن عم عثمان ، وهو وزيره ، ومستشاره ، والباب
الذي بين الخليفة وبين الناس ، يضيق ويتسع ، ويُلق ويُفتح ، حسب تقدير
مروان وتديره !

ومروان بن الحكم هذا ، كان هو وأبوه الحكم ، طريدي رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وقد عرفنا من قبل أن الحكم هذا كان جاراً لرسول الله في مكة ، وكان من أشد الناس عليه ، وأكثرم أذى له ، وقد أسلم بعد الفتح وكان النبي قد أهدر دمه ، ثم شفع فيه عثمان ، وهاجر إلى المدينة ليؤكد لرسول الله ، فأخرجه الرسول من المدينة ، وقال : « لا يساكني ولا ولده » فغرت بهم جميعاً إلى الطائف . . فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم عثمان فيه أبا بكر ، فأبى ، وقال : ما كنت لأرى طرداء رسول الله . . وكذلك كان موقف عمر حين سأله عثمان فيه ، وفي ولده !

فلما ولي عثمان الخلافة أدخلهم المدينة ، واتخذ مروان كاتباً له ، وقال : كنتُ كنت رسول الله فيهم ، وسألتهم ردّهم ، فوعدني أن يأذن لهم ، فقبض قبل ذلك ، فأنكر عليه المسلمون إدخالهم المدينة . . وكان ذلك مما فتح للناس طريقاً للقول والشغب على عثمان . «^(١)

ولكن الذي يُسأل عنه هنا هو : هل يعتبر وعد رسول الله بالإذن لهم إذناً واقعاً ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فلمَ لم ينفذه أبو بكر ، وعمر ؟

إن ذلك - على كل حال - أعطى للناس مقالا أن يقولوا : إن عثمان قد نفع عمه وأهله بسلطان الخلافة ، فرفع عنهم هذا الخطر ، وأخرجهم من تلك العزلة التي فرضها عليهم رسول الله ، والتي لم يرض الخليفين السابقين أن يقبلا شفاعته عثمان فيهما . . ثم لم يقف الأمر عند هذا ، بل ولي عثمان عمه هذا الطريد صدقات قضاة ، وقد بلغت ثلاثمائة ألف درهم ، فوهبها له . . ثم هاهو ذا ابنه مروان يصبح وزير الخليفة ، ويده العاملة !

ثم من قبل مروان أو من بعده ، أبو سفيان ، وما دخل عليه من الشعور

(١) انظر ص : ٤٥ من هذا الكتاب ، في الحديث عن مروان بن الحكم .

بأن عهداً جديداً ، طلع عليه بالآمال الواسعة ، بتولية عثمان الخلافة ، وما دخل على الناس من أحاسيس جديدة لبني أمية ، وزعيمهم أبي سفيان !

ولا تلبث هذه الظاهرة أن تثمر ثمرتها ، وسرعان ما يتحرك شبان بني أمية إلى طلب الإمارة ، وتقلد السلطان ، وسرعان ما يتخطون الحواجز التي كانت قائمة في وجوههم ، حين لم تكن لهم سابقة في الإسلام !

فهذا الوليد بن عقبة بن أبي معيط يصبح والياً على الكوفة ، التي يُعزَل عنها سعد بن أبي وقاص ، أحد المشرة المبشرين بالجنة ، وأحد أصحاب الشورى الستة ، وفاتح العراق ، ومكوف الكوفة ! !

والوليد - كما نعلم ، هو ابن عقبة بن أبي معيط ، الذي أهدر الرسول دمه ، وأمر أن يضرب عنقه ، بعد أن وقع أسيراً يوم بدر ، فقال للرسول :

« يا محمد .. أنا خاصة من دون قريش ؟ »

« قال : نعم ! »

« قال : فن للصبيّة ؟ »

« قال : النار ! »

« فلذلك سُمي بنو أبي معيط ، صبيّة النار ! »

فهذا حكم قاطع من رسول الله على أبناء عقبة بن أبي معيط ، وعلى رأسهم الوليد بأنهم من أهل النار !

ومع هذا فالمسلمون يرؤن الوليد أميراً على الكوفة ، يخلف الصحابيّ الجليل سعد بن أبي وقاص ، ويقيم المسلمين صلاتهم ، ويتولى أمور دينهم ودنياهم جميعاً !

ثم لا يلبث الوليد أن يُرى الناس من أفعاله أنه صائر إلى المصير الذي

كشف عنه رسول الله ، فيشرب الخمر ، ويصلى بالناس وهو سكران ، وينتهى أمره بالشكاة ، إلى الخليفة ، في شبه ثورة تهدد الخلافة ، ويشهد الناس عليه بالسكر ، ويقام عليه ، لحد .. فيعزل عن الكوفة !

ويذكر الرواة أن الوليد حين جاء إلى الكوفة والياً عليها ، ودخل على سعد بن أبي وقاص ، قال له سعد : « والله ما أدرى .. أ كِست^(١) بعدنا أم حَقَّقنا بعدك ؟ فقال : « لا نجز عن أبي إسحاق ، وإنما هو الملك .. بتفداه قوم ، وبتعشاء آخرون .. فقال سعد : أراكم ستعملونها ملكاً ! ! فساء الناس ذلك وقالوا : بشما تبدلنا عثمان .. عزل أبا إسحاق ، الهين اللين ، الخبر ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وولى أخاه .. الفاسق ، الفاجر ، العاجز ، الأحمق ، الماجن ! »

والوليد هذا ، هو أخو عثمان بن عفان ، من أمه ، وأمهما أروى بنت كُريز بن ربيعة .

ويحدث صاحب الأغاني ، فيكشف عن عاطفة لأخوة تلك ، وما كان لها من تأثير على قلب عثمان .. الرقيق الودود .. يقول صاحب الأغاني :

« لم يكن يجلس مع عثمان على سريريه إلا العباس بن عبد المطلب ، وأبوسفیان بن حرب ، والحكم بن العاص ، والوليد بن عقبة ! » .

فهؤلاء المحدثون بعثمان ، والمخاطبون له ، والناظرون في وجوه الناس معه ، عدا العباس بن عبد المطلب — هم زعماء بني أمية ، الذين لم يكن لأحد منهم مكان عند الخليفتين : أبي بكر وعمر ، إذ كانوا ولا حساب لهم في موازين الإسلام ، فإذا رآهم الناس على غير تلك الحال عند عثمان ، ورأوا أنهم جلساء الخليفة ، وخطاؤه ، وأصحاب الكلمة عنده — تعلق بهم الناس ، وأصبحوا مقصداً لأصحاب الحاجات !

(١) أى صرت كيباً . أى عاتلاً حكماً .

ثم يقول صاحب الأغاني :

« فأقبل الوليد يوماً فجلس ، ثم أقبل الحكم ، فلما رآه عثمان زَحَلَ^(١)
له عن مجلسه ، فلما قام الحكم ، قال الوليد ، والله يا أمير المؤمنين ، لقد تلجلج
في صدرى بيتان قلتها حين رأيتك آثرت عليك على ابن أمك .. فقال له عثمان
إنه شيخ قريش ! ! فما هما البيتان اللذان قلتكما ؟ قال .. قلت :

رأيتُ أممٌ المرءَ زُلْفَى قرابةٍ دُونِ أخيه ، حادثاً لم يكن قِدماً
فأملتُ عمراً أن يشبَّ وخالداً لكى يدعوانى يومَ مزحةٍ عما

فرق له عثمان ، وقال : وليتك العراف (يعنى الكوفة) . ! !

وعمر وخالد اللذان أشار إليهما الوليد في شعره . هما ولدا عثمان رضى الله عنه .

ثانياً : فى جماعة المسلمين :

والأثر الثانى الذى كان بسبب لين عثمان ورقته ، هو ما وقع فى نفوس عامة
المسلمين من مشاعر جديدة للخلافة والخليفة معاً .

فأفقد استئذان الناس جانب عثمان ، وطعموا منه بما لم يطعموا فيه من
أبى بكر ، وعمر ، ولم يحتملوا من سلطان الخليفة ما كانوا يحتملون من
أبى بكر وعمر .

وقد أدى ذلك إلى أن تنادى الناس بالشكوى .. بالحق وبالباطل ، وكان
من هذا أن انفتح للناس باب القول فى الخليفة . ثم كانت الفتنة التى أدت إلى
قتله ، وإلى ما بعدها من فتن وأحداث .. كما سنرى ذلك بعد قليل !

* * *

(١) زحل له : تحرك ، ليوسع له إلى جواره .

الباب الثاني

مع عثمان

عثمان وسياسته :

عرف الناس عثمان قبل الخلافة . فعرفوا فيه الإنسان السميع الآتين ، الحميّ العفيف ، لا يمتنّف بأحد ، ولا يتجنّب أحدا بما يكره . فلما ولي الخلافة استقبل الناس بالوجه الذي عرفوه منه . وعامل الناس بالخلق الذي كان يعاملهم به . فلم يلبس للخلافة سلطان الحاكم القاهر ، ولم تطاوعه بده على أن يلقى الناس ولو بالذرة التي كان يلقاهم بها عمر ، مع أن الناس في عهده كانوا بحيث لا يصلح أمرهم غيرُ السيف ، أو ما يشبه السيف !

كان عمر - رضي الله عنه - يقبض على الدولة الإسلامية بيد قوية لاتلين ، ويحاسب الناس حساباً دقيقاً ، لا يتجاوز فيه عن إساءة مسيء ، أو انحراف منحرف ، لأنه كان يرى وجوهاً من الفتن مقبلة على الناس ، ويشهد صورا من الشهوات والمغريات ، تهجم على أهل الورع والتقوى ، في تحد وإلحاح ، تريد أن تلتهم عن دينهم وتفتنهم فيه !

من أجل هذا كان عمر في سهر دائم ، ويقظة متصلة لحراسة المجتمع الإسلامي ، ومجتمع الصحابة بوجه خاص ، من هذا العدو الراصد المترقب . فكان يفرض على ولاته وعماله حياة خشنة ، يشيع فيها الجوع والحرمان ، ويقلّ فيها الشبع والرفقة ، مع وفرة المال ، وكثرة الخيرات والنعم ! وكان يريهم من حياته القدوة في التقشف والحرمان ، والإقامة على شغف العيش ، وخشونة الطعام والملبس !

روى البرد في كتاب الكامل . قال :

« قال الربيع بن زياد الحارثي ، كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين ، فكتب إليه عمر بن الخطاب ، بأمره بالقدوم عليه ، هو وعماله ، وأن يستخلفوا^(١) جميعاً .

« قال : فلما قدمنا أتيتُ « يَرْفَأُ »^(٢) فقلت : يا يرفأ . . مسترشد وابن سبيل .
أى الميثاق أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى عماله فيها ؟ فأومأ إلى بالخشونة : .
فأخذت خُفَيْنِ مطارقَيْنِ ، ولبست جُبَّة صوف ، ولُثْتُ عمامتي على رأسي ! !
« فدخلنا على عمر . . فصقنا بين يديه ، فصعد فينا وصوب ، فلم تأخذ عينه
أحداً غيري ، فدعاني .

فقال : من أنت ؟

قلت : الربيع بن زياد الحارثي !

قال : مما تتولى من أعمالنا !

قلت . البحرين !

قال : كم تر تزق .

قلت : ألفاً !

قال : كثير ! فما تصنع به ؟

قلت : أتقوت منه شيئاً ، وأعود به على أقارب لي ، فما فضل عنهم فعلى
فقراء المسلمين .

قال : فلا بأس . . ارجع إلى موضعك .

(١) أى أنهم يقيمون من يخلفهم على أمر المسلمين الذين تحت أيديهم

(٢) يرفأ ، خادم عمر بن الخطاب

فرجعت إلى موضعي من الصف ، فصعدت فينا وصوب ، فلم تقع عينه إلا على ، فدعاني ، فقال كم سنك ؟ قلت : خمس وأربعون سنة ! قال الآن ، حين استحكمت !

ثم دعا بالطعام ، وأصحابي حديث عهد بهم بلين العيش ، وقد تجوعت له ! فأنى بخبز وأكسار شعير ، فجعل أصحابي يعافون ذلك ، وجعلت آكل فأجيد ! فجعلت أنظر إليه يلحظني من بينهم ! . . . ثم أمر أبا موسى بإقراري ، وأن يستبدل بأصحابي ! «^(١)

وقد عاش الناس في خلافة عمر ، على هذا الأسلوب من الحياة ، والمال يتدفق إليهم من كل صوب ، ولا يدرون ماذا يفعلون به ، ولا يعرفون الوجوه التي ينفقونه فيها . . . وقليل منهم من حاول أن يستحدث له بهذا المال حياة أشبه بتلك الحياة التي رآها في المواطن الجديدة التي دخلها الإسلام ، فوجد يد عمر التقوية تمسك به ، وتدعئه دعاء ، وتخرجه في عنف وقوة ؛ من هذا الوجه الذي انصرف إليه !

أما عثمان - رضي الله عنه - فقد رأى أن يرفع عن الناس هذا الحظر ، وأن يدعمهم مع الحياة ، يلقونها ، بما فيهم من خير وشر ، غير مضيق عليهم أن يأكلوا الطيب ، ويلبسوا الآين ، وينعموا بما أفاء الله عليهم من مال ، وما وقع لأيديهم من مفاتم !

وكانه - رضي الله عنه - يرى أن يذيق الناس طعوم الحياة الجديدة التي مكّن الله فيها للمسلمين ، وأورثهم مافيها من أموال وممتع . وأن يُريهم - فيما ينعمون به - بعض الثواب العاجل للمجاهدين في سبيل الله . فقد جعل الله إلى يد

(١) الكامل للبرد . . الجزء الثالث ص ٨٩ .

(م ١٣ - علي بن أبي طالب)

المجاهدين أربعة أخماس ما يفتنمون من عدوهم ، ولم يحتجز منهم إلا خمس هذه المغانم ، لتنفق في وجوه البر والإحسان .. فهذه للمغانم خالصة لهم ، ينفقونها فيما أحلّ الله لهم . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا .. خالصة يوم القيامة » .

ثم إنه من جهة أخرى ، كان - رضى الله عنه - يرى أن الحياة التي فرضها عمر . رضى الله عنه . على الناس ، لا يمكن أن تقبلها الحياة ، وأن يخضع لها الناس ، هكذا إلى غير نهاية !! .

إن تلك السنوات العشر التي عاشها الناس في خلافة عمر على الأسلوب الذي أرادهم عليه ، إنما هي فترة استثنائية ، قضت بها ظروف ، وأعانت عليها أحوال .. إذ كان المسلمون مشتبكين في حروب متصلة مع أكبر دولتين في العالم يومذاك ، وهما الفرس والروم .. فلم يكن هناك - والأمر كذلك - مجال لكي يفرغ أحد إلى نفسه ، أو ينظر فيما أفاء الله عليه من مغنم !

وإذن فالناس صائرون يوما إلى أن يلتقوا بتلك الحياة ، التي أقبلت عليهم ، ومدّت يديها لهم بالمال والسلطان ، ولن تستطيع قوة أن تحول بينهم وبينها ، ولن يقوى وازع من سلطان مادي أو روحي ، أن يعزلهم عن تلك الحياة ، وعن التلبس بها ، والتنافس فيها !

الصحابة وسياسة عثمان :

وإذن فهو شيء جديد هذا الذي رآه الصحابة في عهد عثمان ، لم يعهده في حياة الرسول ، ولم يروّه في عهد أبي بكر وعمر .

لقد رأى الصحابة في خلافة عثمان قصورا تقام في الجزيرة العربية ، ويجلب إليها الأناث والرياش ، وتحشد فيها الجوارى والقيان ، ويساق إليها الترف

والنعم ، في شتى ألوانه ، ومختلف صورهِ فأنكروا ذلك أيما إنكار ، وعدّوه
بدعاً في الدين ، وخَرَقاً لسياج الإسلام !

ثم ترامت إلى أسماعهم أخبار الأمصار ، وما يتقلب فيه الولاة من ألوان
الحياة ، وما يحوزون من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ومن آلاف
الجواري والعلماء .. فهالهم الأمر ، وأفزعهم المصير الذي صار إليه أمر
المسلمين .

وأكثر من هذا .. فقد رأى الصحابة بعضاً من صحابة رسول الله يأخذ
حظه من هذا الحياة الجديدة ، فيبتنى القصور ، وبعمرها بالجواري والإماء ،
وتتدفق بين يديه الأموال بلا توقف ولا حساب .. فيعظم الخطب في أعينهم ،
ويقع اليأس في قلوبهم !

وتتجمع كل هذه الصور ، وتكثر فيها الأحاديث ، وتدور حولها
الآراء .. وينظر الناس من خلالها إلى عثمان رضي الله عنه ، وكأنه هو الذي
خلقها وصوّرها ، وحمل الناس عليها !!

وعثمان - رضي الله عنه - مظلوم ، لا يد له في هذا ، ولا سلطان له عليه
في دفعه !

وتلك أول سحابة تنمقد في سماء الخلافة الإسلامية وتُلقي على الخليفة بظلمها
الأسود الثقيل !

ولاية عثمان :

وأخذ ولاية عثمان بحظهم كاملاً من هذه الحياة الجديدة ، بل لقد أفرطوا
في هذا وأسرفوا ، حتى جاوزوا الحدود ، وجاروا على حرّات الدين !
وولاية عثمان - كما عرفنا - شبان مغامرون طامحون ، من شباب بني أمية ،

الذين اعتقلهم الإسلام في محيط ضيق ، وأنزلهم في أعقاب الناس ، حيث تأخر
سميهم إليه ، ودخولهم فيه !

وقد أنكر الناس على عثمان - رضى الله عنه - إقامة هؤلاء الشبان من
بنى أمية ولالة على الأمصار ، بعد أن عزل عنها ولاتها من صحابة رسول الله ،
وأهل السابقة والبلاء في الإسلام !

ولم يكن هؤلاء الشبان ممن يصلحون للقيام على شئون المسلمين ، في هذا
الوقت الذى لا تزال فيه ريح النبوة ، ومشاهد الرسول قائمة ، ولا تزال فيه بقية
صالحة من صحابة الرسول باقية ، ينظر إليها الناس ، فيرون فيها مخايل النبوة ،
ويجدون منها سمتَ النبی وهدیه !

لقد كان هؤلاء الشبان ممن دخلوا في الإسلام ، حين أرغمتهم الظروف
على الدخول فيه ، حيث لم يكن ثمة من سبيل إلا الإسلام أو القتل !
كما أن هؤلاء الشبان كانوا أبناء رعوس الكفر والمخاذاة لله ولرسوله ،
والكيد للإسلام والمسلمين . . ومن أسلم منهم ، فقد أسلم بلسانه ، ولم يخالط
الإيمان قلبه .

ومن هؤلاء الأمراء :

١ - الوليد بن عقبة

وقد ذكرنا بعضاً من أخباره وأخبار أبيه ، عقبة بن أبي مُعيط ، وعرفنا
كيف عَرَفَ الوليد الطريقَ إلى قلب عثمان - رضى الله عنه - وأنه استغلَّ
أختوته له من أمه ، فكان أحدَ الأربعة أو الخمسة الذين يجلسون على سرير
عثمان ، وأنه مازال يُقتلُ لعثمان حتى رق له ، وولاه الكوفة ، وعزل عنها
سعد بن أبي وقاص !

ولاشك أن الناس استقبلوا هذا الأمر بالغربة والاستنكار ، لعزل سعد بن أبي وقاص ، وتولية الوليد بن عقبة !

ولاشك أيضاً أن عيوننا كثيرة ، من أهل الكوفة وغيرها ، جمعت تحدق في الوليد ، وتقلب النظر فيه ، لعلها ترى منه ذلك الرجل الذي يقيمه الخليفة مقام سعد بن أبي وقاص ، ويؤثره عليه بولاية هذا المصر !

فكان الوليد بهذا موضع بحث ونظر ، يتتبع الناس حركاته وسكناته ، ويرصدون أقواله وأفعاله ، ويتوقعون زلاته وعثراته !

ولو أن الوليد - والأمر كذلك - كان سليماً في سياسته ، مُعافى في دينه ، لماترك الناس له أديماً صحيحاً .. لأهم أداروا إليه أبصاراً محقرة لشأنه ، واستقبلوه بقلوب مبغضة له ، لا ترجو منه خيراً ، ولا تتوقع من جهته صلاحاً أو إصلاحاً ! .

فكيف والوليد لم يكن يتوقى الشبهات ، ولم يكن يوقر الحرمات ، أو يتحرج منها .. لرقّة دينه ، وصغر أمر الإسلام في نفسه !

كان عبد الله مسعود - رضى الله عنه - على بيت مال الكوفة ، حين جاء الوليد والياً عليها ، فاستقرض من بيت المال مالاً ، فأقرضه ابن مسعود إياه ، وقد كان الولاية يفعلون ذلك ، ثم يردّون ما اقترضوه ! .

فلما طالبه ابن مسعود بما اقترضه ، مرة ومرة ، كتب إلى عثمان يشكو ابن مسعود . وإلحاحه في طلب ما اقترض من بيت المال .. فكتب عثمان إلى ابن مسعود : « إنما أنت خازن لنا ... فلا تتعرض للوليد . فيما أخذ من المال » . فطرح ابن مسعود مفتاح بيت المال . وقال : كنت أظن أني خازن للمسلمين ، فأما إذ كنت خازناً لكم ، فلا حاجة لي في ذلك ! » .

وقد أقام ابن مسعود في الكوفة بعد هذا ، يتحدث إليه الناس ، ويتحدث هو إليهم ، بما كان بينه وبين الوليد ، ثم ما كان بينه وبين عثمان ! وكان من هذا أن أنكر الناس على عثمان هذا الموقف ، وأكثروا من القول فيه ، وفي الوليد !

فكتب الوليد بذلك إلى عثمان .. وقال له : « إنه يعيبك ويطعن عليك » ! فكتب عثمان إلى الوليد . بأمره بإشخاص ابن مسعود إلى المدينة .. فاجتمع أهل الكوفة إلى ابن مسعود ، وأرادوا أن يمنعوه ، وقالوا له : أقم ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه .. فقال : « إن له عليّ حقّ الطاعة ، ولا أحبّ أن أكون أول من فتح باب الفتن » .

ثم خرج ابن مسعود من الكوفة ، وشيعة الناس في حفاوة عظيمة .

فلما قدم المدينة ، دخل المسجد ، وعثمان يخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه عثمان قال : ألا إنه قدمت عليكم دُويبةٌ سوء . من يمشي على طعامه ، يقيء ويسلح .

فقال ابن مسعود : لست كذلك ! ولكنني صاحب رسول الله يوم بدر ، ويوم بيعة الرضوان ^(١) .

وسمعت عائشة هذا القول من عثمان ، فنادت وهي في حجرتها : « أيّ عثمان .. أتقول هذا لصاحب رسول الله ؟ » .

(١) يعرض ابن مسعود في هذا القول بعثمان ، حيث لم يشهد بدرآ ، ولا بيعة الرضوان . وقد تخلف عن بدر ياذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم لتفريض زوجه رقية بنت رسول الله . ولم يشهد بيعة الرضوان إذ بعثه الرسول إلى قريش يبلغها أمر الرسول فيما جاء به إلى مكة ، وأنه جاء معتمراً لا محارباً .

وقال لها عثمان : « اسكتي ! »

ثم أمر عثمان بـابن مسعود فأخرج من المسجد إخراجاً عنيفاً ، وضرب به عبد الله بن زَمْعَةَ الأرض ، فدقّ ضلعه ا .

فقال عليّ : يا عثمان .. أتفعل هذا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بقول الوليد بن عقبة ؟

فقال عثمان : ما بقول الوليد فعلتُ هذا ، ولكن وجهت زبيد بن الصلت الكنديّ إلى الكوفة ، فقال له ابن مسعود : إن دم عثمان حلال !

فقال عليّ : أحلّ عليّ زبيد .. علي غير ثقة ! ؟

وقام عليّ بأمر ابن مسعود ، حتى أتى به منزله . .

وأقام ابن مسعود بالمدينة ، لا يأذن له عثمان في الخروج منها إلى ناحية من النواحي .. وأراد الغزو بعد أن برىء ، فلم يأذن له . . . وقال له مروان ابن الحكم : إن ابن مسعود أفسد عليك العراق ، أفتريد أن يفسد عليك الشام ؟ فلم يبرح المدينة حتى توفيّ قبل مقتل عثمان بسنتين .

ولما مرض ابن مسعود مرضه الذي مات فيه ، أتاه عثمان عائداً ، فقال :

ما تشكي ؟

قال : ذنوبي !

قال : فما تشتهي ؟

قال : رحمة ربي !

قال : ألا أدعوك طبيباً ؟

قال : الطبيب أمرضني !

قال : أفلا آمر بمطائلك ؟

قال : منعته وأنا محتاج إليه ، وتعطينه ، وأنا مستغن عنه ؟

قال : يكون لولدك !

قال : رزقهم على الله !

قال : استغفر لي أبا عبد الرحمن !

قال : أسأل الله أن يأخذ لي منك بحقي !

وأوصى ابن مسعود أن يصلي عليه عمار بن ياسر ، وألا يصلي عليه عثمان ، فدفن بالقيع ، وعثمان لا يعلم ، فلما علم غضب ، وقال : سبقتوني به ! فقال عمار : إنه أوصى ألا تصلي عليه !^(١) .

هذا ، وقد أخذ أهل الكوفة على الوليد أموراً كثيرة .. منها : شرب الخمر ، والصلاة بالناس وهو سكران ، وصداقته المتصلة بأبي زيد الشاعر النصراني ، الذي اتخذه صفيّاً له ونديماً على الشراب ، ووهبه داراً لمقيل ابن أبي طالب ، كانت على باب مسجد الكوفة ، وأجرى عليه وظيفة خمر وخنازير !

وطبيعي أن ما نسب إلى الوليد قد بُني على أصل ، ولكن لعل هذا الأصل هو شيء قليل إلى ما أضيف إليه ، وضخم من حجمه ، وشوّم من صورته ! .

(١) انظر : أنساب الأشراف للبلاذري جزء ٥ ص ٣٦ وما بعدها . وابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة) جزء أول .

وأياً ما كان الأمر ، فقد فتح الوليد على عثمان باباً من أبواب الفتنة ، فكثُر في الكوفة الهرج والمرج ، وتعلت الأصوات بالسخط والشكوى ، وأقيمت وفود الكوفة إلى المدينة ، تذيع في الناس هذه الصور المنكرة عن الوليد ، حتى لقد هاجت النفوس ، وأقبل الصحابة على عثمان ، يحدثونه بما يسمعون من الوليد ، ويطلبون إليه رأيه فيما يقول الناس عنه ! وسنرى بعد قليل ما كان في أمر الوليد ، وحدثه في شرب الخمر !

٢ - عبد الله بن أبي السرح

هو أخو عثمان من الرضاعة .

ولاه عثمان مصر ، بعد عزل عمرو بن العاص عنها .

وقد عرفنا أن عبد الله هذا ، كان ممن كتبوا الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتدت مشركاً ، وعاد إلى مكة - قبل الفتح - واجتمع إلى قريش ، يحدثهم الكذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول : إني كنت أصرف محمداً كيف أشاء ! .. كان يُبلى على « عزيز حكيم » فأقول : أو « عليم حكيم » فيقول : نعم .. كلُّ صواب !

وفي عبد الله هذا نزل قوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحى إليّ ولم يُوحَ إليه شيء ومن وقال سأنزل مثل ما أنزل الله .. »^(١) فلما كان يوم الفتح أهدر الرسول دمه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن جنح إلى السكينة وألقى السلاح فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، غير عدو الله ابن أبي السرح » .

وقد شفع له عثمان عند رسول الله ، وجاء به إليه ، فأعرض عنه ثلاث مرات ، ثم قال لعثمان : نعم ! فلما انصرف عثمان ، قال النبي لأصحابه : « ما صمتُ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه » فقالوا : « هلأ أو مات إلينا ؟ فقال : « إن النبي لا ينبغي أن يكون له خائفة أعين » .

هذا هو بعض تاريخ عبد الله بن أبي السرح في الإسلام . . كيد الله ورسوله ، واقتراء على الله وعلى رسوله ، وقد دمغه القرآن بهذا الوصف : « افترى على الله كذبا » ثم حكم عليه الرسول حكما لازما : أنه عدو الله ! إنه حكم لا ينقض أبداً .

فلما ولاه عثمان مصر سنة ٢٥ هـ وخلع عنها عمرو بن العاص ، تلقاه المصريون وقد سبقه إليهم هذا الذي عرفه الإسلام والمسلمون عنه ، فكان ذلك باعثاً من بواعث التشویش عليه ، والزرارية له ، ورد كل حسن وقبيح منه ! وقد تربص المسلمون به ، وانتظروا له العثرات والزلات !

وكان أن شغل المصريون بفتح أفرريقية ، فسار بهم إليها وافتتحها ، فأعطاه عثمان خمسَ غنائم الغزوة الأولى .. فكان ذلك مما هيج النفوس على عثمان ، وأفسح للقائلين مجال القول فيه ، ثم الثورة عليه ! .

ومن هنا كانت مصر أولى الأمصار التي أطلت منها رأس الفتنة ، وتجمعت فيها جموع الثورة على الخلافة والخليفة .

وسنرى ما كان بين الصحابة وأهل مصر ، وبين عثمان في أمر ابن أبي السرح

٣ - مروان بن الحكم

ابن عم عثمان رضى الله عنه .

وأبوه الحكم بن العاص ، أمين رسول الله وطريده ..

وقد استأثر مروان عند عثمان بثلاثة : فكان صاحب سره ، والموجه لسياسته ، والمشير عليه في كل أموره .

وسنرى ما كان من مروان ، مما هيج الخواطر على عثمان ، وأوقع الجفوة بينه وبين الصحابة .. رضوان الله عليهم .

في مواجهة العاصفة

مصر ، والكوفة ، والمدينة ..

تلك هي المواطن الثلاثة ، التي هبت منها على عثمان رضى الله عنه ، الأعاصير التي واجه فيها مصيره ، القدور له . فقتل شهيداً ، وسال دمه الزكى الطهور ، على المصحف الشريف ، وهو يتلو كتاب الله ، ويرتل آياته .
أما مصر .. فإن عبد الله بن أبي السرح هو الذى أفسد ما بين أهلها وبين الخليفة ، بما قصصنا عليك ، وما نقص من أحداث .

وأما الكوفة .. فالوليد بن عقبة هو الذى هيج الناس فيها عليه ، وعلى الخليفة الذى أقامه والياً عليها ، ولم يأخذ على يده بما كان منه ! .
وأما المدينة .. فإن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أقبل عليهم الناثرون من هذين المصرين ، وحدثوهم عن الأحداث التى نجمت فيهم ، وسألهم العون عند الخليفة ، على إصلاح ما فسد ، وسنرى كيف تجمعت هذه هذه التيارات ، وكيف تلاقى عند باب عثمان ، حتى حطمت ، ودفعت بالناثرين بين يديه . فتناولوه بأيديهم ، وبسيوفهم ، حتى قضى نحبه !
مصر وثورتها وثوارها :

روى البلاذرى فى أنساب الأشراف ، أن محمد بن أبى حذيفة^(١) . ومحمد

(١) هو محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة القرشى ، العبشمى . ولد بالحبشة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . واستشهد أبوه أبو حذيفة ، بالجماعة ، فضمه عثمان إليه ورباه ، وفى خلافة عثمان طلب الإمارة فلم يره عثمان أهلاً لها ، إذ كان مستهتراً ، ماجناً .. فخرج إلى مصر ، وجعل يؤلب الناس على عثمان .

ابن أبي بكر ، حين أكثر الناس في أمر عثمان ، قَدِمَا مصر ، وعليها عبد الله
ابن أبي سرح ، ووافقا بمصر محمد بن طلحة بن عبيد الله . وهو مع عبد الله
ابن سعد .

وشهد ابن أبي حذيفة صلاة الصبح في صبيحة الليلة التي قدم فيها ، ففاته
الصلاة ، فجهر بالقراءة ، فسمع ابن سرح قراءته ، فأمر إذا صلى أن يُؤَنِّي به ..
فلما رآه قال له :

ما جاء بك إلى بلدي ؟

قال : جئت غازيا ؟

قال : ومن معك ؟

قال : محمد بن أبي بكر

فقال : والله ما جئتما إلا لتفسدا الناس .

وأمر بهما فسجنا ، فأرسلا إلى محمد بن طلحة ، يسألانه أن يكلم ابن
أبي سرح فيهما ، لئلا يمنعهما من الغزو ، فأطلقهما .

وغزا ابن أبي السرح إفريقية ، فأعدّ لها سفينة مفردة ، لئلا يفسدا
عليه الناس ، فرفض ابن أبي بكر ، فتخلف وتخلف معه ابن أبي حذيفة ..
ثم خرجا في جماعة من الناس ، فما رجعا من غزوتهما إلا وقد أوغرا الناس
على عثمان ..^(١)

وقال الطبري : « خرج محمد بن أبي حذيفة . ومحمد بن أبي بكر ، عام
خرج عبد الله بن سعد ، فأظهرا عيب عثمان ، وما غيّر ، وما خالف به أبابكر

(١) أنساب الأشراف : جزء ٥ ص ٥٠ .

وعمر . وأن دم عثمان حلال ، ويقولان : استعمل عبد الله بن سعد .. رجلاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباح دمه ، ونزل القرآن بكفره حين قال : « سأنزل مثل ما أنزل الله » .. وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً وأدخلهم .. « فأفسدا أهل تلك الغزوة ، وعابا عثمان أشد العيب » ..

ثم يقول : « ومحمد بن أبي حذيفة يقول للرجل : أما والله ، لقد تركنا حلقنا الجهاد حقاً ! فيقول الرجل : وأى جهاد ؟ فيقول : « عثمان بن عفان .. فعل كذا وكذا !! » حتى أفسد الناس ، فقدموا بدمهم — أى مصر — وقد أفسدوا ، وأظهروا من القول ما لم يكونوا ينطقون به ! ^(١) » .

ويقول ابن قتيبة : « ذكروا أن أهل مصر ، جاءوا — إلى المدينة — يشكون ابن أبي سرح ، عاملهم ، فكتب إليه عثمان كتاباً يهدده فيه ، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل مانهاه عنه عثمان ، وضرب بعض من أتاه به من قبل عثمان من أهل مصر ، حتى قتله ! .

« فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل ، فتلوا المسجد — مسجد رسول الله — وشكوا إلى أصحاب رسول الله في مواقيت الصلاة ، ما صنع بهم ابن أبي سرح .. فقام طلحة فتكلم بكلام شديد ، وأرسلت عائشة إلى عثمان فقالت له : قد تقدم إليك أصحاب رسول الله ، وسألك عزل هذا الرجل فأنصفهم من عاملك ! .

« ودخل عليه علي ، وكان متكماً القوم ، فقال له : إنما يسألونك رجلاً مكان رجل ، وقد ادعوا قبلاً دماً ، فأعزله عنهم ، واقض بينهم ، فإن وجب لهم عليه حق ، فأنصفهم منه ... !

فقال : اختاروا رجلاً أوليه عليهم . فقالوا : استعمل محمد بن أبي بكر ،
فكتب عهده ، وولاه ، وخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار ، ينظرون
فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر !

« فخرج محمد ومن معه ، حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة ،
إذا هم بسلام أسود على بعير ، يخطب البعير ، كأنه رجل يطلب ، أو يطلب ،
فقال له أصحاب محمد : ما قصتك ؟ وما شألك ؟ كأنك طالب ، أو هارب ! فقال
أنا غلام أمير المؤمنين !! (كذا ؟) .

وجئني إلى عامل مصر !! (كذا ؟) .

فقال له رجل : هذا عامل مصر معناه !

قال : ليس هذا أريد !!

وأخبر محمد : بأمره ، فبعث في طلب رجلاً ، فجاء به إليه .

فقال له : غلام من أنت ؟

فأقبل مرة يقول : أنا غلام مروان .. ومرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين !

حتى عرفه رجل أنه لعثمان !

فقال له محمد : إلى من أرسلك ؟

قال : إلى عامل مصر ؟

قال : بماذا ؟

قال : برسالة :

قال : أما معك كتاب ؟

قال : لا .

ففتشوه ، فلم يجدوا معه كتاباً !

وكانت معه إداوة ، قد يديت ، فيها شئ . يتقلقل ، فخر كوه ليخرج ،
فلم يخرج ، فشقوا إداوته ، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح .
فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار ، ثم فض الكتاب بمحضر منهم
فقرأه فإذا فيه :

« إذا أتاك محمد بن أبي بكر ، وفلان ، وفلان ، فاقتلهم ، وأبطل ،
كتابهم ، وقرّ على عملك ، حتى يأتيك رأيي ١١ » .

فلما رأوا الكتاب ، فزعوا منه ، ورجعوا إلى المدينة ، وختم محمد
الكتاب بخواتم نفر الذين كانوا معه ، ودفعه إلى رجل منهم ، ثم قدموا
المدينة ، فجمعوا طلحة والزبير ، وعلياً ، وسعداً ، ومن كان من أصحاب رسول
الله ، ثم فكروا الكتاب بمحضر منهم . وأخبرهم بقصة الغلام ، وأقرأهم
الكتاب ، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان ، وقام أصحاب النبي
فلحقوا بمازلمهم ، وحصر الناس عثمان ، وأحاطوا به ، ومنعوه الماء والخروج
ومن كان معه ، وأجلب عليه محمد بن أبي بكر ^(١) .

إنها فتنة تحركها أيد خفيّة ، وتلقى في النار الخامدة وقوداً ، تنفخ فيه
نخبث ودهاء !

وقصة الغلام — إن صحت — كانت دليلاً على براءة عثمان ، وعلى تلك
الفوايا السيئة ، التي كانت تدبّر الشر ، وتبيت السوء . وتفسد ما بين المسلمين !
وعثمان — فوق أنه أبعد من أن يفتضّ عهداً — يأبى عليه دينه أن يبيع
دم مسلم ، وقد آثر — رضى الله عنه — أن يلقى الله شهيداً ، وأن ينظر إلى قاتليه

بعينه ، دون أن يسمح لأحد بالدفاع عنه ، وإمراقة قطرة من دماء المسلمين من أجله .

فكيف يطلب إلى ابن أبي السرح أن يقتل محمد بن أبي بكر وفلاناً وفلاناً .. من المسلمين ؟

ثم هذا الغلام ، الذى يعترض ركب محمد بن أبي بكر ، ويتحكك بالناس ، وكأنه يريد أن يقول لهم : إن فى الأمر شيئاً ! وإنى أحمل سرّاً خطيراً ، عليكم أن تكشفوه ، وتعرفوه ! ألا يدلّ بفعلاته تلك على أنه موعز إليه بما فعل ، وأنه مطلوب منه أن يلعب تلك اللعبة ، حتى يُعرف أمره ، ويُعلم السرّ الذى بين يديه .. فيوقع الناس فى فتنة ، يحدث من ورائها ما قد حدث ؟

وهذا الأسلوب من الكيد ، والإفساد ، والمكر بالأعداء - قد كان معروفاً فى ذلك الحين ، على تلك الصورة التى رأيناها هنا ، فى قصة هذا الغلام .
وكان لمعاوية بن أبي سفيان تدبير هكذا التدبير ، للإيقاع بين أعدائه :
يقول المبرد ، فى كتابه الكامل : « وحُدِّثت أن معاوية كان إذا أتاه عن بطريق من بطارقة الروم كيد للإسلام ، احتال فأهدى إليه ، وكتبه ، حتى يغرى به ملك الروم !

« فكانت رسله - أى رسل معاوية - تأتية ، فتخبره بأن هناك بطريقاً يؤذى الرسل ، ويطعن عليهم ، وبسبب عشرتهم ، فقال معاوية : أى مافى عمل الإسلام أحبّ إليه ؟

ف قيل له : الخفاف الحمر ، ودُهن البان !

فألفاه بهما ، حتى عُرِفَت رسله باعتياده .

ثم كتب (معاوية) كتاباً إليه ، كأنه جواب كتاب منه ا ، يقول له فيه : إنه وثق بما وعده من نصره ، وخذلانه ملك الروم ا وأمر الرسول بأن يتعرض للروم ، حتى يضعوا يدهم على الكتاب ا ا

« فلما ذهبت رسل معاوية في أوقاتها ثم رجعت إليه ، قال : ما حدث هناك ؟ قالوا : فلان البطريق ، رأيناه مقتولاً مضلوباً ا فقال : وأنا أبو عبد الرحمن ا ا » ^(١) فهذا التدبير الذي يقال إن معاوية قد اصطنعه مع البطريق حين أرسل إليه بكتاب كأنه جواب على كتاب منه ، وأمر حامل الكتاب بأن يمتثل ، لالكي يصل الكتاب إلى البطريق ، بل لكي يقع في يد رجال ملك الروم ، وكأنه إنما غلب على أمره ، وأنه انكشف منه السر الذي كان معه - نقول إن هذا التدبير هو من هذا التدبير نفسه ، الذي اتخذ في شأن الكتاب المرسل إلى عامل مصر ، مقصوداً به أن يقع بيد محمد بن أبي بكر ومن معه ا

ولا نقول إن معاوية هو صاحب هذا التدبير . . وإنما الذي يمكن أن نقوله هنا ، هو أن الذين دبّروا هذا الكيد في أيام عثمان كانوا بطانة لمعاوية ، وأنهم هم الذين أشاروا على معاوية في شأن البطريق ، بأن يسلك معه هذا المسلك الذي عرفوه ، وعرفوا آثاره . مع عثمان ومحمد بن أبي بكر ا

وقد أفاد معاوية من مثل هذا الكيد في إفساد ما بين عليّ - كرم الله وجهه - وبين أهل العزم والنجدة من أصحابه .

كان قيس بن سعد الأنصاري ، من الأركان القوية ، التي يستند إليها الإمام عليّ ، في دفع الفتن النائرة عليه . . وقد ولاه عليّ « مصر » ، وكان معاوية

(١) السكامل للمبرد جزء ١ ص ٣٠٧ .

يحرص على أن يستميل إليه قيس بن سعد هذا ، إما يعلم من مكاتبة في الأنصار ، ولما اشتملت عليه نفسه من عظمة ، قل أن تجتمع في الرجال .. وقد استنفد معاوية في ذلك جهده ، فلم يبلغ من قيس شيئاً ، بل كان في كل مرة يجبه معاوية ، ويرده رداً مرّاً قاسياً .

فكتب كتاباً ، نسه إلى قيس ، موجه إلى معاوية .. يقول له فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. للأمر معاوية بن أبي سفيان .. من قيس بن سعد ، سلام عليك .. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .. »

« أما بعد ، فقد كان قتل عثمان حداثاً في الإسلام عظيماً ، وقد نظرتُ لنفسى ودينى ، فلم أر أنه يسعى مظاهره قوم قتلوا إمامهم مسلماً ، محرماً ، برّاً تقيّاً .. فستغفر الله عز وجل لذنوبنا ، ونسأله العصمة لديننا .. ألا وإني قد أقيت إليكم بالسّلم ، وإني أجبتك إلى قتال قتلة عثمان ، إمام الهدى المظلوم .. فعول على فيما أحببت من الأموال والرجال ، أعجبه إليك إن شاء الله ، والسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته »^(١)

وقد فعل هذا الكتاب المدسوس فعله ، إذ كان من التدبير أن يقع الكتاب بيد عليّ ، ليعلم منه خروج قيس عن طاعته ، وولائه لمعاوية .. وبهذا استطاع معاوية أن يكيد لقيس ، وأن يفسد ما بينه وبين عليّ !

ومرة أخرى نقول إن الكتاب الذي وقع في يد محمد بن أبي بكر مدسوس على عثمان ، وأن الأسلوب الذي جاء عليه ، كان معروفاً لدى معاوية ، ومستشاري معاوية .

وإذن ، فإن الذي كتب هذا الكتاب ، وحمله هذا العبد ، وبعث به وراء

محمد بن أبي بكر ، إنما يقصد بهذا الكتاب محمد بن أبي بكر ومن كان معه ، حتى لا يستقيم الأمر الذي كان في طريق الاستقامة والسلام ، وحتى لا تسكن تلك الفتنة التي عمل عثمان والصحابة على إسكانها !

وندع أهل مصر ، وما أجلبوا على عثمان . . وننظر إلى إصبع أخرى من أصابع تلك الفتنة ، التي تعمل في أكثر من ميدان ، حتى إذا فسد تدبير في ناحية لم يسكن الشر ، ولم تحمد الفار !

ثورة الكوفة وثوارها :

قال البلاذري : « لما شاع فعل عثمان ، وسارت به الركبان ، كان أول من دعا إلى خلعه ، والبيعة لعليّ ، عمرو بن زرارة بن قيس بن عمرو بن عداء النخعي ، وكميل بن زياد بن نهيك بن هيثم النخعي ، ثم أحد بني صهبان . . فقام عمرو بن زرارة فقال :

« أيها . . الناس إن عثمان ترك الحق وهو يعرفه ، وقد أغرى بصلحائكم ، يولى عليهم شراركم ! » .

فرضي خالد بن عرفطة بن أبرهة بن سنان ، حليف بني زهرة ، إلى الوليد ، فأخبره بقول عمرو بن زرارة ، واجتماع الناس إليه ، فركب الوليد نحوهم ، فقبل له : إن الأمر أشد من ذلك ، والقوم مجتمعون ، فأتق الله ، ولا تسعثر الفتنة !

ثم كتب الوليد إلى عثمان ، بما كان من ابن زرارة ، فكتب إليه عثمان : إن ابن زرارة أعرابي جلف ، فسيّره إلى الشام ، فسيّره . . فقال قيس بن سلمة - من كندة . . يومئذ :

أقسم بالله رب البيت مجتهداً أرجو الثواب له سرّاً وإعلانياً

لأَخْلَعَنَّ أَبَا وَهَبٍ وَصَاحِبَهُ كَهْفَ الضَّلَالَةِ عَثْمَانَ بْنَ عَفَانَةَ^(١)
وَنَتْرِكَ الْكَوْفَةَ وَأَهْلَهَا يَمْوجُونَ وَيَضْطَرِبُونَ .. فَقَدْ أَطْمَأَنَّ الَّذِينَ أَثَارُوا
تِلْكَ الْفِتْنَ إِلَى أَنَّهَا قَدْ اسْتَيْقِظَتْ ، وَلَنْ تَنَامَ ، حَتَّى تَبْلُغَ غَايَتَهَا !
المدينة ، وصحابة الرسول :

كَانَتِ الْمَدِينَةُ — كَمَا قُلْنَا — مَلْتَقَى الشَّاكِينَ ، وَالْمَشَاغِبِينَ ، مِنَ الْأَمْصَارِ ،
وَكَانَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، مُحِطَّ رِحَالِ هَؤُلَاءِ الْوَافِدِينَ ، بِسَمْعُونَ
مَا يَقُولُونَ ، وَبِمَعْرِفُونَ إِلَى مَا يَشْكُونَ ، وَيَلْتَقَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَإِذَا الْوُجُوهُ ،
وَالْحُسْرَى ، وَالْحَبِيرَةُ !

وَيَلْتَقَى بَعْضُهُمْ بِالْخَلِيفَةِ ، فَيُلَاقِي إِلَيْهِ بِمَا سَمِعَ مِنْ أَنْبَاءِ الْأَمْصَارِ ، وَمَا يَجْرِي
فِيهَا مِنْ أَحْدَاثَ ، وَمَا تَعَجَّ بِهِ مَدِينَةُ الرَّسُولِ مِنْ ثَوَارِ الْأَمْصَارِ الَّذِينَ تَوَاعَدُوا
عَلَى الْإِلْتِقَاءِ فِي مَدِينَةِ الرَّسُولِ ، فِي مَوْسَمِ حَجِّ هَذَا الْعَامِ الَّذِي حُصِرَ فِيهِ عِيَانُ ،
وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَحْجَّ بِالنَّاسِ ، وَطَلَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ أَنْ يَقُومَ مَقَامَهُ ، وَأَنْ
يَقِيمَ لِلنَّاسِ حَجَّتَهُمْ !

الثورة والناترون :

تَجْمَعُ السَّاخِطُونَ عَلَى وَلَاةِ عَثْمَانَ ، وَالنَّاقِمُونَ عَلَى تِلْكَ السِّيَاسَةِ الَّتِي مَكَّنَتْ
لِبْنِي أُمَيَّةٍ مِنَ الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى النَّاسِ ، وَالْإِسْتِثَارِ بِالْإِسْلَامِ ، وَالْعَمَلِ عَلَى
الْإِنْحِرَافِ بِالْخِلَافَةِ إِلَى نِظَامٍ أَشْبَهَ بِنِظَامِ الْمَلِكِ ، الَّذِي لَا سُلْطَانَ فِيهِ لغير
القوة والقهر !

وَيَتَحَدَّثُ الْمُؤَرِّخُونَ عَنْ مَوَاقِفَ كَثِيرَةٍ لِلصَّحَابَةِ ، وَقَفُوهَا مِنْ عَثْمَانَ ،

(١) انساب الأشراف : الجزء الخامس .

ومن تلك الأحداث التي أقلقهم ظهورها في المجتمع الإسلامي ، الذي كان لذلك العهد نقياً من كل شائبة ، صافياً من كل كدر ، تظهر على صفحته صفائر الذنوب ، وهنات الانحرافات ، حادة ، صاخبة ، منكرة .

ولو تأخر الزمن قليلاً بمثل هذه الأحداث التي فزع لها الناس في خلافة عثمان والتي أنكروها عليه ، وهاج هياجهم لها ، لما التفت إليها أحد ، بل كانت — في نظر الناس حينئذ — في عداد الصالحات الطيبات من الأعمال . وعلى أي فإن الصحابة — رضى الله عنهم — لم يستطيعوا أن يعزلوا أنفسهم عن هذه الأحداث ، فشاركوا في العمل على إطفاء هذه الفتن المأبجة ، وتسكين تلك النفوس الثائرة ، وسلكوا في هذا مسالك وطرقاً . . مجتمعين ، ومنفردين . . ولكن الذين كانوا يحركون الأحداث ، ويصرفون وجوهها ، عرفوا كيف يفسدون كل تدبير ، يحول بينهم وبين ما يريدون . . فسارت الأمور إلى غايتها ، ووقع ما كان الناس يشفقون منه ، ويخشون على الإسلام والمسلمين مقبته .

روى الطبري في تاريخه . . قال :

« لما رأى الناس ما صنع عثمان كتب من المدينة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى من بالآفاق منهم ، وكانوا قد افترقوا في الثغور : « إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عز وجل ، تطلبون دين محمد . فإن دين محمد أفسده من خلفكم ، وتركه . . فاهلموا فأقيموا دين محمد صلى الله عليه وسلم . . »

ويقول البلاذري :

« لما كانت سنة أربع وثلاثين كتب بعض أصحاب رسول الله إلى بعض يتشاكرون سيرة عثمان وتغييره . وتبديله . وما الناس فيه من عماله ، ويكثرون عليه ، ويسأل بعضهم بعضاً أن يقدموا المدينة إن كانوا يريدون الجهاد . ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع عن عثمان . ولا يفكر

ما يقال فيه ، إلا زيد بن ثابت . وأبا أسيد الساعدي . وكعب بن مالك بن أبي كعب من بني سلعة من الأنصار . وحسان بن ثابت^(١) .

« فاجتمع المهاجرون ، وغيرهم إلى عليّ ، فسألوه أن يكلم عثمان ، ويعظه ، فأتاه ، فقال له :

« إن الناس ورأى ، قد كلموني في أمرك ، والله ما أدري ما أقول لك ! ما أعرفك شيئاً تجهه ، ولا أدلك على أسر لا تعرفه ، وإنك لتعلم ما نعلم . وما سبقناك إلى شيء فتخبرك عنه ، ولقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت ورأيت مثل ما سمعنا ورأيت ، وما ابن أبي قحافة وابن الخطاب بأولى بالحق ، ولأت أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ، لألك نلت من صهره ما لم يثالا . . . قاله الله في نفسك ، فإنك لا تبصر من عمي ، ولا تعلم من جهل !

« فقال عثمان : والله لو كنت مكاني ما عنتك ، ولا أسلمتك ، ولا عتبت عليك أن وصلت رجلاً ، وسددت خله ، وآويت ضائعاً ، ووليت من كان عمر يوليه !

« نشدتك الله . . ألم يول عمر المغيرة بن شعبة ، وليس هناك ؟^(٢)

« قال : نعم .

« قال : فلم تلوموني أن وليت ابن عامر في رجليه وقرابته ؟

« قال عليّ : سأخبرك . . إن عمر بن الخطاب ، كان كلما ولي والياً يطأ على

(١) وهؤلاء جميعاً من الأنصار .

(٢) يريد أن المغيرة بن شعبة ليس بالصحيح وأنه لاخير فيه .

صِياخه^(١) إن بلغه حرف جلبيه ، ثم بلغ به أقصى الغاية « وأنت لاتفعل . .
ضمنت ، ورققت على أقربائك !

« قال عثمان : هم أقرباؤك أيضاً !

« فقال عليّ : لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ، ولكن الفضل في غيرهم .

« قال : ألم يولّ عمر معاوية ؟

« فقال عليّ : إن معاوية كان أشدّ حوقاً وطاعةً لعمر من يرفاً^(٢) ،

وهو الآن يبتزّ الأمور دونك ، ويقطعها بغير علمك ، ويقول للناس : هذا

أمر عثمان ، ويبلغك ، فلا تغير !!

ثم خرج - عليّ - وخرج عثمان بعده ، فصعد المنبر فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن لكل شيء آفة ، ولكل نعمة عاهة ، وإن آفة هذا
الدين ، وعاهة هذه الملة ، قومٌ عيتابون ، طمانون ، يُرونكم ما تحبون ،
ويسرّون لكم ما تكرهون ، مثل النعام ينبعون أول ناعق ، أحبّ مواردكم
إليهم البعيد . . أما والله معشر المهاجرين والأنصار ، لقد عبتكم على أشياء ،
ونفتمت أموراً ، قد أقررتهم لابن الخطاب مثلها ، ولكنّه وقمكم ، وقمعكم ، ولم
يجترأ أحد بملاً بصره منه ، ولا يشير بطرفه إليه . . أما والله لأنا أكثر من
ابن الخطاب عدداً ، وأقرب ناصراً ، وأجدر !! ثم قال : أنفقون من حقوقكم
شيئاً ؟ فمالى لا أفعل في الفضل ما أريد ؟ فلم كنت إماماً إذن ؟ »^(٣)

(١) الصياخ : عظمة الأذن ، وهو كناية عن أنه يضع خده على الأرض ، أى

يذله ويهينه إن انحرف .

(٢) يرفاً : غلام عمر .

(٣) أنساب الأشراف : جزء ٢ ص ٦٧ والإمامة والسياسة جزء ١ ص ٢٧

لقد عَرَضَ الخليفة نفسه للناس ، وواجههم بما عنده ، لا ينكرون عليه ،
وأراهم أنه لم يأت منكراً ، وأن ما عابوه عليه لم يكن ليعاب على عمر لوفعه ،
وأنهم إنما فعلوا ذلك لأنهم استلأنوه وطمعوا في لينه وحيائه ، ولكنه وقد
صار الأمر به وبهم إلى هذا المصير ، فإنه سيلقاهم بالشدة والعنف ، وإنه لقادر
على أن يشتد ويعنف !

ولكن عثمان - رضى الله عنه - لا يستطيع أن يخرج عن طبيعته من اللين
والسماحة .. فهو على ما طبعه الله ، وعلى ما عرفه الناس .. سمح سهل ، رقيق ..
إن اشتد في حال ، غلبته طبيعته ، فياسر ، وسمح في أغلب الأحيان !
إن العاصفة تطلق في موجات مجنونة متدافعة ، وعثمان - رضى الله عنه -
يلقاها بنفس هادئة ، ويحاول أن يدفعها بيد لينه .. وهيهات !

روى ابن سعد في طبقاته : أن المصريين الذين حصروا عثمان كانوا ستامة ،
على رأسهم عبد الرحمن بن عديس البلوى ، وكثانة بن بشر بن عتاب الكندى
وعمر بن الحقيق الخزاعى .. والذين قدموا من الكوفة كانوا مثنين : على رأسهم
الأشتر النخعى .. والذين جاءوا من البصرة كانوا مئة ، وعلى رأسهم حكيم بن
جبله العبدى .

ثم يقول ابن سعد في وصف هؤلاء الثائرين :

« كانوا يداً واحدة في الشر . وكان حنالة من الناس قد ضَوَّوا إليهم ، قد
مَرَّجت^(١) عهودهم وأماناتهم !!

« وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، الذين خذلوه ، كرهوا هذه
الفتنة ، وظنوا أن الأمر لا يبلغ قتله ، فقدموا على ما صنعوا في أمره .

(١) في الأصل مزجت ، وهو تصحيف ، ومرجت بمعنى ضعفت ، ووهنت .

« ولعمري ، لو قاموا ، أو قام بعضهم ، فحشا في وجوههم التراب ،
لأنصرفوا خاسرين !! »^(١)

وهذا وصف دقيق للمشاعر التي كانت متلبسة بالناس في هذه الفتنة . .
محاربة للفتنة ، وذهول عن الأحداث التي ستندجم عنها !! فلما وقعت الواقعة ،
لم يكن من الممكن مراجعة الموقف ، وتصحيح أوضاعه .

وحدث البلاذري ، فقال :

« التقى أهل الأمصار الثلاثة : الكوفة ، والبصرة ، ومصر ، في المسجد
الحرام ، قبل مقتل عثمان بعام ، وكان رئيس أهل الكوفة كعب بن عبيدة
النهدى ، ورئيس أهل البصرة المثنى بن الحزرة العبدى ، ورئيس أهل مصر
كفانة بن بشر بن عتاب التجيبي . . فتذاكروا سيرة عثمان ، وتبديله ، وتركه
الوفاء بما أعطى من نفسه ، وعاهد الله عليه ، وقالوا : لا يسعنا الرضا بهذا ،
فاجتمع رأيهم على أن يرجع كل واحد من هؤلاء الثلاثة إلى مصره ، فيكون
رسول من شهمكة ، من أهل الخلاف على عثمان ، إلى من كان على رأيهم من
أهل بلده ، وأن يوافوا عثمان في العام المقبل في داره ، فيستعقبوه ، فإن أعقب
وإلا رأوا رأيهم فيه . . ففعلوا ذلك !! »^(٢)

وفي الموعد الذي تواعدوه ، تحركت ركبان الأمصار الثلاثة .

فلما خرج المصريون خرج عبد الرحمن بن عديس البلوى في خمسمائة ،
وخرج معهم محمد بن أبي بكر ، وبقي محمد بن حذيفة ، وأظهروا أنهم يريدون
العمرة ، وكان ذلك في شهر رجب .

وخرج عبد الله بن أبي السرح إلى عثمان في آثار القوم ، وكان قد كتب

(١) الطبقات : ٣ / ٣٥٥ .

(٢) أنساب الأشراف : جزء ٥ ص ٩٠ .

إلى عثمان يستأذن في الخروج ، فأذن له ، فقدم ابن أبي السرح حتى إذا كان ببيلة بلغه أن المصريين قد حصروا عثمان ، فأراد الرجوع إلى مصر ، فعلم أن محمد ابن حذيفة قد استولى على الإمارة فيها ، فأقام بفلسطين ، حتى قُتل عثمان رضي الله عنه .

يقول الطبري : وكان أهل مصر الذين ساروا إلى عثمان ستائة رجل ، على أربعة ألوية ، هارموس أربعة ، مع كل رجل لواء . وكان جماع أمرهم جميعاً إلى عمرو بن بديل بن ورفاء الخزاعي ، وكان من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وإلى عبد الرحمن بن عديس التميمي .

« فما كان القوم بأطراف المدينة بعثوا إلى عثمان بكتاب . جاء فيه : « أما بعد ، فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . فإله الله ، ثم الله . . فإنك على دنيا ، فاستقم معها آخرة . واعلم أنا والله ، الله نغضب ، وفي الله نرضى ، وإنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة ، أو ضلالة مجلحة مبلحة ^(١) !

فهذه مقاتلتنا لك ، وقضيتنا إليك ، والله عذيرنا منك والسلام . »
لقد صار أمر الخلافة والخليفة إلى هؤلاء القوم الذي أجلبوا على المدينة ، وأحاطوا بها ، وبأهلها ، وفيهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآل بيته .

ولم يكن في المدينة جيش لحايتها ، وحماية الخليفة . . إذ لم يكن من هم المسلمين يومئذ أن يتقى بعضهم بأس بعض ، ولا كان من تدبير الخلافة أن تعد قوة لحايتها من المتطاولين عليها ، فذلك أمر لم يكن في حساب أحد أو تقديره ، وما وقع في نفوس المسلمين يومذاك أن يكون جهادهم في سبيل غير سبيل الله ، وأن نسل سيوفهم في وجه غير وجوه الكافرين والملحدين .

(١) مجلحة : أي واضحة مكشوفة ، مبلحة : أي واضحة صريحة .

لهذا فقد وقعت المدينة وأهلها في قبضة أولئك الذين دفعت بهم الأمصار
إلى مدينة الرسول ، يحاكمون الخليقة إليهم . ويقررون مصيره بأيديهم !
قال البلاذري :

« وأتى المغيرة بن شعبه ^(١) عثمان ، فقال له : دعني آتي القوم - أي
الذين أجلبوا من مصر - فأنظر ماذا يريدون ؟ فمضى نحوهم ، فلما دنا منهم
صاحوا به :

يا أعور .. وراءك ! يفاجر! .. وراءك ! يافاسق .. وراءك !!

فرجع !

ودعا عثمان عمرو بن العاص ، فقال له : ائت القوم ، فادعهم إلى كتاب الله
والعُتْبَى مما ساءهم !

فلما دنا منهم سلم : فقالوا . لا سلم الله عليك .. ارجع يا عدو الله ! ارجع
يا ابن النابغة ، فلست عقدنا بأمين ولا مأمون !

فقال له ابن عمر : ليس لهم إلا علي بن أبي طالب .

فبعث عثمان إلى علي . . فلما أتاه ، قال له :

يا أبا الحسن : ائت القوم فادعهم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه .

قال : نعم ، إن أعطيتني عهد الله وميثاقه على أنك تفي لهم ما أضمنه عنك !

قال : نعم .

(١) كان المغيرة بن شعبه من دهاة العرب ، وكان يطمع بدهائه هذا أن يكون
والياً على مصر من الأمصار ، كعمرو بن العاص وغيره ، وقد ولاء عمر البصرة وعزله
عنها حين شهدوا عليه بالزنا ! وقد كان فيمن اعتزل الفتنة بعد البيعة لعلي ، انتظارا
لما تأتي به الأيام ! .

فأخذ عليه على عهد الله وميثاقه ، على أوكد ما يكون وأغاظه ، وخرج إلى القوم . فقالوا : وراءك ! .

قال : لا ، بل أمامي . . . تُعطون كتاب الله . وتُعتبون من كل ما سخطتم .
فعرض عليهم ما بذل .

فقالوا : أنضمن ذلك عفه ؟

قال : نعم .

قالوا : رضينا . وأقبل أشرفهم ووجوههم مع على ، حتى دخلوا على عثمان وعاتبوه فأعتبهم من كل شيء !

فقالوا اكتب بهذا كتابا .

فكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله ، عثمان ، أمير المؤمنين ، لمن نَقَمَ عليه من المؤمنين والمسلمين ، أن لكم أن تعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه .. يُعطى المحروم ، ويُؤتمن الخائف ، ويرد المنفى ، ولا يجتر في البعوث ويوفر النية .. وعلى ابن أبي طالب ضمين المؤمنين والمسلمين ، على عثمان ، بالوفاء بما في الكتاب !

وشهد على الكتاب : الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد ابن مالك بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت . وسهل ابن حنيف ، وأبو أيوب خالد بن زيد ، وكتب في ذى القعدة سنة خمس وثلاثين .. وأخذ كل قوم كتابا ، فانصرفوا ^(١) .

ونسأل : هل كان عثمان رضى الله عنه يعمل بغير ما في كتاب الله وما في

سنة رسوله ؟ حتى يحدد للقوم عهداً بذلك ، يستأنف به ما انقطع من سيرة الخلفيتين السابقين ؟

إننا نشك في هذا الكتاب ، وما نراه إلا إحدى الوثائق المزورة ، التي أريد بها إقامة الأدلة على انحراف عثمان وإدانتها !

ثم يمضي البلاذري فيذكر ما كان في هذا المجلس . . يقول :

« ثم قال علي بن أبي طالب لعثمان : اخرج فتكلم كلاماً يسمعه الناس منك ، ويشهدون عليه ، ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة . فإن البلاد قد تمخضت عليك . فلا آمن ركباً آخرين . يقدمون من الكوفة . فتقول : يا علي اركب إليهم ، ولا أقدر أن أركب إليهم ، ولا أسمع عذراً . ويقدم ركب آخرون من البصرة . فتقول : يا علي : اركب إليهم ، فإن لم أفعل رأيتني قطعت رحلك ، واستخففت بحمك !

« نخرج عثمان . نخطب الخطبة التي نزع فيها . وأعطى من نفسه التوبة . قال : « أما بعد .. أيها الناس . فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجمله . وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه ، ولكني منتن نفسي ، وكذبني ، وضل عني رشدي ! وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من زل فليتب ، ومن أخطأ فليتب ولا يتأدى في الهلكة ، إن تأدى في الجور كان أبعد من الطريق . وأنا أول من اتعظ .. استغفر الله مما فعلت ، وأتوب إليه ، فثلى نزع وتاب !

« فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم . فوالله لئن ردني الحق عبداً لأستنن بسنة العبد ، ولأذن ذل العبد ، ولأكون كالمرقوق . إن ملك صبر ، وإن عثق شكر ، وما عن الله مذهب إلا إليه ... »

قال : فرق له القوم يومئذ ، وبكى من بكى منهم ، وقام إليه سعد بن زيد

فقال يا أمير المؤمنين ، ليس بواصل لك من ليس معك .. الله الله في نفسك فأتهم على ماقلت .

فلما نزل عثمان .. وجد في منزله مروان ، وسعيداً ، وتقرأ من بنى أمية ، لم يكونوا شهدوا الخطبة ، فلما جلس ، قال مروان : يا أمير المؤمنين . أتكم أم أصمت ؟

فقال نائلة بنت الفرافصة ، امرأة عثمان : لا بل أصمت ، فإنهم والله قاتلوه ، ومؤتموه .. إنه قال مقالة ، لا ينبغي له أن يزرع عنها .. فأقبل عليها مروان فقال : ما أنتِ وذاك ! فوالله لقد مات أبوك وما يحسن يتوضأ !! فقالت له : مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء ، نخبر عن أبي وهو غائب ، تكذب عليه ، وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عنه ، أما والله لولا أنه عمه ^(١) ، وأنه يناله غمه لأخبرتكم عنه ما لن أكذب عليه !..

فأعرض عنها مروان ، ثم قال : يا أمير المؤمنين .. أتكم أم أصمت ؟ قال : بل تكلم ا فقال مروان :

« يا بني أنت وأمي ، والله لوددت أن مقاتلك هذه كانت وأنت ممتنع منيع ، فكنت أول من رضى بها وأعان عليها ، ولكفك قلت ماقلت حين بلغ الحزام الطنبيين ، وخلف السيل الزبني ، وحين أعطى الخطاة الدليلة القليل ، والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها ؛ أجل من توبة نخوف عليها ! وإنك إن حَفَنْتَ تقربت بالتوبة ، ولم تُقَرَّر بالخطيئة ، وقد اجتمع عليك مثل الجبال من الناس !

قال عثمان : فاخرج إليهم فكلمهم ، فإني أستحي أن أكلمهم ! فخرج مروان إلى البساب ، والناس يركب بعضهم بعضاً ، فقال : « ماشأنكم ؟ قد جثم لتهب ؟ شامت الوجوه ! كل إنسان آخذ بأذن صاحبه ..

جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ اخرجوا عنا ! أما والله لنن
رؤمتمونا ليرت عليكم منا أمر لا يسركم ، ولا نحمدوا غيب رأيكم ، ارجعوا إلى
منازلكم ، فإننا والله مانحن مغلوبون على مافي أيدينا !

قال : فرجع الناس ، وخرج بعضهم حتى أتى عليًا ، فأخبره الخبر ، فجاء
على غضبًا حتى دخل على عثمان ، فقال :

«أما رضيت من مروان ، ولا رضى منك إلا بتحرّفتك عن دينك ، وعن
عقلك ، مثل حمل الظعينة ، بقاد حيث يسار به ، والله مامروان بذي رأى في
دينه ، ولا نفسه ، وأيم الله إنى لأراه سيوردك ثم لا يصدرك ، وما أنا بعائد
بعد مقامى هذا لمعاتبتك .. أذهب شرفك ، وغلبك على أمرك !»^(١)

والتأنيق ظاهر في هذا الخبر في أكثر من موضع منه .. فما كان عثمان
ليذلّ للناس إلى هذا الحدّ الذى يكاد يكون رياء وملقًا ! وما كان لبشده على
نفسه بما شهد عليها به ، وأنه أتى ما أتى عن علمٍ وثبت ، لا عن غفلة
وسوء تقدير !

ثم كيف لمروان أن يلقى ثورة عارمة ، بهذا التحدى ، وبهذا الصّدّ العنيف
والزّجر الزّاجر ، ثم لا يفتك الناس به ، ولا يوردونه موارد الردى ؟

إن هذا الخبر إن يكن عن واقع وقع ، فإنه قد حُرّف فيه السّكلم عن
مواضعه ، ليأخذ وجهًا آخر ، أريد به التشنيع على الخليفة ، وإلقاء تبعه
الأحداث كلها على عاتقه !

وهذا الخبر يرويه شيخ المؤرخين الطبرى ، فيتلقاه الناس منه ، بالقبول ،
والتسليم ، ويمدونه وثيقة محررة ، من وثائق هذه القضية !

أخرج الطبري بسنده إلى عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، يذكر مروان بن الحكم .. قال :

« قَبَحَ الله مروان .. خرج عثمان إلى الناس ، فأعطاهم الرضا ، وبكى على المنبر ، وبكى الناس ، حتى نظرتُ إلى لحية عثمان مُخْضَلَّة من الدموع ، وهو يقول : اللهم إني أتوب إليك ، اللهم إني أتوب إليك ، اللهم إني أتوب إليك والله لئن ردتني الحق إلى أن أكون عبداً قنّاً لأرضين به .. إذا دخلتُ منزلي فادخلوا عليّ .. فوالله لا أحتجب منكم ، ولأعطينكم ، ولأزيدنكم على الرضا ، ولأُتَحِّينَ مروان وذويه !! »

« قال : فلما دخل^(١) أمر البابَ ففتح ، ودخل بيته ، ودخل عليه مروان ، فلم يزل يَفْتَلُهُ في الدَّروَةِ والغارب ، حتى فَتَلَهُ عن رأيه ، وأزاله عما كان يريد ، فلقد مكث عثمان ثلاثة أيام ما خرج ، استحياءً من الناس ! » وخرج مروان إلى الناس فقال : شأنت لوجوه إلّا من أريد ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإن يكن لأُمير المؤمنين إليكم حاجة بأحد منكم يرسل إليه ، وإلا قرّ في بيته .

« قال عبد الرحمن : فجئت إلى عليّ ، فأجده بين القبر والمنبر ، عنده عمار بن ياسر ، ومحمد بن أبي بكر ، وهما يقولان : صنع مروان بالناس ، وصنع ! قال : فأقبل عليّ عليّ ، فقال : أحضرت خطبة عثمان ؟ قلت : نعم ؟ قال : أحضرت مقالة مروان للناس ؟ قلت : نعم ! »

« قال عليّ : عيادَ الله يا المسلمين .. إني إن قعدت في بيتي قال لي تركتني وقرابتي وحقّي ؟ وإني إن تكلمت فجاء ما يريد ، يلعب به مروان ، فصار سِيقَةً له ، يسوقه حيث شاء ، بعد كبر السن ، وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! »

« قال عبد الرحمن بن الأسود ؛ فلم يزل^(١) حتى جاء رسول عثمان .. انتهى !
فقال عليّ بصوت مرتفع عال مغضب : قل له ، ما أنا بداخل عليك
ولا عائدا »^(٢) .

ولا ندرى كيف يُقسم عثمان للناس على أنه مُنَحَّ عنه مروان وذويه ، ثم
لا يَبْرُ بهذا القسم ، أو تقف في وجهه أية قوة تنزيه عن الوفاء بهذا القسم العظيم ؟
حقاً إنَّ عثمان رضى الله عنه قد كبرت سنه ، وضعفت قواه ، فقد كان -
رضوان الله عليه - يؤمئذ قد شارب الثمانين . . ولكن ذلك إن جعل عثمان
يفتر عن أى شيء ، وبغفل عن أى شيء ، فلن يفتر أو بغفل عن قسم ، ملأ فيه
ذكر الله فيه ، وأشهد الله والناس عليه !

عليّ بن أبي طالب ، وهذه الأحداث :

كان عليّ بن أبي طالب جبهة بارزة في هذه الأحداث ، وقد رأينا كيف
أنه كان يغدو ويروح بين الثوار وبين عثمان . . يريد أن يجمعهم جميعاً على
كلمة سواء ، وأن يقطع ما بين الثائرين وبين الخليفة من شقاق وخصام !
وإذا كان لنا أن نشكّ في الأخبار التي روت هذه الأحداث ، فإننا
لانسقطها جملة ، وإلا لما بقي في يدنا شيء ننظر فيه ، ونعوّل عليه . .
وإنما موقفنا من هذه الروايات هو الحذر والحيطه ، من الأخذ بكل ما جاء
فيها . . وحسبنا أن نستشفّ منها بعض الملامح التي تشير إلى خط سير الأحداث ،
وتدل على اتجاهها إلى حيث انتهت بمقتل الخليفة ، وذلك هو الحدث الحقيق ،
الذي لاشك فيه بين تلك الأحداث كلها !

(١) أى لم يترك مكانه .

(٢) الطبرى : جزء ٥ ص ١١٢ .

هذه واحدة !

وأخرى .. هي أن بني أمية ، كانوا ينظرون إلى علي وإلى بني هاشم خلال تلك الأحداث ، نظر شك وارتياب ، بل واتهام !

ولا شك أنهم ألقوا إلى عثمان ، رضى الله عنه ، ببعض مافى صدورهم من علي ، وصتروا له الأمور على غير ما هي عليه ، فاختلط عليه الرأي في علي .. يُدنيه ويبعده ، ويسمع له وبصدة عنه ، ويستنصحه ويتهمه !

وعلى - كرم الله وجهه - في حيرة من أمره مع الخليفة .. لا يدري أيقبل أم يدبر ؟ وأبدفع أم يمسك ؟ إنه لا يسلم من اللوم على أى حال يكون ، ولا ينجو من الاتهام في أى موقف يقفه !

أخرج الطبري بسنده إلى عكرمة مولى ابن عباس ، عن ابن عباس قال : « قد كان علي والله له - أي لعثمان - صاحب صدقي ، حتى أوغر نفس علي عليه .. جعل مروان ، وسعيد ، وذوورهما يحملونه على علي ، فيتحمل ، ويقولون : لو شاء ما كلمك أحدا ! » وذلك أن علياً كان يكلمه ، وينصحه ، ويغلظ عليه في المنطق في مروان وذوويه ، فيقولون لعثمان : هكذا يستقبلك ؟ وأنت إمامه وسلفه^(١) ، وابن عمه ، وابن عمته ؟ فما ظنك بما غاب عنك منه ؟ فلم يزالوا بعلي حتى أجمع ألا يقوم دونه . »^(٢)

ويحدث الطبري في موضع آخر فيقول : إن عثمان صعد يوم الجمعة المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقام رجل فقال : أقم كتاب الله ، فقال عثمان : اجلس فجلس ، حتى قام ثلاثاً ، فأمر به عثمان فجلس ، فتحاتوا بالخصباء ، حتى ما ترى السماء ، وسقط عن المنبر ، وحمل ، فأدخل داره مفشياً عليه ، فخرج رجل من

(١) تسالف الرجلان زوج كل منهما اخت زوجة الآخر .

(٢) الطبري جزء ٤ ص ١٣٩ .

حجاب عثمان ، ومعه مصحف في يده وهو ينادي : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ، إنما أمرهم إلى الله » .

ودخل عليّ بن أبي طالب على عثمان وهو مفضي عليه ، وبنو أمية حوله ، فقال : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فأقبلت بنو أمية بمتطوق واحد فقالوا : يا عليّ ، أهلكتنا ، وصنعت هذا الصنيع بأمر المؤمنين ! أما والله لنن بلفنت الذي تريد ، لنمرنّ عليك الدنيا ، فقام عليّ مغضباً ^(١) .

وأخرج الطبري في حديث آخر ، قال : كتب أهل مصر بالمديفة إلى عثمان ، يدعونه إلى التوبة ، ويحثّون له ، ويقسمون بالله لا يسكون عنه أبداً ، أو يعطيهم ما يلزمهم من حق الله ، فلما خاف القتل شاور نصحائه وأهل بيته ، فقال لهم : قد صنع القوم ما رأيتم فما المخرج ؟ فأشاروا عليه أن يرسل إلى عليّ ابن أبي طالب ، فيطلب إليه أن يردّم عنه ، ويعطيهم ما يرضيهم ، ليطاولهم حتى يأتيه أمداده !

« فقال : إن القوم لن يقبلوا التعليل ، وهم محمّلون عهداً ، وقد كان مني في قدّمهم الأولى ما كان ، فمتى أعطيهم ذلك يسألوني الوفاء به !! »

« فقال مروان بن الحكم : يا أمير المؤمنين .. مقاربتهم حتى تقوى ، أمثل من مكاترتهم على القرب ، فأعطيهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك ، فإنما هم بغوا عليك فلا عهد لهم ! »

فأرسل إلى عليّ ، فدعاه ، فلما جاءه قال :

« يا أبا حسن ، إنه قد كان من الناس ما قد رأيت ، وكان مني ما قد علمت ، ولست آمنهم على قتلي ، فارددهم عني ، فإن لم الله عزّ وجل أن أعتبهم ^(٢) من كل

(١) الطبري جزء ٤ ص ١١٣ .

(٢) أعتبه : أرضاه ، وأزال ما عتب عليه منه .

ما بكرهون ، وأن أعطيتهم من نفسى ومن غيرى ، وإن كان فى ذلك
سفك دى !!

« فقال له على : الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك . . وإنى لأرى
القوم لا يرضون إلا بالرضا ، وقد كنت أعطيتهم فى قدمتهم الأولى عهدا من
الله لترجعن عن جميع ما نعموا ، فرددتهم عنك ، ثم لم تفِ لهم بشيء من ذلك !
فلا تغررنى هذه المرة من شيء ، فأبى معطيهم عليك الحق .
قال : نعم ، فأعطهم ، فوالله لأفئن لهم .

« فخرج على إلى الناس فقال : أيها الناس . . إنكم إنما طلبتم الحق ، فقد
أعطيتموه . ، إن عثمان زعم أنه منصفكم من نفسه ، ومن غيره ، وراجع عن
جميع ما تكرهون ، فاقبلوا منه ، ووكدوا عليه !
قال الناس : قد قبلنا ، فاستوثق منه لنا ، فإن الله لا يرضى بقول
دون فعل !

فقال لم على : ذلك لكم . . ثم دخل عليه فأخبره الخبر .
« فقال عثمان : اضرب بينى وبينهم أجلا ، يكون لى فيه مهلة ، فإنى لا أقدر
على رد ما بكرهون فى يوم واحد .
قال على : ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه ، وما غاب فأجله وصول أمرك .
قال : نعم ، أجلنى فى ما بالمدينة ثلاثة أيام .
قال على : نعم !

« فخرج إلى الناس ، فأخبرهم بذلك ، وكتب بينهم وبين عثمان كتابا ، أجله
فيه ثلاثا ، على أن يرد كل مظلمة ، ويعزل كل عامل كرهوه ، ثم أخذ عليه فى
الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ، من عهد وميثاق ، وأشهد عليه

ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار ، فكفّ المسلمون عنه ، ورجعوا ،
إلى أن يفي لهم بما أعطاهم من نفسه !

«فجعل يتأهب للقتال ، ويستمد بالسلاح ، وكان قد اتخذ جنداً عظيماً من
رقيق الخمس !

فلما مضت الأيام الثلاثة ، وهو على حاله لم يغير شيئاً مما كرهوه ، ولم يعزل
عاملاً ، ثار به الناس ، وخرج عمرو بن حزم الأنصاري حتى أتى المصريين وهم
بذى خُشْب ، فأخبرهم الخبر وسار معهم حتى قدموا المدينة .. فأرسلوا إلى عثمان
من يقول له :

ألم نفارقك على أنك تأتب من أحداثك ، وراجع عما كرهنا منك ؟
وأعطيتنا على ذلك عهد الله وميثاقه ؟

قال بلى ، أنا على ذلك !

قالوا : فما هذا الكتاب الذى وجدنا مع رسولك ، وكتب به إلى
عمالك ؟^(١)

قال : ما فعلت ، ولا لى علم بما تقولون !

قالوا : بريدك على جملك ، وكتاب كاتبك عليه خاتمك !

قال : أما الجمل فسروق ، وقد يشبه الخطُ الخطَّ ، وأما الخاتم فقد

انقش عليه !

قالوا : فإننا لانعجل عليك ، وإن كنا قد اتهمناك .. اعزل عنا عمالك

الفساق ، واستعمل علينا من لا يتهم على دماننا وأموالنا ، واردد علينا مظلماًنا !

(١) هذا كتاب آخر غير الكتاب الذى يقال إنه بعث به على أثر توليته محمد

ابن أبى بكر على مصر . وفى هذا الكتاب أمر من الخليفة عثمان إلى عامله بمصر أن
يضرب رقاب عدة من رؤساء المصريين .

قال : ما أراني إذن في شيء ! إن كنت أستعمل من هَوِيَّتكم ، وأعزل من كرهتكم .. الأمر إذن لكم ؟ ! !

قالوا : والله لتفعلنَّ ، أو لتعزكنَّ ، أو لتقتلنَّ ، فانظر لنفسك أودع .. فأبى عليهم ، وقال : لم أكن لأخلق سرباً لا سرباً بلنى الله . «^(١)

لقد أدارت الأحداث ردوس الناس ، فلا يدرى أحد ماذا يأخذ أو يدع في هذه العاصفة الهوجاء ! وإذا سأل أحد أن يعطى هذه الأحداث ظهراً ، ويُبصمَ عنها أذنه ، ويمسك فيها يده ولسانه ، فلن يسوغ ذلك لأصحاب رسول الله ، الذين أقاموا هذا الدين ، وآثروه على أنفسهم وأهليهم ، بالبذل والفداء . وعلى كرم الله وجهه هو مركز الدائرة ، وقطب الرّحى في هذا الموقف المتأزم ، ترتفع إليه العيون من كل صوب ، وتدور حوله الأحاديث في كل مدار ..

فإذا تحرك ، قالوا : لِمَ تحرك ؟ وإلى أين يريد ؟

وإذا سكن ، قالوا : لم سكن ؟ وماذا وراء سكونه ؟

وإذا التقى بعثمان اتهمه الثأرون !

وإذا تحدث إلى الثأرين اتهمه أشعياء عثمان ، وأفسدوا ما بيده وبين عثمان !

لقد كان عثمان محصوراً ، يضيق عليه الثأرون الدائرة يوماً بعد يوم ، وكان على في حصار أشد من حصار عثمان ، يزداد مع الأيام إحكاماً وضيقاً !! يحذله لسانه إن تكلم ، وتتخاذل قدماءه ، إن أراد أن يتقدم أو يتأخر . وإذا كان كل صحابي قد حمل نصيباً من هذا الهمّ الثقيل ، فإن نصيب

الإمام عليّ كان في تلك الحنة أكبر نصيب وأفدحه .. وكذلك كان بنوهاشم جميعاً ! بل إن الأمر تجاوزهم إلى من كان مضافاً إليهم ، ومعدوداً منهم ، كعمار ابن ياسر ، الذي أودى في تلك الحنة أذى شديداً ، ثم مازالت الأحداث تدفع به ، حتى قتل شهيداً في معركة صفين !
يحدث ابن قتيبة .. فيقول :

« ذكروا أنه اجتمع ناس من أصحاب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة صاحبيه ، وما كان من هبة نخس إفريقية لروان ، وفيه حق الله ورسوله ، وذوى القربى واليتامى والمساكين . وما كان من تطاوله في البنيان ، حتى عدّوا سبع دور بناها في المدينة ، داراً لفائلة (زوجه) وداراً لعائشة (ابنته) وغيرهما من أهله وبناته ، وبنيان مروان القصور بذى خشب ، وعمارة الأموال بها ، من الخمس الواجب لله ورسوله ، وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه ، من بني أمية ، وهم أحداث وأغليمة لاصحبه ، لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمر ، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة ، إذ صلي بهم الصبح وهو أمير عليها ، سكران . أربع ركعات ، ثم قال لهم : إن شئتم أن أزيدكم صلاة زدكم ! وتعطيله إقامة الحد عليه .. وتأخيره ذلك عنه ، وتركه المهاجرين والأنصار ، لا يستعملهم على شيء ، ولا يستشيرهم ، واستغنى برأيه عن رأيهم .. وما كان من الحمير ، الذي حثى حول المدينة ... »

قال : « ثم تعاهد القوم ليدفئن الكتاب في يد عثمان ، وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر ، والقداد بن الأسود ^(١) وكانوا عشرة ، فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان ، والكتاب في يد عمار ، جعلوا يتسللون عن عمار ، حتى بقي وحده ، فمضى حتى جاء دار عثمان ، فاستأذن عليه

(١) وفي رواية البلاذري أن طلحة والزبير كانا بين من شهدوا هذا الكتاب .

فأذن في يوم شاتٍ ، فدخل عليه ، وعنده مروان بن الحكم ، وأهله من
بنى أمية ، فدفع إليه الكتاب فقراه ، فقال له :
أنت كتبت هذا الكتاب ؟

قال : نعم !

قال : ومن كان معك ؟

قال : كان معي نفر تفرقوا قرعاً منك !

قال : من هم ؟

قال : لا أخبرك بهم !

قال : فلم : اجترأت على من بينهم ؟

فقال مروان : يا أمير المؤمنين : « إن هذا العبد الأسود (يعني عماراً)
قد جرأ عليك الناس ، وإليك إن قتلتَه ، نكَلتَ به مَنْ وراءه !

قال عثمان : اضربوه !!

فضربوه ، وضربه عثمان معهم .. حتى فتقوا بطنه . ففُشِيَ عليه ، فجروه

حتى طرحوه على باب الدار !!

فأمرت به أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فأدخل منزلها .^(١)

وفي رواية البلاذري ، أن عثمان حين قرأ الكتاب : قال لعمار :

أعلى تُقدم من بينهم ؟

قال عمار : إني أنصحهم لك .

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٤١

فقال : كذبت يا ابن سمية !

فقال : أنا والله ابن سمية ، وابن ياسر !

فأمر غلمانه ، فشدوا بيديه ورجليه ، ثم ضربه عثمان برجليه وهما في الخفين على مذاكيره ، فأصابه الفتق ، وكان ضعيفاً كبيراً ، فغشى عليه !^(١) .

وليس هذا أول موقف يقفه عمار من تلك الأحداث ، ومن مراجعة الخليفة ، فيما يرى مراجعته منها .

فمن ذلك ، أنه حين بلغ عثمان موت أبي ذرّ بالربذة ، قال : رحمه الله ، فقل عمار : نعم فرحمه الله من كل أنفسنا ! ! فنهره عثمان وشتمه ، وأمر به فدفع في قفاه ، وقال الحقّ بمكانه^(٢) .. فلما تهيأ للخروج ، جاءت بنو مخزوم إلى عليّ : فسألوه أن يكلم عثمان فيه .
فقال له عليّ :

يا عثمان : اتق الله ، فإنك سيرت رجلاً صالحاً من المسلمين فهلك في تسييرك (يعني أبا ذر) .. ثم أنت الآن تريد أن تنفي نظيره ! !

وجرى بينهما كلام ، حتى قال عثمان : أنت أحق بالنفي منه ! !

فقال عليّ : رُم ذلك إن شئت !

واجتمع المهاجرون فقالوا : كلما كلمك رجل سيّره ، ونفيته ؟ فإن هذا شيء لا يسوغ ! فكفّ عن عمار^(٣) .

(١) الأنساب جزء ٥ ص ٤٩

(٢) يريد أن ينفي حيث نفي أبو ذر بالربذة .

(٣) الأنساب . جزء ٥ ص ٥٤

وكان في بيت المال بالمدينة سَفَط فيه حلى وجوهر ، فأخذ منه عثمان ما حلى به بعض أهله ، فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك ، فكلّموه بكلام شديد ، حتى أغضبوه ، فخطب فقال :

« لَنَا خِذَنٌ مِنْ هَذَا النَّقْيِ ، وَإِنْ رَغِمَتْ أَسُوفُ أَقْوَامٍ !! فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ :
إِذَنْ تَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُحَالُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ !! »

وقال عمار ابن ياسر : أشهد الله أني أنقى أول راغم من ذلك !

فقال له عثمان : أعلّي يا ابن المتكأ تجتري ؟ ^(١) خذوه ! فأخذ ، ودخل عثمان ، ودعا به ، فضربه حتى غشي عليه ، ثم أخرج لحمل حتى أتى به منزل أم سلمة ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يصل الظهر والعصر ، والمغرب ، فلما أفاق توضأ وصلى ، وقال : الحمد لله .. ليس هذا أول يوم أؤذي فيه في الله ! ..

وبلغ عائشة ما صُنِعَ بِعَمَار ، فغضبت ، وأخرجت شعراً من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوبا من ثيابه ، ونعلا من نعاله ، ثم قالت :
« ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم ، وهذا شعره ، وتوبه ، ونعلاه لم يبَلِّ بعد !! »

فغضب عثمان غضباً شديداً ، حتى ما درى ما يقول ، فالتجّ المسجد ، وقال الناس : سبحان الله ! سبحان الله !!

وكان عمرو بن العاص واجداً على عثمان لعزله إياه عن مصر ، وتوليته إياها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فحمل يكثر التعجب والتسبيح !! »

(١) المتكأ : العظيمة البطن .

وكان لأُم المؤمنين عائشة رضى الله عنها صوتها المسموع في تلك الأحداث .
فقد كانت لمسكاتها في المسلمين ، ومنزلتها عند رسول الله ، وعند صاحبيه
أبي بكر وعمر - بحيث لا يكاد يحزب الناس أمر إلا سَعَوْا إليها ، وطلبوا
عندها الرأى والنصح !

فلما وقعت تلك الفتنة ، كان لها رأيها في كل حدث ، وجوابها في
كل مسألة . ١

ذكر اليعقوبى في تاريخه ، أنه بينما كان عثمان يخطب ، إذ دلت عائشة فيص
رسول الله ، ونادت : « يا معشر المسلمين ، هذا جلباب رسول الله لم يَبْلُ ،
وقد أبلى عثمان سنته » ! فقال عثمان : « ربّ اصرف عني كيدهن ، إن
كيدهن عظيم » ^(١) .

وقال ابن أعم : « ولما رأت أم المؤمنين اتفاق الناس على قتل عثمان
قالت له :

« أى عثمان . خصصت بيت مال المسلمين لنفسك ، وأطلقت أيدى
بنى أمية على أموال المسلمين : ووليتهم البلاد ، وتركت أمة محمد في ضيق
وعسر .. قطع الله عنك بركات السماء ، وحرملك خيرات الأرض ، ولولا
أنك تصلى الخمس لتفروك كما تفرون الإبل ! ! » .

فقرأ عليها عثمان ^(٢) : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة
لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله
شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين ^(٣) » :

(١) تاريخ اليعقوبى جزء ٢ ص ١٧٥

(٢) التحريم : آية ١٠ .

(٣) تاريخ ابن أعم . ص ١٥٥

لقد فسد الأمر بين عثمان وبين عائشة ، وكان ذلك من الأسباب القوية التي جرأت الناس على عثمان ، وأغرت به من كان يوقر الخليفة ، ويخشى سلطانه !

وهناك قولة أطلقتها أم المؤمنين في عثمان ، في موقف من مواقفها النائرة معه .. فقالت : « اقتلوا نمثلاً ، فقد كفر !! »^(١) قالتها كلمة عابرة .. جرت على لسانها ، غير قاصدة أن تصيب بها من عثمان مقتلاً .. !

ولكن ما إن تلتقتها الأسماع حتى كان لها دوى ملأ المدينة وما حولها ، ثم فاض حتى بلغ الأمصار . ثم اشتد الحصار على عثمان ، وبان للناس أنه قد فرغ من أمره ، فتهيات عائشة للحج ، ووقع في شعور الناس أنها خرجت لتتخلى بينهم وبين عثمان . ليرؤا رأيهم فيه !

وحين رأى عثمان ذلك بعث مروان بالحكم ، وعبد الرحمن بن عتاب ابن أسيد ، فقالا لها : « لو أقتل فلعل الله يدفع بك عن هذا الرجل ! .. » فقالت عائشة : قد قرئت ركائبى ، وأوجبت الحج على نفسى ، والله لأفعل ! فنهض مروان وصاحبه ، وهو يقول :

وحرّق قيس على البلاد فلما أن اضطربت أحجبا

فقال عائشة : يا مروان .. أهلك ترى أنى في شك من صاحبك ؟ والله لوددت أنه في غرارة من غرائرى هذه ، وأنى طوّقت حمله حتى أقيه في البحرا وكان ابن عباس أميراً على الحج ، فالتقت به عائشة في بعض الطريق ، فقالت له : يا ابن عباس .. إياك أن تردّ عن هذا الطاغية ، وأن تشكك فيه الناس ، فقد بانت لهم بصائرهم ، وتحلبوا من البلدان لأمر قد حُمّ ، وقد

(١) نعتل : يهودى بالمدينة ، شبهت عثمان به !!

والنعتل في اللغة : الشيخ الأحمر ، أو الذكر من الضباع !!

رَأَيْتَ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ قَدْ اتَّخَذَ عَلَى بَيْتِ الْأَمْوَالِ وَالْخَزَائِنِ مِفْتَاحًا ..
فَإِنْ يَكِلِ سِرًّا بِسِيرَةِ ابْنِ عَمِّهِ أَبِي بَكْرٍ !
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَا أُمَّهُ .. لَوْ حَدَّثَ بِالرَّجُلِ حَدَّثَ مَا فِزِعَ النَّاسُ إِلَّا إِلَى
صَاحِبِنَا (يَعْنِي عَلِيًّا) !!

قَالَتْ : إِيَّاهُ عَنْكَ .. إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُ مَكَابِرَتَكَ ، وَلَا مَجَادَلَتَكَ .^(١)
وَمَوْقِفَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - كَمَا تَحَدَّثُ بِهِ الْأَخْبَارُ - فِيمَا كَانَ مِنْهَا نَحْوُ
عُثْمَانَ ، يَلْقَى عَلَيْهَا الْجَانِبَ الْأَكْبَرَ فِي قَتْلِ الْخَلِيفَةِ ، وَاسْتِبَاحَةِ دَمِهِ !
وَلَكِنَّا لَا نَقْبِلُ هَذِهِ الْأَخْبَارَ كُلَّهَا ، وَلَا نَسَلِّمُ بِهَا جَمِيعًا ، كَمَا أَنَّنَا لَا نُرَدُّهَا
كُلَّهَا ، وَلَا نَشْجِبُهَا جَمِيعَهَا ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مِنْهَا شَاهِدًا عَلَى أَنَّ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ
لَمْ تَسْكُنْ مِنَ الْمُدَافِعِينَ عَنْ عُثْمَانَ ، أَوْ الرَّاظِينَ عَنْهُ ، وَخَاصَّةً فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ
الْأَخِيرَةِ مِنْ خِلَافَتِهِ !

الْحَصَارُ وَالْقَتْلُ :

نَحْنُ الْآنَ فِي الْأَيَّامِ الْآخِرَةِ مِنْ خِلَافَةِ عُثْمَانَ ..
الْمَدِينَةُ ثَوْرَةٌ مَشْتَعِلَةٌ ... فِي كُلِّ بَيْتٍ ، وَفِي كُلِّ مَجْتَمَعٍ ، وَفِي كُلِّ نَفْسٍ !
وَصَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ، مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، لَا يَجْمَعُهُمْ رَأْيٌ ، وَلَا يَجْتَمِعُ لَهُمْ
شَيْءٌ . قَدْ فَرَّقَتْ بَيْنَهُمْ هَذِهِ الْأَمْوَاجُ الْمَهَادِرَةُ مِنْ زُحُوفِ مِصْرَ وَالْكُوفَةِ !
فَهَذَا الْأَشْرُ النَّفْعِيُّ يَقْدُمُ بِأَلْفِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ .
وَهَذَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَذِيقَةَ يَحْجِيءُ وَمَعَهُ أَرْبَعُمِائَةِ رَجُلٍ مِنْ مِصْرَ .
فَتُضَافُ هَذِهِ الْأَعْدَادُ إِلَى تِلْكَ الْجُمُوعِ الَّتِي أَجْلَبَ بِهَا الثَّائِرُونَ مِنْ قَبْلُ ،
فِي دَفْعَاتٍ مُتَتَابِعَةٍ !

وتلاقت هذه الجموع عند بيت عثمان ، وسدت الطرق والمسالك إليه ،
لا يستطيع أحداً أن يدخل إليه أو يخرج !

وكان طلحة بن عبيد الله قد استولى على بيت المال ، ووضع مفاتيحه في يده !
فاجتمع إليه الناس ، والتفوا حوله !

قالوا : ولما رأى عثمان ، استيلاء طلحة على بيوت الأموال واشتداد
الحصار عليه ، بعث عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب بهـذا
البيب إلى علي :

فإن كنت ما كولاً فكن خيراً كلّي وإلا فأدركني ولما أمرق

وكان عليّ عند حصر عثمان ، قد استأذن في الخروج إلى خيبر ، فأذن له !
فلما جاء كتاب عثمان قدم المدينة ، والناس مجتمعون عند طلحة ، وكان ممن
له فيه أثر^(١) ، فلما التقى عليّ بعثمان ، قال له عثمان :

أما بعد ، فإن لي حقّ الإسلام . وحق الإخاء ، والقراية . والصهر ،
ولو لم يكن من ذلك شيء ، وكنا في الجاهلية ، لسكان عاراً علي بن عبد مناف
أن ينتزع أخو بني تيم - يعني طلحة - أمرهم !! « .

فقال له علي : سيأتيك الخبر . . !

ثم خرج إلى المسجد ، فرأى أسامة ، فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة
وهي رجاس^(٢) من الناس فقال له :

يا طلحة .. ما هذا الأمر الذي وقعت فيه !

فقال : يا أبا الحسن .. بعد مامس الحزام الطبيين ! !

(١) أي إن طلحة كان له أثر في تهيج الناس على عثمان .

(٢) رجاس : أي مليئة بالناس ، يكثر فيها صياحهم

فانصرف عليّ ، ولم يَحِرْ إليه شيئاً ، حتى أتى إلى بيت المال . . فقال :
افتحوا هذا الباب ، فلم يعثر على المفاتيح ، فقال : اكسروه ، فكسروا باب بيت
المال ، فقال : أخرجوا المال ، فجعل يعطى الناس ، فبلغ الذين في دار طلحة
ما صنع عليّ ، فجعلوا يقبلون إليه ، حتى ترك طلحة وحده . وبلغ عثمان الخبر ،
فسرّ بذلك . . ثم أقبل طلحة يمشى طائداً إلى دار عثمان ، فلما دخل عليه قال
يا أمير المؤمنين . . استغفر الله ، وأنوب إليه . . أردت أمراً فخال الله بيني
وبينه . . فقال عثمان : إنك والله ماجئت ثائبا ، ولكنك جئت مغلوباً . . الله
حسيبك !! »

وروى الطبري ، قال : فحسروه أربعين ليلة ، وطلحة يصلي بالناس .^(١)

وروى البلاذري ، أنه لم يكن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
أشدّ على عثمان من طلحة .^(٢)

وقال : كان الزبير وطلحة قد استوليا على الأمر ، ومنع طلحة عثمان أن
يدخل عليه الماء المذّب ، فأرسل عليّ إلى طلحة ، وهو في أرض له على ميل من
المدينة : أن دع الرجل يشرب من مائه ، ومن بثره ، ولا تقتلوه من العطش ،
فأبى !^(٣)

وقال : مرّ بمجمع بن جارية الأنصاري بطلحة بن عبيد الله ، فقال طلحة :

يا مجمع : ما فعل صاحبك ؟

قال : أظفكم والله فأتليه !

(١) الطبري جزء ٣ ص ١١٧ .

(٢) الأنساب جزء ٨ ص ٨١ .

(٣) الأنساب جزء ٨ ص ٩١ .

فقال طلحة : إن قُتل ، فلا مَلَأَ مَقْرَب ، ولا نبيّ مرسل ! »^(١)

وروى الطبري ، عن عبد الله بن عباس ابن أبي ربيعة قال : دخلت على عثمان ، فتحدثت عنده ساعة ، ثم أخذ بيدي ، فأسمعني كلام من علي بابي ، فإذا منهم من يقول : ماتتظرون به ؟ ومنهم من يقول : انظروا عسى أن يراجع ! فبينما أنا وهو واقفان ، إذ مرّ طلحة بن عبيد الله ، فوقف فقال : أين ابن عديس^(٢) ؟

فقال : هاهوذا .

قال : فجاءه ابن عديس ، ففاجاه بشيء ، ثم رجع ابن عديس ، فقال لأصحابه : لا تتركوا أحداً يدخل على هذا الرجل أو يخرج من عنده . . فقال عثمان : « اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله ، فإنه حل على هؤلاء ، وألبهم ، والله إني لأرجو أن يكون منها صفرأ ، وأن يسفك دمه . . إنه انتهك مني مالا يحلّ له . »^(٣)

وذكروا أن عثمان لما منع الماء صعد على القصر ، واستوى في أعلاه ، ثم نادى : أين طلحة ؟ فأتاه ، فقال : يا طلحة . . أما تعلم أن بئر رومة كانت لفلان اليهودي ، لا يبقى أحداً من الناس قطرة منها إلا بشمن . . فاشتريتها بأربعين ألفاً ، فجعلت ريشاً فيها كرشاء رجل من المسلمين . . لم أشتأر عليهم ؟ قال : نعم !

قال : فهل تعلم أن أحداً يمنع أن يشرب منها اليوم غيري ؟ لم ذلك ؟

(١) الأنساب جزء . ص ٧٤ .

(٢) ابن عديس هو أحد رؤساء الثأرين على عثمان وكان على رأس جماعة من المصريين . وقد شارك في حصار عثمان ، وفي قتله .

(٣) الطبري : جزء • ص ١٢٤ .

قال : لأنك بدلت ، وغيّرت !

قال . فهل تعلم أن رسول الله قال : من اشترى هذا البيت وزاده في المسجد
فله به الجنة ، فاشتريقه بعشرين ألفاً وأدخلته المسجد ؟

قال طلحة : نعم !

قال : فهل تعلم اليوم أحداً يُمنع فيه من الصلاة غيري ؟

قال : لا !

قال : لم ؟

قال : لأنك غيرت وبدلت !

ثم انصرف عثمان ، وأرسل إلى عليّ ، يخبره أنه مُنع من الماء ، ويستغيث
به ، فبعث إليه عليّ ثلاث قرب ، مملوءة ماء .. فأكادت تصل إليه !

فقال طلحة لعليّ : ما أنت وهذا ؟ وكان بينهما في ذلك كلام شديد ^(١)

وجاءت الأخبار للذين أحاطوا ببيت عثمان ، أن معاوية بعث من الشام
بزيد بن أسيد في أربعة آلاف فارس من أهل الشام ، للدفاع عن عثمان .. وكان
مع عثمان في الدار نحو مائة رجل ينصرونه ، منهم مروان بن الحكم ، وعبد الله
ابن الزبير ، والحسن بن علي ، وعبد الله بن سلام ، وأبو هريرة .

فلما سمع القوم إقبال أهل الشام ، قاموا فألهبوا النار بباب عثمان ، فلما
نظر أهل الدار إلى النار ، نصبوا للقتال ، وتهيئوا ، فكّر ذلك عثمان ،
وقال : لا أريد أن نهراق في حجة دم ! وقال لجميع من في الدار : أنتم في حلّ
من بيعتي ، لأحب أن يقتل في أحد !

(١) الإمامة والسياسة : جزء ٢ ص ٣٨

وكان في القوم عبد الله بن عمر ، فقال يا أمير المؤمنين ، مع من تأمرني أن أكون إن غلب هؤلاء القوم عليك ؟ قال : عليك بلزوم الجماعة ، قال : فإن كانت الجماعة هي التي تغلب عليك ؟

قال : عليك بلزوم الجماعة حيث كانت !

ثم دخل عليه الحسن بن علي ، فقال : مرّني بما شئت ، فإني طوع يدبك ! فقال له : ارجع يا ابن أخي ، اجلس في بيتك حتى يأتي الله بأمره !

ثم دخل عليه أبوهريرة مقلداً سيفه ، فقال : طاب الصّراب يا أمير المؤمنين ! قد قتلوا منا رجلاً ، وقد ألهبوا النار ! فقال عثمان : عزمت عليك يا أباهريرة إلا ألقيت سيفك .. قال أبوهريرة : فألقيته فلا أدرى من أخذه !

ثم دخل عليه المغيرة بن شعبه فقال : يا أمير المؤمنين .. إن هؤلاء قد اجتمعوا عليك ، فإن أحببت فالحق بمكة ، وإن أحببت أن نخرق لك باباً من الدار فتلحق بالشام ، ففيها معاوية وأنصارك من أهل الشام ، وإن أبيت فاخرج ونخرج ونحاكم القوم إلى الله تعالى !

فقال عثمان : أما ما ذكرت من الخروج إلى مكة ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يُلحَد بمكة رجل من قريش ، عليه نصف عذاب هذه الأمة من الإنس والجن ، فلن أكون ذلك الرجل إن شاء الله ! وأما ما ذكرت من الخروج إلى الشام ، فإن المدينة دار هجرتي ، وجوار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا حاجة لي في الخروج من دار هجرتي .. وأما ما ذكرت من محاكمة هؤلاء القوم إلى كتاب الله ، فلن أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بإهراق الدم .. ثم قال : إني رأيت أبا بكر وعمر أتيا لي الليلة فقالا لي : صم ، فإنك مفطر عندنا الليلة ، وإني أصبحت صائماً .. وإني أعزم على من كان يؤمن بالله واليوم الآخر إلا أخرج من الدار سالماً !

فقالوا : إنا إن خرجنا لم نأمن على أنفسنا منهم . فأذن لنا . فذكون في موضع من الدار . !

قالوا : وبعث على بابنيه الحسن والحسين . وقال لهما : اذهبا بسيفكما ، حتى تقوموا على باب عثمان ، ولا تدعأ أحداً يصل إليه ، وبعث الزبير ابنه على كُره ، وبعث طلحة ابنه على كُره كذلك ، وبعث عِدّة من أصحاب النبي أبناءهم ، يمنعون الناس أن يدخلوا على عثمان ، ويسألونه أن يُخرج مروان ! فأشرف عليهم عثمان من القصر فقال .

« يامعشر المسلمين : أذكركم الله .. أستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طلب دار بنى قُلاب ، ليوسع بها للمسلمين في مسجدكم ، فاشتريتها من خالص مالي ، وأنتم اليوم تمنعونني أن أصلى فيه ؟ أذكركم الله يامعشر المسلمين : أستم تعلمون أن بئر رومة كانت تباع القرية منها بدرهم فاشتريتها من خالص مالي ، فجعلت رشائي كرشاء واحد من المسلمين ، وأنتم تمنعونني من مأثها ، حتى أننى ما أفطر إلا على ماء البحر ؟ .

« أستم تعلمون أنكم نعمتم على أشياء ، فاستغفرت الله . وتبت إليه منها ؟ وترزعمون أنى غيّرت وبدلت ، فابعثوا على شاهدين مسلمين .. وإلا فأحلف بالله الذى لا إله إلا هو ، ما كتبت الكتاب ، ولا أمرت به ، ولا اطلعت عليه . » وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ! » .

« ياقوم .. لا تقتلونى ، فإنكم إن قتلتمونى كنتم هكذا : وشبك بين أصابعه .. »

« ياقوم .. إن الله رضى لكم السمع والطاعة ، وحذركم المعصية والفرقة ، فاقبلوا نصيحة الله ، واحذروا عقابه .. »

ثم قال : « وإني أخبركم أن قوماً أظهروا للناس أنهم يدعونني إلى كتاب الله تعالى والحق ، فلما عُرض عليهم الحق رغبوا عنه ، وتركوه .. وطال عليهم عمري ، واستمجلوا القَدَر بي ، وقد كانوا كتبوا إليهم أنهم قد رضوا بالذي أعطيتهم ، ولا أعلم أني تركت من الذي عاهدتهم عليه شيئاً ! وكانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود وترك المظالم ، وردّها إلى أهلها ، فرضيت بذلك ، وقالوا : يؤثّر عمرو بن العاص ، وعبد الله بن قيس ، ومثلهما من ذوى القوة والأمانة ، وكلّ فعلت .. فلم يرضوا ، وحالوا بيني وبين المسجد ، فابتزوا ماقدروا عليه بالمدينة .. وهم يخبرونني بين إحدى ثلاث : إما القود بكلّ رجلٍ أصبت خطأً أو عمداً ، وإما أن اعتزل عن الأمر ، فيؤمروا أحداً ، وإما أن يرسلوا إلى من طاعهم من الجنود وأهل الأمصار ، فأرسلوا إليكم : فأتيتم لتبتزوني من الذي جعل الله لي عليكم من السمع والطاعة ، فسمعتهم منهم ، وأطعتموهم ، والطاعة لي عليكم دونهم .. فقلت لهم : أما إقادة من نفسي ، فقد كان قبلي خلفاء ، ومن يتولى السلطان يخطئ ويصيب ، فلم يستقد منهم أحد ، وقد علمت أنهم يريدون بذلك نفسي .

وأما أن أتبرأ من الأمر ، فإن يصلبوني أحب إليّ من أن أتبرأ من جنة الله تعالى وخلافته ، بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لي : يا عثمان إن الله تعالى سيقطّصك قميصاً بعدى ، فإن أراذك المناقون على خلعه ، فلا تخلعه حتى تلقاني .. »^(١)

لم يكن ليدوم الأمر على تلك الحال طويلاً .. فلقد دارت الأحداث دورتها ، وبلغت غايتها ، فإما أن تتحطم أو تُحطم !
فالنار مشتعلة بباب عثمان .. لا يستطيع أحد أن يدخل أو يخرج !

وقائدو الفتنة يفتدون ويروحون ، بين الفاس ، يُلقون إليهم بالوعد
وبالوعيد ، وبشدّونهم شداً إلى ميدان المعركة !

والمحصورون في الدار قد استيأسوا من أن يدفعوا هذا الخطر المحدق بهم ،
والمطل عليهم من كل جانب ، يتوقعون الانفجار الهائل بين لحظة وأخرى !
ووسط هذا الاضطراب السائد ، تتعالى الصيحات من كل مكان ، تحمل
إلى من في الدار نذر التهديد والوعيد ، وتنطلق السهام ، بلا حساب ، تعلن
بدء المعركة ، ونهاية الصراع .

وقد أصيب الحسن بن علي بسهم طائش من تلك السهام المنطلقة ، فشجّه
وخضب وجهه بالدم . وخضب محمد بن طلحة من سهم كذلك ، وشجّ قبر ،
مولى على .

إذن ، فالأمر جدّ ، لاهزل فيه .

لقد أريقت الدماء . . وأصبح الطريق إلى دم الخليقة مفتوحاً ، ليس بين
التأثرين وبينه حائل . !

ذكروا أن محمد بن أبي بكر - وكان على رأس التأثرين - حين رأى
ما أصاب الحسن بن عليّ ، أخذ بيد رجلين ، وقال لهما : إن جاء بفوهاشم ،
ورأوا الدماء على وجه الحسن كشفوا الناس عن عثمان ، وبطل ما تريدون !
ولكن قوموا ففتسّور عليه ، وقتله من غير أن يعلم أحد !

فتسّور هو وصاحبه من دار رجل من الأنصار ، حتى دخلوا على عثمان ،
وما يعلم أحد ممن كان معه ، لأن كل من في الدار كانوا فوق البيت ، ولم يكن
معه إلا امرأته !

فدخل عليه محمد بن أبي بكر فصرعه ، وقعد على صدره ، وأخذ بلحيته ،

وقال : يانعمثل ، ما أغنى عنك معاوية ، وما أغنى عنك بن عامر بن أبي سرح !
فقال له عثمان : لورآنى أبوك رضى الله عنه لبيكأنى ، ولساءه مكانك منى !
فتراخت بده عنه ، وقام عنه وخرج !

ودعا عثمان بوضوء فتوضأ ، وأخذ مصحفاً فوضعه فى حجره ، ليتحرم به !
ودخل عليه رجل من أهل الكوفة بِمَشَقَص^(١) فى يده فوجأ به منكبه ،
بما بلى الترقوة ، فأدماء ، ونضح الدم على ذلك المصحف .
وجاء آخر فضربه برجله !

وجاء آخر فوجأه بقائم سيفه ، ففشى عليه .
ومحمد بن أبى بكر ، لم يدخل مع هؤلاء .
فتصايح نساؤه ، ورُش الماء على وجهه فأفاق !
فدخل محمد بن أبى بكر ، وقد أفاق ، فقال له : أى نعمثل . . غيرت ،
وبدلت ، وفعلت !

ثم دخل رجل من أهل مصر ، فأخذ بلحيته ، فنتف منها خصلة ، وسل
سيفه ، وقال : افرجوا لى ، فعلاه بالسيف ، فتلقاء عثمان بيده ، فقطعها ، فقال
عثمان : أما والله إنها أول بد خطت المنصل ، وكتبت القرآن !
ثم دخل رجل أزرق قصير مجذّر ، ومعه جُرْز^(٢) من حديد ، فشى
إليه ، فقال : على أية ملة أنت يانعمثل ؟

فقال : لست بنعمثل ، ولكنى عثمان بن عفان ، وأنا على ملة إبراهيم ، حنيفاً
وما كان من المشركين !

قال : كذبت ! وضربه بالجرز على صدغه الأيسر ، ففسله بالدم ، وخرّ
على وجهه ، وحالت نائلة بنت الفرافصة بينه وبينه ، وكان جسيمة ، وألقت

(٢) الجرز . عمود من حديد .

(١) المشقص : نصل عريض .

بذت شبيبة نفسها عليه . ودخل عليه رجل من أهل مصر ، ومعه سيف مُصلت فقال والله لأقطعن أنفه ، فعالجه امرأته عنه ، فكشف عنها درعها ، فلما لم يصل إليه ، أدخل السيف بين قرطها ومنكبها ، فضربت على السيف فقطع أناملها .

ثم دخل آخر معه سيف ، فقال : أفرجوا لي ، فوضع ذباب السيف في بطن عثمان ، فأمكنك نائلة السيف فخر أصابعها ، ومضى السيف في بطن عثمان فقتله ! فخرجت امرأته وهي تصيح ، وخرج القوم هاربين من حيث دخلوا !^(١) لقد قتل الخليفة ، عثمان بن عفان ، ولكن لا على تلك الصورة التي يرونها المؤرخون .. فما كان عثمان في كبر سنه وضعفه ليصبر على هذه الضربات المتتالية ، ولتلك السيوف ، يضرب بها مرة ومرة حتى تزهق روحه !

والشيء الأقرب إلى التصور في هذا الموقف ، هو أن أكثر من واحد دخلوا عليه ، وضربوه ضربة رجل واحد ، فقتلوه !

أما أن تدور المعركة على تلك الصورة التي صورها المؤرخون ، فهو أمر بعيد عن التصور .. إذ كيف لا يخفت من في الدار لنجدة الخليفة ، خلال هذا الصراع الذي طال أمده ، بين واحد يضربه بمشقص ، ثم يمضي ، ويحییء آخر فيمسك بلحيته ، وينزع منها شيئاً ثم يمضي ، ويحییء ثالث فيضربه بسيف يقطع يده ثم يمضي ، ويحییء رابع ، وخامس ، وسادس .. وهكذا .. ألا أحد من في الدار يفتبه لهذا ، أو يفتبه إليه ؟

ولعل أقرب الروايات إلى الواقع مارواه البلاذري ، من أن محمد بن أبي بكر تسور على عثمان الدار هو ورجلان معه ، ثم قال لها : إذا أنا ضبطته ، فاجيء ،

حتى تقتلاه ، فدخل محمد بن أبي بكر ، فأخذ بلحيته ، فقال عثمان : لو رأيك أبوك لساء مكانك مني ، فتراخت يده ، ودخل الرجلان ، فوجآه حتى قتلاه^(١) .

ويقول ابن أبي الحديد : إن طلحة كان يوم قتل عثمان مقنماً بثوب استتر به عن أعين الناس ، يرمى الدار بالسهم !

وقال أيضاً : إنه لما امتنع على الذين حصروه ، الدخول من باب الدار ، حملهم طلحة إلى دار لبعض الأنصار ، فأصعدهم إلى سطحها ، وتسوروا منها على عثمان داره فقتلوه^(٢) .

وروى الطبري : أنهم دخلوا من دار عمرو بن حزم ، فناوشوهم شيئاً من مناوشة ، ثم خرج سودان بن حمران وهو يقول : أين طلحة بن عبيد الله ؟ قد قتلنا ابن عفان !!^(٣)

قالوا : وبلغ الخبر علياً ، وطلحة ، والزبير ، وسعدا ، ومن كان بالمدينة ، فخرّبوا ، ، وقد ذهبت عقولهم ، فدخلوا عليه واسترجعوا ، وأكبوا عليه يبيكون ، ويعولون ، حتى غشى على علي ، ثم أفاق ، فقال لابنيه : كيف قتل أمير المؤمنين وأتما على الباب ؟ ورفع يده ، فضرب الحسن والحسين ، وشم محمد بن طلحة وعبيد الله بن الزبير ، وخرج علي وقد سلب عقله ، لا يدري ما يستقبل من أمر !!

فقال طلحة : مالك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين ؟

(١) أنساب الأشراف : جزء ٥ ص ٦٩ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة جزء ٢ ص ٤٠٤ .

(٣) انظر الطبري جزء ص ١٢٢ .

فقال : يا طلحة .. يُقتل أمير المؤمنين ، ولم نُقيم عليه بيعة ولا حجة ؟

فقال طلحة : لودفع مروان لم يقتل !

فقال علي : لودفع مروان قتل - أي مروان - قبل أن تقوم عليه حكومة !
فخرج علي ، فأنى منزله ، وأغلق الباب .

وكتبت نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية تصف دخول القوم على عثمان ،
وأخذه المصحف ليتحرم به ، وما صنع محمد بن أبي بكر . . وأرسلت بقميص
عثمان مضرجا بالدم ، وبالخصلة التي נתفها محمد بن أبي بكر من لحيته ، فعقدت
الشعر في زر القميص ، ثم دعت النعمان بن بشير الأنصاري ، فبعثته إلى
معاوية ، ومضى بالقميص حتى آلى يزيد بن أسيد ، مُمدداً لعثمان ، بعثه معاوية
في أربعة آلاف ، فأخبرهم بقتل عثمان ، فانصرفوا إلى الشام ^(١)

هذا الدم المراق :

حرصنا فيما سبق على أن ننقل ما حدث به المؤرخون من تلك الأحداث ،
التي انتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ، محصوراً في بيته ، متحرماً بكتاب الله
في حجره !

وقد قلنا رأينا في تلك الأخبار ، وفي مبلغ تصويرها للواقع ، وأنها ليست
حجة موثقة ، ولا دليلاً قاطعاً ، حتى يُطمأن إليها ، ويؤخذ بكل ما فيها . !
وأنها - على ما بها - لا يمكن الاستغناء عنها ، إذ لم يكن ثمة لسان غيرها ، ينفق
عن تلك الفترة الغابرة ، ويحدث عن أخبارها !

ومن جهة أخرى . . فإنه بالنظر الفاحص في هذه الأخبار ، يمكن أن
يُستدلّ على ماوراءها ، مما هو أقرب إلى الواقع ، وأدبى إلى الحق . !

إن هناك جريمة قتل .. لاشك في هذا .. والقتيل هو أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، ورأس المجتمع الإسلامي .. وهناك دم مراف .. لاشك في هذا أيضاً ! والدم دم عثمان بن عفان .. رضى الله عنه ! ولو قُتل أمير المؤمنين خليفة وغدراً كما قتل عمر من قبله ، وكما قتل علي من بعده ، لما اضطرب المسلمون هذا الاضطراب ، ولما وقموا في الفتنة من بعده ، ولما فتح عليهم الطلب بدم عثمان . وقتل قاتله ، هذا الباب الواسع من الخلاف ، ولما دفع بهم إلى ميادين القتال ، فذهب ذلك بمئات الألوف من أرواح المسلمين !

من قتل عثمان ؟

تقول روايات المؤرخين : إنه محمد بن أبي بكر ، وجماعة معه ! وقيل إن قاتله هو رومان بن سرحان .. رجل أزرق قصير .. من أضحج ، طعنه بخنجر !

وقيل جيلة من الأيهم ، وقيل الأسود العجبي ، وقيل يسار بن عياض ! هذه أسماء من يستون ممن قتلوا عثمان ، أو اشتركوا في قتله ! وليس في تلك الروايات رواية واحدة تقول إن قاتله هو فلان ، قولاً قاطعاً جازماً !

« سأل علي - كرم الله وجهه - نائلة امرأة عثمان ، رضى الله عنه :

« من قتل عثمان ؟

فقالت : لا أدري .. دخل عليه رجال لا أعرفهم ، إلا أن أرى وجوههم ، وكان معهم محمد بن أبي بكر ، فدعا علي محمد بن أبي بكر ، فسأله عما ذكرت

امراة عثمان ، فقال صدقتُ ، قد والله دخلت عليه ، فذكر لي أبي ، ففقت عنه ، وأنا تائب إلى الله .. والله ما قتلته ، ولا أمسكته .

فقال : صدق ! ^(١)

وقد أورد صاحب الكامل يبتين منسويين إلى الوليد بن عقبة ، يشير فيهما إلى قاتل عثمان .. يقول :

ألا إن خيرَ الناس بعد ثلاثة ^(٢) قتيلَ التَّجُوبِيَّ الذي جاء من مصر

ومالي لا أبكي ، وتبكي أقاربي

وقد حُجِبَت عَنَّا فضول ^(٣) أبي عمرو ^(٤)

وقد يكون هذا الشعر منحولاً على الوليد بن عقبة ، ولكن نأمله لم يكن بعينه أن يذكر اسم القاتل بقدر ما كان بعينه إظهار هذا الشعور الذي كان قد خلفه قتل عثمان في بني أمية ، وحرمانهم من صلاته وعطاياه !

ويذكر صاحب الكامل شعراً آخر للوليد بن عقبة ، يتهم فيه بني هاشم بأنهم هم الذين قتلوا عثمان أو أعانوا على قتله .. يقول الوليد :

بني هاشم ردّوا سلاح ابن أختكم ولا تُنهبوه ، لا تحلّ مناهبه

بني هاشم ، كيف الهوادة بيننا وعند على درعه ونجائبه ؟

هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازيبه

(١) انظر الإمامة والسياسة .

(٢) يريد بالثلاثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر .

(٣) الفضول : العطايا ، واحدها فضل ، وأبو عمرو هو عثمان رضى الله عنه ،

كنى بابنه عمرو

(٤) الكامل للمبرد جزء ٢ ص ٣٣ .

ويعلق المبرد على هذا الشعر بقوله : « وهذا قول باطل ! »^(١)

وهذه التهمة على بطلانها ، تحدث عن شعور كان قائماً في الناس ، وفي بني أمية خاصة ، بأن دم عثمان عند من استفاد من هذا الدم ، وهم بنو هاشم ، حيث يبيع لعلّ بالخلافة !!

إنه لا يمكن ضبط هؤلاء القنلة ، ولا التعرف عليهم ، وسط هذه النار المتصرمة ، وهذا الدخان المنمقد في سماء المجتمع الإسلامي كله يومذاك !

ولو فرض أنه عُرف وجه القاتل أو القنلة . . أفكان القصاص منه أو منهم بالذي يرضى أولياء الدم ؟ وهل إذا أَرْضَى ذلك أولياء الدم أكان يرضى الحق والعدل ؟

إن قتلة عثمان ليسوا هم وحدهم الذين باشروا قتله بأيديهم ، بل إن هناك الذين حاصروا الخليفة ومكنوا للقاتلين من قتله ، وشقوا حركة مناصريه والمدافعين عنه ، وسدّوا عليه منافذ الخروج إلى أى وجه أو مخرجاً ! .

وهؤلاء المحاصرون ألوف كثيرة . . تجمعت من مصر ، والعراق ، ومن أهل المدينة ، وأعراب البادية ! .

فكيف يكون القصاص من هذه المجموع الكثيرة الزاخرة . . وقد ذهبت في كل وجه بعد أن وقعت الواقعة ، وقتل الخليفة ؟ .

ثم هنال آخرون ، يرى الناس أنهم كانوا شركاء في هذا الدم المراق . . إما بتحرّضهم ، وإما بتخذيّلهم ، وإما بسكوتهم الدالّ على الرضا بما يجري حول بيت عثمان ! .

(١) الكامل للمبرد جزء ٢ ص ٣٣ .

كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمرو بن العاص ، وقد سأله عن قتل عثمان :

« إنك تسألني : مَنْ قَتَلَ عثمان ؟ وإني أخبرك .. إنه قتل بسيف سلقته عائشة ، وصقله طلحة ، وسمه بن أبي طالب ، وسكت الزبير وأشار بيده ، وأمسكنا نحن ، ولو شئنا دفعنا عنه ! . ولكن عثمان غير وتغير ، وأحسن وأساء ، فإن كنا قد أحسنّا فقد أحسنّا ، وإن كنا أسأنا فاستغفر الله^(١) . »

إن كلمة سعد هذه تلخص مرويّات التاريخ كلها في هذا الأمر ، وتضع كل من اشتركوا في دم عثمان في المكان الذي وقفوه من تلك الفتنة ، وتحملهم نصيبهم من دم الخليفة ، كلٌّ حسب ما كان منه ! .

عائشة - ارضى الله عنها - قد قالت في عثمان قولاً ، أباحت به دمه .. « اقتلوا نعتلاً » وكان قولها هذا هو الذي سلّ السيف الذي رفعه الناثرون في وجه عثمان ، بعد أن كان مغمداً ! .

وطلحة - رضى الله - كان قوة للناثرين يجتمعون إليه ، ويلوذون به .. فكان بعمله هذا أشبه بالصيقل الذي أعطى هذا السيف فعله في القتل ! .

وعلى بن أبي طالب - كرم الله وجهه - جعل للناثرين سلطاناً على عثمان ، حين عتب عليه في أكثر من أمرٍ ، وحين بدا منه اليأس من إصلاح ما بين الخليفة وبين الناثرين ! .

والزبير - رضى الله عنه - كان صمته ، أبلغ من إشارته .. إذ دلّ ذلك على الرضا بهذا الموقف ، الذي يقفه الناثرون من عثمان ! .

وكذلك كان الشأن في موقف الصحابة وغيرهم ممن وقفوا هذا الموقف السليبي.. فذلك معناه أنهم تركوا عثمان لصيره... ولو أنهم شاءوا أن يدفعوا عنه لدفعوا ! .

وإذن فالمسلمون جميعاً شركاء في دم عثمان . .

الذين تولوا قتله بأيديهم . .

والذين كانوا وراء القتلة من الثائرين والمحاصرين .

والذين وقفوا في الجانب الآخر ، ساكدين ، وصامتين ! .

وهكذا يتوزع دم الخليفة على المجتمع الإسلامي كله ! .

بقي عثمان رضى الله عنه ، وبطانته من بنى أمية ! .

أفلا شيء عليهم من هذا الدم المراق ؟ .

وإنصافاً للحق ، إن عثمان - رضى الله عنه - قد جعل للثائرين عليه سبيلاً إلى الثورة ، إن لم تكن على تلك الصورة ، فلا أقل من أن يكون للناس عتب عليه ، وقول فيه ! بما أقسح لبنى أمية من نفسه ، وبما سخا عليهم من يده ، وبما سمح لهم من سلطانه . . فاسأوا الناس سياسة ، خرجوا بها عما عهد المسلمون في خلافة أبي بكر وعمر ، من أمانة وعدل وإحسان .

لقد كان لبنى أمية دور كبير في هذه الأحداث التي أهاجت الأمصار على الخليفة ، وأتاحت للسفهاء ، والمنافقين ، فرصة ، لتحريك الفتن ، وإثارة الشغب .

وإنه لو لم تُحِط بعثمان حاشية كحاشيته تلك ، التي كان لها من سلطان الخليفة سلطان ، أغراها بإحياء النزعات الجاهلية - لولا ذلك لكانت خلافة عثمان - رضى الله عنه - امتداداً طبيعياً لخلافة صاحبيه أبي بكر ، وعمر ،

فما هو - رضى الله عنه - أقلُّ من صاحبيه حبًّا للخير ، وإيثاراً للعدل ، وحرصاً على حيطة الشريعة ، والتزام أحكامها ! .

ولكن هكذا قدّر لعثمان أن يُبتلى بأهله ، وأن يُبتلى مع ذلك بحبِّه القوي لأهله . . ثم يُبتلى ثالثاً ، بزمان غير زمان أبي بكر وعمر ، وبقوم غير قوم أبي بكر وعمر . . ثم يُبتلى رابعاً ، بطول خلافته على المسلمين ، مع شيخوخة وضعف . . وكل هذه آفات ، قد عملت مجتمعة ومتفرقة ، على فتح ثغرات من الجفاء ، بين الخليفة وبين المسلمين ، ومن تلك الثغرات نفذت سهام المتربصين بالإسلام وبالمسلمين الدوائر . . فكانت الفتنة ، وكان ما وراء تلك الفتنة ! ! .

وإذا أردنا أن نعتذر لعثمان - رضى الله عنه - فيما ثار له الثأرون ، وعتب عليه فيه العاتبون ، فإننا نجد وجه العذر في القول بأنه كان مغلوباً على أمره ، وأن قومه قد تواكبوا عليه ، وأحاطوا به ، وحاصروه أشد من هذا الحصار الذى أقامه عليه الثأرون ، فلم يستطع - والحال كذلك - أن يطلق يده من هذا القيد ، وأى يحرق إرادته من هذا الحجر المضروب عليه . . وإذن فالخليفة واقع تحت هذا الإكراه الخفى !

وإذن ، فإن اللائمة ، تقع - ديانةً - على من أكرهوه !

يتحدث ابن خلدون عن الشروط الواجبة في الخليفة ، كى يكون صالحاً للمنصب ، فيجمل هذه الشروط فى : العلم ، والعدالة ، والكفاية ، وسلامة الحواس . . والنسب القرشى !

ثم يورد ابن خلدون شرحاً للأسباب الداعية لكل شرط من هذه الشروط ، والأثر المرتب عند فقدان أى شرط منها .

فإذا جاء عند شرط سلامة الحواس ، قال :

« وأما سلامة الحواس من النقص والمطلية ، كالجنون ، والعمى ، والصمم ، والخرس ، وما يؤثر فقدّه من الأعضاء في العمل . . . فقتل شرط السلامة منها كلها . . . »

ثم يقول : « ويلحق بفقدان الأعضاء المنع من التصرف . . وهو ضربان : ضرب يلحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب ، وهو القهر والمعجز عن التصرف جملة ، كالأسر وشبهه . . وضرب لا يلحق بهذه ، وهو الحجر ، باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ، ولا مشاققة !

فينتقل النظر في حال هذا المستولي ، فإن جرى على حكم الدين والعدل ، وحيد السياسة ، جاز إقراره ، وإلا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علة ، حتى ينفذ فعل الخليفة^(١) . »

والحال التي كان فيها عثمان - رضى الله عنه - أشبه بتلك الحال التي يتحدث عنها ابن خلدون ، فقد كان الخليفة - كما قلنا - واقعا تحت سلطان هذا الإكراه الأدبي ، الحقيقي ، الذي فرضه عليه مروان بن الحكم ، وأهله ، وذوى قرابته من الأمويين !

ولو أن حاشية الخليفة ، سارت سيرة عدل ، وإحسان ، وأخذت بأحكام الشريعة ، والتزمتها في كل ما تورد أو تُصدر أمور . لما القوى الناس على الخليفة ، ولما التفتوا كثيراً إلى بطاقته ، ولكن القوم ساروا سيرة جائزة منحرفة . مستظلين بظل الخليفة ، متحدثين باسمه ، آخذين الأمور بسلطانها فكان لا بد - والأمر كذلك - من أن يستنصر المسلمون - كما يقول ابن خلدون - بمن يقبض يد هؤلاء المنسلطين على عثمان من بنى أمية ، حتى ينفذ الخليفة رأيه وفعله .

وقد أبى عثمان - رضى الله عنه - أن يسلم مروان ، أو يبعده عنه ..
فكان أن تلقى الطعنة التي كانت منصوبة إلى مروان ، وأمثال ، مروان !

إن الخليفة رضى الله عنه ، قُتل مظلوماً .. هذا ما لا شك فيه !

فما فعل الخليفة أمراً يستحق به ، قتلَه وإباحة دمه !

يقول المحب الطبري في الدفاع عن عثمان رضى الله عنه :

« ومن شهد له النبي صلى الله عليه وسلم أنه على الحق ، وأنه يُقتل ظلماً ،

وأمر باتباعه - كيف يتطرق إلى الوهم أنه على باطل ؟

« ثم قد ورد في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبره -

أى عثمان - أن الله يقتضيه بقميص ، وأن المنافقين يريدونه على خلعه ، وأمره

ألا يخلعه ، وأكد عليه الأمر ألا يخلعه .. وفي بعض الطرق - أى طرق الحديث -

أنه نوبه على خلعه ، وأمره بالصبر - فامتنل أمره ، وصبر على ما ابتلى به .

« وهذا من أدل دليل ، على أنه كان على الحق ، وماذا بعد الحق

إلا الضلال ؟ فمن خالفه يكون على الباطل .

« كيف لا ، وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم من أرادوا خلعه بالنفاق ؟

فعل - بالضرورة - أن كل ما روى عنه ، مما يوجب الطعن عليه ، دائر بين

مفتري عليه ومختلق ، وبين محمول - على تقدير صحته - على أحسن التأويلات

ليكون معه - أى مع هذا التأويل - على الحق .. تصديقاً لخبر النبوة المقطوع

بصدقته !

« هذا مع ما علم من سابقته ، وكثرة إنفاقه في سبيل الله ، وشرف منزلته

بالصبر الثابت له في ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فكيف يتوهم فيه

شيء مما ادعاه أهل الأهواء والبدع ؟

ثم يقول :

« ولم يتحقق فيما أناء عثمان معصية ، بل له من المحامل الجليلة الظاهرة ، ما يمنع من اعتقاد الحرمة ، بل الكراهة .. غاية ما في الباب أنه ترك الأولى وهو الأفضل للاتق به ، مما كان عليه الشيخان ، ولعله اعتقد أن ما لا يشبه الأفضل ، هو الأفضل في زمانه وعصره ، فلكل عصر حكم !
نم يقول :

« وعلى الجملة ، فالذي يجب اعتقاده ، ولا يحلّ خلافه ، أن شيئاً مما لا به عثمان لم يخرج فيه عن الحق ، ولا عن الهدى .. تصديقاً لشهادة المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، وإن كان في شيء من ذلك له هوى فيه ، فهو هوى بهدى من الله عز وجل ، وقد وسع الله تعالى في ذلك ، فشهد له قوله تعالى : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » فدل على أن ثمَّ هوى بهدى من الله ! وهوى عثمان منه ، بدليل شهادة النبي صلى الله عليه وسلم ، بأنه على الهدى ، وأنه على الحق ، وأنه مظلوم ، وأمر باتباعه »^(١)

ولكن أذهب دم الخليفة هكذا هدرًا مضاعفًا ؟

لقد ذهب فعلاً !

فما قُتل قتلة عثمان ، الذين تولوا طعمه بالمشاقص ، وضربه بالسيوف .

ولكن قُتل من وراء قتله عشرات الألوف !

ففي هذا الجو العاصف ، والاضطراب الملتهب ، استطاع قتلة عثمان ، ومن وراء القتلة أن يندسوا في مزدهم الثأرين ، وأن يختفوا في أمواج الثورة ، التي أخذت تتراجع وتسكن !

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة جزء ٢ ص ٢٠٠ .

ومن جهة أخرى .. مَنْ كان يتولى القصاص من القتلة ، على فرض التعريف عليهم ، وليس المسلمين حكومة قائمة ؟

إنه لابد - والأمر كذلك - أن يُرجأ القصاص حتى يبايع المسلمون للخليفة الجديد ، الذى إليه مردّ النظر فى هذا الدم المراق ، والقصاص له !

وقد بايع المسلمون لعلى بن أبى طالب ، كرم الله وجهه .. وكان دم عثمان أول مشكلة واجهها .. وقضى خلافته كلها ، دون أن تحلّ هذه المشكلة ، بل كان حلّها فى طعنة غادرة ، من يد آثمة ، اغتالت الخليفة ، وأراقت دمه !

وسنرى تفصيل ذلك فى المباحث التالية !

* * *

الباب الثالث

عَلَى وَالنَّحْلَةِ

من يخلف عثمان ؟ :

منذ بدأ الناس يتحدثون في أمر عثمان ، ويعرضون لسياسته ، وسياسة عماله - وقع عند كثير منهم التفكير في الخليفة الجديد الذي يخلف عثمان ! ونظر بعضهم إلى وراء ماتمخض عنه تلك الأحداث التي شغل بها المسلمون .

كان هناك لاشك أناس لم تشغلهم الأحداث الجارية ؛ عن أن يشاركون في التدبير لما وراء هذه الأحداث . . وكان منهم من فكر في انتزاع الأمر من عثمان أولاً ، فعمل على الإفادة من ملابسات الظروف الجارية ، فعمق مجرى الأحداث ، ووسع دائرتها ، وأمد النار المتأججة بالوقود ، حتى لا تنمخد أو تفترا !

وكان منهم من رأى الأحداث متدفقة متدافعة ، وأنها لا بد منتهية بزحزحة عثمان عن مكانه ، فسبق الأحداث ، وأخذ لنفسه - مقدماً - المكان الذي قدّر أن الأيام ستضعه فيه^(١) .

بل إنا لنذهب إلى أكثر من هذا ، فنقول : إن أمر عثمان قد بات مفروغاً منه ، عند أكثر الصحابة - رضوان الله عليهم - منذ بدأت الأحداث

(١) وذلك كما فعل طلحة حين استولى على بيت المال ، فهو مقدمه لتولى الخلافة .

تتحرك ، وأخذت تطرق باب عثمان طرقة خفيفاً أول الأمر ، ثم جعلت تطرقه طرقة عنيفاً مدحاً عند ما بلغ الأمر غايته

كان كثير من الصحابة يحاولون جاهدين دفع هذه الفتنة ، وهم في الوقت نفسه يرون أنه لا قبل لهم بدفعها ، وأن ما بين المسلمين وبين عثمان قد أصبح بحيث لا يمكن إصلاحه ، وأن الناس لا يرضون من عثمان إلا بخلعه أو قتله ! ومع هذا ، فهم يريدون أن يعذروا لأنفسهم ، وأن يُبرئوا ذمتهم ، في النصيح للمسلمين ، في هذه الفتنة .

وإذن ، فقد كان في الوقت فسحة للتفكير في الخليفة الجديد ، الذي يخاف عثمان !

كان هناك من أصحاب الشورى : علي ، وسعد ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف !

أما عبد الرحمن بن عوف . . . رضى الله عنه - فقد سبق إلى ربه قبل أن يقتل عثمان^(١) ، فلم يشهد ما بعد هذه المحنة ، ولم يشارك فيما جدّ من بلاء ، وإن كان قد رأى الأحداث التي جرت في أخريات عثمان ، وكان له على ذلك عتاب ومراجعة معه .

علي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد . . هم إذن المنظور إليهم من الناس ، للخلافة بعد عثمان ، لأنهم بقية العشرة المبشرين بالجنة ، وبقية أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة في واحد منهم .

على أن حصر الخلافة في هؤلاء الأربعة - علي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد - لم يكن أمراً مقضياً ، وحكماً لازماً .

(١) مات عبد الرحمن سنة إحدى وثلاثين أو اثنتين وثلاثين ، وقتل عثمان سنة خمس وثلاثين .

فقد كان للخليفة عثمان أن يختط خطة لاختيار الخليفة من بعده . كأن يستمى للخلافة شخصاً بعينه ، كما فعل أبو بكر في اختيار عمر ، أو يستمى لها عدداً أقل أو أكثر ، على نحو ما فعل عمر ، أو يتخذ أسلوباً آخر غير هذا وذاك !

ولسكن عثمان - رضى الله عنه - كان في حال لا نسمح له بأن يقول في الخلافة من بعده قولاً ، يستمع له الناس وبأخذون به ، إذ كيف يكون هذا والناس ينازعونه الأمر الذى في يده ، ويحاولون أن يخرجوه منه ؟

وكان يمكن أيضاً أن يكون لبنى أمية مطمع في الخلافة بعد عثمان ، وأن يقدّموا واحداً منهم ليبيع له الناس ، بعد أن فتح لهم عثمان الطريق إلى السلطان ، بعد أن كان مغلقاً دونهم !

ولسكن لم يكن الظرف مواتياً ، لسكى يكون لبنى أمية مكان في الخلافة الجديدة . !

ذلك أنهم كانوا يوم مقتل عثمان موضع سخط الناس وتقمّتهم ، إذ بسببهم كانت هذه الفتنة ، وكان قتل الخليفة . !

ثم إن الخليفة الذى نار عليه الناس وقتلوه ، هو من بنى أمية ، وهو الوجه المشرق منهم ، الذى أخذ لهم بسابقة في الإسلام ، وبحظ عظيم من الجهاد في سبيل الله ، وبهذا اختاره المسلمون - عن رضى - خليفة لرسول الله عليهم . . فلا يكون من المستساغ أن ينزع الناس خير بنى أمية ، من الخلافة ، ثم يكون لهم تفكير في أحد من بنى أمية من بعده ، ليعقموه مقامه .

وعلى هذا فإنه لم يعد ثمة محيص عن الاتجاه إلى هؤلاء الأربعة من أصحاب الشورى ، ليختار المسلمون واحداً منهم ، للخلافة ، بعد أن قتل عثمان ، وأصبح المسلمون بلا أمير عليهم !

فلقد كان هؤلاء الأربعة إلى يوم مقتل عثمان ، على ما تركهم عمر ، من رضى

المسلمين عنهم ، والتسليم لهم بالخلافة ، دون أن ينازعهم أحد ، أو يشاركهم أحد !

ثم إنه في هذا الجو المضطرب العاصف ، الذي خلقه مقتل عثمان ، لم يكن لأحد أن يحدث حدثاً جديداً ، أو يفتح على الناس باباً آخر من أبواب الخلاف والفتنة ، وحسب الناس ما هم فيه من بلاء ، لا يدرون ما الله صانع بهم فيه ! وعلى - كرم الله وجهه - هو أول من رآه الناس ملاذاً يلوذون به ، من هذا البلاء الذي نزل بهم ، فانتالوا إليه من كل صوب ، كما ينتال الجيش المنهزم ، يرى وجهها انفتح له من وجوه النجاة ، وقد ركب العدو ، ورهقه !

البينة لعلي :

يقول علي بن أبي طالب ، في إحدى خطبه ، بعد أن ولي الخلافة ، ووقع الخلاف بينه وبين أصحاب الجمل ، والخوارج ، ومعاوية :

« فما راعني إلا والناس كعُرف الضبع^(١) إلى ، ينتالون علي من كل جانب ، حتى لقد وُطئ الحسنان ، وشقَّ عطفائي !! مجتمعين حولي كربيضة الغنم^(٢) ، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وفسق آخرون . »^(٣)

إن أمراً كهذا لا بد أن يحدث ، بعد أن أصبح الناس بلا إمام ، وبعد أن عمّت الفوضى ، وصار الأمر إلى تلك الجماعات الواردة على المدينة ، والخارجة على السلطان !

(١) المرووف عن عرف الضبع كثافة شعره ، وهو يريد بها كثافة الناس .

(٢) الربيعة الجماعة ، وشبههم بالغنم لما هم فيه من ضعف وتخاذل في هذه المحنة

(٣) نهج البلاغة : ص ١٨ .

روى البلاذرى ما حدث يوم البيعة ، فقال :

« وخرج على فأتى منزله .. وجاء الناس كلهم يهزّعون إلى عليّ .. أصحاب النبيّ وغيرهم ، وهم يقولون : « إن أمير المؤمنين عليّ » حتى دخلوا داره ، فقالوا له : نبايعك ، قد يدك ، فإنه لا بد من أمير !

« فقال عليّ : ليس ذلك إليكم ، إنما ذلك إلى أهل بدر ، فمن رضى به أهل بدر ، فهو خليفة .. فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى عليّاً ، فقالوا : ما نرى أحداً أحقّ بهذا الأمر منك »^(١)

ويقول الطبرى : « فأتاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن هذا الرجل (يعنى عثمان) قد قُتل ، ولا بد للناس من إمام ، ولانحد اليوم أحقّ بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لاتفعلوا !! فإني أكون وزيراً ، خير من أكون أميراً ، فقالوا : لا : ، والله مانحن بفاعلين حتى نبايعك ، قال ففى المسجد ! فإن بيعتى لاتكون خفياً ، ولا تكون إلا عن رضى المسلمين ! »^(٢)

وفى رواية أخرى يقول الطبرى :

« اجتمع المهاجرون والأنصار .. فيهم طلحة ، والزبير ..

فأتوا عليّاً .. فقالوا : يا أبا الحسن ، هلم نبايعك !

فقال : لا حاجة لى فى أمركم ! أنا معكم ، من اخترتم فقد رضيت .. فاختاروا

فقالوا : والله مانختار غيرك !

(١) أنساب الأشراف جزء : ٥ ص ١٨ .

(٢) الطبرى جزء : ٥ ص ١٥٢ .

قال: مَنْ؟

قالوا: علياً!

قال: تجتمع الشورى وتنظر!

فقال: اخرج فبايع.

فامتنع عليهم. فجاءوا به يلبسونه... فبايعه بلسانه، ومقعه يده!

قال أبو ثور: كنت فيمن حاصر عثمان... فكنت أخذ سلاحى وأضعه، وعلى ينظر إلى، لا يأمرنى، ولا ينهىنى.. فلما كانت البيعة له خرجت فى أثره، والناس حوله يبابعونه، فدخل حائطاً من حيطان بنى مازن، فألجأوه إلى نخلة. وحالوا بينى وبينه، فنظرت إليهم، وقد أخذت أيدى الناس ذراعه تختلف أيديهم على يده، ثم أقبل إلى المسجد الشريف، وكان أول من صعد المنبر طلحة، فبايعه بيده، وكانت أصابعه شلاء؛ فتطير منها على، فقال: ما أخلاقها أن تفكث، ثم بايعه الزبير، وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً^(١)»

هذا مجهل ما يروى من أخبار البيعة لعلى.. بعد مقتل عثمان.. وكلها تشير إلى أن الناس كانوا فى عجلة من أمرهم، حتى يسدوا أبواب هذه الفتن، التى إن لم يعاجلوها بهذا التدبير دخل عليهم منها مالا يقبل لهم به، من وجوه البلاء!

وقد تردد على أول الأمر، وحُق له أن يقف هذا الموقف، فإن الأمر خطير، والمعبء قادم ثقيل، ولكن الأحداث تجري فى جنون عاصف،

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٤٦

وأمر المسلمين في معرض الضياع والتلف ، وكل لحظة تمر تُدنى الفاس من هذا المصير المشئوم الذي تنطلق نحوه العاصفة !

ولإذن فهي المحاطرة والمجازفة ، للقاء هذا المرقف ، واحتمال تبعاته .

وإنه لا يقوم لهذا الأمر إلا أولو العزم من الرجال ، وإلا من اعتادوا ملاقات الأهوال ، ومصادمة الشدائد !

إنها معركة من تلك المعارك التي يتقرر فيها مصير الإسلام !

ولم يكن لعليّ كرم الله وجهه ، أن يتأبث أو يحجم عن خوض هذه المعركة ،

غير ناظر إلى ما يكابده فيها من محن ، وما يصيبه من ضرر ، ولو ذهب ذلك بنفسه ، وقضى على حياته ، فما عمل الإمام - رضى الله عنه - حساباً لوجوده ولا لحياته ، مع وجود الإسلام وحياة الإسلام !

وقد يبدو للناظر في ظاهر هذا الموقف ، أن الإمام - كرم الله وجهه - كان قد فرغ فيما بينه وبين نفسه من التفكير في الخلافة ! وأنه لم يكن يرى لها أحداً غيره بعد عثمان ، ولهذا فقد تلقى البيعة من الناس وكأنها أمر مقرر مفروغ منه !

وربما كان الأمر يقع على هذا الوجه ، لو أن عثمان أخلى مكانه على صورة غير تلك الصورة ، التي اضطرب لها المجتمع الإسلامي كله . . ولكن الموقف يختلف أشد الاختلاف بهذا الحدث الخطير ، الذي يلقى على عاتق الخليفة الجديد مسئوليات جسيمة ، ويحمله تبعات الأحداث الماضية ، التي لم يكن له يد فيها ، ولا سلطان عليها !

لقد قدر عليّ كرم الله وجهه ، هذا الموقف ، ووزنه وزناً دقيقاً ، وعرف التبعات التي سيحملها ، وأنها تبعات لا تدع له سبيلاً إلى لحظة من الاستقرار

والهدوء ... ولكنه محمول على أن يركب هذا المركب الوعر ، وأن يلقى بنفسه في هذا البحر اللجج المتلاطم ، لينقذ ما يمكن إنقاذه من هذا الجيش المهزم ! يقول الإمام في إحدى خطبه ، بعد أن تداعت عليه الفتن ، وماجت به الأحداث :

«أما والذي قلّ الحبّة ، وبرأ الدّسمّة ، لولا حضور الحاضر^(١) ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء ألا يّقارّوا على كِظّة ظالم ، ولا سَنّب مظلوم لألقيت حبلا على غاربها^(٢)» .

وقد رأينا من قبل ، كيف أن المسلمين قد تواكبوا عليه ، وألزموه البيعة ، وخوفوه عاقبة الأمر إذا هو لم يقم له ، ويجمع الناس تحت راية الخلافة ، قبل أن يذهب بهم الخلاف كل مذهب ! فلم ينهوه إلى شيء غفل عنه ، وعما وراءه من أحداث !

حين استعلن الخلاف بين عليّ والمشايقين له . وحين لم يبق سبيل إلا السيف للفصل في هذا الخلاف ، أقبل الحسن بن عليّ بعاتب أباه ، وبذكر له ما كان بينهما من حديث ومراجعة في الخلافة بعد عثمان . يقول الحسن لأبيه :

أما والله . كفت أمرتك^(٣) فمعصيتي !

فقال له عليّ : وما أمرتني به فمعصيتك ؟

قال : أمرتك أن تركب رواحلك ، فتلحق بمكة ، فلا تُتَّهم به (أي بقتل

(١) أي حاضر من أحداث ، وقع من اضطراب .

(٢) يقصد الخلافة وتخليه عنها .

(٣) الأمر هنا معناه النصح ، وإبداء الرأي . قال أحد بني هوازن :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

عثمان) ولا تحل شيئاً من أمره ، فعصيتنى ! وأمرتك حين دُعيت إلى البيعة
ألا تبسط يدك إلا على بيعة جماعة فعصيتنى !

« وأمرتك حين خالف عليك طلحة والزبير ألا تكرهما على البيعة ،
وتُحَلَّ بينهما وبين وجهيهما ، وتدع الناس ينشاورون عاماً كاملاً ، فوالله
لو تشاوروا عاماً ، ما زويت عنك ، ولا وجدوا منك بداً . . وأنا آمرتك اليوم
أن تُقبلهما بيعتهما ، وترد إلى الناس أمرهم ، فإن رفضوك رفضتهم ، وإن قبلوك
قبلتهم ، فإني والله قد رأيت الغدر في رؤوسهم ، وفي وجوههم النكث
والكراهية !

فقال له علي : أنا إذن مثلك^(١) ! لا والله يا بني . . ولكن أقاتل بمن
أطاعني من عاصي ، وأيم الله يا بني ما زلتُ مبغياً على منذ هلك جدك . !

فقال له الحسن : وأيم الله يا أبت ليظهرنّ عليك معاوية ، لأنه « مَنْ قَتَلَ
مظلوماً فقد جعلنا لولتيه سلطاناً » ؟

فقال علي : يا بني ، وما علينا من ظلمه ؟ والله ما ظلمناه ، ولا أمرنا ،
ولا نصرنا عليه . ولا كتبت إلى أحداً فيه سواداً في بياض ، وإنك اعلم أن
أباك أبرأ الناس من دمه ومن أمره .

فقال الحسن : دع عنك هذا ، والله إنى لا أظن ، بل لأشك أن ما بالمدينة
عائق ، ولا عذراء ، ولا صبي ، إلا وعليه كِفْل من دمه ! !

إن علياً كان يعلم - يوم مَدَّ يَدَهُ للبيعة - ما هو مقبل عليه ، وأنه لو
كان يريد السلامة لنفسه ، والعافية في أمره ، لكان على الرأي الذي رآه ابنه

(١) أى أطلب السلامة لنفسى ولدينى ، غير ناظر إلى سلامة الناس في أنفسهم ودينهم

الحسن ، ولكنه يَأْبَى أن يقف هذا الموقف السلبى . من أخطار تُحْدِق بالمسلمين ،
وتفغر فاهها ، لتأكل الأخضر واليابس .

روى الشريف الرضى أن الإمام على رضى الله عنه ، حين تراحم الناس
عليه ، بعد ما قتل عثمان يريدونه على البيعة . خطب فيهم . فكان مما قال :
« دعونى ، واتمسوا غيرى ، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ،
لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت ، والحجة
قد تنسكرت ، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم اصنع إلى قول
القاتل وعُتْب العاتب ، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ، ولعلى أسمعكم وأطوعكم
لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خيراً لكم منى أميراً » .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده تعليقاً على مافى كلمات الامام على هذه
من إشارات ودلالات : « وذلك أن الأطماع كانت قد تفهت فى كثير من
الناس على عهد عثمان رضى عنه ، بما نالوا من تفضيلهم بالعطاء ، فلا يسهل
عليهم فيما بعد أن يكونوا فى مساراتهم غيرهم ، فلو تناولهم العدل انفتلوا منه ،
وطلبوا طائشة الفتنة ، طمعاً فى نيل رغباتهم ، وأولئك هم أغلب الرؤساء
فى القوم ، فإن أقرهم الإمام على ما كانوا عليه من الامتياز فقد أتى ظلماً
وخالف شريعاً . والناقمون على عثمان ، قائمون على المطالبة بالنصف ، إن
لم ينالوها تحرشوا للفتنة ! ! فأين الحجة للوصول إلى الحق على أمن من الفتنة ؟
وقد كان بعد بيعته ما تفرس به قبلها !^(١) »

المتخلفون عن البيعة :

قالوا : وتخلف عن بيعة على : عبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ،

(١) نهج البلاغة جزء ١ ص ٨٨ (شرح الإمام الشيخ محمد عبده)

وأسماء بن زيد ، وحسان بن ثابت ، وسعد بن أبي وقاص .

« قال ابن إسحق : إن عثمان لما قتل ، ببيع عليّ بيعة عامة في مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وبايع له أهل البصرة ، وبايع له بالمدينة طلحة والزبير .

« وقال أبو عمر : واجتمع على بيعة عليّ المهاجرون والأنصار ، وتخلف عن بيعته نفر ، فلم بكرهمهم ، وسئل عنهم فقال : « أولئك قوم قعدوا عن الحق ، ولم يقوموا مع الباطل ! »^(١).

وقالوا : جاء عمار بن ياسر ، والأشتر ، إلى عليّ ، فقال عمار :
« يا أمير المؤمنين . . قد بايعك الناس كافة إلا هؤلاء النفر . . فلو دعوتهم إلى البيعة ، كي لا يتخلفوا في ذلك عن المهاجرين والأنصار !!

فقال : يا عمار . . لا حاجة لنا فيمن لا يرغب فينا ! .
فقال الأشتر . إن هؤلاء ، وإن كانوا سبقوا بعضنا إلى رسول الله ، غير أن هذا الأمر يجب أن يجمعوا عليه ، ويرغبوا فيه ! .

(يريد الأشتر ألا يجعل هؤلاء المتخلفين عن البيعة حقاً في التخلف ، والافراد برأى في الخلافة ، بما لهم من سابقة في الإسلام ، فإن أمر الخلافة ينبغي أن ينزل المسلمون جميعاً على حكم سواء فيه) .

فقال عليّ : يا مالك (يعني الأشتر) : إني أعرف بالناس منك . . دع هؤلاء يعملوا برأيهم ! .

(١) الرياض النضرة جزء ٢ ص ٣٢٤ .

فجاء « سعد » إلى عليّ ، وقال : يا أمير المؤمنين . . لا ريب لي في أنك
أحق الناس بالخلافة ، وأنتك أمين على الدين والدنيا ، غير أنه سينازعك
على هذا الأمر أناس ، فلو رغبت في بيعتي لك ، أعطاني سيفاً له لسان ، يقول لي :
خذ هذا ، ودع هذا !!

فقال عليّ : أترى أحداً خالف القرآن ، في القول أو العمل ؟ لقد بايعني
المهاجرون والأنصار ، على أن أعمل فيهم بكتاب الله ، وسنة نبيه ، فإن رغبت
بايعة ، وإلا جئت في دارك ، فإنني لست مكرهك عليه^(١) ! .
ويقول ابن قتيبة :

وذكروا أن عمار بن ياسر ، قام إلى عليّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ائذن لي
أن آتي عبد الله بن عمر ، فأكله ، لعله يخفّ معنا في الأمر ، فقال عليّ : نعم !
فأتاه . . فقال يا أبا عبد الرحمن . . إنه قد بايع عليّاً المهاجرون والأنصار ،
ومن إن فضلناه عليك لم يُسخطك ، وإن فضلناك عليه لم يُرضك . .
وقد أنكرت السيف في أهل الصلاة ، وقد علمت أن على القاتل القتل ،
وعلى المحصن الرجم . . . وأن عليّاً لم يقتل أحداً من أهل الصلاة ، فيلزمه
حكم القاتل !! .

فقال ابن عمر : يا أبا اليقظان . . إن أبي جمع أهل الشورى ، الذين قبض
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عنهم راض ، فكان أحقهم بها عليّ . .
غير أنه جاء أمر فيه السيف ، ولا أعرفه . . ولكن والله ما أحب أن لي الدنيا
وما عليها وأنني أظهرت أو أضمرت عداوة عليّ ! .
فانصرف عنه فأخبر عليّاً بقوله ! .

فقال عليّ : لو أتيت محمد بن مسلمة الأنصار !! .

(١) تاريخ ابن اعثم ص ١٦٣ ، نقلا عن أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ١٢٠ .

فأتاه عمار ، فقال له محمد :

«مرحباً بك أبا القيثان ، على فُرقهِ ما بيني وبينك^(١) !! والله لولا ما في يدي من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لبايعت علياً^(٢) ، ولو أن الناس كلهم عليه لكانت معه ! ولـكنه يا عمار كان من البهيّ أمر ذهب فيه الرأي ! .
فقال عمار : كيف ؟ .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتَ المسلمين يقتتلون ، أو إذا رأيتَ أهل الصلاة^(٣) .

فقال عمار : فإن كان قال لك إذا رأيتَ المسلمين ، فوالله لا ترى مسلمين يقتتلان بسيفيهما أبداً ، وإن كان قال لك أهل الصلاة ، فمن سمع منك ؟ إنما أنت أحد الشاهدين ! أفتريد من رسول الله قولاً بعد قوله في حجة الوداع : «دماؤكم وأموالكم حرام ، إلا يتحدث ! ؟» فتقول يا محمد : لا نقاتل المحدثين ؟ .
قال : حسبك ، يا أبا القيثان ! » .

كان محمد بن مسلمة قد سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً فيما ينبغي أن يأخذ به نفسه ، حين يكون بين المسلمين قتال ، وهو اعتزال المتقاتلين ، ولـكنه غاب عنه الوصف الذي عليه أولئك الذين يتقاتلون ، وهل وصفهم الرسول بأنهم مسلمون ، أو أهل صلاة ! ؟

(١) كان عمار من الناهخين في الدعوة لعلي ، وكان محمد بن مسلمة من المتوقفين في البيعة له . . فأمرهما مختلف ! .

(٢) يشير إلى أن في يده قولاً من رسول الله عليه وسلم ، وأن هذا القول هو الذي جعله يقف من بيعة علي هذا الموقف .

(٣) جواب الشرط هنا محذوف . . ومفهومه اعتزال الأمر ، والتوقف عن الدخول فيه ، وقد شك محمد بن مسلمة فيما سمع من الرسول ، وهل قال له : إذا رأيتَ المسلمين ، أو قال : إذا رأيتَ أهل الصلاة .

وقد فَرَّقَ عمار بين الوصفين .. فإن كان الرسول قال في وصفهم إنهم مسلمون .. فذلك مالا يكون ، لأن المسلم لا يقاتل المسلم ، وهو على تلك الصفة ! إلا إذا اشتمل أحدهما على النفاق ، فكان مسلماً في ظاهره ، منافقاً في باطنه !

أما إن كان الرسول قد وصف المتقاتلين بأنهم أهل الصلاة .. فهذا ما يشك عمار في قبوله عن رسول الله بشهادة محمد بن مسلمة ، إلا أن يكون معه شاهد آخر ! وذلك أن أهل الصلاة قد يكون منهم المنافقون وهم يقيمون الصلاة . ! ومحمد بن مسلمة قد شك فيما سمع من الرسول ، فلا يدفع هذا الشك إلا بشاهد آخر .

وعلى أيّ ، فإن محمد بن مسلمة لم يتحول عن رأيه ، وظل متمسكاً بموقف الحياء من هذه الفتنة !

ثم يقول ابن قتيبة :

« ثم أتى - عمار - سعد بن أبي وقاص ، فأكلمه ، فأظهر الكلام القبيح ! فانصرف عمار إلى عليّ .

فقال له عليّ : دع هؤلاء الرهط .

« أما ابن عمر فضعيف !

« وأما سعد .. فحسود !

« وذهبي إلى محمد بن مسلمة ، أتى قتل أخاه يوم خيبر .. مرحباً اليهودي ! »^(١)

أما أسامة بن زيد ، فقد جاء إلى عليّ يقول له : « والله لو أدخلت يدك في

فم ثنتين لأدخلتُ يدي معها، ولكنك قد سمعت ما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين قتلْتُ ذلك الرجل ، الذي شهد أن لا إلهَ إلا الله ! »
وحديث هذا الرجل الذي قتله أسامة ، أنه كان كافرًا ، وكان يحارب المسلمين ، مع جماعة من الكفار .

يقول أسامة : « فلما أدركته أنا ورجل من الأنصار ، وشهرنا عليه السلاح ، قال : « أشهد أن لا إلهَ إلا الله » فلم نزع عنه حتى قتلناه . . . !
فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرناه خبره ، فقال : يا أسامة . . من لك بلا إلهَ إلا الله ؟ فقلت يا رسول الله ، قالها نعوذًا من القتل ! فقال : من لك يا أسامة بلا إلهَ إلا الله ؟

« فوالذي بعثه بالحق .. مازال يرددُها حتى وددت أن ماضى من إسلامي لم يكن ، وأنى أسلت يومئذ ! .. فقلت : أعطى الله عهداً لا أقتل رجلاً يقول لا إلهَ إلا الله ! »^(١)

فهذا هو الحاجز الذي يحجز أسامة عن البيعة لعليّ ، وهو يعلم أنه لو بايع عليًا لوجب عليه أن يقاتل معه الخارجين عليه من المسلمين .. ولولا ذلك لما تردد أسامة في أن يتبع عليًا حيث يكون ، ثقةً منه بدينه ، وعدله !

ولاشك أن هؤلاء النفر الذين تخلفوا عن بيعة عليّ ، ليسوا هم كل من تخلف من المهاجرين والأنصار ، ولكنهم كانوا الرؤوس البارزة فيمن تخلف . وسنرى بعد قليل . . كيف اجتمع إلى عائشة ، وطلحة والزبير ، أعداد غير قليلة من المهاجرين والأنصار ، وفيهم بعض الصحابة ، فكانوا جيشاً محارباً لعليّ ، يريد انتزاع الخلافة منه !

(١) أسد الغابة ، في معرفة الصحابة : ١ - ٨٨ .

عائشة وموقفها من البيعة :

كانت عائشة - رضى الله عنها - في مكة ، حين قتل عثمان . . . تترقب ما تنكشف عنه الأحداث الجارية في المدينة ، وتتوقع النهاية السريعة للمعركة الدائرة هناك !

وقد رأينا أن خروجها من المدينة ، كان أشبه بإعلان الحرب الصريحة على عثمان ، وأنها لم تستجب لدعوة من دعواها أن تظل بالمدينة ، إلى جوار الخليفة ، لتمسك عنه بعض الثورة القائمة عليه ، فردتهم ردًا عنيفًا ، كشفت به عن رأيها في عثمان ، وما تنتظر له !

وفي طريقها إلى الحج استمعنا إلى حديثها مع ابن عباس ، ورأيها فيمن يخلف عثمان ، وأنها كانت لا ترى غير طلحة أحدًا أولى به من هذا الأمر ، وقد واجهها ابن عباس برأيه ، وأن الناس لا يعدلون بعليّ أحدًا ، إن نزل بعثمان قضاؤه ! عزلاً ، أو موتاً ، أو قتلاً !

وبينا أم المؤمنين بمكة تتأهب للعودة ، بعد أن قضت مناسك الحج ، وردّت الأخبار بمقتل الخليفة ، فأسرعت نحو المدينة ، ليكون لها رأيها في الخليفة الجديد ، أو بمعنى أصح لتكون رأيها ، وتديرها ، وسمطانها عوناً لمرشحها للخلافة ، ابن عمها طلحة بن عبيد الله !

ولو أن عائشة - رضى الله عنها - أدركت البيعة قبل أن تتم لعليّ ، لكان هناك صدام عنيف ، بين عليّ وطلحة ، ولشهد المسلمون فرقة وانقساماً ، ربّما كان لهم منه يوم كيوم الجمل ! أو ربّما عجل بيوم الجمل فجعل ميدانه المدينة ! ولكن الأمر كان قد مضى ، ونمت البيعة لعليّ ، وأم المؤمنين في الطريق ،

لم تدخل المدينة بعد . . . !

وكان طلحة قد تقدم للبيعة ، واتجه بعض الناس إليه ، حين تردد على
في قبول الخلافة . . فلما رأى على ما كان من طلحة مَدَّ يده إلى المبايعين ، فقال
إليه الناس ، وعدلوا عن طلحة . . ثم حملوا طلحة على أن يبائع ، فبائع . . وتمت
البيعة لعلى في اليوم الثامن من مقتل عثمان !^(١)

روى الطبرى : أنه قدم على أمير المؤمنين ، وهى بمكة ، رجل يقال له
الأخضر .

فقلت : ما صنع الناس ؟

فقال : قَتَلَ عثمانُ المصريين !

فقلت : إنا لله ، وإنا إليه راجعون . . أَيْقَتَلُ قوماً جاءوا يطلبون الحق ،
وينكرون الظلم ؟ ؟ لا ترضى بهذا !

ثم قدم آخر . .

فقلت : ما صنع الناس ؟

قال : قَتَلَ المصريون عثمان ؟

قلت : العجب ! الأخضر زعم أن المقتول هو القاتل !! فكان يضرب
به المثل ، فيقال : « أ كَذَبَ من أخضر ! »^(٢)

وروى البلاذرى أنه حين بلغها قتل عثمان وهى بمكة أمرت بقتلها
فضربت في المسجد الحرام ، وقالت : إني أرى عثمان سيشأم قومه ، كما شأم
أبو سفيان قومه يوم بدر ! »^(٣)

(١) انظر الرياض النضرة في مناقب العشرة

(٢) الطبرى جزء ٥ ص ١٦٦ .

(٣) أنساب الأشراف : جزء ٥ ص ٩١ .

قالوا : ثم أقبلت مسرعة إلى المدينة ، وهي لاتشك في أن طلحة صاحب هذا الأمر ، وكانت تقول : بَعْدًا النعثل وسُحْفًا إِيَّاهِ ذَا الإصبع إِيَّاهِ أبا شبل ! إِيَّاهِ ابْنَ عَمٍّ .. اللَّهُ أَبُوكَ ! أما إنهم وجدوا طلحة لها كَفَنًا ، لكأنى أنظر إلى إصبعه وهو يبايع .. حُتُّوا الإبل ودَعِدَعَوْهَا ^(١) !! »

قالوا : ولما انتهت إلى سَرَف ^(٢) في طريقها إلى المدينة ، لقيها عبيد بن أم كلاب ، فقالت له : مَهْمَيْم (أى ما عندك ؟)
قال : فَعَلُوا عَثَانَ .. ثم مَكَّنُوا نَمَانِيَا !
قالت : ثم صَنَعُوا مَاذَا ؟

قال : أَخَذَهَا أَهْلُ الْمَدِينَةِ بِالْإِجْمَاعِ ، فَجَازَتْ بِهِمْ إِلَى خَيْرِ مَجَازٍ ..
اجْتَمَعُوا إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ !

فَقَالَتْ : وَاللَّهِ لَيْتَ أَنَّ هَذِهِ انْطَبَقَتْ عَلَى هَذِهِ ، إِنْ تَمَّ الْأَمْرُ لَصَاحِبِكَ .. !
وَيَحْكُ انْظُرْ مَا تَقُولُ !

قال : هُوَ مَا قُلْتُ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !

فَوَلَوْتُ !

فَقَالَ لَهَا : مَا شَأْنُكَ يَا أُمَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ وَاللَّهِ لَا أَعْرِفُ بَيْنَ لَا بَنَيْهَا ^(٣) أَحَدًا
أُولَى بِهَا مِنْهُ ، وَلَا أَحَقَّ . ! وَلَا أَرَى لَهُ نَظِيرًا فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ .. فَاذَا
تَسْكُرْهِينَ مِنْهُ ! ؟

فَقَالَتْ : قُتِلَ عَثَانُ وَاللَّهِ مَظْلُومًا ! وَأَنَا طَالِبَةٌ بِدَمِهِ !

(١) أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ١١٨ .

(٢) سرف على مسيرة ليلة من مكة .

(٣) لابنيها : مفردة لابة ، واللابة الحرة ، ولابنا المدينة : حرتان يكتنفانها .

فقال لها عبيد : إن أول من طعن عليه ، وأطمع الناس فيه ، لأنت ! ولقد قلت : اقتلوا امتلاً فقد جبراً !

فقلت : قد والله قلتُ ، وقال الناس ، وآخر قولي خير من أوله !!

فقال عبيد : عذر والله ضعيف يا أم المؤمنين .. ثم قال :

فمنك البداء ، ومنك الغبر ، ومنك الرياح ، ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر !
فهبنا أطعناك في قتله وقاتله عندنا من أمر !
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذاتدراً يزبل الشبا ، ويقم الصعر^(١)
ويلبس للحرب أثوابها وما من وفي مثل من عذر

قالوا : فرجعت إلى مكة ، فنزلت على باب المسجد ، فقصدت الحجر ، فتسترت ، واجتمع إليها الناس ، فقالت :

« يا أيها الناس : إن عثمان قتل مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه !! »

وكانت تقول : يامعشر قريش : إن عثمان قد قتل ، قتله علي بن أبي طالب ، والله لليلة من عثمان خير من علي الدهر كله !!^(٢)

كان صوت عائشة - رضى الله عنها - أول صوت أعلن المعارضة لعلي ،

(١) ذا تدراً : ذا قوة ومنعة ، والشبا : الكبير ، والعلو ، والصعر : ميل الحد نبهاً وعجياً .

(٢) الطبري جزء ٥ ص ١٧٢ ، الإمامة السياسية ١ ص ٥٣ ، أنساب الأشراف جزء ٥ ص ٩٩ .

وَأُلْقِيَ عَلَيْهِ تَبْعَةٌ قَتَلَ عَثْمَانُ ! وَمِنْ وَرَاءِ هَذَا الصَّوْتِ جَاءَتْ أَصْوَاتُ أُخْرَى ،
تَعَارِضُ ، وَتَتَهَمُّ ، وَتَتَحَدَّى !

قَالُوا : إِنْ مَرَّ بِنَ الْحَكَمِ ، وَسَمِيعُ بْنُ الْعَاصِ ، وَالْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ ، جَاءُوا
إِلَى عَلِيٍّ ، فَقَالَ الْوَلِيدُ ، - وَكَانَ لِسَانُ الْقَوْمِ - : يَا هَذَا ، إِنَّكَ قَدْ وَتَرْتَنَا . .
أَمَّا أَنَا فَقَدْ قَتَلْتَ أَبِي صَبْرًا يَوْمَ بَدْرٍ . . وَأَمَّا سَمِيعُ ، فَقَدْ قَتَلْتَ أَبَاهُ يَوْمَ بَدْرٍ ،
وَكَانَ أَبُوهُ نَوْرَ قَرِيشٍ ، وَأَمَّا مَرَّ بِنُ فَقَدْ شَتَمْتَ أَبَاهُ ، وَعَبَيْتَ عَلَى عَثْمَانَ ، حِينَ
ضَمَّهُ إِلَيْهِ ، وَإِنَّا نَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ تَضَعَ عَنَّا مَا أَصَبْنَا ، وَتَعْفُو لَنَا عَمَّا فِي أَيْدِينَا ،
وَتَقْتُلَ قَتْلَهُ صَاحِبَنَا !

فَقَالَ عَلِيٌّ :

« أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ وَتَرِي إِيَّائِي ، فَالْحَقُّ وَتَرَكْتُ ، وَأَمَّا وَضَعِي عَنْكُمْ عَمَّا فِي
أَيْدِيكُمْ ، فَمَا كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَالْعَدْلُ يَسْعَى ، وَأَمَّا قَتْلِي قَتْلَةَ عَثْمَانَ ، فَلَوْلَزِمْنِي قَتْلَهُمْ
الْيَوْمَ لَزِمْنِي قَتْلَهُمْ غَدًا . . وَلَكِنْ لَكُمْ أَنْ أَحْكُمَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ، وَحَسَنَ
نَبِيِّهِ ، فَمَنْ ضَاقَ الْحَقُّ عَلَيْهِ ، فَالْبَاطِلُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ . . وَإِنْ شَتَمْتُمْ فَالْحَقُّوا
بِمَلَا حَقِّكُمْ ! » .

فَقَالَ مَرَّ بِنُ : بَلْ نَبَايَعُكَ ، وَنَقِيمُ مَعَكَ ، فَتَرَى ، وَتَرَى ! «^(١)

بَدَأَتْ الْخِلَافَاتُ الْخَفِيَّةُ تَظْهَرُ ، وَتَعْلَمُ عَنْ نَفْسِهَا فِي صُورِ شَتَّى . . !
فَعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَعُودُ أَدْرَاجَهَا إِلَى مَكَّةَ . . وَتَأْبَى أَنْ تَدْخُلَ الْمَدِينَةَ
وَالْخِلَافَةُ فِيهَا لِعَلِيٍّ ! وَبَنُو أُمَيَّةِ الْمُقِيمُونَ بِالْمَدِينَةِ يَبَايَعُونَ ، وَيَتَرَبَّصُونَ ! وَقِيلَ
لِإِنْ بَعْضُهُمْ - كَمَرَّ بِنُ الْحَكَمِ - هَرَبَ مِنَ الْمَدِينَةِ مَنْطَلِقًا إِلَى مَكَّةَ ، عِنْدَ الْبَيْعَةِ ،
فَلَمْ يَكْشَفْ عَنْ دُخِيلَةِ نَفْسِهِ !

(١) أَحَادِيثُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ ص ١٢٠ نَقْلًا عَنِ الْبَيْهَقِيِّ ج ٢ ص ١٢٥ .

يقول ابن قتيبة : وذكروا أن مروان بن الحكم ، لما بويع عليّ ، هرب من المدينة ، فلاحق بعائشة في مكة ، فقالت له عائشة : ما وراءك ؟ قال مروان : غلبنا عليّ أنفسنا ! فقال له رجل من أهل مكة : إياك وعيئاً ، فقد طلبك ! ففرّ من بين يديه .. فقال مروان : لم ؟ فوالله ما يجد إلى سبلاً .. أما هو فقد علمت أنه لا يأخذني بظن ، ولا ينصب عليّ إلا اليقين .. وأيم الله ما أبالي إذا قصر عليّ سيفه ما طال عليّ من لسانه ! فقال الرجل : إذا طال عليك لسانه طال سيفه ! قال مروان : كلا : إن اللسان أدب ، والسيف حُكم !^(١)

وطلحة والزبير .. يتهميان للخروج من المدينة ليلاحقا بعائشة في مكة ، ويقرران موقفهما من عليّ !

ومعاوية بن أبي سفيان .. يعتصم بالشام ، في جنده وسلاطانه ، يأبى أن يبايع لعليّ ، إلا إذا دفع إليه بقتله عثمان !

ودم عثمان هو ذريعة الخلاف على عليّ ، والحجة التي يقيمها عليه من شاقوه ، ونصبوا له الحرب والقتال !

عليّ ودم عثمان :

كان أول عمل ينتظر الناس أن يتولاه الخليفة الجديد ، هو النظر في دم عثمان ، والقصاص له ، ممن قتلوه ، أو كان لهم يد في قتله !

ولم ينب عن عليّ هذا الأمر .. ولكن هناك حوائل كثيرة ، تقوم في وجه الخليفة ، إن هو أراد أن يحكم في دم عثمان ، وأن يضع يده على الجناة ، ويقيم الحد عليهم .

وقد أشرنا من قبل إلى شيء من هذا ، وقلنا ، إن قتلة عثمان ، لم يكونوا

عدداً محصوراً ، بل كانوا ألوفاً كثيرة ، تضمهم ثورة عارمة ، وتشتمل عليهم فتنة شاملة .. وإن الذين باشروا جريمة القتل لم يكونوا إلا أسنة الحراب التي غرزاها الناثرون في صدر الخليفة الشهيد !

ثم إنه لو أراد عليّ أن يقيم الحدّ على القتلة المباشرين ، لكان من العسير أن نضبطهم ، أو يحصرهم ، ولو حصرهم لما استطاعت يده أن تطولهم ، إذ قد تفرقوا في وجوه الأرض ، وألقوا بأنفسهم في جموع النافرين !
ذلك هو موقف عليّ من قتلة عثمان .. موقف لا يبصر فيه شيئاً .. ولا يقدر معه على شيء !

وقد اشتد إلحاح المطالبين بدم عثمان ، وكثر صياحهم في وجه عليّ ..
ثم تحولت المطالبة بدم عثمان ، إلى اتهام عليّ بالتواطؤ على قتل عثمان ،
والتحريض عليه ! !

ولو انتظر الناس بالخليفة ، حتى تسكن العاصفة ، وينفي الناس إلى شيء من الطمأنينة والاستقرار ، ولو أسلم الولاة ، والزعماء ، والقادة أمرهم إلى الخليفة الجديد ، وأعطوه الولاء والطاعة من غير خلاف . لكان ذلك معيلاً لعليّ على ضبط أمور الخلافة ، والتمكن من سلطانها ، فينفذ رأيه وأمره ، فيما يرى ويأمر !

أما والحال كذلك .. فمن يسمع للخليفة أو يجيب ؟
إن المطالبة بالقصاص لدم عثمان في هذا الوقت ، هو تكليف بمحال ،
ومطالبة بمستحيل !

وقد تحدّث عليّ - كرم الله وجهه - إلى الناس في هذا ، وكشف لهم عن واقع الحال .. يقول وقد قال له بعض الصحابة : هلا عاقبت قوماً ممن أجلب على عثمان ؟ :

« يَا إِخْوَتَاهُ .. إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْمَلُونَ ! »

« وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ ، وَالْقَوْمُ الْمَجْلِبُونَ ، عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ .
يَمْلِكُونَنَا ، وَلَا تَمْلِكُهُمْ ! ؟ »

« وَهَاهُمْ أَوْلَاءُ قَدْ نَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ ، وَالتَّقَتِ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ ، وَهُمْ
خِلَالَكُمْ ، بِسُومُونَكُمْ ! ! »

« وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعًا لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ . تَرِيدُونَهُ ؟ »

« هَذَا الْأَمْرُ أَمْرٌ جَاهِلِيَّةٌ ، وَإِنْ لَمْؤُلَا . الْقَوْمُ مَادَّةٌ ^(١) ! »

ثم يقول:

« إِنْ النَّاسُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ ، إِذَا حُرِّكَ ، عَلَى أُمُورٍ :

فَرَقَةٌ : تَرَى مَا تَرَوْنَ !

وَفَرَقَةٌ : تَرَى مَا لَا تَرَوْنَ !

وَفَرَقَةٌ لَا تَرَى هَذَا وَلَا ذَاكَ !

فاصبروا ، حَتَّى يَهْدِيَ النَّاسُ ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا ، وَتُؤْخَذَ الْحَقُوقُ
مُسَمَّحَةً !

فَاهْدُوا عَنِّي ، وَانظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ مِنْ أَمْرِي !

وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تَضْمَعُ قُوَّةً ، وَتُسْقَطُ مَنَّةً ، وَتُورِثُ وَهْنًا وَذَلَّةً !

وَسَأَمْسِكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ !

وإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدًّا ، فَأَخْرَجُ الدَّوَاءَ الْكَبِيرَ ^(٢) ! »

(١) أَي عَوْنًا وَمَدَدًا فَإِذَا أَخَذَ هَؤُلَاءِ جَاءَ غَيْرُهُمْ ..

(٢) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ ص ١٦٧ .

ذلك هو حقيقة الموقف ، صوره الإمام أروع تصوير ، وكشفه أوضح كشف ..

ولكن الناس في فتنة عمياء جهول .. لا ترجع إلى عقل ، ولا تقوم على منطق !

يقول القمقاع بن عمرو - صاحب رسول الله - وقد أرسله عليّ إلى أصحاب الجبل بالبصرة .. فلما اجتمع بعائشة ، وطليحة ، والزبير ، وجادلهم في أمرهم ، وأعطوه ما عندهم - سأله السيدة عائشة :
فأنت تقول ماذا ؟

قال : إن هذا أمر دواؤه النسكين ، واجتماع الشمل .. حتى إذا صلح الأمر ، وهدأت الثائرة ، وأمن الناس ، واطمأن بعضهم إلى بعض ، نظرنا في أمر الذين أحدثوا هذه الفتنة !
ثم قال :

« وإني لأقول هذا ، وما أراه بتم ، حتى يأخذ الله من هذه الأمة ما يشاء !
فقد انتثر أمرها ، وأملت بها الملقات ، وتعرضت لبلاء عظيم^(١) ! » .
إن في النفوس شيئاً تريد أن تبلغه ، وقد وجدت في دم عثمان متعلقاً تتعلق به ، في الخروج على عليّ ، وإلقاء دم عثمان كله عليه !

وقد رأينا - فيما سبق مما رواه المؤرخون - أن أقل ما يوصف به موقف عليّ من عثمان أنه كواحد من المهاجرين ، من صحابة رسول الله .. أنكر ما أنكروا على عثمان ، ونصح له كما نصحوا ، ثم تخلى عنه كما تخلّوا ثم ندم وأسف ، كما ندموا وأسفوا !

وقد كان في الصحابة من أتب على عثمان ، وكان في النافرين عليه !
وكان في الصحابة من أعان عثمان ، ووقف إلى جانبه .
وكان في الصحابة من توقف ، فلم يدفع عنه ، ولم يعن عليه ! ومن هذه
الطائفة كان عليّ .

فلما أصبح عليّ خليفةً على المسلمين ، تعلق به دم عثمان . فلما انتظر
بالقصاص حتى تهدأ الثورة ، وتسكن النفوس ، وتوضح له الرؤية ، ويتلاّ يده
من سلطان الخلافة - لم يكن في ذلك مقنع أو رضى ، بل نزعوا إلى خلاف
الخليفة ، وطلبوا المعاذير للخروج عليه ، ونصب الحرب له !
ولو أن علياً - كرم الله وجهه - لم يكن الخليفة بعد عثمان ، لما وقع في
نفس أحد ، من بنى أمية أو غيرهم ، أن اعلى شأنًا في أمر عثمان . . !
قال ابن سيرين : ما علمت أن علياً اتهم بدم عثمان حتى بويع ، فلما
بويع اتهمه الناس^(١) .

وإذن فهي « الخلافة » التي ينظر إليها الناظرون من حلال دم عثمان !
وليس دم عثمان - على الحقيقة - هو الذى أثار هذا الخلاف الحاد بين المسلمين
وأوقع الحرب بينهم ، وذهب بعشرات الألوف من الأرواح !

ولو كان دم عثمان هو الذى حرك النافرين على عليّ ، لكان معاوية بعد
أن حارب علياً تحت راية قميص عثمان ، وبعد أن استولى على الحكم والسيطان ؛
قد بادر بالقصاص من القتلة ، وشفى ما بنفسه ، بالثأر ممن وتروء بآبى عمه !
ولسكن معاوية لم يفتكر في هذا ، ولم يلتفت إليه .. وكان عثمان لم يقتل !

يقول صاحب العقد الفريد :

« قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة ^(١) ، فدخل بيت عثمان بن عفان ، فصاحت عائشة ابنة عثمان ، وبكت ، ونادت أباها : واعثماناء .. تمحرض بذلائق معاوية على الطلب بدمه ، والقصاص من قاتليه !

« فقال معاوية : يا ابنة أخي .. إن الناس أعطونا طاعة ، وأعطيناهم أمانا ، وأظهرنا لهم حلماً تحت غضب ، وأظهروا لنا ذلاً تحت حق ، ومع كل إنسان سيفه ، ويرى موضع أصحابه ، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون الدائرة أم لنا ؟

« ولأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين ، خير من أن تكوني امرأة من عرض الناس !! ^(٢) » .

وهكذا يسوئ معاوية الحساب في دم عثمان حتى ابنة الخليفة يقودها إلى الرضا ، عن مقتل أبيها ، وترك المطالبة بدمه ، مادامت الخلافة قد عادت إلى قومها بنى أمية ، وإنه لا ضير عليها أن تكون ابنة عم الخليفة ، بعد أن كانت بنت الخليفة !!

على الخلافة إذن يختلف القوم ، ومن أجلها يقتلون .. أما دم عثمان فلم يكن إلا ذريعة بتذرع بها إلى هذا الصراع ، الذي لا بد أن يتسكىء إلى سبب ، ولم يكن ثمة من سبب أقوى من المطالبة بدم الخليفة الشهيد !
وأكثر من هذا ...

(١) سمى عام الجماعة لأن الحسن بن علي رضي الله عنه عقد صلحاً مع معاوية ، وبايع له بالخلافة ، على أن يكون هو الخليفة من بعده .

(٢) العقد الفريد جزء ٣ ص ١٢٦

فإنه لم يكن الطالب بدم عثمان مجرد دعوة إلى القصاص من قتلته . ولكن
كان دعوة إلى « الثأر » له !! والقصاص شيء ، والثأر شيء آخر ! !
القصاص .. عن قضاء ، يُردّ الأمر فيه إلى حكم الله ، وإلى شريعة الله !!
والثأر .. عن انتقام يُحتكم فيه إلى عصبية الجاهلية ، وشريعة الجاهلية^(١)
وقد جرت كلمة « الثأر » لدم عثمان منذ الأيام الأولى لخلافة عليّ !
الثأر .. من من ؟

من الخليفة .. ومن انضوى إلى الخليفة !

وإذن فهي الحرب !

وقد كانت الحرب فعلا !

وسنرى كيف : استشرى هذا الشر ، وكيف مزق وحدة المسلمين ،
وفرق كلمتهم ! وكان حصاده أنهاراً من الدماء أريقَت ، وعشرات الألوف من
الأرواح أزهقت ، وفرقاً كبيرة من المسلمين ، شرّدت وضلت !

* * *

(١) وصف الإمام عليّ تلك الحال في كلمته التي رويها منذ قليل ، وفيها يقول :
« هذا الأمر أمر جاهلية » .

بَيْنَ عَلِيٍّ وَعَائِشَةَ

خلاف قديم :

ليس الذي كان بين أم المؤمنين عائشة ، وبين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من خلاف ، أمراً طارئاً ، نجم عن اختيار علي للخلافة ، دون طلحة ، الذي كانت ترشحه لها أم المؤمنين ، وتتوقعها له !

ولمّا لهذا الخلاف دوافع كثيرة ، ازداد بها مع الأيام اتساعاً وعمقاً !

وقد كان ابن أبي الحديد طلب إلى شيخه أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل الألماني ، أن يكشف له عن سرّ هذا الخلاف ، الذي كان بين علي وعائشة . !
وقد جاء حديث الشيخ في هذا ، دقيقاً ، واضحاً ، واقعياً .. ولهذا رأينا أن نقله هنا . . . لتأخذ منه الجواب على هذا السؤال : لماذا قادت السيدة عائشة معركة الجبل ، ضدّ عليّ ؟

بقول ابن أبي الحديد ، على لسان شيخه أبي يعقوب :

« أول بدء الضّغن كان بينها (أي السيدة عائشة) وبين فاطمة !

« وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها عقيب موت خديجة ،

فأقامها مقامها . .

« وفاطمة هي ابنة خديجة ! ومن المعلوم أن ابنة الرجل ، إذا ماتت أمها ،

وتزوج أبوها أخرى ، كان بين الابنة وبين المرأة كدّر وشنآن . . وهذا لا بدّ

منه ، لأن الزوجة تنفّس عليها ميل الأب ، والبنت تسكره ميل أبيها إلى امرأة

غريبة ، كالضرة لأُمها ، بل هي ضرة على الحقيقة ، وإن كانت الأم ميتة !

ولأننا لو قدرنا الأم حية ، لسكانت العداوة مضطربة مستعرة ، فإذا كانت قد ماتت ، ورثت ابنتها تلك العداوة ..

» ثم اتفق أن رسول الله ، مال إليها وأحبها ، فازداد ما عند فاطمة بحسب زيادة ميله !

« وأكرم رسول الله فاطمة إكراماً عظيماً ، أكثر مما كان الناس يظنون ، وأكثر من إكرام الرجال لبَنَاتِهِمْ ، حتى خرج بها عن حب الآباء للأولاد ، فقال بمحضر الخاص والعام مراراً ، لامرأة واحدة ، في مقامات مختلفة ، لا في مقام واحد : إنها سيدة نساء العالمين ، وإنها عذيلة مريم بنت عمران .. وأنها إذا مرت في الموقف نادى مفادٍ من جهة العرش : يا أهل الموقف .. غُضُّوا أبصاركم لعمير فاطمة بنت محمد^(١) .. وهذا من الأحاديث الصحيحة ، وليس من الأحاديث المستضعفة .. وأن إنسكاحه عليها إياها ما كان إلا بعد ما أنسكحه الله إياها ، بشهادة الملائكة .. وكَم قال : يؤذيني ما يؤذيها ، ويفضيني ما يفضيها ، وإنها بُضْعَةٌ مِنِّي .. يربني ما يربها !

فكان هذا وأمثاله يوجب زيادة الضغن عند الزوجة ، حسب زيادة هذا التعظيم والتبجيل .. والنفوس البشرية تَغْبِطُ على ما دون هذا ، فكيف هذا ؟

» ثم حصل عند بعلمها - أعني علياً - ما هو حاصل عندها .. فإن النساء كثيراً ما يحصلن الأحقاد في قلوب الرجال . لاسيما وهن محدثات الليل ، كما قيل في المثل !

» وكانت - أي فاطمة - تكثر الشكوى من عائشة ، ويفشاها نساء المدينة وجيران بيوتها ، فينقلن إليها كلمات عائشة .. ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلن إليها كلمات عن فاطمة !!

(١) لم يقل الرسول ذلك إلا عن أمر ربه ، وما ينطق عن الهوى

وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلها ، كانت عائشة تشكو إلى أبيها .. فحصل في نفس أبي بكر أثر ما :

« ثم تزايد تقريظ الرسول لعلّي ، وتقريبه ، واختصاصه ، فأحدث ذلك حسداً له ، وغبطة في نفس أبي بكر ، وهو أبوها ، وفي نفس طلحة ، وهو ابن عمها ، وهي تجلس إليهما ، ونسمع كلامهما ، وهما يجلسان إليها وبجاداتهما .. فأعدى إليها منهما ، كما أعدتهما .. ولست أرى علياً من مثل ذلك !»

« ثم كان بينها - أي عائشة - وبين عليّ في حياة الرسول ، أحوال وأقوال ، كلها تقتضي تهيج مافي النفوس .. اتفق أن فاطمة ولدت أولاداً كثيرة ، بنين وبنات ، ولم تلد هي ولداً ، وأن رسول الله كان يقيم ابني فاطمة مقام بنيه ، ويستى الواحد منهما : ابني ، ويقول : ادعوا إلى ابني ، وما فعل ابني ؟

« فما ظنك بالزوجة ، إذا حرمت الولد من البعل ، ثم رأت البعل يفتني بني ابنته من غيرها ، ويحنو عليهم حنو الوالد المشفق ؟ هل تكون محبة لأولئك البنين ولأمهم ولأبيهم ، أم مبغضة ؟ وهل تودّ بقاء ذلك واستمراره أم زواله وانقضاءه ؟ ..

« وولد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إبراهيم من مارية ، فأظهر عليّ بذلك سروراً كثيراً ، وكان يتعصب لمارية ، ويقوم بأمرها عند رسول الله .

« وجرت لمارية نكبة فبرأها عليّ منها ، وكشف بطلانها ، وكشف الله على يده ، وكان ذلك كشفاً محسناً بالبصر ، لا يتهيباً للمنافقين أن يقولوا فيه !^(١)

(١) وملخص هذه الواقعة أن مارية كان قد صحبت معها من مصر عبداً بعته معها المقوقس إلى النبي ، وكان يلزمها ، ويكثر من الدخول عليها ، وقد شك النبي فيما بينه وبين مارية ، فكان على هو الذي جلى هذا الشك حين رأى العبد محبوباً !

وكل ذلك مما يوغر صدر عائشة عليه ، ويؤكد ما في نفسها منه ! . . .

« وكان يُبلغه - أي عليّ - وفاطمة ، عنها ، كل ما يكرهانه ، منذ مات

رسول الله ، إلى أن توفيت فاطمة ، وهما صابران على مضض ، ورمض . !

« واستظهرت - عائشة - بولاية أبيها ، واستطالت ، وعظم شأنها ، وانخزل عليّ

وفاطمة ، وخذلا ، وقهرا .. وأخذت فذلك .. وخرجت فاطمة تجادل في ذلك

مراراً ، فلم تظهر بشيء .. وفي ذلك تبليغها النساء الداخلات والخارجات عن

عائشة كل كلام يسوءها ، ويبلغن عائشة عنها وعن بعلمها مثل ذلك ، إلا أنه

شتان ما بين الفريقين .. هذه غالبية ، وتلك مغلوبة ، وهذه آمرة وتلك مأمورة ..

وظهر التشفي والشماتة ، ولا شيء أعظم مرارة ومشقة من تشفي العدو ! ! .

« ثم بايع عليّ أباهما ، فسُرت بذلك ، وأظهرت من الاستبشار بتمام البيعة

واستقرار الخلافة ، وبطلان منازعة الخصم ، ما قد نقله الناقلون ، فأكثروا ..

« واستمرت الأمور على هذا مدة خلافة أبيها ، وخلافة عمر وعثمان ،

والقلوب تغلي ، والأحقاد تذيب الحجارة .. وكلما طال الزمن على عليّ تضاعف

همومه وغمومه ، وباح بما في نفسه ، إلى أن قتل عثمان ! وقد كانت عائشة أشد

الناس عليه (أي على عثمان) تأليباً وتحريضاً .. فقالت : أبعده الله !

« وأملت أن تكون الخلافة في طلحة ، فتعود الإمرة تيمية ، كما كانت

أولاً .. فعدل الناس عنه إلى عليّ بن أبي طالب ، فلما سمعت ذلك صرخت

وقالت :

« واعثماناء .. قُتل عثمان مظلوماً !

« وتار ما في الأنفس ، حتى تولد من ذلك ؛ يومُ الجمل وما بعده !

يقول ابن أبي الحديد تعليقاً على كلام شيخه : هذه خلاصة كلام الشيخ

أبي يعقوب ، ولم يكن يقشيع ! !

ونقول : إن من أسباب البغضة التي اطوت عليها نفس السيدة عائشة لعلى ، ما كان في حديث الإفك ، وما قيل من أن علياً قال للنبي صلى الله عليه وسلم وقد سأله الرأي فيما يقول الناس : « النساء غيرها كثير » . فإذا صح هذا ؛ كان للسيدة عائشة - رضى الله عنها - أن تجفوَ علياً ، وأن تحمل في نفسها موجدة عليه !

وقد كشف الإمام علي - رضى الله عنه - في أكثر من موقف ، وفي أكثر من خطبة ، عما في قلب عائشة له من بغضة .. يقول في بعض خطبه : « أما فلانة ^(١) ، فقد أدركها ضعف في النساء ، وضغن غلا في صدرها كمرجل القَيْن ، ولو دُعيت لقتال من غيرى ما أتت إلى لم تفعل ، ولها بعد ذلك حرمتها الأولى ، والحساب على الله ، والله يعفو عن يشاء ، ويعذب من يشاء » ^(٢)

ولا نرى أن مثل هذه الأمور مستبعدة أن تقع حيث وقعت ، في نفوس طيبة طاهرة ، وأن تجرى بين تلك الصفوة الكريمة المتخيرة من المسلمين ، في عهد النبوة .. فتلك هي الطبيعة البشرية ، التي من شأنها أن تسخط وترضى ، وتكره وتحب ! .

وإذن فلا نتشكك كثيراً فيما نُقل إلينا من أنباء هذا الصراع ، الذي كان في تلك الفترة ، بين صحابة رسول الله ، فهو طبيعة ملازمة للحياة البشرية ، ناجم عن اختلاف في النظر إلى الأمور ، وفي تقدير محصل الخير منها ، وفي الموازنة بين حساب النفس ، وحساب الجماعة من هذا الخير ! .

(١) يقصد السيدة عائشة ، وقد شاء له دينه وأدبه ألا يصرح باسمها في مقام الاتهام ، لما لها من حق الأمومة ، ولما كانت من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) نهج البلاغة ، شرح ابن أبي الحديد جزء ٢ ص ٤٦٥ ، وكثر العمال

طلحة والزبير :

ذكروا أن طلحة والزبير أتيا عليًا ، بمد فراغ البيعة ، فقالا : هل تدرى علامَ بايعناك يا أمير المؤمنين ؟ قال عليّ : نعم ، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان ! فقالا : لا ، ولكننا بايعناك على أنا شريكك في الأمر . . . قال عليّ : لا ، ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على المعجز ، والأود ! ^(١) .

وروى اليعقوبي في تاريخه ، قال : « أتاه طلحة والزبير ، فقالا : إنه قد نالتنا بعد رسول الله جفوة ، فأشركنا في أمره ! فقال : أتما شريكاي في القوة ، وعوناي على المعجز والأود ^(٢) » .

لم يرض طلحة والزبير بهذا الموقف من عليّ ، وأظهرا الخلاف له ، والقول فيه .. فكان طلحة يقول : ما اللوم إلا علينا .. كنا ثلاثة من أهل الشورى ^(٣) ، كرهه أحدنا ، وبايعناه ، وأعطيناه ما في أيدينا ، ومنعنا ما في يده ! .

« قالوا : واستشار علي ابن عباس ، وكان قد استوزره ، فقال له : بلفك قول هذين الرجلين ؟ قال : نعم ! قال فأتري ؟ قال : أرى أنهما أحببا الولاية .. فوالبصرة الزبير ، ووالطلحة الكوفة ، فإنهما ليسا بأقرب إليك ، من الوليد وابن عامر ، من عثمان ! » .

« فقال عليّ : ويحك ! إن العراقيين بهما الرجال ، ومتى تملك رقاب الناس استمالا السفيه بالطمع ، وضربا الضعيف بالبلاء ، وقويًا على القوى »

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة جزء ١ ص ٥١ .

(٢) اليعقوبي ص ١٢ .

(٣) هم : طلحة والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وقد اعتزل سعد ، فلم يبايع .

بالسلطان ، ولو كنتُ مستعملاً أحداً لضرته ، ونفعه ، لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى ! » .
تُرى لو كان معاوية مكان عليّ في هذا الموقف أكان يجعل طلحة والزبير يُفلقان من يده ، ويخرجان عن طاعته وسلطانه ، فلا يملكهما بالإمارة ، ولا يشدّهما إليه بالولاية ؟ لقد اصطاد معاوية بتدبيره المغيرة بن شعبه ، وحولّه من موقفه الحيادي الذي وقفه بعد مقتل عثمان إلى موقف العدوان على عليّ ، والتطاول عليه بالسبّ واللعن . . كما فعل ذلك أيضاً بعمر بن العاص ، وزيد بن أبيه ، وغير هؤلاء من الصحابة والتابعين .

إنها السياسة ، وهي الحرب . . يقاتل فيها المقاتلون بكل سلاح ، وينشدون النصر بكل وسيلة ؟ .

ولكن الإمام عليّ كرم الله وجهه ، يقيم أمره في الحرب والسلام ، ومع الأعداء والأولياء ، على ميزان واحد ، لا يختلف أبداً . . وهو ميزان الحق ، والعدل ، ولو كان في ذلك الهزيمة والمهلكة .

* * *

مضت أربعة أشهر من خلافة عليّ ، وأم المؤمنين عائشة في مكة ، تقول في عليّ ، وتسمع فيه ، فاجتمع حولها المنايذون لعليّ ، من بنى أمية وغيرهم .
ثم استدعت إليها طلحة والزبير ، فجاءا إلى عليّ فقالا : إنا نريد العمرة ، فأذن لنا في الخروج ! فقال عليّ لبعض أصحابه : « والله ما أرادا العمرة ، لكنها أرادا الغدرة ، » فأذن لهما في الخروج ، فخرجا من المدينة ، والتحقا بأم المؤمنين .
التدبير للحرب :

في مكة تجمعت القوى المتألبة على الخليفة ، وقد علم القوم أن عليّاً استنفر الناس للحرب معاوية في الشام ، بعد أن أبى البيعة ، والدخول فيما دخل فيه المسلمون ،

فأداروا أمرهم ، وجعلوا يُعدّون العدة للملاقاة على وقتاله ، ليكونا جبهة مع معاوية في محاربته !

أخرج الطبري من الزهري ، قال : « ثم ظهرا - يعني طلحة والزبير - إلى مكة - بعد قتل عثمان بأربعة أشهر ، وابن عامر^(١) بها يجرّ الدنيا وقدم يعلى ابن أمية^(٢) معه ، بمال كثير ... فاجتمعوا في بيت عائشة ، فأداروا الرأي .. فقالوا : نسبر إلى على فنقاتله ! .

« فقال بعضهم : ليس لكم طاقة بأهل المدينة ، ولكننا نسبر حتى ندخل البصرة والكوفة ، واطلحة بالكوفة شيمّة وهوى ، وللزبير بالبصرة هوى ومعوّنة ! .

فاجتمع رأيهم على أن يسيروا إلى البصرة وإلى الكوفة .. فأعطاهم عبد الله بن عامر مالاً كثيراً وإبلًا ، فخرجوا في سبعائة رجل من أهل المدينة والكوفة ، ولحقهم الناس ، حتى كانوا ثلاثة آلاف رجل ، وأعان يعلى بن أمية ، الزبير بأربعمائة ألف ، وحمّل سبيعين رجلاً من قريش ، وحمل عائشة على جمل يقال له « عسكر » أخذه بثمانين ديناراً^(٣) .

ويقول ابن قتيبة : « لما اجتمع طلحة والزبير ، ودووها ، مع عائشة ، وأجمعوا على المسير من مكة ، أتاهم عبد الله بن عامر ، فدعاهم إلى البصرة ، ووعدهم الرجال والأموال .. فقال سعيد بن العاص لطلحة والزبير : إن عبد الله ابن عامر يدعوكم إلى البصرة ، وقد فرّ من أهلها فرار العبد الآبق ،

(١) هو عبد الله بن عامر ، ابن خال عثمان ، وكان والياً على البصرة ، وقد عزله عنها أهلها في خلافة عثمان .

(٢) يعلى بن منبه بن أمية كان عاملاً لعثمان على اليمن .

(٣) الطبري .. جزء ٥ ص ٦٠ .

وهم في طاعة عثمان !! ويريد أن يقاتل بهم علياً ، وهم في طاعة علي؟ وخرج من عندهم أميراً ، ويعود إليهم طريداً ! وقد وعدكم الرجال والأموال . . فأما الأموال فعنده ، وأما الرجال فلا رجل !

« فقال سروان بن الحكم : أيها الشيخان ، ما يمنعكما أن تدعوا الناس إلى بيعة مثل بيعة علي ، فإن أجابوكا ، عارضناه ببيعة كبيعته ، وإن لم يجيبوا عرقتم ما لكم في أنفس الناس ؟

« فقال طلحة : يمنعنا أن الناس يبيعوا عليا بيعة عامة ، فبم نقضها ؟
« وقال الزبير : يمنعنا ، تشاقلنا عن نصره عثمان ، وخففتنا إلى بيعة علي !
فقال الوليد بن عقبة : إن كنتم أسأتمنا فقد أحسنتما ، وإن كنتم أخطأتمنا ، فقد أصبتما ، وأنتما اليوم خير منكما أمس !

« فقال سروان : أما أنا فمَهَوَايَ الشام . وهوا كما البصرة ، وأنا معكم ، وإن كانت الملكة !^(١)

ابن عمر :

« فلما استقام أمر القوم ، واجتمعت كلمتهم على السير ، قال طلحة الزبير :
إنه ليس شيء أنفع ولا أبلغ في استمالة أهواء الناس من أن نشخص لعبد الله ابن عمر !

فأتياه ، فقالا :

« يا أبا عبد الرحمن . . إن أمنا عائشة ، قد خفت لهذا الأمر ، رجاء الإصلاح بين الناس ، فاشخص معنا . . فإن لك بها أسوة . . فإن بايعنا الناس فأنتم أحقُّ بها !!

«فقال ابن عمر : أيها الشيخان .. أتريدان أن تخرجاني من بيتي ، ثم تُلقيا بي بين مخالب ابن أبي طالب ؟

«إن الناس إنما يُخَذَّعون بالدبدار والدرهم ، وإني قد تركت هذا الأمر عياناً ، في عافية أنا لها ! فانصرفا عنه ..

ثم غدا مروان إلى طلحة والزبير ، فقال لهما : عاودا ابن عمر ، فلمعه يفتب !!

فعاوداه .. فتكلم طلحة ، فقال :

يا أبا عبد الرحمن ، إنه والله لرُبَّ حَقٍّ ضَيَعناه وتركناه ، فلما حضر المَدر قضينا بالحق ، وأخذنا بالخط ! .. إن عليّاً يرى إنفاذ بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له .. وإنا نرى أن نردّها شورى ! فإن سِرْتَ معنا ، رَمع أم المؤمنين ، صلحت الأمور ، وإلا فهي الهَلَكَة ! !

«فقال ابن عمر : إن يكن قولكما حقّاً ففضلاً ضيَعْتُ ، وإن يكن باطلاً ، فشرٌّ منه نجوت ! .. واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما .. المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف . ولن يقاتل عليهما إلا من كان خيراً منه ! !

«وأما الشورى فقد والله كانت .. فقدم وأخرتما ، ولن يردّها إلا أولئك الذين حكموا فيها .. فاكفياني أنفسكما !

فانصرفا . »^(١)

ولما تهياً القوم للمسير ، اختلفوا في الوجهة التي يأخذونها ..

فقال الزبير : الشام .. بها الرجال والأموال ، وعليها معاوية ، وهو ابن عم الرجل - يعني عثمان - ومتى نجتمع بولنا عليه .. !

وقال عبد الله بن عامر : البصرة .. فإن غلبتم علياً فلكم الشام ، وإن غلبكم عليٌّ كان معاوية لكم جنة ! وهذه كُتِبَ أهل البصرة إلى !

وقال يعلى بن مغيرة - وكان داهياً - أيها الشيخان .. قدّرا قبل أن ترحلا ! إن معاوية قد سبقكم إلى الشام ، وفيها الجماعة ، وأنتم تقدّمون عليه غداً في فرقة ، وهو ابن عم عثمان دونكم .. أرايتم إن دفعكم عن الشام ، أو قال لكم أجعلها شوري ؟ ما أنتم صانعون ؟ أتقاتلونه ؟ أم تجعلونها شوري فتخرجان منها ؟ وأقبح من ذلك .. أن تأتيا رجلا في يديه أمر قد سبقكم إليه ، وتريدا أن تخرجاه منه ؟

فقال القوم : فإلى أين ؟

قال : إلى البصرة !

ماذا في البصرة ؟

سأل الزبير ، عبد الله بن عامر - وكان والياً على البصرة لعثمان ثم عزله أهلها عنها - :

من رجال البصرة ؟

قال : ثلاثة .. كلهم سيّد مطاع ..

كعب بن سور .. في اليمن .

والنذر بن ربيعة .. في ربيعة .

والأحنف بن قيس .. في مضر .

فكتب طلحة والزبير إلى كلٍّ من هؤلاء الرؤساء الثلاثة كتاباً ، يدعونه فيه إلى نصرتهم ، والوقوف معهم .. كتبوا إلى كعب بن سور :

« أما بعد .. فإنك قاضى عمر بن الخطاب ، وشيخ أهل البصرة ، وسيد أهل اليمن ، وقد كنتَ غضبتَ لعثمان من الأذى ، فاغضبْ له من القتل والسلام ! »

فكان جوابه إليهما :

« أما بعد .. فإننا غضبنا لعثمان من الأذى والظمن باللسان ، فجاء أمر الظمن فيه بالسيف .. فان يك عثمان قُتل ظالماً فما لكما وله ؟ وإن كان قتل مظلوماً فغير كما أولى به .. وإن كان أمره أشكل على مَنْ شهد به ، فهو على من غاب عنه أشكل ! »

وكتبوا إلى الأحنف بن قيس :

« أما بعد ، فإنك وافد عمر ، وسيد مضر ، وحليم أهل العراق ، وقد بلغك مضاب عثمان ، ونحن قادمون عليك ، والعيان أشنى لك من الخبر .. والسلام ! » .

فأجابهما الأحنف :

« أما بعد ، فإنه لم يأتنا من قبلكم أمر لانشك فيه إلا قتل عثمان ، وأنتم قادمون علينا ، فإن يكن فى العيان فضل ، نظرنا فيه ونظرتم ، وإلا يكن فيه فضل ، فليس فى أيدينا ولا فى أيديكم ثقة .. والسلام . »

وكتبوا إلى المفذر بن ربيعة :

« أما بعد ، فإن أباك كان رئيساً فى الجاهلية ، وسيداً فى الإسلام ، وإنك من أبيك بمنزلة المصلى من السابق ، يقال : كاد أو لحق .. وقد قتل عثمان من أنت خير منه ، وغضب له من هو خير منك والسلام ! »

فأجابهما :

«أما بعد ، فإنه لم يُلحقني بأهل الخير ، إلا أن أكون خيراً من أهل الشر !
وإنما أوجب حقَّ عثمان اليوم حقه أمس . . وقد كان بين أظهركم نخلتموه ،
فتى استنبطتم هذا العلم ، وبدا لكم هذا الرأي ؟ »^(١)

هذا ما كان عند أهل البصرة لأصحاب الجمل . شك وارتياب ، في الأشخاص
والمواقف ، وتوجس واتهام ، للأقوال والأفعال !!

ومع هذا ، فقد ركب القوم طريقهم إلى البصرة ، وحثوا الملقى إليها ،
وأصبح الناس وإذا بأصحاب الجمل على مشارف المدينة !

أحداث في الطريق :

ومنذ أخذ القوم وجهتهم إلى البصرة ، كانت تطلع في الطريق أحداث
مقلقة ، كسرت من حدثهم وحدثتهم ، فما شارفوا البصرة إلا وقد حمل كلُّ منهم في
نفسه همّاً بطرقه ، أو خاطراً يؤرقه ، أو وسواساً يقيمه بين اليقين والشك ،
ويردده بين الإقدام والإجحام . . في الطريق ، تلقت أم المؤمنين عائشة ، من
أم المؤمنين ، أم سلمة - رضى الله عنهما - كتاباً تقول فيه : « يا عائشة .. إنك
سُدّة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين أمته . . حججاً بك مضروب على
حرمته ، وقد جَمَعَ القرآنُ ذِلكَ فلا تَمْدَحِيه ، وسَكُنْ عَقِيرَكَ فلا تصحريهما ،
الله من وراء هذه الأمة .. قد علم رسول الله مكانك ، لو أراد أن يعهد إليك !
» ما كنتِ قائلّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو عارضك بأطراف

الفلوات ، ناصّة قلوبك ، فعوداً من منهل إلى منهل ؟

« إن بعين الله مثواك ، وعلى رسول الله تُعرّضين !

« ولو أسرتُ بدخول الفردوس ، لاستحييتُ أن ألقى محمداً هاتكة حجاباً
جعله الله على . . »

وقد كان لمقال أم المؤمنين أم سلمة صدَى في نفس أم المؤمنين عائشة ،
إذ توقفت عن الطلب بثار عثمان ، ولسكنها لم تعمل عن مسيرها ، فهي سائرة
كي تصلح بين علي ومعاوية ، وكي ترأب هذا الصدع الذي دبّ في بناء المسلمين
من هذا الخلاف !

وبهذا أجابت السيدة عائشة ، السيدة أم سلمة ، فكتبت إليها تقول :
« ما أقبلني لوعظك ، وأعلمني بنصحتك ، وليس مسيرى على ماتظنين ،
ولنم المطلع مطلع أصلحت فيه بين فئتين متناحرتين !! »^(١)
ولسكن أحاديث الطريق ، وأحداثها رجعت بالسيدة عائشة إلى موقفها
الأول ! !

إن طالحة والزبير قد خرجا لأمر ، ولن يرجعا إلا إذا قضيا منه مأربهما ،
أو ألقيا مصرعهما . . وقد خرجا مع أم المؤمنين علي هذه التية . . خلع علي عن
الخلافة ، أو القتال . .

ولم يكن من الهين عليها - والأمر كذلك - أن تعمل بهما عن هذا
الطريق ، وقد جما الناس لهذا ، وأعلنا فيهم القصد الذي يقصدان !

ومرة أخرى ، يطلع علي أم المؤمنين من وراء الغيب ، داع يدعوها إلى أن
تُلوى عنان جملها إلى المدينة ، وتترك هذا المركب الوعر الذي ركبته ، وتسكن
إلى بيتها . في جوار الرسول !

(١) العقد الفريد جزء : ٣ ص ٦٩ ، والإمامة والسياسة جزء : ١ ص ٥٧

روى الطبرى وابن قتيبة أن القوم إذ كانوا ببعض الطريق إلى البصرة سمعت السيدة عائشة نباح كلاب ..

فقلت : أى ماء هذا ؟

فقالوا : الحوآب !

فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون .. إني أهيبة ! وما أرانى إلا راجعة !

قالوا : ولم ؟

قلت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنسائه : كأنى بإحداكن قد نبحتها كلابُ الحوآب .. وإياك أن تكونى أنت ياحمراء .

فقال لها محمد بن طلحة : تقدمى رحلك الله ، ودعى هذا القول ، وأناها ببينة زور من الأعراب . «^(١)

وأتى عبدُ الله بن الزبير ، فحلف لها بالله : لقد خلقتِه أولَ الليل !

ومضت أم المؤمنين متكرهة ، وفي صدرها وسواس ، وفي نفسها ضيق وبرَم !

وفي الطريق أيضاً :

أذن مروان للصلاة ، حين فصل من مكة .. ثم جاء حتى وقف على طلحة والزبير ، فقال : على أيكما أسلم بالإمرة ، وأؤذن بالصلاة ؟

فقال عبد الله بن الزبير : على أبى عبد الله !

وقال محمد بن طلحة : على أبى طلحة !

وسمعت عائشة - رضى الله عنها - هذا الخلاف .. فأرسلت إلى مروان ،

(١) الطبرى جز : ٥ ص ١٧٨ والإمامة والسياسة جزء : ١ ص ٤ ٦

فقلت : مالك ؟ أتريد أن تفرق أمرنا ؟ ليصل ابن أختي .. فكان يصلي بهم عبد الله بن الزبير ، حتى قدموا البصرة !

فكان معاذ بن عبيد الله يقول : والله لو ظفرنا لافتقنا .. ما خلى الزبير بين طلحة والأمر ، ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر !!
ومن أحداث الطريق كذلك ..

لما نزل طلحة والزبير وعائشة ، بأوطاس من أرض خيبر ، أقبل إليهم سعيد بن العاص^(١) على نجيب ، فأشرف على الناس ، ومعه المغيرة بن شعبة ، فنزل ، وتوكل على فرس له سوداء ، فأنى عائشة ، فقال لها : أين تريدن يا أم المؤمنين ؟

قالت : أريد البصرة !

قال : وما نصبمين بالبصرة ؟

قالت : أطلب بدم عثمان !

قال : فهؤلاء قتلة عثمان معك !

ثم أقبل على مروان .. فقال : وأنت أين تريد أيضاً ؟

قال : البصرة !

قال : وما تصنع بها ؟

قال : أطلب قتلة عثمان !

قال . فهؤلاء قتلة عثمان معك ! إن هذين الرجلين - طلحة والزبير - قتلا عثمان ، وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غلبا عليه قالا : نغسل الدم بالدم ، والحوبة بالتوبة ! !

(١) كان سعيد بن العاص عاملاً لعثمان على الكوفة بعد أن عزل عنها الوليد بن عتبة ، فلما قتل عثمان ، عزل ولم يشهد الجمل ولا صفين .

ثم قال المغيرة بن شعبه : أيها الناس .. إن كنتم إنما خرجتم مع أمكم ،
فارجعوا بها خير لكم ، وإن كنتم غضبتُم لعثمان ، فوُساكم قتلوا عثمان ، وإن
كنتم نَقَمْتُم على عليّ شيئا ، فبينوا ما نَقَمْتُم عليه .. أنشدكم الله . فَمَنْتَيْنِ في عام
واحد ؟؟ فأبوا إلا أن يمضوا بالناس ! !

فلحق سعيد بن العاص باليمن ، ولحق المغيرة بالطائف .. فلم يشهدا شيئا
من حروب الجمل ولا صفين ^(١)

ولو أن شيئا كان صارفاً أصحاب الجمل عند مسيرهم هذا ، لصرقتهم تلك
الأحداث التي طلعت عليهم من أول الطريق ، ثم محبتهم ، مرحلة مرحلة ،
حتى بلغوا مشارف البصرة ! ولكنك القضاء ، ومصارع الرجال !
أصحاب الجمل .. في البصرة :

كانت البصرة قد أعلنت بيعتها لعليّ - كرم الله وجهه - وأعطته
ولاءها ، ونصرها ..

وكان على البصرة ، عثمانُ بن حنيف ، الأنصاري ، صاحب رسول الله ،
وقد آخى الرسول بين أخيه سهل بن حنيف ، وبين عليّ بن أبي طالب !
وحين علم عثمان بن حنيف أن القوم شارفوا البصرة ، دعا عمران بن
حصين ، صاحب رسول الله ، وأبا الأسود الدؤلي ، وطلب إليهما أن يلتقيا القوم ،
وأن يعذرا إليهما ، لعل الله يكشف عن المسلمين غواشي هذا البلاء !
فلما انتهيا إلى القوم ناديا : يا طلحة ، فأجابهما ..

فتكلم أبو الأسود الدؤلى ، فقال : يا أبا محمد .. إنكم قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا فى قتله ، وبايعتم علياً غير مؤامرين لنا فى بيعته ، فلم نغضب لعثمان إذ قُتل ، ولم نغضب لعلى إذ بويع ، فأردتم خلع علىّ ، ونحن على الأمر الأول ! فعليكم المخرج مما دخلتم فيه !!

ثم تكلم عمران ، فقال : يا طلحة .. إنكم قتلتم عثمان ، ولم نغضب له إذ لم تغضبوا ، ثم بايعتم علياً وبايعنا من بايعتم ، فإن كان قتل عثمان صواباً ، فسبكم لماذا ؟ وإن كان خطأ فخطكم منه الأوفر ، ونصيبكم منه الأوفى !
فقال طلحة : يا هذان .. إن صاحبكم لا يرى أن معه فى هذا الأمر غيره ، وليس على هذا بايعناه ، والله ليُسفكنّ دمه !!

فقال أبو الأسود : يا عمران .. أما هذا ، فقد صرح أنه إنما غضب للملك ! ثم أتيا الزبير .. فقالا : يا أبا عبد الله ، إنا أتينا طلحة ! فقال الزبير : إن طلحة وإيماى كروح فى جسدين ، وإنه والله يا هذان ، قد كان منا فى عثمان فلتات ، احتجنا فيها إلى المعاذير ، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرناه ؛ نصرناه !

ثم أتيا عائشة ، فقالا : يا أم المؤمنين .. ما هذا المسير ؟ أمك من رسول الله به عهد ؟

قالت : قُتل عثمان مظلوماً .. غضبنا لكم من السوط والعصا ، ولا نغضب لعثمان من القتل ! ؟

فقال أبو الأسود : وما أنت من عصانا ، وسيفنا ، وسوطنا ؟ وأنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرك أن تقرّى فى بيتك ، فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض ! ؟
فقالت : وهل أحد يقاتلنى ؟

قال : أمّا واللهِ لتقتلن قتالا أهونه الشديد ! «^(١)

لم يكن القوم على رأى سواء فيما جاءوا له .. يلقون الناس بمعاذير شتى .. يقولون مرة : إنهم جاءوا للنار بدم عثمان .. ومرة : إنهم جاءوا للاستعداد على على ؛ أن استأمر على الناس دون مشورة من أصحاب الشورى !

وقد كان لأهل البصرة حجة ظاهرة على أصحاب الجمل ! فهم لم يدخلوا من أمر عثمان فى شيء ، ولم يكن لهم من أمر على شيء !

روى الطبرى عن نصر بن مزاحم ، قال : أقبل جارية بن قدامة السعدي ، على عائشة رضى الله عنها ، فقال : يا أم المؤمنين ، والله لأقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك على هذا الجمل الملعون ، عرضة للاح ! إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة ، فهتكت سترك ، وأبحت حرمتك .. إنه من رأى قتالك فقد رأى قتلك .. إن كنت أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك ، وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعيني بالناس ! «^(٢)

قالوا : وأقبل غلام من جبهة على محمد بن طلحة ، فقال له : حدثني عن قتلة عثمان ! قال : نعم .. دم عثمان على ثلاثة أثلاث : ثلث على صاحبة اليهودج (يعنى عائشة) وثلث على صاحب الجمل الأحمر (يعنى طلحة) وثلث على على ابن أبي طالب !

فضحك الجهمي ، ولحق بعلي بن أبي طالب !

قالوا : وبلغ طلحة قول ابنه محمد ، وكان محمد من عبّاد الناس ، فقال له : يا محمد أتزعم عنا قولك إنى قاتل عثمان ؟ كذلك تشهد على أبيك ؟ كن

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٦٤ والبيان والتبيين للجاحظ جزء ١ ص ٢٠٩

(٢) الطبرى جزء ٥ ص ١٧٦ .

كعبد الله بن الزبير ، فوالله ما أنت بخير منه ، ولا أبوك بدون أبيه .. كفّ عن قولك ، وإلا فارجم ، فإن نصرتك نصرة رجل واحد ، وفسادك فساد عامة ! فقال محمد : ما قلت إلا حقا ! ولن أعود !^(١)

محنة أهل البصرة :

تقدمت أم المؤمنين ركب أصحاب الجمل ، فدخلت البصرة ، بحفّ الناس بها ، وهى على جملها « عسكر » .. وقد خرج أهل البصرة ، يشهدون هذا الحداث العظيم !

عائشة .. زوج رسول الله ، والحبيبة ابنة الحبيب أبي بكر ، تطلع عليهم من بيت الرسول ؟ إنها هوى كل قلب ، وأمنية كل نفس ، أن ترى أثرا من آثار الرسول ، وتعرف حالا من أحواله !

وهذه عائشة .. أثر حتى من آثار النبي .. يرى فيها الناس بعض النبي ، ويجدون منها ريح النبوة !

« ذكروا : أنه لما نزلت عائشة البصرة .. اصطف لها الناس في الطريق .. يقولون : يا أم المؤمنين .. ما الذى أخرجك من بيتك ؟ فلما أكثروا عليها ، تسكمت بلسان طلق ، وكانت من أبلغ الناس ، فحمدت الله ، وأثنت عليه ، ثم قالت : أيها الناس .. والله ما بلغ من ذنب عثمان أن يستحلّ دمه ، ولقد قتل مظلوماً .. غضبنا لكم من السوط والعصا ، ولانفضب لعثمان من القتل ؟ وإن من رأى أن تنظروا إلى قتلة عثمان ، فيقتلوا به ، ثم يردّ هذا الأمر شورى ، على ما جعله عمر بن الخطاب .. ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان ! »^(٢)

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٦٦ .

(٢) الطبرى جزء ٥ : ص ١٧٨ .

إن أصحاب الشورى الذين تشير إليهم أم المؤمنين هم عليّ ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص وهي تدعو إلى أن تنحلّ بيعة عليّ ، ويعود الأمر شورى بين هؤلاء الأربعة الباقين من أصحاب الشورى ، على ألا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان !

ومفهوم هذا أن يخرج عليّ من بين هؤلاء ، فلا يكون خليفة ، ولا يكون له رأى في الخليفة ! فإن طلحة والزبير - على هذا القول - لم يشاركا في دم عثمان ، لأنهم إنما جاءا ليطالبا بدمه ، وليقتلوا قتلته !! وسعد بن أبي وقاص كان قد اعتزل الفتنة ، فلم يكن له شأن في أمر عثمان أو عليّ .

« وقالوا : إنه حين سمع الناس كلام أم المؤمنين ، اختلفوا عليها .. فمن قائل يقول : صدقت ، وآخر يقول : كذبت ! فلم يبرح الناس يقولون ذلك حتى ضرب بعضهم وجوه بعض !!

« قالوا : وبينما القوم في تلك الحال ، أتاهم رجل من أشرف البصرة ، بكتاب كان كتبه طلحة في التآليب على قتل عثمان . فقال لطلحة : هل تعرف هذا الكتاب ؟ قال : نعم !

« قال : فما ردّك على ما كنت عليه ؟ .. كنت أمس تكتب إلينا ، تؤلّبا على قتل عثمان ، وأنت اليوم تدعونا إلى الطلب بدمه ؟ وقد زعمنا أن علينا دعا كما إلى أن تكون البيعة لكما قبله ، إذ كنتم أسنّ منه ، فأبيتما إلا أن تقدما ، لقرايته وسابقته ، فبايعتماه ، فكيف تنكثان بيعتكما بعد الذي عرض عليكما ؟

« قال طلحة : دعانا إلى البيعة بعد أن اغتصبها وبايعه الناس ، فعلمنا حين عرض علينا أنه غير فاعل ، ولو فعل أبى ذلك المهاجرون والأنصار ! وخفنا أن نردّ بيعته فنقتل ، فبايعناه كارهين !

قال : فابدأ لكما في عثمان ؟

قالا : ذَكَرْنَا مَا كَانَ مِنْ طَعْنِنَا عَلَيْهِ ، وَخِذْلَانَا إِيَّاهُ ، فَلَمْ نَجِدْ مِنْ ذَلِكَ مَخْرَجًا إِلَّا الطَّلَبَ بِدَمِهِ !!

قال : ما تأمرانني به ؟

قالا : بَايَعْنَا عَلَى قَتَالِ عَلِيٍّ ، وَنَقَضَ بَيْعَتَهُ !

قال : أَرَأَيْتُمَا إِنْ أَتَانَا بَعْدَ كُفَا مَنْ يَدْعُونَا إِلَى مَا تَدْعَوَانِ إِلَيْهِ .. مَا نَصْنَعُ ؟
قالا : لَا تَبَايَعَهُ .

قال : مَا أَنْصَفْتُمَا .. أَتَأْمُرَانِنِي أَنْ أَقَاتِلَ عَلِيًّا ، وَأَنْقُضَ بَيْعَتَهُ ، وَهِيَ فِي أَعْنَاقِكُمَا ، وَتَنْهِيَانِي عَنْ بَيْعَةٍ مِنْ لَا بَيْعَةَ لَهُ عَلَيْكُمَا ؟ أَمَّا إِنَّا قَدْ بَايَعْنَا عَلِيًّا ، فَإِنْ شِئْتُمَا بَايَعْنَا كَمَا يَبْسَارُ أَيْدِينَا !!

قالوا : ثُمَّ تَفَرِّقُ النَّاسَ ..

فرقة مع عثمان بن حنيف .. أمير البصرة .

وفرقة مع طلحة والزبير .. «^(١)

وروى الطبري أن عثمان بن حنيف ، عامل البصرة ، تقدم إلى أصحاب

الجل ، حين دخلوا المدينة ، فقال لهم :

ما نَقَمْتُمْ عَلَى صَاحِبِكُمْ - يَعْنِي عَلِيًّا ؟

فقالوا : لَمْ نَرَهُ أَوْلَى بِهَا - أَيِ الْخِلَافَةِ - مِنَّا ، وَقَدْ صَنَعَ مَا صَنَعَ !

فقال لهم : إِنْ الرَّجُلُ أَمَرَنِي ، فَأَكْتُبُ إِلَيْهِ ، فَأَعْلِمُهُ مَا جِئْتُمْ لَهُ ، عَلَى أَنْ

أَصْلَى بِالْبَاسِ حَتَّى يَأْتِينَا كِتَابُهُ .. فَوَاقَعُوا عَلَى ذَلِكَ .

قال : ثم لم يلبثوا إلا يومين ، حتى وثبوا عليه ، فقاتلوه ، وظهروا عليه ،
ثم أرادوا قتله ، فخافوا غضب الأنصار له ، فنالوه في شعره ، وفي جسده^(١) .
ويقول ابن قتيبة : إنه لما اختلف القوم ، اصطالحوا على أن لعثمان
ابن حنيفة دار الإمارة ، ومسجدها وبית المال ، وأن ينزل أصحابه حيث
شاءوا من البصرة ، وأن ينزل طلحة والزبير وأصحابهما حيث شاءوا ، حتى يقدم
على . . فإن اجتمعوا دخلوا فيما دخل فيه الناس ، وإن يتفرقوا يلحق كل قوم
بأهوائهم . . عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ، وذمة نبيه ، وأشهدوا شهوداً
من الفريقين جميعاً !

« فأنصرف عثمان ، فدخل دار الإمارة ، وأمر أصحابه أن يلحقوا بمنزلهم ،
ويضعوا سلاحهم . . وافترق الناس ، وكتموا ما بأنفسهم ، غير بنى عبد القيس ،
فإنهم أظهروا نصرة علي ، وكان حكيم بن جبل رئيسهم ، فقال لهم :
« يا معشر عبد القيس : إن عثمان بن حنيف ، دمه مضمون ، وأمانته مؤداة ،
وأيم الله لو لم يكن علي أميراً لمنعناه ، لسكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فكيف وله الولاية والجوار ؟ فاشخصوا بأنصاركم ، وجاهدوا المدون ،
فإما أن تموتوا كراماً ، أو تعيشوا أحراراً . . »

« ومكث عثمان بن حنيف في الدار أياماً . . ثم إن طلحة والزبير ومروان بن
الحكم أتوه نصف الليل في جماعة معهم ، في ليلة مظلمة سوداء مطيرة ، وعثمان
نائم ، فقتلوا أربعين رجلاً من الحرس ، فخرج عثمان بن حنيف ، فشد عليه
مروان فأسره ، وقتل أصحابه ، فأخذ مروان ، ففتق لحيته ، ورأسه ،
وحاجبيه^(٢) .

(١) الطبرى جزء ٥ ص ١٧٨ .

(٢) الإمامة والسياسة جزء ص ٧٠ .

قال البيهقي : « واتهبوا بيت المال ، وأخذوا ما فيه ، فلما حضر وقت الصلاة تنازع طلحة والزبير ، وجذب كل منهما صاحبه ، حتى فات وقت الصلاة ، وصاح الناس : الصلاة الصلاة . . يا أصحاب محمد ، فقالت عائشة : يصلي بالناس محمد بن طلحة يوماً ، وعبد الله بن الزبير يوماً ! » .

قال المسمودي : وقتلوا سبعين رجلاً من الحرس ، غير من جرح ، وخمسون من السبعين ضربت أعناقهم صبراً بعد الأمر ! .

مسيرة عليّ :

وخرج عليّ من المدينة ، بعد أربعة أشهر من خلافته ، وبعد أن أعذر إلى معاوية بالكتب والرسل ، يدعوهُ إلى البيعة له ، فلم يقبل ، وأبى عليه إلا أن يردّ الأمر شورى في المسلمين ، وإلا أن يقتل قتلة عثمان ! .

وخرج مع عليّ تسعمائة من وجوه المهاجرين والأنصار ، من أهل السبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعهم بشر كثير من أخلاط الناس ! وولى على المدينة قثم بن عباس ! وأمره أن يُشخص إليه من أحبّ الشيوخ ، ولا يحمل أحداً على ما يكره . . تخفّ الناس إلى عليّ ، ومضى معه من ولده ، الحسن والحسين ومحمد .

وفي رواية ، أن علياً أمر على المدينة عثمان بن حنيف الأنصاري ، وأنه خطب في الناس ، خطبة قال فيها : « . . . وإني بُليت بأربعة : .

أدهى الناس ، وأسخام . . طاحنة !

وأشجع الناس . . الزبير !

وأطوع الناس في الناس . . عائشة !

وأسرع الناس إلى فتنة . . يعلى بن أمية !

« والله ما أنكروا على منكرأ ، ولا استأثرتُ بمال ، ولا ملتُ بهوى . .
ولأنهم ليطالبون حقاً تركوه ، ودماً سفكوه . . . وما تبعه عثمان إلاّ عندهم ،
ولأنهم لهم الفئة الباغية ، بايعوني ونكثوا بيعتي ، وما استأثروا^(١) بي ، حتى
يعرفوا جورى من عدلى^(٢) !! » .

« فلما كان عليّ ببعض الطريق ، أتاه كتاب من أخيه عقیل بن أبی
طالب . . جاء فيه :

« أما بعد يا أخى . . كلاك الله ، والله جائرك من كل سوء ، وعاصمك
من كل مكروه ، على كل حال .

« إني خرجت معتمراً ، فلاقيت عائشة ، ومعها طلحة والزبير ، وذووها ،
وهم متوجهون إلى البصرة ، وقد أظهروا الخلاف ، ونكثوا البيعة ، وركبوا
عليك قتل عثمان ، وتبعهم على ذلك كثير من الناس ، من طغائهم وأوباشهم !
« ثم مرّ عبد الله بن أبی سرح ، فى نحو أربعين راكباً من أبناء الطلقاء ،
من بنى أمية . . فقلت لهم وعرفت للنكر فى وجوههم : أبماوية تلحقون ؟
عداوة والله إنها منكم ظاهرة ، غيرة مستفكرة ، تريدون بها إطفاء نور الله ،
وتغيير أمر الله ! فاستمعى القوم ، وأستمعهم ! !

« ثم قدمت مكة ، فسمعت أهلها يتحدثون أن الضحاک بن قیس ،
أغار على الخيرة واليامة ، فأصاب ما شاء من أموالها ، ثم انكفأ راجعاً
إلى الشام ! !

« فأفّ لحياة فى زمن جرأ عليك الضحاک ! ! وما الضحاک إلاّ ققع

(١) أى ما انتظروا .

(٢) أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ٣٦٨ .

بقرقرة^(١) ! فظننت حين بلغني ذلك أن أنصارك خذلك . . فاكعب إلى
يا ابن أمي برأيك وأمرك ، فإن كنت للموت تريد ، تحملت إليك بنى أخيك ،
وولد أبيك ، فعمشنا ما عشت ، وممتنا معك إذا مت . . فوالله ما أحب أن أبقى
بعدك ، فوالله الأعز الأجل إن عيشا أعيشه بعدك في الدنيا لغير هنيء ولا مريء ،
ولا نجيع ، والسلام . .

فكتب إليه الإمام ، كرم الله وجهه ، كتاباً جاء فيه :
« أما بعد يا أخى . . فكلاك الله كلاءة من يخشاه . . إنه حميد مجيد !
قدم على عبد الرحمن الأزدي بكتابك ، تذكر فيه أنك لقيت ابن
أبي سرح ، في أربعين من أبناء الطلقاء من بنى أمية ، متوجهين إلى المغرب .
وابن أبي سرح يا أخى طالما كاد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصد عن
كتابه ، وسنته ، وبغاه عوجاً .

« فدع ابن أبي سرح وقريشاً وتركاضهم في الضلال . . فإن قريشاً قد
اجتمعت على حرب أخيك ، اجتماعاً على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
قبل اليوم . . وجهلوا حقى ، وجحدوا فضلى ، ونصبوا إلى الحرب ، وجدوا
في إطفاء نور الله . . اللهم فاجز قريشاً عنى بفعالها . . قد قطعت رحى ،
وظاهرت على ، وسلبتني سلطان ابن عمى ، وسلمت ذلك لمن ليس في قرابتي ،
وحق في الإسلام ، وسابقتى ، التى لا يدعى مثلها مدعى إلا أن يدعى مالا
أعرفه . . والحمد لله على ذلك كثيراً . . .

« وأما ما سألت أن أكتب إليك فيه برأى ، فإن رأى جهاد الحقين
حتى ألقى الله . . لا يزيدنى كثرة من حولى عزة ، ولا تفرقهم عنى وحشة . .

(١) الفقع : البيضاء الرخوة من الكفاة . . ويضرب إليها الثل في الضعف ،
فيقال : أضعف من ققع بقرقرة . . .

لأني مُحَقِّقٌ ، والله مع الحق ، وما أكره أن أموت على الحق ، لأن الخير كله بعد الموت ، لمن عقل ، ودعا إلى الحق ! .

« وأما ما عرضت من مسيرك إلى بينيك وبنى أبيك ، فلا حاجة لي في ذلك ، فذرهم راشداً مهدياً ، فوالله ما أحب أن تهلكوا معي إن هلكت ، وأنا كما قال أخو بني سليم :

فإن تسأليني كيف صبري فإنني صبور على ريب الزمان صليبٌ
عزيزٌ علي أن أرى بكابةً فيشمت واشٍ أو يساء حبيباً ^(١)
وقدم عثمان بن حنيف على علي وهو بالربذة ، فقال يا أمير المؤمنين :
بعثني ذالحية وجئتك أمرداً ^(٢) فقال له : أصبت أجراً وخيراً .

ولما نزل علي قريباً من الكوفة ، بعث عمار بن ياسر ، ومحمد بن أبي بكر إلى أبي موسى الأشعري . وكان والياً لعثمان على الكوفة ، فلما قدما عليه ، قاما ، فدعوا الناس إلى نصرة علي ، فلما أمسوا دخل ناس من أهل الكوفة على أبي موسى ، فقالوا : ما ترى ؟ . أنخرج مع هذين الرجلين إلى صاحبهما ؟ .

فقال أبو موسى : أما سبيل الآخرة ، ففي أن تلتزموا بيوتكم ، وأما سبيل الدنيا فالخروج مع من أناكم !! فأطاعوه . . وتباطأ الناس على علي . . وبلغ عماراً ومحمدًا ما أشار أبو موسى على أولئك الرهط به . . فأتياه ، فأغلظا له في القول .

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٥٦/٥٥ .

(٢) كان أصحاب الجمل قد مثلوا به ، ففتقوا شعر رأسه ولحيته ، وآذوه أذى شديداً .

فقال أبو موسى : إن بيعة عثمان في عنقي ، وعنق صاحبكم ، ولئن أردنا القتال ما لنا إلى قتال أحد من سبيل ، حتى نفرغ من قتل عثمان ! .

ثم خرج أبو موسى ، فصعد للدبر ، ثم قال :

« أيها الناس : إن أصحاب رسول الله ، الذين صحبوه في المواطن ، أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه^(١) . وإن لكم على حقاً أن أؤديه لكم . . إن هذه الفتنة . . النائم فيها خير من اليقظان ، والقاعد خير من القائم ، والقائم فيها خير من الساعي ، والساعي خير من الراكب ، فاغمدوا سيوفكم حتى تفجلى هذه الفتنة ! .

فقام عمار . . فقال :

« أيها الناس . . إن أبا موسى ينهاكم عن الشخصوص إلى هاتين الجماعتين ، ولعمري ما صدق فيما قال ، وما رضى الله من عباده بما ذكر . . قال الله عز وجل : « وإن طائفتان من المؤمنين اختلفتا ، فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التي تبغى حتى تنفيء إلى أمر الله ، فإن فآت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا » وقال : « وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » . فلم يرض لعباده بما ذكر أبو موسى ، من أن يجلسوا في بيوتهم ، ويختلوا بين الناس ، فيسفك بعضهم دماء بعض ! ! فسيرا معنا إلى هاتين الجماعتين ، واسمعوا من حججهم ، وانظروا من أولى بالنصرة فاتبعوه ، فإن أصلح الله أمرهم رجعتهم مأجورين ، وقد قضيت حق الله ، وإن بغى بعضهم على بعض نظرتم إلى الفئة الباغية ، فقاتلتموها ، حتى تنفيء إلى أمر الله ، كما أمركم ، وافترض عليكم . . »

(١) كان أبو موسى من صحابة رسول الله . . فهو هنا يلفت القوم إلى تلك

فلما انصرفا إلى عليّ من عند أبي موسى ، وأخبراه بما كان منه بعث إليه الحسن بن عليّ ، وعبد الله بن عباس ، وعمار بن ياسر ، وقيس بن سعد ، وكتب معهم إلى أهل الكوفة :

« أما بعد ، فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سامعه ، كمن عاينه .
« إن الناس طعنوا على عثمان ، فكنت رجلاً من المهاجرين ، أقل عتبة !
وأكثر استغاثته . . وكان هذان الرجلان - طلحة والزبير - أهون سيرهما فيه
اللاهجة والوجيف^(١) ، وكان من عائشة فيه قول على غضب^(٢) . . فانتحى له
قوم فقتلوه ، وبايعني الناس غيرا مستكرهين ، وهما أول من بايعني على ما بوجع
عليه من قبلي ، ثم استأذنا إلى العمرة ، فأذنت لهما فنقضا العهد ، ونصبا
الحرب ، وأخرجنا أم المؤمنين من بيتها ، ليتخذها فتنة ، وقد سارا إلى البصرة
اختباراً لأهلها . . !

« ولعمري ما إياي تجيبون ، وما تجيبون إلا الله ! .
« ولقد بعثت ابني الحسن ، وابن عمي عبد الله بن عباس ، وعمار بن
ياسر ، وقيس بن سعد ، فكونوا عند خلفنا ، والله المستعان
فسار إليهم الحسن ومن معه ، وقدموا إلى أبي موسى ، فدعوه إلى نصرة
عليّ . . فبايعهم .
ثم صعد أبو موسى المنبر ، وقام الحسن أسفل منه فدعاهم أبو موسى إلى
نصرة عليّ ، لقرايته من رسول الله ، وسابقته ، وبيعة طلحة والزبير إياه ،
ونكثهما عهده ! وقرأ عليهم كتاب عليّ .

(١) اللاهجة والوجيف : ضربان من السير السريع ، العنيف .

(٢) ما أحسن اعتذار الإمام عن قول السيدة عائشة في عثمان : « اقتلوا نعثلاً !

فقام شريح بن هانئ فقال : لقد أردنا أن نركب إلى المدينة ، حتى نعلم قتل عثمان ، فقد أتانا الله به في بيوتنا ، فلا تخالفوا عن دعوته ، والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه ، سمعاً وطاعة .

ثم قام الحسن بن عليّ فقال :

« أيها الناس .. إنه كان من مسير أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ما قد بلغكم ، وقد أتيناكم مستنفرين ، لأنكم جبهة الأنصار ، وروس العرب ، وقد كان من قسطلحة والزبير بعد بيعتهما ، وخروجهما بعائشة ، ما بلغكم . وأيم الله لو لم ينصره منكم أحد ، لرجوت فيمن أقبل من المهاجرين والأنصار كفاية ، فانصروا الله ينصركم . . »

ثم قال قام عمار بن ياسر فقال : يا أهل الكوفة . . إن كان غاب عنكم أنباؤنا ، فقد انتهت إليكم أمورنا . . إن قتلة عثمان لا يعتذرون من قتله ؛ إلى الناس ، ولا يشكرون ذلك ، وقد جعلوا كتاب الله بينهم وبين محاجبيهم ، فيه أحياء الله من أحياء ، وأمات من أمات ، وإن طلحة والزبير كانا أول من طعن ، وآخر من أمر ، وكانا أول من باعنا علياً ، فلما أخطأها ما أملاه نكثنا بيعتهما ، من غير حدث ، وهذا ابن بنت رسول الله ، الحسن ، عرفتموه ، وقد جاءكم يستنفركم ، وقد أظلمكم عليّ في المهاجرين ، والبدرين والأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان . . فانصروا الله ينصركم . . »

ثم قام قيس فقال :

« أيها الناس .. إن الأمر لو استقبل به أهل الشورى كان عليّ أحقّ بها ، وكان قتال من أبى ذلك حلالاً ، فكيف والحجة على طلحة والزبير ، وقد باعاه رغبة ، وخالفاه حسداً ، وجاءكم المهاجرون والأنصار . . »
وهكذا استقام أمر عليّ عند أهل الكوفة ، بعد أن تجلّت لهم الأمور ،

وانكشف لهم ما غمّ عليهم، وأن عليّاً لم يكن إلا واحداً من المهاجرين ، أقلّ لومه ، وأكثر عتابه . . . فهكذا تواترت الأخبار بهذا الموقف الذى وقفه على من عثمان .

أما البيعة . . . فقد تلقاها على من الناس على كره منه ، وكان طلحة والزبير أول من بايع ، حتى لقد قام من يد طلحة شاهد يشهد عليه بالبيعة . . . ذلك أنه ، رضى الله عنه ، كان قد أصيب يوم أحد فى يده ، فقطعت بعض أصابع يده اليمنى ، فلما تلقى على البيعة كانت أول يد مُدّت إليه يد طلحة . . . فكان ذلك داعية للتشاؤم ، عند بعض المتوسمين ، ممن شهدوا البيعة !

روى الطبرى : أن حبيب بن ذؤيب نظر إلى طلحة حين بايع ، فقال : « أول من بدأ بالبيعة يد شلاء . . . لا يتم هذا الأمر ^(١) ! » .

وروى البلاذرى . . . « فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أنى عليّاً ، فقالوا ما نرى أحداً أحق بهذا الأمر منك . . . فلما رأى على ذلك صعد المنبر ، فكان أول من صعد إليه فبايعه طلحة بيده ، وكانت شلاء ، فتطير منها على ، وقال : « ما أخلقه أن ينكث ^(٢) » .

فهذا شاهد يحىء من وراء القول بالبيعة ، ويدل على صدق هذا القول ، وينفى محاميل الكذب عن هذا الخبر !! وليس كتاب على وحده هو الذى جمع أهل الكوفة على نصرته . . . فقد كان الصدق الذى وقع فى آذانهم وقلوبهم من كلماته ، يؤازره الصدق الذى رآته أعينهم فى وجه الحسن ورفيقيه : عبد الله بن عباس وعمار بن ياسر ! فكان ذلك سكباً للنفوس المتلعة ، وطماً نينة للقلوب المضطربة ! .

(١) الطبرى جزء ٥ ص ١٥٣ .

(٢) أنساب الأشراف : جزء ٥ ص ٧٠ .

وأقبل على من أهل الكوفة اثنا عشر ألف رجل ، ورجل ! .
عن أبي الطفيل قال : قال عليّ : « يأتاكم من الكوفة اثنا عشر ألف
رجل ، ورجل » . . فعدت على نجفة ذي قار ، فأحصيتهم ، فما زادوا رجلاً ،
ولا نقصوا رجلاً^(١) ! » .

وجهاً لوجه :

استقام لعلّ أمر أهل الكوفة ، واستولى أصحاب الجمل على البصرة . .
وأخذ كل فريق يعدّ العدة ليوم الفصل ! .
وهو يوم يُطلّ على المسلمين بوجه كالخ أغبر ، لم يعرفوه من قبل ، بل ولم
يكن في تقدير أحد منهم يومئذ أن يرى يوماً كهذا اليوم المشئوم ! ! .
صحابة رسول الله . . يقاتل بعضهم بعضاً ! ؟ .
وأمّ من أمهات المؤمنين . . حبيبة الرسول ، وابنة الصديق أبي بكر . .
تقود معركة بضرب فيها المسلمون بعضهم رقاب بعض ! ؟
إنها فتنة ، شدّت الناس شدّاً لا فكاك لهم منه ، إلى مصير مفزع
مهول ! .

والعجب أن الناس ، يتحركون في ثقل ، وفي تخاذل ، إلى ميدان المعركة ،
ويودّ أحدهم لو يُنتزع انتزاعاً من موقفه الذي هو فيه ، فتخطفه الطير ،
أو تهوى به الريح في مكان سحيق ! ! ففي ذلك وحده الشفاء لنفسه مما يعالج
من بلاء وحيرة ! .

العجب أن يكون هذا هو أمر الناس — ونعني بالناس قادة المعركة
في الفريقين — ثم تقع الواقعة ، وكأنها العاصفة دارت بهم ، فجمعت بعضهم

(١) الطبري جزء ٥ ص ١٩٩ .

إلى بعض ، وضربت بعضهم ببعض ، دون أن يعرف أحد كيف ضُرب
أو كيف ضُرب ، حتى إذا سكنت العاصفة ، كان سكونها على بحر من الدماء ،
وعلى ما يملأ وجه الأرض من جثث وأشلاء .

هكذا الفتن تموج بالناس أمواجها ، فلا يدري أحد من أمر نفسه شيئاً ..
إن سَلِمَ لا يدري كيف سلم ، وإن هلك فلا يدري أحد على أى وجه هلك .
قالهم إنا نعوذ بك من شرّ الفتن ، ما ظهر منها وما بطن .

روى الطبري عن جُؤن بن قتادة ، قال :

كنت مع الزبير ، فجاء فارس ، فقال :

السلام عليك أيها الأمير ! — وكانوا يسلمون عليه بالإمارة !

قال : وعليك السلام .

قال : هؤلاء القوم قد أتوك ، فلقيتُ عماراً ، فقلتُ له ، وقال لي ^(١) :

فقال الزبير : إنه ليس فيهم .

فقال : بلى .. إنه لفيهم .

قال : والله ، ما جعله الله فيهم !

فقال : والله ، لقد جعله الله فيهم !

قال : والله ما جعله الله فيهم !

فلما رأى الرجل يخالفه ، قال لبعض أهله : اركب ، فانظر : أحقُّ

ما يقول ؟ فركب مع الرجل ، فانطلقا حتى وقفا في جانب الخيل قليلاً ،

ثم رجعا إلينا ، فقال الزبير لصاحبه :

ما عندك ؟

قال : صدق الرجل .

(١) كان ذلك حين خرج علي بن مع من السكوفة يريد البصرة .

قال الزبير : يا جَدْعَ أنفاه ! يا قطع ظمّراه !!
يقول جون بن قتادة : ثم أخذهُ إفسكل^(١) ، فجعل السلاح ينتفض !! .
فقال جون : ثككتني أمي . . هذا الذي كنتُ أريد أن أموت أو أعيش
معه ؟ والذي نفسى بيده ، ما أخذَ هذا ما أرى إلا لشيء قد سمعهُ أو رآهُ من
النبيّ صلى الله عليه وسلم^(٢) ! » .

وحقيقة هذا الأمر ، أن الزبير فزع فزعاً شديداً ، وكرب واضطرب ، حين
علم أن عمار بن ياسر مقبل مع عليّ في طريقه إلى الحرب ! .
وعمار بن ياسر ، حيث يكون ، هو علّم على أهل البنى . . لقول الرسول
صلى الله عليه وسلم له : « إنما تقتلك الفئة الباغية » .

وإذن فهو حين يشهد الحرب مع عليّ لن يكون في الفئة الباغية ، وإنما
يقاتل الفئة الباغية ، التي ربما قتله في هذا القتال ، وإذن فالذي يكون في
الجبهة المقاتلة للجبهة التي فيها عمار هو في جبهة باغية ، أو بمعرض أن تكون
باغية !

من أجل هذا كرب الزبير ، واضطرب . . وانكشفت له طاقة من نور
في هذا الظلام المطبق ، فرأى موقفه ، وتبين حاله . . وبأن له أنه في
الفئة الباغية ! .

ومن أجل هذا استقبل الزبيرُ عليّاً وجيشه ، في انكسار وفتور ، ثم لم
يلبث أن ترك ميدان القتال ، وألقى السلاح . . فراراً بدينه ، لا خوفاً من
القتال والقتل . . فاعرف ابن صغية الفرار إلا في تلك الحال !!

(١) الإفسكل ، حال فيها رعشة واضطراب .

(٢) الطبرى : جزء ٥ ص ٢٠٥ .

وموقفٌ لطلحة شبيه بموقف الزبير هنا . . كان في حال اعتاده فيه
أحوال ، وتطرقة هموم ووساوس !

أخرج الطبري ، عن علقمة بن وقاص الليثي قال : « لما خرج طلحة
والزبير وعائشة ، رأيت طلحة ، وأحبّ المجالس إليه أخلاها ، وهو ضارب
بلحيته على زوره ! .

فقلت : يا أبا محمد .. أرى أحبّ المجالس إليك أخلاها ، وأنت ضارب
بلحيتك على زورك ! إن كرهت شيئاً فاجلس ! .

فقال لي : يا علقمة بن وقاص .. بينما نحن يدٌ واحدة على من سوانا ، إذ
صرنا جبهلين من حديد ، يطلب بعضنا بعضاً . . إنه كان مني في عثمان شيء ،
ليست توبتي إلا أن يسفك دمي في طلب دمه ^(١) ! ! » .

إن المرء ليحار إذ يرى هؤلاء الفخبة المتخيرة من الناس ، تغلب على
أمرها ، في بعض المواقف ، ويخذلها رأيها وبصرها ، وتركبها حيرة محيرة ، فلا
تدري أية وجهة تنجّه ، ولا أي مسلك تسلك !

ولا تأويل لهذا إلا أنه ابتلاء ابتلى الله به عباده ، وامتحان امتحنهم به ،
وما نحسب القتلى الذي سقطوا في هذا البلاء إلا في عداد الشهداء ، كمن يموتون
بواب من الأبواب الجائحة !

يقول الزبير - رضي الله عنه - عشية الاستعداد للمعركة : « إن هذه هي
الفتنة التي كنّا نحدث عنها ! !

فيسأله سائل : أنسميها فتنة ، وتقاتل فيها ؟

فيقول له : ويحك ! .. إننا نبصر ولا نبصر .. ما كان أمر قط
إلا عرفتُ موضع قدمي فيه ، غير هذا الأمر .. فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم
مدبر ! (١)

إن الزبير - رضى الله عنه - يعلم أنها فتنة ، ويقاتل فيها ! .. إنه لا يملك
الفتنة ، ولكنها تملكه .. إنها قدّر غالب لا مردّ له ! ..

وإذا كان هذا هو شأن أصحاب الرسول ، والصفوة المتخيرة من صحابته ،
فكيف بعامة الناس ؟ وكيف بمن انقاد للفريقين ؟

إن كثيراً من الناس لم ينظر إلى هذا الخصام وإلى دوافعه ، بل نظر إلى
قادة الخصام أنفسهم ، وما لهم في نفسه من حساب وتقدير ، فقال إلى هذا
أو ذاك ، حسب هذا الحساب وذلك التقدير ، دون أن يسأل نفسه : ما واقع
الأمر ؟ ولم هذا الخلاف ؟ وما السبيل إلى تسويته ؟

ولو أن الناس أخذوا مواقفهم عن تقدير ذاتي الموقف لما كان منهم هذا
الاندفاع الشديد إلى المعركة ، ولما كان منهم هذا الاستخفاف بدمائهم وأرواحهم
في ميدان القتال !

ولكن - كما قلنا - كان أكثر أنصار الفريقين ينظرون إلى وجوه
الصحابة ، وإلى مواقع أيديهم وما يشيرون به !

نهض الحارث بن حوط الليثي ، إلى عليّ بن أبي طالب ، رضى الله عنه ،
وهو على المنبر ، فقال : أتظن أننا نظن أن طلحة والزبير كانا على ضلال ؟
فقال عليّ : يا حارث (٢) .. إنه مأبوس عليك ! إن الحق لا يُعرف بالرجال ،

(١) الطبرى جزء ٥ ص ٢٨٣ .

(٢) أى حارث ، على الترخيم بالنداء .

فاعرف الحق ، تعرف أهله ! »^(١) ومن أين للناس أن يعرفوا الحق في هذه الفتنة ؟
إن الناس في عَمَى من ظلام هذا الفتنة المتكاثف ، ولم يكن لهم إلا أن
يضعوا أيديهم في أى يد تمتد إليهم ، فكيف إذا كانت تلك اليد يدًا كيد
السيدة عائشة ، أو يد طلحة والزبير ، أو يد علي ؟

ومن هنا - ولكثرة هذه الأيدي ، وضغطها على المختلفين من أصحاب
رسول الله - غلب الصحابة رضوان الله عليهم على أمرهم ، وعجزوا عن أن
يردّوا السهم الذى انطلق من القوس !

يقول الزبير - رضى الله عنه - وقد رأى الفوغاء تحرّش بين الناس ،
وتفتح بينهم طرقا إلى الالتحام والقتال . . يقول : « ما كنت أرى أن مثل
ما جئنا له ، يكون فيه قتال ! ! »^(٢)

ولو أنه خَلَّى بين الصحابة ، وبين هذا الخلاف ، لعالجوه بغير الحرب ،
ولأعطوا الرضا من أنفسهم . . ولكن كان ما كان ، ووقع ما لم يكن
في الحسبان !

على يعدز أصحاب الجمل :

تهباً القوم للقتال ، فكان صاحب الحرب في أصحاب الجمل الزبير ، وعلى
الخليل طلحة ، وعلى الرجالة عبد الله بن الزبير ، وعلى القلب محمد بن طلحة ،
وعلى المقدمة مروان ، وعلى رجال الميمنة عبد الرحمن بن عباد ، وعلى الميسرة
هلال بن وكيع !

فلما علم على بأمر القوم عتبا الناس للقتال ، فجعل على المقدمة عبد الله بن

(١) البيان والتبيين جزء ٣ ص ١٣٦ .

(٢) البيان والتبيين جزء ٣ ص ١٤٤ .

عباس ، وعلى السّاقفة هنداً المرادى ، وعلى الخليل عمار بن ياسر ، وعلى الرّجالة محمد بن أبي بكر . .

وبعث على إلى طلحة والزبير كتاباً ، جاء فيه :

« أما بعد ، فقد علمتما أني لم أرد الناس حتى أرادوني ، ولم أبايعهم حتى بايعوني ، وإنسكما لمن أراد وباع ، وإن العامة لم تباعني لسلطان خاص . .
فإن كنتما بايعتما في كارهين ، فقد جعلتما لي عليهما السبيل ، بإظهاركما الطاعة ، وإسراركما المعصية ، وإن كنتما بايعتما طائعين ، فارجعا إلى الله من قريب !
« إنك يا زبير لفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه . . وإنك يا طلحة أشيخ المهاجرين ، وإن دفاعكما هذا الأمر قبل أن تدخل فيه ، كان أوسع عليكم من خروجكما منه ، بعد إقراركما به !

« وقد زعمتما أني قتلت عثمان ، فبينى وبينكما فيه ، بعض من تخلف عني وعنكما من أهل المدينة !

« وزعمتما أني آويت قتلة عثمان ، فهؤلاء بنو عثمان ، فليدخلوا في طاعتي ، ثم يخاصموا إلى قتلة أبيهم ! . . »

فكان جواب طلحة والزبير إلى على :

« . . إنك سرت مسيراً له ما بعده ، ولست راجعاً وفي نفسك منه حاجة ، فامض لأمرك . . أما أنت فليست راضياً دون دخولنا في طاعتك ، ولسنا بداخلين فيها أبداً ، فاقض ما أنت قاض ! ! »

وكتب إلى عائشة ، رضى الله عنها :

« أما بعد ، فإنك خرجت عاضبة لله ولرسوله ، تطالبين أمراً كان عنك موضوعاً ! ما بال النساء والحرب ، والإصلاح بين الناس ! ؟

« تطالبين بدم عثمان ؟ وامعري لمن عرّضك للبلاء ، وحملك على العصية ، أعظم إليك ذنباً من قتل عثمان .. وما غضبتِ حتى أغضبت ، وما هيجتِ حتى هيجت ، فاتق الله ، وارجعي إلى بيتك ! »

فأجابته هذا الجواب الموجز الحاسم :

« جَلَّ الأمر عن العتاب ! »^(١)

قالوا : ولما تريت القوم بعد أن جرت بينهم الكتب والرسل ، أتى زمعة ابن الأسود إلى طلحة والزبير ، فقال لهما :

« إن علياً قد أكثر إليكما الرسل ، كأنه طمع فيكما ، وأطمعنا في أنفسكما ! فاتقيا الله إن كنتما بايعتاه طائعين ، واتقيا الله علينا ، وعلى أنفسكما ، فإن اللين في الضرع ، ومتى يحلب لا يرجع ! وإن كنتما بايعتاه مكرهين ، فاخرقا هذا الوط^(٢) ، وادفعا هذا اللين ، فما أغنانا عن هذه الكتب والرسل ! ! »

ولكن علياً لم يمجّل بالحرب ، بل أراد المبالغة في الإعذار ، فأرسل ابن عباس إلى الزبير ، وقال له : لاتلقين طلحة ، فإنك إن تلقيه تجده كالثور ، عافصاً قرنه ، يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن التقى الزبير ، فإنه ألين عريكة ، فقل له : يقول لك ابن خالك : عرفتني بالحجاز ، وأنكرتني بالعراق ، فما عدّا مما بدّا ؟ »^(٣)

قال ابن عباس : قلت الكلمة للزبير ، فلم يزدني على أن قال : قل له : « إنا مع الخوف الشديد لنقطع ! » وقال لي ابني عبد الله : قل له : بيننا وبينك دم خليفة ، ووصية خليفة ، واجتماع اثنين وانفراد واحد ، ومشاورة العامة ! »

(١) السياسة والإمامة جزء : ١ ص ١٧ .

(٢) الوط : وعاء من آدم يوضع فيه اللبن .

(٣) نهج البلاغة جزء : ١ ص ٧٢ .

قال ابن عباس : فعلت أنه ليس وراء هذا الكلام إلا الحرب ، فرجعت إلى عليّ فأخبرته !

ثم أرسل عليّ عبد الله بن عباس ، وزيد بن صوحان ، إلى عائشة ، وقال لهما : اذهبا إلى عائشة ، وقولا لها : إن الله أمرك أن تقرّئي في بيتك ، وألا تخرجي منه ، وإنك لتعلمين ذلك ، غير أن جماعة قد أغروك ، فخرجت من بيتك ، فوقع الناس - لا تفارقك معهم - في البلاء والعناء ، وخير لك أن تعودى إلى بيتك ، ولا تحومى حول الخصام والقتال ، وإن لم تعودى ، ولم تطفئ هذه الشائنة ، فإنها سوف تعقب القتال ، ويقتل فيها كثير !! فاتقى الله يا عائشة ، وتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من عباده ، ويعفو ، وإياك أن يدفعك حبّ عبد الله بن الزبير وقرابة طلحة إلى أمر يعقبه النار ! .

فجاء إلى عائشة ، وبلغا رسالة عليّ إليها ، فقالت : إني لا أردّ علي ابن أبي طالب ، لأنى لا أبلغه في الحجاج . فرجعا إليه وأخبرا بما قالت ! . ولما يئس عليّ من مراجعة القوم ، وبأن له ألا مفرّ من الحرب ، قام في أصحابه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس : إني راقبت هؤلاء ، القوم كي يروعوا أو يرجعوا ، وعزفتهم بغيرهم فلم يستجيبوا ، وقد بعثوا إلى : أن ابرز للطعان ، واصبر للجلاد ، وإنما تمتيك نفسك الأمانى الباطلة ، وتمدّد الغرور ! .

« أَلَا هَبَلَتَهُمُ الْهَبُولُ ! ! لَقَدْ كُنْتُ مَا أَهْدَدُ بِالْحَرْبِ ، وَلَا أَرْهَبُ بِالضَّرْبِ ، وَلَقَدْ أَنْصَفَ الْقَارَةَ مِنْ رَامَاهَا ^(١) ! فَلْيُرْعِدُوا وَلْيَبْرُقُوا ، فَقَدْ رَأَوْنِي قَدِيمًا ، وَعَرَفُوا نَسْكَابِي ! فَكَيْفَ رَأَوْنِي ؟ .

(١) هذا مثل يضرب ، لمن يضع الأمر موضعه ، والقارة من بني المون بن خزيمه ابن مدركة ، وكانوا مشهورين بالرمي بالسهام .

« أنا أبو الحسن ، الذى فلتتُ حدَّ المشركين ، و فرقت جماعتهم ، وبذلك القلب ألقى عدوى اليوم ، وإني على ما وعدنى ربّ من النصر والتأييد ، وعلى يقين من أمرى ، وفى غير شبهة من دينى . . . ثم مدّ يده بالدعاء وقال :
« اللهم إن طلحة نكث بيعتى ، وأب على عثمان ، حتى قتله ،
نم عضه^(١) ورمانى . . اللهم فلا تمهله .. اللهم إن طلحة قطع رحمى ، ونكث بيعتى ، وظاهر على عدوى ، فاكفنيه اليوم بما شئت ... » .

الحرب :

خرج طلحة والزبير وعائشة بمن اجتمع إليهم من أهل البصرة وغيرها ، ليلقنوا علياً ومن معه ، وكانت عائشة رضى الله عنها - على جمل عليه هودج ، ضُرب عليه صفائح الحديد ! .

فلما تواقفوا للقتال أمر علىٌ منادياً بفنادى فى أصحابه :

« لا يرمين أحدٌ سهماً ولا حجراً ، ولا يطعنن برمح ، حتى أُعذِرَ القوم ،
فأَتخَذَ عليهم الحجة البالغة .

فكلم على طلحة والزبير قبل القتال ، فقال لهما :

« استحللنا عائشة بحق الله ، وبحق رسوله ، على أربع خصال أن تصدق فيها :
هل تعلم رجلاً من قريش ، أولى منى بالله ورسوله ، وإسلامي قبل كافة الناس
أجمعين ، وكفايتي رسول الله كفارة العرب بسيفي ورمحي ؟ وعلى براءتي
من دم عثمان ؟ وعلى أنى لم أكن أستكره أحداً على بيعة ؟ وعلى أنى كنت
أحسن قولاً فى عثمان منكما ؟ .

فأجابه طلحة جواباً غليظاً ، ورق له الزبير ! !

(١) أى اتهمنى به ظمناً وبهتاناً .

ثم رجع عليّ إلى أصحابه ، فقالوا يا أمير المؤمنين . . بم كلمتَ الرجلين ؟
فقال عليّ : إن شأنهما مختلف . . أما الزبير فقاده اللّحاج ، ولن يقاتلكم ،
وأما طلحة فسألته عن الحق فأجابني بالباطل ، وواقفته باليقين فلقيني بالشك ،
فوالله ما نفعه حقه ، ولا ضرّني باطله ، وهو مقتول غداً في الرعيّل الأول ! .
ثم خرج عليّ على بقة رسول الله «الشهباء» بين الصفيين ، وهو حاسر . .
فقال أين الزبير ؟ فخرج إليه شاكا سلاحه ، فقيل لعائشة . . فقالت : واحرّباؤه
بأسماء^(١) ، فقيل لها إن علياً حاسر ، فاطمأنت . . واعتنق كل واحد منها
صاحبه . . فقال له عليّ :

ويحك يا زبير ! ما الذي أخرجك ؟ .

قال : دم عثمان !

قال : قاتل الله أولانا بدم عثمان ! أنشدك الله يا زبير ، هل تعلم أنك
مررت بي ، وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متكئ على يدك ،
فسلم عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضحك إليّ ، ثم قال لك : يا زبير ،
إنك تقاتل علياً وأنت له ظالم ؟ .

قال : اللهم نعم !

قال عليّ : فعلام تقاتلني ؟ .

قال الزبير : نسيتهما ! والله ولو ذكرتها ما خرجت إليك ، ولا قاتلتك ! .

فانصرف عليّ إلى أصحابه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين . . سرت إلى رجل
في سلاحه ، وأنت حاسر ؟ قال عليّ : أتدرون من الرجل ؟ . . ذلك الزبير بن
صفية ، عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أما إنّه قد أعطى عهداً لا يقاتلكم . .

(١) أسماء هي بنت أبي بكر ، وهي أخت عائشة ، وزوج الزبير ، وقول
السيدة عائشة : « واحرّباؤه بأسماء » يعني أنها توقعت قتل الزبير وبغيعة أسماء فيه ! .

إني ذكرت له حديثاً قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : لو ذكرتُ ما أتيتك ا فقالوا الحمد لله يا أمير المؤمنين ، ما كنا نخشى في هذه الحرب غيره ، ولا نتقى سواه . . . فإذا قد كفانا الله فلا نعدّ مَنْ سواه إلا صرعى المودج ! »^(١).

هذا ركن من أركان أصحاب الجمل قد ذهب ، ومع هذا ظلّ القوم على موقفهم ، وإن يكن قد دخل عليهم موقف الزبير بشيء غير قليل من الهم والقاق ! قالوا : إن الزبير بعد أن اتقى بعلى دخل على عائشة ، فقال : يا أماء . . ما شهدتُ موطننا قط ، في الشرك ، ولا في الإسلام ، إلا ولى فيه رأى وبصيرة ، غير هذا الموطن ، فإنه لا رأى لى فيه ، ولا بصيرة ! وإني لعلى باطل ! فقالت : يا أبا عبد الله ، خِفتَ سيوف بني عبد المطلب ؟ قال : أما والله إن سيوف بني عبد المطلب طوال حداد ، يحملها فتية أنجاد !

ثم قال لابنه عبد الله عليك بحربك ! أما أنا فأرجع إلى بيتي ! فقال له ابنه عبد الله : الآن حين التقت حلقتا البطان ، واجتمعت الفئتان ؟ والله لا تغسل رءوسنا منها !

فقال الزبير : لا تعدّ هذا منى جيباً ! فوالله ما فرقت^(٢) أبداً في جاهلية ولا إسلام ؟ قال : فما يردك ؟ قال : يردني ما إن علمته كسرك ! .. فقام بأمر الفاس عبد الله بن الزبير !

مقتل الزبير :

اعتزل الزبير الحرب ، وفي نفسه براكين ثائرة ، ترمى بزفرات الألم والحسرة ، من هذا الموقف الذي يققه المسلمون ، في ميدان التناحر والقتال !

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٧٣

(٢) الفرق بفتحيتين : الحرف .

فهو وإن يكن قد رجع عن هذا الأمر الذى دخل فيه ، فإنه لم يرجع من قريب ، بل مضى فيه ، حتى بلغ به غايته ، وإلا بعد أن انطلق السهم من قوسه ، وليس إلى رده من سبيل !

ثم هو يعلم أنه يحمل قدراً كبيراً من تبعات هذه الحرب ، التى شهد طلائعها ، ورأى أول حصادها من الدماء والأشلاء ، وقدّر المصير المشؤم الذى ينتظر المسلمين من ورائها - ولذا ركب من هذا الموقف همّ ثقيل ، آدّه حمله ، وأفزعه النظر إليه !

وقد أخذ الزبير طريقه إلى مدينة الرسول ، عائداً من هذا الكرب الذى اشتمل عليه ، لاجئاً إلى حى رسول الله ، ملتمساً الشفاء لهذا الجرح الغائر الذى أصاب موطن الطمأنينة من قلبه !

وفى أول مراحل الطريق لقيه عمرو بن جرموز ، فقال له :
يا أبا عبد الله .. أحيت حرباً ، ظالماً أو مظلوماً ، ثم تنصرف ؟ أتائب أنت أم عاجز ؟ فسكت عنه !

ثم عاوده ، فقال له : يا أبا عبد الله .. حدثنى عن خصال خمس أسألك عنها !
فقال : هات !

قال : خذلك عثمان .. وبيعتك علياً .. وإخراجك أمّ المؤمنين ..
وصلاتك خلف ابنك ، ورجوعك عن الحرب ؟

قال : نعم أخبرك ..

أما خذلى عثمان ، فأمر قدّم الله فيه الخطيئة ، وآخر التوبة !
وأما بيعتى علياً .. فوالله ما وجدت من ذلك بدءاً . . حيث بايعه المهاجرون
والأنصار ، وخشيتُ القتل !

وأما إخراجنا أمنا عائشة ، فأردنا أسراً وأراد الله غيره !

وأما صلاتي خلف ابني ، فإنما قدمته عائشة ، أم المؤمنين ، ولم يكن لي
دون صاحبي أسراً !

وأما رجوعي عن الحرب ، فظنُّ بي ما شئت غيرَ الجبن !
ولم يكن في هذه الأجوبة مقنع لابن جُرموز ، فقال يحدث نفسه : والهفاء
على ابن صفيّة !! أضرمها ناراً ثم أراد أن يلحق بأهله ؟ قتلني الله إن لم أقتله !
ثم أخذ ابن جُرموز يدبر لقتل الزبير ، ويحتال لذلك ، فقال له
كالفاصح الشفيق .

إن درن أهلك قياف ، نخذ نجيبى هذا ، وخلّ فرسك ، ودرعك ، فإنهما
شاهدتان عليك بما تذكره !

فقال الزبير : أنظر في ذلك . ليلتي !

ثم ألح عليه في فرسه ودرعه ، حتى أخذهما منه !
وإنما أراد ابن جُرموز بهذا التدبير أن يلقى الزبير حاسراً ، إِمّا علم من
بأسه !

ثم أتى ابن جُرموز الأحنف بن قيس ، فأعلمه بمكان ابن الزبير عنده !
فقال له الأحنف : اقتله ، قتله الله مخادعاً !!

وأتى الزبير رجل من كلب ، فقال له : يا أبا عبد الله ، أنت لي صهر ،
وابن جُرموز لم يعتزل هذه الحرب مخافة الله ، ولكنه كره أن يخالف الأحنف ،
وقد ندم الأحنف على خذله علياً ، ولعله يتقرب بك إليه ، وقد أخذ درعك
وفرسك ، وهذا تصديق ما قلت ، فبِتْ عندى الليلة ، ثم اخرج بعد نومة ،
فإنك إن قتتهم لم يطلبوك . فتهاوت بقوله ، ثم بداله ، فقال : ما ترى

يا أخا كلب !؟ قال : أرى أن ترجع إلى فرسك ودرعك ، فتأخذها ، فإن أحداً لا يقدم عليك وأنت فارس ، أبداً !

فأصبح الزبير غادياً ، وسار معه ابن جرموز ، وقد كفر^(١) على الدرع ، فلما انتهى إلى وادي السباع ، استغفله ، فطعنه ، ثم رجع برأسه وسلبه إلى قومه ! !

فقال له رجل من قومه : يا ابن جرموز ، فضحت والله اليمين بأسرها . . . قتلت الزبير ، رأس المهاجرين ، وفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحواريه ، والله لو قتلته في حرب لعز ذلك علينا ، ولمسنا عارك ، فكيف في جوارك وذمتك ؟ والله ليزيدنك على أن يشارك بالنار ! !

قال ابن جرموز : والله ما قتلته إلا له ، والله ما أخاف فيه قصاصاً ، ولا أهرب فيه قريشاً ، وإن قتله على لهين !^(٢)

هذا ما يرويه ابن قتيبة في مقتل الزبير ، ومنه نرى أن ابن جرموز هو الذي تولى وحده قتل الزبير غدرًا ، وباء بهذا الفعل الآثم ، وحمل وزره ، وأن قومه استقبلوا هذا الفعل منه بالإنكار ، وأنذروه سوء العاقبة ، وما يلقاه من على ، الذي ظن أنه في هذا الذي صنمه بالزبير سيلقى منه رضى وكرامة . ولن يجد من على إلا ما يكره !

وفي رواية السعوى : أن الزبير مضى منصرفًا حتى أتى وادي السباع ، والأحنف بن قيس معنزل في قومه من بني تميم ، فأتاه آت ، فقال : هذا الزبير ماراً ! فقال : ما أصنع بالزبير ، وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس ، يقتل بعضهم بعضاً ، وهو ماراً إلى منزله سالمًا ؟

(١) أى لبس درعا ولبس عليه ثوبا حتى لا يظهر .

(٢) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٧٦ .

« فلاحقه نفرٌ من بني تميم فسبقهم إليه عمرو بن جرموز ، وقد نزل الزبير إلى الصلاة ، فقال : أنؤمنى أم أؤمك ؟ فأَمّه الزبير ، قتلته عمرو بن جرموز في الصلاة .. فجاء بسيفه إلى عليّ ، فقال : والله ما كان ابن صفية جباناً ، ولا لثيماً ، ولا كفه الحثين ، ومصارع السوء .. ثم أخذ سيفه ، وهزّه ، وقال : سيف طالما جلى به الكُربَ عن وجه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم !

فقال ابن جرموز : الجائزة يا أمير المؤمنين ؟

فقال : أما إني سمعت رسول الله يقول : قاتل ابن صفية في النار .

فخرج ابن جرموز خائباً !

وفي هذه الرواية نجد ابن جرموز ، يخرج في جماعة من قومه ليلحقوا بالزبير ، وليقتلوه ، ولكن ابن جرموز يسبقهم إليه ، فيقتله في الصلاة . ثم يحىء إلى عليّ بسيفه ، ويطلب منه الجائزة ، فيبشره بالفار ، فيفصرف غاضباً .

وهذه الرواية تضع قاتل الزبير بين يدي عليّ ، كرم الله وجهه - ثم يتركه يمضى ، دون أن يقتصّ منه ، لهذا الدم الذي أراقه غدرأ ، في غير حرب !

وليس عليّ هو الذى يقبل الضيم على دينه ، بجميع ما في هذه الدنيا من جاه وسلطان ! وليس عليّ - كرم الله وجهه - هو الذى يطلب الغلب على خصومه بالختل والغدر ، ولو كان في معرض الهزيمة المحققة ، والموت الراصد !

فكيف يهدر دم الزبير ابن العوام ، ابن عمته ، وحوارى الرسول ؟

إن ما بينهما من خلاف ، هو خلاف عن رأى واجتهاد ، فإذا خرج بهما هذا الخلاف إلى ميدان القتال ، فهي الحرب ، وليس الغدر ، والختل والغيلة !

وإذن فإن الأرجح عندنا ، مارواه ابن قتيبة ، من أن ابن جرموز قتل الزبير غدرأ ، ثم رجع برأسه وسلّبه إلى قومه ، وأنهم حين واجهوه باللوم

والتعنيف ، وكشفوا له عما ينتظره من عليّ إذا ظفر به ، أخفى وجهه في تيارات هذه الفتنة وأمواجها . فلما كانت فتنة الخوارج كان في جبهة الخارجين ، وقد قتله عليّ يوم النهروان .. وهكذا أراق عليّ دمه . وكأنّه قصاص لدم الزبير !!

وإن تحول ابن جرموز ، من مقاتل مع عليّ ، ومن قاتل لفارس فرسان أصحاب الجمل ، إلى جبهة الخارجين عليه ، والمقاتلين له - هذا التحول فيه دلالة قوية على أنه نجّم عن شعور بالخوف من عليّ ، وبالكراهية له .. معاً .. خوف من أن يظفر به عليّ فيقتله ، وكراهية إذقانه ما كان يرجو من جزاء طيب ، على هذه المغامرة ، التي غامر فيها بنفسه ، ليقتل أشجع الفرسان !

ولعل في رواية ابن سعد في طبقاته ما يؤيد هذا الذي ذهبنا إليه ، من أن الذي تولى قتل الزبير لم يكن واحداً معروفاً ، أو جماعة معروفة ، وإنما تكاثر عليه جماعة فقتلوه ، ثم أخذ أحدهم سلبه ، وجاء به إلى عليّ ! ولهذا لم يكن القصاص متعينا .. يقول ابن سعد :

« ركب الزبير - وهو منصرف من حرب الجمل - فأصابه أخو بني تميم بوادي السباع . . . »

« قالوا : خرج الزبير بن العوام يوم الجمل ، وهو يوم الخميس ، امشر ليال خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين بعد القتال ، على فرس له ، يقال له ذو الخمار ، منطلقاً ، يريد الرجوع إلى المدينة ، فلقبه رجل من بني تميم ، يقال له النعمان بن زمام المجاشعي ، بسقوان^(١) ، فقال له : يا حواري رسول الله .. إلىّ إلىّ ! فأنت في ذمتي ، لا يصل إليك أحد من الناس .. فأقبل معه ، وأقبل رجل من بني تميم آخر إلى الأحنف بن قيس ، فقال له فيما بينه وبينه : هذا الزبير في وادي السباع ! فرفع الأحنف صوته ، وقال : ما أصنع ؟ وما تأمرونني إن كان

(١) سقوان : بفتح السين والفاء : عين بالبصرة (قاموس) .

(م ٢٢ - عليّ ابن أبي طالب)

الزبير لفت بين عازرين^(١) من المسلمين قتل أحدهما الآخر ، ثم هو يريد اللحاق بأهله ؟!

فسمعه عمير^(٢) بن جرموز التيمي ، وفضالة بن حابس التيمي ، ونفيع أو نفيل بن حابس التيمي ، فركبوا أفراسهم في طلبه ، فلاحقوه ، فحمل عليه ابن جرموز قطعنه طعنة خفيفة ، فحمل عليه الزبير ، فلما ظن أن الزبير قاتله ، دعا : يا فضالة ، يا نفيع ، ثم قال : الله الله يا زبيراً فكف عنه ، ثم سار فحمل عليه القوم جميعاً فقتلوه ، رحمه الله ! فقطعنه ابن جرموز طعنة أثبتته فوقه ، فاعتوروه ، وأخذوا سيفه ، وأخذ ابن جرموز رأسه ، فحمله حتى أتى به وبسيفه علياً ، فأخذه على وقال : سيف والله طالما جلي به عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الكربة ، ولكن الحين ، ومصارع السوء ... » .

وقالت زوجته ، عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل ، تربيته :

غدر بن جرموز بفارس بهمة يوم اللقاء ، وكان غير مُمَرَّد
يا عمرو لو نبهته لوجدته لا طائشاً ، رعش الجنان ولا اليد
شدت يمينك إن قتلت لمسلماً وجبت عليك عقوبة المتعمد^(٣)

مقتل طلحة :

يكاد يجمع المؤرخون على أن قاتل طلحة هو مروان بن الحكم ،

(١) الغار . الغافل ، والغارون : الغافلون

(٢) هكذا « عمير » ! والروايات كلها على أنه عمرو ، وهناك شعر يروى في رثاء الزبير ، وفي التنديد بقاتله « عمرو » ذكره الجاحظ في رسائله ، كما ذكره ابن سعد في طبقاته ، ولا يستقيم وزن الشعر بعمير .

(٣) الطبقات لابن سعد : ١١٢/٣ .

وكان في أصحاب الجمل مع طلحة ، وأنه اتهمز غفلة طلحة ، فرماه بسهم ، وقال لا أطلب ثأر عثمان بعد اليوم !! إن دم عثمان عند هذا .. هو كان من أشد الناس عليه !

روى ابن سعد في طبقاته ، قال : « كان مروان مع طلحة في الخيل ، فرأى فرجة في درع طلحة ، فقتله ! » .

وروى ابن حجر ، في الإصابه ، قال : لما اشتبكت الحرب ، قال مروان : وقد أمكنته فرصة في طلحة : لا أطلب بثأري بعد اليوم ، ثم رماه بسهم ، فأصاب ركبته ، فارقاً^(١) الدم حتى مات .. » ثم قال « لا يختلف العلماء الثقات في أن مروان قتل طلحة يومئذ ، وكان في حربه ! » .

وفي مروج الذهب للمسعودي : أن مروان قال حين رأى طلحة : ما أبالي رميت هاهنا أم هاهنا ، فرماه في أكحله^(٢) ، فقتله ! » .

وروى ابن سعد : أن طلحة حين أصابه السهم ، عجب أن يصاب بهذا السهم الشارد ، فقال : « والله ما بلغت إلينا سهامهم ! » .

وفي تاريخ ابن أعثم : أن مروان قال لغلामه : إني لأعجب من طلحة .. فإنه لم يكن أشد منه على عثمان ، فقد كان يمرض أعداءه ، ويسمى حثيثاً في إراقة دمه ، واليوم جاء يطلب ثأره ؟ أريد أن أرميه ، وأربح المسلمين من شره !! فلو تقدمت ، وحجبتني كي لا أرى ، فيعلم اني رميته ، فأنت حراً ففعل !

« فأخرج مروان سهماً مسموماً من كنفاته ، فرماه فشك قدمه إلى ركابه !

(١) رقا الدم : سكن ، وانقطع .

(٢) الأكحل : عرق . في اليد ، أو عرق الحياة (قاموس)

فلما أصيب طلحة ، قال لعلامه : خذني ! فقال الغلام : لا أرى هاهنا ظلاً !
فقال طلحة : سبحان الله ! لا أرى في قریش اليوم أضئع مني دماً ، ولا أدرى
من رمانى ، « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

وفي شرح نهج البلاغة : لما أدبر طلحة وهو جريح يرتاد مكاناً ينزله ،
جعل يقول لمن يمرّ به من أصحاب عليّ : أنا طلحة ! من يحيرني ؟ يكررها !
وكان الحسن البصري إذا ذكر ذلك يقول : لقد كان في جوار عريض !
ويروى ابن عبد ربه ، والذهبي ، وابن عبد البر : أن طلحة كان أول
قتيل^(١) !

ولكن ابن قتيبة ، يروى غير هذا ، ويذكر أن طلحة قُتل بعد التحام
القتال ، وفي اليوم السابع من المعركة .. ولا خلاف في أن قتله هو مروان
ابن الحكم ..

التحام القتال :

يقول ابن قتيبة :

« ذكروا أن عليّاً نادى طلحة بعد انصراف الزبير ، فقال له : يا أبا محمد
ما جاء بك ؟ قال : أطلب دم عثمان !
قال عليّ : قتل الله من قَتَلَه . !

قال طلحة : نخلّ بيننا وبين من قتل عثمان ! .. واعتزل الأمر ، فجمع له
شورى بين المسلمين ، فإن رضوا بك دخلت فيمادخل فيه الناس ، وإن رضوا
غيرك كنت رجلاً من المسلمين !

(١) انظر في هذا كتاب : أحاديث أم المؤمنين عائشة .

قال عليّ : ألم تبايعني يا أبا محمد . . طائماً ، غير مُكرّه ؟ فما كنت
لأترك بيعتي !

قال طلحة : بايعتك والسيف على عني !

قال : ألم تعلم أني ما أكرهت أحداً على البيعة ؟ ولو كنتُ مكرهاً أحداً
لأكرهت سعداً ، وابن عمر ، ومحمد بن مسلمة . . أبوا البيعة ، واعتزلوا
فتركهم !

قال طلحة : كنا في الشورى ستة ، فمات اثنان ^(١) ، وقد كرهناك ، ونحن
ثلاثة ^(٢) .

قال عليّ : إنما لكم ألا ترضوا قبل الرضا ، وقبل البيعة . . وأما الآن
فليس لكم غير ما رضيتما به . إلا أن تخرجا مما بويعت عليه بحديث ، فإن كنتُ
أحدثت حديثاً فسموه لي . . إنكم أخرجتم أمكم عائشة ، وتركتم نساءكم ،
فهذا أعظم الحديث منكم . . أَرْضِي رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَهْتَكُوا سِتْرًا ضَرَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا ،
وتخرجا هامة ؟

فقال طلحة : إنما جاءت للإصلاح .

قال عليّ : هي لعمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوج ! أيها الشيخ . .
اقبل النصيح ، وارض بالتوبة مع العار ، قبل أن يكون العار والنار ^(٣) .

* * *

إنه لم يقدّ مجال للكلام بعد هذا ، وليس إلا السياف ، يقول الكلمة
الحاسمة !

وقد كان !

(١) الاثنان هما : عثمان وعبد الرحمن بن عوف .

(٢) الثلاثة هم : طلحة ، والزبير ، وسعد .

(٣) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٧٦ .

فخرج عليّ ، وقد تعمم بعمامة سوداء ، لابساً درع رسول الله ، راكباً بغلة كانت لرسول الله ، ثم قال : أين ابني محمداً ؟ فقال : ها أنذا ! فقال : أيّ بني .. خذ الراية ! فابتدر الحسن والحسين ليأخذاها ، فأخذاها عنهما ، وكان يؤخرهما شفقةً عليهما !

وخرجت أم المؤمنين راحبة الجبل الذي اشتراه لها يعلى بن أمية ، وكان اسمه عسكر ، وكان الجبل هو لواء أهل البصرة ، لم يكن لواء غيره ! وتضعضع الناس حين سمعوا علياً تحرك !!

فبيناهم كذلك سمعوا صوتاً .. فقال علي : ما هذا ؟ فقيل : عائشة تلعن قتلة عثمان !

فقال عليّ ورفع بصره إلى السماء : لعن الله قتلة عثمان في السهل والجبل . وعبأ عليّ الناس أثلاثاً ، فجعل مضر قلب العسكر ، واليمن ميمته ، وربيعه ميسرته .

وعُيّ أهل البصرة مثل ذلك .. مضر في القلب ، وفي اليمين اليمن ، وفي اليسرة ربيعة .

وتفاجز القوم ، والتحم القتال ، عنيفاً مريراً .. فمالت جبهة عليّ ، وتراجع أصحابه . . .

وأين عليّ ؟

إنه لن يهزم جيش ، وعليّ هو قائده !

لقد كان أمير المؤمنين - كرم الله وجهه - إلى هذه اللحظة ، يشهد الحرب ، ولا يباشرها . إنه في معركة ضارية ، متضرمة في كيانه . . . !

وإنه لن يذول لما يرى بعينه ، مما لا يكاد يصدق !

إخوة يريق بمضهم دم بعض !!

وإخوان في الله ، ألف بينهم الإسلام ، وجمعهم الولاء لله ولرسوله ..
وكتائب أعدّها الرسول وعبأها لنشر دين الله وإعلاء كلمته .

ثم هكذا تُعيد سيوفها في صدورها ، وتهدم بنيانها بأيديها . وتطفى نور الله
بأفواهها ؟

لقد كان عليّ في شغل بهذا عن كل شيء . وفي ذهول عن أي شيء !!
عن حنّية بن جُهين ، قال :

« نظرت إلى عليّ ، يخفق نعاساً . فقلت له : تا الله ما رأيتُ كالיום قط ! إن
يأزائنا لمائة ألف سيف ، وقد هُزمت ميممتك وميسرتك ، وأنت تخفق نعاساً ؟
قال : فانتبه فرفع يديه ، وقال :

« اللهم إنك تعلم أي ما كتبتُ في عثمان سواداً في بياض ، وأن الزبير
وطليحة ، ألّبا ، وأجلبا عليّ الناس .. اللهم أولانا بدم عثمان فخذ اليوم !

ثم تقدم .. فنظر إلى أصحابه يُهزمون ، ويقتلون .. فلما رأى ذلك صاح
بأبنة محمد ، ومعه الراية : أن اقتحم ، فأبطأ وثبت . فأتى عليّ من خلفه ،
فضربه بين كتفيه ، وأخذ الراية منه ، ثم حمل ، فدخل عسكرهم ، وإن اليمميتين
واليسرتين تضطربان ، في إحداها عمار بن ياسر ، وفي الأخرى عبد الله بن
عباس ، ومحمد بن أبي بكر ..

فشقّ عليّ في عسكر القوم ، يطعن ويقتل .. ثم خرج وهو يقول : الماء .
الماء . فأناه رجل بإداوة فيها غسل .. فقال : هاتِ .. فحسا منه حسوة ، ثم
قال : إن عسلك لطائني !! قال الرجل : لعجباً منك والله يا أمير المؤمنين لعرفتك
الطائني من غيره ، في هذا اليوم ، وقد بلغت القلوب الحفاجر !! فقال له عليّ :

إنه والله يا ابن أخي ، ماملأ صدرَ عمك شيء قط ، ولا هابه شيء ا^(١)»
وروى الطبري : عن محمد بن الحنفية ، قال : « دفع إلى أبي الراية يوم
الجل ، وقال : تقدم ، فتقدمت ، حتى لم أجد متقدماً إلا على رمح !! فتناول
الراية من يدي متناولاً لا أدري من هو ، فنظرت ، فإذا أبي بين يدي .. »^(٢)
وفي رواية ابن قتيبة : أنه قال لمحمد وقد أعاد إليه الراية : « هكذا فاصنع !!
فتقدم محمد بالراية ومعه الأنصار ، حتى انتهى إلى الجل والمودج ، وهزم ما يليه !
واقتل الناس ذلك اليوم قتالا شديداً ، حتى كانت الواقعة ، والضرب على
الركب .. وحمل الأشتر الفخمي وهو يريد عائشة ، فلقية عبد الله بن الزبير ،
فضربه الأشتر ، واعتنقه عبد الله فصرعه ، وقعد على صدره ، ثم نادى عبد الله :
« اقتلوني ومالك ! » فلم يدر الناس من مالك ، فانقلت الأشتر منه ا
و « مالك » هو اسم الأشتر ، ويروى أن ابن الزبير كان يقول حين اعتنق
الأشتر وصرعه :

اقتلوني ومالك ا واقتلوا مالكاً معي ا

وروى الطبري عن ابن الزبير قال : مشيت يوم الجل ، وبني سبع وثلاثون
جراحة ، من ضربة وطعنة ، وما رأيت مثل يوم الجل قط ، لم ينهزم منا أحد ،
وما نحن إلا كالجبل الأسود ، وما يأخذ بنظام الجل أحد إلا قُتل ، فجئت
فأخذت الخطام .

« فقالت عائشة : من أنت ؟ »

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٧٨ .

(٢) الطبري جزء ٥ ص ٢٠٧ .

قلت : عبد الله الزبير .

قلت : وائكل أسماء !

« ومرّ بي الأشتر ، فمرفته ، فعاتفته ، فسقطنا جميعاً ، وناديت :

« اقتلوني ومالكاً ! »

« فجاءنا ناس منا ومنهم ، فقاتلوا عنا حتى تهاجزنا ، وضاع الخطام ! »

وفي رواية أخرى للطبري أيضاً : عن علقمة قال :

« قلت للأشتر : كنت كارهاً لقتل عثمان رضي الله عنه ، فما أخرجك

بالبصرة ؟

« قال : إن هؤلاء بايعوه ، ثم نكثوا ، وكان ابن الزبير هو الذي أكره

عائشة على الخروج ، فكنت أدعو الله عز وجل أن ألقاه ، فلقينى كفةً لكفةً^(١)

فما رضيت بشدة ساعدي ، حتى قتت في الركاب ، فضربته على رأسه فصرعته .

قلنا : فهو القاتل : اقتلوني ومالكاً ؟

قال : لا ، ما تركته وفي نفسي منه شيء . . . ذاك عبد الرحمن بن عتاب بن

أسيد . . . لقينى فاختلفنا ضربتين ، فصرعنى ، وصرعته ، فجعل يقول :

« اقتلوني ومالكاً »

« ولا يعلمون من مالك ، ولو علموا لقتلوني ! »

وفي رواية أخرى للطبري : « فجرح بن الزبير ، فألقى نفسه في الجرحى ،

فاستخرج ، فبرأ » .

وفي رواية العقد الفريد عن ابن الزبير قال : ثم جرّ - أى الأشتر - برجلي ،

فألقاني بالخندق ، وقال : لولا قربك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع

فيك عضو إلى آخره » .

(١) أى كفاحاً .

الزبير ، وطلحة . رأسا هذا الأمر ، قد قتلا !

وعبد الله بن الزبير .. مُشَخَّن بالجراح ، أقرب للموت منه للحياة !
ومحمد بن طلحة .. غارق في بحار المعركة .. لا يدري أحد حتى هو أو ميت !
إن محمد بن طلحة كان متكرِّهاً للحرب ، متأنماً من خوض غمار هذه الفتنة ،
ولو خُلِّيَ ورأيه لاعتزل الأمر كله ، كما فعل ابن عمر !

ولكن طلحة - رضى الله عنه - كان يدفع ابنه محمداً دفماً إلى أن يكون
معه حيث يكون ، ويشده شداً إليه ، وبريه المثل في متابعة الابن لأبيه ، بما كان
من عبد الله بن الزبير وولائه لأبيه ، وطاعته له ، ومتابعته إياه في كل خطوة
يخطوها في هذا الموقف !

وقد ذكرنا من قبل موقفاً كان بين طلحة وابنه محمداً ، حين سئل محمد عن
قتلة عثمان ، فشهد على أبيه بأن عليه ثلث التبعة في دم الخليفة المقتول ، وأن طلحة
حين علم برأيه هذا ، لامه لوماً شديداً ، وقال له : « يا محمد ! عنا قولك إنى قاتل
عثمان ! كذلك تشهد على أبيك ؟ كن كعبد الله بن الزبير . فوالله ما أنت بخير
منه ، ولا أبوك بدون أبيه .. كفّ عن قولك ، وإلا فارجم ، فإن نُصرتك
نصرة رجل واحد ، وفسادك فساد عامة » فقال محمد : ما قلت إلا حقاً ،
ولن أعود ! » !

ولكن الأمر مختلف أشد الاختلاف .. بين طلحة وابنه محمد من جهة ،
وبين الزبير وابنه عبد الله من جهة أخرى ..

كان طلحة ثورة عاصفة على عليّ .. لا يشنيه شيء في طريقه إلى النبل من
عليّ ، حتى يُزِيلَه عن مكانه ، من الخلافة .. على حين كان ابنه محمد متحرجاً
متكرِّهاً لهذا الموقف الذي يقفه أبوه .. وكان الزبير متوقفاً متردداً في هذه

الأحداث ، على حين كان ابنه عبد الله مندفعاً متحمساً ، يدفع والده بكلمات يديه إلى مساندة طلحة وشداً أزروه !

إنه لولا طلحة لما كان محمد بن طلحة في أصحاب الجمل ، ولا في المقاتلين في تلك الموقعة !

وإنه لولا عبد الله بن الزبير لكان موقف الزبير غير هذا الموقف الذي جمعه إلى طلحة !

وإنه لولا عبد الله لما كانت أم المؤمنين عائشة ركبت هذا المركب الوعر ! كانت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - نحب عبد الله بن الزبير ، حب الابن ، إذ كانت حُرمت الولد ، فوجدت فيه حين ولدته أختها أسماء ، ولداً يغذى عاطفة الأمومة ، ويسدّ بعض هذا الفراغ من قلبها ، فتعلقت به ، وأنزلته منزلة الابن منها .

قال هشام بن عروة : ما سمعتُ أم المؤمنين ، عائشة ، تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها له ، وقد أعطت للذى بشرها بسلامته من القتل عشرة آلاف درهم ، ثم سجدت شكراً لله تعالى .. ولما اعتلت دخل عليها بنو أختها وفيهم عبد الله ، فبكى ، فرفعت رأسها تنظر إلى وجهه ، فأبهت لبكائه ، فبكت ، ثم قالت : « ما أحقنى منك بابننى ما أرى ! فما أعلم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أبوى أحدنا أنزل عندى منزلتك ، وأوصت له بحجرتها ! »^(١)

وقد نشأ عبد الله على كره بنى هاشم ، حتى استطاع أن يغير أباه على علي .. وحتى لقد كان علي يقول : « مازال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى نشأ ابنه

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٦٦ .

(٢) شرح نهج البلاغة .. جزء ٤ ص ٣٨٤ .

المشثوم ، عبد الله . »^(١)

قَاتَلَ عبد الله بن الزبير في معركة الجمل ، حتى أنخفته الجراح ، وأفلت من
يده خِطَامُ الجمل !

أما محمد بن طلحة ، فلا يدري أحد أين هو في هذا القتال ، ولا كيف
كان بلاؤه فيه ، واسكنه وجد قتيلا في قتلى المعركة !

رَوَى أن عليّ بن أبي طالب مرّ بالقتلى بعد انتهاء المعركة ، فرأى محمد بن
طلحة صريعا في القتلى ، وكان يسمي السجّاد لِمَا بين عينيه من أثر السجود ، فقال :
« رحمك الله يا محمد . . لقد كفت في العبادة مجتهدا ، آتاء الليل قواما ، وفي
الحرّور صواما . . ثم نظر إلى من حوله ، فقال : هذا رجل قتله برّ أبيه ! »^(٢)

الرأية للمشثومة :

لم يكن لأصحاب الجمل ، بعد اعتزال الزبير ، ومقتل طلحة ، ومحمد بن طلحة ،
وإصابة ابن الزبير - لم يكن لهم دعوة يقاتلون عليها ، أو رأى يقومون له !
لقد قُتل الرجلان اللذان كان يفازعان عليّا بالخلافة . . وسكنت النوازع
التي كانت تدفع بالمختلفين إلى هذا الخلاف .

فليس دم عثمان - كما قلنا - هو الذي حمل طلحة والزبير على أن يخرجوا
من بيعة عليّ ، وبجمعا الجموع للثورة عليه ، والمناداة بخلفه ، أو قتاله . . فما كان
هذا الدم إلّا رأية يجتمع المجتمعون عليها ، ويقاتلون تحتها !

كان خلع عليّ ، وإعادة الأمر شورى ، هو الشرط البارز في كل موقف

(١) انظر أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ١٩٥ .

(٢) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٨٠ .

« فقالت : ولم ؟ لا أبالك !

« فقال : كنت تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة .. ونجمك أكبر
القشيع على عليّ ؟ ^(١) .. إن قتلها ليس تشريعاً على عليّ وحده ، ولكنه تشريع على
المسلمين والإسلام جميعاً !

إن هذا الموقف الذي اتخذته أم المؤمنين من عثمان أولاً ، ومن عليّ ثانياً ،
لم يكن مطلوباً منها ، بل ولا مقبولاً !

فإنه ما كان لها - لكي تصلح بين المسلمين - أن تعرض نفسها لبعض
ما تعرضت له ، ولا أن تكون جبهة من جبهات الخلاف بين المسلمين !
إنها أم المسلمين جميعاً ، فإما أن تصلح بالحسن ، وهي في سترها ، وفي
مقامها وتصونها ، وإما أن تدع .. والأمر لله وحده !

واقدر كان لها في فاطمة بنت محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ورضى عنها ، المثل
فيما ينبغي أن يكون منها ، حين تحملها الظروف على موقف تواجه به الناس !
ففي الخلاف الذي كان بين زوجها عليّ ، وبين أبي بكر حين يبيع له
بالخلافة كانت - رضى الله عنها - من رأى عليّ في أحقته بالبيعة .. فلم يحملها
ذلك على أن تدعو الناس إليها ، وتضمهم إلى جبهتها ، ولو فعلت لوجدت من
المسلمين استجابة عامة أو شبه عامة .. إذ هي البقية الباقية من رسول الله ، وهي
ميراث النبي للمسلمين جميعاً . !

ولكنها لم تفعل شيئاً من هذا ، ولم تزد على أن سألت بعض الأنصار أن
يفسروا عليها ، وأن يأخذوا له بحقه فيبايعوه .. فلما قالوا لها : لقد سبقت
منا بيعة لأبي بكر .. سكنت ، وسكنت !

وفي خلافتها مع أبي بكر ، على ميراثها من النبي ، لم يكن بينها وبينه أكثر من سؤال وجواب ، ثم عتبّ وعتاب .. ولم تزد !

وأغلقت بيتها إلى أن لحقت بربّها !

وفاطمة ، رضى الله عنها .. ليست أمّا من أمّهات المؤمنين .. وإن تكن بنت النبي ، صلوات الله وسلامه عليه !

ندع هذا ... !

فقد اشتطّ بنا الطريق إلى أكثر مما ينبغي ! وجرى القلم إلى أبعد مما نريد ! ونقول إن خلوّ ميدان المعركة من أصحابها : طلحة ، والزبير ، وعبد الله بن طلحة ، وعبد الله بن الزبير - كان جديراً به أن ينهى هذه الحرب الدائرة ، وأن يحمل أم المؤمنين - رضى الله عنها - على أن تدعو الناس إلى إلقاء السلاح ، والمسالمة .. فإنه ليس وراء هذه الحرب شيء تنتظره ، إلا أن يكون قتل عليّ ، ولا شيء بعده !

فلو أنها انتصرت اليوم في هذه الحرب ، وقتل عليّ ، فلن يبايع الناس لعبد الله ابن الزبير ، إذ مازال واحداً من أصحاب الشورى حياً ، وهو سعد بن أبي وقاص الذي لا يمكن أن يختلف الناس عليه ، بعد أن ذهب أصحاب الشورى جميعاً !

وإذن ، فالحرب بعد الآن ، ليست للمطالبة بدم عثمان .. بعد أن ارتوت الأرض بأنهار الدماء ! وهي ليست في سبيل الخلافة .. فإن اتزاعها من يد عليّ ، على أية صورة ، لا يجعلها في يد ابن الزبير ، ولا في يد أحد من أصحاب الجمل ، بل إن رجلها هو هذا الرجل الذي اعتزل الفتنة من أولها .. سعد بن أبي وقاص !

وماذا نقول ؟

للصالح ، وبين يدي كل دعوة للسلّم ، وكان دم عثمان يُذكر فيما يذكر من شروط ، وقد يُنسى في كثير من الأحيان فلا يلتفت إليه أحد !

والسيدة عائشة رضى الله عنها .. كان سخطها على عليّ ، وبغضها له هو المحرك الأول لموقفها منه ، ولثورتها عليه !

ولولا أنها كانت تحمل لعلّ هذه الكراهية لما ألقت بنفسها في هذا الموقف الذى لم يكن من شأن امرأة أن تفقه .. ديانةً ، أو عصبية !

فما عَرَف العرب امرأة تقود معركة كتلك المعركة .. وتدبّر لها ، وتتولّى توجيه سيرها ، ورسم خطوطها .. والرجال كثير ، والأبطال لم يذهبوا بعد !

وما عَرَف في الإسلام مكان للنساء في ميدان القتال ، ولا صوت مسموع لمن في شئون الحرب ، وما استنصر الإسلام في أخرج أوقاته ، وفي قلة أعداد أتباعه .. ما استنصر بالنساء ، ولا دعاهن للجهاد ، فرضاً أو ندباً .. بل لقد كره لمن أن يشهدن مواقف الحرب ، وأن يتعرضن لما يتعرض له الرجال فيها ، من كشف عورات ، وتمزيق أشلاء !

فكيف بأزواج الرسول ، وأمهات المؤمنين ؟

لقد رفع الإسلام قدرهن فوق النساء جميعاً ، وأوجب لمن على المسلمين حرمة الأمهات ، وإعرازين ، وبرهن ! وضرب عليهن حجاباً أشبه بالحرس القائم عليهن ، لدفع كل آفة ، وردّ كل شائبة ، تحوم حول هذا الحمى الطهور .

وفي هذا يقول الله تعالى : « يا نساء النبي .. لستنَّ كأحدٍ من الناس .. إن اتفقتنَّ فلا تخضعن بالقول ، فيطعَ الذى فى قلبه مرض ، وقلنَّ قولاً معروفًا ، وقرننَّ في بيوتكنَّ ، ولا تبرزنَّ تبرّجَ الجاهلية الأولى .. وأقمنَّ الصلاة ، وآتينَّ الزكاة ، وأطعنَّ الله ورسوله .. إنما يريدُ الله ليذهبَ عنكم

الرجس ، أهل البيت وَيُطَهَّرَ كَمْ تَطْهِيرا ^(١)»

ولأمّ المؤمنين عائشة المـكانُ الأول من هذا الأمر السماوي ، لمكانها الخاصة من رسول الله ، ولما لها في قلوب المؤمنين - من أجل تلك المكانة - من إعزاز وإكرام !

فكيف - والأمر كذلك - بطالبتها الإسلام ، أو يحملها موقف من مواقف المسلمين ، أن تخرج هذا المخرج ، وأن تركب هذا المركب ، وأن تتعرض لسهام المعركة ، وسيوفها ، وحرايبها . . ؟؟

لقد كان من المحتمل كثيراً أن يصيبها ما أصاب الألوف التي كانت تقاتل حولها ، وتتلقى الموت دونها . . كان يمكن أن تكون زوج رسول الله ، وأم المؤمنين ، في القتلى !

وكان يمكن أكثر من ذلك . . أن تتمزق أشلاؤها وتفتأ أعضاءها !

فأى شناعة ، بل وأى هول بعد هذا ؟

ولقد جُرحت أم المؤمنين فعلا ، فأصابها سهم طائش !

وكانت بمعرض القتل في كل لحظة من لحظات هذه الحرب ، وفي كل ساعة من ساعاتها !

بل ربّما وقع ذلك في نفس بعض الناس يومذاك ، وانتظار تلك الساعة التي تنكشف عن أم المؤمنين قتيلا بين القتلى !

روى المبرّد في كتابه « الكامل » هذا الخبر :

« قال عمرو بن العاص ، لعائشة رَحِمَها اللهُ : لَوَدِدْتُ أَنَّكَ كُنْتَ قُتِلْتَ

يوم الجمل !!

وقال الطبرى : ونادى على : أن اعقروا الجمل ، فإنه إن عقر تفرقوا . .
فضربه رجل ، فسقط ، فاسمع صوت أشد من عيج الجمل !
ولابن أبى الحديد ، عن أبى مخنف : « فلما رأى على أن الموت عند
الجمل ، وأنه ما دام قائماً فالجرب لا تطفأ . وضع سيفه على عاتقه ، وعطف
نحوه ، وأمر أصحابه بذلك ، ومشى نحوه ، والخطام مع بنى ضبة ، فأقتلوا
قتالاً شديداً ، واستحزّ القتل فى بنى ضبة ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وخلص
على فى جماعة من النخع وهمدان ، إلى الجمل ، وقال لرجل من النخع اسمه
« بجير » : دونك الجمل يا بجير ، فضرب عجز الجمل بسيفه فوق عنقه ، وضرب
بجرائنه الأرض ، وعج عجيماً لم يسمع بأشده . »

« فها هو إلا أن صرع الجمل ، حتى فزت الرجال ، كما بطير الجراد فى
الريح الشديدة المبوب . . فنادى على : اقطعوا أنساع المودج .
» واحتملت عائشة بهودجها .

فأمر على بالجمل أن يحرق ، ثم يذرّ فى الريح ، وقال : لعنه الله من دابة . .
فما أشبهه بعجل بنى إسرائيل ! .

ثم قرأ : « وانظر إلى إلهك الذى ظالت عليه عاكفاً ، لحرقتنه ،
ثم لنسفنته فى اليمّ نسفاً^(١) » .

وقد أحصى المحصون عدة قتلى هذه الحرب من المسلمين ، فبلغ بها
بعضهم أكثر من ثلاثين ألفاً ، بينما وقف بها بعضهم عند ستة آلاف !
فالطبرى يروى فى بعض رواياته أن عدد القتلى من الفريقين كانوا
أكثر من ستة آلاف .

وابن أعثم يروى أن قتل أصحاب علي كانوا سبعمائة ، أما أصحاب عائشة فكانوا تسعة آلاف .

ومصاحب العقد الفريد يروى أن عدد قتل أصحاب عائشة عشرون ألفاً ، وأن من قتل من أصحاب علي كانوا خمسمائة^(١) .

وأياً كان الخلاف في هذه المرويات ، فإن دماء غزيرة جرت في هذا الالتحام ، وأرواحاً كثيرة طيبة أزهقت في تلك المعركة ! .

وما نريد أن نلقى تبعه كل هذا على أم المؤمنين — رضى الله عنها — . فقد كانت هناك دوافع جانبية كثيرة ، تحرك هذه الحرب ، وتذكرى ضرامها . . . ولكن الذى لا شك فيه أن زمام الموقف كله كان في يد السيدة عائشة . . . وأنها لو أشارت بيدها إلى الجيش المجتمع حولها إشارة سلام وانصراف لما بقي أحد في أرض المعركة ! !

ولكن ثبات أم المؤمنين في الميدان ووقوفها في أرض المعركة ، جعل الذين قاتلوا معها لا يقاتلون إلا دفاعاً عنها ، وإلا دفعاً لما قد يعرض لها من سوء ! ولهذا فقد استماتوا في حمايتها ، وأقاموا حول الجمل بناء من أجسادهم ، حتى لا تنفذ السهام ، أو السيوف ، أو الرماح إليها ! .

إنهم يحامون عن الشرف ، ويذودون عن الكرامة . . شرف امرأة ، وكرامة امرأة . . فلو لم يدفعوا عنها — ديانةً — كسلمين ، يرعون أمومتها ، ويحفظون حرمة رسول الله فيها ، ، لدافعوا عنها — حميةً — كعرب ، يحمون الجوار ، ويحفظون الذمار !

سكون العاصفة :

سقط الجمل . . فكان سقوطه أشبه بعاصفة هوجاء ، ما تذر من شيء أنت

نقول الواقع المؤلم ، والحق المرّ ! نقوله على مضض ، وفي أسى ، وحزن !
ولسكن مالنا ولهذا ، وقد عافانا الله من أن نقول أو ننقول .. ؟

وحسبنا أن نروي ما يتحدث به التاريخ !

بقيت أم المؤمنين وحدها تخوض المعركة وتقودها !

وكان جلها - عسكر - هو الراية التي يقاتل الناس تحتها ، ويتناقشون حولها ..

أخذ بخطام الجمل كعب بن سور الأزدي ، وفي عنقه مصحف ، وفي يده عصا ، لأنه لم يكن له رأى في الحرب ، ولسكن عائشة رضي الله عنها ، سعت إليه ، وأخرجته من عزلته ؛ إذ كان سيد الأزدي ، نخرج ، وخرج قومه معه !

قال المبرد : فلما كان يوم الجمل .. خرج كعب بن سور مع إخوة له ، قالوا : ثلاثة ، وقالوا : أربعة . وفي عنقه مصحف ، فقتلوا جميعاً ، فجاءت أمهم حتى وقفت عليهم ، فقالت :

يا عينُ جودي بدمع سرب على فتية من خيار العرب
ما لم غير حين النفوس ، أي أميرى قريش غلب !

وأخذ الخطام عبد الرحمن بن عتاب وارتجز :

أنا ابن عتاب وسيفي ولول^(١) والموت عند الجمل الجمل
فقطعت يده وقتل !

ثم تتابع الرجال يأخذون بالخطام ويقتلون ، حتى قتل سبعون من قريش^(٢) !
وجاءت بنو ناجية ، فأخذوا بخطام الجمل ، ولم يكن يأخذ بخطام الجمل

(١) ولول : هو اسم سيفه .

(٢) الطبري جزء ٥ ص ٢٠٤ .

أحد إلا سألت عائشة : من هذا ؟ فسألت عنهم ، فقيل : بنو ناجية ،
فقات : صبراً يا بنى ناجية ، فإني أعرف فيكم شمائل قريش ! ! فقتلوا جميعاً ! .
ثم أخذ بنو ضبة بخطام الجمل . وكانوا يرتجزون :

نحن بنو ضبة لا نفرء حق نرى جاجماً نحرء

يخر منها الملقى المحمرء

يا أمنا يازوجة النبي

يا زوجة المبارك المهدي

وما زالوا يقتلون ، واحداً واحداً ، حتى قُتل أربعون رجلاً !

فأخذت الأزد بخطام الجمل . .

فقات عائشة : من أنتم ؟

قالوا : الأزد ؟

قالت : فإنما يصبر الأحرار ! . . ما زلت أرى النصر مع بنى ضبة ، فلما
فقدتهم أنكرته ! ! فخرضت بذلك الأزد ، فقاتلوا قتلاً شديداً ^(١) .

قال الواقدي : إنهم كانوا حول الجمل ، يحامون عنه ، ولقد كانت الرؤوس
تنذر عن الكواهل ، والأيدي تطيح من المعاصم ، وأفتاب البطون تندلق من
الأجواف ، وهم حول الجمل كالجبال الثابتة ، لا تتحلحل ولا تنزل ، حتى
لقد صرخ عليّ بأعلى صوته : ويلكم ! ! اعقروا الجمل ، فإنه شيطان !
اعقروه وإلا ففيت العرب ! . لا يزال السيف قائماً راكماء ، حتى بهوى هذا
البعير إلى الأرض ^(٢) ! .

(١) نهج البلاغة جزء : ٢ ص ٨١ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد جزء ١ ص ٨٤ .

وقد ذكر صاحب الكنز هذا الموقف مفصلاً ، فقال :
قال عليّ لأصحابه : « ولا يُستحان فرج ولا مال !
« وانظروا ما حَضَرَ به الحرب ^(١) من آنية ، فاقبضوه ، وما كان سوى
ذلك فهو لورثته !

ثم قال : ولا تَطْلُبَنَّ عبداً خارجاً من العسكر . . وما كان من دابة أو
سلاح فهو لكم . وليس لكم أمّ ولد ^(٢) ، والمواريث على فريضة الله .
« وأى امرأة قتل زوجها فلتعتدّ أربعة أشهر وعشراً .

قالوا يا أمير المؤمنين : تحلّ لنا دماؤهم ، ولا تحلّ لنا نساؤهم ؟
فقال : كذلك السيرة في أهل القبلة ! نحن عليهم بشهادة ألا إله إلا الله ،
ونورث الأبناء من الآباء ^(٣) .

قالوا : وخطب عليّ في البصرة بعد حرب الجمل . وفيما هو يخطب ، قام
إليه عمار بن ياسر ، فقال : يا أمير المؤمنين . . إن الناس يذكرون الفىء ،
ويزعمون أن من قاتلنا فهو وماله وأهله ، وولده ، فىء لنا ! .

فقام رجل من بكر بن وائل ، يدعى عباد بن قيس ، فقال : يا أمير المؤمنين . .
والله ما قسمت بالسوية ، ولا عدلت في الرعية ؟ .

فقال عليّ : ولم ؟ ويحك !

قال : لأنك قسمت مافى العسكر ، وتركت الأموال والساء والذرية !

(١) أى ما حضر به المحارب الحرب .

(٢) أى لا يحمل رق امرأة من نساء قتلى هذه الحرب .

(٣) أحاديث أم المؤمنين عائشة : ص ١٨١ (الكنز : جزء ٦ ص ٨٣) .

فقال عليّ : يا أخا بكر.. إنك امرؤ ضعيف الرأي ، أو ما علمت أنا
لأناخذ الصغير بذنب الكبير ؟ وأن الأموال كانت لهم قبل الفُرقة ، وتزوجوا
على رِشدة ، ورلدوا على الفطرة ؟
« إنما لكم ما حوى عسكرهم !

« وما كان في دورهم فهو ميراث لذريتهم ، فإن عَدَا علينا أحد منهم أخذناه بذنبه ،
وإن كفّ عَنّا لم نحمل عليه ذنب غيره ، يا أخا بكر !

« لقد حكمتُ فيهم بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهل مكة .
قسم ما حوى العسكر ، ولم يعرض لما سوى ذلك ، وإنما اتبعت أثره ،
حَذَرُ النعل بالنعل ! ... » .

قالوا : ثم قام إليه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين . . أخبرنا . . علامَ
قاتلتَ طلحة والزبير ؟ .

قال : قاتلتهم على نقضهم بيعتي ، وقتلهم شيعتي من المؤمنين : حكيمَ
ابن جبلة العبدي ، من عبد القيس ، والسبايحة ، والأساورة ، بلا حق
استوجبوه منهما ، ولا كان ذلك لهما دون الإمام ، ولو أنهما فعلا ذلك
بأبي بكر وعمر لقاتلتهما . . ولقد علم من هاهنا من أصحاب النبي صلى الله عليه
وسلم ، أن أبا بكر وعمر لم يرضيا بمن امتنع من بيعة أبي بكر حتى بايع ، وهو
كاره ، ولم يكونوا بايعوه بعد الأنصار ! فما بالي وقد بايعاني طائفتان غير
مكرهين ؟ ولكنهما طعما مني في ولاية البصرة واليمن ، فلما لم أولهما ،
وجاءهما الذي غلب عليهما من حبهما للدنيا ، وحرصهما عليها ، خِفْتُ أن
يتخذوا عباد الله خَوَلا^(٢) ، ومال المسلمين لأنفسهما مَغْنَمًا ! . .

(١) الكنز جزء ٨ ص ٢١٥ (أحاديث أم المؤمنين عائشة)

(٢) أي خدما .

عليه إلا جعلته كالرميم ، حتى إذا دارت دورتها المجدونة ، خرّت كما تخرّ الصخرة من قمة الجبل ، فترقد تحت قدميه ذليلة محطمة !
ونادى منادى عليّ :

« أَلَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ !

« وَأَلَا يُتْبَعُ مَوَلًّا !

« وَأَلَا يُطْعَمُ مُذْبِرٌ . .

« وَلَا يُسْتَخْلَنُ فَرَجٌ وَلَا مَالٌ !

إنها ليست حرباً بين المسلمين وأعداء المسلمين . . هكذا كان يراها الإمام عليّ .
وإنما هي عملية تأديب للجماعة خارجة على سلطان الخلافة . . فإن جاءت إلى أمر الله ، وأتت السّلم ، فلا سلطان للخليفة ، ولا لجيش الخليفة عليها !

وكان ممن وقع لأيدي المسلمين من قادة أصحاب الجمل . . السيدة عائشة ،
ومروان بن الحكم ، وعمر بن عثمان ، وموسى بن طلحة ، وعمر بن سعيد
ابن العاص .

« فقال عمار بن ياسر : يا أمير المؤمنين . اقتل هؤلاء الأسرى !

« فقال عليّ : لا أقتل أسير أهل القبلة ، إذا رجع ونزع !

« ثم دعا عليّ بموسى بن طلحة . .

« فقال الناس : هذا أول قتيل يُقتل !

فلما جرى به ، قال : تبائع ، وتدخل فيما دخل فيه الناس ؟

قال : نعم !

فبائع ، وبائع الجميع ، وخلى سبيلهم^(١) .

ومرة أخرى نقول : إن علياً - كرم الله وجهه - لم يكن ينظر إلى هذا الخلاف الذى كان بينه وبين أصحاب الجمل، إلا على أنه خلاف بين جماعتين مسلمتين بنت إحداهما على الأخرى .. فإذا هو ظهر على هؤلاء المخالفين ، لم يكن له أن يستحلّ منهم شيئاً ، ووقف بهم عند قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله ، وعرضه » .

وتلقى على من أصحابه هذا السؤال ، بَرْدٌ عليه من كل فم : مالنا فى هؤلاء الناس ؟

فكان جوابه :

« لكم ما فى عسكرم ..

« وعلى نساءهم العِدَّة ^(١) .

« وما كان لهم من مال فى أهلهم فهو ميراث على فرائض الله .

فقال الناس : يا أمير المؤمنين .. كيف تحلّ لنا أموالهم ^(٢) ، ولا تحمل لنا

نساؤهم ، ولا أبناؤهم ؟

فقال : لا يحل ذلك لكم !

فلما أكتروا عليه ، قال : اقتربوا ، هاتوا بسهامكم .. أياكم يأخذ أمكم

عائشة فى سهمه ؟

فقالوا : نستغفر الله !

فقال : وأنا استغفر الله ^(٣) .

(١) يقصد نساء القتلى .

(٢) أى الأموال التى وقعت لأيديهم فى ميدان المعركة :

(٣) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٧٩ .

قالت : بأبي أنت وأمي . . الحمد لله الذي عافاك !
فقال محمد : يقول لك أمير المؤمنين : هل أصابك شيء ؟
قالت : ما أصابني شيء ، إلا سهم لم يضرنى !
فجاء عليّ حتى وقف عليها ، فضرب المودج بقضيب ، وقال :
يا حيراء . . رسول الله أمرك أن تقرّسى في بيتك . . والله ما أنصفك
الذين صانوا عقائلهم وأبرزوك ! »

قالوا : وجهزها عليّ ، وبعث معها أربعين امرأة ، وقبل سبعين ، حتى
قدمت المدينة .

وروى صاحب الإمامة والسياسة : أن محمد بن أبي بكر : دخل على
أخته عائشة ، فقال لها : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« عليّ مع الحق ، والحق مع عليّ » ؟ ثم خرجت تقاتلينه بدم عثمان ؟ !

قال : ثم دخل عليها « عليّ » فسلم وقال : « يا صاحبة المودج . . قد أمرك
الله أن تقرّسى في بيتك .. ثم خرجت تقاتلين ؟ أترحلين ؟ قالت : أرنحل !
فبعث معها علي رضي الله عنه أربعين امرأة ، وأمرهن أن يلبسن
المائم ، ويتقلدن السيوف ، وأن يكنّ من الذين يلبسها ، ولا تطلع على أنهن
نساء . . فجعلت عائشة تقول في الطريق :

فعلّ الله في ابن أبي طالب ، وفعل ! بعث معي الرجال ! فلما قدمنا المدينة
وضمن المائم والسيوف ، ودخلن عليها ، فقالت : جزى الله بن أبي طالب
الجنة ! »^(١) .

(١) الإمامة والسياسة ، لابن قتيبة جزء ١ ص ٨٠ .

وفي المدينة استقرت أم المؤمنين، في ذكريات مسعدة، تطلع عليها من بيت النبوة، فتتسّم منها أنسام النبي، وتجد فيها ريح الطيب البقي، فتسعد وترضى بتلك النشوة الروحية، التي تملأ كيائها، وتملك وجودها، لا يقطع عليها تلك النشوة، ولا يرفع عن ناظرها هذه الرؤى الحبيبة المشرقة إلا ما يهب عليها من ريح تلك الفتنة، وما يتمثل لخاطرهما من صور القتال الذي دار حول الجمل، وما تساقط حول هودجها من رؤوس، وما سال من دماء!

كانت الأحداث تطرق باب أم المؤمنين بعد قتل علي وتولية معاوية، فلا تفتح لها، ولا تستمع كثيراً إليها، خشية أن يكون لها من ذلك يوم كيوم الجمل! الذي مازال يورق ليلها، وبشوه وجه نهارها! إذ ليس نمة شك في أنها استشعرت ندماً، وألماً، لما فرط منها، وودّت لو أن شيئاً مما كان لم يكن.

روى صاحب الاستيعاب، وابن أبي الحديد: أن عائشة رعدت لابن عمر من يعلمها به، إذا مرّ بها، فلما مرّ بها وعلمت به، قالت: ادعوه، فدعوه، فقالت: «يا أبا عبد الرحمن.. ما منعك أن تهاني عن مسيرى؟ قال: رأيت رجلاً قد غلب عليك! وظننت أنك لا تخالفينه»^(١)! قالت أما أنك لو نهيتني ما خرجت!!^(٢)

وروى الطبري، عن أبي جندب، قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها بالمدينة.

فقالت: من أنت؟

قلت: رجل من الأزد، أسكن الكوفة!

(١) يقصد ابن الزبير.

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ص ٣٥٤، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

لقد صفى علىّ حسابي مع الناس ، وفصل في الوقوف الذي كان بين أنصاره وبين أصحاب الجمل . . . وبأبح المتخلفون من بني أمية وغيرهم ، ممن نجوا من هذه المعركة .

أما أم المؤمنين عائشة ، فقد كان لها شأن غير هذا الشأن ! إنها لم تكن مطالبة بإظهار الولاء لعليّ ، أو مبايعته ، فما كان ذلك يُراد من النساء ، أو ينظر إليه من جهتهن ، وحسب المرأة المسلمة ، ألاّ تدعو إلى فتنة ، أو تحرض على الخروج عن الخلافة والمنازعة في سلطتها !

وأما وقد تبدد شمل القوة التي كانت تجتمع إلى أم المؤمنين ، وقُتل طلحة والزبير ، اللذان كانت ترجو أحدهما للخلافة ، فقد عاد إليها مكانها الأول ، من المسلمين جميعاً ، وأصبح لزاماً عليها أن تعود إلى بيتها ، وأن تسدل عليها الحجاب الذي كان مضروباً عليها !

روى صاحب العقد الفريد : « أن علياً - كرم الله وجهه - قال لابن عباس بعد أن انتهت المعركة ، وكان عليّ قد أنزلها بيتاً من بيوت البصرة :

« ائتِ هذه المرأة ، فلترجعْ إلى بيتها ، الذي أمرها الله أن تقرّ فيه .

قال ابن عباس : فجلّيت ، فأستأذنت عليها ، فلم تأذن لي . . . فدخلت بلا إذن ! ومددت يدي إلى وسادة في البيت ، فجلست عليها !

فقلت : أخطأت السنة مرتين ! دخلت بيتي بغير إذن ، وجلست على متاعى بغير أمرى !

فقال : نحن علمناك السنة !! والله ما هو بيتك إلا الذي أمرك الله أن تقرّ فيه ، فلم تفعل ! إن أمير المؤمنين يأمرك أن ترجعي إلى بلدك الذي خرجت منه !

قالت : رحم الله أمير المؤمنين ! ذاك عمر بن الخطاب^(١) !

قال : نعم ، وهذا أمير المؤمنين .. علي بن أبي طالب !

قالت : أبيتُ ، أبيتُ .

قال : ما كان إباؤك إلا فوقَ ناقةٍ بَكِيَّةٍ^(٢) ، ثم صيرتِ ما تحلين ،
ولا تَمَرِّين ، ولا تأمرين ، ولا تنهين !

قال ابن عباس : فبكت حتى علا نـشـجـبـها ، ثم قالت : نعم ، أرجع ، فإن
أبغضَ البلدان إلى بلد أتم فيه !

قال ابن عباس : أما والله ما كان ذلك جزاؤنا منك ، إذ جعلناك للمؤمنين
أمًّا ، وجعلنا أباك لهم صديقًا !!

قالت : أأتمنئُ على رسول الله يا ابن عباس ؟

قال : نعم ، نعم ، عليك بمن لو كان منك بمنزلة مني لَمَنَنْتُ به عليك !

قال ابن عباس : فأتيت عليا فأخبرته ، فقبل بين عيني ، وقال : بأبي أنت !
ذرية بعضها من بعض !

قالوا : ثم بعد أن انتهت المعركة بهزيمة أصحاب الجمل ، أمر عليّ محمد بن
أبي بكر ، فضرب عليها قبة ، وقال : انظر ، هل وصل إليها شيء ؟
فأدخل محمد رأسه ..

فقالت : من أنت ؟

قال : أبغضُ أهلِكَ إليك !

قالت : ابن الخنعمية ؟

قال : نعم !

(١) إشارة إلى أنها لا تعترف بخلافة عثمان وعلي !

(٢) الفواق : ما بين الحلبتين ، والبكيّة ، قليلة اللبن .

قالت : أشهدتَنّا يومَ الجمل ؟

قلت : نعم .

قالت : لنا أم علينا ؟

قلتُ : عليكم !

قالت : أفتُعرف الذي يقول : يا أمّنا يا خيرَ أمٍّ نعلمُ ^(١) ؟

قلت : ذاك ابن عمي .

قال : فبكت حتى ظننت أنها لا تسكت ^(٢) !

كانت أم المؤمنين تودّ لو نسيت يومَ الجمل ، ولكن الناس جملوا
يومَ الجمل هذا معلماً لتلك المعركة ، التي قادتها بطلحة والزبير ، وأجلبت لها
ما أجلبت من رجال وعقائد ، فكانوا يقولون : في يومَ الجمل حدث كذا ،
وكذا ، وفي يومَ الجمل قتل فلان وفلان ! فتفزع لذلك وتضطرب .

رَوَى ابن الأثير ، أن متحدثنا تحدث إليها ، فذكر يومَ الجمل . .

فقالت : والناس يقولون يومَ الجمل ؟ .

قال : نعم !

(١) هذا من رجز . ارتجز به الحارث بن زهير الأزدي ، وكان في جيش علي ،
وذلك حين رأى قومه يسقطون قتلى ، وهم يتهافنون على خطام الجمل ، وهذا
الرجز هو :

بأمنّا يا خيرَ أمٍ نعلمُ أما ترينَ كم شجاعٍ يُكلمُ
وتختلي هامةً والممصُ

(٢) الطبري : ٥ - ١١

قالت : وددت لو أنى كنت جلست كما جلس صواحبي ، فكان ذلك أحب إلى من أن أكون ولدتُ من رسول الله بضع عشرة ، كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، ومثل عبد الله بن الزبير ^(١) .

وروى ابن سعد في طبقاته .. قال : كانت عائشة إذا قرأت : « وقرآن في بيوتكن » بكّت حتى تبّل خاها ^(٢) .

ما وراء حرب الجمل :

خلقتُ حرب الجمل وراءها مخلّقات كثيرة ، وإن يكن قد سكن ضرامها ، فإن دخانها ما زال يملأ سماء المجتمع الإسلامي ، ويُظِلّ كل مصر من أمصار المسلمين . . إلى قرون وأجيال ! .

كانت حرب الجمل هي أول لقاء صريح بين سيوف المسلمين . . بين جبهتين مسلمتين ، وبين جماعتين قام الإسلام بهن ، واستند إليهن . . من صحابة رسول الله ، السابقين الأولين من المهاجرين ! .

ولا نذكر هنا حروب الردّة ، فإنها لم تكن في واقعها إلا حملات تأديبية لجماعات من أعراب البادية ، أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، فلما علموا بموت النبي - وهم على ما هم عليه من عصبية الجاهلية وخلالها - أنفوا أن يكون قيادهم إلى رجل ليست له صلة بالسماء على نحو ما كان للنبي ، الذي أذعنوا له على هذا التقدير . . فكانت الحرب التي أقامها أبو بكر والمسلمون عليهم ، إنما هي لتجديد إسلامهم ، وتصحيح إيمانهم ، وإعادتهم إلى حظيرة الدين ، بعد أن لجّ بهم الضلال ، وساقهم العمى إلى الجاهلية التي كانوا عليها .

(١) أسد الغابة ٣ - ٢٨٤ .

(٢) الطبقات : ٥١/٨ .

لحرب الجمل هي التي فتحت الطريق إلى حرب صفين ، وهي التي جرأت معاوية على أن يعدّ جيشاً ، يلقي به عليّاً في ميدان القتال ، يفازعه الخلافة ويقاتله عليها ! .

والحق أنه لم يكن لمعاوية أن يقف هذا الموقف الصريح من « علي » ، ولا أن يدعو تلك الدعوة الجريئة لقتاله ، ولا أن تستجيب له هذه الألوف السكّيرة من المسلمين ، لو لم تكن حرب الجمل قد وقعت على تلك الصورة ، التي التقى فيها المسلم بالمسلم ، بل الصحابي بالصحابي . . بقتلاتان بسيوفهما ، فيقتلان ويُقتلان ! .

إن الحرمة التي كانت لدم المسلم ، قد أباحها المسلمون في حرب الجمل ! . وإن هذا التخرج والتهيب اللذين كانا يحجزان المسلم عن قتال المسلم أو قتله ، قد دفعهما ما رأى الناس في حرب الجمل من قتال ، وقتل بين خيار المسلمين والأسوة الحسنة فيهم ! وإذن فقد أصبح الطريق مفتوحاً أمام من يريد الخروج على سلطان الخليفة ، ولقاءه بالقوة ، ونصب القتال له ، وللمسلمين .. إذ لم يعد في هذا الفعل ما ينكره الناس ، وقد رأوا سوابقه في مجتمع خير من مجتمعاتهم ، وبين جماعات خير من جماعاتهم ! .

وسنرى كيف جرت الأحداث بعد معركة الجمل ، وكيف أصبحت بعده الدماء والحرّات تستباح وكأنها قربات يتكاثّر الناس منها ، كما يتكاثّر الراغبون في ثواب الله ، والطامعون في رضوانه ، من البرّ والإحسان ، بعد أن كانت تقع حين تقع ، وقد تركت في النفوس أليماً ، وأعقبت في القلوب حسرة وندماً ! .

وفي خارج ميدان الحرب والقتل كانت تدور حروب كلامية ، تكثّر فيها المصاولات والمجادلات ، بين الناس جميعاً ، أفراداً وجماعات ، حتى

تشكل من ذلك فِرَق وأحزاب ، تذهب كل فرقة مذهباً ، ويختط كل حزب خطة ، وينهج منهجاً ! .

وكانت أنظار المجادلين والمختصمين متعلقة بأيام الجمل ، وما وقع بين صحابة رسول الله فيها ! .

وكان السؤال الذى يُبلّغ على الناس يومئذ هو : ما حكم الدين فى هذه الحرب ؟ وما رأى الإسلام فيمن قاتل أو قتل من المسلمين فيها ؟ .

كان هذا السؤال يحيلك فى كل صدر ، ويدور فى كل عقل ، ويجرى على كل لسان ! وكانت الإجابة أو الإجابات عليه تجيء مختلفة أشد الاختلاف ، متباعدة أكثر البعد ! .

فوقف كثير من الناس ، وتحرجوا أن يقولوا شيئاً ، فيمن قاتل أو قتل . . وهؤلاء هم الذين لم يشاركوا فى حرب الجمل ، ولم يكونوا مع أىّ من الطائفتين المتقاتلتين . . رأوا أن الله وقد عاقم من الابتلاء بها بسيوفهم ألا يخوضوها بالسنتهم ، فأمسكوا عن القول بتعديل أو تبريح لأحد ، وخاصة أصحاب رسول ، وزوج رسول الله ، وردّوا إلى الله أمرهم ، فهو أعلم بهم وبما اختلفوا فيه ، وقاتلوا عليه ! .

أما الذين شاركوا فى هذه الحرب من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان لهم رأيهم فى أنفسهم ، وفيما كان يلقاهم به الناس ، من استفسارات ، واعتراضات .

وقد شرح الإمام على كرم الله وجهه هذه القضية ، فى أكثر من موقف من مواقفه ، وأعطى الناس فيها رأيه واضحاً صريحاً ، يكشف كل شبهة ، ويجلو كل شك وريبة ! .

دخل موسى بن طلحة على على كرم الله وجهه — بعد موقعة الجمل —

فقال له عليّ : « إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم :
« ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ » ، إخواناً على سُرُرٍ متقابلين » .

وأمسى عليّ بالبصرة^(١) ذلك اليوم الذي أتاها فيه موسى بن طلحة ،
فقال له ابن الكواء : أمسيت بالبصرة يا أمير المؤمنين ! ؟^(٢) .

فقال عليّ : كان عندي ابن أخى ! .

فقال ابن الكواء : ومن هو ؟ .

قال : موسى بن طلحة ! .

قال ابن الكواء : لقد شقينا إن كان ابن أخيك ! ! .

فقال عليّ : ويحك ! ! إن الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : « اعملوا
ما شئتم ، فقد غفرت لكم »^(٣) .

وابن الكواء — على ما يظهر — كان على يقين من أن أصحاب الجمل
ليسوا على حق أو شبه حق ، وأنهم هلكوا كئى البنى والضلال . فلما سمع من
الإمام عليّ رأيه في طلحة ، وهو رأس أصحاب الجمل ، أنكر ما سمع ، ومجته
نفسه ، وخامره شك مظلم ، ما زال يضرب في صدره ، ويلجج في كيانه ،
إلى أن أورده موارد الخوارج ، فكان من ردوسهم ، وداعية من دعائهم ،
حتى قتل يوم النهروان ! .

(١) كانت البصرة تقابل في جبهة طلحة والزبير ، على حين كانت الكوفة
تقابل في جبهة عليّ .

(٢) كأنه كان يحذره الفدر به في هذا البلد الذي كان حرباً عليه ، وينبهه إلى
الخطر من وراء هذا التأخر فيه إلى الليل ! .

(٣) الإمامة والسياسة : جزء ١ ص ٨٠ .

وسمع الحسن البصري^(١) رجلاً يقول : « لو كان عليٌّ بالمدينة يأكل من حَشَفِها^(٢) ، لكان خيراً له مما صنع ! » .

فقال له الحسن : يا ألكع ! أما والله لقد فقدتموه سهماً من مرامي الله ، غير مؤوم لأمر الله ، ولا سَرُوقٍ لِمَالِ الله . . أعطى للقرآن عزائمه ، فيما عليه وله ، فأحلّ حلاله ، وحرّم حرامه ، حتى أوردته ذلك رياضاً موقنة ، وحدائق مُغْدقة^(٣) . . ذاك ابن أبي طالب ، يا ألكع !^(٤) .

ثم تمضى الأيام بهذا الحديث عن يوم الجمل ، ومن قاتلوا فيه ، فتمتسبب مذاهب القول ، وتكاثر الفرق والمذاهب ، ويصادف ذلك ابتداء تعرف المسلمين على منطق أرسطو ، ومحاورات سقراط وأفلاطون ، فيُخرجون مقولاتهم على أقيسة المناطق ، ومناظرات الفلاسفة ، وتعمّد فرق الخوارج والمعتزلة ، وتأخذ كل فرقة بطرف من أطراف هذه القضية ! .

ومن مقولات الخوارج : أن عائشة وطلحة والزبير كفروا بمقاتلتهم علياً . وتولّوا عليّاً إلى ما قبل التحكيم ، فلما حكم ، حكموا بكفره ، وأباحوا دمه ، ودم كل مسلم لا يقول بقولهم ، ولا يدين بمذهبهم .

ومن ثمّ ، فقد أصبحوا حرباً على المسلمين جميعاً ! لا يرعون لمسلم حرمة ، ولا يراقبون فيه إلا ولا ذمة ! .

أما المعتزلة ، فقد قال بعضهم بفسق كلا الفريقين من أصحاب الجمل ،

(١) هو أبو سعيد ، الحسن البصري ، من أهل العلم والزهد ، من التابعين الذين عاصروا هذه الأحداث ، وقد رأى عليّاً وسمع منه .

(٢) الحشف : الردىء من كل شيء .

(٣) أى الجنة .

(٤) البيان والتبيين : للحافظ ٢/٨٨ .

وأنهم خالدون مخلدون في النار ، لأنهم ارتكبوا الكبائر من الإثم ، يقتل بعضهم بعضاً !

وقال بعضهم : إن أحد الفريقين فاسق لا محالة ، وأقل درجات الفريقين أنه لا تقبل شهادته .

وقال فريق آخر منهم : كل أهل الجمل هالكون ، إلا من ثبتت توبته . . كذلك طلحة والزبير . . أما عائشة فإنها اعترفت بخطئها ، وندمت^(١) .

وروى الجاحظ عن بعض السلف ، أنهم كانوا يقولون إذا ذكر يوم الجمل : « هلكت الأتباع ونجت القادة^(٢) » .

ولعل تأويل هذا الذي يقوله الجاحظ من نجات القادة وهلكة الأتباع ، - وهو على خلاف الظاهر - أن القادة إنما نجوا لأنهم قاتلوا عن اجتهاد اجتهدوه ، وليس على المجتهد ذنب إن هو أخطأ ، بل إنه إن أخطأ فله أجر ، وإن هو أصاب فله أجران . . أما الأتباع ، فقد دخلوا المعركة بغير نظر واجتهاد ، فهم مؤاخذون ، لأنهم لم يكونوا من أصحاب النظر ، ودخلوا فيما دخل فيه أهل النظر ! .

ولا شك أن هذا الحكم يلزم للناس جميعاً أن ينظروا لأنفسهم ، وبأنفسهم في كل أمر وفي كل تدبير ، وخاصة ما يتصل بالعقيدة ، وهو ما يقول به المعتزلة - وكان الجاحظ معتزلياً - من أن الناس جميعاً محجوجون بالتعرف على الله بعقولهم ، ولولم يبعث الله فيهم رسلاً ، ونزل عليهم كتباً . . وهو

(١) الملل والنحل : جزء ٥ .

(٢) العثمانية : للجاحظ ص ٢٤٦ .

رأى بعيد عن واقع الحياة وطبيعة الناس ، ممّطل لحكمة الله ورحمته بعباده ! .
والرأى الذى عليه المسلمون ، ما يقول به الأشاعرة وهو : إن أصحاب
الجل أخطئوا ، ولكنّه خطأ مغفور ، كخطأ المجتهد فى بعض مسائل الفروع . .
ولا يلزم به الكفر ، ولا الفسق ، ولا التبرؤ ولا العداوة !^(١) .
وهذا ما ندين به !

فإذا خطّأنا أحداً من أصحاب الجل فى موقفه ، أو خالفناه فى سياسته ،
أو نازعناه فى رأيه ، فإننا لا نتجاوز هذا إلى ما يمسّ دينه ، فذلك يماهوه الله
وحده ، بين العبد وربّه . . « وإلى الله عاقبة الأمور » ! .

* * *

بين عليّ ومعاوية

بعد مقتل عثمان :

كان معاوية من المطالبين بدم عثمان ، فإلا يكن من الخليفة الجديد قصاص ،
فهو الثورة على الخليفة ، وعدم الإقرار له بالبيعة ، ثم النار !
هكذا تختار معاوية موقفه من أول الأمر !

إنه لم يبايع الخليفة الذي بايع له المهاجرون والأنصار .. ومع هذا فهو يطالبه
بالقصاص من قتلة عثمان ! وإلا فلا بيعة ، ولا سمح ولا طاعة !

والتناقض واضح في هذا الموقف !

فلو أن معاوية بايع علياً ، لكان له وجه في المطالبة بما طالبه به .. ولكنه
يحجب عنه طاعته وولائه ، ثم يعود فيلزمه ما يلزم ولي الأمر ، من رد المظالم ،
والأخذ على يد الظالمين ! فذلك مالا يستقيم على منطق ، أو واقع !
ولكنه معاوية . في سياسته ودهائه !

فهو إذ قد رأى جماعة ممن بايعوا علياً ، خرجوا على طاعته ، وأعلنوا
الآبيعة له عندهم ، توقف عن البيعة ، ثم أمسك يده عن أن يبايع ، حتى
لا تلزمه الحجة إذا هو خرج ، كما لزم من بايعوا ثم خرجوا ! !
وكان صوت معاوية خافتاً ، متردداً ، أول الأمر ، فلم يجاهر بالعصيان ،
ولم يصريح بالخروج على الخليفة ، بل ظل يرقب الأحداث ، ويمدّ نفسه الموقف
الذي تقتضيه الأحوال !

فلما أعلنت أم المؤمنين عائشة عن موقفها ، وجمعت إليها طلحة والزبير ،
ثم اجتمع لها هذا الجيش الكبير الذى حاربت به علياً يوم الجمل - عندئذ
صرح معاوية عن رأيه ، وكشف عن موقفه ، وأنه لن يرجع عن موقفه من
علي حتى يدفع إليه قتلة عثمان ، فإن فعل كانت الخلافة شورى بين المسلمين ،
فمن رضيه المسلمون دخل فى طاعته !!

ولا شك أن موقف السيدة عائشة ، وطلحة والزبير ومن تبعهم - هذا
الموقف هو الذى فتح لمعاوية الطريق إلى الخروج على الخليفة ، وجرأه على أن
يسل سيفه فى وجهه ، وأن يعد جيشاً لقتاله !! إن معاوية لم يكن ليجرؤ على أن
يخرق هذا الخرق فى الإسلام ، وأن يجد حوله الأنصار والأعوان ، لولم تكن
حرب الجمل قد فتحت للناس هذا الباب ، الذى تهيب الناس الدنوة منه ، فلما
كانت يد أم المؤمنين عائشة ، ومعها أيدى طلحة والزبير ، وغيرهما من صحابة
رسول الله - هى التى طرقت هذا الباب ، وفتحته - لم يعد أحداً يرى حرجاً أن
يفعل مثل ما فعلوا ، وأن يأتى مثل ما أتوا ..

ولقد بدأ معاوية من حيث انتهى أصحاب الجمل ..

حين كان أصحاب الجمل يديرون المعركة مع علي وكان معاوية يعد العدة لحرب
جديدة .. إن انتصر علي على أصحاب الجمل حاربه ، وإن انتصر أصحاب الجمل
على علي حاربهم .. إنه يريد الخلافة ، ولا يسلم له بها أحد من الفريقين إلا بعد
الحرب ، والقلب !

يقول معاوية فى بعض ما يذكر عنه :

« أعنت على علي بأربع : كنت رجلاً أكنم سري ، وكان رجلاً ظهراً
وكنت فى أطوع جند وأصلحه ، وكان فى أخيث جند وأعصاء ، وتركته
وأصحاب الجمل ، وقلت : إن ظفروا به كانوا أهون علي منه ، وإن ظفر بهم

اعتدلت بها عليه في دينه .. وكنت أحبّ إلى قریش منه !» (١)

إنها الحرب على أيّ حال . وقد أخذ معاوية في الإعداد لها منذ مقتل عثمان ، بل ربما قيل أن يُقتل عثمان !

وقد شغل على عن معاوية بأصحاب الجمل .. فلما فرغ منهم ، التفت إلى معاوية ، الذي كان خلال تلك المدة حركة دائبة في الإعداد للقاء على ؛ إذ كان يعلم أن علياً لا بدعه واليًا على الشام ، بعد أن عرف موقفه منه . فما كاد على ينتهي من موقعة الجمل حتى كان معاوية قد قبض بيده على زمام أهل الشام ، واستولى على قلوبهم ، بما استرضاهم به ، من مال ، ومناصب ، وأمانى كثيرة ، عرف كيف يبلغ بها أهواء النفوس ، وينفذى مطامعها !

ولم يقتصر معاوية على أهل الشام ، بل مدّ بصره إلى أهل النجدة والرأي من أصحاب على ، ومن كانوا شيعته له ، فجاء إلى كل واحد منهم من الطريق الذي يعرف كيف يلقاه فيه ، ووضع يده على مكان الضعف منه ، فوقع كثير منهم ليده ، ومن تأبى عليه ، أفسده على على ، وقطع ما بينه وبينه ! وسنرى لمعاوية في هذا فَعَالَات عجيبة ، تكشف عن ذكاء ، ودهاء . مع جراءة على الحق ، وجور على الدين !

الحرب أولها الكلام :

ولم يكن من طبيعة على أن يبدأ أحدًا في القتال قبل أن يبدأ .. ولم يكن يلجأ إلى القتال إلا بعد أن يُعذّر ويُذَر ، رجاء أن يراجع خصومه أنفسهم ، ويُغيثوا إلى السلم والعافية . فإن هرأعذر إليهم ، وبالع في الإعدار ،

ثم لم يكن منهم إلا الإصرار على الخلاف ، والقتال .. فهو قتال عَرَفَ الإمامُ وجهه .. إنه قتال أهل البغي ، وقتل الفئة الباغية !

وبهذا التقدير ، وعن هذا التأويل حارب على أصحاب الجمل ، كما حارب أصحاب صفين ، وأهل النهروان من الخوارج .

إنه يَمَدُّ هؤلاء جميعاً مسلمين .. قد شقوا عصا الطاعة ، وخرجوا عن سلطان الخلافة ، متأولين في ذلك ، عن نية صادقة في طلب الحق ، أو عن هوى مضلّ . قد انطوت عليه الصدور !

ولهذا ، فقد كان على - كرم الله وجهه - لا يرى في حربه هؤلاء الخارجين عليه ، إلا أنها حملات تأديبية ، ترد الشاردين ، وتأخذ على أبدى العصاة المفايدين .. وسواء أكانت هذه الحرب في أضيق الحدود ، أو في أوسع مدًى ، فإن طبيعتها عنده لا تتغير ، وإن تغيرت وجوهها ، وتباينت صورها وأشكالها . إن الحرب هنا ، أشبه بعملية جراحية لمريض .. لا يتجاوز مَبْضَعُ الطبيب فيها موضعَ العضو الفاسد ، إلى ما صحّ وسلم !

ولهذا ، فقد كانت حرب الإمام على - رضى الله عنه - واقعة عند ميدان المعركة ، لا تتجاوز حدوده ، إلى ما وراء المحاربين ، من نساء ، وأطفال ، وزرع ، وضرع ، ومتاع !

ففي هذه الحرب ..

لا يُجهز على جريح !

لا يُقتل مدبر !

ولا يؤسّر مستسلم !

ولا يُستحوذ على نساء !

ولا يُستولى على عبيد أو إماء ، إلا ما كان من عُدّة الحرب !

وبانتهاه المعركة ، وإلقاء السِّلَم ، لا يكون لعلّ ، ولا لجيشه سلطان على أحد ممن قاتله . . فلا حساب ، ولا عقاب !

على هذا الدستور يحارب عليّ ، ويحارب معه من آزره ، ووقف إلى جانبه ! فهل التزم الذين كانوا يحاربونه هذه الخطة ؟ وهل أخذوا بها أنفسهم ؟ الحق أن عليّا وحده هو الذي كان يقاتل تحت هذا الشرط الذي أخذه بنفسه ، وألزمه من معه ، أما مقاتلوه فقد جرت حربهم معه على غير هذا . . إنما هي الحرب عقدم . يُطلب فيها القلب والنصر ، بكل أسلوب ممكن ، وبكل وسيلة مسعفة !

يقول ابن حزم :

« وفي أيامه - أي عليّ - كانت وقعة الجمل وصفين ، وعَلِمَ الناس منه فيها كيف كان قتال أهل البغي ! »^(١).

وهذه قولة صدق ، تلخص في إيجاز بليغ، خطة عليّ في الحروب ، التي خاضها مع الجماعات المسلحة ، في ميادين الحرب التي كانت بينه وبين مسلمين !! وسنرى كيف كان عليّ يمسك بهذا الدستور ، لا يتحول عنه ، حتى في أشدّ المواقف حرجاً له ولن معه ، وحتى حين يبيّن له الأمر عن تحاذل أنصاره ، وتفلتهم منه ، حين يرون أنهم إنما يقاتلون بأسلحة مقلوبة ، على حين يلقاهم مقاتلوه بكل أسلحة الحرب ومعداتها ! .

إنه يطلب حقّاً ، ويقاتل في سبيل الحق ، فلا يستمين عليه بباطل ، ولا يركب إليه غير طريق الحق . . وسواء عاياه أدرك الحق أو لم يدركه . . فحسبه أنه قاتل في سبيله ، وقُتل تحت رايته . . فذلك هو الفوز المبين ! .

* * *

قالوا : إنه لما فرغ على - رضى الله عنه - من الجمل ، بايع له القوم جميعاً ، وبايع له أهل العراق ، واستقام له الأمر ، فكتب إلى معاوية :

« أما بعد ، فإن القضاء السابق ، والقدر النافذ ، ينزل من السماء ، كقطر المطر ، فتمضى أحكامه عز وجل ، وتنفذ مشيئته ، بغير تحاب الخلقين ، ولا تراضى الآدميين . . وقد بلغك ما كان من قتل عثمان رحمه الله ، وبيعة الناس عامة ، إيتى ، ومصارع الناكثين لى ، فادخل فيما دخل الناس فيه ، وإلا فأنا الذى عرفت ، وحولى من تعلمه . . والسلام » .

وبعث على بهذا الكتاب مع الحجاج بن عدى الأنصارى ، فجاء به إلى معاوية ، وهو يخطب الناس بدمشق ، فلما قرأه اغتم بذلك وأعظمه ، وأسرّه عن أهل الشام .

ثم قام الحجاج بن عدى خطيباً : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل الشام : إن أمر عثمان أشكل على من حضره ! الخبير عنه كالأعمى ، والسميع كالأصم .. عابه قوم فقتلوه ، وغدره قوم فلم ينصروه ، فكذبوا الغائب ، وآتهموا الشاهد . . وقد بايع الناس علياً على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة عامة ، ومن رغب عنها ، ردّ صاغراً داحراً . .

فانظروا فى ثلاث ، وثلاث . . ثم اقضوا^(١) على أنفسكم :

أين الشام من الحجاز ؟ .

وأين معاوية من على ؟ .

وأين أنتم من المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم بإحسان ؟ .

قالوا : فغضب معاوية لقوله ، وقال : يا حجاج .. أنت صاحب زيد ابن ثابت ، يوم الدار ؟ .

قال : نعم ، فإن كان بلغك ، وإلا أحدثك ! .
قال : هات ! .

قال : أشرف علينا زيد بن ثابت ، وكان مع عثمان ، في الدار ، وقال : يا معشر الأنصار : انصروا الله ، انصروا الله ، فقلتُ : يا زيد ، إنا نكره أن نلقى الله فنقول كما قال القوم : « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، فأضلونا السبيلا » .

فقال معاوية : انصرف إلى علي ، وأعلمه أن رسولي على أترك !^(١) .
قالوا :

وكتب معاوية إلى علي :

« أما بعد ، فإننا كنا نحن وإياكم بدأ جامعة ، وألفّة أليفة ، طيبت يا ابن أبي طالب ، فتغيرت ، وأصبحت تعدّ نفسك قويا على من عاداك ، بطنام أهل الحجاز ، وأوباش العراق ، وحتى الفسطاط ، وغوغاء السواد^(٢) ، وأيم الله لينجأينّ عنك حقها ، ولينقشمنّ عنك غوغاؤها ، انقشاع السحاب عن السماء ! .

« قتل عثمان بن عفان ، ورقيت سلما أظلمك الله عليه مطلع سوء عليك لالك ، وقتلت الزبير ، وطلحة ، وشردت بأهلك عائشة ، ونزلت بين

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ٨٥ .

(٢) بريد العراق .

النَّصْرَيْنِ ^(١) ، فَهَنَيْتُ وَتَمَنَيْتُ ، وَخَيَّلْتُ إِلَيْكَ أَنَّ الدُّنْيَا قَدْ سُخِّرَتْ لَكَ بِخَيْلِهَا ، وَرَجَّلَهَا . . . وَإِنَّمَا تَعْرِفُ أَمْنِيَّتَكَ لَوْ زُرْتُكَ فِي الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، بَقِيَّةَ الْإِسْلَامِ ، فَيَحِيطُونَ بِكَ مِنْ وَرَائِكَ ، ثُمَّ يَقْضِي اللَّهُ عَلَيْهِ فَيْكَ ، وَالسَّلَامَ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ^(٢) ! » .

إنها الحرب الصريخة ، التي لا بُقْيَا معها إلى مراجعة ، ولا سبيل وراءها إلى مهادنة ، فقد أعانها معاوية في مجابهة وتحدٍ ، وفي تعبئة كاملة للحرب برجالها ومعداتها ! ! .

ونحن وإن كنا لا ننظر إلى هذه الكتب نظرتنا إلى الوثائق التاريخية المحققة ، ولا نصفي إليها إصغافنا إلى الشهود العدول ، غير أن ذلك لا يجعلنا نهْدِرُ مدلولاتها ، ولا نأخذ بما تشير إليه ، مما يتسق مع مجرى الأحداث ، ويلتقى مع واقع الأمور ! .

فالذي لا شك فيه أن « معاوية » قد ملأ يديه من أهل الشام ، ووثق بما عندهم من طاعة وولاء ، كما أنه نفذ إلى جبهة « عليّ » فعرف ما فيها من قوى الهدم والتخريب ، وأن عَزَمَات « عليّ » في إقامة بنيانها ، ورأب صدوعها ، بما ينفخ فيها من روحه ، وما يغذيها به من إيمانه - لن يقوم بما تفعل الأيام والأحداث في جبهته ، من هدم وتدمير ! !
فكأن أن جَابَهُ عَلَيْهَا هذه المجابهة ، ولقى هذا اللقاء . . . الذي تنطق به كلمات الكتاب ، كما نطق به لسان الحال . . .

قالوا : وكتب « عليّ » إلى معاوية . ردأ على كتابه هذا ، فقال :

« أما بعد ، فإننا كنا نحن وأنتم على ما ذكرت ، من الألفة والجماعة

(١) البصرة والكوفة .

(٢) الإمامة والسياسة ١ : ٨١ .

ففرّق بيننا وبينكم أمس ، أنا آمنا وكفرتم ، واليوم ، أنا استقمنا وفقتتم !
وما أسلم مسلمكم إلا كرها ، وبعد أن كان أنف الإسلام كله لرسول
الله - صلى الله عليه وآله - حزبا .

«وذكرت أنى قتلت طلحة والزبير ، وشردت بعائشة ، ونزات المصيرين ،
وذلك أمر غبت عنه ، فلا عليك ، ولا العذر فيه إليك !

وذكرت أنك زائري في المهاجرين والأنصار ، وقد انقطعت الهجرة
يوم أسير أخوك ^(١) ، فإن كان فيك عجل فاستترقه ^(٢) . فإني إن أذكرك فذلك
أن يكون الله إنما بعثني للفقمة منك ، وإن تزرني فكما قال أخو بني أسد :
مستقبلين رياح الصيف تضربهم بحاصب بين أغوار وجلود ^(٣)

وعندى السيف الذى أعضضته بحدك ، وخالك ، وأخيك ، فى مقام
واحد ^(٤) ، وإنك والله ، ما علمت إلا الأغلف القلب ، المقارب العقل ،
والأولى أن يقال لك : إنك رقيت سلما ، أطلعك مطلع سوء ، عليك ، لالك ،
لأنك نشدت غير ضالتك ، ورعيت غير سائمتك ، وطلبت أمرا لست من
أهله ، ولا فى معدنه . فإبعد قولك من فعلك !

«وقريب ما أشبهت من أحمام وأحوال ، حملتهم الشقوة ، وتمنى الباطل
على الجحود بمحمد صلى الله عليه وآله ، فصرعوا مصارعهم . حيث علمت
لم يدفعوا عظيما ، ولم ينفخوا حريما ، بوقع سيوف لم تخل منها الوغى ، ولم
تماشيها الهوى !

(١) أخوه . هو عمرو بن أبى سفيان ، وقد أسر يوم بدر .

(٢) أى استرح ولا تعجل ، فإني أنا الذى آتى إليك .

(٣) يريد أن معاوية إن أقبل يحيشه فسيلقى أهوالا ، دونها الأهوال التى يلقاها

من يتعرض لرياح الصيف العاصفة ، وما تحمل من سموم وثراب !

(٤) جده ، هو عتبة بن ربيعة ، وخاله ، الوليد بن عتبة . وأخوه ، حنظلة .

قتلهم على يوم بدر .

« وقدأ كثرَت في قَتلة عثمان . فادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلى ، أحلك وإياهم على كتاب الله ، وأما تلك التي تريد ، فإنها خذعة الصبي عن اللبن !!^(١) » .

وكتاب الإمام لم يحسم الأمر ، ولم يقطع هذا الخلاف الذي بينه وبين معاوية . . فما زال معاوية عند موقفه . . يأبى البيعة ، ويطالب بقتلة عثمان . . وإلا فهي الحرب ! .

وقد ظلت الكتب والرسل تروح وتغدو ، بين علي ومعاوية نحو سنة . . وإانه لا بأس من أن نستعرض بعض هذه الكتب — على رأينا فيها وفيما تحمل في كيانه ، من أحداث وما تكشف من أمور — فهي والحال كذلك . أشبه بمرويات وأخبار ، تحدث عن تلك الفترة الواقعة بين حرب الجمل وصفين ، والتي كانت تلك الكتب أهم مصدر لأخبارها .

كتب معاوية إلى علي — في بعض ما كتب :

« أما بعد ، فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك ، وأنت برىء من دم عثمان ، كنت كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما . . ولكنتك أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام لإقتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان . . فإذا دفعتهم كانت شورى بين المسلمين !

« وكان أهل الحجاز الحكماء على الناس ، وفي أيديهم الحق ، فلما تركوه صار الحق إلى أهل الشام !! وأعمري . . ما حجتك على أهل الشام كحجتك

على أهل البصرة ، ولا حجتك قلى كحجتك على طلحة والزبير . . لأن أهل
البصرة بايعوك ، ولم يبايعك أحد من أهل الشام ، وإن طلحة والزبير بايعاك
ولم يبايعك . . وأما فضلك فى الإسلام ، وقرابتك من النبى ، عليه السلام ،
فلمعمرى ما أدفعه ، ولا أنكره ! »

فكان جواب على :

« أما بعد ، فقد جاءنى منك كتابٌ امرىء ليس له بصر يهديه ، ولا قائد
يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاستقاده . . زعمت أنك إنما أفسد عليك
بيعتى خطيبتى فى عثمان ! ولعمرى ، ما كنتُ إلا رجلاً من المهاجرين ، أوردتُ
كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على الضلال ،
ولا ليضربهم بالعصى . . وما أمرتُ فيلزمنى خطيئة عثمان ، ولا قتلتُ فيلزمنى
قصاصُ القاتل ! »

« وأما قولك إن أهل الشام هم الحكماء على الناس ، فهاتِ رجلاً من أهل
الشام يُقبل فى الشورى ، أو تحمل له الخلافة ! فإن سُميتَ كذّابك المهاجرون
والأنصار ، وإلا^(١) أتيتك به من قريش الحجاز . . »

وأما قولك ندفع إليك قتلة عثمان . . فما أنت وعثمان ؟ إنما أنت رجل من
بنى أمية ، وبنو عثمان أولى به منك ! فإن زعمت أنك أقوى على ذلك ،
فادخل فى الطاعة ، ثم حاكم القوم إلى ! »

« وأما تمييزك بين الشام والبصرة ، وذكرك طلحة والزبير ، فلمعمرى ،
ما الأمر إلا واحد . . إنها بيعة عامة ، لا يثنى فيها الفطر^(٢) ، ولا يستأنف
فيها الخيار . . »

(١) أى وإن لم تسم .

(٢) أى لا يعاد فيها النظر ، مرة بعد مرة ، وإنما هى نظرة واحدة .

« وأما ولوغك في أسر عثمان ، فوالله ما قلت ذلك عن حقِّ العيان ،
ولا عن يقين الخبر !

« وأما فضلي في الإسلام ، وقرابتي من رسول الله عليه السلام ، وشرقي
في قريش ، فلمعري لو استطعت دفعه لدفعته !^(١) .

ومما كتب به الإمام عليّ إلى معاوية :

« إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على ما بايعوهم عليه ،
فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرُدّ ، وإنما الشورى المهاجرين
والأنصار ، فإن اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً ؛ كان ذلك رضىً ، فإن خرج
من أمرهم ، بطعن أو بدعة ، ردّوه إلى ما خرج منه ، فإن أبي ، قاتلوه على
اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولّاه الله ما تولى !

« ولعمري يا معاوية .. لو نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدني أبرأ الناس
من دم عثمان ، ولتعلمنّ أنّي كنتُ في عزلة عنه ، إلّا أن تتجّني ، فتجنّ
ما بدالك والسلام ! »^(٢) .

وكتب إليه مرة يقول :

« ... فأراد قومنا قتلَ نبينا ، واجتياح أصلنا ، وهمّوا بنا المموم ، وفعلوا
بنا الأفاعيل ، ومنعونا العذب ، وأجلسونا الخوف^(٣) ، واضطرونا إلى جبل
وعر ، وأوقدوا لنا الحرب ، فعزم الله لنا على الذب عن حوزته ، والرتى
من وراء حرمة .. مؤمننا يبقى بذلك الأجر ، وكافرنا يحامى عن الأصل !
« ومن أسلم من قريش خِلَوْ بما نحن فيه بحلفٍ يمهه ، أو عشيرة تقوم
دونه ، فهو من القتل بمكانٍ آمن ! » .

(١) السكامل للبرد ١ / ١٩٤ / والإمامة والسياسة ١ / ١٥٠ ، ١٠٦ .

(٢) نهج البلاغة : ٥ / ٣ .

(٣) يحدث الإمام عما كان من قريش حين ألجئوا بني هاشم إلى شعب أبي طالب .

« وكان رسول الله صلى الله عليه وآله ، إذا احمر البأس ، وأجحم ، قدم أهل بيته ، فوقى بهم أصحابه حرَّ الأسنة والسيوف ، فقتل عبيدة بن الحارث يوم بدر ، وقتل حمزة ، يوم أحد ، وقتل جعفر ، يوم مؤتة . . . وأراد من لو شئت ذكرت اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة ، ولكن أجالم عجَّل ، وميَّته أُجِّلَت ^(١) ! »
 « فيأعجا للدهر ، إذ صرتُ يقرن بي من لم يسعَ بقدمي ، ولم تكن له كسابقتي ، التي لا يبدلي أحد بمثلها ، إلا أن يدع مدَّع ما لا أعرفه . . . والحمد لله على كل حال ! »

« . . . ولعمري لو لم تنزع عن غيِّك وشقاقك لتعرفتهم عن قليل يطلبونك ، ولا يكافونك طلبهم في برٍّ ، ولا بحر ، ولا سهل ، ولا جبل ، إلا أنه طلب يسوءك وجداته ، وزور ^(٢) لا يسرك أقيانه ، والسلام لأهله ! » ^(٣) .
 وكتب إليه مرة يقول :

« وكيف أنت صانع إذا تسكشت عنك جلايب ما أنت فيه ، من دنيا قد تبهجت بزینتها ، وخدعت بلذتها . . . دعتك فأجبتنا ، وقادتك فاتبعتها ، وأمرتك فأطعتها ، وإنه يوشك أن يقفك واقف على ما لا ينجيك منه مُنْجٍ . فاقم من هذا الأمر ، وخذ أهبة الحاب ، وشم لما قد نزل بك ، ولا تمكن الغواية من ستمك ، وإلا تفعل أعلمك ما أغفلت من نفسك ، فإنك مُتَرَفٌ ، قد أخذ الشيطان منك مأخذه ، وبلغ فيك أمله ، وجرى منك مجرى الروح والدم .. »

« وقد دعوت إلى الحرب ا فدع الناس جانباً ، واخرج إلى ، وأعفِ

(١) يريد الإمام نفسه ، أي أنه كان ممن عرض نفسه للإستشهاد في سبيل الله ، ولكن الله أخر أجله .

(٢) أي زائرون .

الفریقین من القتال ، لِيُعْلَمَ أَيْدَا الْمَرِين ^(١) عَلَى قَلْبِهِ ، وَالْمَغْطَى عَلَى بَصَرِهِ .
فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ ، قَاتِلُ جَدِّكَ ، وَخَالِكَ ، وَأَخِيكَ . شَدَّخَا يَوْمَ بَدْرٍ ، وَذَلِكَ
السَّيْفُ مَعِي ، وَبِذَلِكَ الْقَلْبُ أَلْقَى عَدُوِّي ، مَا اسْتَبَدَلْتُ دِينًا ، وَلَا اسْتَحْدَثْتُ
نَبِيًّا ، وَإِنِّي عَلَى الْمَنَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ ، وَدَخَلْتُمْ مَكْرَهِينَ ^(٢) .

وَمَنْ أَرَوْعَ مَا كَتَبَ عَلَيَّ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، رَدًّا عَلَى كِتَابٍ ، لِمُعَاوِيَةَ :
« أَمَا بَعْدَ ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ . تَذَكَّرْتُ فِيهِ اصْطِفَاءَ اللَّهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ ، وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيْدَاهُ مِنْ أَصْحَابِهِ !
« فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَبًا !!

« إِذْ طَفَقْتَ تُخَبِّرُنَا بِبِلَاءِ اللَّهِ عَفَدْنَا ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا . . .

« وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ . . أَمْرٌ إِنْ تَمَّ
اعْتَزَلْتُ كُلَّهُ ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ تَلْحَقْكَ ثُلْمَتُهُ . . وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ ،
وَالسَّائِسَ وَالْمُسَوَّسَ ؟ وَمَا لِلطَّلْقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطَّلْقَاءِ ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ
وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ ؟ هَيْهَاتَ !! لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ
مِنْهَا ^(٣) ، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا !! .

« أَلَا تَرَبَّحُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظُلْمِكَ . وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذِرْعِكَ ، وَتَتَأَخَّرُ
حَيْثُ أَخْرَكَ الْقَدْرُ ؟

« فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ !

(١) أَيْ الْمَغْطَى عَلَى قَلْبِهِ .

(٢) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ ٢ - ٨

(٣) الْقِدْحُ : بِكْسَرِ الْقَافِ : السَّهْمُ ، وَحَنَّ : صَوْتٌ .

وإنك لذهاب في التيه^(١) ، رَوَّاعٌ عن القصد . ألا ترى - غيرَ مخيرٍ لك
ولكن بفعمه الله أحدث - أن قوما استشهدوا في سبيل الله من المهاجرين
ولكلٍّ فضل - حتى استشهد شهيدنا ، قيل سيد الشهداء^(٢) ، وخصه
رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه ؟

«أولاً ترى أن قوماً قُطعت أيديهم في سبيل الله - ولكلٍّ فضل - حتى
إذا فعلَ الواحد منا ما فعلَ الواحدهم قيل : الطيار في الجنة ، وذو الجناحين^(٣) ؟
ولولا مانعُ الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمّة ، تعرفها
قلوب المؤمنين ، ولا تمنعها آذان السامعين .. قدع عنك من مالت به الرّمية^(٤) ،
فإننا صنائع ربنا ، والفاس بعدُ صنائع لنا ،

«لم ينفعنا قديم عزّنا ، ولا عاديّ طولنا على قومك ، أن خلطناكم بأنفسنا ،
فنكحنا ، وأنكحنا ، فعلَ الأكفاء ، ولستم هناك !
وأنتى يكون ذلك كذلك ، ومنا النبي ومنكم المكذّب^(٥) ؟ ومنا
أسد الله ، ومنكم أسد الأحلاف^(٦) ؟ ومنا سيدا شباب أهل الجنة ، ومنكم
صبيّة النار^(٧) ؟ ومنا خير نساء العالمين ، ومنكم حمالة الحطب^(٨) .. في كثير
مما لنا ولكم .

(١) التيه . الضلال

(٢) هو حمزة

(٣) هو جعفر بن أبي طالب

(٤) يراد به المعوج الضال عن غايته .

(٥) هو أبو جهل .

(٦) أسد الله : حمزة ، وأسد الأحلاف : أبو سفيان ، حيث قاد الأحلاف في
غزوة الخندق .

(٧) سيد شباب أهل الجنة : الحسن والحسين ، رضى الله عنهما ، ينص قول
رسول الله ، وصبيّة النار : هم أبناء الحكم بن العاص ، كما أخبر النبي عنهم .

(٨) خير نساء العالمين : فاطمة ، وحمالة الحطب : أم جميل بنت حرب ، عمّة معاوية

«وزعمت أنى للخلفاء حسدت ، وعلى كلهم بغيت ، فإن يكن ذلك كذلك ، فليس الجناية عليك ، فيكون العذر إليك ، وتلك شكاة^(١) ظاهرة عفاك عارها !

«وقلت إني كنت أقادُك بقاد الجمل المخشوش^(٢) ، حتى أبايع . واعمروا الله ، لقد أردت أن تذُمَّ فمدحت ، وأن تفضح فافتضحت ، وما على المسلم من غضاضة أن يكون مظلوما ، ما لم يكن شاكاً في دينه ، ولا مرتاباً بيقينه ، وهذه حجتي ، إلى غيرك قضدُها ، ولكن أطلقت لك منها بقدر ما صنع من ذكرها .

« ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عمان ، فلك أن تُجيب عن هذه لرجلك منه .. فأينا كان أعدى له ، وأهدى إلى مقاتله ؟ أمن بذل له نصرته فاستفعله واستكفه ؟ أم من استنصره فتراخى عنه ، وبث المنون إليه ، حتى أنى قدره عليه ؟ كلا وأيم الله . . » لقد علم الله المعوقين منكم ، والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ، ولا يأتون البأس إلا قليلا ! » .

« وما كنت لأعتذر من أنى كنت أنقم عليه أحداثا ، فإن كان الذنب إليه إرشادى وهدايتى له ، فرب ما لوم لا ذنب له ، وقد يستفيد الظنة المتنصح^(٣) ، وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ! .

« وذكرت أنه ليس لى ولا لأصحابى إلا السيف ، فلقد أضحكك بعد استعبار^(٤) ! متى ألفت بني عبد المطلب عن الأعداء ناكلين ، وبالسيف

(١) الشكاة : النقيصة ، وظاهر : أى بعيد .

(٢) الجمل المخشوش : أى الذى يوضع فى أنفه خشبة صغيرة ليقاد بها .

(٣) الظنة : التهمة ، والمتنصح : الناصح البالغ فى نصحه .

(٤) الاستعبار : البكاء .

مخوفين .. فَلَبِثْتُ قَلِيلًا يَلْحَقُ الْمَيْجَا حَمَلٌ^(١) ، فسيطلبك من تطلب ، وبقرّب منك ما تستبعد ، وأنا مُرَقَّلٌ نَحُوكَ في جحفلٍ من المهاجرين والأنصار ، والقابعين لهم بإحسان ، شديدٍ زحامهم ، ساطعٍ قتامهم ، متسرّبلين سرّبال الموت ، أحبُّ اللقاء إليهم لقاء ربهم ، قد صحّبتهم ذرّبة بدرية ، وسيوف هاشمية ، قد عرفتَ مواقعَ أنصالحها ، في أخيك ، وخالك ، وجدك وأهلك ، وما هي من الظالمين ببعيد^(٢) » .

ولاشك أن هذه الرسائل التي تنسب إلى الإمام ، والتي يقال إنه كان قد بعث بها إلى معاوية ، كان يقابلها من معاوية رسائل مثلها تقوّي موقف معاوية ، وتظهر له حجّته .

ولكن هذه الرسائل لم تنته إلى ما يحسم الخلاف بين عليّ ومعاوية ، فسارت الأمور إلى غاياتها ، ولم يبق إلا السيف ، يقول كلمة الفصل فيما يختصم فيه الطرفان .

وقد تهيأ الفريقان فعلاً للحرب ، وتحرّكت جيوشهما إلى صفين . وإذن فهنا نحن أولاء على مشارف المعركة ، وعلى مرمى البصر من ميدانها .

فإذا جرى هناك ؟ وكيف كانت نهاية الحرب ؟ .

ولكن يحسن بنا قبل أن نشهد القتال ، ونرصد حركات اللقاتلين — أن نتمهل قليلاً ، لننظر نظرة في داخل المعسكرين ، هنا ، وهناك ، لنرى ما عند هؤلاء وهؤلاء ، من رأى في هذه الحرب ، وفي الإعداد النفسي

(١) مثل يضرب للتهديد بالحرب العامة الشاملة ، حتى لتشارك فيها الحلان .

(٢) نهج البلاغة : ٢ : ١٨ - ٢٢ .

واللأدى لها . . . فذلك جدير به أن يصحبنا ، وأن يكون بمحضرتنا ، ونحن نشهد هذه اللحظة ، التي اشترك فيها مئات الألوف ، وسقط في ميدانها عشرات الألوف ! .

* * *

الأحنف بن قيس : كان من الرجال البارزين في جيش عليّ ، ومن القوى الناصرة له . . . وكان الأحنف قد تخلف عن عليّ في حرب الجمل ، إذ لم ير أن يكون في المحاربين ، وإن كان هواه مع عليّ ، وقد بعث إلى عليّ يومئذ يقول له : « إن شئت أتيتك في مئتي رجل من أهل بيتي ، وإن شئت كففتُ عنك أربعة آلاف سيف ! » فأرسل إليه عليّ : « بل كفّ عني أربعة آلاف سيف ، وكفى بذلك ناصراً ! » فجمع الأحنف بنو نعيم ، فقال لهم : يا معشر بني نعيم : إن ظهر أهل البصرة فهم إخوانكم ، وإن ظهر عليّ فلن يهيجكم ، وكنتم ، قد سلمتم . . . فكفّ بنو نعيم ، ولم يخرجوا إلى أحد الفريقين !

فلما كان الإعداد لحرب معاوية ، جاء الأحنف إلى عليّ - كرم الله وجهه - فقال : يا أمير المؤمنين . . . إنه إن يك بنو سعد - قوم الأحنف من بني نعيم - لم ينصروك يوم الجمل ، فلم ينصروا عليك غيرك ، وقد عجبوا ممن نصرك يومئذ ، وعجبوا اليوم ممن خذلك ، لأنهم شكّوا في طلحة والزبير ، ولم يشكّوا في عمرو ومعاوية . . . وإن عشنا بالبصرة . . . فلو بعثنا إليهم ، فقدموا علينا ، فقاتلنا بهم العدو ، وانتصفنا بهم من الناس ، وأدركوا اليوم ما قاتلهم أمس ! ! !

« وهذا جمعٌ قد حشره الله عليك بالتقوى ، لم نستكره شاخصاً ، ولم نُشخص فيه مقبلاً ، ومن كان معك نافعك ، وربّ مقيم خير من شاخص ، وإنما نشوبُ الرجاء بالخفاة ! .

« ووالله لو ددنا أن أموتنا رجعوا إلينا ، فاستمعنا بهم على عدونا !! وليس لك إلا من كان معك ، ولنا من قومنا عدد ، ولا نلقى بهم عدواً أعدى من معاوية ، ولا نسدّ بهم ثغراً أشدّ من الشام ! » .

فقال عليّ للأحنف : اكتب إلى قومك . . فكتب إليهم :

« أما بعد ، فإنه لم يبق أحد من بني تميم إلا شقوا برأى سيدهم غيركم ، وعصمكم الله برأى ، حتى نلتهم مارجوتهم ، وأمنتم مما خفتم ، فأصبحتم منقطعين من أهل البلاء ، لاحقين بأهل العافية . . !

« وإني أخيركم أنا قدمنا على تميم الكوفة فأخذوا علينا بفضلهم مرتين . . مسيرهم إلينا مع عليّ ، وتهيبهم للمسير إلى الشام . ثم انحسروا معهم فصرنا كأننا لا نعرف إلا بهم ، فأقبلوا إلينا ، ولا تتسكّلوا علينا ، فإن لهم أعداءنا من رؤسائهم ، فلا تبطّئوا علينا ، فإن من تأخير العطاء حرمانا ، ومن تأخير النصر خذلانا ، فحرمان العطاء القلة ، وخذلان النصر الإبطاء . . . »

فلما انتهى كتاب الأحنف إلى بني سعد ، ساروا بجماعتهم حتى نزلوا «الكوفة»^(١) .

عمار بن ياسر : وقد عرفنا ما كان من عمار في حرب الجمل ، وأنه كان مع عليّ بلسانه ، وقلبه ، وسيفه . . بدعوا إلى نصرته عليّ ، ويحاجّ الخارجين عليه ، وبتّبه المترددّين فيه . .

ثم هو علّم على الفئة الباغية ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : « إنما تقتلك الفئة الباغية » .

فلما كان التشاور في حرب الشام . قام عمار إلى عليّ ، فقال :

يا أمير المؤمنين . . إنما بايعناك ، ولا نرى أحداً بقائلك ، فقائلك من بايعك ، وأعطاك الله فيهم ما وعد في قوله تعالى : « ومن بغى عليه لينصرته الله » وقوله : « يأياها الناس ، إنما بغىكم على أنفسكم » وقوله : « فن نكث فإنما بفكث على نفسه » وقد كانت الكوفة لنا ، والبصرة علينا ، فأصبحنا على ما تحب ، بين ماضٍ مأجور ، وراجع معذور ، وإن بالشام الداء المضال . . رجلاً لا يسامها أبداً ، إلا مقتولاً أو مغلوباً ! فعاجله ، قبل أن يعاجلك ، وأنبذ^(١) إليه قبل الحرب . . »

الأشتر الفخمي :

والأشتر من رجالات عليّ ، ومن أصحاب الرياسة والرأى في عشيرته . . وقد كان رأيه في حرب الشام العجالة إلى الحرب ، والإسراع إلى مناجزة القوم . .

تحدث إلى الإمام عليّ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما لنا أن نقول قبل أن نقول ، فإذا عزمتم فلم نق . . فلو سرت بنا إلى الشام بهذا الحد والجدة ، لم يلقوك بمثله ، فإن القلوب اليوم سليمة ، والأبصار صحيحة ، فبادر بالقلوب القسوة^(٢) ، وبالأبصار العمى^(٣) ! .

الأشعث بن قيس :

هو من كندة ، وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر من الهجرة وأسلم مع وفد كندة . وكان من رجال الحرب والسياسة معاً ، وقد كان

(١) أى أعلنه بالحرب ، وأذنه بها .

(٢) القسوة : مفعول به للفعل بادر ، أى بادر القسوة التي تقع بالقلوب ، وكذلك بادر العمى الذي ينزل ، بالأبصار ، إذا طال التوقف في الأمر .

(٣) الإمامة والسياسة : ١ : ٩٢ .

من الذين شَغَبُوا على الخلافة بعد وفاة النبي ، فخرج معه قوم على سلطان الخليفة ، وحُسب في المرتدين ، فلما أطفأ الله هذه الفتنة ، وجيء بالأشعث مغلوباً على أمره إلى أبي بكر ، همَّ أبو بكر أن يقتله ، لأنه كان رأس فتنة ، ولكنه آثر العافية ، فتركه . . ثم ندم بعد ذلك على أنه لم يقتله ، لَمَّا رأى من رِقة دينه .

قالوا : وحين همَّ أبو بكر بقتله قال له الأشعث : استبقني لحربك ، وزوجني أختك ! فاستبقاه أبو بكر ، ليسكون في المجاهدين في سبيل الله ، وزوجه أخته أم فروة^(١) .

وحين وَلِيَ على الخلافة ، كان الأشعث والياً على أذربيجان ، ولاء عليها عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وعلى - كرم الله وجهه - يعلم ما عليه الأشعث ، فتركه في مكانه البعيد عن الأحداث ، حتى إذا فرغ من أصحاب الجمل ، وأراد المسير إلى الشام ، بعث إليه زياد بن كعب ، ومعه كتاب يقول له فيه :

«أما بعد ، فلولا هِنَاتُ كُنَّ فيك ، كفتَ المقَدَمَ في هذا الأمر قبل الناس ، فاعلَ أمراً يحمل بعضه بعضاً ، إن اتقيتَ الله .

» وقد كان من بيعة الناس إياي ما قد بلغك . . وكان طلحة والزبير أول من بايعني ، ثم نقضوا بيعتي على غير حَدَث ، وأخرجوا أمَ المؤمنين إلى البصرة ، فسرتُ إليهما في المهاجرين والأنصار ، فالتقينا ، فدعوتهما إلى أن يرجعا إلى ماخرجا منه ، فأبيا ، فأبلغت في الدعاء ، وأحسنَت في البقاء .

» وإن عملك ليس لك بطُعمة ، ولكنه في عتقك ، وللمال مال الله ، وأنت

من خُزاني عليه ، حتى تسلمه إلى ، إن شاء الله ، وعلى ألا أكون شرًّا
ولأنك !!»^(١)

وهذا الكتاب - كما ترى - يضع الأشعث موضع المحاسبة المسيرة ، بل
والإتهام ، أمام عليّ . . فهو - في رأي عليّ - ليس بالرجل السليم ، المعافي في
دينه . . وفي يده أموال ، هو محاسب عليها ، ومشدد عليه في الحساب عليها !
وقد كانت السياسة تقضي بأن يدع الإمام عليّ هذا الحساب جانباً ، وأن
يضمّ إليه رجلاً مثل الأشعث ، ليكون قوة له في تلك الحرب التي هو مُقدم
عليها ، والتي يحشد له فيها معاوية الرجال والعقاد ، ويبذل في ذلك كل ثمن
وإن غلا !

ولكن الإمام - كرم الله وجهه - لم يكن بقيمة السياسة حساباً ، ولا ينصب
لها ميزاناً في حربه أو سلمه ، وإنما ميزان كل شيء عنده هو الحق والعدل . .
فما كان من حق وعدل فهو ضنين به ، حريص عليه ، وما كان من باطل وزور
فهو عدوّ له ، حَرَب عليه . . لا يحيد أبداً عن قول الله تعالى : « وما كفتُ
مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُوداً » .

وقالوا : إن الأشعث بعد أن جاءه الرسول بكتاب عليّ ، رجع إلى منزله .
فدعا أهل ثِقَتِهِ من أصحابه ، فقال لهم ! إن كتاب عليّ جاءني ، وقد
أوحشني ، وهو آخذي بمال أذربيجان ، وأنا لآحِقُّ بمعاوية ! فقالوا له :
الموت خير لك !! أَتَدْعُ مِصْرَكَ ، وجاعة قومك ، وتكون ذنباً
لأهل الشام ؟

(١) الإمامة والسياسة : ٣٣ .

(٢) أوحشه : أي ترك في نفسه وحشة ، وجفوة .

فأخذ الأشعث بنصيحة الناصحين ، فبايع عليّ ، وسار معه إلى صفين ..
فكان له دور في إقامة جبهة معارضة للحرب ، استطاعت أن تكره عليّاً على
قبول التحكيم ، وقد كان الفصر بين يديه ! فكان ممن ألزم عليّاً التحكيم ،
وشهد الحكمين بدومة الجندل^(١) .

* * *

هذا بعض ما كان يجري في جبهة عليّ .. تجري الأمور فيها على طبيعتها ،
وتؤخذ من وجوهها ، على ما يقضى به الحق والعدل .

أما معاوية ، فقد كان يفتش وينقب .. يتصيد الرجال من كل وجه ،
وبأخذهم بكل حيلة ! إن استعصى عليه أحد ، واعتصم بدينه ، قتل له قتلاً رفيعاً
ليناً ، فاصطاده به !

إن الأفاعي لا يطاق لقاءها وتُنال من خلفٍ بأطراف اليدِ
هكذا كان معاوية ! يمدّ يده إلى الذّهاة من الرجال فيصطادهم من أقيمتهم ..
أما عليّ ، فإنه كان يلقيهم لقاء صريحاً مواجهاً ، فإما أن يُقبلوا ، وإما أن
يدبروا .. ثم لا يموت أسفاً على من أدبر ، ولا يستبدّ به الفرع بمن أقبل .. إنه
يدعو دعوة الحق ، « فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضلّ فإنما يضلّ
عليها ! »

وهذا بعض من وجوه تلك السياسة ، التي اتبعها معاوية ، في الإعداد
للحرب ، وحشد القوى لها .

بين معاوية وعمره :

نظر معاوية إلى آفاق الدولة الإسلامية ، وتفرّس في وجوه الرجال ، وفي
القوى التي يملكونها .. من عقلية ، ومادية ، كي يضمهم إليه ، فإن لم يستطع

(١) أسد الغابة ، في معرفة الصحابة جزء ١ ص ١٣٦ .

امتلاك أمر الرجل ، عمل على عزله عن عليّ ، أو كسر حدة اندفاعه وحاسه ،
في نصرته والانقياد له !

وعمر بن العاص ممن لا يستغنى معاوية عن رأيه وتدبيره ، فهو رجل
سياسة ، ورجل حرب مماً . . عُرف بدهائه وسعة حيلته ، حتى عُدّ من
دهاء العرب .

وكان عمرو قد اعتزل الفتنة منذ أحسّ بالخطر يحدق بعثمان ، وبالقتل
يترصده ! فلجأ إلى فلسطين ، وأقام بها ، ولم يشترك فيما كان بين عليّ
وأصحاب الجمل .

وكان إلى ذلك الحين مقيماً بفلسطين ، وكأنه يريد ألاّ يبعد كثيراً عن مصر ،
التي فتحها ، والتي كان إلى يوم قريب والياً عليها . ! إنه هناك يرقب الأحداث
الدائرة ، ويستقبل الأنباء من مصر ، ومن الشام ، والعراق . . فإذا دعاه داعٍ
إلى الحركة تحرك ، ووثب ، وليس همّه إلا مضر !

إن معاوية يعلم كل هذا من أمر عمرو . . ولهذا كتب إليه كتاباً
يمهد له فيه الطريق إلى تحقيق الأمل الذي ينتظره .

كتب إليه يقول :

« أما بعد ، ، فقد كان من أمر عليّ ، وطلحة ، والزبير ، ما قد بلغك ،
وقد سقط علينا مروان بن الحكم في رافضة من أهل البصرة ! وقدم عليّ جرير
ابن عبد الله ، في بيعة عليّ !

« وقد حبستُ نفسي عليك ، فاقدمْ عليّ بركة الله . . ! ! »

والكتاب - على إيجازه - يشير إلى دلالات كثيرة .

فهو (أولاً) لم يكشف لعمره كشفاً واضحاً عن مكانه ، في هذه الحرب التي سيخوضها مع معاوية ، وعن نصيبه من النصر المؤمل !

ثم هو (ثانياً) شدّ عمرأ شداً قوياً ، إذ أشار إلى أن مروان وغيره من بنى أمية ليسوا بمكان الثقة التي عند معاوية لعمره ، فها هو ذا معاوية يحبس رأيه في موقفه من عليّ ، حتى يعرف رأى عمره في هذا !

ومعاوية وعمره ، يعرف كل منهما صاحبه ، معرفته لنفسه ، إذ هما على طبيعة تسكاد تكون واحدة ! ولهذا فإنه لم يعجل بالاستجابة لمعاوية ، وذلك ليوقد في نفس معاوية شعلة من الوسوس ، تزيد من لهفته في طلب عمره ، وفي الإلحاح عليه !

وربما وقع في نفس معاوية أن عمرأ يعدّ نفسه ليكون إلى جانب عليّ ، حين نظر فهداه نظره إلى أن النصر لعليّ !

وربما وقع في نفس معاوية أيضاً أن عمرأ ينتظر حتى تنجلي الأمور ، فيميل إلى الجانب الذي يلوح له الفصر تحت راياته !

قالوا : إن عمرأ حين أتم كتاب معاوية ، استشار ولديه : عبد الله ، ومحمداً ، وقال لهما : يا ابني .. إنه قد كان مني في أمر عثمان فلتات لم استقلها بعد ، وقد كان من هروبي بنفسى حين ظننت أنه مقتول ، ماقد احتمله معاوية عني !

« وقد قدم على معاوية جريرُ ببيعة عليّ ، وقد كتب إلى معاوية بالقدوم عليه .. فما تريان ؟

فقال عبد الله — وهو الأكبر ، والأثني — أرى والله أن نبى الله قبض وهو عنك راض ، والخليفةتان من بعده كذلك ، وقتل عثمان وأنت

غائب . فأقيم في منزلك ، فليست بمجمولاً خليفة ، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية ، على دنيا قليلة ، أو شككتما أن تهلكا ، فتستويا فيها جميعاً ! .
وقال محمد : أرى أنك شيخ قريش ، وصاحب أمرها ، فإن ينصروا هذا الأمر ، وأنت فيه غافل ، يصغر أمرك . . فالحق بجماعة الشام ، واطلب بدم عثمان . فإنك به تستميل إليك بني أمية ! .

فقال عمرو : أما أنت يا عبد الله ، فأمرتني بما هو خير لي في ديني ، وأما أنت يا محمد ، فقد أمرتني بما هو خير لي في دنياي !
قالوا : ثم دعا غلاماً له يقال له وردان ، وكان داهياً ، فقال له عمرو : يا وردان . . احطط . . يا وردان . . ارحل . . يا وردان . . احطط ، يا وردان ارحل ! .

فقال له وردان : أما إن شئت نبأتك عما في نفسك ! .
فقال عمرو : هات يا وردان ! .

فقال : اعتزكت الدنيا والآخرة على قلبك ! فقلت : مع علي الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية الدنيا بغير آخرة ! فأنت واقف بينهما ! .
فقال عمرو : ما أخطأت ما في نفسي ! فما ترى يا وردان ؟ .
قال : أرى أن تقيم في منزلك ، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك ! !

فقال عمرو : الآن ؟ حين شهرتني العرب بمسيري إلى معاوية ! ! .
ولا نقول كثيراً على هذا الخبر ، من حيث صحته أو عدم صحته ، ولكنه لا يبعد كثيراً عن واقع الحال من أمر عمرو ، وما كان يدور في نفسه ! .
والتقى عمرو ومعاوية . .

التقى الرجلان ، ومع كل منهما دهاؤه ، ومداورته ، وحرصه ،

وحذره . . فكثرت بينهما الأخذ والرد ، والإقدام والإحجام ، والتلويح والتصريح ، ثم التقيا آخر الأمر ، على ما كان يرجو كل منهما من صاحبه ! .

بايع عمرو معاوية ، وأسلمه يده !
ونزل معاوية عمرو عن مصر ، تكون له طُعمة ، عند ما يتم النصر لهما !
وهكذا سَوَّى الحساب بين الرجلين !
يقول ابن قتيبة : « لما قدم عمرو بن العاص على معاوية ، وعرف حاجته إليه ، باعده من نفسه ، وكايد كل منهما صاحبه ! .
فقال عمرو لمعاوية : أعطني مصر ! .
فتملك معاوية ! وقال : ألم تعلم أن مصر كالشام ؟ .
قال عمرو : بلى ! ولكننا إنما تكون لى إذا كانت لك ! وإنما تكون لك إذا غلبت علينا على العراق ، وقد بمث أهلها بطاعتهم إلى على ! ! » .

ولاشك أن بنى أمية كانوا بمشهد من مسرح الأحداث ، فيما كان يجرى بين عمرو ومعاوية ، وأنهم كانوا يرقبون بحذر ، دخول عمرو بينهم وبين معاوية ، فيضيق عليهم منافذ الوصول إليه ، والمشاركة فى سلطانه المقبل !
واسكنهم كانوا من جهة أخرى يعرفون أن معاوية لا يدع عمرا بقلت من يده .
ولهذا ، فإنه ما كاد الأمر يصل بين عمرو ومعاوية إلى مرحلة الاتفاق حتى رأبنا عتبة بن أبى سفيان يتقدم إلى معاوية برأيه فى عمرو ، وبلائته المنتظر فى الصراع بين معاوية وعلى . . وكأن عتبة يريد بهذا أن تكون له يد عند عمرو ، يعرفها له عند الحاجة ! ! .

يقول عتبة لمعاوية : أما ترضى أن تشتري عمراً بمصر إن هى صفت لك ؟
ليتك لا تغلب على الشام ! ! .

ومعاوية لا يستكثر مصر على عمرو ، ولكنه يريد بهذا التردد أن يكسر من أطباع عمرو ، وأن يقف به عند طلب الإمارة ، لا الخلافة ، التي لا يستبعد من عمرو أن ينازعه فيها ، إن هو لم يقطع عليه الطريق إلى هذه الغاية ، بمثل هذا التدبير ، من المساومة على ولاية دون مصر ، حتى إذا ظفر عمرو بمصر ، سكن ، واستقر ، ورضى !

قالوا : فلما سمع معاوية قول عتبة ، بعث إلى عمرو ! فأعطاه مصر ! ولما كتب معاوية لعمرو بمصر ، كتب في أسفل الكتاب : « ولا ينقض شرط طاعة » فقال عمرو اكتب : (ولا تنقض طاعة شرطاً)^(١) وقالوا : إن مروان بن الحكم لم يكن راضياً على أن يذهب عمرو بهذه الصفقة من معاوية ، وفي بني أمية من هو أحق بها !

قال مروان لمعاوية : ما بالي لا أشتري ؟ وهل عمرو أولى منه بنصرة معاوية ؟ وهل هو أقدر منه على هذا الأمر ؟ فلم لا يشتري مصر من معاوية بدلاً من عمرو ؟

ولكن معاوية يلقى مروان بهذا الرد المسكت ، المفصم : اسكت يا ابن عمّ فإنما نشترى لك الرجال^(٢) ! !

إن معاوية لا يشتري الرجال لنفسه ، وإنما يشتريهم للدولة التي يريدونها لبني أمية ! !

وهؤلاء نصرهم له من غير بيع أو شراء ، إذ هم شركاء في الأمر ، أما عمرو وغيره ، فلا بدّ من ثمن لقاء نصرهم ، وموازرتهم !

(١) الإمامة والسياسة : ١ - ١٠٠

(٢) الإمامة والسياسة ١ - ١٠٢

وقد بدأ معاوية وعمرو يعملان !

قال معاوية لعمر : إني أريد أن أكتب إلى مكة والمدينة كتابا ، أذكر فيه قتل عثمان ، فأما أن ندرك به حاجتنا ، أو نكفهم عن المسير ! فقال عمرو : إلى من تكتب ؟

قال : أكتب إلى ثلاثة نفر . . رجل لعلّ ، لا يريد غيره . ولا يزيد كتابنا فيه إلا بصيرة ! أو رجل يهوى عثمان ، فلا يزيد على ما هو عليه . أو رجل معتزل لا يريد القتال !

قال عمرو : على ذلك ! ؟

قال معاوية : نعم ! .

قال : اكتب !

فكتب إلى أهل مكة والمدينة ، أما بعد . فإنه مهما غاب عنا ، فإنه لم يغب علينا أن علينا قتل عثمان ، والدليل على ذلك أن قتله عنده ! وإنما نطلب بدمه ، حتى يدفع إلينا قتله ! فنقتلهم ، فإن دفعهم إلينا كففتنا عنه ، وجعلناها شورى بين المسلمين ! على ما جعلها عمر بن الخطاب . . أما الخلافة فلسنا نطلبها ! ! فأعينونا يرحمكم الله ، وانهمضوا من ناحيتكم ! » .

فكان جواب أهل المدينة : « أما بعد . فإنك أخطأت خطأ عظيما . . وأخطأت مواضع النصر وتناولتها من مكان بعيد ! ! وما أنت والخلافة يا معاوية ، وأنت طليق ، وأبوك من الأحزاب ! ؟ فكفّ عنا ، فليس لك قبلنا ولي ولا نصير ^(١) ! ! » .

وسنرى فيما بعد ، كيف كان عمرو يعمل مع معاوية ، وكيف انتفع به معاوية في كثير من أموره ، عند ما تشدد ، وتنازمت الأمور ! .

(١) نسب هذا الكتاب إلى المسور بن مخرمة (الإمامة والسياسة ١/١٠٢)

كما نسب إلى ابن عمر (شرح نهج البلاغة) جزء ١/٢٥٨ .

(م ٢٦ - علي بن أبي طالب)

معاوية وابن عمر :

ولابن عمر مكان في نفوس المسلمين ، لمكان أبيه من نفوسهم أولاً ،
ولما اشتملت عليه نفسه من إيمان وتقوى ثانياً . . وقد كان اعتزل الفتن
كلها وسكن إلى بيته . . فرفع ذلك إليه الأبصار ، وآقت نحوه الآمال !
وعين معاوية لا تخطئ الوقوف على ابن عمر ، يخطب مودته ، ويمد
إليه يده . ليكونا معاً جهة واحدة ! .
فكتب إلى ابن عمر يقول :

« أما بعد ، فإنه لم يكن أحد من قريش أحبَّ إليَّ أن يجتمع الناس
عليه منك ، بعد عثمان ، فذكرتُ خذلك إياه ، وطعنك على أنصاره ،
فتغيرتُ لك ! ! وقد هوّن عليّ ذلك خلافتك على عليّ ، وطعنك عليه ،
ورددني إليك بعض ما كان منك ! فأعينا يرحمك الله ، على حق هذا
الخليفة المظلوم ، فإنني لست أريد الإمارة عليك ، ولكنني أريدها لك ،
فإن أبيت كانت شوري في المسلمين ! ! » .

والكتاب جدير بأن يكون من معاوية ، فما أحد يحسن هذا النمط من
الحديث إلى الناس مثل معاوية ، يلقى كل إنسان بما يناسبه ، ويحيى إليه من
حيث يجد الطريق إلى قلبه وعقله جميعاً ! .

فهو يبدأ ابن عمر بتلك العاطفة التي يقول إنه يحملها له ، من الحب
والإيثار بالخلافة بعد عثمان ! فهو من نفس معاوية بهذا المكان المكين ،
وتلك المنزلة الرفيعة ! .

ثم يعود فيري ابن عمر أن هذه العاطفة قد دخل عليها شيء من الفتور
والخمود ، لما كان من ابن عمر من خذله عثمان ، وطعنه على أنصاره ! .
وما ذا إذن ؟ أهى الجفوة والعداوة بين معاوية وابن عمر ؟ .

وهل من سياسة معاوية أن يباعد أحداً بعداوة في هذا الوقت ؟
وابن عمر بالذات ؟ .

بل ها هو ذا يعود إلى ابن عمر راضياً غاية الرضا ، حين يذكر لابن عمر
ما كان من خلافه على عليّ ، وطعنه عليه !! وتلك من ابن عمر بالتى تثليج
صدر معاوية ، وتمطقه عليه ؟ .

هكذا يرى ابن عمر أنه وإن يكن له عتبٌ عليه وجفوة منه ، فإن
استغفابه ، والذهاب بجفوته ، والطريق إلى مودته ، هو الخلاف على عليّ ،
والطعن عليه !! .

وأما ابن عمر قد فعلَ هذا ، أو هو فاعل إن لم يكن فعل ، فهو
ومعاوية على طريق واحد ، وفي جبهة واحدة . . ضد عليّ !! .
وإذى ، فما هو ذا مكان ابن عمر معدّ في جبهة معاوية . . للأخذ بحق
الخليفة المظلوم . . ثم للنظر في الخلافة . . وهو نظر لا يعدو ابن عمر ! فإن أبى
أن يقبلها ، جعلها شورى في المسلمين ، كما فعل أبوه !! .

سياسة ودهاء ، وبصر نافذ ، وتدير محكم ، لا يسكون إلا من معاوية ،
الذى يقول عن نفسه : « لو كان بينى وبين الناس خيط ما انقطع ، إذا شدوا
أرخت ، وإن أرخوا شدت » ، ولكن ابن عمر يلقى كل هذا بدينه الذى
انعقد عليه قلبه . . فلا يعطى دنياه شيئاً من دينه ، ولا ينظر فى شيء يلبس
عليه أمره ، فى هذه الفتن التى اعتزلها ، وقطع ما بينه وبينها ! .

« فكتب إلى معاوية يقول :

أما بعد : فإن رأى الذى أطمعك فى ، هو الذى صيرك إلى ما صيرك . .
ترككُ علياً فى المهاجرين الأنصار ، وأتبعك فيمن اتبعك ؟ .
وأما قولك : إني طعنت على عليّ ، فلمرى ما أنا كملت فى الإسلام

والهجرة ، ومكانه من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ! ولكن حدث
أمر لم يكن إلينا فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عهد . . ففزعت
إلى الوقوف ، وقلت : إن كان هذا فصلا تركته ، وإن كان ضلالة فشر
منه نجوت . . فأغن عني نفسك ^(١) ! ! » .

وقد قبل معاوية من ابن عمر ألا يكون مع علي . . فرضي منه بهذا ،
واطمأن من جهته ! .

معاوية وسعد بن أبي وقاص :

وهناك سعد بن أبي وقاص . . لم يبق غيره وغير علي من أصحاب الشورى !
إذن فهو قوة يمكن أن تقف إزاء علي ، وتنازعه الخلافة ! .

فإذا يمكن أن يكون عنده في هذا الموقف ؟ .

أيمكن أن يكون إلى جانب علي . . فيكونان معاً بقية الشورى ، ومن إليهم
يُرجع الأمر ؟ وما حظ معاوية إذن ؟ .

ولكن سعداً اعتزل الفتنة من أولها ، حتى إنه لم يبايع عليّاً ، إذ قدّر
أن البيعة لا تتم ، وأن أمر الناس إلى السيف ، وأنه إن بايع لزمه أن يحمل
سيفه ويقاتل مع الخليفة ، إن أحدا قاتله أو خرج على سلطانه ! وهو يتحرج
أن يحمل السيف لقتال المسلمين ، حتى يجد السيف الذي إن ضرب به مسلماً
نبا عنه ، وإن ضرب به غير المسلم قتله ، كما يقول — وهيئات ! .

ومعاوية لا يعرف اليأس ! .

وإنه إن لم يجد في سعد استجابة إلى ما يدعو إليه من نصرته ، فلا أقل

(١) الإمامة والسياسة : جزء ١ : ١٠٣ .

من أن يعمل على أن يُمسك به في موقفه هذا الذي وقفه ، حتى لا يميل إلى جانب عليّ .

فكتب إلى سعد . . يقول :

« أما بعد . . فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى ، الذين أثبتوا حقه ، واختاروه على غيره . »

« وقد نصره طلحة والزبير . . وهما شريكك في الأمر والشورى ، ونظيرك في الإسلام . »

وخفت لذلك أم المؤمنين ، فلا تكررهنّ ما رضىوا ، ولا تردنّ ما قبلوا ، فإنما نردّها شورى في المسلمين . »

وأنت ترى الكتاب قد أخذ على سعد كل سبيل ، في تخليه عن نصرة عثمان . . . لأنه من أهل الشورى ، الذين اختاروا عثمان للخلافة ، فمن حقه عليهم أن يكونوا أول ناصرٍ له ، آخذٍ بحقه إن خذل ، وبدمه إن قتل .

وانظر جواب سعد ، فقد أبطل تدير معاوية ، وقطع مطعمه من جهته ، يقول لمعاوية :

« أما بعد ، فإن أهل الشورى ليس أحد منهم أحقّ بها من صاحبه . . غير أن عليّاً كان من السابقة ، ولم يكن فينا ما فيه ، فشاركنا في محاسنها ، ولم نشاركه في محاسنه ، وكان أحقنا كلنا بالخلافة ، ولكن مقادير الله تعالى التي صرفتها عنه ، حيث شاء ، لعلمه وقدره ، وقد علمنا أنه أحق بها منا ، ولكن لم يكن بد من الكلام في ذلك والنشاجر ! فدع هذا .

« وأما أمرك يا معاوية ، فإنه أمر كريهنا أوله وآخره . »

« وأما طلحة والزبير ، فلو لزمنا بيوتهما لكان خيراً لهما .

والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين ! »^(١) .

هذا بعض ما كان من معاوية مع وجوه المهاجرين ، أصحاب الخلافة ،
والمختلفين عليها .

ولكن في الأنصار قوة ، وفيهم جبهة قوية تقف مع عليّ . . فهل يدع
معاوية الأنصار وما اختاروا ؟ .
كلا ! .

فإنه عمل على أن يُلقى بشباكه إليهم ، ولا عليه إن وقع في شباكه
صيد أو لم يقع . . إنه إن يخسر شيئاً ، وقد يكسب ! .

رُوى أنه بعد أن تلقى معاوية ما ورد إليه من أجوبة ، لما كُتِبَ به إلى
من كُتِبَ ، من وجوه المهاجرين ، قال له عمرو :

كيف رأيت يا معاوية رأيي ورأيك ؟ أخبرتك بالأمر قبل أن يقع ! ! .
فقال معاوية : رجوتُ ما خفتُ ! »^(٢) .

فمعاوية على رجاء أبداً ، لا ييأس مما هو يئوس منه ! إن اليأس لا شيء
معه ، والرجاء حتى في اليئوس منه ، إن لم يجيء بشيء فلن يذهب بشيء ! .

إنها سياسة الذُهاء الحذرين ، الحريصين على ألا يفوتهم شيء ، ولو كان
معلقاً بجناحي عقاب ! .

وإذن فلن يتردد معاوية في الكتابة إلى من يعلم عن يقين أنهم لن
يستجيبوا له أو يرضوا عنه ، فهو — كما قلنا — لا يخسر شيئاً ، وقد
يكسب ! .

(١) الإمامة والسياسة ١٠ : ١٠٤ .

(٢) الإمامة والسياسة ١ : ١٠٥ .

بين معاوية ومحمد بن مسلمة الأنصارى :

كان سيداً من سادات الأنصار ، وبطلاً من أبطالهم . . أسلم بالمدينة ،
على يد مصعب ابن عمير ، وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين
أبي عبيدة بن الجراح .

وقد شهد محمد بن مسلمة المشاهد كلها ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ما خلا تبوك ، حيث استخلفه رسول الله على المدينة .

وفي يوم أحد كان من نفر القليل الذين ثبتوا مع النبي صلى الله عليه
وسلم . .

ولما كانت الفتنة في أخريات خلافة عثمان اعتزل ، ولزم بيته ، وكسر
سيفه ! وقد جاءه عمار بن ياسر ، حين تخلف عن البيعة اعلًى ، يدعوهُ إلى
مبايعته ، فكان بينهما حوار ومراجعة ، ولكن ابن مسلمة لم يتحول عن
موقفه الذي اختاره ، وكان ذلك لحديث حدثه النبي صلى الله عليه
وسلم به ^(١) . .

عن محمد بن سعد ، عن يزيد بن هارون ، عن هشام بن حسان ، عن
الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى محمد بن مسلمة سيفاً ، فقال :
قاتل به المشركين ما قوتلوا ، فإذا رأيت المسلمين قد أقبل بعضهم على بعض ،
فأت به أحداً ، فاضرب به ، حتى تقطعه ، ثم اجلس في بيتك ، حتى
تأتيك يد خاطئة ، أو مئة قاضية ! » .

وعن زيد بن أسلم ، عن محمد بن مسلمة ، قال : أعطاني رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، سيفاً ، فقال : يا محمد بن مسلمة ، جاهد بهذا السيف في سبيل الله ،

(١) انظر ص ٣٠٤ من هذا الكتاب .

حتى إذا رأيت من المسلمين فئتين تقتتلان ، فاضرب به الحجر حتى تكسره ، ثم كفّ لسانك ويدك حتى تأتيك منية قاضية ، أو يد خاطئة . . فلما قتل عثمان ، وكان من أمر الناس ما كان خرج ، إلى صخرة في فئائه ، فضرب الصخرة بسيفه ، حتى كسره !

وعن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، قال : كان محمد بن مسلمة ، يقال له فارس نبيّ الله . . فاتخذ له سيفاً من عود ، قد نحتته ، وصيّره في الجفن معلقة في البيت ، وقال : إنما علقتُه أهيب^(١) به ذاعراً^(٢) .

ومع هذا الإصرار العنيف من محمد بن مسلمة على موقفه هذا ، فإن معاوية لم ييأس من الطمع فيه ، إن لم يكن في ضته إليه ، فليكن في تثبيته على موقفه ، وإلزامه العهد الذي أخذه على نفسه ! !

فكتب معاوية إليه :

« أما بعد ، فإني لم أكتب إليك ، وأنا أرجو مبايعتك ، ولكنني أذكرك النعمة التي خرجت منها . . ! إنك كنت فارس الأنصار ، وعدة المهاجرين ، فادّعيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً لم تستطع فيه الإمضاء^(٣) ! أنتهى عن قتال أهل الصلاة ؟ فهلاً نهيت أهل الصلاة عن قتل بعضهم بعضاً ؟ أو ترى أن عثمان وأهل الدار ليسوا بمسلمين ؟ .

(١) أى أخوف ، والداعر من يذعر الناس ، أى يخيفهم .

(٢) الطبقات لابن سعد : ٤٤٣/٣ .

(٣) يشير معاوية إلى مراجعة عمار بن ياسر ، لمحمد بن مسلمة في هذا الحديث ، الذي رواه عن رسول الله ، وشك في هل قال الرسول : « إذا رأيت المسلمين » أو « إذا رأيت أهل الصلاة » ، وقد طلب إليه عمار أن يأتي بشاهد يشهد له بما سمع من الرسول . .

« وأما قومك الأنصار ، فقد عصوا الله تعالى ، وخَذَلُوا عثمان ، وسألتهم
وسألك الله تعالى عن الذي كان ، يوم القيامة ! » .

فكتب إليه محمد بن مسلمة :

« أما بعد ، فقد اعتزل هذا الأمر من ليس في يده من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، مثل الذي في يدي ، وقد أُخبرت بالذي هو كائن قبل
أن يكون^(١) ، فلما كان ، كسرت سيفي ، ولزمت بيتي ، واتهمت الرأي
على الدين ، إذ لم بصح لي معروف أمر به ، ولا منكر أنهى عنه ! .

« ولعمري يا معاوية ، ما طلبت إلا الدنيا ؛ ولا ابتغيت إلا الهوى ،
ولئن كنت نصرت عثمان ميثاً ، لقد خذلقته حياً ، ونحن ومن قبلنا من
المهاجرين والأنصار ، أولى بالصواب ! »^(٢) .

لقد اطمأن معاوية إلى أن محمد بن مسلمة سيمضي على ما عنده ، وأنه
لن يكون في جبهة علي ، وحسب معاوية أن تتعادل كفته مع علي عند
الأنصار ، وأن يكونوا على الحياد ، بعد أن ضم الشام كلها إلى يده ،
وأمسكها بقبضته ! .

معاوية ، وقيس بن سعد :

وقيس ، هو ابن سعد بن عباد الأنصاري !
وسعد بن عباد ، هو الذي كان الأنصار قد عقدوا العزم على مبايعته ،
بالخلافة بعد وفاة رسول الله ، وعقدوا ذلك مجتمعهم في سقيفة بني ساعدة ،
وقد انتهى الأمر بمبايعة أبي بكر ، وأبى سعد أن يبايع ، إلى آخر حياته !

(١) يشير إلى ما أخبره به النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) نهج البلاغة : ٢/٢٥٩ . الإمامة والسياسة : ١ : ١٠٤ .

أما قيس ، فكان سيداً ، ماجداً ، مهيب الطلعة ، فارح الطول ، إلى حدّ لا يكاد يقع في الناس ، إلا قليلاً .

يقول المبرد : « وكان قيس سفاطاً — أى قليل شعر العارضين — فكانت الأنصار تقول : لوددنا أنا اشترينا له لحية بنصف أموالنا ! » وذلك لأن غزارة اللحية وكثافتها ، كانت من تمام كمال الرجل عند العرب !

وكان أبوه سعد ، حين خرج من المدينة ، مغاضياً للخليفة أبي بكر ، توجه إلى حوران ليقم فيها ، وكان قد قسم ماله بين ولده ، وترك زوجاً ، حاملاً ، لم يعرف حملها ، فلما ولد مولودها ، مشى أبو بكر ، وعمر ، إلى قيس ، ليأخذ المولود نصيبه من ميراث أبيه ، فقال له قيس : نصيبى لهذا المولود ، ولا أغير ما فعل سعد ! !

وقد وقف سعد إلى جانب عليّ ، وحارب معه في حرب الجمل ، وكان هو وقومه على ولاء صادق ، للإمام عليّ ، في جميع مواقفه !
ولهذا ، فقد ولاء عليّ مصر ، لإخلاصه ، وشجاعته ، ومكانته في قومه ، وفي العرب عامة !

ومصر قوة لها حسابها في هذا الصراع الذي بات وشيكاً بين عليّ ومعاوية ، ثم هي الدرة التي يطعم معاوية في أن يحلّي بها تاج ملكه المنتظر ، والتي اشترى بها عمرو بن العاص ، وأطعمه فيها !

وإذن ، فلا بد من تدبير ، يستميل به قيس بن سعد إليه ، ويكسب نصره ، وعونه ، فإلا يكن ذلك ، فليقطعه عن عليّ ، وليفسد ما بينهما ، من ألفة وموافقة !

فكتب إليه مرة يقول :

« أما بعد ، فإنكم إن كنتم تقفتم على عثمان في أثره رأيتموها ، أو ضربية

مروط ضربها ، أو في شتمه رجلاً ، أو تسييره أحداً ، أو في استعماله الفتيان من أهله ، فقد علمتم أن دمه لم يحلّ لكم بذلك . . فقد ركبتم عظيماً من الأمر ، وجتم شيناً إدّاً !

فنبّ إلى الله يا قيس ، إن كنتَ من المُجْلِبِينَ على عثمان ، وإن استطعت أن تسكون ممن يطلب بدم عثمان ، فبايعنا على أمرنا ! ولك سلطان العراقين إن أنا ظفرت ، ما بقيت . . ولئن أحببتَ من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان ! وسلّني غير هذا ما تحبّ ! ! . »

والرسالة - كما ترى - سهم مَرِيش ، رَحَى به من لا يخطيء ! إنها من تدبير رجل خبير بأهواء النفوس ، عليم بمواطن القوة ، والضعف منهم !
فمعاوية - فيما يبدو للناس يومذاك - وليُّ دم عثمان ، والمطالب بالقصاص له ، والثأر من قاتليه . .

وها هو ذا يحتمل قيس بن سعد ، نصيبه من هذا الورز ، ويدخل إلى شعوره أنه ممن يرى معاويةً القصاص منهم !
ثم بجى معاوية من جهة أخرى ، فبَلّغَ قيساً بالموادعة والياسرة . . فهو لا يطلب دمه ، وإنما يطلب إليه أن يفسل الخوّة بالتوبة ، وأن يستغفر لذنبه ! ! وهذا أضعف الإيمان !

فإن أراد قيس أن يتطهّر أكثر وأكثر ، فليكن من المطالبين بدم عثمان !
فإن سمحت نفسه بذلك فليبايع معاوية ، وليكن بدأ واحدة معه ،
لأخذ بدم الخليفة المظلوم ! .

ولكن ما لهذا كان تدبير معاوية مع قيس ، وما كان يعنيه من أمره أن يتوب أو لا يتوب ! . وما كان يعنيه من دم عثمان أن يقتصر له أو يهدّر ! .
وإنما هو يحارب في سبيل دولة ، ويقاتل من أجل سلطان ! .

ولهذا فقد سمحت نفسه بأن يُشرك معه أوليائه ونصراءه، في هذه الدولة
وذلك السلطان، ويقسم بينهم الأسلاب والغنائم.. سَلَفًا !

وقد وعد عمرو بن العاص بمصر، وأعطاه وثيقة بها، إن هو غلب عليها !
وها هو ذا حين يأخذ مصر، من يد قيس بن سعد، لتسكون إلى يد
عمرو بن العاص، فإنه يعود فيملاً يدي سعد بالأمل في سلطان العراقين له !
وفي سلطان الحجاز لمن يرضاه سعد من أهله وعشيرته !

وليس هذا فحسب ! وإنما لقيس أن يسأل معاوية ما أحب غير هذا !
وماذا غير هذا ؟

الشام .. وهي في يد معاوية، ودار إمارته، وعاصمة دولته ؟ .
لم يبق غير مصر ! .

ولكن معاوية لا يصرح بها، وعين عمرو ترصدها ! .

وإنما حسبه هذا التلميح، الذي يغني عن كل تصريح ! ! .

ولكن ماذا فعلت هذه الرسالة في نفس قيس ؟ وماذا أثمر هذا التدبير
البارع، وذلك السكيد المتين ؟ .

كتب قيس إلى معاوية يقول :

« أما بعد فقد وصل إلى كتابك ! .

« وأما ما سألتني من مبايعتك على الطلب بدم عثمان، وما عرضته
عليّ، فقد فهمته، وهذا أمر لي فيه نظر وفكر، وليس هذا مما يُعجل إلى
مثله، وأنا كافٌّ عنك، وليس بأتيتك من قبلي شيء تكرهه، حتى ترى،
ونرى ! » .

ونحسب أن في هذا الكتاب رضى لمعاوية، فقد ضمن ألا يأتيه من

مصر شيء يكرهه ، وكان أخوف ما يخافه أن يطبق عليه في صفين أهل العراق ، وأهل مصر ، فيقع بينهما ، وهيهات أن يفلت منهما .

فإذا هو أمين أن يبغته أهل مصر ، فقد كسب نصف المعركة من غير حرب ! ولكن معاوية ، لم يرض من قيس بهذا .

وهذا أمر يدعو إلى العجب ، فما كان معاوية بطمع من قيس في أكثر من هذا ، إلا أن يكون قد وثق فيما هو أكثر ، وأقرب .

كان كتاب قيس هذا وثيقة تُدينه عند عليّ ، وتفضحه بين قومه .

وماذا لو اتخذ معاوية من هذا الكتاب سهماً يرمى به قيساً فيصيب مقاتله ، ويصيب عليّاً معه بخيبة أمل ، واضطراب حال .

أذاع معاوية ما كتب إليه قيس ، وكان ذلك أمر خارج عن إرادته وتدبيره ! فبعد أن قرأ الكتاب ، ووثق أنه من قيس ، وعليه خاتمه ، ويحمله رجل من رجاله — طوى الكتاب ، وأعادته إلى الرسول ثانية ، ووكل به من يصحبه ، حتى يعترض أصحاب عليّ ، فيقع في أيديهم ، وكأنه ضلّ الطريق إلى معاوية .

ثم كتب إلى قيس :

« أما بعد . . . فقد قرأت كتابك ، فلم أرك تدنو ، فأعدك ستماً ، ولم أرك تباعد فأعدك حرباً ! وأراك كحبل الجرور ، وليس مثلي بصانع بالخداع ، ولا يخدع بالأكايد ، ومعه عدد الرجال ، وأعنة الخيل ، فإن قبلت الذي عرضت عليك ، فلك ما أعطيتك ، وإن أنت لم تفعل ، ملأت عليك مصر ، خيلاً ، ورجالاً . . . والسلام ! » .

أهكذا يلتقي معاوية قيساً بهذا الوعيد ، ويؤذنه بهذه الحرب ، وقد

كتب إليه من قبل هذا الكتاب ، الذى يحمل إليه ، القول اللين ،
والمصانعة الرفيقة ، والأمل العظيم الجليل ؟ .

إن ذلك لم يكن ، إلا بعد أن أمسك قيساً من مقلته بهذا الكتاب الذى
بعث به إليه — أودسه هو عليه — ووعدته فيه بأن مصر إن لم تكن معه ،
فلن تكون عليه !

ولاشك أن قيساً ، قد أحسن بما رماه به معاوية من كيد ، وأن علياً
وأصحاب علي ، قد كثرت أقوالهم فيه ، وفيما يقضون فيه من أمره !

ولعله أراد أن يصلح ما أفسد ، بيده ، أو بيد مدسوسة عليه ، فكتب
إلى معاوية يقول :

« أما بعد .. فالعجب من استسقاطك رأيي ، والطمع في أن تسومنى —
لأبائىك — الخروج عن طاعة أولى الناس بالأمر ، وأقولهم للحق ، وأهدام
سبيلاً ، وأقربهم من رسول الله وسيلة !

« وتأمرنى بطاعتك ، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقولهم للزور ،
وأضلهم سبيلاً ، وأبعدهم من رسول الله وسيلة .. وَلَدُ ضَالِّين مُضِلِّين ، طاغوتٌ
من طواغيت إبليس ! !

« وأما قولك : إنك تملأ عليّ مصر خيلاً ورجالاً ، فأتى لم أشغلك عن
ذلك حتى يكون منك ، إنك لذر جدّ .. والسلام » .

وهل يملك قيس بعد الآن شيئاً من أمر مصر ؟ وهل يجد من يستجيب
له إذا هو دعا إلى حرب معاوية ، بعد أن ذاع فى الناس أنه عقد صفقة مع
معاوية ينال بها ملك العراق لنفسه ، وسلطان الحجاز لمن يختار من أهله ؟

لقد أصبح قيس متهماً عند الإمام ، وعند أصحاب الإمام . فلا يأمن له

أحد . ولا يقبل منه أحد قولاً أو فعلاً . بعد أن أمسك الناس منه بهذا الفعل
المفكر . الذى لا يدفع عنه مغيبته عُذْر . ولا يشفع له فيه أن يقال إن معاوية
قد غرّر به . أو دسّ الكتاب عليه . . !

قد قيل ما قيل . إن صدقاً وإن كذباً

فما اعتذارك من قولٍ إذا قيلاً ؟

إن مصر قد خرجت عن سلطان قيس ، فاختلط أمرها ، واضطربت
أحوالها . ولعاقبة وعمرها فيها عيون راصدة ، وأيد عاملة ، وجدت في هذه الحال
فرصتها ، فجدت وعملت ، حتى شغلت مصر بأحداثها عن أن تشارك بأى
جُهد في حرب صفين ، وكأنها لم تكن من الأمصار التابعة للإمام ،
الموالية له !

وإذن فقد فرغ معاوية من أمر قيس بن سعد ، وأمن جانبه ، وما كان
يخشى من جهة مصر .. ولكنه — مع هذا لا يدع قيساً دون أن يضربه ، وهو
ميت ، تشفيئاً منه ، ومن الأنصار جميعاً .. فكتب إليه يقول :

« أما بعد . فإنك يهودى ابن يهودى ^(١) . إن ظفر بك أحبّ الفريقين
عزّاك واستبدل بك . وإن ظفر أبيضهما إليك قتلك ، ونكّل بك ! وكان
أبوك وترّ قومه ، ورعى غرضه ، فأكثر الحزّ وأخطأ الفصل ، فخذله قومه ،
وأدركه يومه ، ثم مات طريداً بحوران .. والسلام . ! »

فكتب إليه قيس :

(١) لم يكن سعد من أصل يهودى ، وإنما نسبته معاوية تلك اللسبة ، لما كان
معروفاً من أن اليهود استوطنوا المدينة ، وكانوا يمثلون جزءاً كبيراً من سكانها ،
فأضافه إليهم ، وخلطه بهم في مقام الدم ، وتصيد النقائص .

« أما بعد . فإنك وتَن ابن وتَن .. دخلت في الإسلام كُرْهاً . وخرجت طوعاً ، لم يَقدِّم إيمانك ، ولم يَحدِّث نفاقك .

« وقد كان أبي وتر قوسه ورمي غَرَضه ، وشغب عليه من لم يبلغ كعبة ، ولم يَشُقَّ غُبَارَه . ونحن أنصار الدين الذي خرجت منه ، وأعداء الدين الذي دخلت فيه والسلام »^(١)

إنها السياسة التي تخدم قضايا الحياة ، وتمكن لأصحابها من الظفر في كل مجال ، حين لا يلقاهم خصومهم إلا على مبادئ الحق والعدل ، ولا يحاربونهم إلا تحت راية الحق والعدل !

وهكذا استبدت معاوية بهذا السلاح وحده ، سلاح السياسة ، فصرع به أصحاب عليّ واحداً واحداً ، دون أن يجد عليّ من نفسه القدرة على أن يستعمل هذا السلاح ، ويضرب به . ولو فعل لكان له الغلبُ والنصر ، من قبل أن تُشرع الرماح وتسل السيوف .

السياسة ، والدين :

لم تكن الحرب التي وقعت بين عليّ ومعاوية في صفين إلا مظهرأ باهتاً من مظاهر الحرب الخفية . التي كانت تدور في رؤوس الناس ، وفي صدورهم ! كان الناس يقفون على مفترق الطريق ، بين حياتين ؛ حياة مستتها روح النبوة ، وخالطتها أنفاس النبيّ ، وغلب عليها طابع البداوة ، وما فيها من تقشف ، واستغناء . . . وحياة زاهية زاهرة ، بالرِّقَّة والنعيم ، فياضة متدفقة بالمال . وما وراء المال من مباحج الحياة ، وزينتها !

(١) البيان والتبيين للجاحظ : ٢ — ٦٨ . وهامش ٦٩ (طبعة السندوبي)
والكامل للبرد : ، ٣٠٩ .

وقد بدأ الناس منذ فتوح الشام والعراق ومصر ، يعيشون هذه التجربة .
ويكابدون منها ، ويتفاعلون معها .

وإنها لتجربة حقيقية فعلا ، أشبه بتجارب الكيمياء ، في مختبرات
المعامل !

والناس معادن ! كما يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

ولهذا كان خطوهم على طريق هذه الحياة الجديدة ، مختلفاً ، أشد الاختلاف !
ذاب بعضهم في تلك التجربة ، لأول مسّة مسّته من ريحها ، فضاع وجوده
الأول كلّهُ ، وأصبح خلقاً آخر .. يعيش في عالمه الجديد ، بمنقطع عن عصر
النبوة ، وبمناى بعيد عن حياة البادية !

واصطبغ بعضهم صبغاً أخذ الكثير من ذاته ، وأبقى على القليل من
ملاحه وشيئاته !

وظلّ المجتمع الإسلاميّ العربيّ في مجموعه ، محتفظاً بالطابع الذي طبعه
به الإسلام ، ونشأه عليه .. يغالب الدنيا المسلطة عليه ، ويقاوم الدوافع التي
تدفعه إليها !

كان ذلك هو المظهر العام للمجتمع الإسلاميّ ، في عهد عمر بن الخطاب ،
رضي الله عنه .

بعض الناس قد أقبلوا على دنياهم إقبالا كاملا ، وأعطوا الحياة العربية
الإسلامية ظهورهم . فلم يكن همهم إلا المال وجمع المال !

وبعضهم وضع قدميه على أول الطريق ، ولم يكد يخطو خطوات حتى
توقف ، بدافع من دبه ، أو بنظرة ، أو صرخة ، من عمر بن الخطاب !

وقد أشرنا من قبل إلى أن عمر كان يقف في وجه ميلاد جديد ، لحياة
(م ٢٧ - على ابن أبي طالب)

جديدة ، وعصر جديد ، لأبد أن يبلغ غايته ! وإن يكن عمر فعل شيئاً ،
فهو حَجَزَ هذا السيل المتدفق المندفِع ، عن أن يبلغ مجتمع الصحابة ، ويفرس
أقدامهم في وَحْل الحياة وطينها ! .

رَوَى ابن سيرين : أنه لما قدم أبو هريرة من البحرين ، وكان والياً
عليها لعمر ، ومعه عشرة آلاف درهم . قال له عمر : يا عدو الله ، وعدو
كتابه . . . أَسْرَقْتَ مال الله ؟ .

قال : لستُ بعدو الله ، ولا عدو كتابه ، ولكنى عدو من عاداهما !
ولم أسرق من مال الله ! .

قال عمر : فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف درهم ؟ .

قال : خيلى تناسلت ، وعطائى تلاحق ، وسهامى تلاحقت ! .

قال ابن سيرين : فأخذها عمر معه . . . ! «

هذه فعلة من فعلات عمر ! .

ومع من ؟ .

مع أبي هريرة ، الصحابى ، خادم رسول الله !

ولكنه الحق ، وإنه لفوق أبي هريرة ، ومن فوق أبي هريرة ! .

وأى حق هذا ؟ .

أَوْ يُظَنُّ في أبى هريرة خيانة لله ولرسوله ، وللمؤمنين ؟ .

إن عمر يعرف من هو أبو هريرة ، ويقدر صحبته لرسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وما نحسب أباه هريرة بموضع تهمة عند عمر ، في دينه ، ونزاهته ،
واستقامته . ولكن الذى نخاله في هذا الموقف ، هو أن عمر رأى هذا المال

الكثير في يد أبي هريرة ، تخاف أن يغريه المال بالمال ، فيفسد عليه صحبته
لرسول الله ، ويذهب به مذاهب من فتنوا بالمال وعَلَّقُوا بالحياة الدنيا ، وعمر
حريص على أن يستبق أصحاب الرسول على ما تركهم الرسول عليه ، من
صفاء وطهر .

وقد فعل عمر مثل هذا مع سعد بن أبي وقاص . . ثالث ثلاثة دخلوا في
الإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وفارس الغزوات ، والمناضل عن
رسول الله يوم أحد ، والمستجاب الدعوة !

لقد شاطر عمر سعداً ماله ، حين رأى فيه كثرة ووفرة !
هو مال قد جاء إلى سعد من نصيبه في الغنائم ، ومع هذا ، فإن عمر خشى
الفقمة على سعد من هذا المال !

قال سعد لعمر ، وقد أخذ نصف ماله : لقد هممت !

فقال له عمر : أن تدعو الله على ؟

قال : نعم !

قال عمر : إذن لا تجدني بدعاء ربّي شقيّاً ! «^(١)

هذه لاشك محاولات جانبية من عمر ، لا يمكن أن تقف في وجه الاتجاه
العام للحياة ، وهو علاج وقتي لهذه الفقمة المقبلة على المسلمين ، لا يملك أحدٌ
لها دفْعاً .

فلما توفي عمر ، وجاء عثمان ، كانت دورة من دورات الحياة ، قد بدأت
تعلو آفاق المجتمع الإسلامي ، وتغزو الناس في الحضر والبدو ، وكان بنو أمية

(١) انظر كتابنا : عمر بن الخطاب ص ٩٩ وما بعدها .

الذين دفع بهم عثمان رضى الله عنه ، ولأمة على الأمصار - كانوا طليمة طبيعية للحياة الجديدة المقبلة، إذ كانوا مهيبين - بحكم وراثتهم ، وتعلقهم بالسيادة والمجد - لأن يفتحوا هذه الآفاق الجديدة ، وأن يندفعوا إليها اندفاع المغامرين ، لاكتشاف هذا العالم المجهول !

وهذا التحول الذى كان بنو أمية الطلائع الأولى له - لم يكن من صنع أحد ، وإنما هو اتجاه طبيعي للحياة ، والناس سائرون إليه ، كل حسب ماعنده ، من استعداد للتجاوب مع هذا النداء ، والتقبل لهذا الإغراء !

والأمر لا يعدو أن يكون أمر زمن . . فن لم يستجب اليوم استجاب غداً ، أو بعد غد . . إنه لا بد أن يلحق بالركب يوماً ، إلا أن يَحِين حينه ، ويأتيه أجله من قريب !

والذين امتد بهم العمر من الصحابة - رضوان الله عليهم - قد امتحنوا امتحاناً قاسياً ، بين داعى الدين ، وهاتف الدنيا ، وكلما كان يمضى الزمن بهم ، تشدد الحنة ، ويعظم البلاء ، بما تلقى إليهم الحياة من أفانين الفتن ، فكان الواحد منهم إذا ملك أمر نفسه وقهر فيها نوازع الهوى ، ووساوس الإغراء - كان عليه أن يروض أهله وولده على تلك الحياة التى يحياها ، وأن يدخلهم معه فيما ألزم به نفسه . . وذلك موقف عسير أشد العسر ، يحتاج إلى يقظة دائمة ، ورقابة متصلة ، حتى لا يتفلت منه أهله وبنوه ، أو حتى لا يجذبوه إلى جانبهم ، ويخرجوه من هذا الحظر الذى فرضه على نفسه !

إن الفتنة قد أصبحت وباء ، بتدسس إلى كل نفس ، كما تتدسس الأمراض للمعدية . . وفى كل يوم أعداد كثيرة نصيبها عدوى هذه الفتنة ، وتنتقل منها إلى أعداد أخرى من الناس ! وهكذا بات كل إنسان مهدداً بأن يصيبه هذا الداء ، إن لم يكن فى نفسه ، ففى أهله وولده !

ونحن نظلم الحقيقة ، ونجأ في الإنصاف ، إذا ألزمتنا الناس — حتى الصحابة الذين عاصروا هذه الفترة من الحياة ، وشهدوا هذا التحول الكبير فيها — أن يظلوا على ما تركهم عليه الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وأن يحيو تلك الحياة الخالصة للدين ، البعيدة عن لذات الدنيا ، ونعيمها ، وأن يأثم أحدكم بإدام واحد ، إذا قُدِّم له إدامان ، ولو كانا الزيت والخل ، كما فعل عمر بن الخطاب ، حين رأى بين يديه لقيات من الخبز الجاف ، وزيتاً وخبلاً ، ليغمس لقمة في هذا ، ولقمة في ذاك ، حتى يجد لهذه اللقيات التحجرة مساعداً ! ففرع لهذا ، وقال : زيت وخل ؟ إدامان في طعام ؟ حسبي أحدهما !

إنه لفوق احتمال النفس البشرية ، أن يعيش الإنسان غريباً في مجتمعه ! فلا يلبس مما يلبسون ، ولا يأكل مما يأكلون ، ولا يعيش كما يعيشون . ! إن ذلك إن رضيه لنفسه ، فلا يرضاه له من حوله ! وإن سكنت عنه نوازع نفسه ، فلن تسكت عنه ألسنة الناس ، ولا تنقطع عنه نظرات اللامئين أو الساخرين !

إن ذلك محتمل في حال واحدة ، هو أن يعتزل الإنسان الناس ، أو يجد له مجتمعاً على المستوى الذي يناسبه ، ويلتقى معه ، في حياة النقشف والجفاف ! وقد لجأ بعض الصحابة إلى خطة كهذه الخطة ، حتى يضمن السلامة لنفسه من عدوى الناس ، لو أنه خالطهم ، وعاش معهم !

وقد عرفنا أن محمد بن مسلمة ، كان قد اعتزل الفتنة منذ مقتل عثمان ، وكسر سيفه ، ولزم بيته ! !

ولكنه لم يجد في كل هذا ما يضمن له وقاية من هذا الرءاء المنتشر . فانتحى من الناس ناحية ، وضرب لنفسه خيمة بعيدة عن أعين الناس ، حتى لا يزور ، ولا يزار !

وثورة أبي ذر التي ثارها أيام عمان !

إنها في صميمها ليست ثورة على الولاة ، وما استأثروا به من أموال ، ولا على الأغنياء ، وما جلبوا إلى دورهم وقصورهم من مُتَمَتِّع الحياة وزخارف الدنيا ! وإنما هي قبل كل هذا ثورة صاحبة في أعماقه ، وصراع صارخ في كيانه ، بين المثل الرفيعة التي تمثلها في دينه ، وسكن إليها زمناً في حياته ، وبين هذه المظاهر الصاخبة التي تهجم عليه من كل جهة ، وتريد أن تنقض على تلك المثل فتزعجها عن مواطن الاطمئنان من قلبه ! وهنا ينظر إلى من فتنوا من الولاة والأغنياء من خلال نفسه ، فيرى أنهم هم ذلك الإنسان الذي هو صائر إليه يوماً ، فيفزع ويسكرب ، ثم يشور وبصخب ، فيما بينه وبين نفسه ، ثم تعلو هذه الثورة ، ويرتفع هذا الصخب ، فيحاول أن منطقة النفس إلى العالم الخارجي ، ويتحولان إلى مواجهة صريحة للحكام والولاة ، وأصحاب الغنى والثراء ، بهذا الذي كان يلغاهم به من زجر ووعيد ، في غير مهادنة أو تلطف . حتى لقد أثار ثارتهم عليه ، ومباغضتهم له ! إنه كان يفكر بصوت عالٍ — كما يقولون — يفكر انفسه ، ويتحدث إلى نفسه ، فيسمعه الناس ! !

وبهذا الحديث العالي ، وبهذا الصراخ الحاد استطاع أبو ذر — رضى الله عنه — أن يوقظ كل قوى المقاومة في كيانه ، وأن يقيم معركة حية تدور بينه وبين الناس كل يوم . وبهذا التدبير استطاع أن يكسب المعركة في داخل نفسه ، وإن كان قد خسرها في خارجها ، وألجأ الناس إلى عزلة نائية عنهم ، انقطع فيها ما بينه وبينهم من صراع !

يقول الإمام على — كرم الله وجهه — في أبي ذر : « لم يبق اليوم أحد لا يبالي في الله لومة لائم ، غير أبي ذر ، ولا نفسى ! وضرب بيده إلى صدره ! »^(١)

أبو ذر وحده هو الذى بقى ممن لا يبالون فى لله لومة لائم اوذلك لأنه أصبح
فى عزلة نفسه ، ومادية ، عن المجتمع ا

إنه لاسبيل إلى النجاة إلا فى عزلة كهذه العزلة ، التى دخلها طائفاً ، محمد بن
مسلمة ، أو سيق إليها سوقاً ، أبو ذر الغفارى !

أما أن يعيش الإنسان مع الناس ، ويغدو ويروح بينهم . فإنه أمر لامفر
معه من أن يصاب بما أصيبوا به ، ويبتلى بما ابتلوا به الزمن !

المغيرة بن شعبة !

نذكره ، ونذكر موقفه من الفتنة بعد مقتل عثمان !

لقد اعتزل علياً وأصحاب الجبل معاً . . .

وحين دُعى إلى أن يكون مع الخليفة ، وأن يقاتل الخارجين عليه قال :
أريد أن أضع سيفى ، وأنام فى بيتى ، حتى تنجلي الظلمة « فلما أراد
عمار بن ياسر أن يرده عن هذا الموقف ، قال له الإمام على : « دعه ، فإنه
لا يأخذ من الآخرة إلا ما خالطته الدنيا ! » فقال المغيرة . « أنت والله
ياأمير المؤمنين ، أعلم منى ، ولئن لم أقاتل معك ، لا أعين عليك ! »^(١) .

وقد لزم هذا الموقف الحيادى ، أو قل السابى ، فلم يشارك فى حرب الجبل
ولكنه ظل على مسرح الحياة ، يرصد الأحداث ، ويتابع سيرها ،
ويشهد الناس وما يتقلبون فيه ، وما يقع لأيديهم مال ، وجاءه ، وسلطان .
ثم ماذا ؟

دعته نفسه إلى أن يخرج عن هذا الموقف السلبى ، وأن يأخذ دوره فى هذا اتوجه الجديد من الحياة !

وشيثاً شيثاً ، جعل يتخفف من التحرج والتأثم الذى كان يجده فى صدره من خوض هذه الفتنة ، ثم إذا هو يجد نفسه آخر الأمر وقد تقدم الركب ، فى خطوات خفيفة سريعة ، يهجم بها على الدنيا هجوماً خاطئاً ، وإذا هو مع معاوية ! يأخذ من دنياه بالثمن الذى برضيه ، ولو أخذ الكثير من دينه !

نقول هذا فى أسف شديد ، فالمغيرة صحابى ، نحترم صحبته ، ونقدرها ، ولكن الحق يلزمنا أن نتطرق به ، ونرى الناس على مام عليه فى ضوئه !

ولا نلوم المغيرة بن شعبه إذا هو انضم إلى معاوية ، فذلك أمر محسوب على رأيه ، وتقديره ، بل ربما عن اجتهاده وتأويله !

ولكن الذى يلام عليه ، هو أن يتحول إلى لسان يترضى معاوية بالطمع فى صحابى كعلى بن أبى طالب ، ثم لا يقف عند هذا ، بل يلغفه على المنابر ! ثم يجاوز هذا إلى أن يفرى الناس بلعنه !

فلم هذا ؟ وماذا الذى أخرجه عن عزلته ، وجعله حركة منطلقة فى هذه الفتنة ؟ إنه المال ، والجاه ، والسلطان . !

فقد أقامه معاوية والياً على بعض الجهات ، وأطلق يده فيها . . . فكان ثمن احتفاظه بما فى يده أن يُطلق لسانه فى على ابن أبى طالب ، وأن يبالغ فى هذا حتى ينال المزيد من الرضا ، فينال الكثير من السلطان !

روى الجاحظ فى بعض رسائله ، قال « قال المغيرة بن شعبه - وهو عامل معاوية يومئذ - قال لصمصمة بن صوحان - قم فالعن علياً فقام فقال : إن أميركم هذا أمرنى أن ألعن علياً - فالعنوه ، لعنه الله ! وهو يضر المغيرة ! » ^(١)

إن المغيرة أقام سبع سنين وأشهرًا في الكوفة ، لا يدع شتم عليّ ، والوقوف فيه !
روى الطبري أن المغيرة قال لصمصعة بن صوحان العبدي : « إياك أن يبلغني عنك أنك تعيب عثمان عند أحد من الناس ، وإياك أن يبلغني عنك أنك تذكر شيئًا من فضل عليّ علانية . . فإنك لست ذا كرام من فضل عليّ شيئًا أجمله ، بل أنا أعلم بذلك ، ولكن هذا السلطان قد ظهر ، وقد أخذنا بإظهار عيبه - أي عيب عليّ - للناس ، فنحن ندع كثيرًا مما أمرنا به ، ونذكر الشيء الذي لا نجد منه بداً ، ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا تقيّة . . ! »^(١) .. وأكثر من هذا ، فإن المغيرة هو الذي أغرى معاوية ، وزين له البيعة لابنه يزيد ، وذلك - كما روى ابن قتيبة - أن معاوية رأى أن يعزل المغيرة عن الكوفة ، ويولي عليها سعيد بن العاص ، فلما علم المغيرة بذلك قدم الشام على معاوية ، فقال له : يا أمير المؤمنين . . قد علمت ما لقيت هذه الأمة من الاختلاف ، وفي عنقك الموت ، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس في مثل ما وقعوا فيه ، بعد قتل عثمان ، فاجعل للناس بعدك علمًا يفرعون إليه ، واجعل ذلك يزيد ابنك ! ! »^(٢) إلى هذا الحد . تقيم بصائر ذوي الأبصار ، وإلى هذا المدى تتحول بالناس الأحوال ، من النقيض إلى النقيض ! .

فهل نعذر المغيرة في هذا التحول ؟ وهل لنا أن نقول إن دفعة الحياة كانت أقوى من أن تقارم ، بالانسحاب والعزلة ؟ .

(١) الطبري : ٦ - ١٠٨

(٢) الإمامة والسياسة ١ - ١٧٣ .

ونعم ، وبلا تردد . . . ولكن الذى لا عذر معه ، هو هذا الجور الشديد
على الدين ، بل وعلى المروءة ، فى سبيل الاستزادة إلى حد الاستغراق من
متاع الحياة ! .

ومثل آخر !

عمرو بن العاص . . .

كان أيضاً قد اعتزل الناس قبيل مقتل عثمان ، وآوى إلى فاطمين . فلم
يشهد حرب الجمل !

وقد رأينا كيف دعاه معاوية إليه ، وكيف أطعمه فى السلطان . . . ثم انتهى
بهما الأمر إلى أن يعطى عمرو عونه وبلاء كله لمعاوية ، وأن يعطى معاوية
عمرا ، الثمن الجزئى لهذا ، وهو ولاية مصر ، طعمة له مدى الحياة !

وأكثر من هذا !

عبد الله بن عباس !

ابن عم على !

وزيره ، وصاحب سرّه ، والرجل لأول عنده !

أبلى البلاء الحسن مع على ، بقلبه ، وبده ، وبلسانه !

ولكن على طول الزمن ، وإلحاح الفتن ، وهنت يد ابن عباس عن
الإمساك بالحبل الذى يشده إلى على ، ويحبسه على الحياة معه . فى هذا الأفق
الذى يعيش فيه الإمام رضى الله عنه !

كان ابن عباس والياً لعلى على البصرة . !

وقد قطع ابن عباس شوطاً طويلاً فى المشى مع على ، على هذا الطريق
الشائك ، حتى دُميت قدماه !

إنه والى على مصر من أكبر الأمصار . . والمال بين يديه كثير موفور، فهل يظل هكذا على هذا الحرمان الذى فرضه عليه الخليفة ؟ وهل يقبل هذا الحساب العسير الذى يأخذه الخليفة به ، فلا يستوغه درهماً بوسع به على نفسه وأهله ؟

وكيف وولاية الأمصار فى مجبوحة من العيش ، وفى بسطة من المال والسلطان ؟ أياظل هو وعلى يخوضان غمرات هذه الحياة ، ثم لا يفلان مما ينال منه الناس شيئاً ؟ إن يكن على قد عزم على أن يقطع العمر على هذه الحال ، فإن له ما اختار ، أما هو فقد آن له — بعد هذا الحرمان المتصل — أن يعرف طعم هذه الألوان التى يتعاطاها عامة الناس ، فضلاً عن القادة ، والولاة ، وأصحاب الجاه والسلطان !

أخذ ابن عباس يملأ يديه من المال الذى فى سلطان ولايته ، وبدأ ينفق من سعة ، متجاوزاً الحدود التى فرضها له الخليفة !

وبلغ عليه هذا الذى استجده ابن عباس ، فى حياته .. فكتب إليه :
« أما بعد ، فقد بلغنى عنك أمر ، إن كنت فعلة ، فقد أسخطت ربك وعصيت إمامك ، وأخزيت أمانتك ^(١) .

« بلغنى أنك جرّدت ^(٢) الأرض ، فأخذت ما تحت قدميك ، وأكلت ما تحت يديك ! فارفع إلى حسابك ، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس . . . »

وقد تلقى ابن عباس هذا الكتاب ، وكان عليه أن يختار أحد طريقتين : إما أن يرفع الحساب إلى الخليفة ، بما فيه من نقص ، وخلل ، ويصبر

(١) أى الصفت بأمانتك ما يخزبها . ويفضح سرها

(٢) أى فعل بها ما يفعل الجراد بالزرع !

على المحاسبة ، وما وراء المحاسبة من عقاب ، قد يصل إلى حدّ القصاص ! .
واما أن يذهب بما في يديه ، ويترك الإمارة ، يوليها الخليفة من يشاء !
وقد اختار ابن عباس الطريق الثاني ، فاتخذ طريقه إلى المدينة ، حاملا معه
ما قدر على جمعه وحمله !

ولا تسلّ ما نجية الإمام في ابن عمه ، وشريكه في أمره ؟
وهل ينتظر من أحدٍ بعد ابن عباس ، ناصراً يعين على الحق ، ويصبر
على البلاء في سبيله ؟

ولا نجد أبلغ ، ولا أروع ، ولا أصدق ، من تلك الكلمات التي حملها
هذا الكتاب الذي بعث به الإمام إلى ابن عباس . . يقول :

« أما بعد .. فإني كنت أشركتك في أمانتي ، وجعلتك شعارى وبطانتى ،
ولم يكن رجل من أهل بيتي أوثق منك في نفسى ، لمواساتى ، وموازرتى ،
وأداء الأمانة إلى !

« فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كَلِبَ ^(١) ، والمدوّ قد حَرِبَ ^(٢) ،
وأمانة الناس قد خَزِيت ، وهذه الأمة قد فَنِكَت وشغرت ^(٣) ، قَلَبْتَ لابن
عمك ظهراً المجنّ ، وفارقته مع المفارقين ، وخذلتَه مع الخاذلين ، وخُنَفَته مع
الخائنين .. فلا ابن عمك آسيت ، ولا الأمانة أدبت . وكأنك لم تكن الله
تريد بجهادك ! وكأنك لم تكن على بيّنة من ربك ! وكأنك إنما كنت

(١) كلب : كفرح : أى اشتد .

(٢) حرب : كفرح : أى قسا .

(٣) فنكت : أى فسدت ؛ وشغرت : أى جهرت بالمنكر .

تأكيد^(١) هذه الأمة عن دنياهم ، وتنويع غزتهم^(٢) عن فيهم ، فلما أمكنتك
الشدة في خيانة الأمة ، أسرعت السكره ، وعاجلت الوثبة ، واختطفت
ما اقتدرت عليه ، من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم ، اختطاف الذئب
الأزل^(٣) دامية المعزى الكسيرة ، فحملته إلى الحجاز ، رحيب الصدر بحمله^(٤)
غير متأنم من أخذه ، كأنك — لا أباً لغيرك — حذرت إلى أهلك تراثاً من
أبيك وأمك !

« فسبحان الله ! ! أما تؤمن بالمعاد ؟ أما تخاف نقاش الحساب ؟
« أيها العدود — كان — عندنا من ذوى الألباب .. كيف تسيع شراباً
وطعاماً ، وأنت تعلم أنك تأكل حراماً ، وتشرب حراماً ، وتبتساع الإماء
وتسكح النساء ، من مال اليتامى والمساكين ، والمؤمنين والمجاهدين ، الذين
أفاء الله عليهم هذه الأموال ، وأحرز بهم هذه البلاد ؟
« فاتق الله ، واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم ، فإنك إن لم تفعل ، ثم
أمكنى الله منك ، لأعذرن إلى الله فيك^(٥) ، ولأضربنك بسيفي الذى ماضرت
به أحداً إلا دخل النار !
« والله لو أن الحسن والحسين ، فعلا مثل الذى فعلت ، ما كانت لهما

(١) تكيد : أى تخدع .

(٢) غزتهم : أى غفلتهم .

(٣) الأزل : أى الخفيف السريع .

(٤) رحيب الصدر بحمله : كناية عن السرور ، وعدم التأثم والتخرج .

(٥) أى لأعاقبك عقاباً يقيم لى عذراً عند الله فيما فعلت .

عندى هواده ، ولا ظفرا متى بإرادة ، حتى آخذ الحق منهما ، وأزيل الباطل
عن مظلمتهما !

« وأقسم بالله ما يسرنى أن ما أخذت من أموالهم ، خلّال لى ، أنركه
ميراثا لمن بعدى !

فَصَحَّ رويداً ^(١) ، فكأنك قد بلغت المدى ، ودُفنت تحت الثرى ،
وعُرضت عليك أعمالك ، بالحل الذى يقادى الظالم فيه بالحسرة ، ويتمنى المضيق
الرجعة ، ولات حين مناص ! ! » ^(٢)

هكذا يأخذ الإمام على — كرم الله وجهه — الحق من ابن عباس .
ويتوعد القتل إن هو قدر عليه ، ووقع ليده ! وهكذا بقطع علياً قطعة عزيزة
من نفسه ، ويرمى بها بعيداً عنه ، وإن تسكن يده التى يبطش بها ، أو لسانه
الذى يصول به ! إذ ليس لها عنده حساب ، بعد أن رآها وقد دخل عليها
الفساد ، ولم تعد صالحة لأداء وظيفتها ، فى كيانه !

وإذا كان هذا هو موقف ابن عباس من الإمام على ، وموقف الإمام على
من ابن عباس ، فما ظنك بموقف عمل على وأنصاره منه ؟ وموقفه منهم ؟
أبصر أحد منهم كما صبر ابن عباس ، هذا الزمن الطويل مع الإمام على ،
ثم لا تنزع به نفسه إلى الخروج على سياسة الإمام الصارمة العنيفة ، فى الرقابة
على المال ، إلى حيث الجهة التى ليس عندها إلا الإغراء بالمال ، والإغراق فيه ؟
وأيرضى الإمام لأحد من عماله وقواده وأنصاره ، مالم يرضه لابن عمه ،
ووزيره ، وصاحب المسكان الأول عنده ؟

(١) أى خذ نفسك بالرفق .

(٢) هج البلاغة ٢ / ٣٤

ذلك مالا يكون !

سمع الإمام — كرم الله وجهه — أن عامله على البصرة ، عثمان بن حنيف ، قد دُعي إلى وليمة أعداءه له أحد أبناء البصرة ، فنارت لذلك ثأثرته ، وأعلنها حرباً على ابن حنيف ، حتى إنه ليكاد يمسك به من خلقومه ، فيُقبضه ما أكل !

فكتب إليه يقول :

« أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة ، دعاك إلى مأدبة ، فأسرعت إليها ، تستطاب لك الألوان ، وتنقل إليك الجفان ! وما ظننتك تجيب إلى طعام قوم .. عاثهم^(١) بحفوة ، وغنتهم مدعوت ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المأثم ، فما شتبه عليك علمه فالعظه ، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه !

« ألا وإن لكل مأموم إماماً ، يقتدى به ، ويستضيء بنور علمه ، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه^(٢) ، ومن طعامه بقرصيه ، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بوع واجتهاد ، وعمّة وسداد ، فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا ، ولا ادحرت من غنائمها وفراً ، ولا أعددت لبالي ثوب طمراً .. وإنما هي نفسى أروضها بالتقوى ، لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر ، وتثبت على المذاق ، ولو شئت لأهتديت الطريق إلى مُصَفّي هذا العسل ، ولُبّاب هذا القمح ، ونسائج هذا القز ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ، ويقودني جشعي ، إلى تخيير الأطعمة ، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة ، من لا طمع له في القرص ،

(١) أي محتاجهم ، وفقيرهم .

(٢) الطمر : الثوب البالي .

ولا عهد له بالشَّعْب ! أَوْ أَيْتُ مِبْطَانًا وَحَوْلَى بَطُونِ غَرْثِي وَأَكْبَادِ حَرَى ؟ أَوْ
أَكُونُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ : ؟

وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَبَيْتَ بِبِطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ نَحَنَ إِلَى الْقَدِّ^(١)
« أَفْتَنُ مِنْ نَفْسِي أَنْ يَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا أَشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ ،
أَوْ أَكُونُ أَسْوَةً لَهُمْ فِي خَشَوْنَةِ الْعَيْشِ ؟ فَمَا خُلِقْتُ لِيُشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ ،
كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ ، هَمَّهَا عِلْفُهَا ، أَوْ الْمُرْسَلَةِ^(٢) شُغْلُهَا تَقَمُّمُهَا ، تَسْكُرُشُ مِنْ أَعْلَافِهَا
وَتَلْهُو عَمَّا يَرَادُ بِهَا . . . وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ : إِذَا كَانَ هَذَا قَوْلُ ابْنِ أَبِي
طَالِبٍ ، فَقَدْ قَعِدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ ، وَمَنَازِلَةِ الشَّجْعَانِ !! أَلَا وَإِنْ
الشَّجَرَةُ الْبَرِيَّةُ أَصْلَبُ عَوْدًا ، وَالرَّوَّاعِ الْخَضِرَةُ ، أَرْقَى جُلُودًا ، وَالنَّاقِبَاتُ
الْبَدْوِيَّةُ ، أَقْوَى وَقُودًا ، وَأَبْطَأُ خُرُودًا ، وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ، كَالصَّنَوِّ مِنَ الصَّنَوِّ ،
وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعُضْدِ . . . ! »

« فَاتَّقِ اللَّهَ يَا ابْنَ حَنِيفٍ ، وَلَنَكُنْكَ أَقْرَاصُكَ ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ
خِلَاصُكَ !! »^(٣)

وَالْإِمَامُ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — الْقُدْوَةُ الطَّيِّبَةُ ، وَالْمَثَلُ الْكَرِيمُ لِأَتْبَاعِهِ
وَأَوْلِيَائِهِ ، فِي هَذَا الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، مِنْ تَرْكِ الطَّيِّبَاتِ ، وَالْاجْتِنَاءِ بِالْقَلِيلِ
الْمُحْشَنِ مِنَ اللَّبَاسِ وَالطَّعَامِ !

رَوَى عَنْ نَوْفِ الْبِكَالِيِّ^(٤) ، قَالَ خَطَبَنَا هَذِهِ الْخُطْبَةُ بِالْكُوفَةِ أَمِيرُ

(١) القَدُّ : بِالْكَسْرِ ؛ سِرٌّ مِنَ الْجِلْدِ غَيْرُ مَدْبُوغٍ . أَيْ أَنَّهَا تَطْلُبُ أَكْلَهُ
وَلَا تَجِدُهُ .

(٢) أَيْ السَّائِحَةُ الْمَطْلُوقَةُ .

(٣) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ : ٤٦/٢ .

(٤) هُوَ نَوْفُ بْنُ فَضَالَةَ الْبِكَالِيُّ ، أُمُّهُ أُمُّ هَانِيٍّ . بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ . كَانَ فَارِسًا مُقَدِّمًا

المؤمنين ، عليه السلام ، وهو قائم على حجارة ، نصبها له جعدة بن هُبيرة
المخزومي ، وعليه مِدرعة^(١) من صوف ، وحائل سيفه من ليف ، وفي رجليه
نعلان من ليف ، وكان جبينه ثِقَنَةً بغير ١١ . . ثم أورد الخطبة المشار إليها .
فهذا هو ابن أبي طالب ، خليفة المسلمين ، يخطب على منبر من حجارة
مرصوفة رصاً ، ويلبس قيصاً من صوف ، وحائل سيفه من ليف ، وثغلاه
من ليف ، وجبينه من شطف العيش ، وكثرة السجود كَشَفَتِفة البعير ، من
الخشونة والذشقق !

ولكنه — مع كل هذا — يعلم ما في الناس من الضعف ، وما بينهم من
التفاوت ، في القدرة على الاحتمال والصبر ، كما أنه يعلم ما على الخليفة من تبعات
الأسوة ، التي يتأثاها الناس فيه ، والقذوة التي يمتثلها الناس منه !

فهو إذا أخذ الناس ، بالتخفف من الدنيا ، والاجتزاء بالقليل منها ، فإنما
يأخذ بذلك نفسه أولاً ، أخذاً لا تفريط فيه ، ولا شهوان معه ، ثم يأخذ ولاته ،
وأصحاب الرئاسة عنده ببعض ما أخذ به نفسه ، لأنه هو مثأهم الذي يقتدون
به ، وهم للثُل الذي يقتدى به الناس . . أما عامة الناس ، فإلآك أمرهم إلى
أنفسهم ، وإلى ما فيها من دين ودنيا !

دخل — كرم الله وجهه — على العلاء بن زياد الحارثي ، يعود ، وقد
مرض . . فلما رأى سمة داره ، قال له : ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في
الدنيا ؟ أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج ؟ وبلى إن شئت بلغت بها
الآخرة . . تقرى فيها الضيف ، وتصل فيها الرحم ، وتطلع منها الحقوق مطالعها ،
فإذا أنت بلغت بها الآخرة !

(١) المدرعة : القميص

فقال العلاء : يا أمير المؤمنين ، أشكو إليك أخى عاصم بن زياد !

قال : وما له ؟

قال : لبس العباءة ، وتخلّى من الدنيا !

قال : علّى به !

فلما جاء عاصم ..

قال له : يا عَدِيّ^(١) نفسه ! لقد استهان بك الخبيث^(٢) ! أما رحمت أهلك وولده ؟ أترى الله أحلّ لك الطيبات ، وهو يكره أن تأخذها ؟ أنت أهون على الله من ذلك !

قال عاصم : يا أمير المؤمنين .. هذا أنت فى خشونة ملبسك ، وجشوبة ما كلك ؟

قال : وبحك ! إني لست كأنت ! إن الله فرض على أئمة العدل أن يَقْدُرُوا^(٣) أنفسهم بضَعْفَةِ الناس حتى لا يَتَبَيَّغَ^(٤) بالفقر فقره ! ! «^(٥) إنه — كرم الله وجهه — لا يرضى لِمَا مل من عماله أن يحيد عن طريق العدل ، والاستقامة ، والقصد فى الإنفاق ، لأنه إن حاد عن هذا الطريق مرة ، فهبات أن يعود إلى جادة الطريق ! ثم لا تزال الأيام تدفعه بعيداً ، حتى يفسد أمره ، وتسوء حاله !

(١) أى ياعدو نفسه (تصغير عدو) .

(٢) يقدرُوا أنفسهم : أى يقيسوها .

(٣) أى الشيطان ،

(٤) يتبيغ : أى لا يهيج به ألم الفقر فيهلك .

(٥) نهج البلاغة : ١ : ٢٢٩ .

كتب — كرم الله وجهه — إلى المنذر بن الجارود العبدى ، وقد خان
فى بعض ما ولّاه من أعماله :

« أما بعد ، فإن صلاح أهلك غرتنى منك ، وظننت أنك تتبع هدىه ،
ونسلك سبيله ، فإذا أنت فيما رقى إلى عنك ، لاتدع لهواك انقياداً ، ولا تبق
لآخرتك عتاداً ، تعمّر دنياك بخراب آخرتك ، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك !
ولئن كان ما بلغنى عنك حقاً ، لجمل أهلك وشسع نعلك خير منك ! ! ومن
كان بصفتك ، فليس بأهل أن يسد به ثغر ، أو ينفذ به أمر ، أو يعلى له قدر ،
أو يشرك فى أمانة ، ويؤمن على خيانة ^(١) ، فأقبل إلى حين يصل إليك كتابى
هذا ، إن شاء الله ! »

هكذا يأخذ — رضى الله عنه — بمنطق أصحابه ، وأنصاره ، وأولى النجدة
والبأس من رجاله .. لا يعفيه من أمرهم إلا أن يستقيموا معه على طريق الحق ،
وإلا يكون قريتهم منه ، ونصرتهم له ، لجرتهم من ، أو جلب منفعة لذات أنفسهم ،
ثم لا عليه بعد هذا أن يقبلوا إليه ، أو يدبروا عنه !

جاء عبد الله بن زمعة — رضى الله عنه — يطلب إليه بعض المال ، لبعض
حاجته ، فكان جواب الإمام له :

« إن هذا المال ليس لى ولالك ! ! وإنما هو فى المسلمين ، وجلب
أسياهم ، فإن شركتهم فى حربهم ، كان لك مثل حظهم ، وإلا فجأه أيديهم
لأنكون لغير أفواههم ! ! » ^(٢)

وطبيعى أن عبد الله بن زمعة لا يقبل بوجهه على على بعد هذا الموقف ،

(١) أى يؤمن على دفع الحيانة .

(٢) نهج البلاغة ١ : ٢٥٢ .

ولا يعطيه ولاء ولا نصراً، وإن أحسن حالاته معه أن يكف عنه يده ولسانه،
ولا يكون في جبهة معاوية بيده ولسانه . . وهيهات ! !

ومن فَعَلات الإمام عليّ كرم الله وجهه ، في هذا، ما كان منه إلى مصقلة
ابن هُبيرة الشيباني ، وكان والياً لعلّى على بعض مقاطعات فارس !
وملخص الواقعة أنه مرّ بمصقلة جماعة من سبي بنى ناجية الذين استأسروا
لأحد قواد عليّ ، وكانوا نحو خمسمائة ، معظمهم من بكر بن وائل — قوم
مصقلة — فلما رأوه ، هتفوا به أن يخلصهم ، فجاء إلى القائد واشتراهم منه :
من بيت المال !

وكان تقديره أن الإمام عليّ — في ظروفه المحيطة به — سيسمح له بالنمن
الذي اشتراهم به ، إن هو استسمحه ، وأنه سيُسقطه من حسابه ! ولكن
الإمام عليّ طلب إليه أن يؤدّي إلى بيت المال مافي ذمته ، فلما لم يحب ، بعث
إلى ابن عباس — عامله على البصرة — أن يستقضيّه هذا الدّين ، فلما طالبه
ابن عباس به ، قال : لو قد كنتُ طلبتُ أكثر من هذا المال إلى ابن عفّان
ما منعتُ إياها ! « ثم احتمال حتى هرب ، وانضم إلى معاوية ، وقد كان جبهة
قوية في جانب عليّ ! ، ولكن عليّاً لا يشتري الرجال ، ولا يبيعههم من ديفه
شيئاً ، وإن كان ييدهم قوًى الدنيا جميعاً !

وحين علم عليّ بما فعل مصقلة قال : « قَبَحَ اللهُ مصقلة . . فَعَلَ فِعْلُ
السادات^(١) ، وفرّ فرار العبيد ! فما أنطق مادحَه حتى أسكته ، ولا صدق
واصفه حتى بكته ، ولو أقام لأخذنا ميسورَه ، وانتظرنا بماله وفورَه ! «^(٢)

(١) أى حين خالص هؤلاء الأسرى . وخف لتجديهم .

(٢) نهج البلاغة : ٤٣/١ .

وكيف لمصقلة أن يقيم ، وقد رأى الإمام يرفع بصره إليه ، يريد أن يدفع هذا المال الذي أخذه ، ولا مال معه ؟ إنه يعلم أن علياً لا يدعه بعد أن طلبه . وأن وجوه العذر ضيقة عليه ، إن هو ألقى إلى الإمام بمعاذيره !

يقول علي في إحدى خطبه ، بعد أن ردّ القطائع ، التي كان أقطعها عثمانُ بعضَ ذويه : « والله لو وجدت هذا المال قد تزوّج به النساء ، ومُلك به الإمامُ ارددته ، فإن في العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل ، فالجور عليه أضيق ^(١) ! » .

فهل يطمع مصقلة بعد هذا ، في أن يجد من عليّ تسامحاً أو تهاوناً ، في هذا المال الذي أخذه من بيت المال ؟ إن ذلك لبعيد !

لقد هرب مصقلة إلى الشام ، وفي نفسه أسى وحسرة أن يضطره الموقف إلى هذه الفعلة الفاضحة ، التي أخزته وأخزت قومه ! فأقام في الشام كسير القلب ، حزين النفس ، لم يستطع معاوية أن ينتفع منه بشيء ، إذ عاش منطوياً على نفسه ، يتقلب في همومه وأحزانه !

ذكروا أنه حين انصرف عليّ من البصرة إلى الكوفة ، قام إليه وجوه بكر بن وائل ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن نعيماً ، أخاً مصقلة . يستحي منك ، لما صنع مصقلة ، وقد أتانا اليقين أنه لا يمنع مصقلة من الرجوع إلا الحياء ، ولم يبسط منذ فارقنا لسانه ولا يده ، فلو كتبنا إليه كتاباً ، وبعثنا من قبلنا رسولا ؟ فإننا نستحي أن يكون فارقنا مثلُ مصقلة من أهل العراق . إلى معاوية ، فقال علي : اكتبوا ، فكتبوا :

« أما بعد : فقد علمنا أنك لم تلحق بمعاوية ، رضي بدينه ، ولا رغبة في دنياه ، ولم يعطفك عن عليّ طمع فيه ، ولا رغبة عنه . ولكن توسطت أمراً فقويت فيه الظن ، وأضعفت فيه الرجاء ، فكان أولاهما عندك أن قلت : أفوز بالمال ، وألحق بمعاوية !

« ولعمرنا ما استبدلت الشام بالعراق ، ولا السكاسك^(١) بريعة ، ولا معاوية بعليّ ، ولا أصبت دنيا تنها بها ، ولا حظاً تحسد عليه ، وإن أقرب ما تكون مع الله ، أبعد ما تكون مع معاوية ، فارجع إلى مصرك ، فقد اغتفر أمير المؤمنين الذنب ، واحتمل الثقل . واعلم أن رجعتك اليوم خير منها غداً ، وكانت أمس خيراً منها اليوم ، وإن كان عليك حياء من أبي الحسن ، فما أنت فيه أعظم ! فقبح الله أمراً ليس فيه دنيا ولا آخرة ! » فلما قرأ مصقلة الكتاب ، قال للرسول الذي حمله إليه : يا أخا بكر .. إنما هربت بنفسى من عليّ ، ولا والله ما يطول لسانى بنبيته ، ولا قلت فيه قط حرفاً بسوء ! ثم كتب إلى قومه يقول :

« أما بعد : فقد جاءنى كتابكم ، وإني أخبركم : إنه من لم ينفعه القليل لم ينفعه الكثير ، وقد علمتم الأمر الذى قطعنى من عليّ ، وأضافنى إلى معاوية ! وقد عمت أنى لو رجعت إلى عليّ وإليكم ، لكان ذنبى مغفوراً ! « ولكنى أذنبت إلى عليّ ، وصحبت معاوية ! فلو رجعت إلى عليّ أحدثت عيباً وأحييت عاراً ، وكنت بين لائمين : أولهما خيانة ، وآخرهما غدر ! ولكنى أقيم بالشام ، فإن غلب معاوية فدارى العراق ! وإن غلب عليّ فدارى أرض الروم ! .. وكانت فرقتى عليّاً على بعض العذر أحب إلى من فرقتى معاوية ولا عذر لى .. »^(٢) ١١ .

(١) السكاسك قبيلة عربية في الشام

(٢) الإمامة والسياسة : ١ : ٨٩ .

ومصقلة ليس واحداً فيما فعل ! فقد سبقه ، وجاء بعده كثيرون ، تركوا
عليها خوفاً من حسابه ، أو يأساً من عطائه ، ولحقوا بمعاوية حيث هناك
لا خوف من حساب ، ولا يأس من عطاء ، فإن بيت مال المسلمين هو بيت
مال معاوية ، يضعه حيث يشاء ، ويفتح به لنفسه إلى الناس طرقاً !!
وفي عقيل ابن أبي طالب . وفي موقف عليّ منه ، ما يغني عن كل مثل
يُورَد ، وعن كل قول يقال في هذا المقام !

فمقيل هو شقيق عليّ الأكبر ، وقد عرفنا من قبل كيف كانت حسرته ،
وكيف كانت مواساته لأخيه ، حين التقى بجماعة من بني أمية ، فقالوا له ،
وقال لهم ، وأسموه وأسمهم ، ثم كتب إلى عليّ تلك الرسالة ، التي أشرنا
إليها من قبل ، والتي يعرض فيها أن يأذن له أخوه ، في أن يحجى إليه بنفسه
وبنييه ، ليكونوا معه في معركته ضد هؤلاء الخارجين عليه ، حتى يأخذوا له
بحقه أو يقتلوا !

وليس فيما كان من عقيل هنا إلا ما تفرضه أخوة الأخ لأخيه .. ولكننا
إنما عرضنا هذا الموقف لنذكر به أنه لم يكن بين الأخوين غير الحب والود ،
وأنه لم تكن بينهما مباغضة أو مجافاة .. كما يحدث أحياناً بين الأخوين !
فالذي بين عقيل وعليّ كان أخوة صادقة ، خالصة ، لا تشوبها شائبة من

كدر أو جفوة !

وبتلك الأخوة ، وبحقها ، جاء عقيل إلى أخيه يسأله بعض المال الذي
اقتضته الحياة منه ، وقصرت يده عنه !

قالوا : إن عقيل بن أبي طالب ، قدم على أخيه عليّ بالكوفة . فقال له
مرحباً بك وأهلاً .. ما أقدمك يا أخى ؟ قال : تأخر العطاء عنا ، وغلا السعر
ببلدنا ، وركبتنا دين عظيم ، فجئت لتصلني ! فقال عليّ : والله مالي مما ترى
شيئاً إلا عطائي ، فإذا خرج فهو لك !

فقال عقيل : أترى شخوصى إليك من أجل عطائك ؟ وماذا يبلغ منى
عطاؤك ؟ وما يدفع من حاجتى ؟

فقال على : هل تعلم لى مالا غيره ؟ أم تريد أن يحرقنى الله بنار جهنم ، فى
صِلاتك بأموال المسلمين ؟

فقال عقيل : والله لأخرجَنَّ إلى رجل هو أوصل لى منك - يريد معاوية !
فقال له على : راشداً مهدياً ! !

وفى رواية ، أن علياً - كرم الله وجهه - حين رأى عقيلاً ، قد طمع فى
أن ينال من بيت المال شيئاً . عمد إلى حديدة فأحماها ، ثم قال لعقيل : ابسط
يدك ، وكان قد ضعف بصره ، فبسط يده ، وحسب أن أخاه قد رقى ، لما
رأى من سوء حاله ، وحال ولده ، وقدر أن يديه ستعودان بما يملؤهما
ذهباً ، وجوهرأ ! وإذا بالنار تلمسه ، فقزع صارخاً ، وولى وجهه مفضياً ،
ومغاضباً .

يقول على فى إحدى خطبه ، وقد ذكر هذه الواقعة :

« والله لئن أُبَيِّتُ حَسَكُ السعدانِ مُسَهَّداً ، وأُجَرَّ فى الأغلالِ مصقَّداً ،
أحبُّ إلىَّ من أن ألقى الله ورسوله ، يوم القيامة ، ظالماً لبعض العباد وغازباً
لشئ من الحطام ! وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى فقولها ، وبطول
فى الثرى حلولها ؟

« والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق ، حتى استماحنى من بُرِّكم صاعاً ،
ورأيت صبيانه شعثَ الشعور ، غُبر الألوان ، من فقرهم ، كأنما سُودَّت
وجوههم بالعِظم^(١) . وعادنى مؤكداً ، وكرر على القول مردداً . فأصغيت

(١) العظم : نبت له صبغ أسود .. يصبغ به

إليه سمى ، فظنّ أنى أبيعه ديني ، وأتبع قياده ، مفارقاً طريقتي ! . فأحميتُ له حديدة ، ثم أدنيتها من جسمه ، ليعتبر بها . فضج ضجيج ذى دَنَفٍ ^(١) ، من ألمها ، وكاد أن يحترق من ميسمها ، فقلت له : ثكلتك الثواكل يا عقيل ! أتئن من حديدة أحماها إنساناً للعبه ، وتجرني إلى نار ، سجرها جبارها لفضبه ؟ أتئن من الأذى ، ولا أتئن من لظي ^(٢) ؟

نخرج عقيل حتى أنى معاوية ، فلما قدم عليه . قال له معاوية : مرحباً وأهلاً بك ، يا ابن أبي طالب .. ما أقدمك على ؟

فقال : قدمت عليك لدين عظيم ركبني ، نخرجت إلى أخى ليصلني ، فزعم أنه ليس له مما بلى إلا عطاؤه ، فلم يقع ذلك منى موقعاً ، ولم يسدّ منى مسداً ، فأخبرته أنى سأخرج إلى رجل ، هو أوصل منه لى ، فجئتكَ !

فازداد معاوية فيه رغبة ، وقال : يا أهل الشام ، هذا سيد قریش ، وابن سيدها ، عرف الذى فيه أخوه من الغواية والضلالة ، فأثاب إلى أهل الدعاء إلى الحق ! ! زعم له أنه ليس له مما بلى إلا عطاؤه ، ولسكنى أزعم أن جميع ما تحت يدي لى ، فما أعطيت فقربة إلى الله ، وما أمسكت فلا جناح على فيه ! ! فأغضب كلامه عقيلاً حين سمعه يفتقض أخاه ، فقال : صدقت ! خرجت من عند أخى على هذا القول ، وقد عرفت من فى عسكره ، لم أفقد والله رجلاً من المهاجرين والأنصار ، ولا والله ما رأيت فى عسكر معاوية رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم !

ومع هذا فقد وصله معاوية بثلاثمئة ألف ، وقال له : هذه مائة ألف تقضى بهاديتك ، ومائة ألف تصل بهارحك ، ومائة ألف توسع بها على نفسك ^(٣) ! !

(١) أى مرض .

(٢) نهج البلاغة : ١ - ٢٤٧

(٣) الإمامة والسياسة : ١ - ٨٤

وفي رواية أن معاوية قال له مرة : أنا أحسن أم أخوك ؟ فقال : أنت خير لي في دنياي ، وأخي خير لي في ديني ! .

هذه بعض أمثلة لموقف « عليّ » من رجاله وأنصاره ، في العطاء والمنع ، من هذا المال ، الذي فتنّ الناس في تلك الفترة من حياة المسلمين ، وفي هذا الموقف الذي كان يقفه بعضهم من بعض : استعداداً لخوض معركة فاصلة بين عليّ ومعاوية !

وطبيعي أن سياسة « عليّ » هذه كان يمكن أن تمسك عليه أهله ، وأصحابه ، وأنصاره ، لو كانت سياسة « معاوية » مماثلة لتلك السياسة أو مقاربة لها . !

وأما سياسة معاوية تذهب مذهب المياسرة حيناً ، والمبالأة حيناً آخر ، والإغراء والإغراق في أكثر الأحيان ، فإن ذلك جدير به أن يقلّب القلوب ، ويدبر الرءوس ، ويفتح للناس طرقاً إلى اللوازنة والمفاضلة ، بين داعي الدين ، وداعي الدنيا ، بين يد عليّ الشحيحة بمال الله ، الضئيلة به على غير أهله ، وبين يد معاوية السخية به في غير حرج ، الباذلة له بغير حساب لمن يطلب ، أو يطلب !

وقد تحول كثير من أنصار عليّ إلى جبهة معاوية ، بفعل هذه السياسة ، التي كان « عليّ » يمسك بطرف منها ، على حين كان معاوية يمسك بالطرف المناقض لها !

ولا نستكثر من الشواهد التي تكشف عن وجه تلك السياسة التي اشترى بها معاوية الرجال ، وضمهم إليه ، فإن في الذين ذكرنا من أصحاب عليّ وخلصائه ، الذين اعتزلوه كابن عباس ، وعقيل ابن أبي طالب ، أو صاروا إلى معاوية ، كالغدير بن الجارود ، ومصقلة بن هُبيرة — في هؤلاء وغيرهم من الشواهد ، ما يغني عن كل شاهد !

ولكن — مع هذا — لا تكتمل الصورة ، حتى نرى معاوية ، وكيف كان يمسك رجاله ، وكيف كان يُدنى البعيد منهم ، ويتألف النافر ، وينتبه الغافل ، ويوقظ الغائم ، حتى يتقادوا جميعاً له ، وحتى تكون يده عليهم ، يد المالك فيما ملك ، لا يملكون معه إلا السمع والطاعة !

فهذا أحد ولادة معاوية كثير بن شهاب المذحجي .

كان والياً لمعاوية على خراسان . فاخفان مالا كثيراً ، ثم هرب ، فاستتر عند هانيء بن عروة المرادي ، فبلغ ذلك معاوية ، فنذر دم هانيء !
« فخرج هانيء فـسـكـان في جوار معاوية ، ثم حضر مجلسه ، ومعاوية لا يعرفه ، فلما نهض الناس ثبت مكانه ، فسأله معاوية عن أمره ، فقال : أنا هانيء بن عروة !

فقال معاوية : إن هذا اليوم ليس بيوم يقول فيه أبوك : « أرجل جُحتى . »^(١)

فقال هانيء : أنا اليوم أعز مني ذلك اليوم !

فقال له : بم ذاك ؟

قال : بالإسلام يا أمير المؤمنين !

فقال : أين كثير بن شهاب ؟

(١) يشير معاوية إلى قول عروة المرادي :

أرجل جُحتى وأجر ذبلى وتحمل شكيتى أفق كُبتى

أمشي في سرة بني قطيف إذا ماسامنى ضم أبيت

ويريد معاوية بهذا إلى أن الحال قد تغيرت ، وأنه إذا كان لعروة أن يقول هذا في وقت من الأوقات فليس لهانيء أن يعيش في ظل هذا الشعور الذي كان يعيش فيه أبوه ، ويحمي من بهدر معاوية دمه !

قال : عندي في عسكري ، يا أمير المؤمنين !

فقال معاوية : انظر إلى ما اختارته ، نأخذ منه بعضاً ، وسوّغهُ بعضاً !! «^(١)

فانظر كيف اصطاد معاوية عصفورين بحجر .. كما يقولون !

كثير بن شهاب .. سارق بيت المال !

وهانيء بن عروة .. الذي آوى إليه السارق !

يلتقم معاوية بالرضا ، ويجعل هذا المال المسروق قسمةً بينهم !

فأين هذا مما فعل عليّ مع ابن عباس ، ومع مصقلة بن هبيرة ، وغيرهما ؟

هذا ، ولم يكن معاوية يطرق هذا الباب ، ثم يفتحه على مصراعيه ، ولم

يجد من الناس استعداداً للمساومة على دينهم ، وعلى خلقهم ! !

ولقد كانت فتنة المال — كما قلنا — آخذةً بعقول الناس ، مستبدةً

بمشاعرهم ، إلا قليلاً ممن عصم الله ، وآثر الآجلة على العاجلة ، وما عند الله ،

على مافي أيدي الناس !

روى الطبري : أن الحنّاب بن يزيد المجاشعي ، وفد على معاوية في جماعة

من الرؤساء ، فأعطى معاوية كلا منهم مائة ألف ، وأعطى الحنّات سبعين ألفاً !

« فلما رجعوا ، وكانوا ببعض الطريق أخبر بعضهم بعضاً بالجائزة

التي نالها .

« فرجع الحنّات إلى معاوية يعاتبه ، فقال له : ما بالك خست بي

دون القوم ؟

قال : اشتريت من القوم دينهم ، ووكلتك إلى دينك ، ورأيت في عثمان !

فقال : وأنا ، فاشتر منى دينى !

فأمر له بنىام جائزته !^(١)

قد يكون فى الخبر شيء !

ولكن الذى لاشك فيه ، أن أحوال الناس — فى تلك الفترة — كانت
تتسع لهذا ، ولأكثر منه !

لقد أخذ الناس يتراجعون إلى الجاهلية ، وأخذ الدين الذى كان يملأ
قلوبهم ، يتسرب شيئاً ، شيئاً ، ويضمّر قليلاً قليلاً !

كان المال فى بدء الدعوة سبيلاً إلى تألف بعض القلوب ، فيفتزع منها
نفاقها ، وكفرها !

ثم ها هو ذا قد أصبح المال سبيلاً إلى تألف القلوب ، فيفتزع إيمانها ،
ويزعزع عقيدتها ؟

وهكذا ، نجد المال فى يد « على » حرباً عليه ، يكثر من أعدائه ، ويفسد
عليه أصحابه وأنصاره !

بينما نجد المال فى يد معاوية جيشاً عاملاً ، يؤلف له العدو ، ويُدنى إليه
البعيد ، ويمسك القريب ، ويبسط له على الناس ساطعاً قائماً على الرغبة والأمل !!

* * *

ولم يكن المال وحده هو الجيش المقاتل مع معاوية ، على حين كان هو الفتنة
المستيقظة فى جيش « على » والآفة التى تغتال رجاله ، وتخطف أنصاره — بل
كان إلى جانب المال قوى أخرى تعمل مع معاوية ، وهى فى الوقت نفسه ،
حرب على على ، ومعاول هادمة فى قوته !

فحين يرى معاوية أن بعض الناس همهم غير المال ، يحىء إليهم بالأمر الذى يداعب آمالهم ، ويَطْرُق أحلامهم ، فإذا هم قد أسدوا له قياهم ، وأعطوه الخيرة من أنفسهم !

والمثل المائل بين أيدينا هنا ، هو زياد بن أبيه ، واستلحاقه بأبي سفيان !
وزياد بن سمية أو ابن عُبيد ، كما كان يقال ، قبل استلحاقه ، لم يُلحقه أبوسفيان به ابناً ، ولم يُلحقه معاوية به أحاً فى حياة أبيه ، إذ لم يكن زياد قد ظهر بمواهبه ، وكشف عن شخصيته تلك ، التى بلغ بها مكان السيادة والقيادة ، على الرغم من هذا النسب المغمور الذى كان يعيش به ، وسط قوم يعتزون بالأحساب والأنساب !

كان زياد فى تلك الفترة التى وقع فيها الخلاف بين على ومعاوية — قد بلغ بذكائه وقوة شخصيته منزلة عالية بين الرجال ، حيث يُرجى منه النفع ، ويُلتمس منه العون ، فحيث كان فهو قوة يعمل لها حسابها ، ويقدر لها قدرها .

وعينُ معاوية لاتغفل عن مثل زياد ، وإن كان يرى هواه مع على !

فقد طمع معاوية فى أن يضم زياداً إلى جبهته ، فذَّ إليه يده بالمال وبالسلطان ومنام الأمانى ، بولاية الأمصار . . . ولكن زياداً لا يستجيب لمعاوية ، ولا يرضى أن يجعل نفسه سلعة تشتري بالمال !

وهنا يفتتح لمعاوية باب يدخل به على زياد ، ويضع يده على موطن الضعف منه ، ويلبس مكن الداء الذى يؤرقه ! ثم بلوح لزياد بالدواء الذى يذهب بهذا الداء ، وإذا زياد بين يدى معاوية ، يأخذ ويعطى ، وإذا هو أخ لمعاوية ، يقف إلى جانبه ، كما يقف الأخ من أخيه !

وقد علم على — كرم الله وجهه — بما كان يسمى إليه معاوية ، ويعمل له ،

في شأن زياد ، وما يريد معاوية أن يدخل به عليه ، فكتب إليه كتاباً يقول فيه :

« وقد عرفت أن معاوية كتب إليك ، يستنزل إليك ، ويستغل غريبك ! فاحذره ! فإنما هو الشيطان ، يأتي المؤمن من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ليقتحم غفلته ، ويستلب غرته ! !

« وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر قلعة من حديث النفس ، ونزعة من نزعات الشيطان ، لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث ، والمتعلق بها كالواغل المدفع^(١) ، والفوط^(٢) المذبذب . »^(٣)

فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد بها ورب السكينة ! !

لقد جاء كتاب الإمام إلى زياد ، وهو يراد نفساً إلى ما يدعو إليه معاوية من استلحاقه به ، وهو يخشى أن يقبل هذا النسب فلا يجد إلا نكراً ، ولا يسمع إلا استهزاء وسخرية . . ولكن هاهو ذا الإمام على يد ذكر أن أبا سفيان كان قد أظهر في زمن عمر قولاً يتنسب زياد إليه ، وإذا كان هذا القول قد جاء قلعة ، وعن غير قصد ، فإن فيه لزياد بلاغاً ، وإن له فيه لمتعلقاً . . فهو الغريب ، يمسك بأي شيء يقع أيده ! ولالإمام على أن يقول في هذا القول ماشاء ! فقد شهد بأن أبا سفيان قال في زياد قولاً : ، وأن هذا القول قد وقع من نفس على موقعاً ، وهذا وحده يكفي ، ليكون ذريعة يتذرع بها زياد ، الوصول إلى نسبه من أبي سفيان !

(١) الواغل : هو الذي يهجم على الشرب ليشرب معهم وليس منهم .

(٢) الفوط : ما يعلق بالرحل من قصب أو قدهج ، فهو أبداً مضطرب لا يستقر .

(٣) الإمامة والسياسة ٢ : ٨٩ .

وقد طرق معاوية الحديد وهو ساخن - كما يقولون - فعرض على زياد هذا النسب ، ولوّح له به في صور من الإغراء المشوب بالمكر والدهاء ! وهو نسب عزيز ، تنقطع دونه الرقاب !

كانت سمية ، أم زياد ، جارية للحارث بن كلدة الثقفي ، وكانت من البغايا ذوات الرايات بالطائف ، وتؤدّي في مقابل ذلك جعلا إلى سيدها ، الحارث ابن كلدة . . وكانت تنزل في حلة البغايا ، خارج ثقيف ! وقد زوجها سيدها من غلام روميّ له ، اسمه عبيد !

واتفق أن مرّ أبو سفيان في بعض أسفاره في الجاهلية ، بالطائف ، فنزل على خمار ، يدعى أبا مريم السلولى ، فقال له أبو سفيان ، قد اشتهيت النساء فالتمس لى بغيا ! فقال له : هل لك في سُمَيّة ؟ ^(١) فقال أبو سفيان : هايتها ، على طول ثديها ، وذفرَ بطنها ! . فأناء بها ، فوقع عليها ، فعلق بزياد ، ثم وضعته في السفة الأولى من الهجرة ! »

وقد وُلد زياد منسوباً إلى أبيه عبيد ، دون أن يلتفت أحد إلى هؤلاء الذين كانوا يترددون على أمّه سميّة ، ومنهم أبو سفيان ، وأعله كان كثيرَ التردد عليها ، ولعلها أصابت من نفسه هوى ورضى ، على ما كان يؤذيه منها ! ولما كبر زياد ، وبلغ مبلغ الرجال ، ظهرت مواهبه ، وعُرف له في الناس قدره . . !

وحين بويغ لعلّى بالخلافة ، ولّى زياداً فارس ، فضبطها ، وحى قلاعها ، فساء ذلك معاوية ، وكتب إليه ، ويتمرض له بولادة أبى سفيان !

وقد رأينا أن الإمام عليّ كتب إلى زياد يحذره ، مما يريد معاوية عليه ،

(١) ويظهر من هذا أن أبا سفيان كان يعرفها من قبل ، في تردده على هذا المكان !

ولهذا وقف زياد موقف المتردد ، فظل بعيداً عن مواطن الصراع ، ممتصاً في فارس ، لم يشهد مشاهد صيفين ، حتى انتهى الأمر بمقتل علي رضي الله عنه !
و حين بوبع معاوية بالخلافة ، وتمت المصالحة بينه وبين الحسن بن علي ، أرسل إلى المغيرة ابن شعبه ، وقال له : ذكرتُ زياداً ، واعتصامه بفارس ، وهو داهية العرب ، ومعه الأموال ، وقد تحصن بأرض فارس وقلاعها ، يدبر الأمور ، وما آمن أن يبايع لرجل من هذا البيت ، فإذا هو قد أعادها جذعة !

فذهب المغيرة إلى زياد ، والتقى الدهاء بالدهاء .. فقال له المغيرة :
« إن هذا الأمر لا يمدّ إليه أحد يداً إلا الحسن بن علي ، وقد بايع معاوية ، فخذ لنفسك قبل التوطين ^(١) ! »

قال زياد : فأشير علي !

قال المغيرة : أرى أن تنقل أصلك إلى أصله ، وتصل حبلك بحبله ، وتغير الناس أذننا صماء !

فقال زياد : يا ابن شعبه ! أغرس عوداً في غير منبته ؟

ثم مازال المغيرة بزياد يغريه ، ويهون عليه الأمر حتى قبل هذا العرض ، فوفد على معاوية ، ليبرم معه عقد هذه الصفقة ! وليقال هذا النسب ، الذي يسيل له لعاب الأشراف !

وقد وجد زياد أن معاوية أعدّ كل شيء ، وأزال كل عقبة ، وهى الجو المناسب لإعلان هذا النبأ الثير !

(١) أى قبل أن تستقر الأمور . فلا يكون لك عند معاوية مكان .

(م ٢٩ - علي بن أبي طالب)

فما كاد زياد يجلس إلى معاوية ، حتى أرسلت إليه جُويرية بنت أبي سفيان - عن أمر أخيها معاوية - فلما أتتها ، كشفت عن شعرها بين يديه ، وقالت له : أنت أخي ! أخبرني بذلك أبو مریم^(١) !

ثم أخذ معاوية بيد زياد إلى المسجد ، وجمع الناس ، وأحضر من يشهد لزياد بأنه من أبي سفيان !

وكان ممن حضر ، أبو مریم ، فقال له معاوية : بم تشهد يا أبا مریم ؟ فقال : أنا أشهد أن أبا سفيان ، قدم علينا بالطائف ، وأنا خمار ، فقال أبغني بغياً .. فقلت له : ليس عندي إلا جارية الحارث بن كعدة ، سمية !! فقال : اثني بها على قذرها ، وذفرها !!

فقال له زياد : مهلاً ، أبا مریم ! إنما بُعثت شاهداً ، ولم تبعث شامخاً ! فقال أبو مریم : لو كنتم أعفيتموني لكان أحب إلي ! وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ! والله لقد أخذ بكم درعها ، وأغلقت الباب عليهما ، وقعدت دهنساً ، فلم ألبث أن خرج عليّ مسح جبينه ، فقلت : مه ، يا أبا سفيان ! فقال : ما أصبتُ مثلها يا أبا مریم ، لولا استرخاء من ثديها ، وذفر من فيها^(٢) !!

فقام زياد فقال : أيها الناس ، هذا الشاهد قد ذكر ما سمعتم ، ولست أدري حق ذلك من باطله ، وإنما كان عبيد - زوج أمه - والدأ مبروراً ، أو ولياً مشكوراً ، والشهود أعلم بما قالوا .

(١) هو الحمار الذي نزل عنده أبو سفيان وهو الذي وصل بينه وبين سمية أم زياد.

(٢) واضح ما في هذه الشهادة من التلفيق المتكلف . الذي يشف عما وراءه من كذب وزور

لم يغضب عن ذكاء زياد ، مافى هذا الموقف من أمارات الصنعة والتكلف ،
ومافى هذه الشهادة التى أدلى بها أبو مريم من بهتان مفضوح ، فكان
هذا التعقيب الذكى منه ، على ما دار فى هذا الموقف !

ولكن الناس لم يجدوا فى هذا مقنعاً ، وقام كثير من العلماء ، والفقهاء
ينازعون فى هذا النسب الجديد ، ويدفعونه !

فقام يونس بن عبيد بن أسد الثقفى ، أخو صفية ، مولاة سمية ، فقال :
يامعاوية . قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفراش ، وللعاهر
الحجر^(١) ، وقضيت أنت أن الولد للعاهر ، وأن الحجر للفراش ، مخالفةً
لكتاب الله ، وانصرافاً عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشهادة
أبى مريم على زنا أبى سفيان ! ؟

فقال معاوية : والله يا يونس لتنتهين ، أو لأطيرن بك طيرة بطيئاً
وقوعها ! فقال يونس : وهل إلّا إلى الله متمّ أقم ؟ قال : نعم ، وأستغفر الله !
وما زال حديث الاستلحاق هذا يدور فى المجالس ، ويقم الناس
ويقعدهم زمناً . . ولكنه مع هذا أعطى معاوية أخاً كان له قوة وعضداً !
وفى هذا يقول عبد الرحمن بن الحكم .

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلطة^(٢) من الرجل اليماني

(١) يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الولد للفراش . وللعاهر الحجر » أى أن
النسب إنما هو للزوج . صاحب الفراش . وليس للعاهر - أى الزانى - الذى
يدعى نسبة الولد إليه بمن زنا بها - ليس له إلا الحجر ، أى لا شيء له . وزياد
إنما نسبته إلى عبيد الرومى الذى كان زوجاً لسمية البغى !

(٢) المغلطة : أى قولة فيها صراحة قاتلة .

أَتَغْضَبُ أَنْ يُقَالَ أَبُوكَ عَفٌّ وَتَرْضَى أَنْ يُقَالَ أَبُوكَ زَانٍ
وَأَشْهَدُ أَنَّ رَحِمَكَ مِنْ زِيَادٍ كَرَحِمِ الْقَيْلِ مِنْ وَلَدِ الْأَتَانِ

وقال ابن الأثير ، تعليقا على هذا الاستلحاق : وكان استلحاقه أول ما رُدت به أحكام الشريعة علانية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قضى بالولد للفراش ، وللماهر الحجر ! ^(١) ومع هذا ، فقد أمسك زياد بهذا النسب ، وصار موضع فخر وإعزاز له . . من أقرَّ له به فهو وليّ وصديق ، ومن أنكره عليه فهو عدوٌّ محارِبٌ بالعداوة .

أخرج بن سعد في طبقاته : أن مُرَّةً - صاحب نهر مرة - أتى عبد الرحمن ابن أبي بكر ، وكان مولاها ، فسأله أن يكتب له إلى زياد في حاجة له ، فكتب له عبد الرحمن : من عبد الرحمن إلى زياد ، ونسبه إلى غير أبي سفيان ! فقال : لا أذهب بكتابك هذا ، فيضرنّني اثم أتى عائشة ، فكتبت له : « من عائشة ، أم المؤمنين ، إلى زياد بن أبي سفيان ! » فما جاء بالكتاب إلى زياد ، وقراه ، قال له : إذا كان عد فجنّني بكتابك . . فلما كان غد ، جمع زياد الناس . ودعا مُرَّةً ومعه كتاب عائشة ، وقال : يا غلام : اقرأ ، فقرا : « من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان . . » فما فرغ الغلام من قراءة الكتاب قال زياد : هذا كتاب أم المؤمنين عائشة !! وأظهر سرورا عظيما ، وأكرم مُرَّةً وأقطعها أرضاً على نهر الأبلّة ، وأمر أن يُحفر له نهر تُروى به هذه الأرض ، فسمّى النهر نهر مُرَّة . . !

وهذه فعلة من فعلات معاوية ، في التمسكين لسلطانه ، وفي طلب الغلبة على أعدائه . . قد أدخل في نسبه زياد بن عبيد الله ، وانتزعه من فراش أبيه

عبيد إلى أبي سفيان ، الذي كان يُلمّ بأمه سُمَيَّة فيمن يُلمّ بها من الفاس ! ولم
ببال معاوية ، بما في هذا العمل من مخالفة صريحة للدين ، وما شرع الله في
مثل هذا الأمر !

ونسأل : هل يلام الإمام عليّ أن ترك زياداً يفلت منه ، حين لم يتخذ
من الوسائل مابقطع عليه الطريق إلى معاوية ، ويجعله شيعة له ، ولبنيه
من بعده ؟

لقد كان زياد عاملاً من عمال عليّ ، ورجلاً من رجاله ، قبل أن تشخص
عين معاوية إليه ، وتتجه رغبته إلى الإفادة منه . وكان من الممكن أن يسبق
عليّ معاوية في الغلبة على زياد ، لو أنه أدناه إليه ، وأطعمه في المال والسلطان .
ولكن عليّاً — رضى الله عنه — قطع أطماع زياد فيه ، وأراه من نفسه أنه
راصد له بالعقاب الشديد ، إن هو أخذ من مال الله شيئاً .. قليلاً أو كثيراً..
فكتب إليه مرة بقول^(١) : وإني أقسم بالله قسمًا صادقًا ، لئن بلغني أنك
خفت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً ، أو كبيراً ، لأشدنّ عليك شدةً ، تدعك
قليل الوفير ، ثقيل الظاهر ، ضئيل الأمر .. والسلام^(٢)»

ومثل هذا الوعيد ، لا يقيم زياداً على جناح أمن ، ولا يجعل ما بينه وبين
عليّ إلا الخوف المشوب بالجفاء ، المهيأ للمباعدة والفرار !

ومرة أخرى نسأل : هل يلام الإمام عليّ أن ترك زياداً يفلت من يديه ؟
وهل يُتهم الإمام بأنه لم يكن رجل سياسة ، وصاحب دولة ؟

ويمكن أن يجاب على هذا بلا ، وبفعم !

(١) كان زياد خليفة على البصرة لعبد الله بن عباس

(٢) الإمامة والسياسة ٢ / ١٢ .

أما ، لا ، فحين ننظر إلى الإمام ، فنراه الرجل الحكيم العالم ، ذى البصيرة
النافذة ، والرأى القاطع ، ولكنّه يجعل حكمته ، وعلمه ، وبصيرته ، ورأيه ،
من وراء دينه .. فلا يعطى إلا ما يأذن به الدين ، ولا يأخذ إلا ما يجيزه ، وإن
جار ذلك على ما يشير به الرأى وتدعو إليه السياسة ! إنه قد آثر دينه على دنياه !
وأما ، نعم ، فحين ننظر فنرى الإمام يعمل في ميدان السياسة بأسلوب غير
أسلوبها ، ويحارب بأسلحة غير أسلحتها .. ومع هذا فهو ملتحم في المعركة ،
يلقى أعداءه حاسراً ، على حين يلقونه مدججين بالدروع والمغافر والسيوف !
يقول الإمام في إحدى خطبه : « والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه
يفدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس ، ولكن لكل
غدره فجرة ، ولكل فجرة كفره ، ولكل غادر لواء يُعرف به يوم
القيامة ! »^(١)

ويقول الإمام في إحدى خطبه أيضاً :
« لقد أصبحنا في زمان ، قد اتخذنا كثر أهله الغدر كديساً ، ونسبهم
أهلُ الجهل فيه إلى حسن الحيلة !
« ما لهم .. قاتلهم الله ؟

« قد يرى القلبُ وجهَ الحيلة ، ودونه مانع ، من أمر الله ونهيه ، فيدعها
رأى عين ، بعد القدرة عليها ، ويقتبز فرصتها من لا حريجة له في الدين »^(٢) !
ويقول المبرد في وصف هذه السياسة ، التي كان ينتهجها الإمام على :
« كان الحزم عند عليّ رضي الله عنه ، أن يخطر أمر الدين ، ثم لا يفكر
في الموت ! »^(٣)

(١) الإمامة والسياسة : ١ / ٢٢٥ .

(٢) نهج البلاغة : ١ / ٤١

(٣) الكامل للمبرد : ١ / ١٣١

إن علياً - كرم الله وجهه - كان يعرف أن سياسة معاوية هي التي تلقى من قلوب الناس ، ومن عقولهم ، رِضًى واطمئناناً ، وأن الزمن قد استدار بالناس ، فاستدار معهم معاوية ، وسلك بهم الطريق الذين سلكوه ، على حين ظل الإمام على الطريق الذي عرفه ، لا يحوله عنه أن يرى أصحابه يتخلفون عنه واحداً واحداً ، ويجد أنصاره يتفقدون فرقةً فرقةً ، حتى لا يكاد يكون على الطريق غيره !

يقول في إحدى خطبه : أيها الناس ، لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله ، فإن الناس قد اجتمعوا على مائدة ، شبعها قصير ، وجوعها طويل !^(١)

ولكن صرخات الإمام كانت تضيع وسط زجرجة العواصف ، التي كانت نسوق الناس سوقاً ، إلى حيث يقضون ويخضون !

وفي كتابه - كرم الله وجهه - إلى سهل بن حنيف الأنصاري ، وهو عامله على المدينة - في هذا الكتاب ما يكشف لنا ما صار إليه الناس يومئذ . يقول الإمام .

« أما بعد ، فقد بلغني أن رجالاً من قبيلك ، بنسلاوت إلى معاوية ، فلا تأسف على ما يفوتك من عآددم ، ويذهب عنك من مدّدم ، فكفى لهم غيّاً ، ولك منهم شافياً ، فرارهم من الهدى والحق ، وإبضائهم إلى العصى والجهل ! وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها ، ومهبطون إليها ، وقد عرفوا العدل ، وسموه ، روعوه ، وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة^(٢) ، فهربوا إلى الأثرة ، فبعداً لهم وسحقاً ! »

(١) الإمامة والسياسة : ١-٢٢٧

(٢) أى سواء

إنهم والله لم ينفروا من جور ، ولم يلحقوا بعدل ، وإنا لنطمع في هذا الأمر أن يذلل الله لنا صعبه ، ويستهل لنا حزنه ، إن شاء الله ، والسلام^(١) »

* * *

اشترى معاوية الرجال بالمال ، والسلطان ، واشترى الرجال بالادعاء والاستلحاق . . . وبقي رجال لم يستطع أن ينفذ إليهم بسبب من تلك الأسباب ! ومع هذا ، فلم يزل يدور حولهم . ويكيد لهم ، حتى يقطع ما بينهم وبين علي ! ثم لا عليه أن يصل بينهم وبينه !

فهذا قيس بن سعد بن عمادة الأنصاري ، كان على رأس الأنصار المشايخين لعلي ، وقد تأبى قيس على معاوية ، وردّه ردّاً عنيفاً . حين أراده على أن يترك علياً ، فدمس عليه كتاباً باسمه إلى معاوية ، يستجيب له فيه ، ويطلب بدم عثمان معه ، ثم عمل على أن يقع هذا الكتاب في يد الحسن بن علي الذي كان قد بويع له بالخلافة بعد أبيه ، وكان قيس بن سعد على رأس الجيش الذي أعده الحسن للقاء معاوية .

وفي هذا الكتاب : « للأمير معاوية بن أبي سفيان . . . من قيس ابن سعد .

سلام عليك . . فإنني أحمد إليكم^(٢) الله الذي لا إله إلا هو . . أما بعد .
فإن قتل عثمان كان حدثاً في الإسلام عظيماً ، وقد نظرت لنفسي وديني ! فلم أر يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم ، مسلماً ، محرماً ، برّاً ، تقياً ، فاستغفر الله عزّ وجلّ لذنوبنا ، ونسأله العصمة لديننا ! .

(١) الإمامة والسياسة : ٢ - ٨٢ .

(٢) هذا الخطاب بعيم الجماعة للتعظيم . ولم يكن العرب إلى هذا الوقت يخاطبون المفرد بصيغة الجمع . . . وذلك مما يشير الشك في صحة هذا الكتاب .

« أَلَا وَإِنِّي قَدْ أَلْقَيْتُ إِلَيْكُمْ بِالسَّلَامِ ، وَإِنِّي أَحْبَبْتُكَ إِلَى قِتَالِ قَتْلَةِ عُثْمَانَ ،
إِمَامِ الْهَدَى الْمَظْلُومِ ، فَعَمَلْتُ عَلَىٰ فِيمَا أَحْبَبْتُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالرِّجَالِ ، أَعَجَّلَهُ
إِلَيْكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَالسَّلَامُ عَلَى الْأَمِيرِ ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، وَبَرَكَاتُهُ ! »^(١) .

قال اليعقوبى : كان معاوية يَدْسُ إِلَى عَسْكَرِ الْحَسَنِ مِنْ يَتَحَدَّثُ
أَنْ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَدْ صَالَحَ مَعَاوِيَةَ وَصَارَ مَعَهُ ، وَيُوجِّهُ إِلَى عَسْكَرِ قَيْسٍ مِنْ
يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ أَنَّ الْحَسَنَ قَدْ صَالَحَ مَعَاوِيَةَ وَأَجَابَهُ ! .

« وَجَّهَ مَعَاوِيَةَ إِلَى الْحَسَنِ ، الْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَامِرٍ بْنِ
كَرِيزٍ ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أُمِّ الْحَكَمِ ، وَوَأَفْوَهَ وَهُوَ بِالْمَدَائِنِ ، نَازِلًا فِي
مُضَارِبِهِ ، ثُمَّ خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ وَهُمْ يَقُولُونَ ، وَيُسْمِعُونَ النَّاسَ : « إِنْ اللَّهُ قَدْ
حَقَّنَ يَابْنَ رَسُولَ اللَّهِ الدَّمَاءَ ، وَسَكَّنَ الْفِتْنَةَ ، فَأَجَابَ إِلَى الصَّاحِ ! » .
فَاضْطَرَبَ الْعَسْكَرُ ، وَلَمْ يَشْكُ النَّاسُ فِي حَدِيثِهِمْ ، فَوَثَبُوا بِالْحَسَنِ ،
فَانْتَهَبُوا مُضَارِبَهُ ، وَمَا فِيهَا »^(٢) .

وقال الطبرى : بايَعَ النَّاسُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ بِالْخِلَافَةِ ، ثُمَّ خَرَجَ بِالنَّاسِ
حَتَّى نَزَلَ بِالْمَدَائِنِ ، فَبَيْنَمَا الْحَسَنُ بِالْمَدَائِنِ ، إِذْ نَادَى مُنَادٍ فِي الْعَسْكَرِ :
أَلَا إِنْ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَدْ قَتَلَ ، فَانْفَرُوا ، فَانْفَرُوا ، فَنَفَرُوا وَنَهَبُوا سِرَادِقَ الْحَسَنِ ،
حَتَّى نَازَعُوهُ بِسَاطًا كَانَ تَحْتَهُ^(٣) ١١ » . .

وقد أشرنا من قبل إلى مَا كَانَ بَيْنَ مَعَاوِيَةَ وَسَعْدٍ قَبْلَ مَقْتَلِ الْإِمَامِ ، وَلَعَلَّ
سَعْدًا قَدْ أَصْلَحَ مَا أَفْسَدَهُ مَعَاوِيَةُ ، فَمَادَ إِلَى جِبْهَةِ عَلِيٍّ ، لِيَجَارِبَ مَعَ ابْنِهِ الْحَسَنِ .
إِنَّهَا سِيَاسَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَخْتَلِفُ ، تِلْكَ الَّتِي حَارَبَ بِهَا مَعَاوِيَةُ عَلِيًّا ، كَمَا
حَارَبَ بِهَا كُلُّ مَنْ تَصَدَّى لَهُ ، وَوَقَفَ فِي وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ غَايَاتُهُ وَمَطَالِبُهُ ! .

(١) الطبرى : ٢٢٩/٥ .

(٢) اليعقوبى : ٢ : ١٥٦ .

(٣) الطبرى : ٦ : ١٩٢ : انظر أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ٢٥٣ .

وأمر آخر ، كان له أثره القوى البارز ، في رجحان كفة معاوية في ميدان القتال على علي ، والتمكن له من أسباب الظفر .

كان علي يحارب ، وهو يرى أنه مكروه على الحرب ، وأن الذين يحاربهم ليسوا أعداء له ، وإنما هم أعضاء في الجسد الإسلامي ، أصابتهم علل وأفات ، لا يستقيم للمجتمع أمر ، ولا يصلح له شأن ، إلا إذا عولجت تلك العلل وهذه الآفات ! وقد يكون العلاج بقطع العضو ، وإن كان عزيزاً على النفس بتره ، والاستغناء عنه ! .

إن علياً في حربه التي كانت بينه وبين المسلمين في الجمل ، وصفين ، والنهروان ، وغيرها ، كان يحارب بنفس متحرّجة من إراقة دم المسلمين . . . متحرّجة - قدر الاستطاعة - الحدود التي ينبغي أن يوقف عندها ، لإصلاح الحال ، واستقرار الأمر !

فحقيقة هذه الحروب التي واجه بها الإمام الخارجين عليه ، لم تكن إلا حملاتٍ تأديبية ، يُراد بها إعادة الأمن والنظام في المجتمع ، فإذا أمكن أن يكون ذلك في أضيق الحدود ، وبأقل الخسائر في الأرواح والأموال ، فذلك هو المطلوب المحمود ، وإن في تجاوزه ظلماً مبيناً ، وعدواناً آثماً ! .

إن الذين حاربوا علياً ، لم يكونوا خارجين على الإسلام ، وإنما هم مسلمون ، خرجوا على سلطان الخليفة وعصوا أمره . . . وهذا لا يجعل للخليفة سبيلاً إلى استباحة دمائهم استباحة مطلقة ، بلا حدود ولا قيود ! وإنما هو سلم لهم إن سالموا ، وحرب عليهم إن حاربوا ، فإذا قاءوا إلى الطاعة والتسليم - بالسلم أو الجرب - فلا عدوان عليهم أو على أموالهم بعد هذا ! .

في بعض مواقف الإمام قام إليه من يقول له : « أخبرتنا عن الفتنة ، وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » .

فقال الإمام - كرم الله وجهه - : « لما أنزل الله سبحانه قوله : « أَلَمْ

أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ « علمتُ أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ! فقلت يا رسول الله : ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها ؟ فقال : « يا علي . . إن أمتي سيُفْتَنُونَ من بعدى » .

فقلت : يا رسول الله . . أَوَلَيْسَ قُلْتُ لِي يَوْمَ أَحَدٍ حَيْثُ اسْتَشْهَدُ مِنْ اسْتَشْهَدُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَحِيزَتْ^(١) عَنِ الشَّهَادَةِ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ ، فقلت لِي : « أبشِرْ ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ ! » فقال لِي : « إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ ، فَكَيْفَ صَبْرِكَ إِذَنْ ؟ »

فقلت : يا رسول الله . . هذا من مواطن البشري والشكر .

فقال : « يا علي . . إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي بِأَمْوَالِهِمْ ، وَيَمْتَنُونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ ، وَيَمْتَنُونَ سَطْوَتَهُ ، وَيَسْتَحْلُونَ حَرَامَهُ بِالشَّهَادَاتِ الْكَاذِبَةِ ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ ، فَيَسْتَحْلُونَ الْخُمْرَ بِالنَّبِيدِ ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدْيَةِ ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ ! » .

فقلت : يا رسول الله . . بَأَى الْمَنَازِلِ أَنْزَلَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ ؟ أَمِنْزِلَةِ رِيْدَةٍ ، أَمْ مِنْزِلَةِ فِتْنَةٍ ؟ فقال : « مِنْزِلَةُ فِتْنَةٍ »^(٢) .

فَالْإِمَامُ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا يُقَاتِلُ الْمُسْلِمِينَ ، فِي فِتْنَةٍ ، غَشَّتْ عَلَى الْأَبْصَارِ ، وَأَضَلَّتْ الْعُقُولَ ! إِنَّهُ يُحَارِبُ - كَمَا قُلْنَا - بِنَفْسٍ مُتَكْرِهَةٍ ، وَيَدُ مُتَخَاذِلَةٍ ، يَتَجَرَّعُ مَوَاقِعَ سَيْفِهِ ، وَيَقِيمُ عَلَى يَدِهِ حَارِسًا يُمْسِكُ بِهَا أَنْ تَصِيبَ بَرِيئًا ! .

(١) أى أخرت عني الشهادة يومئذ ؛ فلم أنلها !

(٢) نهج البلاغة ١/ ١٤٨ .

ولو كان الإمام - كرم الله وجهه - يحارب عدوًّا لا يعنيه من أمره إلا أن يهزمه ، ويملى حكمه عليه ، لكان النصر أقرب شيء إلى يده ولما كان له أن يدع عمرو بن العاص يفلت من سيفه . وقد أمكنته الفرصة فيه يوم صفين ، حين أغراه معاوية بمبارزة عليّ ، فلم يلبث حتى صرعة الإمام ، وضرب به الأرض ، فلما رأى السيف يهوى إليه ، اتقاء بسواته ، فعفّ الإمام عنه ! ولو كان الإمام يحارب وليس هم إلا كسب الحرب ، لما ترك سيفه يأخذ طريقاً آخر غير رأس عمرو ! .

وكذلك فعل الإمام مع بُسر بن أرطاة ، وكان من شيعة معاوية ، ومن أشد أنصاره على عليّ وشيعته .

وكما فعل معاوية مع عمرو ، فعل مع بسر ، فأغراه بمنازلة عليّ ، ففازله ، ثم لم يلبث أن صرع كما صرع عمرو ، فكشف عن سواته لينجو كما نجا عمرو ، وفي هذا يقول الحارث بن النضر السهمي :

أفي كل يوم فارسٌ تندبونه له عورة وسط العجاجة بادية
يكفّ لها عنه عليٌّ سنانه ويضحك منها في الخلاء معاوية
بدت أمسٍ من عمرو فقتع رأسه وعورة بسر مثلها حذو جاذية
ولم تكن يد عليّ وحدها هي التي تقف عن قتل المسلم المقتون حين
يستسلم ، بل كانت تلك دعوته في أصحابه ، ووصاياه للقادة والجند في جيشه .
يقول عليّ — كرم الله وجهه — في وصاته لجارية بن قدامة السعدي ،
وقد بعته للملاقة بسر بن أرطاة قائد معاوية ، بعد أن أغار على همدان . ، وقتل
صبياهم ، وسبي نساءهم . .

يقول عليّ في وصاته تلك : « ولا تقا تل إلا من قاتلك ، ولا تجهز على

جريح ، ولا تسخرن دابة ، وإن مشيت ومشى أصحابك ١١ ولا تستأثر على أهل المياه بمياههم ، ولا تشربن إلا فضلهم^(١) عن طيب نفوسهم ، ولا تشتمن مسمماً ولا مسلمة . . . ولا تظلمن معاهداً ولا معاهدة . . . واسفك الدم في الحق ، واحقنه في الحق^(٢) .

وفي كتاب كتبه إلى الأشتر حين ولاه مصر : « إياك وسفك الدماء بغير حلها ، فإنه ليس شيء أدعى لفقمة ، ولا أعظم لتبعة ، ولا أحرى بزوال نعمة ، وانقطاع مدّة — من سفك الدماء بغير حلها . . فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه ، بل يزله وينقله^(٣) » .

وقبل التحام القتال بصفين ، خطب على أصحابه ، فكان مما قال لهم : « لا تقاتلوهم حتى يبدؤكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدؤكم حجة أخرى ، لكم عليهم ! »

« فإذا كانت الهزيمة بإذن الله ، فلا تقتلوا مدبراً ، ولا نصيبوا معوراً^(٤) ولا تجمزوا على جريح ، ولا تهيجوا النساء بأذى ، وإن شتمن أعراضكم ، وسبن أمراءكم .. »^(٥)

هي كما قلنا ليست حرباً بالنسبة لعلّ وأصحابه ، وإنما هي حملة تأديب ، يراد بها ردع الباغين ، وردّ الشاردين !

(١) أي ما يفضل منهم ويزيد عن حاجتهم .

(٢) أسد الغابة : ١٨٠/١ .

(٣) نهج البلاغة : ٦٦/٢ .

(٤) المعور : كمجرم من أمكن من نفسه ، وعجز عن حمايتها ، كما كان من

أمر عمرو ، وبسر بن أرطأة ، وقد تركهما الإمام حين سقطا .

(٥) نهج البلاغة : ٢ : ٩ .

أما سياسة معاوية في حرب عليّ فكانت هي الحرب ، بكلّ ويلاتها
وشناعاتها ، حرب عدوّ لا يبقى على عدوّه ، ولا يرقب فيه إلّا ولاذمة .. حرب
هم أصحابها النصر ، بكلّ سلاح ، والغلب بكلّ وسيلة !

إنها الحرب ، في أبشع صورها ، وأشنع وجوها !

فبعد وقائع صفين ، وفي فترة الهدنة التي كانت بين عليّ ومعاوية ، انتظارا
لما يسفر عنه رأي الحكمين .. في هذه الفترة التزم عليّ وأصحابه ، بما تقضى به
الهدنة ، فلم يَكِدْ لمعاوية كيداً ، ولم يبعث إليه بعثاً ، يُغيّر على أطرافه ،
وبخيف أتباعه !

ولكن « معاوية » لم يدع فرصة تمرّ به ، دون أن ينتهزها للأكيد لعلّ ،
وللانقاص من أطراف ماتحت يده ، ولإخافة الجهات الموالية له ، وإلقاء الفزع
في قلوب أهلها !

وجّه الفهمان بن بشير في سنة تسع وثلاثين إلى عين التمر^(١) ، في ألف رجل
فأغاروا عليها ، وكان بها مسلحة لعلّ فيها مائة رجل ، فكسروا جفون
سيوفهم ، واقتتلوا أشد قتال ، وجاءهم خمسون من القرى المجاورة ، فلما رآهم
أهل الشام ظنّوا أن لهم مدداً ، فانهزموا عند المساء^(٢)

وبعث سقيان بن عوف الغامدي إلى هيت^(٣) ، وأمره أن يغير عليها ، وأن
يقطعها ، ثم يمضي حتى يأتي أنبار ، والمدائن ، فيوقع بأهلها .. وكان مما أوصاه
به : اقتل من لقيته ممن ليس هو على رأيك ، وأخرب كل ما مررت به من

(١) بلدة قرب الأنبار .

(٢) الطبري ٦ : ٧٧ .

(٣) هيت : بلدة على الفرات ، من نواحي بغداد ؛ فوق الأنبار .

القرى ، وأحرز الأموال ، فإن حرز الأموال شبيه بالقتل ؛ وهو أوجع للقلب !
فأتى الأنبار ، وبها مسلحة على فيها مائة رجل ، فقتلوا منهم ثلاثين ،
واحتملوا ما كان في الأنبار من أموال ، ورجعوا إلى معاوية . »^(١)

وقد كان هذا الحدث موجعاً للإمام عليّ ، فخطب في أصحابه خطبة قال فيها
« هذا أخو غامد ، قد وردت خيله الأنبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكري
وأزال خيلكم عن مسالحها ، وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة
المسلمة ، والأخرى للمعاودة ، فيمنزع حجلها ، وقلائدها ، ورعاتها .. فيأعجبها !
عجباً والله يميت القلب ، ويحلب الهم ، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ،
وتفرقكم عن حقكم ! ! »^(٢)

ووجه الضحك بن قيس ومعه ثلاثة آلاف رجل ، وأمره أن يمر بأسفل
واقصة ، وأن يغير على من يمر به ، ممن هو في طاعة عليّ من الأعراب ، فرعلى
الشميلية ، وأخذ أمتعتهم ، وقتل من لقي من الأعراب ، ثم اقبى عمرو بن عيسى
ابن مسعود ، وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود ، صاحب رسول الله صلى الله عليه
عليه وسلم ، فقتله في طريق الحاج ، وقتل معه ناساً من أصحابه .. »^(٣)

وبعث بسر بن أرطاة ، في جيش ، وأمره أن يسير نحو المدينة .
قال صاحب الأغاني : « فر بسر لذلك على وجهه ، حتى انتهى إلى المدينة ،
فقتل بها ناساً من أصحاب علي ، وأهل هواه ، وهدم بها دوراً ، ومضى إلى مكة
فقتل نفرأ من آل أبي لهب ، ثم أتى السراة ، فقتل بها من أصابه ، وأتى نجران
فقتل عبد الله بن المدان الحارثي ، وابنه ، وكانا من أصحاب بني العباس ، ثم أتى

(١) الطبري ٦ : ٧٨ .

(٢) نهج البلاغة : ٢ : ٣٢

(٣) شرح نهج البلاغة : ٢ : ١١١ .

اليمين ، وعليها عبيد الله بن عباس ، عامل على ، وكان غائباً ، وقيل بل هرب
لما بلغه خبر بسر ، فلم يصادفه بسر ، ووجد ابنين له صبيين ، فأخذهما بسر —
لعنه الله — وذبحهما بيده ، بمديّة كانت معه ، ثم انكفأ راجعاً إلى معاوية !

قالوا : فقالت امرأة له .. يا هذا ، قتلت الرجال ، فعلام تقتل هذين ؟ والله
ما كانوا يقتلون في الجاهلية والإسلام ! والله يا ابن أوطاة .. إن سلطاناً لا يقوم
إلا بقتل الصبي الصغير ، والشيخ الكبير ، ونزع الرحمة ، وعقوق الأرحام —
لسلطان سوء ! ^(١)

وهكذا استشرى شر الحرب بين المسلمين ، فأبيحت الدماء ، والأموال ،
وانتهكت الحرمات ، بلا تخرج أو تأثم .. حتى لقد نسي القوم أنهم أخوة
مسلمون ، وسوا قول الرسول الكريم : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه ،
وعرضه ، وماله » !

وأعجب ما في الأمر أن نجد من الصحابة من أسرف على نفسه إسرافاً
شديداً ، فسفك الدماء ، واستباح الحرمات .. بلا حساب .

روى أبو جعفر الإسكافي أن معاوية بذل لسمرة بن جندب ^(٢) ، مائة ألف
درهم ، حتى يحدث بأن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب : « ومن الناس
من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام .
وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب
الفساد . » فلم يرضَ قبذل له مئتي ألف فلم يقبل ، فبذل له أربع مائة ألف
فقبل ! ^(٣) .

(١) الاغنى ١٥ : ٤٥ .

(٢) سمرة بن جندب : صحابي معروف من رواة الحديث .

(٣) نهج البلاغة : ١ : ٣٥٨ .

وقد ولى سمرة بن جندب إمارة البصرة ، فقتل الكثير من أهلها ، ممن لم يحدث حَدَثًا ، أو بعلن حرباً ..

سئل ابن سيرين : هل كان سمرة قَتَلَ أحدًا ؟ فقال : وهل يُحصى من قَتَلَ سَمْرَةَ بن جندب ؟ استخلفه زياد على البصرة ، وأتى الكوفة فجاء^(١) ، وقد قتل ثمانية آلاف من الناس . . وروى أنه قتل في غداة واحدة سبعة وأربعين ، كلهم ممن قد جمع القرآن !^(٢) .

والعجب أيضاً أن يكون القتل تشفيًا ، وألا تكون الموتى حرة ، بعد أن استُبِيحت حرمة الأحياء ! .

وحسبنا أن نذكر هنا ما كان من مقتل الحسين بن عليّ في كربلاء ، وحمل رأسه إلى يزيد بن معاوية ، ووضعها بين يديه ، يعبث بها بقضيب كان في يده ! .

ومدينة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وقد استباحها يزيد ، واستباح أهلها ، وقتل ما بقي من صحابة رسول الله فيها ! .

بعث يزيد بجيش كثيف إلى المدينة ، على رأسه مسلم بن عقبة . . فلما علم أهل المدينة بأمر هذا الجيش ، خندقوا خندقاً حول المدينة ، وجعلوا أمرهم إلى عبد الله بن حنظلة وبايعوه على الموت . .

ودخل جيش الشام على أهل المدينة ، فعات فيها قتلاً وتنكيلاً .

وجيء بالأسرى فقيّدوا بالحديد . . فقال مسلم : أتبايعون لعبد الله ، يريد

(١) أى أن زياداً ذهب إلى الكوفة بعد أن استخلف سمرة على البصرة ، فلما عاد زياد إلى البصرة وجده قد قتل هذا العدد الكثير من المسلمين

(٢) الطبرى : ٦ : ١٣٢ .

ابن معاوية ، أمير المؤمنين ، ولمن استخلف عليكم بعده ، على أن أموالكم ودماءكم وأنفسكم خَوَّلَ له ؟ يقضى فيها ما شاء ؟ فقال يزيد بن عبد الله بن زمة : إنما نحن نفر من المسلمين ، لنا ما لهم ، وعليها ما عليهم ! فقال مسلم : والله لا أقبلك ، ولا تشرب البارد بعد هذا أبداً . . فأصر به فضرب عنقه ! .

« ثم أتى بمعقل بن سنان ، وكان معقل حامل لواء قومه يوم الفتح مع رسول الله . . فلما دخل عليه ، قال له : أعطشت يا معقل ؟ قال : نعم . . أصلح الله الأمير ! قال : حَبِّسُوا له شَرْبَةً من سَوِيق اللوز ، الذى زودنا به أمير المؤمنين ! فلما شربها ، قال له : رَوِّيت ؟ قال : نعم ، فقال مسلم : والله لا تبولها من مثانتك أبداً . . فقدم فضرب عنقه ! ! .

قالوا : وقتل من أصحاب النبي ثمانون رجلاً ، ولم يبق بدرى بعد ذلك ! وقتل من قريش والأنصار سبعمائة ، ومن سائر الناس ، وللوالى ، والعرب والتابعين عشرة آلاف ^(١) ! » .

نَسوق هذه الأمثلة ، لنرى منها آثار تلك السياسة التى حارب بها معاوية علياً ، والتى لم يفرق فيها بين حرب المسلم للمسلم ، وحرب المسلم لأهل الحرب من الكافرين ، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ! .

لقد باعدت هذه السياسة بين جماعة المسلمين ، ونزعت من قلوبهم الأخوة ، والرحمة ، والمودة ، بل وأخرجت كثيراً منهم فى دينه ، وأخرجت كثيراً منهم من دينه ! .

فإذا التقى جيش على ، وجيش معاوية ، وكل من الجيشين على النهج الذى رسمه له صاحبه ، وقائده — كان لابد أن ترجح كفة معاوية ، ويكتب

القلب لجيشه ، الذى يستخدم كل قواه ، ويفرغ كل جهده فى القتل والنهب ، والأسر . . على حين يمسك علىّ بأيدي أصحابه ، فيردّها عن القتل إلا حيث ينبغى القتل . . ثم لا يسمح ليد أن تمتد إلى مال من مال الجيش المحارب ، ولا لعين أن تطمح إلى امرأة من نساء المحاربين .

ولا شك أن كثير من دوافع القتال - وأهمها المغنم - قد افتقدتها المحاربون فى جيش علىّ ، وكثير من المحاربين لا يُعطون جهدهم فى الحرب إلا طمعاً فى تلك المغنم ، فإذا لم يكن نمة مغنم ، فهيهات أن يكثُر المحاربون فى جهة لا مغنم فيها ، وإن كثُروا فهيهات أن يكون بلاء وإقدام ، وإلقاء بالنفس إلى التهلكة .

واقصد استشعر الإمام علىّ من أصحابه هذا التثاقل عن الحرب ، حين حرّم عليهم فيها أن يغنموا إلا ما نحويه عُدة الحرب ، وألا بأسروا أحداً ، أو ينهبوا نهباً . . فقال - كرم الله وجهه - فى إحدى خطبه فيهم : « الدليل والله من نصرتموه ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل^(١) وإنكم والله لكثير فى الباحات^(٢) ، قليل تحت الرابات ، وإنى لعالم بما يصلحكم وبقيم أودّكم^(٣) ، ولكنى لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسى^(٤) » .

فإصلاحهم هو فى إطلاق أيديهم ، فمين يحاربونهم ، يضعون فيهم

(١) الأفوق : ما كسر فوقه . أى موضع الوتر منه . والناصل : العارى

من النصل .

(٢) الباحات : جمع باحة ، وهى الساحة .

(٣) الأود ، العوج .

(٤) نهج البلاغة : ١ / ٥٣ .

سيوفهم حيث شاءوا ، لا يبقون على جريح ، ولا يمسون عن مؤلّة ، ولا يتركون مغنا قدروا عليه ، من مال ، ونساء ، وأطفال . . . فهكذا يحاربهم عدوهم ، وهكذا ينبغي أن يحاربوهم ، عدوهم ، وإلا فهي المهلكة لهم ، بأيدى من يحاربونهم بسيوف لا ترحم ، ولا تعف ! ولكن الإمام يحارب ، ولا يحارب ! يحارب قوماً مفتونين ، ولم تكن فتنتهم تلك ، لتخرجهم عن الإسلام ، أو تبيع له دماءهم وأموالهم وأعراضهم ! وإن استباحوا هم الدماء والأموال والأعراض . . . فليس من عرف الحق فقاتل عليه ، كمن ركب الباطل فقاتل في سبيله ! .

ولهذا نهى الإمام على - كرم الله وجهه - عن قتل الخوارج ، فقال في بعض خطبه : « لا تقاتلوا الخوارج بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه ، كمن الباطل فأدركه » فهم في فتنة التبس عليهم وجه الحق الذي طلبوه . . . ولم يكن قتل الإمام لهم يوم النهروان إلا لأنهم ألقوا بأنفسهم إليه ، وجمعوا بثقلهم على أصحابه ، فكان قتلهم دفاعاً عن النفس ، ولو لم يقتلوا ما قتلوا ! . وبعد ، فهل بنا من حاجة إلى الوقوف على معركة « صفين » ، وإلى التعرف ما دار فيها ، وإلى النهاية التي انتهت إليها ؟ .

والحق أن صفين لم تكن هي الحرب بين على ومعاوية ، وإنما كانت الحرب العاملة ، هي تلك الأحداث التي كانت تدور خارج هذا الميدان ، والتي أشرنا إليها من قبل ، ورأينا كيف كان معاوية يديرها ، فيصيب بها من جيش على المقاتل ، من قبل أن يلتحم القتال ! .

لقد ضمّ معاوية إليه دهاة العرب : عمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، والمغيرة بن شعبة ، كما أفسد على على كثيراً من رجاله ، وأصحاب النجدة والبأس من عماله ، وقد اشترى معاوية الرجال بالمال ، والسلطان ، وبالحيلة

والدهاء .. على حين باع على كثير من رجاله بالدرهم الممدودة ، من مال الله ،
بحاسبهم عليها ، وبأخذ على أيديهم دونها .

وإذن ، فقد ضمن معاوية كسب الحرب مقدما ، قبل أن يلتقى الجيشان في
ميدان القتال .

ونظروا ما جرى في المعركة ، فلا نرى الكلمة الفاصلة فيها لل سيف ، وإنما
هي للرأى والحيلة ، والدس والوقعة . . فتلك هي الأسلحة التي أنهت الحرب
وهزمت الجند !

سار معاوية إلى صفين في ثلاثة وثمانين ألف رجل . . كلهم ملك يده ،
وطوع بيمينه ! وقد جعل على المقدمة أبا الأعور الشامي ، وعلى الساقة بُسر
ابن أرطاة ، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر ، وعلى الميمنة يزيد العباسي ، وعلى
الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص ، ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد
ابن الوليد . .

ثم خطب في القوم فقال :

« يا أهل الشام . . إنكم قد سرتهم ، لتمتعوا الشام ، وتأخذوا العراق ،
ولعمري ما للشام رجال العراق وأموالها ، ولا لأهل العراق ، تنصر أهل الشام
ولا صبرهم ، مع أن القوم ، بَعْدَهم غيرهم ، وليس بَعْدَكم غيركم . . فإن
غلبتموهم فلم تغلبوا إلا من أتاكم ، وإن غلبوكم عاقبوا من بعدكم . . . »

وحين بلغ علياً أن معاوية تاهب للمسير إلى صفين ، نذب الناس للقاء
القوم ، ثم خطبهم فقال :

« أيها الناس . . إنما بايع معاوية أهل الشام ، وليس له غيرهم ولي »

ولا نصير ، وإنكم أهل الحجاز ، وأهل العراق ، وأهل اليمن ، وأهل مصر !
وقد جعل القوم معاوية بينهم وبين الله ، وليس له دعوة في الدنيا ولا في
الآخرة ، وقد وادع القوم الروم ، فإن غلبتموهم استعانوا بهم ، وإن غلبوكم
فالغاية الموت ، والمفرّة إلى الله العزيز الحكيم .

« وقد زعم معاوية أن أهل الشام أهل صبر ونصر ، ولعمري لأنتم أولى
بذلك منهم ، لأنكم المهاجرون والأنصار ، والتابعون بإحسان . وإنما الصبر
اليوم ، والنصر غداً ! »

فاجتمع لعلّ مائة وتسعون ألفاً ! كلٌّ يحمل رأيَه معه ، لا يشده إلى
علّ إلا خيط من الدين ، إن شاء وصله ، وإن شاء قطعه . لا سلطان لعلّ
على أحد إلا في ظلّ هذا الوازع .

وجعل على المقدمة الأشتر النخعي ، وعلى الساقة شريح بن هانئ ، وعلى
المهاجرين والأنصار محمد بن أبي بكر ، وعلى أهل البصرة عبد الله بن عباس ،
وعلى أهل الكوفة عبد الله بن جعفر ، وعلى الخليل عمار بن ياسر ، وعلى
القلب الحسن بن علّ !

صفين .

وقد سار الجيشان حتى التقيا بصفين ، ونزلا حولها . .
وكان جيش معاوية قد سبق ، فأخذ على جيش علّ الطريق إلى القرات ،
وأقام جنداً يمنعون أصحاب علّ من وروده !

فلما علم علّ بذلك ، قال للأشعث ، اذهب إلى معاوية ، فقل له : إن
الذي جئنا له غير الماء ! ولو سبقناك إليه ، لم نَحُلْ بينك وبينه ، فإن شئت
خلّيت عن الماء ، وإن شئت تناجزنا عليه ، وتركنا ما جئنا له !

فانطلق الأشعث إلى معاوية ، فقال له : إنك تمنعنا الماء ، وأيم الله
النشربته ، فمرهم يكتفوا عنه ، قبل أن تغلب عليه !

وشاور معاوية أصحابه ، فكان الرأي أن يمنحهم الماء .

فرجع الأشعث إلى عليّ ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أئمنعنا الماء وأنت فينا
والسيوف في أيدينا ؟ خلّ عنا وعن القوم ، والله لا أرجع إليك حتى أُرده
أو أموت دونه !

وانتهى الأمر بأن اقتحم الأشعث وجماعة معه مورد الماء ، وأزاحوا
جند معاوية عنه ، فأصبحوا وقد ملكوا عليهم الماء ! ولكنهم لم يروا أن
يحولوا بينهم وبين وِردِهِ !

قال ابن قتيبة :

« إن الناس مكثوا بصفين أربعين ليلة ، يغدون إلى القتال ويروحون . .
فأما القتال الذي كان فيه الفناء ، فثلاثة أيام !

قالوا : فلما رأى عليّ كثرة القتال والقتلى في الناس ، دعا معاوية ،
فقال له :

« علام يقتل الناس ، ويُقتلون ؟ على مُلك إن نلقه كان لك دونهم ،
وإن نلقه أنا كان لي دونهم ؟ ابرز إلى ودع الناس ، فيكون الأمر
لن غلب ! .

فقال عمرو بن العاص : أنصقك الرجل يا معاوية ! .

فضحك معاوية ، وقال : طمعت فيها يا عمرو ! وهل بارز عليّ أحداً

إلا قتله ! ؟

فقال عمرو لمعاوية : أنجبن عن عليّ ، وتهمني في نصيحتي ؟ والله

لأبارزن عليّاً ، ولو مت ألف مائة !

فبارزه عمرو ، قطعنه على ، فصرعه ، فاتّقه بعورته ، فانصرف عنه
على ، وولى بوجهه دونه ! .

السيف . . والحيلة والخديعة :

أحسن معاوية بوطأة على في الحرب ، فأخذ يلتمس الوسائل لكسر
شوكته ، وتخذيل أتباعه عنه ! .

فأوصى إلى عمرو بن العاص أن يكتب إلى عبد الله بن عباس ، وقال
له : إن رأس أهل العراق مع على ، عبد الله بن عباس ، فلو ألقيت إليه
كتاباً ترّفق فيه ، فإنه إن قال شيئاً لم يخرج عنه على ، وقد أكلتنا هذه
الحرب ، ولا أرانا نطيق العراق إلا بهلاك الشام ! .
فكتب عمرو إلى ابن عباس :

« أما بعد ، فإن الذى نحن وأنتم فيه ، ليس أول أمرٍ قاده البلاء ،
وساقته العافية ، وإنك رأس الجمع بعد على ، فانظر فيما بقى بعد ماضى . . .
فوالله ما أبقت الحرب لنا ولا لكم حياة ولا صبراً ، واعلم أن الشام لا تهلك
إلا بهلاك العراق ، وأن العراق لا تهلك إلا بهلاك الشام ، فما خيرنا بعد
أعدائنا منكم ؟ وما خيركم بعد أعدائكم منا ؟ ولستنا نقول : ليت الحرب
عادت ، ولستنا نقول : ليتها لم تكن ! وإن فينا لمن يكره البقاء ،
كما فيكم .

« وإنما هي ثلاث : أمير مطاع ، أو مأمور مطيع ، أو مشاور مأمون . .
أما العاصى السفية ، فليس بأهل أن يدعى في ثقات أهل الشورى ، ولا خواص
أهل النجوى ! ! .

فكتب إليه ابن عباس يقول :

« أما بعد . . فإننى لا أعلم رجلاً أقلّ حياء منك ، فى العرب ! .

« إنك مال بك الهوى ، إلى معاوية ، وبعته دينك بالتمن الأوكس ،
نم خبطت الناس في عشواء ، طمعاً في هذا الملك ! .

« فلما ترامينا ، أعظمت الحرب والرّماء ، إعظام أهل الدين ، وأظهرت
فيها كراهية أهل الورع ! لا تريد بذلك إلا تمهيد الحرب ، وكسر
أهل الدين ! .

« فإن كنت تريد الله ، فدع مصر ، وارجع إلى بيتك ! .

« فإن هذه حرب ، ليس فيها معاوية كعلي . بدأها علي بالحق ، وانتهى
فيها إلى المخذرة ، وبدأها معاوية بالبغي ، وانتهى فيها إلى السرف ! .

« وليس أهل الشام فيها كأهل العراق . . بايع أهل العراق علياً ، وهو
خير منهم ، وبايع أهل الشام معاوية ، وهم خير منه ! ولست أنا وأنت فيها
سواء . . أردت الله ، وأنت أردت مصر ، وقد عرفت الشيء الذي باعدك
منى ، ولا أعرف الشيء الذي قربك من معاوية ! .

« فإن تردّ شرّاً لا تنفقتنا به ، وإن تردّ خيراً لا تسبقنا إليه ! ^(١) »

إن ابن عباس ، هو أقرب الناس إلى علي ، وصاحب الكلمة المسموعة
عنده . .

ولهذا ، فقد حرص معاوية على أن ينال منه شيئاً ، وأن يدخل على ما بينه
وبين علي من حب صادق ، ومودة خالصة ، فيثير في سمائها الغيوم
والضباب ! .

فهو قد أغرى عمرأ بأن يكتب إليه ، ويريه أنه رجل معاوية ، وصاحب

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ١١٦ .

الكلمة عنده ، وشريكه في الأمر ، ولا أدلّ على ذلك من أنه أخذ مصر طُعْمَةً ! .

فإذا أخذ ابن عباس من عليّ ؟ .

وهل يطمع ابن عباس أن ينال من عليّ بعض ما نال عمرو معاوية ؟ .

وهل ابن عباس دون عمرو ؟ .

هذه واحدة ! .

وأخرى !

هذه الرسائل والرسل الفنادية الرائحة من جبهة معاوية إلى ابن عباس ومن ابن عباس إلى جبهة معاوية .. ماذا يقول أصحاب عليّ فيها ، وفي محاميلها ؟ ألا يفتح ذلك لكثير منهم باباً إلى التطلع لمنزلة كمنزلة ابن عباس ؟ وألا يُحدث ذلك في نفوسهم استعداداً لاستقبال رسل معاوية وكتبه ؟ إن رموساً كثيرة دارت فيها الخطط لتكون رأساً في هذا الأمر ، وليكون لها كلمة في الحرب أو في السلم !

قدّر معاوية هذا ، حين أشار على عمرو ، أو أشار عليه عمرو بالكتابة إلى ابن عباس !

ثم كتب معاوية إلى ابن عباس ، مرة ، يقول له :

« أما بعد .. فإنكم — معشر بني هاشم — لستم أسرع منكم في شيء أسرع بالمساءة إلى أنصار عثمان !

« فإن يك ذلك لسلطان بني أمية ، فقد ورثتها ^(١) عدى وتيم !

(١) أي الخلافة ، وعدى ، رهط عمر ، وتيم رهط أبي بكر .

« وقد وقع من الأمر ، ما قد ترى ! وأدالت ^(١) هذه الحرب بعضنا من بعض ، حتى استوفينا فيها .. فما أطعمكم فيينا أطعمنا فيكم ، وما أيأسكم منا أيأسنا منكم ، وقد رجونا غير الذي كان ، وخشينا دون ما وقع ، ولستم ملاقينا اليوم بأحد من أحدكم أمس . وقد متعنا - بما كان منا - الشام ، وقد منعمت بما كان منكم . العراق ، فاتقوا الله في قريش ، فما بقي من رجالها إلا ستة : رجلان بالشام ، ورجلان بالعراق ، ورجلان بالحجاز . فأما اللذان بالحجاز فسعد وعبد الله بن عمر ، وأما اللذان بالشام ، فأنا وعمرو ، وأما اللذان بالعراق ، فعلي وأنت .. ومن الستة رجلان ناصبان ^(٢) لك ، وآخران واقفان عليك ، وأنت رأس هذا الجمع غداً ، ولو بايع الناس لك بعد عثمان ، كنا أسرع إليك منّا إلى علي ! »

وأنت ترى كيف يفتل معاوية لابن عباس ، وكيف يغريه بعلي ، ويريه أنه أولى منه بالبيعة ، وأن الناس إليه أميل ، وفيه أرغب !

ولكن ابن عباس يلتقي دهاء معاوية بدهاء ، ويرمى مكره بمكر ، لا يفيب عنه ما تنطوي عليه نفس معاوية من طمع في الخلافة ، وأنه لا يسلم بها لأحد إلا مغلوباً مقهوراً !

تلقى ابن عباس كتاب معاوية ، فلما قرأه .. ضحك ، ثم قال كلمته المشهورة « إلى متى يخطبُ إلى معاوية عقلي ؟ وحتى متى أجهجم له عما في نفسي ^(٣) ! ثم كتب إليه :

« أما بعد : فقد جاءني كتابك .. »

(١) أي أخذت من الفريقين .

(٢) ناصبان لك : أي محاربان ، وهما معاوية وعمرو ، وواقفان : أي متوقفان ، وهما سعد وابن عمر .

(٣) يريد أنه كان لا يكشف لمعاوية عن كل ما في نفسه ، حتى لقد أغرى ذلك معاوية به . وأطعمه فيه .

فلمعمرى لقد أدركتَ في عثمان حاجتك .. لقد استنصرتك فلم تنصره ، حتى صرت إلى ما صرت إليه . وبينى وبينك في ذلك ابن عمك ، وأخو عثمان .. الوليد بن عقبة !

« وأما قولك إنه لم يبق من رجال قريش غير ستة .. فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها ! »

« وأما إغراؤك إياي بعدي وتيم ، فأبو بكر وعمر كانا خيراً منك ومن عثمان .. كما أن علياً خير منك . »

« وأما قولك إننا لن نلقاتك إلا بما أقيذك به ، فقد بقي لك منا يوم يُنْسبك ماقبله ، وتُخاف له مابعد . »

« وأما قولك إنه لو بايعني الناس استقامت ، فقد بايعوا علياً ، وهو خير مني ، فلم تستقم له .. »

« وإن الخلافة لا تصلح إلا لمن كان في الشورى .. فما أنت والخلافة ؟ وأنت طليق الإسلام ، وابن رأس الأحزاب ، وابن آكلة الأكباد من قتلى بدر ؟ »^(١)

وإذا كان ابن عباس قد جَبَّه معاوية بهذا الردّ العنيف المفحم ، فإن هذه الأحاديث التي أدارها معاوية وعمره معه ، قد أرتته من نفسه شيئاً لم يكن يراه في زحمة الأحداث ، التي أعطاها كل وقته وجهده .. إذ لا شك أن ابن عباس قد التفت إلى نفسه من خلال تلك الرسائل التي شغله بها معاوية وعمره ، وأنه هياً نفسه لموقف جديد ، عندما تنجلي الأحداث عن انتصار عليّ أو انتصار معاوية .

وقد رأينا ابن عباس يعتزل علياً ، ويترك إمارة البصرة ، بعد أن يضع يده على قَدْر كبير من بيت المال !

كان ذلك ، بعد أن عُقدت الهدنة ، ورضى الطرفان المتقاتلان بالتحكيم !
فمندئذ رأى ابن عباس أن أمر عليّ صائر إلى الخذلان ، وأنه مغلوب على أمره
فنجبا بنفسه ، وبما حمل من مال ، يضمن له حياة مستقرة رافهة ! !

فلا نمدو الحقيقة إذا قلنا إن تلك الأحاديث التي أدارها معاوية وعمره مع
ابن عباس قد كانت تمهيداً طبيعياً لما انمقد عليه رأى ابن عباس ، حين ترك
عليّاً ، في أشد الأوقات ضيقاً وحرَجاً !

لقد كان عليّ — كرم الله وجهه — على نية أن يقاتل معاوية بعد أن انتهى
رأى الحكمين إلى تلك المأساة ، التي لعب فيها الدهاء والمكر دوراً أوقع الناس
في فتنة وبلاء ! — كان الإمام عليّ نية القتال ، ولكن خذلان أصحابه له —
وخاصة ابن عباس ، كان داعية من دواعي انكسار نفسه ، وضيق صدره ،
فظل متردداً بين الإقدام والإجحام ، حتى أصابته تلك الطعنة الغادرة القاتلة من
يد ابن ملجم ، لعنه الله !

الخديعة بالمصحف :

دارت الحرب ، واشتد القتال ، وظهر الوهن في جبهة معاوية ، فسأل عمرأ
الرأى والحيلة فيما هم فيه .

قال لعمره : ألم تزعم أنك ما وقعت في أمر قط إلا خرجت منه ؟

قال : بلى !

قال : أفلا تخرج مما ترى ؟

قال : والله لأدعوتهم — إن شئت — إلى أمر أفرق به جمعهم ، ويزداد

به جمعك إليك اجتماعاً .. إن أعطوكه اختلفوا ، وإن منعوكم اختلفوا !
قال معاوية : وما ذلك ؟

قال عمرو : تأمر بالمصاحف فترفع ، ثم تدعوم إلى ما فيها .. فوالله لئن
قبله لتفترقن عنه جماعته ، ولئن رده ليكفرنه أصحابه !

فدعا معاوية بالمصحف ، ثم دعا رجلاً من أصحابه ، يقال له ابن هند ،
فشر المصحف ، بين الصفتين ، ثم نادى :

« الله الله في دمائنا ودمائكم .. بيننا وبينكم كتاب الله ^(١) . »

وكان معاوية قد أعدَّ لذلك المدة ، كي يقع هذا التدبير موقعه ، في
أصحاب عليّ !

فقد بعث إلى الرؤوس البارزة من أصحاب عليّ ، وأرى كلَّ واحد منهم
أنه عنده هو الرجل الذي يُدعى لعظائم الأمور ، وتعلق عليه الآمال في
السَّراء والضَّراء !

أرسل أخاه عقبة بن أبي سفيان إلى الأشعث بن قيس .. وقال له :

القي الأشعث ، وألنْ له كلاماً ، فإنه إن رضى بالصلح رضيت به العامة !
ثم التقى عتبة بالأشعث ، فقال له :

أبها الرجل .. إن معاوية لو كان لاقياً أحداً غيرك ، وغير عليّ لقيك !

إنك رأس أهل العراق ، وسيد أهل اليمن ، ومن قد سلف إليه من
عثمان ما قد سلف من الصهر والعمل !

« واست كأصحابك^(١) !

أما الأشر ، فقتل عثمان !

وأما عدي^(٢) ، فخصص !

وأما سعد بن قيس ، فقلد عالياً دينه

وأما شريح بن هانئ ، وزحر بن قيس ، فلا يعرفان غير الهوى !

« وأما أنت فحاميت عن أهل العراق تكرّماً ! وحاربت أهل الشام

حمية ! وقد والله بلغنا منك ما أردنا ، وبلغت منا ما أردت !

وإننا لا ندعوك إلى ما لا يكون منك ، من تركك عالياً ، ولا نصره

معاوية ، ولكننا ندعوك إلى البقية التي فيها صلاحك وصلاحنا !! »

هذا ضرب فريد من الخفكة والذكاء ، ونمط عال من السياسة والدهاء !

وهل تعرف سياسة القرن العشرين أسلوباً أرق ولا أفعل أو أقل من

هذا الأسلوب ؟

كل كلمة بحسابها ، وكل معنى منطلق إلى هدفه المرسوم له !

فالأشعث تعنيه السيادة والرياسة قبل كل شيء !

وقد جاءه معاوية يخطب وده ، ويعرف له مقامه في قومه !

(١) يقصد بأصحابه هنا أصحاب الرياسة والسلطة في جيش علي .

(٢) هو عدي بن حاتم

وقد عرف عتبة كيف يخدر مشاعره ، ويترضى مطامعه !
فهو على غير ماعليه أصحاب على جميعاً .. فإن كل واحد منهم معلول
بعلة .. إلا الأشعث !

إنه لم يقاتل عن أهل العراق إلا تسكراً .. ولم يحارب أهل الشام إلا
حمية ، ولولا ذلك لما كان محارباً !!

ثم إنه سيد أهل العراق .. يأبى عليه شرفه وحسبه أن يترك علياً وينضم
إلى معاوية !

إن أحداً لا يطلب ذلك منه ، ولا يجرو أحد أن يطلبه !
وإنما الذى يَطْب هو ما تقضى به المروءة والسكرم .. البقية ، والنبيء
إلى السلم !

هكذا تحدث معاوية بلسان أخيه عتبة إلى الأشعث .!
وقد فعلت هذه الكلمات فعلها فى نفس الأشعث .. فقال لعتبة :
« يا عتبة .. أما قولك إن معاوية لا يلتقى إلا علياً ، فلو لقينى ما زاد
ولا عظم فى عينى ، ولا صغرت عفه !

« ولئن أحب أن أجمع بينه وبين على لأفعلن ! ..
« وأما قولك : إني رأس أهل العراق ، وسيد أهل اليمن .. فالرأسُ
الأمير ^(١) والسيد المطاع ^(٢) .. وهاتان لعلّ
وأما ما سلف إلى من عثمان ، فوالله ما زادنى صهره شرقاً . ولا
عمله غنى !

(١) جملة من مبتدأ وخبر . أى الرأس هو الأمير ، والسيد هو المطاع

وأما عيبك أصحابي ، فإن هذا الأمر لا يُقرُّ بك مني !
وأما محاماتي عن العراق ، فمن نزل بيننا حميتاه !
وأما البقية ، فلسفا بأحوج منها إليكم .. » ^(١)
وهذا نموذج آخر من السياسة العالية ، التي تندس إلى النفوس ،
وتتسرب إلى المشاعر ، في رفق ولين ، وفي لباقة ومحاذرة !
إنها عمليات جراحية ، يجريها طبيب ماهر .. دون أن يشعر صاحبها
بما فعل الطبيب به !

إن الأشعث ليس دون عليّ ! ذلك ظنه بنفسه ! !
فإذا كان معاوية لا يرى ندأً له إلا عليّ ، ولا يخاطب إلا علياً ،
فإن الأشعث لا يرى في لقاء معاوية له شرفاً ، يزيد ، أو يزيده !
« ومع هذا ، فإن أحبَّ معاوية أن أجمع بينه وبين عليّ فذلك أمر
هو في يدي ، وعليّ لا يخرج عن رأبي ! » هكذا يقولها الأشعث في صراحة
صریحة !!

« ونحن إنما نقاتل حمية .. عليّ بيننا ، فوجب علينا أن نحامي عنه ! »
لقد أعطى الأشعث كلمة « الأمان » لمعاوية ، ولأهل الشام .. وسيرى
معاوية من الأشعث تحقيق هذا ، فيما ستأتي به الأيام من أحداث !
الخلافا في صفوف عليّ :

صحّ تدبير عمرو ومعاوية ، ووقع في جيش عليّ ، ما قدّراه من الخلافا

(١) الإمامة والسياسة ١ - ١٢٢

(م ٣١ - علي بن أبي طالب)

والاضطراب . . بل لقد بلغ الأمر فوق ما قدّراه وأراداه . . فلم يكن ما حلّ
يجيش على الخلاف والاضطراب ، وحسب ، ولكن ولد من هذا الاختلاف ،
وذلك الاضطراب أشام مولود في الإسلام !

فمن جيش على تجمعت جماعة الخوارج ، التي تحولت من مقاتلة مع على ،
إلى سيوف تحارب عليًا ومن معه . . ثم أصبحت وإذا هي حرب على الإسلام
والمسلمين جميعًا . !

كان جيش على - مع غلبته على جيش معاوية - في معرض المواقف
العاتية من الخلاف والفرقة ، تتحرك لأقلّ بادرة ، وتثور لأدنى مناسبة . .
كلّ رأس يريد أن يعلو على سائر الرؤوس ، وكلّ زعيم يعمل على أن يكون
صاحب الرأي والكلمة !

وقد عرفنا أن الذين انحازوا إلى على ، وقتلوا معه ، لم يكن يملكهم
الإمام بأي سلطان ، إلا وازع الدين ، أو الضمير . . ولهذا فهم جميعاً مطلقون
من يده ، لا يملك من أمرهم شيئاً ، إذ كان أمرهم إلى أنفسهم ، وما يدينون
به لله ! .

ولهذا ، فقد تغلّت كثير منهم من يد الإمام ، ولم يكن من المستطاع
جمعهم على كلمة سواء ، حتى لقد ضجر الإمام بهم ، وامتلأت نفسه حسرة
والمأ ، لما يجد من تخاذلهم عن الحق الذي في أيديهم ، واجتماع أصحاب
معاوية على الباطل ، الذي يلبسونه لباس الحق ، ويقاتلون في سبيله . .

يقول الإمام في أحد مواقفه مع أصحابه :

« أمّا والذي نفسى بيده ، ليظهرنّ هؤلاء القوم عليكم ، ليس لأنهم
أولى بالحق منكم ، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم ، وإبطائكم
عن حقّ ! .

« واقعد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي ! .
« استغفرتكم للجهاد فلم تنفروا ، وأسمعتكم فلم تسمعوا وانصحت لكم ،
فلم تقبلوا ! .

« أشهود كفياب ؟ وعبيد كأرباب ؟ .

« أتلو عليكم الحِكم فتنفرون منها ، وأعظكم بالمرعظة البالغة ،
فتتفرون عنها ، وأحثكم على جهاد أهل البغي ، فما آتينا على آخر القول ،
حتى أراكم متفرقين أيدي سباً^(١) ، ترجعون إلى مجالسكم ، وتتخذعون عن
مواعظكم ، أقومكم غدوة ، وترجعون إلى عشية كظهر الحية . . عجز
المقوم ، وأعضل المقوم ! .

« أيها الشاهدة أبدانهم ، الغائبة عقولهم ، المختلفة أهواؤهم ، المبتلى بهم .
أمرؤهم ، صاحبكم يطيع الله ، وأنتم تعصونه^(٢) ، وصاحب أهل الشام
يعصى الله ، وهم بطيعونه^(٣) .

« لوددت والله لو أن معاوية صارفني بكم صرّف الديفار بالدرهم ، فأخذ
مني عشرة منكم ، وأعطاني رجلاً منهم ! . .
« وإني لعلى بينه من ربّي ، وهما ج من نبّي .
« وإني لعلى الطريق الواضح ، أقطه لقطا ! .

(١) هذا مثل يضرب للتفرق ، وشتات الشمل . . وسباً هو أبو عرب اليمن ،
وكان له عشرة أولاد ، جعل ستة منهم يميناً ، وأربعة شمالاً ، تشبهاً باليدين ثم تفرق
أولئك الأولاد ، أشد التفرق .

(٢) أي تعصون الإمام .

(٣) أي بطيعون معاوية .

« انظروا أهل بيت نبيكم ، فالزموا سمتهم ، واتبعوا أثرهم ، فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يعيدوكم في ردى ا »^(١)

وفي موقف آخر يلقاهم بهذا القول :

« أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم . . كلامكم يؤهي الصم الصلاب ، وفعلكم يطع فيكم الأعداء . . تقولون في المجالس كيت وكيت ، فإذا جاء القتال قلتم حيدى حيداً ! !

« ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . .

« أى دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله من غررتموه ، ومن قاربكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب ! . . .

« أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع في نصركم ، ولا أوعِد

العدو بكم ! .

« ما بالكم ؟ ما داؤكم ؟ ما طبكم ؟ »^(٢) .

في هذه المشاعر التي كان يعيش بها الإمام في الجيش الذي يحارب معه ، جاءت خديعة المصاحف ، يرفعها أهل الشام على أسنة الرماح ، وينادون في أهل العراق ، بالاحتكام إلى كتاب الله ، والنفي إلى السلم والعافية ! .

ويدرك الإمام - كرم الله وجهه - ما يعمل هذا التدبير في جيشه ، وما تعمل تلك الدعوة الكاذبة في جماعات ، مختلفة الأهواء ، متباينة المشارب ، متنازعة الغايات ! .

إنها الفرقة التي لا اجتماع معها ، والتخاذل الذي لا رجاء في نصر معه ! .

(١) نهج البلاغة : ١ : ٩٢ .

(٢) نهج البلاغة : ١ : ٣٤ .

ولم يكن أمام عليّ - كرم الله وجهه - إلا أن يرقب أصحابه ، وقد طلع عليهم هذا الداعي ، وتمشت فيهم تلك الفتنة .

وكثرت في جيش عليّ اللَّفَطُ ، وتخالفت النداءات والصيحات ، تتردد في كل جانب من جوانب القوم . . وكان مما يُسمع آنذاك :

— لا تسمعوا للقوم . . لا تعطوهم إلا السيف . . .

— أجيئوهم إلى ما دعوكم إليه . . لا تردّوا حكم الله .

— لا نقول إلا ما يقول الإمام . . خذوا رأيه . . اسمعوا قوله . .

وانحازت كل جماعة إلى رأى من تلك الآراء ، وأمسكت به ، ونهيات للقتال عفا حتى لقد كادت تكون الحرب بين القوم ، يضرب بعضهم وجوه بعض .

وهنا وقف عليّ بين القوم ، بنفس حزينة ، وقلب كبير ، فقال ، وأسمع الناس : « أيها الناس . . إنه لم أزل من أمرى على ما أحبّ ، حتى قدّ حتكم الحرب . وقد والله أخذت منكم وتركت ، وهى لعدوّكم أنهلك . وقد كنت بالأمس أميراً ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً ، فأصبحت اليوم منهيّاً . فليس لى أن أحلّكم على ما تكرهون ! »^(١) .

ويدع عليّ الأمر إلى القوم ، وإلى رؤسائهم ، يرؤن ما يرون ، وبأخذون لأنفسهم الموقف الذى يرضون .

وهيات أن يجتمع القوم على رأى . . وقد تفرقت من قبل كلمتهم ، ونفذ معاوية بتدبيره — من قبل خديمة المصاحف وبمدها — إلى قلوب كثير منهم ، فأزالها عن مواضعها من صف عليّ ، ونقلها إليه ، أو إلى خارج الصفّين معاً !

ونستمع إلى بعض الخطباء ، في جيش عليّ ، في هذا المقام :

قال : كردوس بن هانيء :

أيها الناس . . إنه والله ماتولينا معاوية منذ تبرأنا منه ، ولا تبرأنا من عليّ منذ توليناه ، وإن قتلنا لشهيد ، وإن حيينا لفائز ، وإن عليّاً على بينة من ربه ، وما أجاب القوم إلا إنصافاً ، وكلّ مُحقٍّ منصف ، فمن سلّم له نجا ، ومن خالفه هوى ! »

فهذا رأس من رؤوس القوم ، رأى أن موقف عليّ هو إجابة القوم إلى المودعة والسلم ، وإجابتهم إلى مادعوه إليه من الاحتكام إلى كتاب الله ! وتلك دعوة حق وإنصاف . ما كان لأحد أن يعدل عنها ، إلا أن يكون عن جورٍ وهدي !

« وقال سفيان بن ثور :

« أيها الناس . . إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله ، فردّوه علينا ، فقاتلناهم عليه .

« وإناهم دَعَوْنَا إلى كتاب الله ، فإن ردّدناه عليهم حلّ لهم منا ، ما حلّ لنا منهم ، ولنا نخاف أن يجيئَ الله علينا ورسوله .

« وإن عليّاً ليس بالراجع الناكص ، وهو اليوم على ما كان عليه بالأمس ! .

« وقد أكلتُما هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا في المودعة ! »

إن جبهة الدعوة إلى المودعة تقوى شيئاً فشيئاً ، بعد أن رأى القوم من موقف عليّ ما يشبه قبول الأمر الواقع ، أو المتوقع !

وقال عثمان بن حنيف : وكان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وعامل علىّ على البصرة :

« أيها الناس .. انهموا رأيكم .. فقد كنا والله مع رسول الله صلى الله
بالحديبية يوم أبي جندل^(١) ، وإنا لنريد القتال ، إنكاراً للصالح ، حتى ردّنا
عنه رسول الله .

« وإن أهل الشام ، دعوا إلى كتاب الله اضطراباً ، فأجبتناهم إليه إعداراً .
فلسنا والقوم سواء !

« إنا - والله - ما عدّنا الحىّ بالحىّ ، ولا القليل بالثقل ، ولا الشامى
بالمعراقى ، ولا معاوية بعلى ، وإنه لأمر منّعه غير نافع ، وإعطاؤه غير ضائر ! .
« وقد كلّت البصائر التى كنا نقاتل بها ، وقد حمل الشكّ اليقين الذى
كنا نثول إليه ! وذهب الحياء الذى كنا نمارى به ! .

« فاستظلوا فى النىء ، واسكنوا فى هذه العافية ! .

« فإن قلتم نقاتل على ما كنا نقاتل عليه أمس .. هيهات ! هيهات !
ذهب والله قياس أمس ، وجاء غدا ! » .

وقال عبد الله بن حجل :

« يا أمير المؤمنين .. إنك أمرتنا يوم الجمل بأمر مختلف ، كانت عندنا
أمراً واحداً فقبلنا بالتسليم ، وهذه مثل تلك الأمور ! .

« ونحن أصحابك .. وقد أكثر الناس فى هذه القضية ! وأيم الله

(١) أبو جندل : كان من المسلمين المذبذبين فى مكة وقد جاء إلى النبي بعد أن

عقد صلح الحديبية وهو يرسف فى أغلاله فردّه إلى أهل مكة وفاء بما عاهدهم عليه :

ما المكثر المنكر بأعلم منها من المقلّ المعترف ! وقد أخذت الحرب بأنفاسنا ،
فلم يبق إلا رجاء ضعيف .. فإن تجب القوم إلى مادعوك إليه ، فأنت أولنا
إيماناً ، وآخرنا بنبي الله عمداً .. وهذه سيوفنا على أعناقنا ، وقلوبنا بين جوانحننا ،
وقد أعطيناك بقيتنا ، وشرحت بالطاعة صدورنا ، ونفذت في جهاد عدوك
بصيرتنا .. فأنت الولي المطاع ، ونحن الرعية الأتباع .. أنت أعلمنا برّبنا ،
وأقربنا بنبيّنا ، وخبرنا في ديننا ، وأعظمنا حقاً فينا !

« فسدد رأيتك نقبلك ، واستخر الله تعالى في أمرك ، واعزم عليه برأيتك ..

فأنت الولي المطاع ! »

وقال المنذر بن الجارود :

« يا أمير المؤمنين .. إني أرى أمراً لا يدين له الشام ، إلا بهلاك العراق ،
ولا يدين له العراق ، إلا بهلاك الشام .. وقد كنا نرى أن مازادنا نقصهم ،
وما نقصنا أضرهم .. فإن ذلك أمران .. فإن رأيت غيره ، ففينا والله ما يُقَلَّ به
الحد ، ويردّ به الكلب ، وليس لنا معك إيراد ولا صدر ! »

ولعلك تسأل : وأين صوت الأشعث بن قيس هنا ؟ ألم يكن بينه وبين

معاوية ما يشبه التواطؤ ، على أن يريد علياً على الصلح والموادة ؟

ونقول : ما حاجة الأشعث إلى الكلام ، وقد تكلم أصحاب الكلمة بما
كان يريد أن يقول ؟ أفليس من الحكمة والسياسة ، وحسن التدبير أن يلزم
جانب الصمت ، حتى لا يبتهم بأنه ممالئ لمعاوية ، متفقد لخطة محكمة بينه وبينه ؟
إن كلامه هنا ، ضرره أكثر من نفعه ! وإذن فالصمت خير .. ولكنه صمت
إلى حين .. فإن رأى الريح قد اتجهت إلى غير هذا الانجاء ، كان الكلام أمراً
لامقراً منه ..

وحين بلغ الأمر إلى هذا الحدّ وكادت تنقصر الكلمة الحاسمة في قبول التحكيم ، نار أصحاب الرأي المعارض ، ورأوا أن يواجهوا الناس برأيهم ، وأن يحملوم عليه ، إن استطاعوا .. ولا نحسب أن هؤلاء المعارضين لأمر التحكيم قد أمسكوا عن رأيهم ، ولم يعجلوا به إلا لأنهم أرادوا أن يتخففوا شيئاً من تبعّة القتال والقتل ، وألا يحملوا هذه التبعة الثقيلة وحدهم .. فلما رأوا أن الأمر أوشك أن يصير إلى هذا الخذلان ، وإلى تلك المواقعة الذليلة ، لم يكن بد من أن يحملوا التبعة كاملة ، ولو ثقلت وفدحت ! !

فكان من هؤلاء .. الأحنف بن قيس ، وعمير بن عطار ، وعدى بن حاتم ، والأشتر النخعي ..

فقال الأحنف بن قيس : « يا أمير المؤمنين .. إن الناس ، بين ماض وواقف ، وقائل وساكت ، وكل في موضعه حسن ، وإنه لو نكَلَّ الآخر عن الأول لم يقل شيئاً ، إلا أن يقول اليوم ، ما قد قيل بالأمس ، ولكفه حقٌّ يُقضى !

« ولم تقايل القوم لنا ولا لك ، إنما قاتلناهم لله ، فإن حال أمر الله دوننا ودونك فاقبله ، فإنك أولى بالحق ، وأحقنا بالتوفيق ، ولا أرى إلا القتال ! »

وقال عمير بن عطار : يا أمير المؤمنين .. إن طلحة ، والزبير ، وعائشة ، كانوا أحبّ إلينا من معاوية ، وكان البصرة أقرب^(١) إلينا من الشام .. وكان القوم الذين وثبوا عليك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيراً من الذين وثبوا عليك من أصحاب معاوية اليوم !

فوالله ما مفعنا ذلك من قتل المحارب ، وعيب الواقف .

(١) يريد بالقرابة هنا قرابة المودة والحب ، لأقرب المكان .

فقاتلُ القوم .. إنا معك ! »

وقال عدى بن حاتم : يا أمير المؤمنين .. إن دعوة أهل الباطل لا تنوق
أهل الحق !

وقد جزع القوم حين تأهبت للقتال بنفسك ، وليس بعد الجزع إلا ماتحب ..
ناجز القوم !

وقال الأشتر النخعي : يا أمير المؤمنين .. ما أجبتك لدنيا .. إن معاوية
لاخلفَ له من رجاله ، ولكن - بحمد الله - انخلفُ لك ، ولو كان له مثلُ
رجالك ، لم يكن له مثلَ صبرك ، ونصرتك .
فافلج الحديد بالحديد^(١) ، واستعن بالله ! »

وهنا نلمح الأشتر يتهياً للكلام ، ولكنه يمسك متحفزاً .. وينتظر
ما وراء هذه الدعوات الداعية إلى الحرب !

ويُدبر الإمام - كرم الله وجهه - — وجوه الرأى في نفسه ، وتأخذه
حيرة فيما يدعو أصحابه إليه .. إنهم لفي قول مختلف ، وعلى رأى شتيت متفرق !
إن دعا إلى الحرب ، ومواصلة القتال ، لم يكن في ذلك رضى أو مقنع ،
لمن أعلنوا في القوم رأيهم في الصلح والمواذعة !

وإن دعا إلى الصلح وقبول التحكيم ، أزعج أصحابه الذين عقدوا قلوبهم
على نصرته ونصرة الحق الذى يقاتل عليه !

إنها حيرة ، وإنها الفتنة !

(١) فى الأصل « فافرج الحديد بالحديد » وهو تصحيف ، وصحته ما أثبتناه ،
وهو مثل يضرب للشيء لا يصلحه إلا مثله .. « لا يفل الحديد إلا الحديد » و « إن
الحديد بالحديد يفلح » أى بطرق .

ولا يجد الإمام أقرب إليه من نفسه ، يحملها على الرأي الذي ارتضاه ،
وقاتل عليه ، وهو مناجزة القوم ، حتى ييسابعوه ، ويدخلوا فيما دخل فيه
المسلمون !

فقام — كرم الله وجهه — وأعلن في القوم رأيه ، فقال :

« أيها الناس . . إنه قد بلغ بكم وبعثوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم
إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت ، اعتُبر آخرها بأولها ، وقد صير لكم
القوم على غير دين ، حتى بلغوا منكم ما بلغوا . . »

« وأنا غادر عليهم بنفسى بالغداة ، فأحباكمهم بسيفى هذا إلى الله ! »

الأشعث بن قيس :

وهنا يحىء دور الأشعث بن قيس !

فهاهو ذا الإمام على يعلن الحرب ، ويأبى قبول التحكيم . .

وليس الإمام وحده ، بل سيمضى معه ، أشد أنصاره عزماً ، وأوثقهم
إيماناً ، وقليلهم يغنى عن كثير . !

فقام الأشعث . . يقول :

« يا أمير المؤمنين . . إنا لك اليوم ، على ما كُنَّا عليه أمس !

« ولست أدري كيف يكون غدا ؟

« وما القوم الذين كلوك بأحد لأهل العراق منى ، ولا بأوتر لأهل

الشام منى ! !

« فأجِبْ القوم إلى كتاب الله . . فإنك أحق به منهم . . وقد أحب

الله البُقية ! »

كلمات قليلة محكمة ، تجمع بين الحق ، والباطل ، وتؤلف بين النصيحة

والغش اُبرى بها فى وقتها الموقوت ، فتصيب البعيد والقريب !
وتفعل كلمة الأشعث فعلا فى أصحاب رأى الداعى إلى قبول التحكيم ،
وفيمن معهم من أقوامهم وأتباعهم ، والأشعث ولقومه صوت قوى مسودع
فى أهل العراق !

ويدير على رأى مرة أخرى ، فبرى أنها الحرب فى داخل جيشه ، وليست
الحرب على معاوية وأهل الشام .. فلا يرى بدا من قبول التحكيم ! ويملأها
صريحة فى الناس ، فأمر رجلاً ينادى فى أصحابه !
« إنا قد أجبنا معاوية إلى مادعانا إليه !! ^(١) » .

ويعود الاضطراب ، ويشتد الاختلاف بين أصحاب على ، وتذهب كل
جماعة منهم مذهبا ..

وهنا يستيقظ كثير من الذين كانت قد أفحمتهم غمرة الأحداث ، وأخذت
على عقولهم وعلى ألسنتهم ، وإذا هم بين يدى حُكم يخرجهم من عداد
الجاهدين فى سبيل الله ، إلى جانب للمهادنين للخارجين على أمر الله ! إنهم
لم يعتزلوا الفتنة ، كما اعتزلها بعض المتخرجين من صحابة رسول الله ، بل رأوا
ألا ينفقوا هذا الموقف السلبي من قضايا الإسلام ، وأحداث المسلمين ، فكانوا
فى جبهة الإمام ، منذ تمت البيعة له ، وسلّوا سيوفهم فى وجه الخارجين عليه ،
حتى ولو كان هؤلاء الخارجون عائشة أم المؤمنين ، وطلحة والزبير ، حوارى
رسول الله ! فكيف يُقضى عليهم اليوم أن يغمدوا هذه السيوف فى وجه
قوم ، اتبعوا أهواءهم ، وآثروا دنياهم على دينهم ، وخرجوا على السلطان ،

طعماً في دنيا يحوزونها ، أو ولاية يتسلطون على الناس فيها . ؟
فإذا كان في قتال أصحاب الجبل شبهة ، تُخرج الصدور ، أو تخرج الضمير ،
فإنه ليس في قتال أصحاب صفين ، من أهل الشام ، شائبة ، أو شبهة !
هكذا تصور كثير من أصحاب عليّ الموقف الذي أصرهم إليه قبول التحكيم ،
والرضا به . . ففرعوا ، واضطربوا ، وثاروا . . وأقبلوا يحتاجون الإمام ،
ويجادونه ، وبأبون عليه هذا الرأي الذي نزل على حكمه ..

فهذا عمار بن ياسر - رضى الله عنه - يُقبل على الإمام - كرم الله وجهه -
في غيظ مكظوم ، وألم دفين ، ويقول له : يا أمير المؤمنين . . أما والله ، لقد
أخرجها إليك معاوية بيضاء^(١) .. من أقرّ بها هلك ، ومن أنكرها ملك !
« مالك يا أبا الحسن ؟ »
« شككتنا في ديننا ! »

« ورددتنا على أعقابنا ، بعد مائة ألف ، قتلوا منا ومنهم ! »
« أفلا كان هذا قبل السيف ؟ وقبل طلحة والزبير وعائشة ؟ .. قد دعوك
إلى ذلك ، فأبيت ، وزعمت أنك أولى بالحق ، وأن من خالفنا منهم ضالّ ،
حلال الدم ! »

« وقد حكم الله في هذا الحال ما قد علمت .. فإن كان القوم مشركين ،
فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى يفيثوا إلى أمر الله ، وإن كانوا أهل فتنة
فليس لنا أن نرفع السيف عنهم ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين
كله لله .. ! »

(١) يريد بهذه التي أخرجها معاوية بيضاء : الفتنة التي خرج بها خروجاً سافراً

عن سلطان الخلافة :

« والله ما أسلموا ، ولا أدوا الجزية ^(١) ، ولا فاءوا إلى أمر الله ، ولا طفئت الفتنة ^(٢) ! » فلم يزد عليّ - كرم الله وجهه - علي أن قال : « والله إني لهذا الأمر كاره ! »

هي كلمة . . إن لم يقلها الإمام بلسانه ، فلقد أفصح عنها واقع الحال ، بأبلغ بيان . . فإن الإمام لم يقبل التحكيم إلا مضطراً مكرهاً ، وإلا إشاراً لخير الشرين : القتال بين أصحابه ، أو المهادنة لأهل الشام إلى أن تسكن هذه النفوس النائرة ، ونحمد جنوة هذه النار التي أوقدتها خديعة المصاحف بين أصحابه !

وحين أفصح الإمام لعمار عن دخيلة نفسه ، وأنه إنما أكره على قبول التحكيم ، هتف عمار بالناس ، داعياً إلى الحرب . . قائلاً : « أيها الناس . . هل من رأنح إلى الجنة ؟ »

تفرج إليه خمسمائة رجل ، منهم أبو الهيثم بن ثابت ، ذو الشهادتين . واستسقى عمار الماء ، فأتاه غلام له بأداة فيها ابن ! فلما رآه كبر وقال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول لى : « آخر زادك من الدنيا لبن ! » ..

ثم خرج عمار ، شاهراً سيفه ، وأصحابه معه ، وهو يرتجز :
اليوم ألقى الأحبَّ محمداً وصحبه !

وحمل عمار وأصحابه على القوم ، فحمل عليه رجلان ، فقتلاه ، وأقبلا برأسه إلى معاوية ، يتنازعان فيه ، يقول كل منهما : أنا قتلته ! فقال لهما عمرو بن العاص : والله إن تنازعا في الفار . . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تقتل عماراً الفتنة الباغية ! »

(١) هذا إذا كانوا مشركين !

(٢) وهذا على أنهم أصحاب فتنة !

فقال معاوية لعمرؤ : قَبِّحْكَ مِنْ شَيْخ ! فَمَا تَزَالُ تَنْزِلُ فِي قَوْلِكَ !
أَوْ نَحْنُ قَتَلْنَاهُ ؟ إِنَّمَا قَتَلَهُ الَّذِينَ جَاءُوا بِهِ ! ثُمَّ التَفَتَ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ ، فَقَالَ :
إِنَّمَا نَحْنُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ .. الَّتِي تَبْغِي دَمَ عُمَانَ ! ^(١) »

وهكذا تُؤَوَّلُ النصوص ، ويحرفُ الكلامُ عن مواضعه ، فليس في
دستور السياسة عقل أو دين ، أو ضمير !

وكان قتل عمار حَدَثًا مَرُوعًا ^(٢) ، اهتزت له أرض المعركة اهتزازاً عنيفاً
فاختلط القوم ، وماج الفريقان بعضهم في بعض ، وترك أهل الرايات مراكزهم ،
وتفرق الناس عن عليّ .. فقال عدِيّ بن حاتم : والله يا أمير المؤمنين ما أبقت
هذه الواقعة لنا ولا لهم عميداً .. فقاتلُ حتى يفتح الله تعالى لك ، فإن
فيها بقية !

ثم أقبل الأشر ، جريحاً ، فقال بأمير المؤمنين : « خَيْلٌ كَخَيْلٍ ، وَرِجَالٌ
كَرِجَالٍ ، وَلَنَا الْفُضْلُ إِلَى سَاعَتِنَا هَذِهِ ، فَعُدْ إِلَى مَكَانِكَ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ ، فَإِنْ
النَّاسُ إِنَّمَا يَطْلُبُونَكَ حَيْثُ تَرَكُوكَ . »

فدعا عليّ بدرعه التي كانت للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا ببغلة
رسول الله ، الشهباء ، وتعصب بعمامة رسول الله ، السوداء ، ثم نادى :

« مَنْ يَبِيعُ نَفْسَهُ الْيَوْمَ بِرَبْحٍ غَدًا ، يَوْمَ لَهُ مَا بَعْدَهُ .. فَانْقُدْ لَهُ مَا بَيْنَ
عَشْرَةِ آلَافٍ إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا ، وَاضْعِي سِيوفَهُمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ ، وَتَقَدَّمُوا
فَحْمِلْ عَلَى النَّاسِ حِمْلَةً وَاحِدَةً ، فَلَمْ يَبْقَ لِأَهْلِ الشَّامِ صَفٌّ إِلَّا أَهْمَدُ ، حَتَّى
أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، وَعَلِيٌّ يَضْرِبُ بِسَيْفِهِ ، وَلَا يَسْتَقْبِلُ أَحَدًا إِلَّا وَلَّى عَنْهُ !

(١) الإمامة والسياسة ١ / ١٣٢

(٢) حين استشهد عمار كان قد تَيَفَّ على التسمين .

فدعا معاوية بفرسه ، لينجوا عليها ، فلما وضع رجله في الركاب ، نظر إلى عمرو بن العاص ، فقال له ابن العاص .. اليوم صبر ، وغدا نحر ! قال صدقت ! فنزل ، وصبر ، وصبر القوم معه إلى الليل !

ويروى أن معاوية حين رأى الهزيمة في جيشه ، وأن يد على أوشكت أن تصل إليه ، همّ بالفرار ، ناجياً من هذا المصير .. ولكنه ذكر قول عمرو بن الإطنابة :

أَبَتْ لِي هَتَمِي ، وَأَبَى بِلَائِي وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالْيَمَنِ الرَّبِيعِ
وإِقْحَامِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي وَضَرَبِي هَامَةَ الْبَطْلِ الْمَشِيعِ
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ مَكَانَكَ تَحْمَدِي أَوْ تَسْتَرْجِي
لَأُذْفِعَ عَنْ مَآثِرِ صَالِحَاتِي وَأَخِي بَعْدُ عَرْضِي صَحِيحِ
حين ذكر هذا الشعر أمسك نفسه عن الفرار ، ووطنها على الثبات
حتى النصر ، أو الموت !

وكان معاوية بعد ذلك يحدث بهذا الذي كان بينه وبين نفسه ، ويحمد لهذا الشعر فضله عليه .

قال ابن قتيبة :

« وبات الناس يتحارسون ، وكرهوا القتال ، وهو اليوم الذي فيه البلاء العظيم ، يوم قُتل عمار ، وكلُّ يظُنُّ أن الدائرة عليه ، وأسرف الفريقان في القتل ، ولم يكن في الإسلام بلاء ، ولا قتل أعظم منه في تلك الثلاثة الأيام .^(١)
والحق أن هذه المعارك الدائرة ، على ما فيها من صراع مرير ، والتحام عنيف - لم تكن إلا صحوة ، أشبه بصحوة الموت ! فلم يشارك فيها إلا جماعات

من أصحاب عليّ ، رأوا أن يعذروا لأنفسهم ، وأن يرموا بآخر سهم معهم !
أما الروح العامة للحرب ، فإنها كانت قد خمدت ، وتهيأ الناس لاستقبال
ما بعد هذه الحرب !

التحكيم ، والحكماء :

نراضى الفريقان — أخيراً — على وقف القتال ، وعلى أن يختار كل فريق
حكماً ، ثم يلتقى الحكماء ، فيكون إليهما القضاء في هذه القضية ، يحكمان فيها
بكتاب الله ، وعلى الفريقين المتنازعين النزول على ما يحكم به الحكماء !

أما رجل معاوية ، فهو عمرو بن العاص .. اختاره معاوية ، ورضيه أصحابه ،
لم يختلف عليه أحد !

أما رجل عليّ .. فقد كثر حوله الخلاف ، وطال الجدل ، وكاد الأمر
يؤدي إلى فُرقة وانشعاب ، جديدين ، بعد أن خرج عليّ على جماعة من أصحابه
أعلنوا الخلاف عليه ، وصار حوله به ، بعد أن رضى بالتحكيم ! وهؤلاء هم نواة
الخوارج فيما بعد ، وسنعرض لهم بعد قليل !

كان عليّ قد أعدّ ابنَ عباس ، ليكون الرجلَ الذي يلتقى عمرو بن العاص
الذي اختاره معاوية .

ولكن أصحاب عليّ اختلفوا عليه ، ولم يستموا له باختيار صاحبه ، كما سلم
أهل الشام لمعاوية باختيار صاحبه !

فقد كان الأشعث بن قيس على رأس تلك الجماعة ، التي نازعت عليّاً الرأي
في اختيار الرجل الذي يلتقى عمرّاً !

والأشعث — كما رأينا — هو الذي مهد للتحكيم ، وعمل له في الخفاء
وفي الجهر ، وكان هو وقومه ، الذين أكرهوا عليّاً على قبول التحكيم ، ثم هاهو
(م ٣٢ - علي بن أبي طالب)

ذا وقومه ، يُدبرون أمر التحكيم على الوجه الذي يرضونه ، أو يرضاء معاوية ..
فإنه لاشك أن الصلة كانت قد توثقت بين معاوية والأشعث ، بعد أن نجحت
الخطبة التي انتهت بقبول التحكيم !

قالوا : إن عليا حين استقام رأيه على أن يرسل ابن عباس مع عمرو بن
العاص ، قام إليه الأشعث بن قيس ، وشريح بن هانئ ، وعدي بن حاتم ،
وقيس بن سعد ، ومعه أبو موسى الأشعري ، فقالوا يا أمير المؤمنين : هذا
أبو موسى الأشعري ، وافد أهل اليمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وصاحب مغانم أبي بكر ، وعامل عمر بن الخطاب . !

« وقد عرضنا على القوم ابن عباس ، فزعموا أنه قريب القرابة منك ،
ضنين في أمرك .. وأيم الله لو لقيت به عمراً لأخذ بصره ، وغتم صدره ،
ولسكن الناس قد رضوا برجل يثق أهل العراق وأهل الشام بتقّيته !

وفي هذا نرى أن الأشعث وجماعته كانوا سفراء بين أهل العراق وأهل
الشام ، وأنهم تحدثوا إلى أهل الشام في أمر الحكم ، الذي وقع عليه اختيار
علي ، وأن أهل الشام لم يرضوا بابن عباس ، أو قل إن معاوية وعمراً لم يرضيا
به ، لما يعلما من قوة حجته ، وسطوة منطقته ! ثم أشارا إلى أبي موسى الأشعري
وقد علما أنه كان قد اعتزل علياً أول الأمر ، ووقف موقف الخذل لأهل
الكوفة ، وكان والياً عليها لعلي ، عند حرب الجمل !

والعجب أن يعترض معاوية وعمراً على ابن عباس ، ولا يعترض أهل
العراق ، أو قل الأشعث وأصحابه ، على عمرو بن العاص !

إن عمرو بن العاص صاحب مصلحة محققة في أي خير يصيب معاوية فيما
يقضى به الحكمان .. وفي يد عمرو حك موثق من معاوية ، يملك به مصر ،

مَلِكٌ يَمِينٌ ، إِنْ هُوَ مَلِكُ الشَّامِ وَمِصْرَ .. فَكَيْفَ إِذْ هُوَ أَصْبَحَ خَلِيفَةً عَلَى دَوْلَةِ
الْإِسْلَامِ ، وَآمِيراً عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؟

وَهَلْ لَابْنِ عَبَّاسٍ شَيْءٌ إِنْ خَلَعْتَ الْخِلَافَةَ لِعَلِيٍّ ؟ وَهَلْ لِأَحَدٍ مَعَ عَلِيٍّ
مَطْمَعٌ فِي شَيْءٍ يَنْتَهِلُهُ مِنْ يَدِهِ فِي مَقَابِلِ مَا يَبْذُلُ لَهُ مِنْ جَهْدٍ وَعَمَلٍ ، وَلَوْ كَانَ فِي
ذَلِكَ ذَهَابُ نَفْسِهِ ؟

إِنْ كُلُّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مَعَ عَلِيٍّ يَعْمَلُونَ لِلَّهِ ، لَا لَهُ ، فَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَهُ يَدٌ ،
يَرْجُونَ الْمَثُوبَةَ عَلَيْهَا .. إِذْ كَانَ ثَوَابُهُمْ إِلَى اللَّهِ ، يَجْزِي كُلَّ مُحْسِنٍ بِمَا أَحْسَنَ !
فَمَاذَا يَخْشَى الْقَوْمُ مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ إِذَنْ ؟

لَهُمْ لَا يَخْشَوْنَ إِلَّا أَنْ يَدْفَعَ عَمْرًا عَنْ كَيْدِ مَدْبَرٍ ، لَا يَفْطِنُ إِلَيْهِ ، وَلَا يَعْرِفُ
مَسَارِبَهُ الْخَفِيَّةَ إِلَّا رَجُلٌ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، مِنْ الْمَعِيَةِ ، وَذِكَاةِ !

رَوَى الْإِمَامُ الْمُرْتَضَى فِي أَمَالِيهِ ، أَنَّ عَتَبَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَبَّاسٍ : « مَا مَنَعُ عَلِيًّا أَنْ يَجْعَلَكَ أَحَدَ الْحَكَمَيْنِ ؟ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ ، لَوْ بَعَثَنِي
لَا عَرَضْتُ مَدَارِجَ أَنْفَاسِهِ — يَعْنِي عَمْرًا — ، أَطِيرُ إِذَا أَسْفَتْ ، وَأَسْفَتْ إِذَا
طَارَ .. وَامْتَدَّتْ لَهُ عَقْدًا لَا تَنْقُضُ مَرِيرَتَهُ ، وَلَا يَدْرِكُ طَرْفَاهُ .. وَلَكِنَّهُ سَبَقَ
قَدَرٌ ، وَمَضَى أَجَلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الدُّنْيَا ! » ^(١)

فَهَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ يَخْشَاهُ مَعَاوِيَةُ وَعَمْرًا مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ! فَكَانَ لَهَا هَذَا
الدَّيْبُ إِلَى الْأَشْعَثِ وَأَصْحَابِهِ ، مِمَّنْ مَلَكَوْا زِمَامَ الْمَوْقِفِ فِي جَيْشِ عَلِيٍّ ، حَتَّى
يَأْخُذُوا الطَّرِيقَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَحَتَّى يَقِيمُوا مَكَانَهُ الرَّجُلَ الَّذِي تَخَيَّرُوهُ !
وَإِذَنْ قَالَ رَجُلَانِ : عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ ، هُمَا لِمَعَاوِيَةِ

ولأهل الشام ، إذ كان معاوية وأصحابه ، هم الذين اختاروا الأول ابتداء ، واختاروا الثاني بالترشيح !

فأبو موسى ، لا يذكر — حين يذكر — علياً إلا أنه كان معترضاً عليه ، وأنه إنما اختير لهذه الحكومة على غير رضى علي ، وبدعوة من معاوية !

وأيا كان أبو موسى الأشعري ، في ورعه ، وتقواه ، فإن ذلك الذي كان من تأخير علي له في هذا الأمر ، بل ودفعه عنه — جدير بأن يحدث جفوة في نفس أبي موسى من علي ، ويزرع في قلبه مرضاً من جهة ، لا يستطيع له دفعاً !
وحين انتهى الأمر باختيار أبي موسى ، حكماً ، من جهة علي وأصحابه ، جاء الأحنف بن قيس إلى علي ، وقال له :

« يا أمير المؤمنين .. إن أبا موسى رجل يمانى ، وقومه مع معاوية ، فابعثني معه ، فوالله لأبجل لك عقدة إلا عقدت لك أشد منها ، فإن قلت : إني لست من أصحاب رسول الله ، فابعث ابن عباس ، وابعثني معه ! »^(١)

كان كثيرون من أصحاب علي يروون خطورة عمرو بن العاص ، ويدركون — مقدماً — ما هو مبيت له في هذه الحكومة .. ثم هم في الوقت نفسه يروون ما في أبي موسى — الشخصية المواجهة لعمرو — من سلامة طوية ، واستقامة قصد ، إلى ما فيه من فتور عن أمر علي ، ونخاذل عن نصرته !

فليس أبو موسى إذن بالرجل الذي يعتدل به ميزان الحكومة ، إذا كان في أحد كفتيه عمرو بن العاص ، وفي الكفة الأخرى أبو موسى الأشعري ؟
وأمر آخر .. وهو لِمَ كانت قضية التحكيم إلى اثنين ؟ ولِمَ لم تكن إلى

عِدَّة رجال ، كأصحاب الشورى - مثلاً - الذين اختارهم عمر ، ليختاروا من بينهم الخليفة من بعده ؟

والذى يبدو لنا من ملابسات هذه الأحداث ، أن هذا التدبير كان من بعض الخطة التى رسمها معاوية وعمر بن العاص . . . حتى يضمننا بذلك بقاء عمرو بن العاص فى الكفة الراجحة ، وخاصة إذا تم اختيار الشخص الذى أشارا على أهل العراق به ، وهو أبو موسى الأشعرى !

أما إذا تعدّد الداخلون فى الحكومة ، فإنه يمكن أن يقع التوازن ، وذلك باختيار الأقوياء إلى جانب الضعفاء ، فكان يمكن - مثلاً - أن يُختار ابن عباس إلى جانب أبي موسى ، أو الأخف بن قيس إلى جانبهما ، أو أبو الأسود الدؤلى مع الثلاثة ! وفى هذه الحال لا يجد عمرو بن العاص فرصة فى خداع أبي موسى الأشعرى ، أو غيره !

رَوَى عن الشعبى أنه كان يقول ،

« قاتل الله أبا الأسود ! ما كان أعفَ أطرافه ، وأحضر جوابه !.. »

« دخل على معاوية بالنخيلة . . . فقال له معاوية : أ كُنتَ ذُكُرتَ

للحكومة ^(١) ؟

قال : نعم ! قال : فما كُنتَ صانعاً ؟

قال : كُنتُ أجمع ألقاً من المهاجرين وأبنائهم ، وألقاً من الأنصار وأبنائهم

ثم أقول :

« يامعشر من حضر . . . أرجل من المهاجرين أحق ، أم رجل من

الطلقاء ؟

(١) أى أكان فيمن سمام على لى-كونوا أحد الحكيم من جهته ؟

فقال معاوية : الحمد لله الذى كفاك ! ^(١)

من مثل ابن عباس ، والأحنف بن قيس ، وأبي الأسود ، وغيرهم ،
خاف معاوية أن يفسد التدبير الذى دبّره مع عمرو بن العاص ، فكان أن
عمل على الاتصال بالأشعث وغيره من أصحاب عليّ ، حتى يهرفوه عن عزمه
فى اختيار شخص غير أبي موسى الأشعرى !

وقد أظهرت الأيام - بعد ذلك - ما توقعه الإمام عليّ ، وكثير من أصحابه ،
من أن أبا موسى لم يكن بالرجل الذى ينازل عمرو بن العاص ، فى هذا
الميدان ، ويفتزع من يديه نصراً لعليّ على معاوية !

وقد ضع الناس السلاح ، والتقى أصحاب التحكيم بين العسكرين ، وكتب
بينهما كتاب جاء فيه :

« أن علياً ، ومن معه من شيعته ، من أهل العراق ، ومعاوية ومن معه
من أهل الشام ، ينزلان على حكم الله ، وكتابه . . من فاتحته إلى خاتمته .
ما أحيا القرآن أحياء ، وما أمات القرآن أماته .

«وعلى عليّ ومعاوية ، وتبديعتيهما ، وضع السلاح إلى انقضاء المدة . وهى
من رمضان إلى رمضان .

« وعلى أن عبد الله بن قيس ، وعمراً ، آمنان على دمائهما ، وأموالهما ،
وحرّيمهما . . والأمة على ذلك أنصار .

« وعليهما - أى الحكمان - مثل الذى أخذنا . . أن يقضيا بما فى كتاب
وما لم يجدا فى كتاب الله ، قضيا بما يجدان فى السنة .

« وعليهما ألا يؤخرا أمرهما عن هذه المدة .. فإن أحببنا أن يقولوا قبل انقضاءها ، فلهما أن يقولوا ، عن تراضٍ منهما .

« وعلى أن يرجع أهل العراق إلى العراق ، وأهل الشام إلى الشام !
« وأن يكون الاجتماع - أي اجتماع الحكّمين - إلى « دومة الجندل »^(١) ،
فإن رضيا أن يجتمعا بغيرها فلهما ذلك !

« ولهما ألا يحضرها إلا من أحببنا ولا يشهدا إلا من أرادا !
« وهؤلاء نفر من أهل العراق ، وأهل الشام ضامنون بالوفاء إلى هذه المدة !^(٢) » .

وكتب أهل العراق بهذا كتابا لأهل الشام ، وكتب أهل الشام ، كتابا بهذا لأهل العراق .. وشهد شهود أهل الشام على أهل العراق ، وشهد شهود أهل العراق على أهل الشام ..

فلما كُتب الكتاب ، أقبل رجل من بني يشكر على فرس له أبلق ،
حتى وقف بين الصّفين ، على عليّ : فقال : يا عليّ .. أكفر بعد إسلام ؟ ونقض
بعد توكيد ؟ وردّة بعد معرفة ؟ أنا من صحيفتكما برىء ! وثمن أقر
بها برىء ! !

ثم حمل على أصحاب معاوية ، فطعن فيهم ، حتى إذا عطش ، أتى عسكر
عليّ ، فاستسقى فسقى ، ثم حمل على عسكر عليّ . فطعن فيهم ، حتى إذا عطش
أتى عسكر معاوية فاستسقى فسقى ! !

(١) دومة الجندل : بلدة في جوف السرحان ، شمال غربي نجد .

(٢) الإمامة والسياسة ١ - ١٣٨ .

الأشعري وابن العاص :

وتهيأ الحَكمان للقاء في دومة الجندل ، وقد تبعتهما العيون ، وتعلقت بهما الآمال .. كلٌّ يرجو عندهما أملاً يأمله ، ورغبة ينشدها !

وأقبل الناس على الحَكَمين ، يُنتقى كلُّ بما عنده من رأى ونصيحة إلى صاحبه منهما ، ويحذره مما يظن به الغفلة عنه ، مما اعتقدت عليه آمال أصحابه ومنوا أنفسهم به !

فأخذ شريح بن هانئ بيد أبي موسى ، وقال له : يا أبا موسى .. إنك قد نصبت لأمر عظيم ، لا يُجَبَّرُ صَدْعُهُ ، ولا تُسْتَقَالُ قَلَمَتُهُ ، ومهما ثقل من شيء ، لك أو عليك ، يَثْبُتُ حَقُّهُ ، وبذيل باطله !

« إنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكها معاوية ، ولا بأس بأهل الشام إن ملكها عليّ ، فانظر في ذلك نظر من يعرف هذا الأمر حقاً » !

والأمر الذي يلفت إليه شريح أبا موسى هنا ، هو أن الخصومة التي بين عليّ ومعاوية ليست على حدٍ سواء عندهما .. فخصومة عليّ لمعاوية ولأهل الشام لا تحمل علياً على النعمة منهم إن هو ملكهم ، على حين أن معاوية لو ملك علياً وأهل العراق لجعل أهل الشام على رقاب أهل العراق ! !

ثم جاء الأحنف بن قيس إلى أبي موسى ، وقال له : « يا أبا موسى . اعرف خَطَبَ هذا الأمر ، واعلم أن له مابعد ، وأنت إن ضيّعت العراق فلا عراق لك .. فاتق الله تجمع بذلك دنيا وأخرى ! وإذا لقيت عمرأ غداً ، فلا تبادره بالسلام ، فليس من أهله ، ولا تعطه يدك ، فإنها أمانة ! وإياك أن يقعدك على صدر الفراش ، فإنها خُدعة ، ولا تلقه إلا وحدّه ، وإياك أن بكلمك في بيت فيه مخدع ، يخبأ لك فيه رجالاً !

« وإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعليّ ، فخيرهُ أن يختار أهل العراق من قريش أهل الشام من شاءوا ، فإنهم إن يُولُوا الخيار يختاروا من يريدون ! فإن أبي فليختار أهل الشام من أهل العراق من شاءوا ، فإن فعلوا كان الأمر بيننا ! » فانظر كيف كان الناس ينظرون إلى عمرو ، وكيف كانوا يخشون ما يبيت لهذا الأمر من دهاء وحيلة ؟ وإن الأحنف ليحذر أبا موسى من أن يُلْقَى عمراً بالسلام ، فقد ينتهز عمراً هذه الفرصة ، ويقول له : إنك ألقيت إليّ بالسلم ، وسلّمت إليّ الأمر ! وألا يمدّ إليه يده ، فقد يقول عمرو : إنك بايعتني على كذا وكذا ! وهكذا يرى الناس أن عمرو بن العاص ، لا يتكلم كلمة ، أو يتحرك حركة إلا كان وراءها ، كَيْدٌ بكيدِهِ ، أو أمرٌ ببيتِهِ !

ولم يَبْعُدْ عمرو كثيراً عما ظن الناس به ، وقدروا من جهته .. فقد جاءهم في تلك القضية ، بما قد أصبح مضرب المثل في المكر والكيد ! وقد كتب الإمام عليّ ، إلى أبي موسى كتاباً جاء فيه :

« إن الناس ، قد تغيّر كثير منهم عن كثير من حظّهم ، فالوا مع الدنيا ، ونطقوا مع الهوى ! وإني نزلت من هذا الأمر منزلاً معجِباً ^(١) ، اجتمع به أقوام أعجبهم أنفسهم ، فإني أداوى منهم قرناً أخاف أن يكون علقاً ^(٢) »
« وليس رجل - فاعلم - أحرصُ على أمة محمد صلى الله عليه وآله ، وألفَتها ، متى .. أبتغى بذلك حسنَ الثواب ، وكرمَ المآب .
« وسأني بالذي وأيتُ على نفسي ^(٣) !

(١) الأمر هو الخلافة .. ومعجبا : أى يدعو إلى التعجب ، ومنزله من الخلافة يبعة الناس له . ثم خروج طائفة منهم عليه .

(٢) أى أنه في موقفه من الخارجين عليه يداوى داء ربما يكون قد امتنع دواؤه

(٣) بالذى وأيت : أى بما أعطيت من عهد ، في أمر التحكيم .

« وإن تَغَيَّرَ عن صالح ، مافارقتني عليه ! فإن الشقيَّ من حُرِّم ما أوتى من العقل والتجربة !

« وإني لأعبد^(١) أن يقول قائل بباطل ، وأن أفسد أمراً أصلحه الله !
« فدع ما لا تعرف ، فإن شرار الناس طائرون اليك بأقاويل السوء والسلام^(٢) ! »

وفي الكتاب تغريض بأبي موسى ، بأنه ممن تغير مع من تغيروا ، وتحذير من أن يميل مع الهوى ، ويستمتع إلى أهل السوء والفتن !
هذا أبو موسى ، ورأى أصحابه فيه ، وتخوفهم من جهته ، وتوقعهم الخذلان من جانبه !

أما عمرو ، فقد اطمأن إليه أصحابه ، ووثقوا بأنه لن يعود من وجهته تلك ، إلا ومعه صيد ثمين !

ومع هذا ، فإنهم لم يدعوه بِلَاقِي أبا موسى حتى كشفوا له ، عن آمالم المتعلقة به ، وأطاعهم المتجهة إليه !

قال له معاوية : يا عمرو ، إن أهل العراق أكرهوا عليّاً على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك .

« وأرجو في دفع هذه الحرب خصالاً :

« قوة لأهل الشام ، وفرقة لأهل العراق ، وإمداداً لأهل اليمن !

« وقد ضُمَّ إليك رجل ، طويل اللسان ، قصير الرأي ! وله على ذلك دين وفضل ، فدعْه يَقُلْ ، فإذا هو قال فاصمت ! واعلم أن حسن الرأي زيادة في العقل .

(١) عبد كغصب وزنا ومعنى .

(٢) نهج البلاغة : ٢ - ٨٦ .

« إن خوفك العراق ، نخوفه بالشام ، وإن خوفك مصر نخوفه باليمن ، وإن خوفك علياً ، نخوفه بمعاوية ! وإن أنك بالجميل ، فأنه بالجميل !

فقال عمرو : يا أمير المؤمنين . أقبل الاهتمام بما قبلي ، وارج الله تعالى فيما وجهتني له ! . إنك من أمرك على مثل حد السيف . . لم تنل في حريك ما رجوت ، ولم تأمن ما خفت ، ونحن نرجو أن يصنع الله لك خيراً .

« وقد ذكرت لأبي موسى ديناً ، وإن الدين منصور ! .

« أرايت إن ذكر علياً ، وجاءنا بالإسلام ، والهجرة ، واجتماع الناس عليه .. ما أقول ؟

فقال معاوية : قل ما تريد وترى ! ^(١)»

وهل عمرو في حاجة إلى من يقول له ، ماذا يقول ، في هذا الموقف ؟ ولو كان معاوية ؟

وأتى شرحبيل بن السمط إلى عمرو فقال : يا عمرو .. إنك رجل قريش ، وإن معاوية لم يبعثك إلا لثقتك بك ، واعلم أنك لا تؤتي من عجز ، وقد علمت أن وطأة هذا الأمر لصاحبك ، ولك ، فكن عند ظننا بك ^(٢) ! .

المدالة ، والحكم :

التقى الحكمان بدومة الجندل ، وتكرر لقاءهما أياًما ، وشهوراً ، سرّاً وجهرّاً ، وقد شهد بعض هذه الاجتماعات كثير من وجوه أهل العراق ، وأهل الشام ! ولم ينته الحكمان بعد ، إلى الحكم الذي يلتقيان الناس به !

(١) الإمامة والسياسة : ١ - ١٤٠

(٢) المصدر السابق : ١٤١ .

ولا شك أن هذه المطالبة ، قد أضجرت أصحاب عليّ ، وأقلقتهم !
إن الزمن في صالح معاوية ، وكل يوم يمضي ، دون الفصل في القضية ،
يزيد معاوية قوة وتمكيناً ، على حين تزداد معه جبهة عليّ تصدعاً ووهناً !
فلقد التزم عليّ خلال تلك الهدنة ما اتفقا عليه من المواذعة والسلم ، بينما
عمل معاوية على تحريض أصحابه على شن الغارات ، للسلب ، والنهب ، وبث
الاضطراب والفزع في أهل الأمصار الموالية لعليّ ، فإذا تحرك عليّ لدفع هذا
العدوان لم يجد في أصحابه إلا فتوراً ، وتراخياً ، وتفلتاً !

ومن جهة أخرى ، فإن عليّاً في تلك الفترة - فترة التحكيم - لم يكن
الخليفة ، حكماً ، أو واقعاً . . فهو حين قبل التحكيم ، قد قبل ضمناً التنازل
عن الخلافة ، إلى أن يردّها إليه الحكمان ، أو يجعلها إلى غيره . . ! ولن
يضير معاوية أن يمتد الزمن به وبعليّ ، على هذا الوضع الذي نساويا فيه !
ولقد كثرت المناورات والمناوشات خلال فترة التحكيم ، وظهر للناس أن
أمر الفصل في القضية ، ليس من اليسر ، والقرب ، كما تصوره ، وقدروه !
فالموازنة بين عليّ ومعاوية ، وبين حق عليّ ، ودعوى معاوية تحتاج إلى
ميزان دقيق ، ونظر فاحص ، ليتمعرف إلى الفروق الدقيقة بينهما . . إن
كان ثمة فروق !

هكذا أوحى هذا الإبطاء في الحكم إلى مشاعر الناس أن عليّاً ومعاوية في
كفتي ميزان . . لا يكاد يرجح أحدهما الآخر ! وتلك هي مشكلة الحكمين
التي يعالجونها ، ويعملان جاهدين على الوصول إلى مخرج منها !

إن في ذلك التراخي ، وتلك المطاولة ، إدانةً لعلّى ، وتعمية لحقه الواضح ، وإلقاء الشبه والظنون على الخلافة التي كان يرتدى رداءها !

والإفان الأمر أهون من ذلك وأيسر ، لو أن الحكّمين نظرا إلى علّى ومعاوية نظرة خالصة من المرض والهوى !

وندع هذا .. ولنذكر أننا في وجه فتنة عاصفة ، لم تدع شيئا أتت عليه إلا قلبت صورته ، وبذلت معاله !

* * *

قالوا :

غدا عمرو على أبي موسى ، يوماً من تلك الأيام الثقيلة الطويلة ، فقال له :
يا أبا موسى .. قد عرفتَ حال معاوية في قريش ، وشرفه في بني
عبد عناف ، وأنه ابن هند ، وابن أبي سفيان .. فما ترى ؟

فقال له أبو موسى : أما معاوية فليس بأشرف في قريش من علّى ! ولو
كان هذا الأمر على شرف الجاهلية كان أولى الناس به أخوال ذى أصبح^(١)
ولكننى أرى وترى !

ثم غدا عليه عمرو ، فقال : يا أبا موسى .. إن قال قائل : إن معاوية من
الطلاء ، وأبوه رأس الأحزاب ، لم يبايعه المهاجرون والأنصار ، فقد صدق !
« وإذا قال : إن علياً آوى قتلة عثمان ، وقتل أنصاره يوم الجمل ، وبرز
على أهل الشام بصفين فقد صدق !

«وفينا وفيكم بقية ، وإن عادت الحرب ذهب مابقى !
«فهل لك أن نخلعهما جميعاً ، ونجعل الأمر لعبد الله بن عمر ؟ فقد صحب

(١) أخوال ذى أصبح من تبابعة اليمن .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً ،
وقد علمت من هو ، مع فضله ، وزهده وورعه وعلمه ؟

فقال أبو موسى : جزاك الله بنصيحتك خيراً !

قالوا . وكان أبو موسى ، لا يعدل بعبد الله بن عمر أحداً ! لمكانه من
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومكانه من أبيه ، ولفضل عبد الله
في نفسه .

وافترقا على هذا الأمر ، واجتمع رأيهما على ذلك !

ثم إن عمرأ غدا على أبي موسى بالقد ، ومعه جماعة الشهود

فقال : يا أبا موسى : ناشدتك الله تعالى . . من أحق بهذا الأمر ؟ من
أوفى ، أو من غدر ؟

قال : من أوفى !

قال : يا أبا موسى . نشدتك الله تعالى . . ما تقول في عثمان !

قال : قُتِلَ مظلوما !

قال عمرو : فما الحكم فيمن قُتِلَ ؟

قال : يُقتل بكتاب الله !

قال : فمن يقتله ؟

قال : أولياء عثمان ! فإن الله تعالى يقول : « ومن قُتِلَ مظلوما ، فقد
جعلنا لوليّه سلطانا » .

قال عمرو : فهل تعلم أن معاوية من أولياء عثمان ؟

قال : نعم !

قال عمرو للقوم : اشهدوا !

قال أبو موسى : اشهدوا على ما يقول عمرو !

قال أبو موسى لعمرو : قم فصرّح بما اجتمع عليه رأيي ورأيك !
وما انفقنا عليه !

قال عمرو : سبحان الله ! ! أقوم قبلك ، وقد قدّمك الله كلّ في الإسلام
والمجرة ؟ وأنت وافد أهل اليمن إلى رسول الله ، ووافد رسول الله إليهم ،
وبك هدام الله ، وعرفهم شرائع دينه ، وسنة نبيّه ؟

ولكن قم أنت فقل ، ثم أقوم فأقول !

فقام أبو موسى ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس .. إن خير الناس للناس خيرم لنفسه ، وإنّي لا أهلك ديني

بصلاح غيري !

« إن هذه الفتنة قد أكلت العرب !

« وإنّي رأيت وعمراً أن نخلع عليا ومعاوية ، ونجعلها لعبد الله بن عمر ،

فإنه لم يبسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً ! »

أرأيت إلى هذا الحكم ، الذي قضى بخلع عليّ ومعاوية ؟ إذن فقد كان

معاوية يقاسم عليّاً الخلافة ، وأنه وعلى سواء فيها ! مع أن معاوية لم يدع إلى

الآن دعوى الخلافة ، ولم يرشح نفسه لها ، وإن كان ذلك شيئاً في نفسه ،

وحاجة عمل لها في سره ، وكانت كل مدّعياته إلى هذا الوقت مطالبةً على بدفع

قتلة عثمان ، وعدم البيعة لعليّ إلا أن يبايع له الناس عامة !

ولكن أسر التحكيم ، ثم مطاولة الأيام به ، وما لابس ذلك من محاورات

ومناورات .. كل ذلك قد زعزع مكان عليّ من الخلافة ، وجعل لأبي موسى

أن يخرج على الناس بهذا الرأي ويواجههم بهذا الحكم ، الذى يعلن فيه خلع
على ، ومعاوية .. معاً ! هكذا بضربة واحدة !
ومهالاً .. فإن المأساة لم تتم فصلاً !

وجاء دور عمرو ، ليصادق على هذا الحكم ، الذى كان على علم به ، بل كان
هو الذى اقنعه أبا موسى ، وزين له الأخذ به !

ووقف عمرو .. والناس فى هياج واضطراب لهذا الحكم الذى أعلنه
أبو موسى ، فقال : « أيها الناس .. هذا أبو موسى .. شيخ المسلمين ، وحكم
العراق ، ومن لا يبيع الدين بالدنيا .. وقد خلع علياً .. وأثبت معاوية ! !

فزاد القوم هَيْجاً واضطراباً ، واختلط أسره ، وقال قائلهم مخاطباً
الحكمين : « والله لو اجتمعنا على الهدى ما حولتمنا على ما نحن عليه ، وما ضللكما
بلازم لنا ، وإنا اليوم على ما كنا عليه بالأمس ، ولقد كنا ننظر إلى هذا من
قبل أن يقع .. وما أمان قولكما حقاً ، ولا أحياء باطلاً .. ثم تشاتم أبو موسى ،
وعمر ، وانصرف عمرو إلى معاوية ، ولحق أبو موسى بمكة ، وانصرف القوم
إلى على !

* * *

ما بعد الحكم

لم يكن ما انتهى إليه الحكم ، ليحسم الفتنة التي كانت دعوة أصحاب المصاحف ، تشير بكتاب الله ، ليقضى فيها بحكمه ، ويقضى عليها بعدله . . بل إن ما انتهى إليه الحكم كان فتنة إلى فتنة ، وبلاء إلى بلاء !

فالحكم كان اللذان ارتضاها المسلمون ليحكما بكتاب الله ، قد خانا عليًا ومعاوية معًا ، فلم يرضا كل واحد منهما بموضعه ! بل إنهما خانا كتاب الله ، ولم يقضيا به ، حين سويًا بين أول الناس إسلامًا ، وآخر قريش دخولاً في الإسلام ، ثم بين المهاجر والطيّيق ، وبين من لم يضرت بسيفه إلا في سبيل الله ، ومن ضرب بسيفه في وجوه المؤمنين بالله . . ثم لم يرعيا ما لقراءة رسول الله ، والصهر إليه ، من حق في ترجيح الأكفاء والنظراء !

بل وأكثر من هذا . . فإن الحكمين قد خانا أنفسهما ، فلم يرع أحدهما عهد صاحبه ، وميثاقه الذي واثقه به . . فقال أحدهما قولاً ، وقال الآخر قولاً ، وكان الخلاف بين القولين في حاجة إلى من يحكم إليهم فيه !

ما قال علي :

وحين بلغ عليًا ما انتهى إليه أمر الحكمين ، تسكلم في أصحابه ، فقال :
« أما إني قد أخبرتكم أن هذا يكون ، بالأمس ، وجهدت أن تبعثوا غير أبي موسى ، فأبيت عليّ ! ولا سبيل إلى حرب القوم ، حتى تنقضي المدة !
ثم صعد عليّ المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه . . ثم قال : قم يا حسن — يريد ابنه الحسن — فتسكلم في أمر هذين الرجلين : أبي موسى وعمرو !
(م ٣٣ - علي بن أبي طالب)

فقام الحسن ، فقال : « أيها الناس ، قد أكثرتم في أمر أبي موسى ، وعمرو ! وإنما بُعثنا ليحكماً بالقرآن دون الهوى ، فحكما بالهوى دون القرآن . . فن كان هكذا لم يكن حَكَمًا ، ولكنه محكوم عليه . . وقد كان من خطأ أبي موسى أن جعلها لعبد الله بن عمر !

» فأخطأ في ثلاث خصال :

« خالف أباه عمر ، إذ لم ير ضه لها ، ولم يره أهلا لها ، وكان أبوه أعلم به من غيره ! ولا أدخله في الشورى ، إلا على أنه لا شيء له فيها ، شرطاً مشروطاً من عمر على أهل الشورى !

» فهذه واحدة !

« وثانية .. لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار ، الذين يعقدون الإمامة ، ويحكمون على الناس !

« وثالثة .. لم يستأمر الرجل في نفسه ، ولا علم ما عنده من ردٍّ أو قبول . . » ثم جلس . فقال عليّ لابن عباس : قم فتكلم ..

فقام ابن عباس ، فقال : أيها الناس .. إن للحق أناساً أصابوه بالتوفيق والرضا ، والناس بين راض به ، وراغب عنه .

« وإنما سار أبو موسى بهدًى إلى ضلال ، وسار عمرو بضلال إلى هدى . . فلما التقيا ، رجع أبو موسى عن هداه ، ومضى عمرو على ضلاله !

« لقد سار أبو موسى وعليّ إمامه ، وسار عمرو ومعاوية إمامه ! ثم جلس !

فقال عليّ لعبد الله بن جعفر : قم فتكلم .

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

« أيها الناس .. هذا أمر كان النظر فيه لعليّ ، والرضا فيه إلى غيره .

« جثم بأبي موسى ، فقلتم : قد رضينا هذا ، فارض به !
« وأيم الله ، ما أصلحنا بما فعلا ، الشام ، ولا أفسدا العراق ، ولا أمانا حق
على ، ولا أحييا باطل معاوية !
ولا يُذهب الحق قلة رأي ، ولا نفخة شيطان ، وإنا لعلى اليوم ، كما كفا
أمس له ! ثم جلس ! »^(١)

ولسائل أن يسأل : لماذا لم يتكلم على هنا ؟
ونقول : وماذا يقول على ؟ لقد قال من قبل كل شيء ! قال رأيه في
الحكومة ، ثم قال رأيه في الحكمين ، وما ينتظر أن يأتي به ! فلم يخرج شيء
من ذلك عما قال ، ورأى .. فليس — والأمر كذلك — من جديد بقوله الآن ،
بعد أن انتهى الأمر إلى تلك النهاية المفجعة المحزنة !
لقد سمع على الحديث إلى أصحابه ، بعد أن رأى خلافهم عليه ، وخذلانهم
له ، فكان أن دعا بعض أهله ، لينطقوا بما يجمعهم في صدره ، من حزن وأسى !
ابن عمر وأبو موسى :

وذكروا أنه حين علم ابن عمر بما كان من رأى أبي موسى في ترشيحه
للخلافة — كتب إليه يقول :

« أما بعد يا أبا موسى ، فإنك تقربت إلى بأمر لم تعلم هواي فيه !
« أ كنت تظن أني أبسط يدا إلى أمر نهاني عنه عمر ؟
« أو كنت تراني أتقدم على على ، وهو خير مني ؟ لقد خبت إذا
وخسرت ، وما أنا من المهتدين ! فأغضبت بقولك وفعلك على ، عليا ومعاوية !

« ثم أعظم من ذلك ، خديعة عمرو وإياك ، وأنت حامل القرآن ، ووافد أهل اليمن إلى نبي الله ، وصاحب مغنم أبي بكر وعمر .. فقدّمك عمرو للقول ، مخادعاً .. حتى خلعت عليا قبل أن تخلع معاوية ، ولعمري .. ما يجوز لك على عليّ ، ما جاز لعمرو على معاوية ، ولا ما جاز لنا عليه ! »

الحرب مرة أخرى :

كان لابد من احتكام إلى السيف ، مرة أخرى ، بعد أن انتهى أمر التحكيم ، إلى تلك النهاية السيئة ، التي كان يُرجى من ورائها ، مداواة هذا الجرح الفائر ، الذي يتدفق دماً من جسد الأمة العربية ، فإذا بها توسع هذا الجرح ، وتعمق أغواره !

قام عليّ على منبر الكوفة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن معصية العالم الناصح ، تورث الحسرة ، وتُعقب الندامة . وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين ، وفي هذه الحكومة ، بأمرى ، فأبيتُم إلا ما أردتم ! فأحييا ما أمات القرآن ، وأماتنا ما أحيا القرآن ، واتبع كل واحد منهما هواه ، يحكم بغير حجة ، ولا سنة ظاهرة .. واختلفا في أمرهما وحكمهما ، فكلاهما لم يرشداً لله ، فبرىء الله منهما ورسوله ، وصالحو المؤمنين !

« فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للمسير ، ثم أصبحوا في معسكرهم يوم الاثنين بالبخيلة .. وإنما حكمتنا من حكمتنا ، ليحكمنا بالكتاب ، فقد علمتم أنهما حكما بغير الكتاب ، وبغير السنة !

والله لأغزونهم ، ولو لم يبق أحد غيري لجاهدتهم ! »^(١)

وكتب على إلى ابن عباس ، عامله على البصرة ، كتاباً ، يقول له فيه :
« أما بعد ، فإننا أجمعنا على المسير إلى عدوتنا من أهل الشام ، فأشخص
إلى مَنْ قبلك ، من الناس ، وأقيم حتى آتيك ، والسلام . »

فلما وصل كتاب على إلى ابن عباس ، قرأه على الناس ، ثم أمرهم
بالشخص ، مع الأحنف بن قيس ، فشخص معه ألف وخمسمائة رجل !
فاستقبلهم ابن عباس ، فقام خطيباً في أهل البصرة ، فقال :

« يا أهل البصرة ، قد جاءني كتاب أمير المؤمنين ، يأمرني بإشخاصكم ،
فأمرتكم بالمسير مع الأحنف بن قيس ، فلم يشخص منكم إلا ألف وخمسمائة ،
وأنتم في الديوان ستون ألفاً ، سوى أبنائكم ، وعبدانكم ، ومواليكم !
الآن فانفروا ، ولا يجعل امرؤ على نفسه سبيلاً ، فإن موقع بكل من وجدته تخلف
عن دعوته ، عاصياً للإمام — حزناً يعقب ندماً ! وقد أمرت أبا الأسود بحشدكم ،
فلا يَلَمْ امرؤ جعل السبيل على نفسه ، إلا نفسه ! »

فاجتمع لأبي الأسود ألف وسبعمائة رجل ! فكان عدة من خرج من
البصرة ثلاثة آلاف ومائتي رجل !

وسار على بمن اجتمع له من أصحابه ، إلى صفين ، وسار معاوية بمن اجتمع
له من أهل الشام ، إلى صفين .. وتهايا الفريقان ، لمركة فاصلة ، أقسى قسوة ،
وأشد ضراوة ، مما كان في صفين الأولى ، حيث لم يعد هناك سبيل إلى المصالحة
والموادة .. فإما نصر ، وإما هزيمة ! ولا ثالث غيرها !

ولكن وراء تقدير الناس وحسابهم ، تقدير وحساب !
فإن شاء القدر — وعلى في طريقه إلى معاوية — أن تخرج عليه جماعة
الخوارج ، فيلقاهم أولاً ، لقاء الذاصح ، الحريص على سلامة دينهم ودنياهم ،

فيأبُونَ إلا اللّجاج والعناد ، ثم البغى والعدوان ، فلا يجد الإمام مناصاً من الفراغ من أمرهم ، قبل أن يلقى معاوية ، حتى يؤمّن ظهره ، وحتى يطمئن الجند إلى سلامة أعراضهم وأموالهم وأهلهم وهم في جبهة القتال !

ويفرغ الإمام من الدّفعة الأولى من الخوارج ، بضربة واحدة ، تقضى على بضعة آلاف ، كانوا من أكثر أنصاره إيماناً ، وأشدّهم حرصاً على الحق الذي يقاتل عليه ! ولكن فتنة التحكيم ذهبت بعقولهم ، وأفسدت عليهم معتقدهم ! ويعود الإمام ، ليجمع نفسه المشقة ، ويضمد جراحه قلبه الحزين على أصحابه .. ويُسْغَل بهذا أياماً عن وجهته إلى صفين ، وإذا جيشه الذي بين يديه يتبدّد ، ويتفرّق .. !!

وينظر الإمام في أمره ، فلا يجد بداً من الحرب ، ولو خرج إلى العدو وحده . !

وينتهي للخروج بما اجتمع له من أصحابه ؛ حتى يلقى معاوية وأهل الشام ، بعد انتهاء الأجل المضروب للتحكيم ، وهو رمضان !

ومرة أخرى ، يحىء القدر ، بيد غادرة آئمة ، تقتال الإمام وهو غادٍ إلى صلاة الصبح ، مع الفسق ، ينادى في الناس بالصلاة ! فيختر الإمام صريعاً ، ويلقى ربه شهيداً !

[الإمام وهذا التحكيم]

ولابد من وقفة هنا ، مع قضية التحكيم ، حيث كانت نقطة تحول في الخلاف الذي كان بين عليّ ومعاوية ! كما كانت مدخلاً إلى الفتنة التي نجم عنها الخوارج ، وما أصيب به الإسلام والمسلمون على أيديهم !

والسؤال هنا : هل كان من الحكمة ، والسياسة ، أن يقبل الإمام عليّ

التحكيم ، وأن يجعل أمر الخلافة إلى حكومة تفصل فيها ، بعد أن يابح الناس له بها ، وبعد أن قاتل الخارجين عليها ؟

والرأى أن قبول الإمام على التحكيم ، لم يكن مما تجبزه الحكمة ، أو تقضى به السياسة !

فقد كان الإمام من يوم أن يابح له المسلمون ، بعد مقتل عثمان ، وهو خليفة المسلمين ، لا خليفة لهم غيره . . . لاحقيقة ، ولا ادعاء . . . !

ولئنما كانت دعوى الذين نازعوه الخلافة ، أنه لم يقتص من قتلة عثمان ! وهذا تسليم ضمنى منهم له بأنه الخليفة ، الذى يطالب برد الحقوق إلى أهلها . . . فإذا رأوا منه تقصيراً شغبوا عليه ، كما شغب الناس على عثمان !

وقبول التحكيم كان معناه أن الإمام قد نزل عن الخلافة ، وسلم أمرها إلى الحكمين ، اللذين كان من أهم ما اجتمعوا له ، هو اختيار الخليفة الذى يرضيان عنه ، ويريان فى المسلمين الرضى عنه اسواء كان ذلك بتثبيت الإمام على ، أو خلعه !

وإذن فقد أصبح الإمام على — خلال مدة الهدنة — بمعزل عن الخلافة ، وأصبح المسلمون بلا خليفة ! الأمر الذى أوقع كثيراً من الناس فى بلبال وحيرة ، كما سؤل الكثير من الناس أن يستخفوا بالخلافة ، وأن يخرجوا على طاعة الإمام ، وهم معه ، وفى مصره !

إن قبول التحكيم قد أضعف حق الإمام ، بل وأسقط حجته التى كان يحتج بها على معاوية ، من أنه الخليفة الذى يابعه المسلمون !

وغير هذا كان أولى بالإمام على أن يقيم عليه أمره ، فى الخلاف الذى كان بينه وبين معاوية ، وفى الحرب التى قامت للفصل فى هذا الخلاف !

ولكن هل كان أئمة الإمام عليّ سبيل آخر غير قبول التحكيم ؟ أو بمعنى آخر : هل كان له مندوحة عن قبول التحكيم والتسليم به ؟

لقد رأينا كيف كان الإمام — كرم الله وجهه — يلقي السكيد له ، والخلاف عليه ، في جيشه ، وبين أصحابه ، وأن أمره لم يكن مع أصحابه مستقيماً على الوجه الذي يمكن له من إنفاذ رأيه ، وإمضاء عزمته !

وحين ظهرت الدعوة الخادعة بالاحتكام إلى كتاب الله ، كان قد هب لها معاوية الظروف المنجحة لها بين أصحاب عليّ . فإن قبلوا التحكيم قبلوه مختلفين ، وإن ردّوه ردّوه مختلفين . . . فهي الفرقة على أي حال ، وهو الخلاف والتنازع على أي وجه !

وفي الشرّ خيار ، وقد رأى الإمام أن يختار خيراً الشرّين ! !

اختار العافية ، وآثر السّلم ، وقدّر أن الحكمين إذا حكما بكتاب الله لن يبعدها عن حقّه ، ولن يعدّلا به عنه إلى غيره . . . وإن يكن ذلك على احتمال ضعيف ، لِمَا يعلم الإمام من أمر الحكمين — فإنه على أي حال خير من حرب عريضة ، ومن قتال قائم يذهب في كلّ لحظة بعشرات الأرواح من المسلمين ! ويجب أن نستحضر هنا الشاعر المستولية على الإمام ، وهو يحارب أهل الشام !

إنه يحارب ، وهو على يقين بأنه يحارب مسلمين ، وأنه يقتل ، وهو يعلم يقيناً أنه يقتل مسلمين ! ولكنه مستيقن أيضاً أنه إن لم يفعل هذا كان ذلك فتنة في الأرض وفساداً كبيراً !

فهو في حرب مكره عليها ، كما يُكره المرء على قطع جزء من أعضائه لصالح بقية الأعضاء ! .. وإنه في هذا عند قول الشاعر الذي يقول :

إذا احتربت يوماً قفاضت دماؤها تذكرت القُرْبَى فقاضت دموعها !
وأولى القرابات التي يذكرها الإمام هنا - وهو يقتل أهل الشام - قرابة
الإسلام ، التي تجمعهم إليه ، وتصلهم به !

في حديث بين الإمام ، وجماعة من الخوارج ، الذين أنكروا عليه أمر
التحكيم ، ورموه بالكفر ، هو ومن رضى هذا التحكيم - في هذا الحديث
يقول الإمام لهم :

« ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف - حيلةً ، وغيلةً ، ومكرًا ، وخديعة -
إخواننا ، وأهل دعوتنا ، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه .. فالرأى
القبول منهم ، ، والتنفيس عنهم ؟

« فقلت لكم : هذا أمر ظاهره إيمان ، وباطنه عدوان ، وأوله رحمة ،
وآخره ندامة ، فأقيموا على شأنكم ، والزموا طريقتهم ، وعَضُوا على الجهاد
بفواجذكم ، ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق .. ان أجيب أضلّ ، وإن ترك دَلّ ؟
وقد كانت هذه القملة ، وقد رأيتم أَعْطَيْتُمُوهَا ! والله لئن جُنِبْتُهَا ما وجبت على
فريضتها ، ولا حلتى الله ذنبها .. والله إن جئتُها ^(١) إني للمحق الذي يُتَّبَعُ ،
وإن الكتاب لمعى ، ما فارقه مذ صحبتته !

« ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن القتل ليدور بين
الآباء ، والأبناء ، والإخوان ، والقرابات ، لا تزداد على كل مصيبة وشدة ،
إلا إيمانًا ، ومُضِيًّا على الحق ، وتسليًا للأمر ، وصبرًا على مضض الجراح !

« ولكنّا إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام ، على ما دخل فيه من
الزيف ، والاعوجاج ، والشبهة والتأويل ! فإذا طمعنا في خصلة يَلُمُّ الله بها شعثنا ،

(١) أى إن قبلت التحكيم .

ونتداني بها إلى البقية فيما بيننا ، رغبتنا فيها ، وأمسكنا عما سواها ١١ » (١) .
وهذا المقطع الأخير من حديث الإمام هو مقطع الأمر ، في هذه
القضية ، التي يقاتل عليها . . فهو إنما يقاتل جماعة من المسلمين ، لا يخرجهم
عن الإسلام ، أن ضلّوا الطريقَ السَّوِيَّ ، وتنبكّبوا النهجَ القويمَ ! .

وهذا على خلاف الحرب التي كانت تدور بين المسلمين ، وبين أهل
الشرك من قريش . . إذ كان فيها الأخ يلقى أخاه ، والابن يحارب أباه ،
غير ناظر إلى عاطفة ، أو مبقٍ على مودة . . إنه يقاتل في سبيل الله ، ويقتل
من كفر بالله ، وحادّ الله ورسوله ! .

أما هنا ، فالأمر مختلف : حرب يقاتل فيها المسلم المسلم ، ويقتل فيها المسلم
أخاه المسلم ! :

إن هنا تخرجاً وتأنماً . .

وإن هناك استكثاراً من ثواب ، واشتزادة من رضى الله ورضوانه ! .

ذلك هو واقع الحال ، عند الإمام ، وتلك هي معطيات نظرتة إلى هذه
الحرب الدائرة بينه وبين معاوية وأصحابه ! .

فإذا هو رأى بارقة من أمل في الإبقاء على هذه الدماء التي تجري أنهاراً
بين جماعات المسلمين ، لم يكن له أن يدع هذه الفرصة السانحة ، وإن كان
الرجاء ضعيفاً والأمل واهياً . . فهو على أى حال ، شيء ، خير من لا شيء ! .

* * *

وحين جاءت حكومة الحكمين ، بما أوقع الخلاف والاضطراب بين
أصحاب عليّ . . خطب الإمام في الناس ، فقال :

« إنا لم نحكم الرجال ، وإنما حكمنا القرآن !
« وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين الدفتين . . لا ينطق بلسان ،
ولا بدّ له من ترجمان ، وإنما ينطق عنه الرجال ! .

« ولما دعانا القوم إلى أن نحكم بيننا القرآن ، لم نكن الفريق المتولى
عن كتاب الله ، وقد قال الله سبحانه : « فإن تنازعتم في شئ ، فردّوه إلى الله
والرسول » فردّه إلى الله أن نحكم بكتابه ، وردّه إلى الرسول أن نأخذ
بسنته ! .

« فإذا حكم بالصدق في كتاب الله ، فنحن أحق الناس به ! ، وإن حكم
بسنة رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، فنحن أولاهم به !
« وأما قولكم : لم جعلت بينكم وبينهم أجلاً في التحكيم ؟ .

« فإنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل ، ويثبت العالم ، ولعلّ الله أن يصلح
في هذه الهدنة أمر هذه الأمة ، ولا تؤخذ بأكظامها^(١) ، فتعجل عن تبين
الحق ، وتنفاد لأول النفي ! »^(٢) .

هذا هو وزن الإمام — كرم الله وجهه — لهذه الحرب التي يقاتل
فيها . . بقاتل متحرجاً . . ويقتل موجعاً متألماً ! .

فإذا اجتمع إلى ذلك خلاف أصحابه عليه ، والتواشع بهم ، كان قبول
الهدنة أرجح عنده من رفضها . وفي تقديره أن فترة السلم إن لم تصلح ما بينه
وبين معاوية ، فقد تصلح ما بينه وبين أصحابه ، الذين لجّ بهم العناد ، وطار بهم
الخلاف كل مطار ! .

(١) الأكظام : جمع كظم وهو مخرج النفس .

(٢) نهج البلاغة : ١ : ١٢٢ .

يقول الإمام في بعض ما يقول لأصحابه :

« مُنِيتُ بَعْنٍ لَا يَطِيعُ إِذَا أُمِرْتُ ، وَلَا يَجِيبُ إِذَا دُعِيتُ ، لَا أَبَالِكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِ رَبِّكُمْ ؟ أَمَّا دِينُ يَجْمَعُكُمْ ، وَلَا حَيَّةَ تَحْمُسُكُمْ ؟ أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرَحًا ، وَأَنَادِيكُمْ مُتَفَوِّتًا ، فَلَا تَسْمَعُونَ لِي قَوْلًا ، وَلَا تَطِيعُونَ لِي أَمْرًا ، حَتَّى تَكْشِفْتَ الْأُمُورَ عَنْ عَوَاقِبِ الْمَسَاءَةِ ، فَمَا يُدْرِكُ بِكُمْ نَارٌ ، وَلَا يُبَلِّغُ بِكُمْ مَرَامٌ ! »^(١) .

وَأَيًّا كَانَ الرَّأْيُ السِّيَاسِيُّ فِي « التَّحْكِيمِ » فَإِنَّهُ مِنْ جِهَةِ الدِّينِ أَمْرٌ يُصَارُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ خِلَافٍ يَقَعُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ ! فَتِلْكَ هِيَ دَعْوَةُ الْقُرْآنِ ، وَشَرِيعَةُ أَصْحَابِ الْقُرْآنِ : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » ! فَمَا أَحَدٌ يُدْعَى إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ، وَإِلَى سُنَّةِ الرَّسُولِ ، لِيَكُونَ إِلَيْهِمَا الْحُكْمُ فِيمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مَعَ غَيْرِهِ ، ثُمَّ يَرُدُّ ذَلِكَ وَيَأْبَاهُ - إِلَّا كَانَ آتِمًا مُعْتَدِيًا ، وَظَالِمًا لِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ظَالِمًا لْغَيْرِهِ ! .

وَمَعَ هَذَا ، فَقَدْ جَاءَ إِلَى الْإِمَامِ عَلِيٍّ مَنْ يَنْكُرُ عَلَيْهِ التَّحْكِيمَ ، وَمَنْ يَرَى قَبُولَهُ لَهُ عَدْوَانًا عَلَى الدِّينِ ، بَلْ خُرُوجًا مِنْهُ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْجَمَاعَةُ الْخَوَارِجُ ، الَّذِينَ قَالُوا بِتَكْفِيرِ عَلِيٍّ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ قَبِلُوا التَّحْكِيمَ ، وَبِهَذَا الْقَوْلِ ، اسْتَبَاحُوا دِمَاءَ الْفَرِيقَيْنِ الْمُتَحَارِكَيْنِ ، وَأَصْبَحُوا حَرْبًا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ لَا يَرَى رَأْيَهُمْ ، وَيَحْمِلُ السَّيْفَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَعَهُمْ ! .

وَقَدْ كَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ - كَانَ يَنْكُرُ التَّحْكِيمَ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ فِي تَكْفِيرِ الْمُحْتَكَمِينَ ! .

يقول صاحب الكامل :

« فأما أبو سعيد — الحسن البصري — فإنه كان يفكر الحكومة ، ولا يرى رأيهم — أى الخوارج — فى تكفير المحتمكين . . وكان إذا جلس^(١) ، فتمكن فى مجلسه ، ذَكَرَ عثمان ، فترحم عليه ثلاثاً ، ولعن قَتَلَتَهُ ثلاثاً ، وقال : لو لم نلعنهم لَلْعِنَّا ! ثم يذكر علياً ، فيقول : « لم يزل أمير المؤمنين علىّ ، رحمه الله ، يتعرف النصر ، ويساعده الظفر ، حتى حكم ! ! فليَمَ تحكّم والحق معك ؟ .

ألا تمضي قُدُماً — لا أبالك — وأنت على الحق ؟ » .

ويعلق صاحب الكامل على قولة الحسن : « لا أبالك » يخاطب بها علياً . . فيقول :

« وهذه كلمة فيها جفاء ، والعرب تستعملها عند المسألة والطلب ، فيقول القائل للأمير ، والخليفة : انظر فى أمر الرعية . . لا أبالك ! .

وسمع سليمان بن عبد الملك رجلاً من الأعراب ، فى سَنَةِ جدبية يقول :

ربِّ العباد ، مالنا وما لكَا قد كنتَ نسقينا فما بدا لَكَا

أَنزَلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ لَا أَبَا لَكَا

فأخرجه سليمان أحسن مخرج ، فقال : « أشهد أنه لا أب له ، ولا ولد ، ولا صاحبة ، وأشهد أن الخلق جميعاً عيالُه ! »^(٢) .

(١) أى للحديث ، والدرس ، وذلك فى مسجد البصرة ، حيث يجتمع إليه الناس ، ليسمعوا منه ! .

(٢) الكامل ، للبرد : ٢ : ١٣٦ .

وليس الحسن البصرى وحده هو الذى أنكر الحكومة ، مع الاحتفاظ بولائه لعلیؑ ، والمسلمين جميعاً ، الذين قبلوا التحكيم والذين لم يقبلوه ! بل كان كثير من أصحاب علیؑ على مثل هذا رأى ، من إنكار الحكومة ، ينكرونها ديانة وسياسة معاً ! .

وقد كان من هؤلاء — على ما رأينا — عمار بن ياسر ، رضى الله عنه ، الذى لم يرض بالتحكيم ، ولم يقبل النزول على رأى الإمام فيه ، حين قبله ، بل لقد جابه الإمام علیؑ بقوله : مالك يا أبا الحسن ؟ شككتنا فى ديننا ، ورددتنا على أعقابنا بعد مائة ألف قتلوا منا ومنهم ؟ أفلا كان هذا قبل السيف ؟ وقبل طلحة والزبير وعائشة ؟ قد دعوك إلى ذلك فأبيت ، وزعمت أنك أولى بالحق ، وأن من خالفنا ضال حلال الدم ؟ وقد حكم الله تعالى فى هذه الحال ما قد سمعت ، فإن كان القوم كفاراً مشركين ، فليس لنا أن نرفع السيف عنهم ، حتى يقيموا إلى أمر الله ، وإن كانوا أهل فتنة ، فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا نكون فتنة ويكون الدين كله لله !! والله ما أسلموا ، ولا أدوا الجزية ، ولا فاءوا إلى أمر الله ، ولا طفنت الفتنة !! .

فقال على : والله إنى لهذا الأمر كاره !^(١)

وعلى كاره لهذا الأمر .. مافى هذا شك ! ولولم تحدث بذلك الأخبار ، لكان لنا فيما نعلم من فطنة الإمام ، وألمعيته ، ورأيه فى دعاة التحكيم ، ما يجعلنا نقطع بأن الإمام لم يسلم بالتحكيم إلا نحت ظروف قاهرة ، وإلا دفعا لبلاء عظيم ، دونه البلاء المتوقع من التحكيم !

وقد رأينا أن عماراً — رضى الله عنه — وضع سيفه على عاتقه ، وهتف

بالناس : مَنْ رَأَى إِلَى الْجَنَّةِ ؟ نَفَرَ جِإِلَيْهِ نَحْوَ خَمْسِمِائَةِ رَجُلٍ ، فَضَرَبَ بِهِمْ فِي جَيْشِ مَعَاوِيَةَ ، فَقَاتَلُوا ، وَقَتَلُوا ، حَتَّى اسْتَشْهَدُوا ، وَاسْتَشْهَدَ عَمَارُ ! !

وَمَاذَا تَقُولُ فِي عَمَارٍ وَأَصْحَابِهِ ؟ وَقَدْ خَرَجُوا عَلَى الْمُحْتَكَمِينَ ، وَلَمْ يَرْضَوْا بِمَا اتَّفَقَا عَلَيْهِ ، فَقَاتَلُوا حَتَّى قُتِلُوا ؟ أَمْ طَلِيعَةُ لَهْؤَلَاءِ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ عُرِفُوا بِعَدِّ بِهَذَا الْاسْمِ الْخَفِيفِ ، الْكُرْبِيِّ ؟

قَدْ تَقُولُ : إِنَّ الْخَوَارِجَ كَانُوا حَرْبًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا .. أَمَّا عَمَارُ وَأَصْحَابُهُ فَقَدْ حَارَبُوا مَعَاوِيَةَ وَمَنْ مَعَهُ ، وَلَمْ يَحَارِبُوا عَلِيًّا وَأَنْصَارَهُ !

وَهَذَا اعْتِرَاضٌ شَكَلِي ! فَمَا فَعَلَهُ عَمَارُ هُوَ خُرُوجٌ صَرِيحٌ عَلَى الْإِمَامِ عَلِيٍّ ، وَاعْتِرَاضٌ عَمَلِيٌّ عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ الْجَدِيدِ ، فِي مَعَالِجَةِ الْخِلَافِ الَّذِي يَدِينُهُ ، وَبَيْنَ مَعَاوِيَةَ ! وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ بِعَمَارٍ حَدُّ الْقِتَالِ لَعَلِّي !

وَأِذَا لَمْ يَكُنْ « عَمَارُ » قَدْ خَرَجَ عَلَى عَلِيٍّ خُرُوجَ الْحَارِبِ لَهُ ، فَإِنْ بَعْضُ أَصْحَابِ عَلِيٍّ قَدْ خَرَجُوا عَلَيْهِ خُرُوجَ الْمُقَاتِلِينَ .. ! دُونَ أَنْ يَنْكَرَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ ذَلِكَ !

وَقَدْ عَرَفْنَا خَبَرَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْيَشْكُرِي ، صَاحِبِ الْفَرَسِ الْأَبْلَقِ الَّذِي جَاءَ إِلَى عَلِيٍّ بَعْدَ أَنْ وَقَعَ عَلَى كِتَابِ الصَّلَاحِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا عَلِيٌّ .. أَكْفَرُ بَعْدَ إِسْلَامٍ ؟ وَتَقْضُ بَعْدَ تَوْكِيدٍ ؟ وَرِدَّةٌ بَعْدَ مَعْرِفَةٍ ؟ أَنَا مِنْ صَحِيفَتِكَ يَا بَرِيء ! وَمَنْ أَقَرُّ بِهَا بَرِيء ! ثُمَّ حَمَلَ عَلَى أَصْحَابِ مَعَاوِيَةَ ، فَطَعَنَ فِيهِمْ ، حَتَّى إِذَا عَطَشَ أَنِي عَسْكَرَ عَلِيٍّ ، فَاسْتَسْقَى فَسَقَى ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى عَسْكَرِ عَلِيٍّ ، فَطَعَنَ فِيهِمْ ، حَتَّى إِذَا عَطَشَ أَنِي عَسْكَرَ مَعَاوِيَةَ ، فَاسْتَسْقَى ، فَسَقَى ! « ^(١) » .

إن الرّجل قد رأى أن عليّاً بقبوله الصّالح لم يعد خليفة على المسلمين ،
فناداه باسمه مجرداً يا عليّ ! ولم يقل يا أمير المؤمنين ! .

ثم إنه بدأ بمعاوية وأصحابه فطعن فيهم ، ثم عاد إلى عليّ وأصحابه فطعن
فيهم ! وعلى هذا ، فإن الفريقين قد أفسحوا للرجل مجال العذر ، وتركوه
ينفّس عن ثورته على التحكيم ، بهذه الضربات ، التي ضرب بها هنا
وهناك ! .

وفي رواية السّكامل أن رجلاً من أصحاب عليّ ، من همدان ، عطف
على اليشكري فقتله ، وفي هذا يقول شاعر همدان :

ما كان أغنى اليشكريّ عن التي تصلّى بها جمرًا من النار حاميا
غداةً ينادى والرماح تنوشه خلعتُ عليّاً بادياً ومعاويا^(١)
ومعنى هذا أنه خلع عليّاً أولاً ، وأعلن خروجه عليه ، وذلك أنه قد
كانت في عنقه بيعة لعليّ ، ولم يكن لمعاوية بيعة ! .

* * *

الخوارج وما دخل عليهم

وإذن ، فإن لنا أن نقول : إن « الخوارج » الذين عُرفوا بهذا الاسم في تاريخ الإسلام ، والذين كان لهم دور كبير في التفكيك الإسلامي ، في أوسع مدى - هؤلاء الخوارج هم نبتة إسلامية خالصة ، ولدت في الإسلام ، ونمت وترعرت في الإسلام ، وإن يكن قد دخل عليها شيء من واردات العقل اليوناني ، أو الهندي ، أو الفارسي ، فهو شيء قد جاء بعد أن استكمل الخوارج وجودهم ، وبعد أن دار بهم الزمن دورة اصطدموا فيها بالجبهات المعارضة لهم ، ديانة ، أو سياسة ! .

وظهور الخوارج كان أمراً طبيعياً ، فرضته الأحداث التي كانت جارية ، في الخلاف بين عليّ ومعاوية ، ولم يفرض من خارج هذه الأحداث ! . والذي يتنبع خطوات الخارجين على التحكيم ، يجد أن الذين قادوا هذه الجماعة أول الأمر ، كانوا أكثر الناس ولاءً لعليّ ، وأحرصهم على سلامة دينهم ، وأشدّهم زهداً في الحياة ، وفيما يقتتل عليه الناس من متاعها ! .

كان هذا هو شأن الجماعة الخارجة في أول أمرها . . . ولكن ما إن تنعزل عن الناس ، وتتخذ لها جبهة خاصة بها ، حتى تنحرف عما عليه جماعة المسلمين ، وحتى ليحملها العناد والشقاق على أن تشتط ، وتمعن في الشطط ، وإذا هي خارج دائرة الإسلام ، تستحل دم المسلمين جميعاً ، وتستبيح أموالهم وأعراضهم ، دون تقيّة أو حرج ! .

وإنه لخلاف بعيد المدى ، عميق الغور ، بين أول الخوارج وآخرها . . بدأت مؤمفة ، حريصة على إيمانها ، مبالغية في الحرص عليه ، وانتهت فرقاً (م ٣٤ - علي ابن أبي طالب)

يكفر بعضها بعضاً، ويلعن بعضها بعضاً ، وعصابات من الفتاك وقطاع الطريق ،
يقتلون ، ويحترقون ، ويهلكون الحرث والنسل ! .

« لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ! » :

هذه الكلمة من الكلمات القليلة ، الخلاقة ، ذات الإيجاء الساحر ، الآخذ
بالعقول ، المستولى على لمشاعر والمنازع !

وليس في العبارة علو في البلاغة ، ولا بدع في الصياغة ، ولا طرافة في
الأداء . . بل هي في تركيبها هذا ، أقرب إلى المألوف الدرج ، منها إلى الطريف
النادر ! .

ومع هذا فقد كانت من أقوى العبارات ، سحراً ، وقملاً ! !

والسر في هذا أنها ظهرت في وقتها ، وجاءت في الحال الداعية إليها . .
فوقعت من النفوس موقع التأثر في الصحراء يجد الطريق الذي كان يفشده ! .
هكذا الكلمات ، والعبارات . . تكبر قيمتها ، ويعظم قدرها ، حين
تكون الحاجة إليها داعية ، والنفوس لها طالبة ، دون نظر أو اعتبار لها في
ذاتها ، وفي حلاوة جرسها ، وبراعة تركيبها ! .

إن لقمة ، خشنة ، جافة ، تجيء على جوع . أشهى ، وأغلى ، من مائدة
جمعت آتين الطعام وطيبه ، تجيء على شبع وامتلأ ! .

وانظر كيف جاءت كلمة : « لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ » إلى نفوس حائرة ، فكانت
دليلاً ، وإلى قلوب مضطربة ، فكانت أمناً وسكناً ! ! .

هناك مئات وألوف من أصحاب علي ، حاربوا معه ، ابتغاء مرضاة الله ،
وهيأوا أنفسهم للاستشهاد في سبيل الله ، أو ردّ الفتنه الباغية إلى طريق الحق
الذي شردت عنه ! .

ثم هاهم أولاء يرون دعوةً إلى وقف القتال ، وإلى الاحتكام إلى كتاب الله ! .

وفيم كان هذا القتال إذن ؟ ، وما ثمن هذه الأرواح التي ذهبت ، وتلك الدماء الغزيرة التي أريقَت ؟ .

كان مئات وألوف من أصحاب عليّ في حيرة من أمرهم . . لا يدرون كيف يجدون الجواب ، الذي تسكن به هذه الحيرة المتعجّلة في صدورهم ! . وقد خطبهم الإمام عليّ ، وأرضى كثيراً منهم بمنطقه وبلاغته ، لكن كثيرين كان داء الحيرة عندهم أكبر من أن تذهب به بلاغة الإمام ومنطقه ! .

ولهذا فإنه ما إن هتف الهاتف بهذه الكلمة العابرة الطائفة ، حتى لقيتها الأذان ، وتنادت بها الألسنة ، وإذا هي راية يجتمع عليها جيش كانت قد سقطت رايته ، ووقع الاضطراب في صفوفه ! .
« لا حكم إلا لله ! » .

أتى كلمة هذه ، التي لا يدري أحد من هتف بها ، فكانت دعوةً مستجابة ، اجتمع عليها الأنصار ، وقام باسمها مجتمع ، يعيش بإيمانها ، ويحارب تحت رايته ، ويقتل أو يقتل في سبيلها ؟ .

يقول صاحب الكامل في وصف الخوارج :

« وكان في جملة الخوارج لَدَدٌ واحتجاج ، على كثرة خطبائهم ، وشعرائهم ، وتوطين أنفسهم على الموت . فمنهم الذي طعن ، فأنفذه الرمح ، فجعل يسمي فيه إلى قاتله ، وهو يقول : « عجلتُ إليك ربّي لترضى » ! .

يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما وصفهم قال : « سيماهم
التحليق ، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ! »^(١) .

وتلك هي عاقبة الوقوف بالدين عند الرسوم والأشكال ، دون الأخذ
بما وراء ذلك ، من معان كريمة ، وثمرات طيبة ، تهدي إلى الحق ، وإلى طريق
مستقيم ! .

وانظر كيف كانت وقفة الخوارج على أشكال الدين ورسومه ، حاجزا
حال بينهم وبين أن ينتفعوا بما أخذوا به أنفسهم من جهاد في الزهد ،
والعبادة ، حتى ليبيت أحدهم ساجداً ، ويصبح صائماً . . ثم يهجم على الموت
في ساحة القتال ، وكأنه يسعى إلى لقاء حبيب ، رآه بين يديه ، بعد طول
انتظار ! .

ولو أن القوم تخففوا شيئاً من غلوائهم ، في التمسك بالشكليات ، وعالجوا
الأمور بلطف وحكمة لما ركبوا هذا الطريق الوعر ، الذي شقوا فيه على أنفسهم ،
وجتؤا به تلك الجناية الكبرى على الإسلام والمسلمين ! .

يروى أنه حين تهيأ للخوارج العدد الذي وجدوا معه القوة والقدرة على
الظهور ومواجهة الناس - خرجوا إلى ظاهر الكوفة ليتخبروا لهم مكاناً
يجتمع إليهم فيه من كان على رأيهم . .

وفياهم سائرون ، إذا رجل يسوق امرأته على حمار له ، فقالوا له :
من أنت ؟

قا : أنا رجل مؤمن ؟

قالوا : ما تقول في علي بن أبي طالب ؟

قال : أمير المؤمنين ، وأول المسلمين إيماناً بالله ورسوله !

قالوا : فما اسمك ؟

قال : عبد الله بن خباب بن الارت .. صاحب رسول الله ^(١) .

تقالوا : أفزعناك ؟

قال : نعم !

قالوا : لا رَوْع عليك ! حدثنا عن أبيك ، بحديث سمعه من رسول الله ،

لعل الله يققنا به !

قال : نعم .. حدثني أبي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« ستكون فتنة بعدى ، يموت فيها قلب الرجل ، كما يموت بدنه ، يمسي

مؤمناً ، ويصبح كافراً »

قالوا : لهذا الحديث سألتك .. والله انفتلناك قتلة ما قتلناها أحداً !

فأخذوه ، وكتفوه ، ثم أقبلوا به وبامرأته ، وهى حُبلى مُتِم ^(٢) ، حتى

نزلوا تحت نخلة ، فسقطت رطبة منها ، فأخذها بعضهم ، فكدفها فى فيه ،

فقال له أحدهم : بغير حلٍّ أكلتها ! فألقاها من فيه .. ! !

ثم أخذ بعضهم سيفاً فضرب به خنزيراً لأهل الدمة ، فقتله ، فقال له

بعض أصحابه : إن هذا من الفساد فى الأرض ! فأرضى الرجل عن خنزيره !

فلما رأى عبد الله بن خباب ، ذلك منهم ، قال : لئن كنتم صادقين

(١) خباب : هو صاحب رسول الله ، وليس ابنه عبد الله

(٢) أى فى تمام حملها !

فيا أرى ، فما على منكم بأس ! والله ما أحدثُ حَدَّثًا في الإسلام ، وإني
لمؤمن ، وقد أمنتُموني ، وقتلتم : لا رُوع !

فأخذوه وامراته ، فأضجموه على شفير النهر ، على ذلك الخنزير ، فذبحوه
فسال دمه في الماء ، ثم أقبلوا إلى امرأته ، فقالت : إنما أنا امرأة ! أما تتقون
الله ؟ فبقروا بطنها ! وقتلوا ثلاث نسوة ، فيهم أم سنان ، قد صحبت النبي
صلى الله عليه وسلم ^(١) .

فانظروا إلى هذا التزمت العنيف في الدين ، وإلى هذا التشدد المقيت
في هِنَات الأمور وصغائرُها - كيف يدفع بالنفس دفعاً إلى ركوب المنكر ، واقتراف
الكبائر في غير تأتم أو تخرج ؟

إنه الكبت الشديد للنفس ، والصفط القوي عليها ، يذهبان بها
آخر الأمر إلى الترخص في الكبائر ، والدخول إليها من مداخل التأويل !
يتخرجون من أكل رطبة ساقطة ، ولا يتأثمون من ذبح رجل مؤمن ،
لم يحدث حَدَّثًا ، ولم يأت منكراً ! وليس له من ذنب إلا أنه على رأى
يخالف رأيهم ، على حين أنهم لا يفعلون ذلك مع من كان على دين
غير دينهم !

والمرأة ؟ ما ذنبها ؟ وما جفائتها ؟ وما جفاية الجفنين الذي في بطنها ؟
وما ذنبه ؟

والنسوة الثلاث . . ما خطيئهن ؟ هل كن محاربات ، أو حتى صاحبات
رأى معروف في هذه الفتنة ؟

وللخوارج على هذا المذهب المنحرف عن المنطق ، وعن العقل - أقوال ومدعيات ، أمسكوا بها ، وعقدوا عليها قلوبهم وعقولهم !

* * *

قيل : إن أول من حكم ، ولفظ بالحكومة ، رجل يقال له الحجاج ابن عبد الله ، ويعُرف بالبُرَك^(١) .. فلما سمع بذكر الحكمين ، قال ، أبحكم في دين الله ؟ لا حكم إلا لله ! فسمعه سامع ، فقال : طعن والله فأنفذ ! وحين سمع عليّ - كرم الله وجهه - هذه القولة ، قال : « كلمة حق أريد بها باطل لا بد من إمارة . برّة أو فاجرة ! » .

ولما انفذ الخوارج ناحية من المسلمين ، وأخذوا يُعدّون أنفسهم للحرب ، بعث إليهم عليّ - كرم الله وجهه - عبد الله بن عباس ، لينظرهم ، وليأخذ الحجة عليهم . فقال لهم :

ما الذي تقيمتم على أمير المؤمنين؟

قالوا : قد كان للمؤمنين أميراً ، فلما حكم في دين الله ، خرج من الإيمان فليُتَبَّ بعد إقراره بالكفر . تَعَدَّ له^(١) !

فقال ابن عباس : لا ينبغي لمؤمن ، لم يشب إيمانه شك ، أن يُقر على نفسه بالكفر !

قالوا : إنه قد حكم !

(١) وهو الذي كان فيما بعد أحد الخوارج الثلاثة . الذين تأمروا على قتل علي ، ومعاوية ، وعمر بن العاص . وكان هو الذي ضرب معاوية . فلم يصب منه مقتلاً .
(٢) أي تعود له الإمرة على المؤمنين .

قال : إن الله عز وجل ، أمرنا بالتحكيم في قتل صيد فقال عز وجل :
« يحكم به ذوا عدل منكم » فكيف في إمامة ، قد أشكلت على المسلمين ؟
قالوا : إنه قد حُكِمَ عليه فلم يرض !

قال : الحكومة كالإمامة ! ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك
الحكمان ، لئلا خالفا ، نُبذت أقاويلهما !

فقال بعضهم لبعض : لا تجعلوا احتجاج قريش ، حجةً عليكم ! فإن هذا
من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم : « بل هم قوم خصمون » وقال
عز وجل : وتذذر به قوماً لداً^(١) .

وقد رأى الإمام على أن يلقي القوم بنفسه ، ويعذر إليهم قبل أن
يقاتلهم .. فدعا صَعَصعة بن صوحان العبدي ، فقال له : انت القوم ، ودُلّني على
الرجل المقدم فيهم ، فجاء فقال له : هو يزيد بن قيس الأرحبي .

« فركب الإمام إليهم إلى حَرُوراء ، فجعل يتخللهم ، حتى صار إلى
مضرب يزيد بن قيس ، فصلى فيه ركعتين ، ثم خرج ، فانكأ على قوسه ،
وأقبل على الناس .. ثم قال :

« هذا مقام من فلّج فيه فلّج يوم القيامة .

« أنشدكم الله .. أعلمتم أحداً منكم ، كان أكره للحكومة مني ؟

قالوا : اللهم لا .

قال : أفعلتم أنكم أكرهتموني حتى قبلتها ؟

قالوا : اللهم نعم ! .

قال : فعلام خالفتُموني ، ونايذتموني ؟ .

قالوا : إنا أتينا ذنباً عظيماً ، فأتينا إلى الله ، فُتُبْ إلى الله منه واستغفره !
نَعُذُ لك !

قال : إني أستغفر الله من كل ذنب ! .

« فرجعوا معه ، وهم ستة آلاف ! فلما استقروا بالكوفة ، أشاعوا
أن علياً رجع عن التحكيم ، ورآه ضاللاً ، وقالوا : إنما يفتظر أمير المؤمنين
أن يَسْمَنَ السكراع ، ويَجْبي المال ، فينهض إلى الشام ! .

فأتى الأشعث بن قيس ، علياً ، كرم الله وجهه ، فقال :
يا أمير المؤمنين . . إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضاللاً
والإقامة عليها كفراً ! ! .

نخطب على الناس ، فقال : من زعم أني رجعت عن الحكومة ،
فقد كذب ، ومن رآها ضاللاً ، فهو أضلّ ! » .

فخرجت الخوارج من المسجد ، فحسّكت^(١) ، فقيل لعليّ : إنهم خارجون
عليك ، فقال : لا أقاتلهم حتى يقاتلوني ، وسيفعلون ! »^(٢) .

وبلغتنا في هذا الموقف ظهور الأشعث بن قيس ، وسعيه إلى عليّ بهذا
الحديث الذي يقال إن الناس قد تحدثوا به في شأن التحكيم ، وليس من
المستبعد أن يكون الأشعث هو الذي أذاع هذا الحديث ، ثم عاد به إلى عليّ
ليوثق عنده عقد التحكيم ، وليحمل علياً على أن يخطب في الناس مؤكداً
هذا العقد ، وكأنه إنما يتحدث بهذا ، مشاعر القوم الذين كانوا قد خرجوا

(١) أى نادت بقولتها المعروفة : « لا حكم إلا لله »

(٢) الكامل للمبرد : ٢ : ١٣١ .

عليه ، ثم عادوا معه ! ولو ترك الأمر دون إثارة لما هاج هياج أولئك الذين كانوا بالأمس في عزلة عن الجماعة ، ولا تزال العيون تأخذهم ، وترقب خطوهم . . . وليس شيء تلتئم به جراح هؤلاء الرجال ، غير الزمن ، وتطاول الأيام .

واسكن الأشعث — وقد علمنا بعض فعلاته ، وسنعلم منها ما هو أدهى وأسر — عرف كيف يضرب الحديد وهو محتر ، فبكأ الجرح الذي كاد يقدمل ، وأيقظ الفتنة وقد أوشكت أن تنام .

وعند النهران تجتمع الخوارج ، وأعدوا العدة للمعدوان ، فسار إليهم الإمام علي في أصحابه ، ثم بعث إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة أصحابنا منكم ، نقتلهم بهم ! ثم أنا أفارقكم ، وأكف عنكم ، حتى ألقى أهل الشام . . فبعثوا إليه : إنا كلنا قتلناهم ، وكلنا مستحلّ لدمائكم ودمائهم !

ثم أتاهم علي ، فوقف عليهم ، فقال : أيتها المصابة . . إني نذير لكم أن تصبحوا تلعنكم الأمة غداً ، وأنتم صرعى إزاء هذا النهر ، بغير برهان ولا سنة !

« ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم مكيدة ؟ وأنبأتكم أن القوم ، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ؟ وأنني أعرف بهم منكم ، وقد عرفتهم أطفالاً ، وعرفتهم رجالاً ، فهم شر رجال وشر أطفال ، وهم أهل المكر والغدر ! »

« وإنكم فارقتُموني ورأيي ، جانبتم الخير والحزم ، فمعصيتُموني ، وأكرهتُموني ، حتى حكمت ! فلما أن فعلت ، شرطت ، واستوثقت ، وأخذت على الحكمين أن يحييّا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ،

فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة ، وعملا بالهوى ، فنبذنا أمرهما ،
ونحن على أمرنا الأول .

« فما نبؤكم ! ومن أين أتيتم ؟ .

« فقالوا : إنا حيث حكمنا الرجلين أخطأنا ، وكنا كافرين ، وقد تبنا من
ذلك ! فإن شهدت على نفسك بالكفر ، وتبت كما تبنا وأشهدنا ، فنحن
معك ومنك ، وإلا فاعتزلنا ، وإن أبيت فنحن مفايدوك على سواء ! .

« فقال على : أبعد إيماني بالله ، وهجرتي ، وجهادي مع رسول الله ،
أبوء وأشهد على نفسي بالكفر ؟ لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين !
وَيَحْكُمُكُمْ ! بما استحللتم قتالنا ، والخروج من جماعتنا ؟ أن اختار الناس
رجلين ، فقالوا لهما : انظرا بالحق ، فيما يصلح العامة ؟ .

فتنادى الخوارج : لا تخاطبوم .. لا تكلموم .. الرواح إلى الجنة ! الرواح
إلى الجنة ! !

ثم شدوا على أصحاب عليّ ، شدة رجل واحد ، وقال عليّ لأصحابه :
لا تبذروهم حتى يبدؤكم ، فلما اتخفوا في أصحاب عليّ ، استقبلت الرماة وجوههم
بالقيل ، ثم عطف عليهم الخيل من اليمين واليسرة ، ونهض عليّ في القلب
بالسيوف والرماح ، فما لبثوا فوّاقاً^(١) حتى صرعهم الله ، كأنما قيل لهم :
موتوا ، فأتوا .

وسار عليّ في قتالهم سيرة أصحاب الجمل وغيرهم من المسلمين ، فإنه أخذ
مافي عسكريهم من كل شيء . . فأما السلاح والدواب فقسّمه في أصحابه ، الذين

(١) الفواق : ما بين الحلبتين للنافذة أو الشاة .

شهدوا الحرب معه ، وأما المتاع والعبيد والإماء ، فإنه حين قدم الكوفة رده على أهله ^(١) !

هكذا الإمام — كرم الله وجهه — يقاتل على نهج واضح ، وعلى طريق مستقيم .. يضع أمر الحق والعدل ، فوق كل شيء ، غير ملتفت إلى شيء يُدنيه من النصر ، ويمكنه من العدو ، إلا أن يحىء صفوا ، عفواً ، لم يختلط بشائبة من بنى ، أو عدوان !

ونظرة على إلى الخوارج إنما هي قائمة على حساب أنهم قوم طلبوا الحق وأخطئوا الطريق إليه ، وتقطعت بهم الأسباب دونه .. ولهذا ، فقد أعذر إليهم ولم يبدأهم بقتال ، فلما بدءوا البنى ، صاروا الفئة الباغية ، ولم يخرجها بغيرها عن أن تكون مسلمة !

والحق أن الخوارج — حين خرجوا — كانوا على تلك القية الطالبة للحق ، المدافعة عنه بالفس ، والمقدية له بالأهل والولد .

ولكن التزمت ، والتشدد في الدين ، ثم العناد والجدل ، مع إراقة الدماء وإزهاق الأرواح ، كل أولئك قد وسع شقة الخلاف بين الخوارج وبين جماعة المسلمين ، بل بين الخوارج أنفسهم ، فإنهم مازالوا يتحسسون بالمتشابهة من القول حتى افترقوا ، واقتتلوا ، وصار بعضهم لبعض عدواً ، يكفروه ، ويستبيح منه ما استباح من المسلمين !

وفي كتب الملل والنحل مقولات كثيرة للخوارج ، وفرقهم المتعددة ، وكلها ترجع إلى كتاب الله ، وتناول آيات الكتاب ، بما يقيم لها حجتها على الرأي الذي تراه ، وتأخذ به !

كان نافع بن الأزرق على رأس الخوارج ، وهم فرقة واحدة ، لم يقع بينهم خلاف ، يجعل منهم فرقاً متنازعة ١

وكان نافع — أول أمره — لا يرى قتل أطفال مخالفينهم من المسلمين ، ولا يحرم ذبائحهم ، فجاء إليه رجل يوماً ، فقال له :

إن أطفال المشركين في النار ، وإن من خالفنا مشرك . . فدماء هؤلاء الأطفال ، لنا حلال ١

قال له نافع : كفرت ، وأدلت بنفسك ^(١) !

قال : إن لم آتك بهذا من كتاب الله ، فاقتلني ١ « قال نُوحُ رَبِّ لا تَذَرُ على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » فهذا أمر الكافرين ، وأمر أطفالهم ١

وقد أخذ نافع بهذا الرأي الذي أوحى به إليه أحد أصحابه . . فشهد أن المسلمين — غيرهم — في النار ، ورأى قتلهم ، وقال : إن الدار دار كفر ، إلا من أظهر إيمانه ^(٢) ، ولا يحمل أكل ذبائحهم ، ولا تناكحهم ، ولا توارثهم ، ومتى جاء منهم جاء فعلى الخوارج أن تمتحنه ، والقعد ^(٣) كفره ١

ولم يرض هذا الرأي من نافع بعض أصحابه ، فخرجوا عليه ، وانحازوا جانباً ، واتخذوا لهم رئيساً ، هو نجدة بن عامر . ثم مضى نجدة بأصحابه إلى اليمامة ، وكتب إلى نافع يقول :

« أما بعد .. فإن عهدي بك ، وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف

(١) أى ائمت الدليل على نفسك .

(٢) أى آمن بما آمن الخوارج به .

(٣) العقد كسبب جمع قاعد ؛ وهو من كان على رأى الخوارج ؛ ولكنه لم يخرج

كألاخ البرّ ، لا تأخذ في الله لومة لائم . ولا ترى معونة ظالم . . كذلك
كنت أنت وأصحابك !

«أما تذكرك قولك : لولا أني أعلم أن للإمام العادل أجر جميع رعيته ،
ما توليت أمر رجلين من المسلمين ؟ فلما شرّيت نفسك ، في طاعة ربك ، ابتغاء
رضوانه ، وأصبت من الحق غصّة ، وركبت ممرّه ، تجرد لك الشيطان ، ولم
يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ، ومن أصحابك ، فاستمالك ، واستهواك ،
واستغواك ، وأغواك ، ففوّيت ، فأكفرت الذين عذّرهم الله في كتابه^(١) ،
من قعد المسلمين ، فقال جلّ ثناءه ، وقوله الحق ؛ ووعد الصديق : « ليس على
الضعفاء ، ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، إذا
نصحوا لله ورسوله » ثم ستأخ أحسن الأسماء ، فقال : « ما على الحسنين
من سبيل » .

« ثم استحللت قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن قتلهم : وقال الله ، عزّ ذكره : « ولا تزرّ وازرة وزر أخرى » .
« فأتق الله ، وانظر لنفسك ، واتق يوما لا يجزي والد عن ولده ،
ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئا . . فإن الله جلّ ذكره بالمرصاد ، وحكمه
العدل ، وقوله الفصل . . »

فكتب اليه نافع :

« أما بعد ، فقد أتاني كتابك ، تعظني فيه ، وتذكّرني ، وتنصح لي ،
وتزجرني ، ونصف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أوتره من الصواب :
« وأنا أسأل الله ، جلّ وعزّ أن يجعلني من الذين يستمعون القول ،

(١) يشير إلى رأى نافع في تكفير القعدة

فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، وَعِثَّتْ عَلَى مَا دِنْتُ بِهِ مِنْ إِكْفَارِ الْقَعْدِ ، وَقَتْلِ الْأَطْفَالِ ،
وَاسْتِحْلَالِ الْأَمَانَةِ !

«أما هؤلاء القعد ، فليسوا كمن ذكرت ، ممن كان بعهد رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين ، محصورين ، لا يجدون إلى
الحرب سبيلاً ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً . . . وهؤلاء — قعد الخوارج
قد فقهوا في الدين ، وقرأوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفت
ما قال الله عز وجل فيمن كان مثلهم ، إذ قالوا كئنا مستضعفين في الأرض ، فقيل
لهم : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟

وقال : « فَرِحَ الْخُلَفَاءُ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ » وقال : « وجاء
المُعْذِرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ ، وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » فانظر الى أسمائهم وسماتهم !

وأما الأطفال ، فإن نبي الله نوحاً عليه السلام ، كان أعلم بالله ، يا نجدة ،
منى ومنك . فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ، إِنَّكَ
إِنْ تَذَرْنِي يَضِلُّوا عِبَادَكَ ، وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » فسمّاهم بالكفر
وهم أطفال ، وقبل أن يولدوا فكيف كان ذلك في قوم نوح ، ولا نكون
نقول في قومنا ؟ والله يقول : « أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ ، أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ
فِي الزُّبُرِ ؟ » .

« وهؤلاء ^(١) ، كمشركي العرب ، لا تقبل منهم جزية ، وليس يفتنا وينهم
إلا السيف أو الإسلام ^(٢) .

(١) يشير إلى المسلمين جميعاً ، من غير الخوارج .

(٢) أى الإيمان بما آمن به الخوارج .

« أما استحلل أمانات من خالفنا ، فإن الله عز وجل ، أحل لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم . حلال طلق ، وأموالهم فيء للمسلمين ! .

« فاتق الله ، وراجع نفسك ، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة . . . ! »^(١)

هذا ضرب من ضروب الجدل الذي يدور في مدار التحكك بالألفاظ ، لتوليد الحجج ، ونصب الأدلة التي تنصر الرأي ، وتدعم المذهب ! .

وطبيعي أن هذا الترامي بالحجج ، وهذا التراشق بالتهم التي تُدين بالكفر ، والشرك ، والفسق ، وغيرها ، مما يخرج صاحب الدين من دينه ، ويبيح دمه ، وماله ، وعرضه — لا يمكن أن ينهى خلافاً ، أو يقيم بين المختلفين سلاماً ، وإنما من شأن هذا أن يُغري بالعداوة والشحناء ، وأن يُلقي بين الأصحاب والأصفياء ، الفرقة والشقاق ، لأوهى الأسباب ! إذ يرصد كل واحد حركات صاحبه ، ويتربص عثراته ، وهفواته ، ولو في كلمة عابرة ، أو حركة على غير إرادة ! .

فهذا الذي يلتقط رطبة ساقطة ، يضمها في فيه . . هو معتد أثيم ، من أهل البغي والفساد . . !

هكذا يصفه أصحابه ، الذين لم يفعلوا فعلته ، ولم يأخذوا مأخذه ! . . وهكذا تتحول الصفائر إلى كبائر ، وتصبح مادة من مواد الدستور لهذه الجماعة ! وزعيم من زعماء الخوارج ، ورأس من رؤوسهم ، هو معدان الإيادي ، يعرض للقعدة بكلمة لوم في قوله :

سلام على من بايع الله شاربيا وليس على الحزب المقيم سلام
فيمسك به أصحابه ، ويرمونه بالكفر ، لأنه برئ من القعدة ، وكان مذهب

الخوارج يومئذ قائماً على الإعذار للقعدة ، وعدم لومهم ، أو تكفيرهم !
ثم يعزلونه ، ويقيمون مكانه عبد الله بن وهب الراسبي^(١) .

ثم يتحول الخوارج بعد هذا عن هذا الرأي ، وإذا القعدة عندهم غير
معدورين ، وأنهم في عداد الكافرين . . وفي هذا يقول أحد رؤسائهم ،
قطري بن الفجاءة ، لأبي خالد القناني ، وكان من قعد الخوارج :

أبا خالد ، يا انقِر^(٢) ، فلست بخالدٍ وما جعل الرحمنُ عُذْراً لقاعدٍ
أتزعم أن الخارجى على الهدى وأنت مقيم بين لصٍّ وجاحدٍ ؟
فكتب إليه أبو خالد :

لقد زاد الحياة إلى حُبِّا بناتى ، إنهن من الضعافِ
أحاذر أن يرَيْنَ الفقرُ بعدى وأن بشرين رنقاً^(٣) بعد صافِ
وأن يعزبن إن كسبى الجورى فتنبو العين عن عينٍ^(٤) عجافِ
ولولا ذاك قد سوّمت مهري وفي الرحمن للضعفاء كافِ

وهكذا تتحول الأحوال بالخوارج ، وتقلب أمورهم من النقيض إلى
النقيض ، وإذا هم في فرقة وشقاق ، وإذا هم عواصف تهب من كل اتجاه ، محملة
بآفات قاتلة ، تهلك الحرث والنسل !

رُوى أن علياً — كرم الله وجهه — تلى بمجلسه قوله تعالى : « قل هل
ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون

(١) الكامل للمبرد ٢ / ١٩٦ .

(٢) يريد : يا هذا انقِر .

(٣) الرنق : العكر .

(٤) العين : بقر الوحش .

أنهم يُحسنون صنْعاً » فقال : أهلُ حروراء ^(١) منهم ^(٢)

* * *

ومعذرة ! فقد دفع بنا حديث الخوارج ، إلى حيث كدنا انقطع عن سيرة الإمام ، التي أوْشكنا أن نصل إلى خاتمتها !

ولم يكن في حسابنا أن نعرض للخوارج ، وللحديث عن مذاهبهم وفرقهم ، إلا في لحظة خاطفة ، تكشف عن الظروف التي جعلت منهم جماعة خارجة على الإمام عليّ ، الذي كانت تقاتل معه ، ثم تعود فتكون مقابلة له ، والمسلمين جميعاً ، ثم تمتد يد آئمة من أبنائهم ، فتقضي على الإمام نفسه . . غيلة وغدرآ .

ولكن خرج الأمر من يدنا ، وأوْشكنا أن يكون حديثنا عن الخوارج دراسة خاصة بهم ! ولا ندري ماذا حملنا على هذا ، إلا أن يكون ذلك عن شعور خفي ، دعانا إلى أن نتقبع الخوارج ، ونمسك بمن نلقاه منهم ، لنقيم عليه أدلة الاتهام في هذا الجرم الغليظ ، ولنلقى عليه تبعه هذا الدم الطهور ، دم الإمام عليّ ، كرم وجهه !

فها نحن أولاء نوْشكنا أن نلتقي بخاتمة حياة الإمام ، ونلج من بعيد بد اللعين ابن ملجم ، وهي تنهياً للطعنة الآئمة الغادرة ، فلا نستطيع لها دفْعاً ، ولكن حين نرى ابن ملجم وقد فعل فعلته المنكرة الآئمة ، لحساب الخوارج لانملك النفس من تأثيم الخوارج جميعاً ، واستعراض وجوههم المنكرة كلها ! ربما كان حديثنا عن الخوارج هذا الحديث الطويل ، لشيء من هذا ، أو نحوه !

(١) أهل حروراء : هم أول من ظهر من الخوارج ، وقد قتلهم الإمام بضربة

واحدة !

(٢) الكامل للبرد ٢ - ١٢١

ومع هذا ، فإن أشأم نَبْذَةٍ في تاريخ الخوارج ، وأسوأ وجه من وجوههم لم يفتكشف بعد ، وهو عبد الرحمن بن ملجم ، الذي باء بأعظم إثم ، وأنكر منكر !

وسنعرض ، لهذا بعد قليل !

صفين . . مرة أخرى :

بعد أن فرغ الإمام — كرم الله وجهه — من أمر الخوارج « بالنهروان » ، قام خطيباً في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله قد أحسن بلاءكم ، وأعز نصركم ، فتوجهوا من فوركم هذا إلى معاوية ، وأشياعه ، القاسطين^(١) ، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، فبئس ما شروا به أنفسهم ، لو كانوا يعلمون ! »

فكان من حديث أصحابه إليه : يا أمير المؤمنين . . نفدت نبالنا ، وكلت أذرعنا ، وتقطعت سيوفنا ، ونصّلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا حتى نستعبد بأحسن عُدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عُدتنا عُدة ، فإن ذلك أقوى لنا على عدونا !

فاستجاب الإمام لما أشاروا به ، وسار بهم حتى نزل بالنخيلة ، فمسكر بها ، وأمر الناس أن يلزموا معه معسكره ، ويوظفوا أنفسهم على الجهاد ، وأن يقلّوا من زيارة آبائهم ونسائهم ، حتى يسيروا إلى عدوهم من أهل الشام مجدّ وجداً ، فأقاموا معه أياماً ، ثم أخذوا يتسللون إلى الكوفة ، ويلقون أبناءهم ونساءهم ، حتى تركوا الإمام ، وما معه إلا نفر من وجوه الناس ، يسير !^(٢)

(١) أي الظالمين .

(٢) الإمامة والسياسة : ١ : ١٥٦ .

إن الناس قد سئموا هذه الحرب التي ليس لهم فيها شيء من حظوظ الدنيا !

وقد أصبح الإمام على ومن معه بين عدوين : أهل الشام أمامهم ، والخوارج خلفهم ، وكلا الفريقين يحاربهم حرب الكفار ، يستحل دماءهم وأموالهم ، وديارهم ، وأعراضهم ، على حين يقاتل على ومن معه كلاً من الخوارج وأهل الشام قتال المسلمين الخارجين عن طاعة الإمام . . لا يستحلون منهم شيئاً ، إذا هم أصبحوا يديهم ، وأعطوا الإمام طاعتهم !
وتلك هي المشكلة !

وقد أخذ الإمام بعالجها بكل ماله من حول وحيلة ، فما استقام له مع أصحابه أمر ، ولا اجتمع له بهم شمل !
خطبهم مرة .. يريد أن يخرجهم من شِباب الكوفة ودروبها ، إلى حيث أقام معسكره ، فصعد منبر المسجد بالكوفة فقال :
« أيها الناس .. استعدوا للمسير ، إلى عدو ، في جهاد القربة إلى الله ، ودرك الوسيلة عنده ؛ فاعدوا له ، ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، وتوكلوا على الله ، وكفى به وكيلاً . »

ثم تركهم أياماً ، ودعا رؤسائهم ، ووجههم ، وسألهم رأيهم ، وما الذي تثبتهم ؟ فمنهم المعتل ، ومنهم المتسكر ، وأقلهم من نشط !

فقال الإمام - كرم الله وجهه - : ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا في سبيل الله اثماقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلاً ؟ ورضيتكم بالذل والهوان ، من العز ، خلفاً ؟ كلما ناديتكم إلى الجهاد ، دارت أعينكم ، كأنكم من الموت في سكرة .. لله أنتم إما أنتم إلا أسود روَاعَة^(١) ، وتعال

رواغة ! ! أيها الناس المجتمة أبدانهم ، المختلفة أهولؤهم . . ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . . إذا أمرتكم قلتكم كيت وكيت ! أعاليل بأضاليل ! هيهات . . لا يُدرك الحق ، إلا بالجد والصبر ! أي دار بعد داركم تمعون ؟ ومع أي إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله من غررتموه . . استنفرتكم فلم تنفروا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا ، وأسمعتكم فلم تسموا . . أتلو عليكم الحكمة ، وأعظمكم بالموعظة النافعة ، وأحكمكم على جهاد الحلين ^(١) ، الظلمة الباغين ، فما آتى على آخر قولي حتى أراكم متفرقين ؟ إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حلقاً عزيزين ، تضربون الأمثال ، وتناشدون الأشعار ! تربت أيديكم ! قد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة عن ذكرها . . . » ^(٢)

وينتظر الإمام من أصحابه أن يتلقوا دعوته هذه ، بالاستجابة له ، والاجتماع على مادعاه إليه . . وربما كان القوم قد هموا أن يفعلوا . . ولكن هناك في أصحاب الإمام من أعد نفسه ، لإفساد الأمر إذا صلح ، وإيقاظ الفتنة إذا نامت ، وتوهين العزائم إذا انجهدت إلى العمل والجهاد !

كان الأشعث بن قيس من أولئك الذين تواطئوا مع معاوية على تخذيل أصحاب عليّ ، وإذاعة الفرقة والخلاف فيهم !

فما كاد الإمام ينتهي من خطبته تلك ، وبتهياً لتلقى ما عند القوم من طاعة له ، حتى يقوم الأشعث بن قيس ، فيرمي بهذه القذيفة المدمرة ، التي تذهب بكل شيء !

« يا أمير المؤمنين !

أفهلأ فعلت كما فعل عثمان ! »

(١) الحلين . أي الذين أحلوا ما حرم الله .

(٢) الإمامة والسياسة : ١ : ١٥٨ .

يا سبحان الله !

أين كانت هذه النصيحة من الأشعث قبل صفتين ؟ وقبل هذه الدماء الغزيرة التي فاضت بها ميادين القتال بين الإمام والخارجين عليه ؟

وهل غاب عن فطنة الأشعث ودهائه اختلاف موقف الإمام من الخارجين عليه ، وموقف عثمان — رضى الله عنه — من الذين فزعوا إليه ، وأمسكوا به ؟ إن الأشعث ، ليعلم أن قوله تلك ، لامتوجّه لها إلى الإمام ، وإنما هو يرمى بها إلى آذان الناس ، ليفسد بها ما يمكن إفساده من أمرهم ، وقد أوشك أن يصير إلى صلاح !

ولو أن الأشعث أراد بهذه القولة ، النصيحة للإمام ، لما جابهه في هذا الجمع الحاشد ، وفي هذا الموقف الفصل !

إنها كلمة لثيمة ، جاءت عن تدبير وتقدير^١ وعن نية سيئة ، مبيتة للشر ، راصدة له ! !

إنها أشبه — في وجهها ، وفي آثارها وأفعالها — بتلك القولة ، التي رمى بها أحد الخوارج ، بقوله « لاحكم إلّا الله » ! فأحدث هذا الصدع الذي لا يلتئم .. في جبهة على ، وفي وجه الإسلام جميعاً ! وهامى ذى تلك الكلمة تحدث تصدعاً أشد ، وأكبر .. فتذهب بالبقية الباقية من أصحاب على !

« يا أمير المؤمنين !

يقولها الأشعث ، مخاطباً الإمام !

وهل يراه الأشعث أميراً للمؤمنين حقاً ، وهو يكيد له هذا الكيد ، ويمكر به هذا المكر ؟

« أفلا فعلت كما فعل عثمان ؟

وماذا فعل عثمان ؟ .

لقد أبى أن يلتقى الشاغبيين عليه ، بالقوة ، وأن يردّهم عنه بالسيف . . .
حتى قُتل . رضى الله عنه !

وإذن . . فيجب أن يلتقى على بالسيف من يده ، وأن يدعو هذه القلة
القليلة من أصحابه التي ظلت على ولائها أن تُعمد أسيافا ، وتستقر في بيوتها !
وأن يُسلم نفسه وأصحابه للمصير الذى ينتظره وينتظرهم ، من سبوف أهل
الشام القائمة على ردّوسهم ! .

أهكذا ؟ والحرب قائمة ، والسيوف مسلولة . والرماح مشرعة ؟

وبتلقى الإمام كلمة الأشعث ، على غير انتظار ، فيقزع لها ، وتفيض
خفسه حسرة وألماً ، فلا يملك إلا أن يرمى الأشعث بنظرة قاتلة ، ثم يقول له :
« ويلك ! وكما فعل عثمان رأيتنى فعلت عانداً^(١) بالله من شر ما تقول !
« والله إن الذى فعل عثمان لخزاة على من لا دين له ، ولا حجة معه^(٢) !
حكيف وأنا على بينة من ربى ، والحق معى ! ! .

« والله إن امرأ أمكنَ عدوّه من نفسه ، فنهش عظمه ، وسفك دمه ،
لعظيم عجزه ، وضعيف قلبه . . !

« أنت يا ابن قيس فكُن ذاك ! ! أما أنا ، فوالله دون أن أعطى ذلك ،
ضرب بالمشرفى ، يطير له فرّاش الرأس ، وتطيح منه الأكف والمعاصم ،
وتُجد^(٣) به الغلاصم ! ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء ! .

(١) عانداً : حال لفاعل فعل محذوف تقديره جئت ، أو نحوه .

(٢) يريد الإمام بما فعل عثمان . توقفه عند دفع الشاغبيين عليه ، وعدم
أخذهم بما يدفعهم عنه ، ويردّهم إلى الطاعة !

(٣) تجد : أى تقطع .

نم يتجه الإمام إلى الملا من قومه ، فيقول :
« يا أهل العراق . . ما أظن هؤلاء القوم من أهل الشام إلا ظاهرين
عبيكم ! »

« فقالوا : أيعلم تقول يا أمير المؤمنين ؟ »

« قال : نعم ، والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إني أرى أمورهم قد
علت ، وأرى أموركم قد خبت ، وأراهم جاذين في باطلهم ، وأراكم
وانين عن حقكم ، وأراهم مجتمعين ، وأراكم متفرقين ، وأراهم اصحابهم
معاوية مطيعين ، وأراكم لي عاصين . . »

« أما والله لئن ظهروا عليكم بعدى ، لتجدنهم أرباب سوء ، كأنهم والله
عن قريب ، قد شاركوكم في بلادكم ، وحملوا إلى بلادهم منكم ، وكأني
أنظر إليكم ، تكشون كشيش الضباب ، لا تأخذون لله حقاً ، ولا تمنعون له
حرمة ! وكأني أنظر إليهم يقتلون صلحاءكم ، ويخيفون علماءكم ! وكأني أنظر
إليهم يحرمونكم ، ويحبسونكم ، ويدنون الناس دونكم ! »

« فلو قد رأيتم الحرمان ، ولقيتم الذل والموان ، ووقع السيف ونزول
الخوف ، لندمت ، ونحسرت ، على تفريطكم في جهاد عدوكم ، وتذكركم
ما أنتم فيه من الخفض والعافية ، حين لا ينفعكم التذكار ! »^(١)

لقد أحسن الإمام - كرم الله وجهه - قرب النهاية ، ورأى ما يؤول
إليه أمر أصحابه ، بعد أن دبّ فيهم ديب الوهن والتخاذل ، فكان مقامه هذا
فيهم ، وكلماته تلك إليهم أشبه بموقف الوداع ، إلى غير لقاء . . إلى أن يقوم
الناس لرب العالمين !

رأى الإمام أن الدعوة إلى حرب معاوية ، لم تعد تلقى من أصحابه ، أذنا سامعة ، أو قلباً واعياً . . فكشفت نفسه للمقام بين هؤلاء القوم ، وعاف الحياة على مثل هذه الحال ، التي يبئ فيها مهدداً من أهل الشام أن يدخلوا عليه داره ! ! وإنها لحال يهون على الحرّ فيها أن تأخذه السيوف ، وتخطفه الوحوش ! فكيف بالإمام عليّ ، وشجاعته ، وجراته ، واستخفافه بالحياة ، وخوضه غمار الحرب إلى الموت خوفاً ؟ .

وماذا يملك الإمام من أمره في تلك الحال ؟ .

إنه لا يملك غير نفسه ! .

أفيلقى معاوية وأهل الشام ، وحده ؟ .

لقد حدثته نفسه بهذا ، بل إن ذلك لم يكن مجرد حديث نفس ، فجهر به ، وتحدث به في أصحابه ! ولن يتردد الإمام لحظة في لقاء أهل الشام جميعاً ، لو استقام ذلك لمنطق ، أو أقام للإمام حجة ! .

إن ذهاب الإمام إلى الحرب وحده ، أو مع عشرات أو مئات من أصحابه ، ليلقى معاوية وأهل الشام ، لمو حجة عليه ، وليس حجة له ، في هذا الخلاف الذي بينه وبين معاوية !

فإن ذلك الفعل إن شهد للإمام - وهو في غير حاجة إلى شهادة - بالجرأة الخارقة ، والشجاعة المعجزة ، فإنه يشهد عليه بأن الناس قد تخلّوا عنه ، وأن البيعة التي نمت له ، لم تكن بيعة عامة شاملة ، وإلاّ لساّر الناس خلفه ، واجتمعوا تحت رايته ! .

ولهذا آثر الإمام أن ينتظر ما تأتي به الأيام ، وكان أحبّ شيء ينتظره هو لقاء ربه ! .

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تحدّث إلى عليّ ، بأن أشقى الأشقيين من يخضب هذه من هذه ، وأشار إلى لحية عليّ ، وإلى هامته .

فكان مما يتوقّعه عليّ هو ضربة غادرة تقع رأسه ، فتخضب لحيته ، فيكون فيها الموت ! .

وكثيراً ما كان يتوجه إلى أصحابه حين أياسه نصرهم ، فيقول : ما يمنع أشقاها أن يخضب هذه من هذه ؟ وبشير إلى لحيته وهامته ! .

وفي الكوفة ، والبصرة ، وغيرها من الأمصار ، قلوب مريضة ، ونفوس متمزعة ، تبتغي الفتنة ، والفساد في الأرض ! وليس بينها وبين الإمام حاجز ، يحول بينها وبين أي شرّ تربده به ! إذ كان - رضى الله عنه - يغدو وبروح بين الناس ، ليلاً ونهاراً ، لا سلاح في يده ، ولا جند بين يديه أو من خلفه ! .

رُوى أنه - كرم الله وجهه - خرج في غداة ، يوقظ الناس للصلاة ، فمرّ بجماعة تتحدّث ، فسلم ، وسألوا عليه ، فقال ، وقبض على لحيته : ظننت أن فيكم أشقاها ، الذي يخضب هذه من هذه !^(١) .

إن الموت هو الراحة الكبرى لعليّ ، من هذا البلاء الذي يكابده من أصحابه ! .

لقد أصبح غريباً في هذه الدنيا ، التي تخلى فيها الناس عن الطريق التي أقامهم عليها رسول الله ، وتخفّفوا من كثير من أوامر الدين ونواهيه ، في سبيل سلطان بترضونه ، أو مال يصيبونه !

وليس آلم للنفس ، ولا أوجع للقلب ، من أن يصبح الإنسان غريباً في الناس ،
ياخذ طريقاً غير طريقهم ، ويتزأب بزى غير زيتهم ، ويتكلم بلفظ لا يفهمونها ،
ولا يتعاملون بها !

كان ذلك هو حال الإمام في أخريات أيامه .. يتقرب الموت في لهفة وشوق !
وحين أحس الإمام بقرب أجله ، كتب كتاباً ، جامعاً ، ذكر فيه أمره
كله ، من مولده إلى هذا الموقف الذي هو فيه !

وقد يكون الكتاب مدخولاً على الإمام ، بفعل شيعته .. إذ ما أكثر
مادخل على أخبار تلك الفترة ، من أكاذيب وملفات ! ولكن هذا الكتاب
إن لم يكن من عمل الإمام ، فهو أقرب شيء إلى ما كان يدور في نفسه ، ويجرى
في خاطره .

وإنه لا بأس من أن نذكر هنا فصولاً من هذا الكتاب ، الذي هو أشبه
بوصية ، يوصي بهاراع رعيته ، وقد جاء الموت ليفرق بينه وبينهم !
يقول الإمام : « .. فلما استكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدته من
الدنيا ، توفاه الله ، وهو شكور سميه ، مريض عمه ، مغفور له ذنبه ، شريف
عند الله نُزله .

« فلما مضى ، تفازع المسلمون الأمر بعده ! فوالله ، ما كان يُلقَى في روعي
ولا يخطر على بالي أن العرب تعدل هذا الأمر عني ! فما راعني إلا إقبال الناس
على أبي بكر ! .. فأمسكت بيدي^(١) ، ورأيت أني أحق بمقام محمد في الناس ،
عن تولي الأمور عليّ . !

فلبئت بذلك ما شاء الله ، حتى رأيت راجعة من الناس رجعت عن
الإسلام^(٢) ، ويدعون إلى محود بن محمد ، وملة إبراهيم ، عليهم السلام ، فحشبت

(١) أي أمسكت بيدي عن البيعة لأبي بكر .

(٢) يريد أهل الردة .

إن لم أنصر الإسلام وأهله ، أن أرى في الإسلام ثلماً وهدماً ، تكون المصيبة به على أعظم من قوت ولاية أمركم ، التي إنما هي متاع أيام قلائل ، ثم يزول ما كان منها ، كما يزول السراب ! فحشيت عند ذلك إلى أبي بكر ، فبايعته ، ونهضت معه في تلك الأحداث ، حتى زهق الباطل .. فتولى أبو بكر — رضى الله عنه — تلك الأمور ، فبسر ، وسدّد ، وقارب ، واقتصد . فصحبته مناصحاً ، وأطعته فيما أطاع الله فيه جاهداً ، فلما احتضر ، بعث إلى عمر ، فولاه ، فسمنا ، وأطعنا ، ونصحنا .. فتولى تلك الأمور ، فكان مرضى السيرة ، ميمون القيبة أيام حياته ! فلما احتضر قلت في نفسي : ليس يصرف هذا الأمر عني ! فجعلها عمر شوري ! ، وجعلني سادس ستة ! فما كانوا لولاية أحدٍ منهم بأكره منهم لولايتي ! ! لأنهم كانوا يسمونني وأنا أحاج أبا بكر ، فأقول : يا معشر قريش : إنا أحق بهذا الأمر منكم ، ما كان منا من يقرأ القرآن ، ويعرف السنة .. نخشوا إن وليت عليهم ألا يكون لهم في هذا الأمر نصيب ، فبايعوا إجماع رجل واحد ، حتى صرفوا الأمر عني لعثمان ، فأخرجوني منها ، رجاء أن يتداولوها ، حين يئسوا أن يغالوها .. ثم قالوا لي : هلمّ فبايع عثمان ، وإلا جاهدناك ! ، فبايعت مستكرهاً ، وصبرت محسباً ، وقال قائلهم : إياك يا ابن أبي طالب على الأمر لحريص ! ، قلت لهم : أأنتم أحرص ! أما أنا إذ طلبت ميراث ابن أبي^(١) وحقه ، وأنتم إذ دخلتم بيني وبينه ، تضربون وجهي دونه ! اللهم إني أستمع بك على قريش ، فإنهم قطعوا رحى ، وصغروا عظيم منزلتي وفضلي .. حتى إذا نعمتم على عثمان أتيتهم فقتلتموه ، ثم جئتموني تبايعونني ، فأبيت عليكم ، وأبيتهم على ، فنازعتموني ، ودافعتموني ، ولم أمد يدي ، تمنعاً عنكم ، ثم ازدحمتهم على حتى ظننت أن بعضكم قاتل بعض ، وأنكم قاتلي ! وقلتم لا نجد غيرك ، ولا نرضى إلا بك ! فبايعنا ، لانفترق ، ولا نختلف !

(١) يريد بقوله : ابن أبي — النبي صلى الله عليه وسلم .

فبايعتكم ، ودعوتهم الناس إلى بيعتي ، فمن بايع طائعاً قبلت منه ، ومن أبى تركته . . فأول من بايعني ، طلحة والزبير ، ولو أبيتاً ما أكرهتهما ، كما لم أكره غيرهما ، فما لبثا إلا يسيراً ، حتى قيل لي : قد خرجا متوجهين إلى البصرة ، في جيش !! مامنهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة ، وسمح لي بالبيعة .. فقاموا على عمالي بالبصرة ، وخزائن بيوت أموالى ، وعلى أهل مصرى ، وكلهم في طاعتي ، وعلى شيعتي ، فشتتوا كلمتهم ، وأفسدوا على جماعتهم .. ثم وثبوا على شيعتي ، فقتلوا طائفة منهم غدرأ ، وطائفة صبرأ ، وطائفة عصرأ بأسياهم ، فضاربهم حتى لقوا الله صابرين محتسبين ! فوالله لو لم يصيبوا منهم إلا رجلاً واحداً متعمدين لقتله ، لحلّ لي بذلك قتل الجيش كله ، مع أنهم قد قتلوا من المسلمين أكثر من العدة التي دخلوا عليهم بها . . فقد أдал الله منهم ، فبعداً للقوم الظالمين !

« ثم إنى نظرت بعد ذلك في أهل الشام ، فإذا هم أعراب ، وأحزاب ، وأهل طمع ! جفأة ، طغام ! تجتمعوا من كل أوب ، ممن ينبغي أن يؤدب ، ويولى عليه ، ويؤخذ على يديه .. ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا من التابعين بإحسان . فسرتُ إليهم ، ودعوتهم إلى الجماعة والطاعة ، فأبوا إلا شقاقاً ونفاقاً ، ونهضوا في وجوه المهاجرين والأنصار ، والتابعين بإحسان ، ينضحونهم بالنبل ، ويشجّونهم بالرماح ، فهناك نهضتُ إليهم فقاتلتهم . . فلما عضّهم السلاح ، ووجدوا ألم الجراح ، رفعوا المصاحف ، يدعونكم إلى مافيهما ! فنبأتكم أنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وإنما رفعوها إليكم خديعةً ومكيدة ، فامضوا على قتالهم ! فاتهميموني ، وقلتم : اقبل منهم ، فإنهم إن أجابوا إلى الكتاب والسنة ، جامعونا إلى مانحن عليه من الحق ، وإن أبوا كان أعظم لحجقتنا عليهم ! فقبلتُ منهم ، وخففت عنهم ، وكان صلحاً بينكم وبينهم على رجلين سكين . . يحميان ما أحيا القرآن ، ويميتان ما أمات القرآن ، فاختلف رأيهما ، وتفرق حكمهما ،

ونبذا حكم القرآن ، وخالفنا مافى الكتاب ، واتبعنا هواها بسير هدى من الله .
فجنبهما الله السداد ، وأهوى بهما فى غمرة الضلال ، وكانا أهل ذلك !

« فأنخذت عنا ، فرقة منكم ، فتركناهم مانركونا ، حتى إذا عاثوا فى الأرض
مفسدين ، وقتلوا المؤمنين ، أتيناهم ، فقلنا لهم : ادفعوا إلينا قتلة إخواننا ،
فقالوا ، كلنا قتلهم ، وكلنا استحللنا دماءهم ودماءكم ، وشدت علينا خيلهم
ورجالهم ، فصرعهم الله مصارع القوم الظالمين ! !

« ثم أمرتكم أن تمضوا من فوركم ذلك إلى عدوكم ، فإنه أفزع لقلوبهم ،
وأنهك لمسكرهم ، وأهتك لكيدهم ! فقلتم : كلفت أدرعنا وسيوفنا ، ونفذت
نبالنا ، ونصأت أسنة رماحنا ، فاذن لنا ، فلانرجع حتى نستعد بأحسن عدتنا ..
فأقبلتم ، حتى إذا أظلمتم على الكوفة ، أمرتكم أن تنضموا معسكركم ، وتضموا
قواصيكم ، وتتواطئوا على الجهاد ، ولا تسكثروا زيارة أولادكم ونسائكم ، فإن
ذلك يرق قلوبكم ، ويلويكم ! ! . فنزلت طائفة منكم معى معذرة ، ودخلت
طائفة منكم المصر ، عاصية ، فلا من نزل معى صبر ، فثبت ، ولا من دخل
المصر ، عاد إلى !

« ولقد نظرت إلى عسكرى ، وما فيه معى منكم إلا خسون رجلا ! !
فلما رأيت ما أنيتم ذات إليكم^(١) ، فما قدرتم أن تخرجوا معى إلى
يومكم هذا ! !

« عباد الله : ألا إنه ليس أولياء الشيطان ، من أهل الطمع والجفاء ، بأولى
فى الجدة فى غيهم وضلالهم وباطلهم ، من أهل النزاهة ، والحق والإخبات -
بالجدة فى حقهم وطاعة ربهم ، ومناصحة إمامهم !

(١) أى دخل إليهم الكوفة ، وكان معسكراً فى ظاهرها .

« إني والله ، لو لقيتهم وحيداً مفرداً ، وهم في أهل الأرض إن باليت بهم ،^(١)
أو استوحشت منهم !

« إني — في ضلالمهم الذي هم فيه ، والهدى الذي أنا عليه — اعلى بصيرة ،
ويقين ، وبينة من ربي .. وإني للقاء ربي لمشتاق ، ولحسن ثوابه لمنتظر راجٍ .
ولكن أسفاً يعتريني ، وجزعاً يربيني ، من أن يلي هذه الأمة سفهاؤها وفجارها ،
فيخذلون مال الله دولاً ، وعباد الله خولاً ، والصالحين حرّاً ، والقاسطين حزباً !
« وأيم الله ، لولا ذلك ، ما أكرت تأليبكم وجمعكم ، ونحريضكم ، ولتركتكم !

« فوالله ، إني لعلی الحق ، وإني للشهادة لمحِب !

« أنا نافرٌ بكم إن شاء الله ، فانفروا خفاً ، وثقلاً ، وجاهدوا بأموالكم
وأنفسكم في سبيل الله ، إن الله مع الصابرين ۝ ١١ »^(٢)

إنها أمتية تمنّاها الإمام ، على الليالي ، أن يموت تحت ظلال السيوف ،
مجاهداً في سبيل الله ، لفصرة الحق ، والضرب على يد الفئة الباغية !

ولكن شاء الله أن يوسع له في رحمته ، وأن يعفيه من مكابدة الناس ،
فأعطاه الشهادة في أكرم مكان عنده ، وأسأل دمه الطهور في بيت من بيوته ،
وهو ساعٍ إلى ذكر الله فيه !

(١) إن باليت بهم ، أي ما باليت بهم ، وإن هنا بمعنى ما النافية ، مثل قوله

تعالى : « إن الكافرون إلا في ضلال » .

(٢) الإمامة والسياسة : ١ - ١٦٤ .

مَقَاتِلُ الْإِسْلَامِ

حجَّ الناسُ سنةَ تسعٍ وثلاثين ، فكانوا ثلاث فرق : أصحابَ الإمامِ عليٍّ ، وأصحابَ معاويةَ ، وفرقة الخوارج ، وقد أبت كل جماعة إلا أن يكون لها إمامها ، ومن يؤدّي شعائر الحجِّ لها ، وكادت تكون فتنة ، ويكون قتال في البيت الحرام ، وفي الشهر الحرام .. إذ تريد كل طائفة أن تقوم على أهل الموسم جميعاً ! ثم اتفقوا آخر الأمر على رجل من بني شيبه ، هو شبيب بن عثمان ، يقيم للناس حجَّهم ، حتى لا يفوتهم أداء الفريضة !

فلما انتهى موسم الحج ، نحدث الخوارج بعضهم إلى بعض ، فقالوا : إن هذا البيت كان معظماً في الجاهلية ، جليل الشأن في الإسلام ، وقد أحل هؤلاء القوم حرمة ما فلو أن قومًا شَرَوْا أنفسهم ، فقتلوا هذين الرجلين^(١) ، اللذين قد أفسدا في الأرض ، وأحلا حرمة هذا البيت — لاستراحت الأمة ، واختار الناس لهم إماماً ! فقال رجل منهم : والله ما عمرو^(٢) دونهما ، وإنه لأصل هذا الفساد ! ! «

ثم انتهى رأى المؤتمرين على أن ينتدبوا منهم ثلاثة ، يتولى كل واحد منهم قتلَ رجل ، من هؤلاء المتخالفين : عليٌّ ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ! فكان عبد الرحمن بن ملجم ، لعليٍّ .

والحجاج بن عبد الله الصَّريمي ، ويعرف بالبُرْك — لمعاوية .

وزاذويَّة ، مولى بني العنبر بن عمرو بن تميم — لعمرو .

(١) أي علي ومعاوية .

(٢) أي عمرو بن العاص .

واجتمع رأيهم على أن يكون تنفيذ هذه الجريمة ، في وقت معلوم ، وهو
الليلة الحادية والعشرون من رمضان سنة أربعين !

ثم سار كل واحد منهم في طريقه ، ليتدبر أمره ، ويُعدّ له العدة ! ثم
يُضيه على الوجه المتفق عليه !

فقدم عبد الرحمن بن ملجم السكوفة ، وكنتم أمره ، وتزوج امرأة ، يقال
لها « قَطَام » بنت علقمة ، من تميم الرباب ، وكانت على رأى الخوارج ، لأن
عليّاً قتل أخاها في موقعة النهروان ، كما يروى !

ويروى أيضاً أن المرأة ، توطأت مع ابن ملجم على قتل عليّ ، وأنها
جعلت من شروطها في الزواج منه : أن يقتل عليّاً ، وأن يَمَهَرَهَا ثلاثة آلاف
درهم ، وعبداً ، وأمة ، فقبل منها ذلك . . وقد روى في ذلك شعر ، ينسب إلى
ابن ملجم نفسه ، وفيه يقول :

ثلاثة آلاف ، وعبد ، وقينة وضرب عليّ بالحسام المصمم
فلا مهر أغلّ من عليٍّ وإن غلا ولا فتك إلهادون فتك ابن ملجم

ونحسب أن ذلك من عمل الرواة والمحدثين ، فما كان بالرجل من حاجة
إلى من يؤمره على قتل عليّ ، وقد تعاقد مع أصحابه من قبل على هذه الجريمة !
ويحدث الرواة أن الأشعث نظر إلى ابن ملجم متقلداً سيفاً ، فقال له :
يا عبد الرحمن . . أرنى سيفك ! فأراه ، فرأى سيفاً حديداً^(١) ، فقال له :
ما تقلدك السيف ، وليس بأوان حرب !

فقال : إني أردت أن أنحر جزور القرية !

(١) أى حادا ، قاطعا ، مهياً للحرب ، والقتل .

قالوا : فجاء الأشعث إلى عليّ ، فأخبره بما تحدّث به ابن ملجم ، وقال له :
عرفت بسالة ابن ملجم وفتكه ؟ فقال عليّ : ماقتلني بعد !
ويروى أن عليّاً — رضى الله عنه — كان يخطب مرة ، ويذكر أصحابه ..
وابن ملجم تلقاء المنبر ، فسُمع وهو يقول : والله لأريحنهم منك ! فلما انصرف
عليّ إلى بيته ، جرى إليه بابن ملجم ملتبساً ، فقال لهم عليّ : ما تريدون ؟ فخبروه
بما سمعوا ، فقال : ماقتلني بعد ! !

قالوا : وكان عليّ إذا رأى ابن ملجم ، يتمثل ببیت عمرو بن معدی كَرِب
في قيس بن مكشوح المرادى :

أريدُ حيّانةً^(١) ، ويريدُ قتلى عذيرك من خليلك من مُرادٍ
وكان يقال لعليّ في ذلك : كأنك قد عرفته ، وعرفت ما يريد ! ! أفلا تقتله ؟
فيقول — كرم الله وجهه — كيف أقتل قاتلي ؟

وقالوا ، فلما كانت الليلة الحادية والعشرون من رمضان^(٢) ، خرج ابن ملجم ،
ومعه صاحب له ، هو شبيب الأشجعي ، فاعتورا الباب ، الذي يدخل منه عليّ ،
وكان يوقظ الناس للصلاة ، فخرج — قبيل الفجر — كما كان يفعل ، فضربه
شبيب فأخطأه ، وأصاب سيفه الباب ، وضربه ابن ملجم على صلعته ، فقال
عليّ — كرم الله وجهه — : جُرْتُ ، وربّ الكعبة ! !^(٣)

(١) ويروى صاحب الكامل : « حباه » أي عطاء ووصله .

(٢) عى ليلة الجمعة من رمضان سنة أربعين للهجرة .

(٣) في الإمامة والسياسة : « فزت » بالقاء المضمومة ، وسكون الزاي وفتح
التاء ، وفي الكامل للبرد : قرت بالقاف المضمومة . وسكون الراء . ويبدو أن تصحيفاً
وقع في الروایتين . ولعل أقرب تصويب ما أثبتناه .. وهو ما يناسب الحال . إذ نطق
الإمام في تلك الحال ناسباً الجور إلى ضاربه الذي ضربه غدرآ . وقتله ظلماً ، أو لعله
« قرت » بفتح القاف وتشديد الراء ، أي أن نفسه سكنت وقرت ، بهذه الضربة
القاتلة .

وَيُرَوَّى عَنْ بَعْضِ الْأَنْصَارِ مَنْ كَانَ بِالْمَسْجِدِ ، قَالَ : سَمِعْتُ كَلِمَةَ عَلِيٍّ ،
وَرَأَيْتُ بَرِيقَ السَّيْفِ .

أَمَّا ابْنُ مَلْجَمٍ ، فَحَمَلَ عَلَى النَّاسِ بِالسَّيْفِ ، فَأَفْرَجُوا لَهُ ، فَتَلَقَّاهُ الْمَغِيرَةُ بْنُ
نُوفَلٍ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلِبِ ، بِقَطِيفَةٍ ، فَرَمَى بِهَا عَلَيْهِ ، وَاحْتَمَلَهُ ، فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ !
وَكَانَ الْمَغِيرَةُ أَيْدًا ^(١) ، وَأَمَّا شَيْبٌ ، فَانْتَزَعَ السَّيْفَ مِنْهُ رَجُلٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ
وَصَرَعَهُ ، وَقَعَدَ عَلَى صَدْرِهِ ، وَكَثُرَ النَّاسُ ، فَجَعَلُوا يَصِيحُونَ : عَلَيْكُمْ صَاحِبَ
السَّيْفِ ! فَخَافَ الْحَضْرَمِيُّ أَنْ يُكَبَّرُوا عَلَيْهِ ، وَلَا يَسْمَعُوا عَذْرَهُ ، فَرَمَى بِالسَّيْفِ ،
وَانْسَلَّ شَيْبٌ بَيْنَ النَّاسِ ! !

وَسُئِلَ عَلِيٌّ فِي أَمْرِ ابْنِ مَلْجَمٍ ، فَقَالَ : إِنْ أُعِشَ فَلَا أَمْرَ إِلَيَّ ، وَإِنْ أُصِبَ
فَلَا أَمْرَ لَكُمْ ، فَإِنْ آثَرْتُمْ أَنْ تَقْتَصُّوا ؛ فَضْرِبَةٌ بِضْرِبَةٍ ! وَأَنْ تَعْفُوا
أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى !

فَلَمَّا مَاتَ عَلِيٌّ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ ضَرْبَتِهِ ، قُدِّمَ ابْنُ مَلْجَمٍ فَضْرِبَتْ عُنُقُهُ !
وَقِيلَ مُثْلُ بِهِ ، فَقَطَّعَتْ يَدَاهُ ، وَرَجَلَاهُ وَأَنْفُهُ ، ثُمَّ ضُرِبَ ضْرِبَةً قَاضِيَةً !

وَلَعَلَّ رَوَايَةَ التَّمْثِيلِ بَابِ ابْنِ مَلْجَمٍ مِنْ مَزَايِمِ الْخَوَارِجِ ، لِاسْتِثْنَاءِ الْحِمَّةِ فِيهِمْ
وَلِتَجْدِيدِ ابْنِ مَلْجَمٍ . . وَكَيْفَ يُمَثَّلُ بِهِ ، وَقَدْ أَوْصَى الْإِمَامُ ، فَقَالَ : ضْرِبَةٌ
بِضْرِبَةٍ ؟

وَأَمَّا الْبُرْكَ ، فَإِنَّهُ انْطَلَقَ لَيْلَةَ مِيعَادِهِمْ ، فَقَعَدَ لِمَعَاوِيَةَ ، فَلَمَّا خَرَجَ لِصَلَاةِ
الصُّبْحِ ، شَدَّ عَلَيْهِ بِسَيْفِهِ ، فَأَصَابَ رَأْفَةَ ^(٢) أَلْيَتَيْهِ فَفَلَقَهَا ، وَكَانَ مَعَاوِيَةُ عَظِيمَ
الْأَوْرَاكِ ، فَوَقَعَ ، السَّيْفُ فِي لَحْمٍ كَثِيرٍ !

(١) أَيْ قَوِيًّا

(٢) الرَأْفَةُ : الرَّأْسُ مِنْهَا .

وأخذ البرك ، فقال لمعاوية : إن لك عندي البشارة . قُتِلَ على الليلة ١١
فاستؤنى به ، حتى جاء الخبر ، فقطع معاوية يده ، ورجله ١

وأما زاذويه ، فإنه أُرصد لعمره في تلك الليلة ، وكان عمرو قد اشتكى
بطنة ، فلم يخرج للصلاة ، وخرج « خارجة » وهو رجل من بني سهم ، رهط
عمرو بن العاص ، فضربه زاذويه فقتله ، فلما دُخل به على عمرو ، ورآهم يخاطبونه
بالإمرة ، قال : أو ما قتلتمُ عمرأ ؟ قيل : لا ، إنما قتلتمُ خارجة ١١ فقال : أردتُ
عمرأ ، وأراد الله خارجة ! ثم قتموه !

وروى عن الحسن رضى الله عنه ، قال : أتيتُ أبى ، فقال لى : أُرقتُ
الليلة ، ثم ملكتنى عيني ، فسمح لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له :
يا رسول الله . . ماذا لقيتُ من أمتك من الأودر والأدد^(١) ؟ . . قال : ادعُ
عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم خيراً لى منهم ، وأبدلهم بى شراً لهم منى !
وخرج إلى الصلاة ، فاعترضه ابن ملجم ! وأدخل ابن ملجم على عبد ضربه
إياه ، فقال : أطيبوا طعامه ، وألينوا فراشه . . فإن أعشُ فانا ولّى دى ،
إما عفوت ، وإما تقتصصت ! وإن أمت ، فألحقوه بى ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب
المعتدين . «^(٢)

وهكذا استراح الإمام ، مما كان يكابد من أصحابه ، ومما كان يلقى من
انقلاب الحياة ، وتحول أحوالها ، حتى لقد بات غريباً بين أوليائه وخلصائه ،
لا يجد من يؤنس وحشته في تلك الغربة الغائبة ، إلا أن يفاجئ نفسه ، مواسياً ،
معزياً ، وشاكياً إلى الله متضرعاً . . فقد كان ذلك ديدنه ، وخاصة في الفترة

(١) الأود ، العوج ، واللدد : الخصومة .

(٢) الإمامة والسياسة : ١ : ١٦٥ وما بعدها : السكامل للبرد : ٢ : ٢٥

الأخيرة من حياته ، حين غيبته الدنيا على أصحابه ، فحوتهم عنه ، وفرت
بينهم وبينه !

روى أن معاوية ، قال لضرار الصّدائي ، وكان من أصحاب عليّ ، وأهل
ثقته — : صف لي عليّاً !

فكان مما قاله ضرار عن الإمام : « فأشهد ، لقد رأيت في بعض مواقفه ،
وقد أرخى الليل سدوله ، وهو قائم في محرابه ، قابض على لحيته ، يتململ
تململ السليم^(١) ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا ، يا دنيا ، إليك عني .
أبي تعرضت ، أم إلى نشووت ؟ لا حان حينك ! هيهات . غرّني غيري ،
لا حاجة لي فيك ، قد طأمتك ثلاثاً لارجعة فيها ، فعيشك قصير ، وخطرُك
يسير ، وأملك حقير . . آه من قلة الزّاد ، وطول الطريق ، وبعد السفر ،
وعظيم المورد ! »^(٢)

ونجد في هذه المناجاة ، بين عليّ وبين نفسه ، صراعاً قاسياً وحرباً مريرة !
يكتوى الإمام بنارها ، فيتململ تململ اللدّيع ، ويبكي بكاء الحزين الوجع .
إنه مغلوب على حقه ، مغلوب على أصحابه !

وفي يده أن ينتزع حقه انتزاعاً . وأن يملأ الدنيا من حوله خيلاً ورجلاً
على معاوية !

والكن ذلك لا يتم له ، إلا إذا جار على دينه ، ونزل إلى المستوى الذي
صار إليه أمر الناس ، يومئذ ! وتعامل معهم بالنقد الذي يتعاملون به !
وهو مستعصم في موقفه ، الذي استقام عليه من أول حياته ، يأبى أن

(١) السليم : من لدغته الحية ؛ ووصف بالسليم تفاؤلاً بنجاته وسلامته .

(٢) نهج البلاغة ٢/ ٩٥ .

يتحول عنه ، ولو كان في ذلك تطاول المبطلين عليه ، وانزعاجهم الحق الذي في يديه .

في هذا الصراع العاصف ، الذي تكاد تتمزق منه الجبال ، كان يعيش الإمام أيامه الأخيرة . . . حتى لكان ينشد ذلك الذي حدثه الرسول عنه بأنه قاله ، فيقول في أصحابه : « ما يمنع أشقاها أن يَخْضِبَ هذه من هذا ؟ » ويشير إلى الحيتة ، وإلى قرنه !

إنه يحمل الداء ، ومعه الدواء ، ولكن لا سبيل إليه . . . فهو كما يقول الشاعر :

أَهْمُّ بِأَمْرِ الْحَزْمِ لَوْ أَسْتَطِيعَهُ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزْوَانِ
وذلك هو الداء العياء ، الذي لا دواء له . . .

روى أنه حين تفرق أصحاب عبي بعد مقتل الخوارج ، ودخل مسجد الكوفة فخطبهم ، وكشف لهم عن الحال التي صاروا إليها ، وما ينتظرهم من ذل على أيدي أهل الشام بعدها — قام إليه بمص أصحابه ، فقال :

« يا أمير المؤمنين .. أعط هؤلاء هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش ، على الموالى ، ممن يُتَخَوَّفُ خلافه على الناس وفراقه . إن هذا هو الذي كان يصنعه معاوية بمن أتاه ، وإنما عامة الناس همهم الدنيا ، ولها يسقون ، وفيها يكدحون ، فأعط هؤلاء الأشراف ، فإذا استقام لك ماتريد ، عدت إلى أحسن ما كنت عليه من القسم ! »^(١)

هذه هي السياسة التي كان يمكن أن يغلب بها الإمام ، وأن يستكثر بها من الأنصار والأتباع !

ولكنه يأبى أن يستجيب لهذا الرأي ، ويردّه على أصحابه قائلًا :
« أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من المسلمين ؟
فوالله لا أفعل ذلك ، ملاح في السماء نجم . والله لو كان المال مالى لسويت بينهم !
فكيف ، وهى أموالهم ؟ »^(١)

هكذا يفعل الإمام فى الحكم بين الناس ! وفى إقامة العدل بين رعيته .
إنه لا يؤثر شريفًا لشرفه ، ولا يهابى قويا لقوته . . . فلو كان هذا المال
ماله هو لما سمحت نفسه بأن يفاضل بين الناس فيه . فكيف ، وهو مال الله ،
اعباد الله ؟

هذا هو حكم الدين ، ودعوة الحق والعدل !
ولكن أين الناس من الدين ، ومن الحق والعدل ؟
لقد تعثرت أقدامهم على هذا الطريق ، وثقل خطوهم عليه ، وتقطعت بهم
الأسباب دونه .

أتريد شاهداً بشهد لهذا ؟
وهل شاهد بعد أن نرى علياً وحده فى الميدان ، لا يقوم تحت رايته غير
خمسين رجلاً ؟
وهل شاهد بعد أن يتخلى ابن عباس عن الإمام فى هذا الوقت المصيب ،
ويُشغل عنه بنفسه ، وبما حمل معه إلى الحجاز ؟

لابأس ! فالشهود كثير ، بلا حصر ، ولا عدّ .
والليالى من الزمان حبالى مُثْقَلَاتٍ ، يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبَةٍ
أتعرف الأشعث بن قيس ؟

لقد جاء ذكره في أكثر من موضع في هذا الكتاب . ولا نريد أن نردّد ذكره ، لما يبعث في النفس من أسى وحسرة .

ولكن ، ونحن نستحضر الشهود لتلك الحال التي صار إليها الناس في هذه الفتنة ، لا نرى بداً من أن نقدّم الأشعث هنا ، في خاتمة هذه المأساة ، التي انتهت بمقتل الإمام !

واقعد عرفنا دور الأشعث ، في التحكيم ، وأنه هو الذي أشار على عليّ بقبول التحكيم ، واضطراره إليه اضطراراً . . . ثم كان له بعد ذلك في جيش عليّ غدّوات وروحان ، يسعى فيها بين الناس ، بما يحدّثهم عن عليّ ، وعن حرب معاوية وأهل الشام ، طلباً للعافية ، والتماساً لما كان يطمحون به من خير مرجوٍ عند معاوية ، إن هم نصرّوه ، أو كفّوا أيديهم عنه !

والفعلة التي يقول رواة الأخبار إن الأشعث قد فعّلها ، وأنه شارك في قتل عليّ ، تبدو بعيدة ، لا يكاد يصدّقها العقل ؛ من رجل كان في ظاهر أمره جميعاً أنه من أصحاب عليّ ، وأنه هو وقومه يمثلون جانباً كبيراً من القوة التي يستند إليها الإمام في القتال ! ثم إن الأشعث — قبل هذا ، أو بعده — معدود من الصحابة ، الذين إن غلبت أحدهم نفسه على أن يلمّ ببعض الصفات ، فلن تغلبه بحال أبداً على كبيرة أو فاحشة ! فكيف بالقتل ؟ ويقتل نفس مؤمنة ؟ ويقتل عليّ بن أبي طالب ، ابن عمّ النبيّ ، وربيبه ، وزوج ابنته الزهراء ، وأول الناس إسلاماً ؟ إنها كبيرة الكبائر ، وعظيمة العظائم !

ولكن انذكر مع هذا أن الأشعث قد كان من المرتدين ، فلم تنفعه صحبته ، ولم تعصمه من أن يخرج من الإسلام ، الذي دخل فيه مُحَرَجاً ، وعاد إليه مغلوباً مكرهاً !

ولكن ما الحدث الذي أحدثه الأشعث ، وما الفعلة التي فعلها ؟

يقول صاحب الكامل :

« يَرُوى أن عبد الرحمن بن ملجم ، بات تلك الليلة ^(١) عند الأشعث بن قيس ! وأن حُجر بن عدي ^(٢) سمع الأشعث يقول له : « فَضَحَكَ الصَّبح ! ! »
« فلما قالوا : « قُتِلَ أمير المؤمنين » قال حُجر بن عدي للأشعث : « أنت قَتَلْتَهُ يا أعور ! »

« وَيُروى أن الذي سمع ذلك ، أخو الأشعث ، عفيف بن قيس ، وأنه قال لأخيه : « عن أمرك كان هذا يا أعور ! ! » ^(٣)

والأمر على شناعته ، وفظاعته ، ليس بالمستبعد على الأشعث ، ولا بالذي تدفعه عنه سيرته التي سارها في صحبة الإمام عليّ ، بل وفي صحبة الإسلام !
لقد أيقن « الأشعث » أن الأمر صائر إلى معاوية ، وأن يد الإمام أصبحت عاجزة عن أن تفال من معاوية شيئاً ، بعد أن خذله أصحابه ، وتخلّوا عنه .. والأشعث يعرف هذا معرفة محققة ، لأنه دائم التحكك بأصحاب عليّ ، وعلى اتصال دائم برؤسائهم وأصحاب الرأي فيهم ، يثيهم عن الحرب ، ويزين لهم السلامة والعافية ، وبطمعهم في البقيّة على شيء من المودة بينهم وبين معاوية !
ولهذا استطاع أن يفسد على عليّ ما أراد إصلاحه من أهل الكوفة ، حين خطبهم ، تلك الخطبة التي كشف لهم فيها عن عاقبة تخاذلهم عنه ، وفتورهم في دفع أهل الشام عنهم .. فما انتهى الإمام من خطبته حتى جَبَّهه الأشعث بهذه الطمعة النافذة .. فيلقى إليه بهذا السؤال اللثيم :

(١) أي الليلة التي عزم فيها على قتل الإمام .

(٢) كان من خيار الصحابة ، ومن الزهاد العابدين .. وقد قتله معاوية ، وجماعة من أصحابه ، وكان لقتله رنة حزن عميقة في سائر أمصار المسلمين .

(٣) الكامل لمبرد : ٢ - ١٥٢ .

« يا أمير المؤمنين .. لم لاتفعل كما فعل عثمان ؟

وما فعل عثمان إلا أنه قعد في داره ، وترك الشاغبين عليه يعمون ما يبداهم فيه .. فكان أن قتلوه !

وإذن ، فعلى الإمام على أن يدع الحرب ، وأن يسرح الجند ، وأن يفلق عليه بابه ، ينتظر جيوش معاوية تدخل عليه الكوفة ، وتقتحم عليه داره .. وعندها ، لا خيار له .. فإما أن يصبح رعية معاوية ، ويباع له بالخلافة ، وإما القتل ، الذي استوجبه خروجه على الخليفة الجديد الذي بايع له الناس ، ومنهم أهل العراق ، وأولهم الأشعث بن قيس !

والأشعث يعلم يقيناً أن الإمام لا يرضى بهذا ، ولو بقي في الميدان وحده .. ولكنه يرمى بهذه الكلمة ، لتثير في الناس بلبلة ، وتحدث في النفوس انكساراً ، وتوقع في العزائم فتوراً !

اشد مآلنى الإمام فى هذه الحياة من محن . واستقبل من بلاء .. ففضى حياته كلها فى جهاد عنيف متصل .. فى حياة الرسول ، وبعد حياته !

ويحسب المعجبون بسيرة الإمام — كرم الله وجهه — أن أبرز ملامح شخصيته ، وأوضح آثاره ، ما كان لسيفه فى رقاب المشركين ، فى بدر ، وأحد وغيرهما ، من الغزوات التى شهدناها مع النبىؐ ، وصرع فيها بسيفه من صرع من رموس الكفر ، وأئمة الضلال !

وأحسب أن ما ادخره الإسلام لعلىؑ ، بعد الرسول ، من حياة الدين ، والدود عن حرماته — لا يقلل خطراً ، وأثراً عما كان له فى قتال الكفار والمناققين . لقد جاهد علىؑ ، الكفار والمشركين ، حتى دخلوا فى دين الله ، وآمنوا بالله ، ورسوله ، والكتاب الذى أنزل على رسوله .

وهو في خلافته ، يجاهد مسلمين ، يأوتلون القرآن ، ويلقون إليه بمنارهم
وأهوائهم ، ويحملونها عليه !

وبهذا التأويل ، المختلط بالهوى ، تغلت الناس من عرى الدين ، وخرجوا
عن جادة الطريق ، وندافموا إلى دروب ومتاهات ، تباعد بينهم وبين الدين ،
خطوة بعد خطوة ، ويوماً بعد يوم !

يقول الإمام عليّ في إحدى خطبه عن معاوية وأصحابه : « لقد قاتلتهم من
قبلُ على تنزيله^(١) ، واليوم أقاتلهم على تأويله ! »

ولاشك أن مهمة الإمام هنا ، عسيرة أشد العسيرة ، إذ كان يقاتل في
ظروف مختلفة اختلافاً بيّناً ، عن تلك التي كان يقاتل فيها المشركين والكافرين
بين يدي الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .

كان يقاتل بين يدي النبيّ ، مسترشداً بهديه ، مستنصراً بفصر الله له !

وهو اليوم يقاتل عن رأيه ، وفي حدود مدركاته !

كان بالأمس يقاتل قوماً مشركين ، كافرين ، وهو اليوم يقاتل مسلمين ،
ومؤمنين !

كان بالأمس يقاتل في مطلع رسالة ، تزدد كل يوم علواً ، وقوة ، وتمكناً
وسعة ، وامتداداً !

وهو يقاتل اليوم ، والدعوة قد بدأت تميل نحو الغروب ، وأخذت حرارتها
تبرد في القلوب !

إن محاولة الإمام في الإمساك بحرارة الإيمان في قلوب المؤمنين ، لم تكن
لتتمّ إلا برسالة سماوية مجدّدة ، وذلك ما لم يكن ، ولن يكون !

لقد كانت الأيام حرباً على الإمام ، وكان الزمن أعدى أعدائه ، وأشدّ
أثراً في انعكاس أمره ، وفلّ حذمه !

فكل يوم يمضي ، كان يأخذ من أتباع الإمام ، ومن أوليائه ، كما يأخذ من
عمره .. حتى إذا كاد يستوفي أجله ، لم يكن في الميدان أحد غيره !

فإذا قضى الامامُ نحبّه ، كان ذلك إيذاناً بأن شمس النبوة قد غربت ،
وأن آخر شعاعة من شعاعاتها قد توارت ، وإن تعود !

ونعم ، فإنه بموت الإمام على — كرم الله وجهه — ، انتهى عهد ، وجاء
عهد .. انتهى عهد النبوة ، وجاء عهد الفترة ! وإنه بموت الإمام مضى دور
وجاء دور .. مضى دور الخلافة الراشدة ، وجاء دور الملك والسياسة !

خاتمة

نرى من الوفاء بحقّ هذا البحث ، وقد اتهمنا إلى غايته ، أن نقف وقفة قصيرة عند أمرين ، لا يكاد المرء يفرغ من هذا البحث ، حتى يجد لها وسواساً في صدره وبكلاً في خاطره ، أو اضطراباً في أمر دينه ومعتقداته .

فأولاً : هذه الحرب التي وقعت بين المسلمين في فترة النبوة ، وكان على رأسها جماعة من صحابة رسول الله ، فيهم أهل السابقة في الدين والهجرة ، والجهاد في سبيل الله كعليّ ، وطليحة والزبير ، وعمار بن ياسر ، وسهل بن حنيف ، وعثمان بن حنيف ، وغيرهم . .

فكيف بهؤلاء الصّفوة الأخيار يحارب بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً ، وهم بُناة الدين ، وشموسه المضيئة في المسلمين ؟ .

ثم لم كانت هذه الحرب ؟ وما حظ الدين أو الدنيا منها ؟ .

وثانياً : هذا الصراع الذي كان بين الدين والدنيا ، وبين أهل الدين وأصحاب الدنيا . . كيف يستعلّي فيه الباطل على الحق ؟ وكيف تنهزم فيه المثل العليا ، وتسقط رايتهما ، في معركتها الأولى ، مع من يستخفون بتلك المثل ، ويتخفّون من مثولتها ؟ .

وسننظر في هذين الأمرين ، كلٌّ على حدة ! .

أولاً : القتال بين المسلمين

هذه قضية ، كثير القول فيها ، واختلفت الآراء حولها ، فأنكر بعضهم أن يكون بين المسلم والمسلم ، قتال ، لقول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل المسلم على المسلم حرام ، دمه ،

وماله ، وعرضه » بل لقد ذهب بعضهم إلى أكثر من هذا ، فأخرج المقتاتين من الإسلام ، أقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، فقتل أحدهما صاحبه ، فالقاتل والمقتول في النار ! فقل هذا القاتل ! فما بال المقتول ؟ قال : كان حريصاً على قتل صاحبه ! » .

والذين نظروا في القصية من هذا لوجه ، كانوا يمدون أبصارهم إلى هذا القتال الذي وقع بين صحابة رسول الله في حرب الجمل وصفين ، وما قُتل فيهما بأيدي هؤلاء الصحابة أو بأيدي أنصارهم ! إذ كان ذلك أول قتال بين المسلمين ، ومع أهل السابقة ، وأصحاب الفضل فيهم .

وقد كان من شأن هذا القتال ، الذي وقع بين هؤلاء القمم العلية ، من أصحاب رسول الله - كان من شأنه أن يجعل ذلك أمراً من أمور الناس ، وشأناً من شئون الحياة ، وأنه ليس للناس - مهما بلغوا من الإيمان والتقوى - قدرة على التحول عن طبائعهم ، وما يقع بين هذه الطبائع من اختلاف ! وأنه إذا كان الصحابة لم يقدرُوا على تسوية ما وقع بينهم من خلاف ، إلا بالاحتكام إلى السيف ، فإن ذلك معه أنه لو وقع بين المسلمين قتال ، لم يكن ذلك - على ما فيه من إثم وحرمة - الذي يُخرج المسلم عن إسلامه ، وإلا كان العنتُ والخرج ، والتكليف ذلك ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » ويقول سبحانه « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وإن مما لا تنسح له النفس البشرية أن تتجرد من نوازع المشاقة والاختلاف ، وأن تحمل على الوفاق والمساكلة ، في كل زمان ، وعلى أي حال ! - ولكن بدلاً من أن يكون هذا القتال الذي وقع بين الصحابة ، داعية إلى قبوله ، والتسليم به كأمر واقع في الحياة - كان سبباً قوياً إلى إنكاره ، والمبالغة في هذا الإنكار ، إذ كان الرأي في الصحابة أنهم في عصمة ، أو شبه عصمة

من أن يلقوا بالصغائر ، فكيف بهذا الجرم ، الذى تنكره ، وتجزمه جميع الشرائع السماوية والوضعية جميعاً ؟ .

والصحابة - قبل كل شئ .. بشر ، يعيشون على أرض البشر ، وفي دنيا الناس ، وهيهات أن يسألهم الناس ، إذا هم سألوا الناس ! .

وهل أمِنَ الأخيارُ سطوةَ الأشرار ؟ وهل سَلِمَ المعاقونُ في دينهم ، وفي خلقهم ، من تطاول أهل السفاهة والبغى عليهم ؟ .

فماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يلقى من قومه ما لقي من ضروب الضرِّ ، وأقانين الأذى ؟ وماذا فعل الأنبياء ، ودعاة الإصلاح ، ليكونوا في وجه العداوة والبغضة ، عند مَنْ يمدّون إليهم أيديهم بالهداية والرشاد ؟ .

أن يَسَلِّمَ الناسُ منك ، أمرٌ مستطاع ، مقدور عليه .. أمّا أن تسَلِّمَ أنت من الناس - وأنت مع الناس - فذلك هو المستحيل الذى لا سبيل إليه ! .

ويسأل سائل : أبجلّ قتال المسلمين ؟ .

والجواب ، لا ، وبلا تردد ! .

ولكن ليس كل ما يكره وقوعه لا يقع ، وليس كل ما لا يحلّ فعله لا يُفعل ! .

وفي الشرّ خيار .. !!

وقد يُدفع الشرّ بالشرِّ ، وقد يُدفع بالشر ما هو أكثر شرّاً منه ! .

القتال على جميع صُوره شرّ .. !

ولكنه قد يبدو في مقابل شر آخر ، عملاً مبروراً ، يرفع أصحابه إلى مقام

الصديقين والشهداء ! .

فالقِتالُ في سبيلِ الله . . بينَ المسلمين والكافرين ، هو في ذاته وجه كُريه
وشر ظاهر . ولكنّه يدفعُ شراً مستطيّراً وبلاءً عظيماً ، هو الكفر ، الذي
دونه الموتُ شناعةً ، وشوْماً على صاحبه ! .

وبعضُ السُّمِّ ترياقٌ لبعضٍ وقد يشفى العضالُ من العضالِ
والقتالُ حينَ يكونُ بينَ طائفتين من المسلمين بَغَتْ إحداها على الأُخرى ،
هو أمر كُريه شنيع ! ولكنّه - على كراهيته وشفاعة ، يدفعُ فتنةً ، ويردعُ
مفتونين ! .

وفي الشرِّ نَحْماءٌ حَيَّةٌ لا يَنْجِيكَ إِحْسَانُ
يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ،
فَأُصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ، فَقَاتُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ
إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأُصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ ^(١) » .

يقول : فسَماهم مؤمنين ، مع الاقتتان !! وبهذا استدلَّ « البخاري » على أنه
لا يُخرجُ المؤمنُ عن الإيمان بالمعصية ، وإن عظُمت ، لا كما يقول الخوارج ،
ومن تابعهم من المعتزلة .

« وكذا ثبت في صحيح البخاري ، عن أبي بكر - رضي الله عنه - قال :
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خطب يوماً ، ومعه على المنبر ، الحسنُ بن علي ،
رضي الله عنهما ، فجعل ينظر إليه مرة ، وإلى الناس أُخرى ، ويقول : « إن ابني
هذا سيّد ، ولعلَّ الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » . .

فكان كما قال صلى الله عليه وسلم . . أصلح الله تعالى به أهل الشام ، وأهل العراق ، بعد الحروب الطويلة ، والواقعات المهولة^(١) .

وقال ابن حزم ، في كتابه « المحلى فى » شرح هذه الآية : « فكان قتال المسلمين فيما بينهم على وجهين : قتال البغاة ، وقتال المحاربين .

« فالبغاة قسمان ، لاثالث لهما . . إما قسم خرجوا على التأويل فى الدين فأخطئوا فيه ، كالخوارج ، وما جرى مجراهم ، من سائر الأهواء المخالفة للحق . وإما قسم أرادوا لأنفسهم دنيا ، فخرجوا على إمام حق ، أو على من هو فى السيرة مثلهم . . فإن تعدت هذه الطائفة إلى إخافة الطريق ، أو إلى أخذ مال من لقوا ، أو سفك الدماء هملًا ، انتقل حكمهم إلى حكم المحاربين ، وهم ما لم يفعلوا ذلك فى حكم البغاة^(٢) »

وقال الشوكانى ، فى نيل الأوطار :

« قال فى الفتح^(٣) : « وذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نصرة الحق ، وقتال الباغين . . وسئل هؤلاء^(٤) ، الأحاديث الواردة فى ذلك^(٥) ، على من ضعف عن القتال ، أو قصر نظره عن معرفة صاحب الحق . . واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة ، بسبب ما وقع لهم من ذلك ، ولو عُرِف الحق منهم . . لأنهم لم يقاتلوا فى تلك الحروب ، إلا عن اجتهاد ، وقد عفا الله عن الخطيئة فى الاجتهاد ، بل ثبت أنه يُؤجر أجرًا واحدًا ، وأن المصيب يُؤجر أجرين .

« قال الطبرى : « ولو كان الواجب فى كل اختلاف يقع بين المسلمين ، الحرب منه ، بلزوم المنازل وكسر السيوف ، لما أُقيم حق ، ولا أبطل باطل ، ولوجد أهل الفسوق سبيلا إلى ارتكاب المحرمات . . من أخذ الأموال ،

(١) تفسير ابن كثير - الجزء الرابع « الحجرات »

(٢) المحلى . . لابن حزم . . جزء ١١ ص ١١١ . (٣) فتح القدير : للعسقلانى .

(٤) أى جمهور الصحابة والتابعين . (٥) أى فى النهى عن قتال المسلمين .

(م ٣٧ - على بن أبى طالب)

وسفك الدماء . وسبي الحرائر ، بأن يحاربوا هم ، ويكف المسلمون أيديهم
ويقولوا : « هذه فتنة . وقد نهينا عن القتال فيها ! » وهذا يخالف الأمر
بالأخذ على أيدي السفهاء ! »

« قال الحافظ بن كثير : ومن ثم كان الذين توقفوا عن القتال ، في
الجلل وصفين ، أقل عدداً من الذين قاتلوا ، وكلهم متأول مأجور . . بخلاف
من جاء بعدهم ، ممن قاتل على طلب الدنيا . »

ثم يعلق الشوكاني على رأى « الحافظ » فيقول : « وهذا يتوقف على
بيات جميع المقتولين في الجلل وصفين ، وإرادة كل واحد منهم الدين ، لا الدنيا ،
وصلاح أحوال الناس ، لا مجرد الملك ، ومناصفة بعضهم لبعض ، مع علم بعضهم
بأنه المبطل ، وحصمه الحق . . ولا سيما في حق من عرّف منهم الحديث
الصحيح ، أنها تقتل عماراً الفئة الباغية ، فإن إصراره بعد ذلك على قتال من
كان معه عمار ، معاندة للحق ، وتمادي في الباطل ، كما لا يخفى على منصف ! »^(١)
من هو الصحابي :

وهنا يحسن بفا أن يشير إلى حقيقة ربما كان إغفالها في هذا المقام ، يُلْبِس
الأمر في مفهوم « الصحبة » ، وبفسد المعنى المقصود بالصحابي ، وفي هذا ما فيه ،
من تشويش على صحابة رسول الله ، الذين عناهم الرسول الكريم بقوله :
« أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » وقوله : « الله في أصحابي .. »
وهؤلاء الصحابة الذين عناهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — لم يذكرهم
باسمائهم ، واحداً واحداً . . ولهذا اتسعت دائرة الصحبة حتى شملت كل من
لقى رسول الله ، ولو مرة واحدة ! كما يقول بذلك البخاري ، وغيره .
ومن هنا دخل في مجتمع أصحاب رسول الله أقوام لم يكونوا أهلاً لتلك
الصحبة ، بل لم يكونوا أهلاً للانتساب إلى الإسلام !

فهذا عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، أسلم قبل الفتح ، وهاجر إلى المدينة ، وكان من كتب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قد ارتدّ مشركا ، وعاد إلى مكة يحدث قريشاً الكذب عن رسول الله ، ويقول : كنت أصرف محمداً حيث أريد .. كان يملئ عليّ : « عزيز حكيم » فأقول : أو « عليم حكيم » ! فيقول : نعم ، كلُّ صواب ! !

وفيه نزل قول الله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحى إلىّ ، ولم يُوحَ إليه شيء .. الآيات »

فلما كان يوم الفتح أهدر الرسول دمه .. ثم شفع فيه عثمان رضي الله عنه ! وهذا ثعلبة بن أبي حاطب .. كان ممن شهد بدرًا وأحدًا !

وكان ثعلبة من فقراء المهاجرين ، ومن المجتهدين في العبادة . . وقد سأل رسول الله أن يدعو الله ، أن يرزقه مالاً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحك يا ثعلبة ! قديلاً تشكره ، خير من كثير لا تطيقه » .

فقال ثعلبة : « والذي بعثك بالحق نبياً ! إن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ارزق ثعلبة مالا »

فكثر ماله كثرة شغلته عن العبادة ، وألهته عن ذكر الله ، ثم مازال يبعد عن الإسلام شيئاً شيئاً ، حتى منع الزكاة ، بعد أن ترك الصلاة ، وفيه نزل قوله تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقنّ وانكوننّ من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله ، بخلوا به ، وتولّوا ، وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون » ^(١) وكثير ممن كانوا في مجتمع الصحابة مع رسول الله ، كانوا يظهرون الإيمان ، ويخفون ما في قلوبهم من كفر ، ونفاق .. وفيهم نزل قول الله تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ،

والله يشهد إن المنافقين لكاذبون^(١) . . وقوله سبحانه : « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ، قل أذنٌ خير لكم » . . وقوله جل شأنه : « ومن حوكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة . . مرّدوا على الففاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنُعَذِّبُهُمْ مرتين ، ثم يُرَدُّونَ إلى عذاب عظيم^(٢) »

وقد لحق الرسول بالرفيق الأعلى ، وانقطع الوحي الذي كان ينزل بما يفضح المنافقين ومن في قلوبهم مرض ، فبقى حال كثير من هؤلاء دون أن يكشف لهم ستر ، وحسب كثير منهم في صحابة رسول الله ، يدّعي الناس بهذا الشرف العظيم ، وبمسك به في قوة ، دون أن يعطى تلك الصحبة حقها من الإيمان الوثيق بالله ، والاستقامة على طريق الحق ، والخير !

مثل هؤلاء هم الذين أردنا أن ننبه اليهم هنا ، وأن نفرق بينهم وبين صحابة رسول الله ، الذين كانوا أهلاً للانتساب إلى الرسول ، والانتفاع بصحبته والاستقامة على طريقته !

وبهذا نعرف قدر الصحبة ، ونضع الصحابي موضعه الصحيح ، الذي ينبغي أن يكون له في قلب كل مسلم !

فهناك صحابة ذكرهم الرسول ذكراً خاصاً ، وكشف عما لهم عند الله من رضى ورضوان ، ومنهم العشرة المبشرون بالجنة ! فهؤلاء فوق كل حساب ، وكل عتاب !

أما من لم يكن على تلك الصفة ، ولم يكن لرسول الله فيه قول قاطع بعدالته ، وسلامته ، فهو في معرض النظر والتحيص ، وفي مجال التعديل أو التجريح ، والحد أو الدم . . شأنه في هذا شأن الناس جميعاً . . لا تشفع له الصحبة أو تدفع عنه اللوم أو الدم ، إن هو فعل ما يوجب لوماً أو ذمّاً ، بل إن صحبته ،

(١) سورة المنافقون : ١ (٢) سورة التوبة : ٦١

(٣) سورة التوبة : ١٠١

أو لقاءه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليجعل صفائر أموره كبائر ، إذ لم يحسن الانتفاع بتلك الصحبة ، ولم يرع لها حقها .. فهو لهذا أولى الناس باللوم ، إن هو فعل ما يوجب اللوم ، وأحقهم بالموأخذة إن قارف ما يؤاخذ عليه !

إن مما يُرَكَّى الصحبة ، أن يكون معها من الإحسان والتقوى أكبر قدر تنسع له النفس البشرية ! ثم بقدر ما في نفس الصحابي من تقوى وإحسان تكون منزلته بين الأخيار من صحابة رسول الله ، ومكانته في الإسلام وفي المسلمين .. يقول الله تعالى في أصحاب الرسول ، الذين أثنى عليهم الجراح يوم أحد ، ثم لم يقعد بهم ذلك عن حمل السلاح ، حين دعاهم رسول الله ، إلى الخروج ، واقتفاء العدو .. « الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ^(١) » .. فليست الصحبة ، وليس القتال في سبيل الله ، والتعرض للقتل ، مما يؤهل الإنسان لهذا الأجر العظيم ، وإنما ذلك لمن فعل هذا ، ثم أحسن واتقى ، ولزم الإحسان والتقوى !

ويقول الإمام - علي - كرم الله وجهه - في معرض الحديث عن الذين يكذبون على رسول الله ، ويتسترُونَ وراء صحبتهم له ، واتصلهم به - يقول :
« إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً ، وصديقاً وكذاباً ، وناسخاً ومنسوخاً ، وعاماً وخاصاً ومُحكماً ومنشأها ، وحفظاً ووهماً .. ولقد كُذِبَ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، على عهده ، حتى قام خطيباً فقال : « من كَذَبَ عليّ ميعَداً ، فليقبوا مقعده من النار » .

ثم يذكر الإمام أصناف رواة الأحاديث ، ونقله الأخبار ، فيقول :

« وإنما أناك بالحديث أربعة رجال ، ليس لهم خامس :

« رجل منافق ، مُظهر للإيمان ، متصنع للإسلام لا يتأثم ، ولا يتحرج ،

يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمداً !! فلو علم الناس أنه منافق

كاذب لم يقبلوا منه ، ولم يصدقوا قوله . . . ولكنهم قالوا : صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ، رأى وسمع منه ولَقِيَته عنه ، فيأخذون بقوله ، وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك ، ووصفهم بما وصفهم به لك ، ثم بقوا بعده ، عليه وآله السلام ، فتقرنوا إلى أئمة الضلالة ، والدعاة إلى النار : بالزور والبهتان ، فوثقوا الأعمال ، وجعلوا حُكماً على رقاب الناس ، وأكلوا بهم الدنيا ، وإنما الناس مع الملوك والدنيا ، إلا من عصم الله ... » ^(١).

* * *

والذي نريده من هذا الحديث هو أن نعرف من هو صاحب رسول الله ، المستأهل لشرف هذه الصحبة ، الحفيظ على تمثيل حلال النبوة وعظمتها ، الحريص على اتباع هدى النبي واقتفاء أثره . . . فهذا هو الصحابي الذي نرعى له حق الصحبة ، وقد رعاها ، ونرفع قدره وقد رفع هو نفسه بها .

أما من صحب رسول الله ، أو رآه ، أو سمع منه ، ولم يكن له نصيب من نفحات النبوة وطيبها ، يحده الناس في قوله وفي عمله ، فليس بصاحب رسول الله ، ولو طالت صحبته ، وأدخل نفسه ، أو أدخله الناس في مجمع الصحابة ! وبهذا نعرف وجوه أصحاب رسول الله ، ولا ترتاب في أمرهم ، ولا ندع شيئاً من دخان هذه الفتنة يعمق في سمائهم الصافية المشرقة ! .

فطلحة والزبير ، وإن اختلفا مع الخليفة ، وقاتلا ، هما بالمنزلة التي وضعهما الرسول فيها ، وعلى الوصف الذي وصفهم به ! إنهما من أهل الجنة ، وللجنة عملوا !! .

وسعد بن أبي وقاص ، وإن أمسك عن البيعة ، فشأنه في هذا شأن علي حين أمسك عن بيعة أبي بكر . كانت له حجته ، كما كانت لعلي حجته ! . فهو لا الثلاثة ممن قد وعدوا بالجنة ، وسبقت لهم من الله الحسنى ، لن يعملوا إلا ما كان حسناً طيباً ، يُدنى من الجنة ، ويُرَافُ إليها ، مصداقاً

للتحديث « . اعملوا فكل ميسر لما خلق له ^(١) » .

أما غير هؤلاء ، من صحابة رسول الله ، ممن لم يُبَشَّرُوا بالجنة ، فليس لهم هذا الحساب ، الذى يرفع أعمالهم عن الحساب والمناشفة ، بل إن لنا أن ننظر فى أعمالهم ، وعرضها معرض النظر والبحث ، ونزنها بميزان الحمد أو الذم والإحسان أو الإساءة .

وإذن ، فلا نأسى كثيراً ولا نؤسئ الظن بأصحاب المثل العليا ، حين نشهد حلال تلك الفتنة أناساً ممن كانت لهم صحبة ، قد زلوا ، أو ضلوا ، أو لجؤا فى الضلال ! ! فشانهم فى هذه شأن سائر الناس ، فى كل زمان وفى كل موطن ! .

* * *

وإذن أيضاً ، فلا نتحرج من قولة الحق ، نقولها صريحة ، فى هذا الخلاف الذى كان بين على ومعاوية ، وأن نرى معاوية فى هذا الموقف الذى وقفه من على ، وفى هذه الحرب الظالمة التى لقيه بها خارجاً على سلطان الخلافة ، يريد لنفسه سلطاناً ، ويقيم له ولقومه دولة ! .

هذا هو ما تنطق به الأحداث ، وتفصح عنه صف التاريخ !

ولكن ما كان لمعاوية من صحبة قد جعل كثيراً من العلماء والفقهاء يحاولون أن يسووا هذا الخلاف الذى كان بينه وبين على وجه مقارب ، لا يعرف فيه الحق من المبطل ، ولا من كان مع الدين ومن كان مع الدنيا ! . فابن حزم الأندلسى ، مع ما عرف من جرأته ، وصراحته ؛ يحكم فى هذه القضية حكماً مشوباً بالغموض والتعمية . . فيقول :

« وإنما كان الحق فى ذلك بيد على ، لا بيده (أى معاوية) ، وإنما كان معاوية مجتهداً مخطئاً ، مأجوراً فقط ! ! » ^(٢) .

وماذا نقول لابن حزم ؟ وهل هو فى حاجة إلى من يقول له فى هذه مضلات ؟ فكيف بالبدعيات ؟ .

وهل نجرو أن نقول لابن حزم : « إنه لا اجتهاد مع النص » وهو مبدأ فقهي يردده ابن حزم في كل مسألة يعرض لها ؟ .

وهل نجرو أن نقول : إن ابن حزم غاب عنه النص هنا ؟ أذلك ممكن أن يكون ؟ ومع ابن حزم ؟ .

وهل نصراً أصرح وأبين من « عمار بن ياسر » ؟ ألم يجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم آية على الفتنة المأغية ، التي تتولى قتلها ، وعدلاً منصوباً على البغاة الذين يقتلونه ؟ . فهل يكون معاوية ، وقد قتلت فتنة عماراً — هل يكون مجتهداً ؟ .

وهل يحتاج الأمر — بعد هذا — إلى اجتهاد ؟ ، إنه لا اجتهاد مع النص ، كما يقرر ذلك الفقهاء ، وعلى رأسهم ابن حزم ! .

وإن ابن حزم لم يغب عنه شيء من هذا ، ولكنه — فيما أرى — لم يشأ أن يشير عليه ثائرة العوام ، الذين يتولون جميع الصحابة بالرضا ، وخاصة إذا كان هذا الصحابي من بنى أمية الذين أقاموا دولة الأندلس ، التي كان ابن حزم من أبنائها ، وبين أهلها !

وهذا الموقف نفسه وقفه ابن خلدون ، الذي لا يقل عن ابن حزم المصيبة ، وذكاء ، ونفاذ بصيرة .

يقول ابن خلدون :

« ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية ، وهي مقتضى العصبية ، كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي ، ولا لإيثار باطل ، أو لاستشعار حقد ، كما قد يقوم متوهم أو ينزع إليه ملحد ! ! وإنما اختلف اجتهادهم في الحق ، وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق ، فاقتتلوا عليه ! !

ثم يقول ابن خلدون :

« وإن كان المصيب علياً ، فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل »

ولئنا قصد الحق وأخطأ ، والكل كانوا في مقاصدهم على حق! ^(١) .
 وأى حق هذا ؟ إن يكن من واردات السياسة ، وتدير الملك فذلك
 ممكن أن يكون له محمل على هذا الوجه . . أما أن يكون هذا الحق من وحى
 الدين ولحساب الدين ، فذلك ما لا يكون ١١ .

لقد أقام معاوية بهذا الحق دولة ، ومَلَك ملكاً ، جعله ليده ، ولأبنائه ،
 وأهله من بعده ، يتوارثونه كما يتوارث الأبناء ما ترك آباؤهم من مال ومتاع !
 وفي سبيل ذلك ركب معاوية كل صعب وذلول ، وسلك كل قويم ومموج ،
 يصل به إلى غايته التي تفتياها ، ورصد لها كل حول وحيلة !

وعلام قاتل عمرو ابن العاص ؟ ألم يفتسم مع معاوية الملك المقبل ،
 فذهب بملك مصر ، سلطاناً وخراجاً ، لا يرجع إلى الخليفة في أمر من
 أمورها ، ولا يدفع إليه من خراجها قليلاً أو كثيراً ؟

أكان ذلك اجتهاداً في سبيل قضية من قضايا الدين ، أم كان سعياً وراء
 مطلب من مطالب الدنيا ، وحاجة من حاجات النفس ؟

* * *

ومع هذا فإننا لانلوم معاوية أو عمرأ ، ولا نحمليهما تبعة ما تفرضه الحياة في
 تطورها وتقلبها ، فقد كانا ابني زمانهما ، بل كانا وجه الطليعة الطيبة في هذا
 الزمان ، الذي بدأ يأخذ طريقه من القمة إلى السفح ، ومن السماء إلى
 الحضيض !

ثانياً — بين الدين والدنيا

والأمر الآخر الذي نريد أن ننبه إليه هنا ، هو هذا الصراع الذي كان
 بين الدين والدنيا ، وبين أهل الدين وأصحاب الدنيا ، وكيف استعلى فيه الباطل
 على الحق ، واستولت به الدنيا على دولة الدين ؟

لاشك أن علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — كان على رأس طائفة

الحق ، المبغى عليها ، وأن معاوية ، كان رأس الفئة الباغية ، وأرد ذلك إن يكن فيه شيء من الشك قبل مقتل عمار بن ياسر ، فإنه قد أصبح يقيناً بعد مقتله ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار : « إنما تقتلك الفئة الباغية » وقد قتله معاوية وأصحابه ! فهم الفئة الباغية ، رأى العيين . . وقد ظلوا على موقفهم بعد مقتل عمار ، وتأولوا لذلك هذا التأويل الساحر : فقالوا « نحن لم نقتله ، وإنما قتله الذين أخرجوه ! ! » وهل أخرج عمار قسراً ، حتى يكون لهذا التأويل ما يستر بعض وجهه المفضوح ؟

إن عماراً أكبر من أن يكون تبعاً لأحد . في أى أمر يتصل بدينه ، وما يمتحن به هذا الدين !

ومن جهة أخرى ، فقد رأينا علناً يلتزم طريق الحق في كل خطوة بخطوها في الحرب بينه وبين معاوية ، على حين رأى معاوية يتوسل بكل وسيلة ، ويضرب بكل سلاح ، في سبيل كسب المعركة ! حتى انتهى الأمر إلى خدعة للمصاحف ، ونحكيم الحكّمين ، وما انتهى إليه أمر هذا التحكيم ! وليس بمتكور في هذه الحياة أن يهزم الحق في بعض معاركه مع الباطل ، فالحق والباطل ، في صراع متصل متلاحم ، ينتصر هذا مرة ، وينتصر ذاك أخرى ، ولو كان النصر لأحدهما ، ضربة لازب ، لانتهى هذا الصراع القائم في الوجود منذ الجولة الأولى ، ولسكن ربح الحياة ، ولجذت جذوة الكفاح ، التي تدفع مواكب الناس في ازدحام متلاحم !

إن الحياة ، على هذا الكوكب الأرضي محكومة بهذا الصراع الأبدي ، بين قوى الخير والشر ، في ميزان تتراجع كفتاه ، وتضطربان ، هكذا أبداً . .

صعوداً وهبوطاً ، وذلك هو سر الحركة المولدة لكل نمر في دنيا الناس ! وهزيمة الحق في أروع مظاهره وأكملها ، ليست بالتى تنقص من قدره ، أو تقلل من خطره ، وإنما ذلك دليل على أنه قد بلغ الغاية في دورته ، وأنه استكمل كل مظاهر وجوده ، وأنه كما أخذ طريقه صعوداً ، سيأخذ نفس الطريق

نزولا .. حتى تتم دورة كاملة من دورات الزمن ، ثم ليبدأ دورة جديدة ، وهكذا .
والصراع الذى كان بين على ومعاوية كان التحاماً بين دورتين من
دورات الحياة ، دورة الدين وقد بلغ ذروته ، واستكمل وجوده ، ودورة الدنيا
وقد بدأت تأخذ الأفق الذى احتمله الدين ، وتجليه عنه .. إنها أشبه بدورة الليل
والنهار .. يقفنا سخان . ويقفنا قبان ! !

كان معاوية مقدمة طبيعية للحياة المقبلة . التى لم يكن للدولة الإسلامية .
بداً من المصير إليها . تلك الحياة التى تختلط فيها عند الناس مشاعر الدين
بالدنيا ، والتى كلما مضى الزمن بها ، غلبت الدنيا على الدين ، شيئاً شيئاً ، حتى
تجليه عن مكانه من القلوب ! ثم تكون للدين دولة ، وتقوم بعدها للدنيا
دولة ، وهكذا دواليك !

ونحن إذ ننظر إلى معاوية ، وإلى عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة
وغيرهم ممن عدوا فى الصحابة — إذ ننظر إليهم فى مواجهة على بن أبى طالب
أو فى مقابلة وعثمان ، أو عمر أو أبى بكر ، رضى الله عنهم — فإننا ننكر عليهم
كثيراً من أمورهم ، ونعدّ آية صغيرة منهم ، كبيرة ، منكراً ، شفاء !

ولكن إذا نظرنا إلى معاوية ومن كان على طريقته فى مواجهة الخلفاء
الذين جاءوا من بعد ، من أمويين ، وعباسيين — لانسقننى غير عمر بن
عبد العزيز — رأيتهم فى منزلة أشبه بالمنزلة التى للخلفاء الأربعة الراشدين
بالنسبة لهم !

فلقد استبدّ الخلفاء والوزراء ، والحجاب ، بأموال الدولة ، واستباحوا
الحرّمات ، فى غير تخرج أو تأثم .. حتى أن البيت الحرام ليهدم بيد الحجاج الثقفى
ويُرمى بالجانيق ، فيتساقط جُدره ، وتُحرق ستره ، ويتحول إلى كومة من

تراب ! وحتى لتستباح مديقة الرسول وأهلها أكثر من مرة ، وحتى ليقتل الأطفال ، تشفياً وانتقاماً !

وإذن فالمعركة التي كانت بين علي ومعاوية ، لم تكن بين الدين والدنيا ، بقدر ما هي بين دورتين من دورات الحياة ، الغلب فيها لمن كان متقبلاً للدورة المقبلة ، متحارباً معها ، متزياً بزيها !

وإن لكل زمن دولته ورجاله ، وفي الأثر : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بأبائهم ! » فمن عاش في غير زمنه ، عاش غريباً ، وبات على حافة الضياع والمهلك !

ولكن مع هذا فإن ما يقوم على الحق ، باقٍ ، لا يزول ، وإن زال أهله ، وذهب القائمون عليه ، وذلك فيما يخلف وراءه من مثل كريمة ، في الاستملاء على نزعات النفس ، والغلبة على أهوائها .. وبهذا يظل أصحاب هذه المثل أحياء في هذه الحياة ، يذكروهم الناس أبداً ، ويجدون في ذكراهم أنساً في كل وحشة ، وعزاء عند كل مصاب !

أفليس ذلك بالجزاء الحسن لأهل الحق ، وأنصاره . ؟ أو ليس ذلك هو النصر الأكبر ، الذي يزرى بكل نصر في ميدان القتال ، من أجل ملك زائل أو سلطان ذاهب ؟

وانظر كيف انتهى الأمر بعلي وشيعته من جهة ، ومعاوية وأشياعه من جهة أخرى . . . !

لقد ولي بنو أمية الملك ، وامتد ملكهم نحو تسعين عاماً ، كان أكبر همهم فيها التعفية على آثار علي وآل بيته .. واستخدموا لهذه الغاية كل سلاح ، ونوسلوا إليه بكل وسيلة ، وأجلبوا عليه بكل قوة ، وإذا بهم وكأنهم إنما رسخون في قواعد هذا البناء ، ويزيدونه علواً إلى علو ، وامتداداً إلى امتداد !

لقد أقام معاوية وخلفاؤه من بعده ، من بنى أمية ، منابر يتناوب عليها الخطباء في سبّ عليّ ، وفي افتراء الأباطيل للنيل منه ، والزراية عليه ، فما نالوا من ذلك مزالاً ، ولا حوّلوا أحداً عن حبّه ، والولاء له ولآل بيته ، على تعاقب الأزمان ، واختلاف المصور !

يقول أبو جعفر الإسكافي ، في كتابه : نقض رسالة العثمانية للمجاهظ :
« فكانوا (الأمويون) لا يألون جهداً في طول مُلكهم ، أن يُخملوا ذِكرُ عليّ عليه السلام ، وولده ، وبطفئوا نورهم ، ويكتموا فضائلهم ، ومناقبهم ، وسوابقهم ، ويحملوا على سبّهم ولعنهم على المنابر . . . قلم يزل السيف يقطر من دمائهم ، مع قلة عددهم وكثرة عدوّهم ، فكانوا بين قتيل ، وأسير ، وشريد ، وهارب ومُسْتَحْفَظ ذليل ، وخائف مترقب ، حتى أن النقيع ، والمحدث والقاص ، والمتكلم ، لِيَتَقَدَّمَ إليه ، ويتوعّد بغاية الإبعاد ، وأشدّ العقوبة ، ألا يذكروا شيئاً من خصائصهم ، ولا يرخصوا لأحد أن يطيف بهم ، وحتى بلغ من تقية المحدث ، إذا ذكر حديثاً عن عليّ بن أبي طالب — عليه السلام — كفى عن ذكره ، فقال : قال رجل من قريش ، وفعل رجل من قريش ، ولا يذكر علياً ، ولا يتفقوه باسمه !

« ثم إن جميع المختلفين ، قد حاولوا نقض فضائله ، ووجهوا الحيل والتأويلات نحوها . . من خارجي مارق ، وناصبي حَنِق ، وناشيء معاند ، ومنافق مكذّب ، وعماني حسود ، يعترض فيها^(٢) ويطعن ، ومعتزلي ، قد نظر في الكلام ، وأبصر علم الاختلاف ، وعرف الشُّبه ، وموطن الطعن ، وضروب التأويل — قد التمس الحيل في إبطال مناقبه ، وتأويل مشهور فضائله

(١) التقية ما يتقى ، ويخاف .

(٢) أي في فضائله .

فمرة يتأولها بما لا يحتمل ، ومرة يقصد أن يضع من قدره بقياس منقصر ،
ولا يزداد مع ذلك إلا قوة ورفعة ، ووضوحاً واستنارة !
ثم يقول أبو جعفر أيضاً :

« وقد علمت أن معاوية ويزيد ، ومن جاء بعدهما ، من بني مروان ، أيام
ملكهم ، لم يدعوا جهداً في حمل الناس على شتمه ، ولعننه ، وإخفاء فضائله
وستر مناقبه وسوابقه .

« روى عن عبد الله بن ظالم أنه قال : لما بويع لمعاوية ، أقام المغيرة بن
شعبة خطباء ، يلعنون علياً .. فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل : « ألا ترون
إلى هذا الظالم يأمر بلعن رجل من أهل الجنة ؟

« وعن أبي بكر بن عبد الله الأصماني ، قال : كان لبني أمية دعي ،
يقال له ، خالد بن عبد الله (القسري) ، لا يزال يشتم علياً ، فلما كان يوم الجمعة
وهو يخطب الناس قال : والله إن كان رسول الله ليستعمله ، وإنه ليعلم ما هو ،
ولكنه كان ختته^(١) ! ! وقد نكس سعيد بن المسيب ، ففتح عينيه ، ثم قال :
ويحكم ! ما قال هذا الخبيث ؟ رأيت القبر انصدع ، ورسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : كذبت يا عدو الله ! »

« وقال ابن لعامر بن عبد الله بن الزبير لولده : « يا بني . . لا تذكر علياً
إلا بخير ، فإن بني أمية لعنوه على مفابرهم ثمانين سنة ، فلم يزد الله بذلك
إلا رفعة !

« إن الدنيا لم تبث شيئاً قط إلا رجعت عليه فهدمته ، وإن الدين لم يبث
شيئاً قط وهدمه !

ثم يقول أبو جعفر : « فحرصوا واجتهدوا (أى بنو أمية) فى إخفاء فضائله ، وحملوا الناس مع كتمانها وسرها ، وأبى الله إلا أن يزيد أمره وأمر ولده استغارة وإشراقاً ، وحبهم إلا شغفاً وشدة ، وذكهم إلا انقشاراً وكثرة ، وحبهم إلا وضوحاً وقوة ، وفضلهم إلا ظهوراً ، وشأنهم إلا علواً ، وأقدارهم إلا إعظاماً ، حتى أصبحوا بإهانتهم إياهم أعزاء ، وبإماتتهم ذكهم أحياء ، وما أرادوا به وبهم من الشر ، تحول خيراً ، فاتمى إليفاً من ذكر فضائله ، وخصائصه ، ومزاياه ، وسوابقه ، ما لم يتقدمه السابقون ، ولا سواه فيه القاصدون ، ولا لحقه الطالبون . . ولولا أنها كانت كالقبة المنصوبة فى الشهرة ، وكالشئ المحفوظة فى الكثرة لم يصل إلينا منها فى دهرنا حرف واحد ، إذ كان الأمر على ما وصفناه ! ! »^(١) .

وشهادة الواقع ناطقة ، لا تحتاج إلى ترجان .

فهؤلاء آل البيت ، فى كل صفحة من صحف التاريخ الإسلامى ، يُقيضون فى الناس فقههم وحكمتهم ، وأدبهم . . لهم فى كل علم ، وفى كل فن مكانُ الصدارة والقدرة ! وهم ليسوا إلا ثمرة هذا الفراس الطيب ، الذى مسه طيب النبوة ، وسرت فيه أعراق هذا الميراث الكريم فى أبناء على وفاطمة رضى الله عنهما ! .

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، لعلى بن أبى طالب :

« يا على . . لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق »^(٢) .

(١) رسالة أبى جعفر الإسكافى . فى نقض رسالته العثمانية للجاحظ . . ص ١٥

(ضمن مجموعة رسائل الجاحظ ، للسندوبى) .

(٢) وفى رواية : « لا يحبك منافق ، ولا يبغضك مؤمن » .

حُبَّ عَلَىٰ عِلَامَةُ صِحَّةِ الْإِيمَانِ لِلْمُؤْمِنِ وَسَلَامَتِهِ ، إِذْ كَانَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ
بِمَنْزِلَةِ الْأَنْخِ ، الَّذِي يَحْمِلُ مَعَهُ عِبَاءَ رِسَالَتِهِ ، وَيَشُدُّ أَزْرَهُ فِيهَا ، كَمَا يَقُولُ
الرَّسُولُ الْكَرِيمُ : « أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مَتًى بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى . .
إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي ؟ » .

حُبَّ عَلَىٰ مِنْ حُبِّ رَسُولِ اللَّهِ ، وَحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ
مَالَهُ ! . . .

أَمَّا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ دَخَلٌ ، وَفِي صَدْرِهِ ضَيْقٌ وَحَرَجٌ مِنْ دِينِ اللَّهِ ،
فَإِنَّهُ يَلْبَسُ الْإِسْلَامَ تَقِيَّةً ، وَبِأَخْذِهِ مَظْهَرًا ، ثُمَّ لَا يَجِدُ مَا يَنْفُسُ بِهِ عَنْ شَنَائِهِ
لِلْإِسْلَامِ ، وَاسْتِخْفَافِهِ بِهِ — وَهُوَ مَعَ هَذَا مُحْسَبٌ فِي الْمُسْلِمِينَ — إِلَّا بَعْضَ
مَنْ يَحِبُّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَانْتِقَاصَ مِنْ يُكْرِمُهُ وَيُدْنِيهِ مِنْهُ ! فَنَفَى هَذَا النِّفَاقَ
عَاشَ وَيَعِيشُ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُؤْذِنُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ
وَرَسُولَهُ ! .

أَمَّا مَنْ خَلَصَ قَلْبُهُ مِنَ النِّفَاقِ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي قَلْبِهِ إِلَّا الْحُبَّ الْوَثِيقَ ،
وَالْوَلَاءَ الْمُسْكِنَ لِآلِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَصَحَابَتِهِ ، الَّذِينَ صَحِبَهُمْ ، وَرَضِيَ صَحْبَتَهُمْ ،
وَفِي مَقْدَمَةِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا رَيْبُهُ وَابْنُ عَمِّهِ ، وَزَوْجُ ابْنَتِهِ ، وَوَالِدُ وَلَدِهِ
الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ .. عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَأَكْرَمَنَا بِحُبِّهِ ،
وَحُبِّ آلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَصَحَابَتِهِ .

« وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ
آلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَعَنْ صَحَابَتِهِ وَالْقَائِمِينَ ، وَتَابِعِيهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .
« وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

مراجع البحث

• نذكر هنا أهم المراجع التي كانت تحت نظرنا في إعداد البحث ..

أولاً : كتب التفسير :

— تفسير الطبري

— « ابن كثير

— « الزمخشري

— « القرطبي

ثانياً : كتب الحديث :

— صحيح البخاري

— « مسلم

— سنن أبي داود

— المحلى .. لابن حزم

— الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة .. للشوكاني

— نيل الأوطار

ثالثاً : كتب التاريخ والسير :

— وفيات الأعيان

— جوامع السيرة

— المعارف

— أنساب الأشراف

— الطبقات الكبرى

— الكامل

— أسد الغابة في معرفة الصحابة

— الإمامة والسياسة

لابن خلكان

لابن حزم

لابن قتيبة

للبلاذري

لابن سعد

لابن الأثير

لابن الأثير

لابن قتيبة

(م ٣٨ - علي بن أبي طالب)

- السيرة
— تاريخ الأمم والملوك
— مغازى الرسول
— الرياض النضرة فى مناقب العشرة
— رسالة العثمانية
— الرد على رسالة العثمانية
— تاريخ اليعقوبى
— تاريخ ابن أعم
— الفتنة الكبرى
— أحاديث أم المؤمنين وعائشة ...
الإمام جعفر الصادق
رابعاً : كتب أدبية وعقائدية :
— نهاية الأرب فى فنون الأدب
— العقد الفريد
— معجم الأدباء
— الأغانى
— نهج البلاغة
— نهج البلاغة
— البيان والتبيين
— الكامل
— الأموال
— الخراج
— الملل والنحل
- لابن هشام
الطبرى
للواقدى
للمحب الطبرى
للجاحظ
لأبى جعفر الإسكافى
للككتور طه حسين (عثمان ، وعلى وبنوه)
لمرتضى العسكرى
لأسد خيدر
لشهاب الدين الفويرى
لابن عبد ربه
لياقوت الحموى
لأبى الفرج الأصفهانى
شرح الإمام محمد عبده
شرح ابن أبى الحديد
للجاحظ
للمبرد
لأبى عبيدة
لأبى يوسف
لشهرستانى

موضوعات الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم	٧
مدخل إلى البحث	٣٥
مصادر القضية	
القرآن الكريم	٣٢
الأحاديث النبوية	٣٤
كتب المفازى والتاريخ والسير	٣٥
تاريخ محمد بن إسحق	٣٦
تاريخ السيرة لابن هشام	٣٩
الطبقات الكبرى لابن سعد	٤٠
الإمامة والسياسة لابن قتيبة	٤١
تاريخ الأمم والملوك للطبرى	٤٢
رجال القضية	
سروان بن محمد	٤٥
عبد الله بن سعد بن أبي السرح	٤٧
الوليد بن عقبة	٤٩
معاوية بن أبي سفيان	٥١
عمرو بن العاص	٦١
أم المؤمنين عائشة	٦٢
طلحة بن عبيد الله	٦٣
سعد بن أبي وقاص	٦٦
عبد الله بن مسعود	٦٩
عمار بن ياسر	٧١

الموضوع	صفحة
أبو موسى الأشعري	٧٣
عبد الله بن عمر بن الخطاب	٧٥
محمد بن طلحة	٧٧

المبحث الأول

حياة عليّ في صحبة الرسول

الباب الأول

من الجاهلية إلى الإسلام	٨١
في بيت النبي	٩٥
أوليته في الإسلام	٩٦
ليلة خالدة	١٠١
خاطرة	١٠٥

الباب الثاني

في مركب الدعوة

الفصل الأول :

في دار الهجرة	١١٠
-------------------------	-----

الفصل الثاني :

في معارك الإسلام	١٢٩
قتلى قريش	١٢٩
في معركة بدر	١٣١
« غزوة الخندق »	١٤٤

المبحث الثاني

حياة عليّ — في صحبته من بعد الرسول —

الباب الأول

مع أبي بكر وعمر	١٤٩
ابن أبي طالب بعد النبي	١٥٨
الامتحان الأول	١٦١
» الثاني	١٧٠
امتحان ثالث	١٧٤
في مجلس الشورى	١٨١

الباب الثاني

مع عثمان

عثمان وسياسة	١٩١
الصحابة وسياسة عثمان	١٩٤
ولاية عثمان	١٩٥
الوليد بن عقبة	١٩٦
عبد الله بن أبي السرح	٢٠١
مروان بن الحكم	٢٠٢
ثورة الكوفة وثوارها	٢١١
المدينة وصحابة الرسول	٢١٢
التورة والثائرون	٢١٢
عليّ بن أبي طالب وهذه الأحداث	٢٢٥
الحصار والقتل	٢٢٧
هذا الدم المراق !	٢٢٩

الباب الثالث

٢٦١	على والخلافة
٢٦٤	البيعة لعل
٢٧٢	المتخلفون عن البيعة
٢٨٣	على ودم عثمان
٢٩٠	بين على وعائشة
٢٩٠	خلاف قديم
٢٩٨	ابن عمر
٣٠٠	ما ذا في البصرة
٣٠٢	أحداث الطريق
٣٠٦	أصحاب الجمل في البصرة ؟
٣١٣	مسيرة على
٣٢١	وجهاً لوجه
٣٢٦	على يemذر أصحاب الجمل
٣٣٠	الحرب
٣٣٢	مقتل الزبير
٣٣٨	مقتل طلحة
٣٤٠	التحام القتال
٣٤٨	الراية المشثومة
٣٥٦	سكون العاصفة
٣٦٦	ما وراء حرب الجمل

الموضوع	الصفحة
بين عليّ ومعاوية	٣٧٣
بعد مقتل عثمان ،	٣٧٣
الحرب أولها الكلام	٣٧٥
الأحنف بن قيس	٣٩٠
عمار بن ياسر	٣٩١
الأشتر النخعي	٣٩٢
الأشعث بن قيس	٣٩٢
بين معاوية وعمرو	٣٩٥
معاوية وابن عمر	٤٠٢
معاوية وسعد بن أبي وقاص	٤٠٤
بين معاوية ومحمد بن سلمة	٤٠٧
معاوية وقيس بن سعد	٤٠٩
السياسة والدين	٤١٦
السيف والحيلة والخديعة	٤٧٢
الخديعة بالمصحف	٤٧٧
الخلاف في صفوف علي	٤٨١
الأشعث بن قيس	٤٩٠
التحكيم والحكماء	٤٩٧
الأشعري وابن العاص	٥٠٤
ما بعد التحكيم	٥١٤
الحوارج وما دخل عليهم	٥٢٩
مقتل الإمام	٥٦٠
خاتمة	
القتال بين المسلمين	٥٧٣
بين الدين والدنيا	٥٨٥

كتب للمؤلف

١ — قضية الألوهية . . بين الفلسفة والدين . . كتابان :
الكتاب الأول . . الله ذاتاً وموضوعاً
» الثاني الله . . والإنسان

٢ — النبي محمد صلى الله عليه وسلم : إنسان إنسانية ، ونبي الأنبياء

٣ — إيجاز القرآن . . كتابان :

الكتاب الأول . . الإعجاز في دراسات الأقدمين

» الإعجاز في مفهوم جديد

٤ — القضاء والقدر . . بين الفلسفة والدين

٥ — السياسة المالية في الإسلام

٦ — عمر بن الخطاب . . الوثيقة الخالدة ، للدين الخالد

٧ — من الحقل الإسلامي

٨ — الدعاء المستجاب

٩ — في طريق الإسلام . . دراسة كاشفة للمعوقات التي تعجز المسلمين عن

ثمرات الإسلام

١٠ — القصص القرآني

١١ — محمد بن عبد الوهاب (الدعوة الوهابية)

١٢ — الخلافة والإمامة . . ديانة وسياسة

١٣ — نشأة التصوف

١٤ — الأدب الصوفي . . في مفهوم جديد

١٥ — التعريف بالإسلام - ترجم إلى الانجليزية (المجلس الأعلى للشئون

الإسلامية)

١٦ — المسيح . . في القرآن ، والتوراة والإنجيل

نحت الطبع

أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه .



